دار قتيبة
للطباعة والنشر والتوزيع

الجزء الأول

مقارنة الأديان (١)

القرآن والتوراة

أين يتفقــان
و
أين يفترقان..؟

حسن الباش

مقارنة الأديان

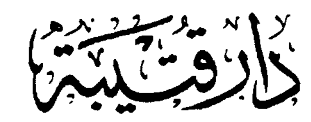
١

القرآن والتوراة

أين يتفقان
و
أين يفترقان ؟

الجزء الأول

حسن الباش



بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى ولدي قاسم

مِنْحـةُ اللَّـهِ وبـركتـُه

إلى كل محبٍّ لعقيدته ومدافعٍ عنها

حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الأول

منذ فجر التاريخ يتصارع أصحاب العقائد لاعتقاد كل طرف منهم أن عقيدته هي الأصح. وهي التي يجب أن تسود وتستعلي. ومع بروز الديانات الكبرى في الشرق بشكل عام احتد الصراع بين أصحاب العقائد حتى أخذ شكلاً دموياً في كثير من الأحيان. وامتدت آثاره حتى يومنا هذا ونحن على أبواب قرن جديد.

فاليهودية أنكرت المسيحية كما تحللت المسيحية من التعاليم المسلكية اليهودية وإن ظلت تعتبر التوراة مصدراً أساسياً، من مصادرها. والديانات الوثنية التي انتشرت في الهند وآسيا الجنوبية والصين واليابان راحت تنقض بعضها بعضاً وترفض الحديثة منها القديمة. فالهندوسية تحارب البوذية وتحاول أن تمتصها وكذلك العكس.

وهذه الصراعات التي لم تتوقف جرت بسبب التعصب الديني أو المذهبي ورفض الانفتاح الديني بين الشعوب.

وهذه هي الحال حتى جاء الإسلام فاختلفت نظرة الناس إلى الآخرين من أصحاب العقائد الأخرى فالقرآن الكريم تحدث عن التوراة والإنجيل وعن اليهودية والنصرانية وحتى أصحاب العقائد الوثنية وحث على المجادلة والحوار العقلي والحكمة والمنطق.

وقد صرح القرآن الكريم كثيرا بأن بين العقائد أو الرسالات السماوية نظرة مشتركة لوجود إله واحد لا تتم العبودية إلا له. وإيمانا برسل وأنبياء مهمتهم التبليغ وإيمانا بالحساب والعقاب وقد حث أصحاب هذه الرسالات على الرجوع إلى كلمة سواء بينها وهي ألا يشرك بعبادة الله الواحد شيء.

ومجرد الاعتراف القرآني بتلك الرسالات والعقائد يدفع المسلم وغير المسلم للاطلاع على الشرائع والمعتقدات الدينية إطلاعاً منفتحاً. يبعد عن التعصب والتحجر بسبب هوى شخصي أو جماعي وقد تصدى المسلمون الأوائل من مهتمين بالعقائد والديانات ومن علماء لدراستها دراسة حقيقية موسعة تستند إلى فهم واعٍ واتساع أفق.

وبدافع التوضيح قدّم هؤلاء العلماء في كتبهم ما غاب عن عقول الناس ونفوسهم أو اشتبه عليها فرأينا على سبيل المثال كتاب الملل والنحل للشهرستاني وكتاب الفصل بين الملل والأهواء والنحل للفيلسوف الإسلامي ابن حزم الظاهري الأندلسي. وكتاب الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي.

إضافة لذلك فقد حفلت كتب القدماء من علماء الإسلام بمواضيع قيمة ترتبط بتعريف الدين والفرق بينه وبين الفلسفة. فكان للإمام الغزالي رأيه وكذلك ابن خلدون. والإمام الشوكاني حيث تعرض لمقاصد القرآن والكتب المنزلة السابقة عليه.

إضافة لذلك فقد تصدى المعتزلة أمثال العلاف والنظام وواصل بين عطاء وغيرهم لأصحاب الزندقة من المجوس وحاوروا زعماء العقائد الأخرى. ويعود

الفضل في ذلك إلى عصر المأمون في الدولة العباسية الذي بلغ علم الكلام ذروته فيه.

وقد هضم علماء الأمة الإسلامية وفلاسفتها فلسفات الأمم الأخرى المرتبطة بالعقائد كالفلسفة الهندية واليونانية وغيرهما. واستطاعوا مناقشتها ونقضها والإتيان بإضافات مهمة عليها. وبمعرفة خصائص كل عقيدة نشأت ملامح علم يمكن أن نطلق عليه علم مقارنة الأديان بحيث أصبح من مهمة الباحث أو المطلع على العقائد وخصائصها أن يقارن بينها في مسائل كثيرة كالألوهية ومنشأ الخلق. والموت والبعث والحساب والعقاب إلى آخر ما هنالك من قضايا العقائد ومحتوياتها.

وقد يعتقد بعضنا أن هذا العلم يدرس التأثير بين العقائد تماماً كما هو الحال في الأدب المقارن حيث يدرس بروز التأثيرات المتبادلة في كل أدب ومدى ما أثر فيه الأدب الآخر مثلما نرى من تأثير المعراج لابن عربي في الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي دانتي. ومثلما نرى من تأثير شعري عربي في الشعراء الجوالين (التروبادور).

بينما يرى بعضنا الآخر أن مقارنة الأديان ليس من شأنها دراسة التأثر والتأثير إنما غايتها دراسة القضايا البشرية الكبرى المرتبطة بالإيمان والتشريعات والعبادات. والتصورات حول الخالق والمخلوق والخير والشر وما إلى ذلك.

وإذا وصلنا العصر الحديث وجدنا آراء بعض علمائنا في قضايا الدين فوجدنا رأي المفكر الإسلامي الفيلسوف محمد إقبال الذي يرى ويسلم بوجود أديان وصور فنية تحقق للإنسان رغبة الفرار المستخذي من حقائق الحياة ولكنه يفكر أن يشمل ذلك سائر الأديان. فالعقائد والآراء الدينية لها من غير شك أمارة ميتافيزيقية. وكذلك وجدنا المجدد جمال الأفغاني يدلو بدلوه في جانب آخر أن

الدين أمر واجب للمجتمع.

لكن علم مقارنة الأديان أصبح من العلوم المعترف بها في الغرب، له خصائصه وميزاته وتداخلاته مع علم الأساطير (الميثولوجيا) ومع علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم.

وقد قدمت في الغرب دراسات في بداية هذا القرن تقارن العهد القديم ـ التوراة ـ بالقرآن حتى ذهب بعضهم إلى القول إن القرآن نسخة مهذبة من التوراة.

وقد لجأ الباحثون العرب الحديثون والمعاصرون إلى مقارنة الأديان. ولكن هذا العلم على الرغم من قدم ملامحه وحتى علمائه فإن قلة من الباحثين المعاصرين العرب تصدوا له بمنهج علمي.

ومن أشهر من كتب في ذلك المفكر العربي عباس محمود العقاد في كتابين له. الله وإبليس، وقد درس كل منهما كافة الاتجاهات العقيدية لدى الشعوب القديمة ولدى أصحاب الرسالات الكبرى. وممن كتب في مقارنة الأديان الدكتور أحمد الشلبي حيث قسم بحثه في أربعة كتب. درس في الأول اليهودية وفي الثاني المسيحية وفي الثالث ديانات الهند الكبرى وفي الرابع الإسلام.

ويرى الدكتور الشلبي أن الطريقة التي سار عليها العقاد فيها من العثرات الكثير. وعليها ملاحظات مما جعل الباحثين يعزفون عنها.

ويرى الشلبي أن مباحث الأديان غير مشابهة. فتاريخ اليهودية له أثر كبير في عقيدتهم. لكن التاريخ الإسلامي ليس ذا أثر في العقيدة الإسلامية. وبوذا لم يتكلم عن الإله. ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم تكلم عنه وأفاض. وفي أديان الهند موضوع التناسخ وليست كذلك الأديان السماوية وقد لجأ الدكتور الشلبي إلى طريقة أخرى حيث خصص كتابا لكل عقيدة تدرس فيه مباحثه

العقيدة والتشريعات المختلفة مشفوعة بالمقارنة كلما وجد لها مجال.

ويرى الدكتور الشلبي أن هذا الطريق في البحث هو الذي يسير عليه أغلب الكتّاب. وقد قدم الدكتور موريس بوكاي كتاباً في المقارنة بين التوراة والإنجيل والقرآن. لكن الجانب الذي درسه جانب التوافق وعدم التوافق بين القرآن والتوراة والإنجيل والعلم الحديث فقارن بين معطيات علم الفلك والطب والجيولوجيا والقرآن الكريم، والتوراة والإنجيل الحاليين.

ومن الباحثين الذين تناولوا الأديان بالمقارنة. الدكتور محمد كمال جعفر حيث قدم ثلاثة كتب تكمل بعضها. وقد درس في الأول الإنسان والأديان واستعرض كثيراً من المباحث التي تعتبر تمهيداً للمقارنة بين العقائد والأديان.

وقد ترجم الدكتور إمام عبد الفتاح إمام كتاب المعتقدات الدينية لدى الشعوب دون أن يكون الهدف مقارنة المعتقدات إنما طغى على المنهج الجمع الموسوعي والكتاب من تأليف وإشراف جفري بارندر. ويساهم في إضافة بعض جوانب الفكر الديني القديم كتاب آخر لـ جون كولر الذي ترجمه كامل يوسف حسين وراجعه الدكتور إمام إمام.

ومن الكتب أيضاً كتاب الأديان المعاصرة وهو لـ راشد عبد الله الفرحان لم يتوسع في المقارنة وغلب عليه الاستعراض والإنجاز.

وبعض الكتب ساهمت أيضاً في إضاءة بعض الجوانب الدينية لدى الشعوب ككتاب الموت في الديانات الشرقية لحسين العودات.

ومن الكتب التي درست المعتقدات الدينية مرتبطة بالأساطير كتاب مغامرة العقل الأولى لفراس السواح ويغلب عليه جمع النصوص الأسطورية الدينية دون أي محاولة لمقارنة. وعلى الرغم من قلة الدراسات في مقارنة الأديان فإن الجهود تبدو حثيثة في هذا المجال مما يبشر بفهم أوسع ونتاج متنوع متميز

في هذا العلم الحديث.

أما بالنسبة للأسلوب فإننا نلاحظ ونحن نقدم هذه الدراسة المقارنة بين التوراة والقرآن أنه يمكن اللجوء إلى طريق ثالث في المقارنة. وهذا الطريق يدرس القضايا الكبرى التي يركز عليها القرآن وتركز عليها التوراة.

وهذه القضايا هي:

1 ـ الله والخلق الإلهي وأصل الأشياء.

2 ـ التاريخ البشري من خلال التصريح والتلميح والرمز وبعض القرائن المساعدة والدالة.

3 ـ الأنبياء والشخصيات الدينية وغير الدينية كما وردت في القرآن الكريم والتوراة.

ومن الطبيعي أن دراسة هذه القضايا الكبرى تسقط من حسابها بعض الأمور الجانبية. وذلك بسبب الغاية التي نرجوها من هذه الدراسة. وهي إيضاح ما يتوافق مع العقل والمنطق والوجدان في كلا الكتابين والرسالتين وتبيان استفادة العقيدة التوراتية من أساطير الشعوب الأخرى والتحقيق فيما كتب في التوراة ودون وإيضاح ذلك على ضوء ما صرح به القرآن الكريم حولها.

لقد أوضح الدكتور محمد كمال جعفر في كتابه الإنسان والأديان أن هناك طرقا عدة لمقارنة الأديان. فقسمها إلى: 1 ـ الطريقة النفسية وبين فيها خصائصها وأعلامها أمثال وليم جيمس وعلق على بعض الخصائص وأوضح بعض الملاحظات. 2 ـ والطريقة التاريخية الاجتماعية، وقدم فيها نماذج من الديانات المصرية واليونانية وأوضح بعض النقاط التي يجب التوقف عندها في المقارنة واستكمالا للدراسة فقد لجأنا إلى بعض الكتب القديمة والحديثة التي تناولت أنبياء إسرائيل ككتاب قصص الأنبياء لابن كثير. وكتاب مجلس

العرائس للثعلبي النيسابوري. وكتاب قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار. وهذا الأخير ذاع صيته بين القارئين في العالم العربي والإسلامي لما فيه من لغة سهلة وتحقيق جيد. ومع ذلك فإن بعض الملاحظات تؤخذ عليه وسنتعرض لها في حينها ولا سيما عند دراستنا لشخصيات الأنبياء.

وباعتبار أن التوراة التي بين أيدينا كتبت في عصور مختلفة وقديمة سبقت بعثة المسيح (ع) فإن ما يزيد في كشف الأمور التاريخية والعقيدية أساطير شعوب المنطقة وعقائدها ومدى تأثر كتاب التوراة بها.

وحسب معطيات التوراة فإن تاريخ العبرانيين أو التوراتيين من حيث وجودهم يبدأ منذ النبي موسى عليه السلام. فالأمور في ذلك واضحة لا يكتنفها غموض. ونستطيع أن نقارن هذا التاريخ بتسلسل قصة موسى (ع) كما وردت في القرآن الكريم.

إننا نعترف أن القرآن الكريم ليس كتاباً تاريخياً أو هو للتاريخ. غير أنّ الخطوط العامة فيه تردنا إلى معطيات تاريخية نستطيع أن تعتمد عليها كلياً في معرفة مفاتيح الأحداث ونتائجها. وإن كانت على مستوى الإنسان أو على مستوى الأحداث الكبيرة والصغيرة التي حدثت لبعض البشر أفراداً وجماعات.

لقد اعتمد بعض الباحثين الغربيين مقولة إن تاريخ العبرانيين يبدأ منذ النبي إبراهيم (ع) باعتباره الجد الأول لهم وللعرب. ويؤكدون ذلك من خلال دراسة السلسلة البشرية التي بدأت منذ إبراهيم عليه السلام حتى تصل إلى كافة الأنبياء لدى بني إسرائيل وبعض الأمم الأخرى كالعرب.

ويظل تاريخ إبراهيم (ع) غامضاً في كثير من خطوطه باعتبار أن تدوين التوراة جاء متأخراً جداً عن زمن إبراهيم. بيد أننا نستطيع أن نلمح بعض الخطوط الأخرى التاريخية والجغرافية والعقيدية التي أحيطت بإبراهيم كرجل عادي ثم كنبيٍ مرسل.

ولعل ظهور دعوته إلى التوحيد في عصر وثني يعطينا مؤشرات كثيرة ترشدنا إلى منهجه الديني الذي يختلف عما جاءت به التوراة. ومن هنا فإن المقارنة بين معطيات التوراة التاريخية ومعطيات المفاتيح القرآنية التاريخية تدلنا بشكل أو بآخر على المنطق التاريخي الصحيح والمسار التاريخي البعيد عن التخمينات والظنون.

وعندما نقول معطيات القرآن التي هي مفاتيح كبرى للتاريخ نؤكد مقولة المنطق والواقع بأن القرآن ليس كتاباً تاريخياً إنما هو كتاب الله ودستوره لبني الإسلام وللبشرية جمعاء. فيه إشارات ورموز وتلميحات وخطوط عامة ترشد الباحث إلى دراسة التاريخ بشكل مطمئن ومنطقي متوافق مع معطيات العلم والمنهج العلمي للدراسات. وسنرى ذلك في صفحات قادمة.

قد يخطر سؤال لأي منا ونحن نقدم منذ البداية افتراضات من المفترض أن تكون نتائج وليست مسلمات وبدهيات. هذا السؤال يقول إذا افترضتم أن التوراة قد دونت على مراحل استغرقت مئات السنين فكيف نقارنها بالقرآن الكريم وما بين الاثنين اختلاف جوهري في الأساس.

وبمعنى آخر إذا افترضتم أن التوراة التي بين أيدينا موضوعة وليست هي التي أنزلت على النبي موسى عليه السلام فكيف نقارنها بما أنزل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومن قرآن حفظ في زمنه وتكفّل الله بحفظه. ثم ما المبرر لمقارنة ذلك بذاك؟.

للسائل أن يفترض هذا السؤال.

ولكن للحقيقة والموضوعية نجد أن في التوراة كثيراً مما في القرآن في خطوطه العامة والقرآن الكريم يتحدث وفي أكثر من موضع أن التوراة حرفت. ولم تشر آية واحدة إلى أن التوراة كلها قد حُرِّفت.

فقد نجد تشابهاً في الأسماء وفي كثير من القضايا المرتبطة بالألوهية وأصل الخلق وكذلك قد نجد تشابهاً في الأسماء والأحداث التي جرت مع الأنبياء. ومثال ذلك ما نجده من تشابه في قصة يوسف أو بعض الأحداث التي جرت في الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، ولهذا السبب نقول: إن التوراة التي بين أيدينا تحوي قدراً معيناً مما أنزل على موسى عليه السلام، لكن المسألة تعود إلى ما زيد على ما أنزل أو نقص. وهذه الزيادة قد تخالف المنظور الديني والعقلي وقد تخالف أبسط قواعد العرف البشري. ولهذا تأتي المقارنة بين القرآن الكريم والتوراة لتكشف تلك الزيادات الخطيرة وذلك النقصان الذي يقلب أحياناً الأمور رأساً على عقب.

إن التشابه في كثير من القضايا والقصص والشخصيات في القرآن الكريم والتوراة تؤكد أن مصدر القرآن ومصدر التوراة الأصلية التي أنزلت على موسى هو مصدر واحد. مصدر سماوي إلهي. وهذا يقودنا إلى النصوص القرآنية التي تصرح بأن الرسالات السماوية سلسلة في حلقات. كل رسالة تأتي لتستكمل ما نقص في الرسالة السابقة، وهذا يعود إلى حكمة الله في مسايرة عقل الإنسان وتفكيره الديني وتطوره. وقد جاء القرآن الكريم ليختم تلك الرسالات، ولتكتمل الدائرة اكتمالاً واضحاً لتكون لكافة الناس منهجاً ودستوراً حياتياً وأخروياً.

ومع المقارنة نرى أن القرآن الكريم يصحح ما وقع فيه التوراتيون من تزييف وتحريف ونرى أن آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن التوراة وعن أنبياء بني إسرائيل جاءت في أقوى صورة من الدعم ومقارعة الحجة بالحجة الدامغة. ثم جاءت لتتوافق كل التوافق مع معطيات الدراسات التاريخية والعلمية المنصفة والموضوعية.

وعندما ندخل المقارنة بعمق ونتفحص شخصيات الأنبياء وندرسها جيداً نرى أن القرآن الكريم أنصفهم بما تستحقون. وهذا ما يجعل أحد أهداف هذه

الدراسة الدفاع عن هؤلاء الأنبياء والرسل، ودفع الشبهات عنهم، والتي نرى أن التوراة نفسها تدسها عليهم. ولذلك نرى أننا كمسلمين أحق الناس بالقرب من هؤلاء الأنبياء. فهم أولى بنا ونحن أولى بهم من اليهود أو من أي كان.

لقد وقع بعض الباحثين العلمانيين من عرب وغير عرب في مطب خطير حين قالوا عن موسى عليه السلام أنه قائد عسكري مجرم غاز إلى آخر ما هنالك من أوصاف لا تليق بنبي، وهذا الذي وقعوا فيه لا يستند إلا لمقولات التوراة التي صورت الأنبياء بصور لا تليق بهم.

وأعتقد أن هذا المطب الذي وقعوا فيه يصبح حجة لدى اليهود أنفسهم حتى يقولوا إن الآخرين ينكرون الأنبياء الذين اعترف القرآن بهم وبرسالاتهم.

ولهذا لابد من الانتباه لمرامي اليهود وأهدافهم، ولا سيما حينما يثيرون لدى الدارسين الشهية في البحث عن المثالب التي ألصقوها بالأنبياء والرسل.

ومقارنة التوراة بالقرآن توضح لنا كيف أخفى كتبة التوراة كثيراً من القضايا وكثيراً من صفات الأنبياء، والعديد من الشخصيات، وكيف أن القرآن الكريم أتى عليها إن كان تصريحاً أو تلميحاً. مع العلم أن هذه القضايا خاصة بالعقيدة اليهودية وأن هذه الشخصيات عايشت أنبياءهم وتقابلت معهم. وسنبين في حينه الأهداف التي يرمون إليها من وراء ذلك التنكر والاخفاء. لقد كان لقصة النبي موسى عليه السلام ولقائه بالخضر أو الرجل الصالح في القرآن الكريم شأن مهم في سورة الكهف. وقد أنكرت التوراة هذه القصة وهذا اللقاء وأنكرت أيضاً الرجل الصالح ووجوده.

ولفقت على إسحق ويعقوب وشوهت شخصية هاجر أم النبي إسماعيل (ع) كما أنكرت نهائياً توجّهَ النبي إبراهيم عليه السلام إلى مكة وبناءه الكعبة. كل ذلك لتضيق المجال التاريخي وتحصره فيما يخص العبرانيين واليهود. وتنكر على الشعب العربي والأمة الإسلامية أية صلة بهؤلاء الأنبياء والرسل ومن

ثم لتجردهم تماما من أية خاصية دينية لهم.

وفي المقارنة أيضا سنرى مدى التشويه التوراتي لحقائق التاريخ وحقائق العقائد الدينية، وسنرى أن آيات القرآن الكريم تدحض ادعاءاتهم وتكشف تزييفهم للحقائق. وتدافع عن الأنبياء وتنفي عنهم الشبهات التي دسها أصحاب التوراة عليهم.

وإذا كان الغرب يدعي انتسابه للمسيحية ولاسيما البروتستانتي منه ويدعي أن التوراة أو العهد القديم هو الكتاب المقدس المعول عليه في تفسير الماضي والمستقبل فإن المقارنة بين التوراة والقرآن الكريم تزيل الغشاوة عن أعينهم، وتبين أن هذا الكتاب الذي اعتمدوه أساسا دينيا لرؤيتهم العقيدية ما هو إلا كتاب غير مقدس يعج بالأسطورة والوثنية والترهات والسحر والشعوذات بل هو يعج بالانتهاكات الأخلاقية السافلة.

أما إذا كان بعض العلمانيين يرون أن القرآن الكريم نسخة عن التوراة أو أن القرآن استقى كثيرا من الأفكار من المانوية الفارسية كما يدعون فإن المقارنة توضح بالدليل القاطع أن القرآن الكريم كتاب سماوي معجز، فيه ما لم تأت به التوراة ولا غيرها من الكتب. واستشرف المستقبل لبني الإنسان وللكون حتى نهاية الحياة على وجه الأرض.

ولعل من أكثر الأمور التي شغلت التفكير الديني وخاصة اليهودي والغربي المتنصر ما جاءت به التوراة عن وعد إلهي لبني إسرائيل باحتلال وامتلاك أرض فلسطين وطرد سكانها منها وهذا الوعد المزعوم أصبح لدى الكثيرين من الباحثين والمهتمين بالدراسات الشرقية سندا يعودون إليه لتفسير الصراع بين قوى العالمين الغربي والإسلامي. حتى إن بعضهم يجعل التوراة المقياس الأول في دراسة آثار فلسطين وتاريخها ولاسيما القدس.

وقد تأثر بهذه المقولة كثير من العرب والمسلمين. وبالمقارنة يتبين كذب

التوراتيين حول هذا الوعد. فهناك من الآيات القرآنية ما تستلزم التوقف طويلاً لفهم دلالاتها اللغوية المتعلقة بأرض فلسطين التي خصها الله بالمباركة أكثر من مرة ووضح فيها أن أرضها سيرثها العباد المخلصون من أمة الإسلام فهي أرضهم ووعد لهم وحق.

لقد تحدثت التوراة عن تاريخ العبرانيين بما فيه من تناقضات كبرى في المجرى التاريخي، وبما فيه من تناقض في المفاهيم والقيم. فنزل القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم ليبين ما التبس على الناس من حكايات التوراة المتعلقة بالله وبالأنبياء والتاريخ. لقد كانت التوراة التي بين أيدي اليهود سبباً للتماهي النفسي عندهم، وباباً للكبر والاستعلاء على الأمم ولما لم يكن بين العرب من يعرف خفايا التحريف اليهودي للتوراة فقد سقطت عقولهم في متاهات الادعاءات اليهودية والتأليف الذي تطاول على كل مفاهيم الدين والعقائد.

وما إن أنزل القرآن الكريم على قلب محمد صلى الله عليه وسلم حتى أخذت الحقائق تظهر تباعاً فجن جنون اليهود لأنهم أدركوا أن هذا الكتاب هو من عند الله وليس من صنع البشر. وأنه فضح أكاذيبهم وتاريخهم وصحَّح ما ران على العقول والنفوس من مغالطاتهم، حاربوا النبي محمد صلى الله عليه وسلم وحاولوا قتله لأنهم أدركوا أن رسالته سماوية وأن ما أخفوه من تعاليم النبي موسى عليه السلام لن يبقى مخفياً، وإن ما جاء في القرآن الكريم وما جاء في التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام لا يتعارضان ولا يتناقضان.

ولما كانت مصلحة أحبارهم وزعمائهم تقتضي الحفاظ على أسرارهم لئلا تتهدد مصالحهم حاربوا الإسلام بشتى السبل.

لقد جادلهم القرآن الكريم وجادلهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم وبين لهم ما أخفوه فارتدوا خائبين موقنين أن النبي الذي يختم الأنبياء لن يكون منهم. وسقطت كل أفكارهم وحججهم أمام القرآن الكريم الذي تعهد الله بحفظه من الدس والتحريف.

تمهيد

من أين نبدأ وأين ننتهي؟ وموضوعنا شائك السبل معقد الطرق، هل نبدأ بالسؤال عن التوراة؟ كيف أنزلت أم كيف دونت؟ أين يقع التحريف وأين تقع الحقيقة؟ ما هي أوجه الخلاف بين التوراة وبين القرآن الكريم؟

أم نأخذ بما هو موجود في التوراة على شكله الذي وصلنا ونقارن بينه وبين القرآن؟ حقيقة الأمر محير إلى حد بعيد. فالطرح السابق على الآخر أيا كان منهما تحفه المخاطر والتساؤلات ولابد من تجاوز المخاطر والإجابة عن التساؤلات.

ماذا نقدم وماذا نؤخر؟ هل نبدأ بقصة الخلق وهي التي عجزت أمامها العقول وحارت بشأنها الألباب؟ هل نتجاوز هذه المسألة ورموزها موجودة في التوراة كما هي موجودة في القرآن؟ أم نبدأ بالحديث عن آدم باعتباره أول مخلوق وأسهبت التوراة في الحديث عنه كما تحدث عنه القرآن وأسهب؟

ولنعد أدراجنا إلى الوراء ونبحث عن الأسباب الدافعة للخوض في بحث كهذا ثم نبحث عن الغاية من ذلك.

يقول بعض الغربيين لاسيما الوجوديون: إن القرآن نسخة مهذبة عن التوراة.

ويقول آخرون: القرآن أملي على محمد صلى الله عليه وسلم ولم ينزّل من السماء.

ويقول آخرون: كتب القرآن ليلخِّص تجارب الشعوب الدينية ومعتقداتها.

ولا يزال اليهود لا يعترفون برسالة السماء لمحمد صلى الله عليه وسلم. وينكرون على أمه القرآن الكريم إسلامها وعقيدتها.

فلنجادل بالتي أحسن من أحب الجدال. والإقناع والقناعة والاقتناع. حوار مع العقل، والقرآن يحاور العقل. ليس فيه قمع ولا إكراه ولا إجبار على اعتناق المبادئ ولا قسر ما يوافق العقل والمنطق فلتأخذ به البشرية وما يخالف العقل والمنطق فليرفضهُ العاقلون ويسخر منه ذوو الألباب، وليعترف الإنسان أي إنسان بأن التجرد عن الهوى والتعصب والاقتراب من الموضوعية هما السبيل لإحقاق الحق ودحض الباطل.

هذه هي التوراة بين أيدينا نقرأها سطراً سطراً وإصحاحاً إصحاحاً وسفراً سفراً. وهذا هو القرآن الكريم بين أيدينا فلنقرأه آية آية وسورة سورة. ولنضع موازين العقل لمن أحب أن يزن بميزان العقل البشري الواعي الناضج.

فالتوراة مجموعة أسفار تصل تسعة وثلاثين سفراً. منها أسفار خمسة أولى تقول بعض الفئات اليهودية: إنها هي التوراة وما عداها لا نعترف عليه. إنها حسب عقيدة اليهود السامريين أسفار موسى التي أنزلت من السماء وما عداها كتابات كتبها أحبار وحاخامات على مدى تجاوز السبع مئة سنة.

والتوراة مجموعة كتابات لاهوتية وتاريخية دونت لشريعة أتباعها وتاريخهم، والكلمة بحد ذاتها تعني الشريعة أو التعاليم الدينية. وأسفارها كما قلنا غير متفق عليها، فبعض أحبار اليهود يضيفون أسفاراً لا يقبلها أحبار

آخرون. والمسيحيون المؤمنون بالتوراة يزيد الكاثوليك منهم سبعة أسفار مما يعتقد به البروتستانت وقد درج الكاثوليك على تقسيم التوراة تقسيماً آخر فهم يقسمونها إلى ستة وأربعين سفراً تندرج تحت خمسة أقسام هي:

أ ـ أسفار موسى الخمسة التي تتضمن شريعته.

ب ـ أسفار تاريخية وعددها 16 وهي: يشوع ـ القضاة ـ راعوث ـ الملوك الأول والثاني والثالث والرابع ـ أخبار الأيام الأول ـ أخبار الأيام الثاني ـ عزرا نحميا ـ طوبيا ـ أستير ـ يهوديت ـ المكابيون الأول والثاني.

جـ ـ أسفار شعرية وعددها ستة وهي: أيوب ـ المزامير ـ أسفار سليمان الثلاثة الأمثال والجامعة ونشيد الأناشيد ـ مراثي إرميا.

د ـ أسفار نبوية وعددها 17 وهي: أشعيا ـ أرميا ـ باروخ ـ حزقيال ـ دانيال ـ هوشع ـ يوئيل ـ عاموس ـ عوبيديا ـ يونان ـ ميخا ـ ناحوم ـ حبقوق ـ صفنيا ـ حجَّى ـ زكريا ـ ملاخي.

هـ أسفار تعليمية وعددها إثنان هما سفر الحكمة ويشوع بن سيراخ.

والعهد القديم على العموم سجل فيه شعر ونثر وحكم وأمثال وقصص وأساطير وفلسفة وتشريع وغزل ورثاء مع بلاغة أسلوب وفصاحة عبارات في كثير من الحالات[1].

والقرآن الكريم كتاب الله الذي أنزله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي وفيه 114 سورة. وقد اختلف المسلمون في تعريفه ولاسيما ما يتعلق بالكلام الذي فيه والمأثور عن أئمة الحديث والسنة قولهم إنه تعالى لم يزل متكلماً إذ شاء ومتى شاء وكيف شاء. وهو يتكلم به بصوت يسمع وأن نوع

---

(1) د. أحمد شلبي. مقارنة الأديان. اليهودية ص232.

الكلام قديم وإن لم يكن للصوت المعين قديما[1].

وقد ظهرت تسعة تعريفات للقرآن الكريم وكل تعريف نابع من موقف أصحابه كالمعتزلة الذين قالوا إن القرآن مخلوق، وكالصابئة والفلاسفة الذين قالوا إن كلام الله فيض يفيض على النفوس من معان.

ومن المعاصرين من قال إن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه وهو ليس بمخلوق بل تنزيل من حكيم وهذا معتقد أهل السنة والجماعة قديما وحديثا[2].

والقرآن الكريم تنزيل من الله معجز، الإعجاز فيه يتحدى العرب بلغتهم ومعارفهم وتفكيرهم وهو المعجزة الأبدية إلى يوم القيامة تعهد الله بحفظه من التحريف والتشويه والاندثار (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون). سورة الحجر الآية 9.

وتحدى ربنا الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله ولكنهم يعجزون أمام هذا التحدي لأن القرآن كلام الله عز وجل وليس من صنع بشر. وما كان من الله سبحانه فهو معجز للعقول مهما بلغ ذكاؤها ومعجز للألباب مهما بلغت حيلها وأساليب إبداعها.

وقد دون القرآن الكريم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. فكلما نزلت آية كان يشير صلى الله عليه وسلم على أصحابه أن يضعوها في المكان كذا والمكان كذا من السورة. وما إن رحل إلى الرفيق الأعلى حتى كان القرآن الكريم قد دون متكاملا إضافة لحفظه من قبل المسلمين وخاصة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إنه أمر الله وإرادته أن يحفظ القرآن في الصدور وفي السطور، لا يزاد عليه

---

(1) د. كامل موسى. د: علي دحروج. كيف نفهم القرآن. ص19.

(2) المرجع السابق صفحة 20.

ولا ينقص منه ليظل دستور المسلمين والبشرية لا ينقضي بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يتغير بتغير الأجيال.

واعتمد التوراتيون في شرح نصوص التوراة على ما أورده أحبارهم من تفصيلات في المشنا والجمارا وفيهما أحاديث مطولة عن طبيعة الشريعة التوراتية وما يرتبط بها من توصيات عقيدية وحياتية تخص العبادات والمعاملات اليهودية.

وبسبب من التغيرات التاريخية والاجتماعية التي طرأت على اليهود ولاسيما بعد السبي وما تبعه من تشريد أخذ علماء اليهود وأحبارهم بكتابة التلمود الذي يوضح رأي الكهنوت اليهودي في العلاقة بين اليهودي وغيره من أبناء الأمم والشعوب. ولا يستطيع الباحث أن يصل إلى حقيقة العقيدة اليهودية دون الاطلاع على تعاليم التلمود.

وقد كتب هذا التلمود في زمن السبي البابلي للعبرانيين، ويبدو أن الأهداف السياسية والعرقية لعبت الدور الأول في تدوينه. وكان اليهود آنذاك أشد حاجة لجمع النصوص اللاهوتية الداعية للحفاظ على تعاليمهم وذلك خوفا من الاندماج والاندثار. لاسيما أنهم تعرضوا لأكثر من سبي وأكثر من تشريد.

وفي المحصلة فإن ما ورد في التلمود من تشريعات وتصورات للعقيدة اليهودية لا ينفصل عما جاء في التوراة وهما مصدران أساسيان من مصادر هذه العقيدة.

ولاشك أن في القرآن الكريم ما يفسر بعضه بعضا، غير أن السنة النبوية الشريفة وما جاء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتبر المصدر الثاني من مصادر العقيدة الإسلامية بعد القرآن. وكثيرة هي الأمور التي لا يمكن فهمها دون الرجوع إلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يجوز لمسلم أن يتجرأ على تفسير بعض القضايا باجتهاداته الشخصية دون الرجوع إلى القرآن

الكريم والسنة النبوية الشريفة.

إن القرآن الكريم معجز في ألفاظه ومعجز في معانيه، وفي الوقت نفسه معجز لعقل الإنسان مهما بلغ من التبصر. فكان لابد من العودة إلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يتضح ما أشكل على العقول ويفهم ما قد التبس على أبناء الأمة الإسلامية.

إن قضايا كثيرة منها ما يخص الأنبياء ومنها ما يخص الحوادث جاءت في القرآن الكريم بشكل موجز جدا وبعضها الآخر أشار لها القرآن إشارة أو رمز لها رمزا. ولو بقيت دون إيضاح من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرف المسلمون إلا النزر عنها أو أنهم سيقفون عاجزين أمام تفسيرها أو فهمها أو وعي ما ترمي إليه.

وقد أدخل التوراتيون كثيرا من الدس على الدين الإسلامي لاسيما فيما يتعلق بأمور الخلق وتاريخ البشرية. وخلطوا بين الأساطير والحقائق. وقد تنبه المسلمون لهذا الدس وحذروا منه. لكن كثيرا منه اختلط على بعض الرواة والمفسرين والمؤرخين المسلمين فأتوا به في سياق رواياتهم مما أوحى بالتالي للأجيال المتعاقبة أن هذه الأخبار أو هذه الأساطير جاءت في جوهر العقيدة. وهذا ما أثر سلبا على طريقة فهم الإسلام لاسيما لدى الدارسين والباحثين الغربيين واليهود.

ولهذا كانت العودة إلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتحقق مما ورد على لسانه عن طريق التبصر بعلم الحديث واجبة حتى يظهر الحق من الباطل والحقيقة من الخيال.

الفصل الأول

التكوين التوراتي والحقائق القرآنية

التكوين التوراتي والحقائق القرآنية

التكوين التوراتي يجمع بشكل مختصر جداً قصة خلق الله للسموات والأرض والحيوانات ومن ثم الإنسان (آدم ع في إصحاح واحد فقط وهو الإصحاح الأول من سفر التكوين. وفي الإصحاح الثاني يبدأ الحديث عن آدم باعتباره أول مخلوق خلقه الله من تراب، وتتحدث التوراة في هذا الإصحاح عن الجنة وكيفية حياة آدم فيها. ثم تتحدث بشكل سريع عن خلق الله سبحانه لحواء. وتنتقل إلى الحديث عن الحية وإغواء آدم وزوجه، والخطيئة والهبوط من جنة الخلد إلى الأرض. ويتحدث الكتاب في الإصحاح الرابع عن ولديْ آدم قابيل وهابيل وكيف قتل الأول الثاني. وبسرعة هائلة ينتقل إلى الحديث عمن ولدهم قايين وشيث. وقد ركزت التوراة على ذكر أبناء شيث ومنهم أخنوخ حتى يصل الحديث عن نوح وأولاده سام وحام ويافث وعمله في السفينة حتى قيام الطوفان).

وفي الإصحاح الثامن تذكر التوراة مسير سفينة نوح (ع) في البحر ثم هدوء الطوفان واستقرار الفلك على جبال أراراط. ثم تتحدث عن استقرار نوح وأبنائه في الأرض وعملهم فيها. وينتقل للحديث عن أبناء نوح وشعوبهم وتوزعهم في الأرض. وبدأ من الإصحاح الثاني عشر يأخذ الحديث مجرى آخر حيث يتحدث عن إبراهيم ورحلته وأبنائه ويذكر موت إبراهيم في الإصحاح الخامس

والعشرين من سفر التكوين. ويتتابع الحديث عن أبناء إبراهيم إسماعيل وإسحق ويعقوب وعيصو ومن ثم يوسف والأسباط في السفر الخمسين.

هذا ملخص سفر التكوين الذي يمكن للمرء أن يصل له دون الخوض في التفصيلات. والواضح أن التوراتيين أرادوا من هذا السفر إيضاح سلسلة أنساب بشرية تبدأ من آدم وتنتهي مؤقتاً عند يوسف، باعتبار أن هذه السلسلة هي التي تمخض عنها أبناء إسرائيل عن طريق الانتخاب والانتقاء.

وإذا نظرنا إلى التكوين الغيبي للسماء والأرض وخلق الجبال والحيوانات وجدنا أنه لا يستغرق في هذا السفر سوى صفحة واحدة، أو إصحاح واحد حيث يبدأ الحديث عن آدم وعن السلسلة البشرية إلى النبي يوسف.

يبدأ الإصحاح الأول في القول: (في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه وقال الله ليكن نور فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

وقال الله ليكن جلد في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً.

وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً. ومجتمع المياه دعاه بحاراً. ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه بزره فيه على الأرض، وكان كذلك فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً كجنسه وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً.

وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآياتٍ وأوقاتٍ وأيامٍ وسنين. وتكون أنواراً في جلد السماء لتنير على الأرض وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل. والنجوم. وجعلها الله في جلد السماء لتنير ولتحكم على الليل والنهار ولتفصل بين النور والظلمة، ورأى الله ذلك أنه حسن وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً.

وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه ورأى الله ذلك أنه حسن وباركها الله قائلاً أثمري واكثري واملأي المياه في البحار وليكثر الطير على الأرض وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً.

وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها وكان كذلك. فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها ورأى الله ذلك أنه حسن وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعا ى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته. وعلى صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم الله وقال لهم أثمروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض. ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً.

فأكملت السموات والأرض وكل جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً.

«هذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات، كل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض ولا كان إنسان ليعمل الأرض. ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض، وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حية. وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً. ووضع هناك آدم الذي جبله. وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل. وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة. ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد هناك المقل وحجر الجزع، واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش، واسم النهر الثالث حدّاقل وهو الجاري شرقي أشور والنهر الرابع الفرات».

هذا ما جاء في الإصحاح الأول من سفر التكوين عن مسائل خلق الله للسماوات والأرض والليل والنهار والمياه واليابسة والحيوانات والنباتات والإنسان.

ويبدو أن ما جاء في هذا الإصحاح يصدر من مصدرين. والفقرات التي وضعناها بين قوسين تنفصل عما قبلها في الأخبار من ناحية وفي الصيغة من ناحية أخرى، وفي الاختصار من ناحية ثالثة. وسنعود لمناقشة ذلك بعد أن نورد الآيات القرآنية التي تحدثت عن الخلق.

يقول تعالى في سورة البقرة الآية 29: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم).

ويقول تعالى في سورة الحديد الآية 4: (هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش).

ويقول تعالى في سورة الملك الآية 3: (الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور).

يقول تعالى في سورة الأعراف الآية 54: (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام)، ويقول تعالى في سورة فصلت من الآية 1 ـ 12: (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم).

ويقول تعالى في سورة النازعات من الآية 27 إلى الآية 33: (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم).

ويقول تعالى في سورة الأنبياء الآية 130: (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون).

ويقول تعالى في سورة المؤمنون الآية 17: (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين).

ويقول تعالى في سورة نوح الآيتين 15 ـ 16: (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً. وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً).

ويقول تعالى في سورة النبأ الآيتان 12 و 13: (وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً).

ويقول تعالى في سورة الفرقان الآية 59: (الذي خلق السموات والأرض وما

بينهما في ستة أيام).

ويقول تعالى في سورة ق الآية 38: (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسّنا من لغوب).

ففيما ورد في التوراة وما ورد في القرآن الكريم نرى أن عدة أيام الخلق ستة أيام وقد صرح بكلمة (ستة) القرآن الكريم في كثير من المواضع. كما أن التوراة صرحت بأن الرب أنهى عمله في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع.

غير أن التوراة يصرح بأن الله خلق السموات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة. أما كيف خلق السموات والأرض فهذا لم تصرح به التوراة. ولأي من البشر أن يتساءل عن الأصل الذي كانت عليه السموات والأرض أو أن يسلّم تسليماً نهائياً بأن السموات والأرض خلقتا هكذا وهذا ما قاله الرب وكفى.

وحينما ننظر مليّاً في آيات القرآن الكريم نرى أن عملية الخلق الكوني لم تصبح واقعاً إلا بعد أن تمت عملية فصل كبيرة بين الأجرام السماوية.

ففي سورة الأنبياء يقول تعالى: (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما).

وعملية الفتق هذه تمت قبل أن تخلق السماء وقبل أن تخلق الأرض. فالأرض والسماوات كانتا كتلة واحدة ثم انفصلت فصارت هنا أرض وصارت هناك سموات وإذا عدنا إلى نظريات العلم الحديث التي تناولت كيفية تشكل الأرض والكواكب والشمس نجد أنها تتوافق مع ما نص عليه القرآن على الرغم من أن هذه النظريات تبقى في باب التوقعات القريبة من الصحة لأنها استندت على دراسات واسعة تناولت طبيعة الأرض وجيولوجيّتها وكذلك الكواكب والشمس وبقية الأجرام السماوية.

لقد أشار القرآن إلى عملية الفتق بين شيئين ملتحمين.

وحين ننظر إلى قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً...) فالدراسات الجيولوجية ترى أن عملية الانفجار الكبرى التي نتج عنها تكوُّن الأرض وبقية الأجرام السماوية شكلت كتلة غازية هائلة. وهذا أمر طبيعي يتوافق مع أبسط قواعد العقل والمنطق. فالبركان الذي ينفجر يخلف كتلة غازية هائلة تنتشر على مساحات شاسعة من الفضاء وهي عبارة عن ذرات قد تكون فيها مواد.

فقوله تعالى استوى إلى السماء وهي دخان إشارة واضحة إلى وجود كتلة غازية ذات جزئيات. والدخان نفسه يتكون من قوام غازي حيث تعلق به بشكل أكثر أو أقل ثبوتاً جزئيات دقيقة قد تنتمي إلى حالات المواد الصلبة أو حتى السائلة مع درجة في الحرارة قد تقل أو تكثر[1].

وعندما نعود إلى قوله تعالى كانتا رتقاً ففتقناهما نرى أن تتمة الآية تقول: (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون).

وهذا الإرداف لم يأت عبثاً فالفتق الذي تم بين السموات والأرض وما لحقه من تشكل كتلة غازية وانفجارات في الأرض لا بد أن تتبعه عملية تبريد ولن يتم ذلك إلا بالماء.

فهناك غازات ـ دخان ولا شك أن تشكل المطر يتم بوجود الغيوم التي هي عبارة عن غازات وبخار. وإذا تخيلنا الكتلة الغازية بحجمها الذي نتج عن انفجار الفتق بين السموات والأرض لأدركنا أن الأرض وبعض الكواكب ما كانت لتتبرد لولا هطول الأمطار الغزيرة الواسعة النطاق والتي شملت الأرض كلها وقوله تعالى (كل شيء حي) يشمل الحيوان والنبات وكل ما هو مخلوق محتاج للحياة.

---

(1) موريس بوكاي. القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص: 163.

فبدء الخلق ابتدأ بفصل الأرض عن الأجرام السماوية، ثم تبريد القشرة الأرضية بواسطة الماء ثم خلق كل شيء حي على وجه الأرض بسبب وجود الماء.

وطبيعي أن الآية هنا (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانت رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي)، توجز عدة عمليات كونية لا يقدر إنسان أن يقدر زمنها بدقة لأنها ليست من اختصاص من لم يكن شاهداً عليها، إن ما جاء به العلماء فرضيات قد تكون صحيحة أو لا تكون.

بعد ذلك يستطيع المرء متابعة عملية الخلق كما وردت في التوراة وكما وردت في القرآن الكريم ليرى مدى الاتفاق ومدى الاختلاف.

(ففي اليوم الأول خلق الله السموات والأرض وحسب قول التوراة (والأرض خربة وروح الله يرف على وجه الماء).

(وقال الله ليكن نور. ثم فصل بين النور والظلمة ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً.

وفي اليوم الثاني هناك جلد في وسط المياه. ثم فصل بين الجلد الذي تحت الماء والجلد الذي فوقه ودعا الله الجلد سماء. وفي اليوم الثالث تجتمع المياه تحت السماء وتظهر اليابسة ودعا الله اليابسة أرضاً. ثم خلق الله النباتات.

وفي اليوم الرابع خلق الله الأنوار في السماء لتفصل بين الليل والنهار.

وفي اليوم الخامس يخلق الله الحيوانات والطيور من زحافات وتنانين كبار.

وفي اليوم السادس يخلق البهائم وجميع دبابات الأرض والإنسان).

فمن خلال ما ورد نرى أن الله خلق في اليوم الأول أرضاً خربة وخلق

النهار من ظلمة نور.

ثم في اليوم الثاني استكمل الله بناء السماء ودعاها سماء وظهرت اليابسة.

ثم مرة أخرى في اليوم الثالث تجتمع المياه بينما كانت روح الله ترف على الماء في اليوم الأول.

ومرة أخرى في اليوم الرابع يخلق الله الأنوار في السماء بينما خلق الله النور وسماه نهاراً منذ اليوم الأول.

وفي اليوم الخامس تخلق الحيوانات والطيور وفي اليوم السادس أيضاً تخلق حيوانات وطيور، فالواضح أن خلطاً يقع بين ما يخلقه الله في اليوم الأول واليوم الرابع وبين اليوم الخامس واليوم السادس بينما يظل الحديث غامضاً في اليوم الثاني، واليوم الثالث.

يقول موريس بوكاي. إن الضوء الذي يقطع الكون هو نتيجة ردود أفعال معقدة تحدث في النجوم، ولكن النجوم حسب قول التوراة لم تكن قد تشكلت بعد في هذه المرحلة حيث أن أنوار السموات لا تذكر في سفر التكوين إلا في الآية 14 باعتبارها ما خلق الله في اليوم الرابع ليفصل بين النهار والليل ولينير الأرض. ولكن من غير المنطقي أن تذكر النتيجة الفعلية أي النور في اليوم الأول على حين تذكر وسيلة إنتاج هذا النور في اليوم الرابع[1].

ويرى المرء أن خلق الشمس تم في اليوم الرابع بينما خلقت النباتات في اليوم الثالث. فكيف يمكن أن نرى عالم نباتات تحيا وتتناسل قبل أن تكون الشمس؟ وهي العنصر الأهم في وجود النباتات واستمرار حياتها؟.

ولنعد إلى آيات القرآن الكريم وكيف تحدثت عن الأيام الستة وما تم فيها من خلق السماوات والأرض وما بينهما.

---

(1) موريس بوكاي. القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص: 41.

في الآيات تارة يتقدم خلق السماوات على خلق الأرض وتارة أخرى يتقدم خلق الأرض على خلق السماء فهل خلقت السماء قبل خلق الأرض أم أن الأرض خلقت قبل السماء؟.

ظاهر الآيات يشير إلى تقدم خلق واحدة على الأخرى. فالآيات التي تشير إلى خلق الأرض أولاً قليلة. وهي في سورة البقرة الآية 29 وسورة طه الآية4 وسورة فصلت الآيات من 9 ـ 12. ويوجد عدد كبير من الآيات يشير إلى خلق السموات أولاً كما في سورة الأعراف الآية 54 وسورة يونس الآية 3 وسورة هود الآية 7 وسورة الفرقان الآية 59 وسورة السجدة الآية 4 وسورة ق الآية 38 وسورة الحديد الآية 4 وسورة النازعات الآيات من 27 إلى 33. وسورة الشمس الآيات من 5 ـ 10.

وعندما نعود إلى قوله تعالى: (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما)، نجد أن عملية خلق السموات والأرض تمت في آن واحد. والفتق الذي أجراه الله فصل الأرض عن السموات في لحظة واحدة أي في وقت واحد. ووجود آيات تتحدث عن خلق السموات قبل الأرض وآيات تتحدث عن خلق السموات بعد خلق الأرض دليل على تداخل عملية الخلق. ولم تحدد آية واحدة خلق إحداهما على الأخرى بوجود قرينة لفظية كقولنا مثلاً: خلقنا السماء قبل أو بعد وواو العطف التي تعطف الأرض على السماء أو تعطف السماء على الأرض لا تعني سوى الملاصقة فهي لا تدل على استغراق في الوقت.

أما قوله تعالى في سورة فصلت من 1 ـ 12: (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحي في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا

بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز والعليم).

فظاهر الآية يدل على أن عملية الخلق تمت في ثمانية أيام. يومين لخلق الأرض وأربعة أيام لخلق الجبال والأقوات ويومين لخلق السموات السبع.

ومن ناحية ثانية يدل ظاهرها على أن الأرض خلقت قبل السماوات ولكن المدقق في الآيات يرى ما يلي:

خلق الله الأرض في يومين واستوى إلى السماء، إذاً فالسماء كانت موجودة قبلَ الاستواء وهذا يعود بنا إلى أصل الفتق الذي تم في آن واحد لتشكل الأرض وتشكل السماء، لكن الذي يفهم من الآيات إعجاز الله لعقل الإنسان. فالآية تستنكر موقف الكفار الذين كفروا بالله وهو الذي خلق الأرض في يومين. فليس المقصود تحديد ما خلق الله أولاً إنما المقصود إظهار معجزة الله في خلق الأرض، في يومين.

وعملية الخلق تمّت في ستة أيام وليس في ثمانية. إذ أن خلق الجبال والأقوات تم في أربعة أيام بدءاً من اليوم الأول الذي تم فيه خلق الأرض. أي أن خلق الجبال والأقوات استغرق أربعة أيام من ضمنها اليومان اللذان بدأ الله فيهما خلق الأرض ولا تبدأ الأيام الأربعة بعد انتهاء اليومين اللذين خلقت فيهما الأرض.

فالأرض موجودة والسماء موجودة كما أشرنا في آن واحد أما قوله تعالى استوى إلى السماء وهي دخان فالسبب في ذلك كما هو واضح في الآيات استكمال عملية الخلق. ففي يومين خلق الله سبع سماوات وأوحى في كل سماء أمرها وزين السماء الدنيا بالنجوم لتضيء ما بين السماء والأرض أما طبيعة زمن هذه الأيام فنرى صورتين متناقضتان بين القرآن والتوراة.

فالتوراة تحدد اليوم بقولها وكان صباح وكان مساء أي أن اليوم هو يوم

محدد ببدء الصباح وانتهاء المساء وهذا ما يوافق أيامنا التي نحياها إلى اليوم.

أما في القرآن الكريم فاليوم لم يحدد بدؤه ولا انتهاؤه. وقد اختلف علماء المسلمين في تحديد هذه الأيام هل هي أيام كأيامنا هذه أم هي أيام زمنها يعود لتقدير الله سبحانه.

وقد وردت آيتان الأولى في سورة السجدة الآية 5 وفي سورة المعراج الآية 4 تشيران إلى أن اليوم قد يكون ألف سنة مما تعدون. وقد تكون خمسين ألف سنة.

يقول تعالى في سورة السجدة الآيتان 4 ـ 5: (الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون).

ويقول تعالى في سورة المعراج الآية 4: (تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة).

ونأتي إلى اليوم السابع الذي تحدثت عنه التوراة في تكوينها حيث قالت: (وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً).

فالتوراة تفترض أن الرب استراح من عناء العمل الذي استغرق ستة أيام. والمقياس هنا مقياس بشري ذي نواميس دنيوية وليس ذا نواميس إلهية خاصة بالله.

أما القرآن الكريم فيجيب على هذا الإفتراض بأن الله خلق السموات والأرض وما بينهما ولم يمسه تعب فهو الله الخالق القادر على كل شيء.

يقول تعالى في سورة ق الآية 138: (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسّنا من لغوب).

ويقول تعالى في سورة الأحقاف الآية 33: (أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن). ففي الآيتين السابقتين يتضح لنا أن القرآن يرد قول الذين افتروا على الله وقالوا إنه استراح بعد خلقه للسموات والأرض. فالله منزه عن التعب والراحة لأنهما من صفات المخلوق المحدود وليست من صفات الله الخالق.

ونحن ندرك جميعاً أن اليوم السابع من الأسبوع هو يوم السبت لدى اليهود وهو اليوم الذي يستريحون فيه لا يعملون عملاً لا في المنزل ولا في خارجه. وقد ربطوا ذلك باستراحة الرب حسب ما يقولون. وقد أوردت التوراة أن الله بارك اليوم السابع أي بارك يوم السبت يوم راحة اليهود. ولا يخفى على المرء معنى هذا الربط وهذا التقديس وهذه المباركة، فالعقيدة اليهودية تربط كل الأمور بما يخص أتباعها حتى تلك التي تتعلق بعملية خلق الله للسموات والأرض واستراحته في اليوم السابع كما يقولون، وسنرى التركيز التوراتي على اليوم السابع يتكرر في التوراة بشكل كبير لاسيما في سفر التثنية وسفر العدد وسفر اللاويين، أي في الأسفار التي يقول اليهود إنها أسفار موسى الأساسية والتي وضع فيها الله الشريعة اليهودية.

التكوين التوراتي والخلفية الأسطورية:

لاشك أن الحديث عن خلق السموات والأرض في سفر التكوين ليس هو وحده الحديث المرتبط بمسألة الخلق. ولو بقي هذا الحديث عند الحدود التي رأيناها لما أثارتنا سوى بعض الإشكالات وإن كان بعضها ينجرف إلى هاوية الكفر المبين كاستراحة الرب في اليوم السابع غير أن مسألة الخلق جاءت

متناثرة أحياناً في بعض الأسفار بصيغة أسطورية يتضح فيها مدى استفادة مدوّني التوراة من أساطير الشعوب وتراثها الديني مناقضين فيها كثيراً مما أوردوا في سفر التكوين أو غيره من الأسفار.

نرى مثلاً في المزمور 13/74 أن المياه التي كانت موجودة على الأرض بعد خلق السموات والأرض كان يسيطر عليها تنينٌ ذو رؤوس سبعة. ولم يستطع الرب إحكام قبضته على المياه إلا بعد صراع مع التنين كانت نتيجته قتله وسيطرة الرب على الكون يقول (أنت شققت البحر بقوتك كسرت رؤوس التنانين على المياه. أنت رضضت رؤوس لوياثان).

فبعض العلماء والباحثين يرى أن هذه الأسطورة، إما مأخوذة من التراث الأسطوري البابلي حيث يقتل الإله مردوخ (تعامت) الآلهة المسيطرة على المياه ومن هؤلاء صموئيل هنري هوك، أو أنها مأخوذة من التراث الأسطوري الكنعاني حيث يقتل الإله بعل إله البحار والأنهار المدعو (يم نهار) وفي كلا الحالتين نرى أن كتبة التوراة هضموا أساطير الشعوب في المنطقة وتأثروا بها كثيراً وظهرت بشكل أو بآخر في كتاباتهم التوراتية[1].

وقد نقلت بعض الأساطير إلى التراث الإسلامي رغم مخالفتها لمنطق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وقد كان لبعض اليهود الذين أسلموا دور بارز في نقل كثير من الأساطير التوارثية المستقاة من أساطير الشعوب في المنطقة. ومن هؤلاء وهب بن منبه وكعب الأحبار وقد تنبه المفسرون والعلماء لتسرب الإسرائيليات في العقيدة الإسلامية غير أن بعضهم لم يعرها اهتمامه واستند على أخبارها في ما رآه من حديث عن خلق الأرض والسموات وآدم وما رافق ذلك من تصورات حول مسألة الخلق بشكل عام.

---

(١) إرجع إلى كتاب نصوص من أوغاريت، أو كتاب اللآلئ، لمفيد عرنوق، إصدار دار **النهار بيروت**، أو كتاب الميثولوجيا الكنعانية والاغتصاب التوراتي لحسن الباش، إصدار دار **الجليل دمشق 1988**.

فأبو إسحاق النيسابوري المعروف بالثعلبي وقع في مثل هذه المطبات الإسرائيلية فإذا نظرنا جيداً في كتابه قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس وجدنا منها، ما لا يعتمد الحديث الصحيح ليدعم ما نقله، ويفسر الآيات القرآنية على ضوء ما نقله عن الرواة اليهود والرواة المسلمين الذين لايعتد بهم ولا بأقوالهم.

نورد مثلاً قوله التالي: أهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدمي الملك على سنامه فلم تستقر قدماه فأحدر الله ياقوتة خضراء من أعلى درجة من الفردوس غلظها مسيرة خمس مائة سنة فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض وهي كالحسكة تحت العرش ومنخر ذلك الثور في البحر فهو يتنفس كل يوم نفساً فإذا تنفس مدّ البحر وإذا رد نفسه جزر، ثم يقول (فخلق الله نونا وهو الحوت الكبير اسمه لويتا وكنيته بلهوت ولقبه بهموت فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال)[1].

ويتضح من خلال ما ورد أن الثعلبي استفاد من أساطير التوارة استفادة كبيرة حتى أن اسم الحوت (لويتا) مأخوذ من اسم التنين (لوياثان) الذي صرعه الربَ قبل سيطرته على المياه وتدبير الكون حسب زعم التوراة.

ويورد الثعلبي قوله: وقال كعب الأحبار: إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض فوسوس إليه وقال له: أتدري ما على ظهرك يا لويتا من الأمم والدواب والشجر والجبال وغيرها؟ لو نفضتها أو ألقيتهم عن ظهرك أجمع لكان ذلك أريح لك قال: فهم لويتا أن يفعل ذلك فبعث الله تعالى إليه دابة فدخلت في منخره فوصلت إلى دماغه فعج الحوت إلى الله تعالى منها فأذن الله لها فخرجت. قال كعب الأحبار فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر

---

(1) قصص الأنبياء للثعلبي النيسابوري ص 6، دار الكتب العلمية بيروت 1985، الطبعة الرابعة.

إليه إن هم بشيء من ذلك عادت كما كانت.

ويستند الثعلبي في كتابه على ما أورده وهب بن منبه أيضاً. وهذه الأخبار ومثيلها ليست من واقع العقيدة الإسلامية في شيء. لأن القرآن الكريم صرح وبمنتهى الوضوح عن سير الأرض والشمس والقمر والكواكب وأصل هذه الأشياء. وجميع ما قاله القرآن يتوافق مع منطق العلم ولا يتوافق مع منطق الأساطير والخرافات.

ولعل من اللطائف التي وردت في آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن خلق السموات والأرض ما يدل على أن المسألة في جوهرها تبيان معجزة الخالق في هذا الخلق.

ففي سورة البقرة يردف الحديث بقوله تعالى: (وهو بكل شيء عليم).

وفي سورة الحديد يردفه بقوله تعالى: (والله بما تعملون بصير).

وفي سورة الملك يقول تعالى: (فارجع البصر هل ترى من فطور).

وفي سورة الأحقاف يقول تعالى: (إنه على كل شيء قدير).

وفي سورة الزمر يقول تعالى: (ألا وهو العزيز الغفار).

وفي سورة فصلت يقول تعالى: (ذلك تقدير العزيز العليم).

فالهدف من تبيان قدرة الله الخالق وتبيان الإنسان أمام قدرة الله وعلمه، فالتقدير والعزة والعلم كلها من صفات الله سبحانه، تأتي مع آيات الخلق لتؤكد قدرته تعالى وعزته وعلمه، وصغر الإنسان واضمحلاله أمام تقدير الله وقدرته وعلمه، والمسألة فيها من التعليم وفيها من التحدي وفيها من الدروس مالا يستطيع الإنسان الإلمام بها جميعاً.

(إن ما يقصد من الشرائع إن كانت إسلامية أو غيرها بيان ما يرشد

الخلق إلى معرفة الله تعالى، وإلى الأحكام التي توصل العباد إلى انتظام المعاش، وأما تعريفهم بمباحث العلوم الكونية من كيفية خلق العالم والنواميس القائمة فيه فإنه ليس من مقاصد الشرائع بل تلك معارف يتوصلون إليها بعقولهم[1].

لاشك أن القرآن الكريم والتوراة يتوافقان في الحديث بأن الله سبحانه خلق النباتات والحيوانات قبل أن يخلق آدم. فالتوراة تقول في سفر التكوين: (وخلق من كل مخلوقات الأرض ذكراً وأنثى وخلق الإنسان ذكراً وأنثى في اليوم السادس).

ويقول تعالى في القرآن الكريم في سورة فصلت: (وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام).

ويقول في سورة النازعات: (والأرض بعد ذلك دحاها وأخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم).

فالأرض بعد أن أنزل الله عليها الماء أنبت الزرع وخلق فيها الحيوانات تمهيداً ليسكنها الإنسان ونسله.

لقد خلق الله السماوات والأرض والنبات والحيوان والإنسان وهو يعرف بعلمه الأزلي أن الإنسان الذي خلقه ووضعه في جنة عدن سيؤول إلى الأرض لتتم عملية الامتحان الدنيوية.

وقد يقول قائل: لو أن آدم لم يخطئ في الجنة أيبقى فيها مع حواء وينجبان ويتكاثران؟.

حقيقة الأمر أن المرء لا يفترض افتراضاً يعارض مسار علم الله الأولي. فقولنا (لو) هو افتراض نقيسه على مقاييسنا الدنيوية المحدودة بنواميس مادية ملموسة محسوسة تتوافق مع حدود عقلنا.

---

(1) نديم الجسر، قصة الإيمان ص210.

والواضح أن الله سبحانه خلق الأرض وأقواتها ونباتاتها وحيواناتها بمعنى أنه أحيا فيها الأسباب التي من شأنها أن تمهد لآدم أو للإنسان أن يسكنها ويستخلفها. وما خلق آدم في الجنة إلا مرحلة أولى من مراحل حياته. وإلا لو بقي في الجنة لما كان هناك امتحان ولما كان هناك جزاء وحساب. وقد خلق آدم من عناصر كثيرة. العاطفة والعقل والجسد والإحساس والنفس وهي جميعا قابلة لتتحول من آن إلى آن ومن حالة إلى حالة. وقد نسي آدم وصية ربه في ألاّ يطيع الشيطان فكان نسيانه من طبيعته الإنسانية البشرية. فما قام به آدم من عمل هو أول درس لبني البشر قبل أن يتواجدوا على وجه الأرض. فحتى لا يظلموا بين الله سبحانه أسباب الخطأ ونتائجه سلفا قبل أن يخلقوا ويقعوا في ما لا تحمد عقباه.

أما في ما يتعلق بخلق الملائكة والجن. فإن آيات القرآن الكريم توضح وبشكل قاطع أن الله خلق الملائكة والجن قبل أن يخلق آدم والجنس البشري.

يقول الله تعالى في سورة البقرة الآية 30: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها منْ يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون).

ويقول تعالى في سورة الكهف الآية 50: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا).

فالآيتان تدلان بشكل قطعي أن الله سبحانه خلق الملائكة والجن قبل أن يخلق الإنسان.

الملائكة والجن في التوراة والقرآن:

تصرح آيات القرآن الكريم بوجود الملائكة والجن قبل خلق الإنسان آدم. وقد ورد ذكر الملائكة في التوراة. ويختلط على المرء وجود اسمين لمخلوق واحد في التوراة فتارة تصرح بلفظة ملاك الرب وتارة أخرى تصرح بلفظ الكروبيم جمع كروب، وقد فسر قاموس الكتاب المقدس كلمة كروب وكروبيم على أنها قوى سماوية خلقها الله لتسبح له وتنفذ أوامره، وقد ورد في سفر التكوين (فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة) 3: 23 ـ 24.

ويعني هذا الكلام الذي ورد في سفر التكوين أن الله وضع حراساً من الكروبيم ـ الملائكة على طريق شجرة الحياة الموجودة في الجنة.

ووردت بعض النصوص الأخرى في التوراة تشير إلى هذا الكروبيم حيث يفهم أنهم الملائكة ففي المزمور الثامن عشر تقول التوراة على لسان داود (في ضيقي دعوت الرب وإلى إلهي صرخت فسمع من هيكله صوتي، وصراخي قدامه دخل أذنيه. صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت، جمر اشتعلت منه طأطأ السموات ونزل وضباب تحت رجليه ركب على (كروب) وطار وهف على أجنحة الرياح).

فحسب تصور التوراة أن الرب ركب على ظهر الملاك وطار بعد أن نزل من عليائه وهو يرغي ويزبد ويتصعد من أنفه دخان وتخرج من فمه نار.

وقد صرحت التوراة أحياناً بلفظ الملاك. ففي سفر التكوين: 7:16

يرد: (فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك. وقال لها ملاك الرب تكثيراً أكثر نسلك).

وفي سفر التكوين الإصحاح 19: (فجاء الملاكـان إلى سـدوم) وفي الإصحـاح 19: (ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوطاً) وفي الإصحاح 21: (فسـمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء).

ولم يتضح عمل الملائكة ومهماتهم في التوراة. وتنكر العقيدة اليهودية على جبريل عليه السلام مهمته بإنزال الكتب السـماوية علـى الأنبيـاء، ويـرون أنـه ملاك التدمير والهلاك وقد نزلت في القرآن الكريم آية توضح أن مـن كـان عـدواً لجبريل هو عدو لله. وقد نزلت الآية بحق اليهود الذي يُعادون الملاك جبريل.

يقول تعالى في سورة البقرة الآية 98 (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزلـه على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين، من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين).

وذكرت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اليهود سألوا نبيّنا صلى الله عليه وسلم عمن ينزل الرسالات إلى الأنبياء فقال لهم إنـه جـبريل فـأنكروا ذلك فنزلت الآية الكريمة بحقهم. حيث تدحض ما زعموا وما كذبوا.

ويرى اليهود أن جبريل عليه السلام هو ملاك التدمير الذي دمـر سـادوم وعمورة حيث كان فيهما قوم لوط وليس هو مـنزل الرسـالات مـن قبـل الله رب العالمين. وقد ذكرت التوراة قصة التدمير في الإصحاح 19 من سفر التكوين.

ويرد في التوراة أن موسى عندما ذهب إلى جبل حوريـب ظـهر لـه مـلاك الرب تقول التوراة (وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة)[1].

تقول التوراة (فلما رأى الرب أنه موسى مال لينظـر نـاداه الله مـن وسـط العلّيقة[2].

---

(1) الكتاب المقدس/خروج 3: 3.

(2) الكتاب المقدس/ خروج 5/3.

ففي هذا النص يظهر ملاك الرب ولا ندري ما هو ولماذا جاء وما هي مهمته ثم يظهر لنا الرب ليكلم موسى من قلب العليقة المحروقة.

حتى عندما تتحدث التوراة عن الألواح التي كتبت فيها الشريعة اليهودية لم تنزل تعاليمها على موسى بواسطة ملاك تقول التوراة (فانصرف موسى ونزل الجبل ولوحا الشهادة في يده لوحان مكتوبان على جانبيهما، من هنا ومن هنا كانا مكتوبين واللوحان هما صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين)[1].

ولا يظهر في التوراة مهمة الملائكة ولا خصائصهم فهم يظهرون بشكل غامض في ظروف خاصة.

وإذا أردنا نحن أن نستخلص مهمات الملائكة من خلال نصوص التوراة نجد أنهم ينزلون من السماء لتدمير بعض المدن ومقابلة بعض الشخصيات التي تركز عليها التوراة كهاجر أم إسماعيل ولوط وإبراهيم عليهما السلام.

ولم يرد أن الأنبياء كإبراهيم أو موسى أو داود قد تلقوا رسالات السماء بواسطة الملائكة (جبريل عليه السلام).

أما القرآن فقد أضحت آياته في كثير منها عمل الملائكة إن كان ذلك بصيغة الجمع أو بصيغة المفرد. وقد ورد ذكر الملك والملائكة في القرآن الكريم 88 مرة ولعل إيمان المسلم لا يكون صحيحاً إلا إذا آمن بالملائكة. ونعلم جميعاً أن أركان الإيمان هي الإيمان بالله وحده لا شريك له والإيمان بملائكته والإيمان برسله والإيمان بكتبه والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره.

فمن آمن بالله دون الإيمان بالملائكة ليس بمؤمن وكذلك ما ينطبق على الملائكة ينطبق على كافة أنواع الإيمان.

---

(1) سفر الخروج الإصحاح 15/32 و17/16.

والملائكة خلق من خلق الله تعالى لا نعلم حقيقتهم ولم نرهم واعتقاد وجودهم واجب وهي من الأمور السمعية التي لا يوجبها عقل ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بوجودهم وجاء في القرآن الكريم والكتب السماوية أسماء بعضهم فوجب اعتقادنا بوجودهم لأنهم ذكروا بنص قاطع الثبوت والدلالة[1].

أما مهماتهم فقد أوضحت آيات القرآن الكريم أن الملائكة خلقوا ليسبحوا الله ويقدسوه (فهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) سورة الأنبياء الآية 26.

ويقول الله تعالى في سورة البقرة الآية 30: (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك). فواضح أن الملائكة بشكل عام خلقوا ليسبحوا الله ويتعبدوا له، ولبعضهم مهمات. فمهمة جبريل عليه السلام تبليغ الرسالات للأنبياء.

وقد ورد اسمه جبريل صراحة وورد باسم الروح الأمين وقد أطلق الله سبحانه وتعالى عليه الأمين في كثير من الآيات.

يقول تعالى في سورة القدر (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر).

وقد أنزل القرآنُ الكريمُ على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل كما أن جبريل أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم وعرج به إلى السماء في معجزة إلهية ليس لها نظير.

ومعروف لدى العقيدة الإسلامية والعقائد السماوية الأخرى أن الله سخر ملاكاً لقبض الأرواح وهو عزرائيل عليه السلام.

---

(1) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء ص 46.

ويعرف المسلمون أن الله سبحانه خلق ملائكة آخرين لهم مهمات أخرى. إسرافيل ينفخ في الصور يوم القيامة. والملاك رضوان خازن الجنة والملاك مالك خازن النار. ورقيب وعتيد ملكان مكلفان بكتابة حسنات المرء وسيئاته، يقول تعالى في سورة الانفطار (إن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) 10 ـ 11 ـ 12.

وخلق الله ملكين يستقبلان العبد الميت في قبره فيسألانه عن ربه ونبيه ودينه. وعلى النار ملائكة غلاظ شداد لا يعصون أمر الله.

ويتضح من خلال القرآن الكريم أن للملائكة عوالم خاصة بها ومهمات خاصة بها أيضاً لأنها تختلف في طبيعة خلق الله لها. وعوالم المخلوقات كما نراه في قرآننا يتشعب وينقسم إلى أقسام كثيرة فالإنسان والجن والملائكة مخلوقات عاقلة تفكر وتتحدث وإن اختلفت في طبيعة حياتها ومهماتها التي كلفها الله بها.

ولحكمة إلهية فقد خلق الله الإنسان، وخلق الجن من نار والملائكة من نور وركب في الإنسان الجسد والروح والعقل والنفس. وخلق فيه نوازع الخير والشر ليمتحنه بينما خلق الملائكة لتسبحه وتحمده ولا تخضع لمقاييس النزعات المختلفة التي خلق الإنسان ليجربها ويحاسب عليها.

وضع الله في الإنسان الشهوة ونزعها من الملائكة وركب في الإنسان ما لم يركبه في الجن غير أن الإنسان والجن مخلوقان ليعبدا الله ويخضعا لمقاييس الإيمان والكفر بينما خلق الله الملائكة لتسبح له وتعبده ولا تخضع لأي امتحان دنيوي.

أما الجن فقد أوردت آيات القرآن الكريم كثيراً عنهم كما ورد ذكرهم في التوراة.

تقول التوراة في سفر اللاويين ص 19:31 (لا تلتفتوا إلى الجان ولا تطلبوا التوابع فتتنجسا بهم أنا الرب إلهكم). ويرد أيضاً في سفر صموئيل الأول أن شاؤل طلب من جنده أن يفتشوا له عن امرأة تحضر الجن. فأحضروها له وتدعي أنها أخرجت النبي صموئيل من موته أو أحضرت روحه لشاؤل ليسأله ماذا يفعل بعدما ضاقت عليه السبل.

والجن خلقٌ من خلق الله لا نعلم حقيقتهم ولم نرهم قال تعالى (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) والاعتقاد بهم واجب، وهو من الأمور السمعية التي أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنص قاطع الثبوت والدلالة ولولا أن الله ذكرهم في القرآن ما علمنا بوجودهم وهم يتوالدون ويتناسلون لقوله تعالى في سورة الكهف الآية 50: (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو) ومنهم البار والفاجر لقوله تعالى في سورة الجن الآية 4: (وأنا منا المسلمون ومنا الفاسقون) ولم يقل أحد أنهم أفضل من البشر.

وقد ذكر لفظ الجن والجان والجنة 32 مرة في إحدى وثلاثين آية من القرآن الكريم.

وليس للجن سلطان على الإنسان، ومن يستعن بالجن فإنه استعان بغير الله وهذا إشراك بالخالق رب العالمين. وقد فصلت سورة الجن طبيعته وعمله وحدود معرفته.

وسنتعرض لدراسة الجن والملائكة في الجزء الثاني من هذا الكتاب كونه يتعرض للعقيدة والإيمان بالله والملائكة والكتب والسماوية وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

وقد اكتفينا هنا بهذه الإشارات التي تتعرض لمسألة خلق الملائكة والجن فحسب.

الفصل الثاني

من آدم (ع) إلى انتهاء الطوفان

آدم الإنسان الأول

تحدثت التوراة عن آدم باعتباره أول مخلوق خلقه الله على الشكل الذي نعرفه وقد ذكرته في الإصحاحين الثاني والثالث في سفر التكوين.

ماذا قالت التوراة عن آدم؟.

(وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه ذكر وأنثى خلقهم) التكوين: 1: 26 ـ 27.

ثم يرد في التكوين 7/2 ـ 8: (وجبل الرب الإله آدم من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية. وغرس الرب الإله آدم ووضع هناك آدم الذي جبله).

ويرد في السفر نفسه 2: 15 ـ 25: (وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها وأوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت، وقال الرب الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده فأصنع له معيناً نظيره. وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره، فأوقع الرب عليه سباتاً فأخذ واحدة من

أضلاعه وملأ مكانها لحما وبنى الإله الرب الضلع التي أخذها مــن آدم امـرأة، وأحضرها إلى آدم فقال آدم هذه عظم من عظمي ولحم من لحمي. وكانــا كلاهمـا عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان).

وفي الإصحاح 3: 4 ـ 24: (فقالت الحية للمرأة لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكم وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فـأخذت مـن ثمرها وأكلت وأعطت زوجها أيضا فـانفتحت أعينـهما وعلمـا أنـهما عريانـان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر).

(وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبـأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإلـه وقـال أين أنت فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت فقال من أعلمك أنك عريان، هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها).

(فأخرجه الرب الإله من جنــة عـدن ليعمـل في الأرض الـتي أخـذ منـها فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيـب سـيف متقلـب لحراسـة طريق شجرة الحياة).

إلى هنـا تتوقـف التـوراة عنـد قصـة خلـق آدم بهبوطـه إلى الأرض ليبـدأ الإصحاح الرابع حيث يعرف آدم حواء فتحبل.. الخ.

أما في القرآن فقد ذكر اسم آدم خمسا وعشرين مرة في خمس وعشرين آية.

يقول تعالى في سورة البقرة الآية 30: (وإذ قال ربك للملائكة إنــي جـاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمـاء ونحـن نسـبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون).

ويقول تعالى في سورة الأعراف الآية 11: (ولقد خلقناكم ثـم صورنـاكم ثـم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن الساجدين).

ويقول تعالى في سورة الحجر 26 ـ 27 ـ 28 ـ 29 ـ 30 ـ 31: (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون. والجان خلقناه من قبل من نار السموم، وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين).

ويقول تعالى في سورة ص 17 ـ 74: (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين).

ويقول تعالى في سورة البقرة الآية 34: (وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين).

ويقول تعالى في سورة الكهف الآية 50: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا).

ويقول تعالى في سورة الإسراء من 61 ـ 65: (إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً. قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن آخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا. قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً، واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً).

ويقول تعالى في سورة الأعراف من 12 حتى 18: (قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك. قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين. قال أنظرني إلى يوم يبعثون. قال إنك من المنظرين قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراتك المستقيم ثم

لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين. قال اخرج منها مذءوما مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنم منكم أجمعين).

ويقول تعالى في سورة الحجر من 31 حتى 43: (قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون. قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين. قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون. قال فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم. قال رب بما أغويتني لأزينَنّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين. قال هذا صراط علي مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين. وإن جهنم لموعدهم أجمعين).

وقال تعالى في سورة ص من 75 ـ 76: (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين. قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين).

وقال تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) البقرة ـ 31 ـ 33.

ويقول تعالى في سورة البقرة 35 ـ 38: (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم. قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع

هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

وقال تعالى: (ويا آدم اسكن أنت زوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما إني لكما من الناصحين فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيهما تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون). الأعراف ـ 19 ـ 25.

وقال تعالى: (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً. وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى. فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملكٍ لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى. قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى). طه 115 ـ 123.

فمن خلال ما ورد في سفر التكوين التوراتي وما ورد في القرآن الكريم نستطيع أن نقارن مسألة بمسألة ونقف عند كل محطتين متشابهتين لندرك الفروق بين حقيقة الواقع القرآني وبين ما جاءت بها التوراة.

1 ـ المسألة الأولى: سبب خلق آدم، وتتضمن فكرة خلقه من قبل رب العالمين.

2 ـ المسالة الثانية: طبيعة خلق آدم وتركيبته ونفخ الله نسمة الحياة.

3 ـ المسألة الثالثة: أمر الله للملائكة بالسجود لآدم ورفض إبليس أمر الله.

4 ـ المسألة الرابعة: نهي الله لآدم بألاّ يتبع الشيطان وألاّ يأكل من الشجرة المحرمة.

5 ـ المسألة الخامسة: الجنة وسكن آدم وحواء فيها.

6 ـ المسألة السادسة: مخالفة آدم أمر ربه وقصة الخطيئة والهبوط إلى الأرض واستغفاره.

7 ـ المسألة السابعة: ما يتعلق بتعليم آدم الأسماء وبعض القضايا الجانبية.

8 ـ المسألة الثامنة: لماذا آدم نبيٌّ؟ وليس إنساناً عادياً؟.

المسألة الأولى: فكرة خلق آدم. سبب خلقه.

بالمقارنة بين ما ورد في التوراة وما في القرآن الكريم نجد أن الرب حسب النص التوراتي يخلق سلسلة من الأشياء في أيام ستة وفي اليوم السادس ذاته يخلق آدم. أما لماذا خلقه فيتضح أن خلق الكون من سموات وأرض ونبات وحيوان ومن ثم خلق آدم تسير جميعها ضمن سلم المخلوقات التي صنعها الله. وآدم خلق ليثمر ويكثر ويملأ الأرض ويخضع حيواناتها وطيورها وبحرها لإرادته.

أما في القرآن الكريم فهناك مخلوقات أخرى، هناك ملائكة وهناك جن خلقهم الله قبل خلق آدم. الملائكة مخلوقات نورانية والجن مخلوقات نارية وإرادة الله اقتضت أن يخلق العنصر الثالث (وهو الإنسان) من تراب.

في النص التوراتي ندرك أن خلق الإنسان من قبل ربه تم بإرادة غامضة دون أن يظهر المغزى أو العبرة من هذا الخلق.

وإذا راجعنا الحوار الذي جرى بين الله سبحانه وبين ملائكته وإبليس في

القرآن الكريم نجد أن هناك غاية من خلق آدم. قال تعالى (إني جاعل في الأرض خليفة) فالأرض التي مهدها الله وأحيا فيها كل ما يجعل الإنسان يعيش فيها أو يحيا أصبحت جاهزة ليوكل الله تعميرها لمخلوق ركبه من الخير والشر.

قالت الملائكة: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لاتعلمون).

فهذا الحوار شاهد للإنسان العاقل، المقصود منه تبصير بني البشر بأن ما يعلمه رب العالمين لا يعلمه أحد. فخلقه للإنسان ليس بلا غاية وبلا هدف بل هو لهدف ولغاية يقصر علم الملائكة وغيرهم عن إدراك قصد الله.

وفي الحوار الذي يدور بين الله سبحانه وإبليس يوضح أيضاً مسألة هامة وهي أن الله سبحانه وتعالى خلق مخلوقاته لتحاور وتختار. وبعد أن يوضح الله سبحانه طريق الصواب وجزاءه وطريق الخطأ وجزاءه يرفض إبليس إطاعة أمر ربه، والله قادر على أن يجعل إبليس ينفذ أوامره لكن العبرة من اتخاذ الشيطان طريق الرفض والعناد هو منح الإنسان فرصة للتفكير في عاقبة رفض أوامر الله. ثم إن العبرة أيضاً تكمن في تعريف الله لبني البشر أن الشر والخير نقيضان متناقضان خلقهما الله تعالى متمثلين بإبليس رأس الشر وبالملائكة رأس الخير وسيبقى الصراع بينهما طالما هناك بشر على وجه الأرض ولو أن الشر غير موجود لما وجد الامتحان. ووجود الإنسان على ظهر الأرض وجود خاضع للامتحان إلى يوم القيامة.

وقد بين الله سبحانه في الكثير من الآيات أن هذه الدنيا دار فناء وامتحان والآخرة دار بقاء وخلود.

إذاً الفرق واضح بين غاية الله في خلقه للإنسان في التوراة وفي القرآن. فهناك غايته تعمير الأرض وإخضاع الحيوان والنبات لرغباته. بينما في القرآن الكريم فالغاية تعمير الأرض أولاً. ثم محاربة طاغوت الشيطان ثانياً والاستعداد

للانتقال إلى يوم آخر هو يوم الحساب.

فأين الشيطان في التوراة، أين الغاية من استعداد الإنسان ليستقبل يوم الآخرة؟ أين الصراع بين الخير والشر أين الامتحان؟ فالشيطان متمثل في الحية فحسب، وهي رمزه وعلامته.

ولو اقتصر هدف الله في خلق آدم تعمير الأرض دون أي هدف آخر لانتفى الامتحان ولانتفت القيامة والجزاء والعقاب.

وتعمير الأرض لا يتم إلا بمشقة وعناء وصراع. فهناك من يريد خراب الأرض ولا تعميرها والتعمير ليس تعميراً مادياً فحسب إنما هناك تعمير معنوي عقلي نفسي وسلوكي. والشيطان الذي يمثل رأس الشر سيكون ضد تعمير الأرض، بمعنى أنه سيحاول منع التعمير المعنوي والنفسي والسلوكي لأن أي انحراف سلوكي هو تخريب وليس تعميراً وعندما يقول تعالى (إني جاعل في الأرض خليفة) فالمقصود أن يكون الإنسان خليفة الله في الأرض يسعى لتعميرها مادياً ومعنوياً حسب ما يرضى الله وحسب ما يكره الشيطان.

وكم من الآيات حثت الإنسان على ألاّ يعيث فساداً في الأرض، فلو عمر الإنسان هذه الأرض بكافة المعالم الحضارية المادية دون أن يقيم صرح التعمير المعنوي فإنه يعيث فساداً. والبناء بناء النفوس والأرواح والعقول وليس بناء الحجارة والصروح المادية فحسب.

يقول تعالى في سورة البقرة الآية 36: (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين).

ويقول تعالى: (وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) الملك: 15.

ويقول تعالى في سورة الأعراف الآية 56: (ولا تفسدوا في الأرض بعد

إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين).

المسألة الثانية: خلق آدم من تراب:

أوردت التوراة في النص الإلوهيمي أي في الرواية الثانية لخلق الكون قولها: (وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية)، بينما يخلو النص الأول من قصة خلق آدم من تراب.

ويرد في القرآن الكريم قوله تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون).

وقوله تعالى: (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين) سورة ص الآية: 71.

وقوله تعالى في سورة الرحمن الآية 14 والآية 15: (خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار).

فنرى أن أصل مادة خلق الله الأولى هي التراب في التوراة والقرآن غير أن القرآن الكريم يورد مادة خلق آدم في سياق النص الذي يقارن خلقه بخلق الجان من مارج من نار. والشيطان باعتباره من الجن كما نص عليه القرآن الكريم في سورة الكهف وباعتباره الطرف الآخر النقيض للإنسان أوردته الآيات القرآنية لتصل إلى المقصد من خلق الله الإنسان من طين أو من صلصال.

وفي القرآن تفصيل لطبيعة هذا التراب وهذا التفصيل ليس موجودا في التوراة فالله سبحانه (سوى آدم من طين من حمأ مسنون ـ فتغير حتى إذا صار ذلك الطين صلصالا كالفخار نفخ فيه من روحه فإذا هو إنسان حي من لحم ودم

وعظم وعصب يتحرك بإرادته ويدرك)[1] وقد احتج الشيطان على أمر الله له بالسجود لأنه اعتقد أن طبيعة خلقه من نار هي خير من طبيعة خلق آدم.

وعندما تركز بعض الآيات القرآنية على خلق آدم من صلصال كالفخار وعلى خلق الجان من مارج من نار فإن ذلك لم يكن عبثاً. لأن هذا التركيز يفتح أمام الإنسان باب التساؤل هل النار أفضل من الطين حتى يظن إبليس أنه أفضل من آدم؟ ثم لماذا خلق الله الإنسان من تراب ولم يخلقه من شيء آخر؟.

فَما نفتقده في التوراة نجده في القرآن الكريم. ليس هناك مقارنة بين الطين والنار لأنه ليس هناك مقارنة بين الشيطان وآدم، أي بين تمام الشر وبين نقيضه.

والشيطان الذي احتج على الله لا يعرف أن هذا المخلوق من طين قد أودعه الله من الأسرار ما يعجز عنه إبليس نفسه. (عناية الله إذا وجهت إلى الشيء الحقير خلعت عليه حلل البهاء والجلال وصار عظيماً كما توجهت عنايته تعالى إلى التراب الذي جبل منه آدم فصيرته بشراً سوياً وجعلته مظهراً لأسرار قدرته وحكمته وعلمه الواسع فأفاض عليه من العلم والمعرفة ما أقر الملائكة بالعجز عن إدراكه)[2].

لقد خلق الله سبحانه الجان من نار وخلق الملائكة من نور وخلق الإنسان من تراب وعلى مستوى العقل البشري فإن النور والنار أقوى مزية وأفضل من التراب. لكن الله سبحانه نفخ في هذا التراب من روحه فإذا هو إنسان فيه عقل وفيه وجدان وإحساس وضمير وعاطفة وإيمان وكفر وهذه التي تمتع بها الإنسان لم يتمتع بها الملائكة ولا تمتع بها إبليس، فالتراب الذي هو أدنى مزية من النار أو النور يصبح الأفضل إذا نفخ فيه الله من روحه ومنحه العقل والتفكير.

---

(1) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء ص 26.

(2) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء ص 26.

لقد تنزه الملائكة عن الشر لما جبلهم الله عليه من تسبيحه وإبداء الحمد والشكر له. وابتعد الشيطان عن الخير فأصبح شرا بذاته غير أن الإنسان حوى بقدرة الخالق خير الملائكة إن هو اتبع طريق الله وحوى شر الشيطان إن هو اتبع طريق الضلال.

لا الملائكة خلقوا ليحملوا النقيضين ـ الشر والخير ـ ولا الشيطان بقادر ليحمل إلى جانب الشر خيرا يناقض به ذاته. ومقياس شرية الشيطان لا تنطبق على جميع الجن، إنما تنطبق على صنف إبليس وحده.

وهذا التراب الذي صيره الله إنسانا عاقلا خلق من مادة قابلة لعطاء النور وقابلة أيضا لحمل الشر وهنا تكمن معجزة الله. الإنسان بتقواه وتقربه الخالص إلى الله سيجعله يتفوق على الملائكة وبكفره وفساده سيكون أحط من الشيطان الذي هو شر خالص، وعندما يقول تعالى ونفخنا فيه من روحنا فإن ذلك يعني أن هذا الإنسان المخلوق من تراب حمل في ذاته نفحة ربانية تتمثل إذا تمكنت من الجسد بالقرب من الخالق وتطويع المادة الترابية لانبعاث النور وطرد الشر.

والمسألة الثالثة هي أمر الله ملائكته وإبليس بالسجود لآدم. لقد قال تعالى فإذا نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فالأمر بالسجود لآدم سبق خلق آدم نفسه أما السجود كواقعة فقد حدثت بعدما أتم الله خلق آدم إنسانا فيه روح. والسجود هنا كما أشار العلماء ليس سجود عبادة إنما سجود تكريم لأن الله لا يأمر أحدا أن يتوجه بالعبادة إلى سواه[1].

أما التوراة فإنها تخلو من قصة السجود مطلقا لأنه لا وجود لإبليس. ولا وجود للملائكة عندهم في هذه الحادثة.

أما قوله تعالى: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح

---

(1) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء ص 26.

بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون).

فيشير إلى تساؤل الملائكة كيف يا رب تخلق في الأرض من يسفك الدماء ويفسد. فما الذي عرف الملائكة أن الذي سيخلقه الله ويجعله في الأرض سيكون سافك دماء ومفسدا فيها؟.

قال العلماء والمؤرخون العرب في ذلك عدة أقوال:

فقد ورد في كتاب في التاريخ لابن الأثير قوله: (روي عن ابن عباس وابن مسعود أن إبليس كان له ملك سماء الدنيا وكان من قبيلة يقال لهم الجن وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة وكان إبليس مع ملكه خازنا، قال ابن عباس ثم إنه عصى الله تعالى فمسخه شيطانا رجيما فأول من سكن في الأرض الجن فاقتتلوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضا قال فبعث الله تعالى إليهم إبليس في جند من الملائكة وهم هذا الحي الذي يقال لهم الجن فقاتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال فلما فعل ذلك اغتر في نفسه وقال قد صنعت ما لم يصنعه أحد فاطلع الله تعالى على ذلك من قلبه ولم يطلع عليه أحد من الملائكة الذين معه. وقال شهر بن حوشب إن إبليس كان من الجن الذين سكنوا الأرض وطردتهم الملائكة. وأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء)[1]. هناك احتمال أن تكون الملائكة عرفت إمكانية إفساد الإنسان من خلال لفظة خليفة. ومن معانيها الحاكم الذي يحكم بين الناس. وما دام هناك. حكم وحاكم فهناك ظالم ومظلوم.

وروي عن ابن عباس أن الملائكة قالت ذلك للذي كانوا عهدوا من أمره أتجعل فيها من يكون مثل الجن الذين كانوا يسفكون الدماء فيها ويفسدون ويعصونك ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك[2] وترى التوراة أن الحية هي التي

---

(1) ابن الأثير الكامل في التاريخ ص 25 ـ 26.

(2) ابن الأثير الكامل في التاريخ ص 27.

أغوت حواء لتأكل من شجرة الجنة المحرمة. ولا تورد أي ذكر لإبليس.

تقول التوراة: وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله فقالت للمرأة أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة فقالت المرأة للحية من ثمر الجنة نأكل وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا فقالت الحية للمرأة لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر[1] وهنا يجدر بالمرء أن يسأل مجموعة من الأسئلة حول ما قالته التوراة.

أولا: الحية أحيل جميع حيوانات البرية، فهل في الجنة برية وفيها حيوانات أخرى؟ وهل عمل الإله الرب الحيوانات في الجنة أم في الأرض؟.

ثانيا: لو افترضنا أن الجنة حوت حيوانات كثيرة ومنها الحية فهل الحيوانات تنطق أو تعقل.

ثالثا: هل الحية تعلم غيب الله الذي خبأه عن آدم وكيف؟

رابعا: لو كانت الحية تعلم حقا أن الأكل من الثمرة المحرمة يجعل آكلها عارفا للخير والشر فلماذا لا تأكل الحية نفسها حتى تصبح كالله عارفة الخير والشر؟

هذه المسائل تجعلنا نرفض مقولة التوراة لأن ذلك مخالف للمنطق وللعقل ولا يرتبط لا من بعيد ولا من قريب بمسألة الصراع بين الخير والشر اللذين يمثل أحد طرفيهما الشيطان.

أما في القرآن الكريم فتقول الآيات الكريمة:

(إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين) الحجر 31، (إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) البقرة 34.

---

(1) التوراة سفر التكوين الإصحاح الثالث من 1 ـ 6.

وفي الكهف: (فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه).

وفي الأعراف: (إلا إبليس لم يكن من الساجدين).

وفي سورة الأعراف قال: (فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين قال أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين).

ففي الآيات الكريمة عدة تنبيهات نتوقف عندها.

أولها: أن إبليس لم يسجد ورفض أمر الله سبحانه فلعنه وأمره بالخروج من الجنة.

ثانيها: أن إبليس طلب من الله أن ينظره فأنظره إلى يوم يبعث البشر بعد موتهم.

ثالثها: إذا كان الله قد طرد إبليس من الجنة فكيف رجع إليها ووسوس لآدم وزوجته وأغواهما وأضلهما؟

وقد حذر الله آدم وزوجته من الشيطان وصرحت الآيات الكريمة أن الشيطان عدو لكما فلا تتبعاه.

ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل (فلما أسكن الله آدم وزوجته الجنة أطلق لهما أن يأكلا كل ما أرادا من كل ثمارها غير ثمرة شجرة واحدة ابتلاء منه لهما وليمضي قضاؤه فيهما وفي ذريتهما فوسوس لهما الشيطان وكان سبب وصوله إليهما أنه أراد دخول الجنة فمنعته الخزنة (الملائكة) فأتى كل دابة من دواب الأرض وعرض نفسه عليها أن تحمله حتى يدخل الجنة ليكلم آدم وزوجته فكل الدواب أبى عليه حتى أتى الحية وقال لها أمنعك من ابن آدم فأنت في ذمتي إن أنت أدخلتني فجعلته بين نابين من أنيابها ثم دخلت به وكانت ماشية على أربع قوائم من أحسن دابة خلقها الله فأعراها الله وجعلها تمشي على بطنها.. فلما دخلت الحية الجنة خرج إبليس من فيها، فناح عليهما

نياحة أحزنتهما حين سمعاها فقالا له ما يبكيك قال أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة والكرامة فوقع ذلك في نفسيهما ثم أتاهما فوسوس لهما وقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى... الخ)[1].

فابن الأثير وضع الخبر دون إرجاعه إلى سند يثبت هذا الكلام. فلو كان الكلام مسندا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسلمنا به لكنه لم يسنده فهو خبر قابل للتصديق وغير خال من الشك أو التكذيب.

والذي نفهمه من سياق الآيات الكريمة أن إبليس قد طرد من الجنة وأن الله حذر آدم وحواء منه، لكنه وسوس لهما. والوسواس هو الحديث المخفي الأشبه بالهمس داخل النفس فليس شرطا أن يكون إبليس قد دخل الجنة بهيئته من خلال الحية إنما الذي نقترب منه أنه وسوس في نفس حواء وآدم وسواسا من بعيد. ولا يصح أصلا أن يدخل إبليس الجنة وقد غضب الله عليه وأخرجه منها. ولا يتجرأ إبليس أن يخالف أمر ربه مرة أخرى لأنه يعرف عقاب من يخالف أمر الخالق. وتحذير الله لآدم وحواء من إبليس هو تحذير من وسوسته وإغوائه. وطالما أن إبليس مخلوق من نار وقد منحه الله ما طلب من حيث إفساده في الأرض وبين الناس، فكان أول عمل قام به إفساد عقل آدم وحواء وإغواءهما، وبذلك اعتبر آدم أول ضحية من ضحايا إبليس.

غير أنه لا يغيب عن ذهننا أن الله سبحانه جعل هبوط آدم من الجنة لأسباب توجب ذلك وكي يتم امتحان آدم وزوجته وهبوطهما إلى الأرض واستخلاف الإنسان فيها كما أراد الله بعلمه السابق جاءت قصة الخلق ثم سجود الملائكة لآدم ورفض إبليس ثم استطاعه إبليس على إغواء آدم وزوجته وهبوطهما إلى الأرض بسبب عصيانهما لأمر الله سبحانه وتعالى.

وحتى يكون الدرس واضحا لبني البشر فقد تسلسلت الأحداث

---

(1) ابن الأثير الكامل في التاريخ صفحة 33.

والحوارات تسلسلا منطقيا يستوعبه العقل ولا يخالفه.

قد يقول قائل إذا كان الله سبحانه قد خلق آدم وحواء في الجنة ليعيشا فيها بأمان فلماذا غضب عليهما ثم أنزلهما من الجنة إلى الأرض؟ أليس في ذلك ظلم لبني البشر؟.

وللرد نقول إن الله سبحانه قال: (إني جاعل في الأرض خليفة). فالله خلق الإنسان ليكون في الأرض يعمرها ويستخلفه فيها أما مسألة وجوده في الجنة ثم عصيانه لأمر ربه وهبوطه إلى الأرض فهذه كلها تشكل الدرس الأول لبني البشر حيث تعلمهم أن أي إنسان سيتعرض للامتحان والصراع مع الشيطان. فإن تغلب عليه كان الرابح في دنياه وآخرته وإن غلبه الشيطان فإن مصيره سيكون مصير من غضب الله عليه وهذا الدرس ليس القصد منه ظلم بني البشر. لقد ركب الله الإنسان تركيبا عجيبا حيث وضع فيه العقل الذي يميز وعلمه ما هو الخير وما هو الشر وحذره من الشيطان وعاقبة من يتبعه، فالإنسان الأول ـ آدم ـ اختار بملء إرادته طريقه، ولو أن الله سبحانه أراد له أن يكون صالحا دون التعرض للصراع مع الشر لما كان هناك سبب لخلقه وامتحانه ومحاسبته حسب أعماله.

أما الشجرة المحرمة فقد ذكرتها التوراة بالنص التالي (فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت زوجها أيضا معها فأكل فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان).

وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها.

فواضح من النصوص التوراتية أن في الجنة شجرتين. شجرة معرفة الخير

والشر وشجرة الخلود، والسياق التوراتي يدل بشكل أو بآخر على أن الله حينما يقول لعله يمد يده.. فإنه يدلل على أن الله يخمن أو يظن وهذه ليست من صفات الله الذي يعلم ما يخفى وما يسر في النفوس.

لقد غاب عن التوراة تماما أن الله خلق الإنسان ليكون في الأرض يعيش ثم يموت ثم يبعث يوم الحساب.

يقول تعالى: (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين).

وقال تعالى: (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما...).

واضح من خلال النصوص القرآنية أن هناك شجرة واحدة في الجنة هي شجرة المعرفة حيث أن آدم وامرأته لما أكلا منها عرفا أنهما عريانان.

أما أن هناك شجرة الخلد فهذا ما قاله الشيطان في وسوسته لآدم. هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى. ولو أنها فعلا شجرة الخلد لعاش آدم وخلد هو وزوجته لأنه أكل منها. إنما أراد الشيطان أن يزين لآدم قيمة هذه الشجرة ومكانتها ليغريه بها ويطمع بما ليس له به علم.

وفي هذا السياق نود أن نشير إلى أن التوراة جعلت الحية تفتن حواء وحواء تفتن زوجها آدم، بمعنى أن حواء هي التي أغوت آدم ولذلك حملتها التوراة الخطيئة الأولى، وقد قالت التوراة بصدد ذلك:

(فقال من أعلمك أنك عريان: هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها. فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرب الإله للمرأة ما هذا الذي فعلت فقالت المرأة الحية غرتني فأكلت فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك... وقال للمرأة تكثيرا أكثر أتعاب حبلك وبالوجع تلدين أولادك.. وقال لآدم لأنك

سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك... ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك).

بينما لو توقفنا مع آيات الكتاب الكريم نرى أن لا وجود لتحمل امرأة آدم وزر الخطيئة.

يقول تعالى في سورة طه الآية 120: (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى).

وقال تعالى في سورة الأعراف الآية 20 ـ 21: (فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري من سوءاتهما فقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين).

فمن خلال ما تقدم نرى أن الشيطان وسوس لآدم فأزله وأزل زوجته ولم يرد أن المرأة هي التي أغوت آدم بعد أن أغوتها الحية كما قالت التوراة.

ونعود لدراسة نتائج هذه الخطيئة التي ارتكبها آدم وزوجته لنرى ما قالته التوراة وما يقوله القرآن الكريم.

1 ـ في التوراة لعن الرب الإله الحية من بين جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، وجعلها تحيا سعيا على بطنها دون أرجل وتأكل التراب طوال حياتها.

2 ـ كون المرأة لتتعب في حملها ولا تلد إلا بالوجع.

3 ـ أما آدم فقد لعن الرب الإله الأرض بسببه، وبالتعب يأكل كل أيام حياته.

أما في القرآن فليس هناك أي وجود للحية.

وليس هناك حديث عن زوجة آدم وكيف تحبل أو تلد.

وليس هناك لعنة من الله على الأرض بسبب خطيئة آدم.

١) فلعنة الله التي لعن بها الحية غير مقبولة لأنها لو كانت فعلا ملعونة لما اختارها الله لتكون عصا موسى التي لقفت كل مافعله السحرة، ولكان الله قد اختار حيوانا آخر غيرها. ثم إن الله سبحانه حرم أكل لحم الخنزير بالنص الحرفي أفليس أولى أن تكون اللعنة عليه وليس على الحية، ثم إن الله سبحانه لم يلعن مخلوقا من مخلوقاته سوى الشيطان الذي رفض أمر ربه. ومعلوم أن الشيطان ليس حيوانا أو وحشا من وحوش البرية إنما هو مخلوق عاقل من نار يحاور ويفكر ويرفض.

2) ثم إن الحية لايتوقف أكلها على التراب، فهي تسكن في الشتاء ويقال إنها تأكل التراب طوال فصل الشتاء لكنها في الربيع والصيف ومعظم الخريف تأكل فئران البرية والضفادع والحشرات الأخرى والعصافير الصغيرة وكثير من الشعوب يقدس الحية بل إن كثيرا من البشر يروضونها ويربونها لاسيما في تايلاند والهند وغيرهما وقد رأينا وسمعنا كيف أن بعض فرق السيرك تدرب الثعابين على فعل أشياء تدهش الإنسان، دون أن تؤذيه.

ثم إن هناك حيات تعيش في البحر وهي سامة وقاتلة لكنها تسبح في جوف الماء ولا تسعى على بطنها ولا تأكل التراب بل تسبح سباحة وتأكل صغار الأسماك وما شابهها.

ثم إن الحية ليست الوحيدة التي إذا لدغت الإنسان بسمها تؤذيه أو تقتله فهناك العقرب وهو أشد فتكا إذ سمم الإنسان وهناك العنكبوت الأسود السام وغير ذلك من الحشرات والوحوش.

وينتهي الإصحاح الثالث في التوراة عند قولها: فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب... الخ.

وعند هذا الحد نرى أن آدم وحواء طردا من الجنة إلى الأرض وراحا يعملان فيها وينجبان الأولاد بينما في القرآن الكريم لا تتوقف الأمور عند هذا الحد. فآدم الذي اخطأ لم يقطع صلته بخالقه وعلى الرغم من طرده من الجنة فقد أدرك أن خطأه هو السبب في الخروج من دار النعيم إلى دار التعب، وعلى الرغم من ذلك أيضا أدرك أنه لو تخلى عن ربه فلن يكون خليفة الله في أرضه ولن يعمرها.

وحواء التي ظلمتها التوراة وجعلتها سبب الخطيئة نراها في القرآن الكريم تشارك آدم استغفار الله والاعتراف بالذنب.

يقول تعالى في سورة الأعراف الآية 23: (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين).

ويقول تعالى في سورة البقرة الآية 37: (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم).

ويقول تعالى في سورة طه الآية 122: (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى).

أما في قصة تعليم الله آدم الأسماء فلا نجد كثير خلاف بين ما ورد في التوراة وما ورد في القرآن الكريم. والخلاف المهم هنا هو أن الله سبحانه أراد أن يبرهن للملائكة أنهم عاجزون أمام آدم الذي خلقه والذي كان مثار تساؤل من قبل الملائكة عن كيفية خلق من سيفسد في الأرض ويسفك الدماء فيها.

ترى التوراة أن الله علم آدم أسماء الأشياء التي سيستعملها ويتعرف عليها لأنها ترتبط بشؤون حياته. بينما يرى القرآن أن السبب في ذلك هو إظهار الله لعجز الملائكة أمام ما خلق الله.

تقول التوراة: (وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها. وكل ما دعا به آدم ذات نفس

حية فهو اسمها فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية وأما لنفسه فلم يجد معينا نظيره).

أما بالنسبة لما ورد في القرآن الكريم فقد اختلف العلماء في الأسماء فقال الضحاك عن ابن عباس، علمه الأسماء كلها التي تتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وجبل وفرس وحمار وأشباه ذلك.

وروي عن الحسن وقتاده أنهما قالا لما أعلم الله الملائكة بخلق آدم واستخلافه وقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ثم قال: إني أعلم ما لا تعلمون قالوا فيما بينهم ليخلق ربنا ما يشاء فلن يخلق خلقا إلا كنا أكرم على الله وأعلم منه. فلما خلقه وأمرهم بالسجود له علموا أنه خير منهم وأكرم على الله منهم فقالوا إن يك خيرا منا وأكرم على الله منا فنحن أعلم منه، لما أعجبوا بعلمهم ابتلوا بأن علمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. إني لا أخلق أكرم منكم ولا أعلم منكم ففزعوا إلى التوبة، وقالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قالا وعلمه اسم كل شيء من هذه: الخيل والبغال والإبل والجن والوحش وكل شيء. وقال الربيع علم أسماء الملائكة خاصة[1].

أما ما يتعلق بشأن الجنة التي أسكن آدم فيها فسنرى اختلافا جوهريا بين ما قالته التوراة وما قال به القرآن الكريم.

ففي التوراة ورد: (وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقا ووضع هناك آدم الذي جبله، وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد هناك المقل وحجر الجزع. واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش واسم النهر الثالث حداقل وهو الجاري

---

(1) ابن الأثير الكامل في التاريخ ص 31 ـ 32.

شرقي أشور. والنهر الرابع الفرات). الإصحاح الثاني.

(فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها. فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة).

أما في القرآن الكريم فيقول تعالى في سورة البقرة الآية 35: (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين).

وفي سورة الأعراف آية 19: (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين).

أما بالنسبة لما ورد في التوراة فالجنة دنيوية وليست هي الجنة التي يدخلها الصالحون، والواضح أنها تقع شرقا عند منابع دجلة والفرات.

يقول ابن حزم الظاهري الأندلسي: في هذا الكلام من الكذب وجوه فاحشة قاطعة بأنها من توليد كذاب مستهزئ.

أول ذلك: إخباره أن هذه الأربعة تفترق من النهر يخرج من جنات عدن التي أسكن الله فيها آدم: إذ خلقه فأخرجه منها إذ أكل من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن أكلها وكل من له أدنى معرفة بالهيئة وبصفة الربع المعمور من الأرض الذي هو في شمال الأرض أو من مشى إلى مصر والشام والموصل يدري أن هذا كله كذب فاضح وأن مخرج النيل من عين الجنوب من خارج المعمور ومصبه قبالة تنيس وقبالة الإسكندرية في آخر أعمال مصر في البحر الشامي وأن مخرج الدجلة والفرات وجيحان من الشمال.

فأما جيحان فيخرج من بلاد الروم ويمر ما بين الحصيصة وربضها المسمى (كفر تيا حتى يصب في البحر الشامي على أربعة أميال من الحصيصة

وأما دجلة فمخرجها من أعين بقرب(خلاط) من عمل أرمينية بقرب آمد من ديار بكر وتصب مياهها في البطائح المشهورة بقرب البصرة في أرض العراق متاخمة أرض العرب. أما الفرات فمخرجه من بلاد الروم على يوم من قالي قلا قرب أرمينية ثم يخرج إلى ملطية ثم بأخذ على أعمال الرقة إلى العراق وينقسم إلى قسمين كلاهما يقع في دجلة)[1].

أما بالنسبة للجنة التي كان فيها آدم وطرد منها (فإن العلماء اختلفوا أهي جنة المأوى التي وعد الله المتقين أن يدخلوها في الآخرة أم هي جنة من جنات الأرض). والجمهور على أنها جنة المأوى أخذا بظواهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى: (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) وحديث مسلم عن أبي هريرة: (يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم)[2].

وقال فريق من العلماء إن الجنة التي سكنها آدم وحواء كانت من جنات الدنيا لأنه كلف فيها ألا يأكل من الشجرة ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها ووسوس إليه ولغا آدم وعصى ربه فيها وهذا ينافي أنها جنة المأوى.

وقد حكي هذا القول عن أبي بن كعب وعبد الله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عيينة واختاره القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة في تفسيره وأفرد له مؤلفا على حدة وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رضي الله عنهم ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي ابن خطيب الري في تفسيره عن أبي القاسم البلخي وأبي مسلم الأصفهاني ونقله القرطبي في تفسيره عن

---

(1) الفصل بين الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسي الجزء 1 صفحة 203 ـ 204 دار الجيل بيروت دون تاريخ.

(2)أخرجه مسلم رقم 195، والبغوي رقم 4347 ـ وانظر البداية والنهاية 75/1.وقصص الأنبياء لابن كثير.

المعتزلة والقدرية وحاصل الخلاف فيها على أقوال:

1 ـ إنها جنة المأوى.

2 ـ إنها جنة سوى جنة المأوى اخترعها لآدم وحواء.

3 ـ إنها جنة من جنات الأرض.

4 ـ التوقف في أمرها.

يعترض القائلون بأن الجنة التي وجد آدم فيها كانت من جنات الدنيا فيقولون لو أن آدم كان في جنة الخلد فكيف يبحث عن شجرة الخلد ليأكل منها وما فائدة ذلك؟.

والآخرون يعارضون بالمثل قائلين إذا كان آدم في جنة من جنات الدنيا كما تقولون فكيف يبحث عن شجرة الخلد في دار لا خلود فيها.

وقال بعض المفسرين إن الجنة التي كان فيها آدم هي جنة اخترعها الله في السماء فليست دار الخلد ولا جنة من جنان الدنيا[1].

أما في ظاهر اللفظ فإن آدم وحواء قد أمرا أن يهبطا. والهبوط يكون من الفضاء. نقول هبطت الطائرة وهبط الطائر فلو كانت الجنة من جنان الأرض نقول نزلا على افتراض أنها في مكان مرتفع من الأرض. فالجنة في السماء غير أننا لا نجزم أهي جنة المأوى أم جنة خلقها الله لآدم وزوجته خصيصا حتى يتم أمره وامتحانه لآدم على الأرض.

وقد مر معنا كيف وصفت التوراة تلك الجنة والأنهر التي تغذيها وليس في التوراة وصف آخر لجنة الخلد التي أعدها الله للمتقين المؤمنين، بينما في القرآن الكريم وردت آيات كثيرة تتحدث عن الجنة ووصفتها وصفا تفصيليا.

ولنا هذه الوقفة مع تلك الآيات الكريمة التي تحدثت عن الجنة.

---

(1) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء صفحة 35 ـ 36.

ففي سورة الفجر الآية 27 ـ 30: (يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي).

فالجنة هنا مكان عودة النفس المطمئنة المؤمنة.

وفي سورة البروج الآية 11: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير). فالجنة تجري من تحتها الأنهار وهي للذين آمنوا وعملوا الصالحات حصيلة وجزاء.

وفي سورة ق الآية 31 ـ 35: (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون، لكل أواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد).

فالجنة وقف على المتقين وهي وعد الرحمن الذي وعده لهم في الحياة الدنيا. إنها لكل عائد إلى ربه ودينه ولكل من خافه وجاءه بقلب نظيف. إنها دار الخلود وفيها ما يحلو للمؤمنين.

وفي سورة ص الآية 49 ـ 50: (وإن للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الأبواب).

فأبواب الجنة مفتوحة للمتقين مغلقة في وجه الكافرين.

وفي سورة مريم الآية 61 ـ 62: (جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب... لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما).

فالجنة وعد الرحمن وهي المكان الذي لا لغو فيه بل حديث السلام والمحبة.

وفي سورة يونس الآية 26: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون).

ففي الجنة لا فتور ولا ذل بل خلود دائم ونعيم.

وفي سورة الحجر الآية 45 ـ 46: (إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين).

فدخول الجنة يتم بسلام وأمان فلا خوف ولا قلق ولا رعب.

وفي سورة الزمر الآية 73: (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا...).

يدخل المؤمنون الجنة جماعات تحفهم الملائكة بسلام.

وفي سورة الزخرف الآية 70: (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون).

فالسعادة والحبور يعمان المؤمنين الذين يدخلون الجنة.

وفي سورة الذاريات الآية 15: (إن المتقين في جنات وعيون).

وفي سورة الكهف الآية 31: (لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار..).

وفي سورة النحل الآية 32: (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون).

وفي سورة السجدة الآية 19: (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى).

وفي سورة البقرة الآية 25: (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون).

إذا فالجنة دار المؤمنين، وهذه غاية الغايات في آيات القرآن الكريم. فيها الراحة النفسية وفيها ما يشاء المؤمن من متع. ولم يرد في التوراة أنها هكذا. وذلك يعود إلى عدم إيمان اليهود بيوم البعث والآخرة وهذا سنعود له في صفحات قادمة. بعد ذلك كله نصل إلى سؤال لا بد أن يطرح.

هل كان آدم نبيا ورسولا أم أنه كان أول مخلوق بشري في هذه الأرض؟

لم يذكر القرآن الكريم لفظ النبوة بشأن آدم مثلما ذكرها بشأن الأنبياء كإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم. ولكن ذكر أنه خاطبه بلا واسطة وشرع له في ذلك الخطاب فأمره ونهاه وأحل له وحرم عليه بدون أن يرسل إليه رسولا. فمن هذه الناحية نقول إنه نبي وأما رسالته فالأمر فيها مختلف فيه وشأننا أن نفوض علم ذلك إلى الله تعالى[1].

لكن بعض السائلين يسأل إذا كان آدم نبيا فكيف عصى والأنبياء معصومون من المعصية، والجواب منه حسب رأي عبد الوهاب النجار أن يكون ذلك منه على سبيل النسيان وإنما سمي ما أتاه خطيئة ومعصية. وخطيئته كانت قبل النبوة المستلزمة للعصمة من المعصية[2].

والذي نميل إليه أن الله سبحانه عندما خلق آدم في الجنة لم يكن نبيا ولا حاجة لنبوته رغم وجود الأوامر والنواهي الربانية. إنما تبرز نبوته من خلال تفحصنا للآية الكريمة التي تقول. (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) طه122.

والآية التي تقول: (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم).

فخطيئة آدم في الجنة هي خطيئة إنسان أي إنسان. ولا حاجة لنبوة آدم في الجنة لأنه سيكون معصوما عن الخطأ وهذا سيخالف ما أراده الله من استخلاف آدم في الأرض، ثم عندما تقول الآية الكريمة فتلقى آدم من ربه كلمات، فإنه تلقاها في الأرض بعد أن أخرجه الله من الجنة وبعد أن استغفر آدم لذنبه وقبل الله سبحانه توبته فتاب عليه ثم اصطفاه - اجتباه - ومعنى

---

(1) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء صفحة 38.

(2) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء صفحة 39.

اجتباه أي اختاره لنفسه واختيار الله بعض البشر يبدأ بالأنبياء لأنهم المصطفون أولا.

وإذا عدنا إلى قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات يوحي بأن التلقي لم يكن مباشرة من الله لآدم إنما كان عن طريق الوحي. قد تحدث الله سبحانه مع آدم في الجنة دون وحي لأنه لا حاجة للوحي هناك. بينما عندما هبط آدم في الأرض وبدأ حياته الأرضية كان لابد أن يتلقى بعض الكلمات الموجهة عن طريق جبريل، وباعتبار أن الله سبحانه سيستخلفه في الأرض كان لابد أن يبدأ سلسلة حياته على الأرض بالدعوة للخير وليس بالدعوة للشر ليكون الخير أسبق وهذه حكمة إلهية غير خافية. ولو أن الحياة البشرية بدأت بالشر لكان آدم أول شرير أو أول عاص على وجهها. فلذلك بدأ آدم حياته في الأرض بالنبوة. ورسالته هي تلك الكلمات التي تلقاها من الله ليبلغها لأولاده القادمين حتى لا يكونوا أشرارا كافرين بالله.

إذا آدم نبي مرسل ورسالته الدعوة الأولى إلى التوحيد. لكن ذلك لا يمنع أن نقول إنه ليس من الأنبياء ذوي العزم. فقد قالت الآية الكريمة في سورة طه (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما). وخطيئتة أنه نسي وهذا ما جعله نبيا ولكن من دون عزم.

صورة آدم في التوراة والقرآن:

تشير التوراة في أكثر من مكان إلى أن الله خلق آدم على صورته. وبعض المفسرين قالوا ليس في ذلك شيء من الغرابة إذ المعنى أن الله خلق آدم على صورة آدم نفسه الذي نراه ونعهده وليست الهاء تعود إلى الله بل تعود لآدم. وبعضهم قال إن الهاء عائدة لله وهذا من التجديف التوراتي الذي خلق مقولة شعب الله المختار وأن اليهودي مخلوق من روح الله المقدس ذاته يقول سفر التكوين (وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا).

(فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم) 26 ـ 27 ـ 28.

يقول ابن حزم: (ولو لم يقل إلا كصورتنا لكان له وجه حسن ومعنى صحيح وهو أن نضيف الصورة إلى الله تعالى إضافة الملك والخلق كما تقول هذا عمل الله وتقول للقرد والقبيح والحسن هذه صورة الله أي تصوير الله والصفة التي انفرد بملكها وخلقها. لكن قوله كشبهنا منع التأويلات وسد المخارج وقطع السبل وأوجب شبه آدم لله عز وجل.

وهذا يعلم بطلانه ببديهة العقل إذ الشبه والمثل معناهما واحد وحاشا لله أن يكون له مثل أو شبيه)[1].

وكلام ابن حزم واضح في الرد على اليهود. إذ أنهم يرجون من ذلك أن يكون آدم ونسله من الذين انتقاهم الله حتى وصل انتقاؤه لأجداد العبرانيين أن يكونوا على صورة الله وشبهه إذ أنهم وحسب اعتقادهم خير من بقية بني البشر.

ولعل كلامهم هذا يقودنا إلى قول التوراة (هذا آدم قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها). التكوين الإصحاح 3: 22 ـ 23.

فـ (حكايتهم عند الله تعالى أنه قال هذا آدم صار كواحد منا مصيبة من مصائب الدهر وموجب ضرورة أنهم آلهة أكثر من واحد. ولقد أدى هذا القول الخبيث المفتري كثيرا من خواص اليهود إلى الاعتقاد أن الذي خلق آدم لم يكن إلا خلقا خلقه الله تعالى قبل آدم وأكل من الشجرة التي أكل منها آدم فعرف

---

(1) الفصل بين الملل والأهواء والنحل. ابن حزم الأندلسي صفحة 202 المجلد الأول.

الخير والشر ثم أكل من شجرة الحياة فصار إلهاً من جملة الآلهة نعوذ بالله من هذا الكفر الأحمق)[1].

أما في القرآن الكريم فتذكر الآيات الكريمة أن الله سبحانه خلق آدم من تراب لكنّ نسله خلق من ماء مهين.

ففي سورة السجدة الآية 7 ـ 8 ـ 9 يقول تعالى: (الذي أحسن كلّ شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه...).

وفي سورة النور يقول تعالى: (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير). الآية 45.

وفي سورة المؤمنون: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) الآيتان 12 ـ 13 (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) الآية 14.

وصورة آدم حسب ما قالته التوراة جعلت كثيراً من الباحثين اليهود والغربيين يرفضون مقولات التوراة ويتهمونها بالتحريف تارة ومجافاة المنطق تارة أخرى.

فأقدم فلاسفة اليهود وهو فيلون الإسكندري لم يستطع أن يقبل الصفات والأنباء التي أسندت إلى الله في كتب اليهود بدلالتها الحرفية ونصوصها الظاهرة. وكان مبدأ فيلون ومذهبه مبدأ ثورة دينية في بني إسرائيل فتابعه أناس في التأويل والتفسير وأحجم أناس عن كل تأويل وتفسير مشفقين على التراث

(1) الفصل بين الملل والأهواء والنحل. ابن حزم الأندلسي صفة 207 المجلد الأول.

القديم[1].

ويقول القصّاص اليهودي (شو لم آش Sho Lem Asch) في كتابه ما أعتقد، خلق الله الإنسان على صورته وعاد الإنسان فخلق الله على صورته وتمثله في طبعه ودرج من أقدم الأزمان أن يزدلف إلى الله ويصفه بما هو أجمل الصفات وأفضلها في نظره. وكل جيل من أجيال البشر يرفع إلى الله خلاصه ثمرات عصره. وكل جيل من أجيال البشر قد صور الله على الصورة المثلى التي يستمدها من خلائقه ومزاياه. ومن هنا أصبحت الربوبية أوجاً تلتقي فيه أفضل الفضائل التي تتخيلها الشعوب)[2].

ماذا يقول القرآن الكريم في خلق الإنسان؟

كثيرة هي الآيات الكريمة التي تشير صراحة إلى خلق آدم ومن ثم إلى خلق الإنسان بشكل عام وإذا تتبعنا التسلسل القرآني في هذا الخلق سنجد أن الله سبحانه خلق آدم أولاً ثم خلق زوجته ثانياً وبعد الهبوط إلى الأرض بدأ التناسل البشري حيث تبدأ سيرة أبناء آدم وهكذا حتى يومنا هذا.

فآدم خلقه الله من تراب كما نصت بذلك الآيات صراحة.

يقول تعالى في سورة الحجر الآية 26: (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حماء مسنون).

وفي سورة ص الآية 71 يقول تعالى: (إذ قا ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين).

وفي سورة الإسراء الآية 61 (فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا).

(1) عباس العقاد، الله، صفحة 165 ـ 166.

(2) عباس العقاد، الله، صفحة 170.

وفي سورة ص الآية 76: (قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين).

ويقول تعالى في سورة الحج آية 5: (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب).

ويقول تعالى في سورة الروم آية 20 (ومن آياته أن خلقكم من تراب...).

فأصل الجسد البشري طين وجاءت هذه معجزة في حد ذاتها، ولم يترك الله سبحانه هذا الخلق لغزاً محيراً فالذي يشك فيه يعود إلى القرآن الكريم ليرى أن آياته حاججت العقل البشري بموضوعية وعلم ليدرك بنو البشر أن الجسد مخلوق من طين حقاً.

تجيبنا آيات الكتاب المبين أن آدم خلق من تراب وعندما ركب فيه الروح والنفس والعقل طور خلقه بحيث أصبح الإنسان نفسه وسيلة من وسائل خلق غيره. وبمعنى آخر إن خلق آدم لن يتكرر إلا لمعجزة وأصبح الرجل والأنثى سببين من أسباب الإنجاب وزيادة الخلق.

يقول تعالى في سورة السجدة الآية 7 ـ 8 (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين).

وتعني الآية ما قلناه قبلها. لقد كانت بداية الخلق من طين أما نسل آدم الذي يليه فقد خلقه الله من سلالة من ماء مهين وهذه السلالة توضحها آيات أخريات.

يقول تعالى في سورة المؤمنون الآيات 12 ـ 13 ـ 14 (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين).

فسلالة من طين هي التراب ـ الصلصال ـ الحمأ المسنون (الفخار).

وسلالة من ماء مهين هي نطفة ـ علقة مضغة (عظام).

والسلالتان تتطابقان من حيث الفاعلية.

التراب في السلسلة الأولى هو الأصل في عملية الخلق.

النطفة في السلسلة الثانية هي الأصل في عملية الخلق.

التراب يعجن فيصبح صلصالاً أي طيناً طرياً ثم يابساً كالفخار.

النطفة تلتقي بالبويضة فتصبح علقة أي دماً متجمداً.

الصلصال بعملية الحرق يصبح أسود اللون ومصوراً صورة إنسان أجوف. والعلقة تنتقل بعملية الخلق إلى مضغة وهي قطعة أشبه باللحم وهي على قدر ما يمضغ، الفخار آخر عملية الخلق الأولى لآدم.

والعظام آخر عملية الخلق الثانية أي بعد آدم.

فإذا ما اكتست العظام لحماً تكون خلق الجنين في رحم أمه.

وإذا ما نفخ الله الروح في الفخار صار إنساناً يتنفس ويحس ويشم. وقد جاء في الآيات الكريمة قوله تعالى (فسويته) وهذا يعني أن لا خلق بدون تسوية ولا سجود من قبل الملائكة لآدم دون تسوية أي دون تشكيل لهذا الطين ووضع الروح فيه. وبدون تسوية يبقى الشكل لا ملامح له ولا سمات ولا وضوح ولا تقسيمات لليد والوجه وكل جزئيات الجسم.

وقد أكدت الآيلت القرآنية الكريمة عمليتي الخلق الأولى والثانية في أكثر من مكان وأكثر من سياق وفي مجملها كانت حجة على الإنسان، على تكبره، على تفاخره وغروره. يقول تعالى في سورة الطلاق الآية 5 ـ 6 ـ 7: (فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) فهذا الخلق يعود إلى الأصل التناسلي وليس إلى أصل خلق آدم أول البشر).

هل آدم هو أول البشر ولم يكن أحد قبله من جنسه؟

طرح هذا السؤال علماؤنا وعلماء الغرب وخرجت بذلك نظريات متناقضة حول ذلك وأول ما طرح مشكلة حول هذا التساؤل التواريخ التوراتية التي وردت في سفر التكوين وهي بمجملها تناقض ما أتت به نظريات العلم الحديث ولاسيما النظريات الجيولوجية وعلم الآثار.

وخرجت لنا نظرية التطور والارتقاء التي أظهرها العالم اليهودي داروين وقد رأى بعض العلماء العرب رأيه وإن اختلفوا معه في بعض القضايا الهامة.

وقد أجمع جمهور من العلماء المسلمين على القول إن آدم هو أول مخلوق بشري، واستندوا بذلك على تفسير بعض الآيات القرآنية المشيرة لخلق آدم.

أما التوراة فإنها تبدأ سلسلة تاريخية وتحددها، وسفر التكوين يقدم في أنسابه بالإصحاحات 4 ـ 5 و 11 و 21 و 25 معطيات غاية في الدقة عن كل أسلاف إبراهيم من صلب مباشر منذ آدم. ولما كان سفر التكوين يعطي مدة حياة كل منهم وعمر الأب عند ميلاد الابن فإنه يسمح بيسر بتحديد تواريخ ميلاد ووفاة كل سلف بالنسبة لخلق آدم.. فتاريخ الوفاة بعد خلق آدم هي 930 أي أن عمره بالتمام 930 عاما والفارق بينه وبين إبراهيم هو 2123 عاما والفارق بين إبراهيم وعيسى عليهما السلام يتراوح بين 1950 عاما و 1800 عام فعام 1975م يتفق مع عام 5736 منذ خلق العالم. إذا فالإنسان الذي يجيء خلقه بعد خلق العالم بعدة أيام قديم نفس القدم الذي يحصيه التقويم اليهودي لخلق آدم[1].

ومعلوم أن الله خلق آدم في اليوم السادس بعد أن خلق السموات والأرض والحيوانات والأنوار. فهل حقا أن عمر العالم قبل خلق آدم بقليل. هل حقا أن عمر الأرض والسماء والشمس والقمر وما بينهما لا يتجاوز الستة آلاف سنة؟ إذا

(1) موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم صفحة 47 ـ 48.

كان آدم خلق في 5755 حسب عام 1994 ـ وهذا هو التقويم العبري ـ فهل كان خلق الأكوان قبله بقليل على اعتبار أن آدم خلق في اليوم السادس من أيام الخلق الستة؟.

يقول موريس بوكاي (أما فيما يخص تاريخ ظهور الإنسان على الأرض فالمعطيات العلمية الحديثة تسمح بتعريفه بأبعد من حد دقيق فقط. نستطيع أن نقتنع أن الإنسان كان يوجد على الأرض ولكن لا أحد يستطيع أن يحدد بشكل دقيق تاريخ ظهوره ومع ذلك فيمكن أن نؤكد اليوم وجود أطلال لإنسانية مفكرة وعاملة ويُحسب قدمها بوحدات تتكون من عشرات من ألوف السنين.

يعود هذا التاريخ التقريبي على نموذج إنسان ما قبل التاريخ الذي اعتبر أكثر النماذج قرباً للنموذج Neoanthropiens (إنسان كرومانيون) ولا شك أن هناك اكتشافات أخرى لبقايا يبدو أنها إنسانية قد تمت في نقاط عديدة من الأرض وهي تخص أنماطاً أقل تطوراً. ويقدر حجم قدمها بوحدات من مئات ألوف السنين ولكن هل هم حقاً بشر حقيقيون وهذا ما يسمح بوضع أوائل البشر أبعد بكثير من العصر الذي يحدده سفر التكوين لآدم هناك إذاً استحالة اتفاق واضحة بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان على الأرض وبين أكثر المعارف تأسساً في عصرنا)[1].

أما نظرية التطور والارتقاء فملخصها أن أصل الإنسان قرد. وقد ظهر رأي أصحاب هذه النظرية في أوروبا وقد أشاعوا هذا الرأي ودافعوا عنه. وهذه النظرية لم تزل موضع بحث للأخذ والرد ولها أنصار مؤيدون كما أن لها خصوماً يبطلونها. والقرآن الكريم وضّح بنصوصه الظاهرة على أن أصل الإنسان لم يكن قرداً تحول شيئاً فشيئاً، لكن نظرية داروين لم تبلغ من المتانة هذا الحد الذي يجعلها أمراً قطعياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هل يتصور

(1) موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل صفحة 51.

أن الغوريلا وسائر الفصيلة القردية تهب لعمران الأرض كما عمرها الإنسان فيما لو أمرت؟[1].

وقد تأثر بنظرية داروين كثير من العلماء والباحثين العرب أمثال الدكتور مصطفى محمود. غير أنهم استندوا في ذلك على تفسيرات لبعض آيات القرآن الكريم بشكل مغاير لما عهدته التفاسير، فهذا الفريق الذي يرجح أن آدم ليس أول جنسه يستأنسون لذلك بقول الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء). ويقول إن الملائكة لم يقولوا ذلك إلا لرؤيتهم من تقدموا آدم من الخلق الذين كانوا على صورته فقد فعلوا ذلك. وإنما آدم كان خليفة عن بشر كانوا من جنسه وبادوا. والبعض الآخر من هذا الفريق فسر قوله تعالى: (وخلقنا الإنسان من سلالة من طين). أنها تعني أن آدم هو الشكل الأخير لمجموعة من المخلوقات التي سبقته.

وآخر من قال في هذا الشأن الباحث عبد الرحمن غنيم في كتابه مذكرة البحث عن آدم (فيرى أن الإنسان تطور من مضغة إلى عروس بحر بأشكال متعددة فإنسان يمشي على أربع فمعتدل القامة ثم جاء طور آدم الذي أنشئ من ذرية قوم آخرين).

ويقول (هناك إذن نظرية نشوء وتطور قرآنية هي غير نظرية النشوء والتطور الداروينية لكنها تلتقي معها في إطار عام. ومن بين الآيات المرجحة لسلامة ما ذهبنا إليه أن انفراز التويتات الأولى (العلق) في الطين لتتحول إلى أجنة (مضغات مخلقة وغير مخلقة منها الذكر والأنثى وهي النسل) يتفق مع قوله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا).

---

(1) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء صفحة 43.

ومما يدلل على تطور شكل الإنسان على مراحل متعددة قوله تعالى (وقـد خلقكم أطواراً) وقوله يزيد في الخلق ما يشاء)[1].

فهو يرى أن الإنسان تطور وارتقى ولكن ليس عن قـرد إنمـا عـن عـروس بحر تطورت عبر ملايين السنين إلى أن خرجت إلى البر فأصبحت إنساناً تطـور أيضاً حتى وصل إلى ما وصل إليه آدم.

إن كل هذه التقوّلات تبقى في إطـار التخمـين أو في إطـار النظريـة مـهما بلغت من التفصيل والشرح ورأينا أن آدم النبي هو أول مخلوق بشـري لا نـدري متى خلقه الله لأن القرآن الكريم لم يحدد تاريخ خلقه. وهذه مسألة الترك فيها أفضل من البحث لأن القرائن غير متوفرة ولم يصل الإنسان أي إنسان إلى الجزم بها.

تبقى مسألة هامة جداً وهي خلق امرأة آدم، هل حقاً خلقها الله من ضلع آدم أم خلقها على شاكلته إنسانة متكاملة؟.

أما النص التوراتي فـيرى أن الله جعـل آدم في سـبات وأخـذ ضلعـاً مـن أضلاعه وملأ مكانه لحماً وخلق حواء من هذا الضلع يقول سفر التكوين (فـأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة فأحضرها إلى آدم فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي... ودعـا آدم اسـم امرأتـه حـواء لأنـها أم كـل حي).

أما في القرآن الكريم فإن عملية خلق امرأة آدم لم يشر لهـا مـن قريـب أو بعيد، حيث نجد أنفسنا أمام الآية القرآنية التي تقـول (اسـكن أنـت وزوجتـك الجنة فكلا من حيث شئتما).

---

(1) عبد الرحمن غنيم. مذكرة البحث عن آدم. ص85 ـ 86. دار الجليل، دمشق 1992، الطبعة الأولى.

وقد تكرر ذلك في سورة البقرة وفي سورة الأعـراف. أمـا مـن أيـن ظـهرت امرأة آدم فهذا لم يشر له القرآن الكريم. كما لم يشر إلى أن اسمها هو حواء،وقد وجدنا هذا الاسم في التوراة دون القرآن. وقد تنـاول علماؤنـا هـذه المسـألة ولهـم فيها آراء متعددة.

فالشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء يقول:

إن الله تعالى قال: (وخلق منها زوجها) هذه العبـارة محتملـة لأن يكـون الله قد أخذ ضلعا من أضلاع آدم وخلق من ذلك الضلع حـواء. وقـد قـال بذلـك كثير من العلماء. ومن الجائز أن يكون الله خلقها كما خلق آدم وأن يكون قولـه تعالى (وخلق منها زوجها) أي من جنسها وعلى صورتها وحينئـذ تكـون المـادة التي أخذت منها المرأة غير متعرض لها والرأي الأول النفس إليه أميل[1].

ويدافع الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي عن الرأي القـائل بـأن حـواء خلقت من ضلع آدم مستندا على ما ورد من أحاديث صحيحة قالها رسـول الله صلى الله عليه وسلم لا سيما الحديث الذي يقول (استوصوا بالنساء خـيرا فـإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه) وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي[2].

فإذا صحت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم أن حـواء خلقـت مـن ضلع آدم فإن التسليم بذلك هو من صلب إيمان المسلم لأن السنة المباركة المتواترة تلزم المسلم الأخذ بها والتسليم بها.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإننا نرى أن ليس بالأمر الصعب علـى الله أن تخلق حواء من ضلع آدم. وهذه تدخل ضمن المعجزات الإلهية. فالمعجزة

(1) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء صفحة 35.

(2) رواه البخاري 218/9، مسلم رقم 1468 والترمذي 1188.

تخترق قانون البشر ونواميس الحياة المادية فلها نواميس خاصة وقوانـين إلهيـة ليست خاضعة لمقياس مادي بشري. فالله خلق آدم من تراب وهي معجزة إلهية وخلق عيسى عليه السلام من دون أب وهي معجـزة أخـرى. وخلـق حـواء مـن ضلع آدم ليست سوى معجزة من معجـزات الخلـق الإلهيـة الـتي تفـوق تصـور البشر وعقولهم.

وتستوقفنا آية كريمة في سورة آل عمران وهي: (إن مثل عيسـى عنـد الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) الآية 46.

فبعض أصحاب نظرية النشـوء والارتقـاء وبعـض مؤيديـها مـن البـاحثين العرب قالوا إن عيسى خلق من رحم أمه فيكون آدم كذلك غير أن الأصل فيهما هو التراب.

بينما يرى بعض الباحثين المسلمين أن الآية الكريمة أرادت أن تقـول إن عيسى يختلف عن سائر البشر لم يخلق مـن أب وإنمـا كـان خلقـه كخلـق آدم فمثله سبحانه وتعالى بآدم. ومن هذا التمثيل نفهم أن آدم كانت خلقته من غـير أب أي (دفعية) وأيضا لم تكن خلقة تطوريـة إذ لـو كـانت خلقـة آدم تطوريـة عندها يجب أن يكون له أب ولو في سلم أنـزل منـه مـن حيـث درجـة التطـور والتكامل. وعلى هذا الأساس وجب أن يكون لعيسى أب أيضا تولـد منـه تولـدا عضويا وهو خلاف ما تصرح به وتريـده الآيـة، لأن هـذه الآيـة جـاءت لتنفـي شبهة الزنا والتهمة التي كان قد ادعاها اليهود، كما تنفي شبهة كونه ابـن الله وهكذا لا يصح هذا التشبيه إلا إذا فرض أن آدم لم يكن له أب، وأما من حيث الأم فإن الآية لا تريد تشبيه آدم بعيسى بل عيسى بآدم ولا كـلام في أن آدم إذا لم يكن مخلوقا من خلال نظرية التطور منْ حيث الأب لم يكـن مخلوقـا كذلـك من حيث الأم أيضا لأنه لو كانت نظرية التطور صادقة في آدم لكانت صادقة أبا وأما. لكن الآية لا تريد أن تشبه آدم بعيسى بـل تريـد أنْ تشـبه عيسـى بـآدم.

والسؤال كان عن أب عيسى لا عن أمه[1].

هل حقا لعن الله الأرض؟

يرد في سفر التكوين. وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلا لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك) التكوين 3: 17.

بينما في القرآن الكريم ترد آيات كثيرة لا يلعن الله فيها لا أرضا ولا كواكب.

ففي سورة البقرة يقول تعالى في الآية 22: (الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم).

وفي سورة طه في الآية 53: (الذي جعل لكم الأرض مهادا وسلك لكم فيها سبلا).

وفي سورة الأنبياء الآية 56: (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن).

وفي سورة الأنبياء الآية 31: (وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون).

وفي سورة المؤمنون الآية 18: (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض).

وفي سورة النمل الآية 61: (أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا).

وفي سورة السجدة الآية 7: (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق

(1) السيد محمود الهاشمي. الإنسان في القرآن، مجلة الثقافة الإسلامية العدد

الإنسان من طين).

وآيات كثيرة غيرها تتحدث عن خلق الله للأرض وتسخيرها لبني البشر والاستفادة من ترابها وثمرها ومياهها الجوفية والظاهرة. كل ذلك ليكون سببا في استمرار الحياة عليها. فأي مبرر منطقي يجعل رب اليهود يلعن الأرض؟ لأي سبب تلعن الأرض من قبل الرب خالقها وهي التي جعلها للإنسان يستخلفها ويقيم فيها العدل والحياة والبقاء والتعارف.

فالذي يجعل سفر التكوين التوراتي يلعن الأرض هو سبب أسطوري وبمعنى آخر فإن هذه اللعنة مقتبسة من تراث البابليين الأسطوري وهؤلاء سبقوا العبرانيين زمنيا في تواجدهم على وجه الأرض.

ولدا آدم في التوراة والقرآن:

بعد أن استوضحنا ما في التوراة وأدركنا ماذا جاء في القرآن الكريم من حديث عن آدم عليه السلام يسوقنا البحث حسب التسلسل البشري إلى دراسة ما جاء في التوراة والقرآن الكريم من حديث عن ولدي آدم أو عن نسله.

وفي الخطوط العامة فإن ما جاء فيهما يكاد يتوافق، سوى أن التوراة سمتهما باسمين هما قايين وهابيل.

غير أن الخلاف يحصل في التفاصيل والغايات وهذا ما سنستعرضه في السطور القادمة.

تقول التوراة في سفر التكوين: (وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين، وقالت اقتنيت رجلا من عند الرب وعادت فولدت أخاه هابيل. وكان هابيل راعيا للغنم وكان قايين عاملا في الأرض. وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب وقدم هابيل أيضا من أبكار غنمه ومن سمانها.

فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر فاغتاظ قايين جدا وسقط وجهه. فقال الرب لقايين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك إن أحسنت أفلا رفع وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها) 4: 1ـ 7.

(وكلم قايين هابيل أخاه وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك فقال لا أعلم أحارس أنا لأخي فقال ماذا فعلت. صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائها وهاربا تكون في الأرض. فقال قايين للرب ذنبي أعظم من أن يحتمل. إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون تائها وهاربا في الأرض، فيكون كل من وجدني يقتلني. فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكي لايقتله كل من وجده فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن) تكوين 4: 8ـ 16.

وقد ذكرت قصة ابني آدم في القرآن الكريم دون أن يذكر فيها اسم كل منهما.

قال تعالى في سورة المائدة من 27 ـ 31: (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين. إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين. فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من

النادمين).

ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن آدم كان يزوج ذكر بطن بأنثى الآخر وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل وكان أكبر من هابيل وأخت قابيل أحسن. فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى. فأمرهما أن يقربا قربانا. فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم. وقرب قابيل حزمة من زرع رديء زرعه فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل. فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فقال إنما يتقبل الله من المتقين[1].

ففي رواية التوراة ورواية القرآن تشابه كبير في قصة ولدي آدم من حيث:

1 ـ وجود اثنين من أولاد آدم. سمتهما التوراة ولم يسمهما القرآن الكريم.

2 ـ قصة القربان الذي قدمه كل منهما.

3 ـ تقبل الله قربان هابيل ورفضه لقربان قايين.

4 ـ قتل قايين لهابيل.

أما الاختلافات فتكمن في:

1 ـ في التوراة شخصية هابيل غائبة إلا في الجانب السلبي. الانفعالي وليس الفاعل إذ أننا لا نرى حوارا بينهما تظهر من خلاله شخصية هابيل. بينما نرى في القرآن الكريم أن هابيل رجل عاقل مؤمن. لأنه قال لقايين إنك إن نويت على قتلي فلن أنوي أن أقتلك وإن لم يتقبل منك الله فإنه يتقبل من المتقين وهذا يعني تماما أن هابيل كان تقيا وأن قايين لم يكن كذلك.

---

(1) ابن كثير البداية والنهاية مجلد 39/2 وتاريخ الطبري 137/1.

2 ـ لم نعثر على قصة الغراب في التوراة بينما نجدها في القرآن الكريم وهي في السياق العام تأتي لتكون شاهدا لقايين وتعليما له كيف يدفن جثة أخيه ويواريها. وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن دفن الميت تحت التراب هو الطريقة المثلى في دفن جثة من فقد الحياة وكأن ذلك جاء تعليما لبني البشر كي يكون دفن الجثث تحت التراب الطريقة الصحيحة والشرعية وليس حرق الجثة مثلا أو تحنيطها.

ونستطيع أن نقول إن دفن الميت سنة سنت منذ زمن هابيل وسار عليها أكثر بني البشر وأتباع الديانات الكبرى في العالم الأرضي.

وقد ذكر الثعلبي النيسابوري قصة ابني آدم في كتابه المسمى قصص الأنبياء في الصفحة 43 ـ 47 وتحدث فيها بعض ما نسبه إلى ابن عباس ولم ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ندري صحة ما جاء فيه[1] ونكتفي بهذا القدر من الحديث عن ولدي آدم لأننا لا نجد وجها للكلام الزائد على ما جاء في التوراة والقرآن الكريم.

نوح والطوفان بين التوراة والقرآن:

ونحن نقلب صفحات التوراة نجد أن الحديث عن مجريات الأحداث بعد آدم يأخذ منحى أوسع حيث يشعر القارئ أن الزمن الذي يتقدم يقدم لنا شخصياته وأحداثه بشكل يقترب من الثوابت.

وفي القرآن الكريم تبرز الآيات الكريمة قصص الأنبياء والعقائد بشكل أكثر كلما أخذت أحداث التاريخ تكثر وتتعقد وتتوضح.

---

(1) ارجع إلى كتاب قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس لأبي اسحق الثعلبي النيسابوري، صفحة 43 ـ 47، ففيه تفصيلات لا ندري مدى صحتها.

وقصة نوح من القصص التي فصلت بشكل واسع بحيث يستطيع المرء أن يناقش قضايا كثيرة ويقارن أحداثها ويناقشها كما وردت في التوراة وكما وردت في القرآن الكريم.

يرد في سفر التكوين الإصحاح الخامس 28 (وعاش لامك مئة واثنين وثمانين سنة وولد ابنا دعا اسمه نوحا قائلا هذا يعزينا عن عملنا وتعب أيدينا من قبل الأرض التي لعنها الرب).

(وكان نوح ابن خمس مئة سنة وولد نوح ساما وحاما ويافث).

وفي الإصحاح السادس: (فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته مع بهائم ودبابات وطيور السماء لأني حزنت أني عملتهم وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب).

(وكان نوح رجلا بارا كاملا في أجياله. وسار نوح مع الله وولد نوح ثلاثة بنين ساما وحاما ويافث وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلما).

(فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي لأن الأرض امتلأت ظلما منهم ها أنا مهلكهم مع الأرض اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر).

(فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح).

(ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك).

وفي الإصحاح السابع: (في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك).

(فمات كل جسد كان يدب على الأرض فمحا الله كل قائم كان على

وجه الأرض).

وفي الإصحاح الثامن: (ثم ذكر الله نوحا وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك وأجاز الله ريحا على الأرض فهدأت المياه).

(وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته ولا أعود أيضا أميت كل حي كما فعلت).

وفي الإصحاح التاسع: (وبارك الله نوحا وبنيه).

(وكلم الله نوحا وبنيه معه قائلا ها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم، وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافث وحام هو أبو كنعان هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض).

(وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما، وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته. وقال مبارك إله سام وليكن كنعان عبدا لهم وليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبدا لهم).

(وعاش نوح بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنة، فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين سنة ومات).

وفي القرآن الكريم ترد قصة نوح في العديد من السور القرآنية الكريمة، وقد خص الله سبحانه سورة في القرآن الكريم باسم نوح.

ففي سورة نوح: (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم). سورة نوح الآية 1.

(قال نوح إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا) الآية 21 من سورة نوح.

(وقالوا لا تذرن إلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) الآية 23.

(وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) الآية 26.

(رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا) الآية 28.

وفي سورة الأنبياء: (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) آية 76.

(ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) آية 77.

وفي الأعراف الآية 55: (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم).

(فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين) آية 64.

وفي سورة يونس الآية 73: (فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين).

وفي سورة هود الآية 32: (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين).

(وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون.. واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم

مغرقون) آية 36ـ 37.

(حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل 40 وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم 41 وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين 42 قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين 43 وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين 44 ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين 45 قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين 46 قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين 47 قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم 48 تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين 49).

وهناك آيات قرآنية تحدثت عن النبي نوح عليه السلام ولكن الآيات التي وردت في سورة هود توضح مجرى الأحداث مع النبي نوح عليه السلام. وتربط مقدمة القصة بنتائجها، فهي أوضح صورة لما جرى معه في ذاك الزمن الغابر الذي لم يشر إليه القرآن الكريم بالتحديد.

ونبين الآن أوجه التوافق والاختلاف بين ما ورد في التوراة وما ورد في القرآن الكريم:

النص التوراتي:

1 ـ أولاد نوح سام وحام ويافث.

2 ـ الرب يندم على خلقه للإنسان وجعله في الأرض ثم نية انتقامه من الإنسان والحيوان عليها.

3 ـ نوح رجل بار لله والأرض تمتلئ شرورا وفسادا.

4 ـ قصة الطوفان وإقامة عهد الله مع نوح وأبنائه وامرأته ونساء أولاده.

5 ـ الطوفان وموت كل جسد حي على وجه الأرض.

6 ـ شفقة الرب على ما فعل وتراجعه عن لعنة الأرض وإفناء البشرية.

7 ـ ذكر كنعان على أنه ابن حام وقصة شرب نوح للخمر وسكره وتعريه ومن ثم لعنته على كنعان.

8 ـ عمر نوح.

أما القرآن الكريم فإنه يورد قصة نوح منتشرة في عدد من السور والآيات وإذا رتبناها حسب التسلسل نجد مايلي:

1 ـ أرسل الله نوحا إلى قومه منذرا ناهيا عن عبادة الأصنام، تكذيب قومه له وجدالهم معه.

2 ـ إيمان القلة من الناس بما أوحي إلى نوح دون تحديد لأولاده أو غيرهم.

3 ـ الأمر بصناعة الفلك تحت رعاية الله ونظره والأمر بحمل زوجين من كل صنف من الحيوانات.

4 ـ ابن نوح الذي كفر بدين أبيه وغرقه ومحاولة نوح إنقاذه...

5 ـ انتهاء الطوفان.

6 ـ إخبار الله لنوح بأن من حملهم معه سيكون فيهم الصالح والكافر.

7 ـ خطاب الله للرسول محمد صلى الله عليه وسلم بأن ذلك من أنباء الغيب (قصة نوح) فخذ العبرة منها واصبر على إيذاء المشركين لك فإن العاقبة الرابحة للصابرين المتقين.

يتفق القرآن مع التوراة بأن نوحا هو النبي المرتبط اسمه بالطوفان. ويتفقان أن الطوفان قد حدث وما عدا ذلك فالأمور تختلف وتحتاج لتحليل ومناقشة وقد كنت التوراة بقولها، إلا أن نوحا وجد نعمة في عيني الرب ـ عن كونه نبيا وقد ورد ذكر ذلك متكررا مع عدد كبير من أنبياء التوراة.

تورد التوراة سلسلة بشرية لتصل إلى لامك وهو أب لنوح وتمهد بقولها على لسان لامك قائلا: هذا يعزينا عن عملنا وتعب أيدينا من قبل الأرض التي لعنها الرب.

فيبدو من خلال هذا الكلام تركيز التوراة مسبقا على أن نوحا سيكون صالحا. وهذا يذكرنا بقول اليهود أن شعب اليهود نفسه جاء عن طريق الانتقاء للأفضل حتى يصلوا إلى إبراهيم ومن ثم إلى يعقوب واليهود.

ثم تورد التوراة أن شرورا كثيرة انتشرت في الأرض مما أدى بالتالي إلى ندم الرب على إيجاد الإنسان في الأرض ومن ثم تدميره لبني البشر.

بينما القرآن يتحدث بصريح العبارة أن الله أرسل نوحا إلى قومه لأنهم انحازوا عن عبادة الله الواحد. غير أن القرآن الكريم يوضح أن نوحا أرسل إلى قومه منذرا، فهناك مهمة كلف بها هذا النبي.

وطبيعي أن وجود إبليس الذي يمثل الشر والفتنة منذ أن أنزل إلى الأرض وقول الله تعالى اهبطوا بعضكم لبعض، عدو دليل على أن البشرية آيلة إلى الصراع بين الخير والشر فكيف إذا يندم الله على صنع الإنسان وتسخير الأرض له. كيف يحزن الرب لما فعل ثم ينوي على تدمير البشرية؟.

لقد خلق الله الإنسان الأول (آدم) ثم أخطأ هذا المخلوق ثم أهبطه الله إلى الأرض ليعمرها ويصارع الشر الذي سينشره الشيطان. ويكون امتحان وموت وبعث وحساب فانحياز قوم نوح إلى عبادة الأصنام وبعدهم عن عبادة الله الواحد يأتيان ضمن سياق القدر الإلهي الذي ينفذ على الأرض متمثلاً بالصراع بين الكفر والإيمان. فلا حاجة لندمٍ متخيل من قبل الرب ولا حاجة لحزن متخيل من قبله أما تدمير قوم نوح فهذا أمر طبيعي جرت نواميسه مع كثير من الأقوام اللاحقة والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم لقد غفلت التوراة وتغافل كتابها عن أن ما سيجري هو في علم الله الأزلي فلا يعقل أن يخلق الله البشر ولا يعرف ما سنؤول إليه أفكارهم. لقد تأسف الله حسب رأي التوراة على خلق الإنسان فقرر أن يمحو البشر والدواب والطير وكأن ما حدث من انحراف لدى البشر هو خارج عن معرفة الرب لما سيحدث.

تشير التوراة فجأة إلى قول الله لنوح أنا مهلكهم مع الأرض اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر.

بينما نرى في القرآن الكريم جدالاً يدور بين نوح وقومه حول العودة لعبادة الله الواحد وترك الأصنام. وهذه مهمة نوح بالدرجة الأولى وظل جداله معهم دون أن يعرف ما سيحكم الله في أمرهم. ولما زاد تعنتهم قالوا له لقد جادلتنا فأكثرت جدالنا وهذا يعني تماماً إصرارهم على ما هم فيه عند ذلك حدّث نوح ربه أن قومي عصوني ولم أترك أسلوباً معهم إلا واستخدمته وهنا طبعاً مهمة النبي أي نبي في إصلاح قومه يقول تعالى في سورة نوح:

(قال يا قوم إني لكم نذير مبين، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إنّ أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون. قال: رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً. فلم يزدهم دعائي إلا فراراً. وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا

واستكبروا استكباراً. ثم إني دعوتهم جهاراً ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً. فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً. ما لكم لا ترجون الله وقاراً. وقد خلقكم أطواراً. ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً. وجعل الشمس سراجاً. والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً والله جعل لكم الأرض بساطاً. لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً) الآيات من 2ـ 20.

فنلاحظ في هذه الآيات أن نوحاً دعا قومه إلى التوحيد ليلاً نهاراً وبين لهم أن الله يغفر من ذنوبهم الكثير فلم يزدهم كفرهم إلا فراراً. وكلما دعاهم صموا آذانهم واستكبروا ودعاهم علانية وسراً وأوضح لهم أنهم لو عادوا عن كفرهم سيمدهم الله بالأموال والبنين والجنان والأنهار. ثم بين لهم الأسباب المنطقية التي توجب عودتهم إلى الله. فالله خلقهم أطواراً وخلق السموات والقمر والشمس وأنبتهم من الأرض ثم سيعيدهم إليها. وجعل لهم الأرض بساطاً وطرقاً ليعيشوا بأمان واطمئنان.

وعلى الرغم من كل ذلك فإنهم ظلوا على كفرهم ولم يؤمن بنوح سوى قلة من الناس. وهذا ما أوجب عقابهم من قبل الله سبحانه.

إذا فتدمير البشر من قوم نوحٍ لم يأت هكذا عبثاً أو فجأة. إن هناك نبياً ودعوة إلى التوحيد. استمرت طويلاً حتى وصلت إلى حد لا رجعة فيه فكان العقاب.

تورد التوراة أن نوحاً حمل معه في الفلك ثلاثة من أبنائه مع نسائهم.

ولم يرد ذكر ذلك في القرآن إذ أن القرآن الكريم أورد أن الذين أخذهم نوح معه هم من الذين آمنوا معه وهم قلائل. وإذا كان نوح قد جلب معه أولاده

الثلاثة فإنه يكون قد حملهم معه لأنهم مؤمنون برسالته فهم حسب ذلك من القلة الذين آمنوا برسالته.

ولم تشر التوراة لا من قريب ولا من بعيد إلى ابن نوح الذي كفر بالله وجادل أباه بشأن نجاته إذا تاب. ولا ندري ما إذا كان لهذا الابن أبناء أو كان متزوجاً إنما هو إنسان عاقل يعرف التمييز بين الإيمان والكفر وقد آثر الكفر على الإيمان فغرق مع المغرقين بينما تورد التوراة أن نوحاً أخذ معه في الفلك أولاده الثلاثة مع نسائهم، فهل كان أولاده الثلاثة ونساؤهم من الذين آمنوا؟ هذا ما لم يقرره القرآن الكريم.

وتصور التوراة ندم الرب على فعله الطوفان. فقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض ولن أعود فأميت كل حي. نلاحظ هنا أن الرب حسب التصور التوراتي متقلب الأهواء. فساعة يندم لما خلق وساعة يفني البشرية ثم يعود فيندم على عمله. فهذه الصفات لا تنطبق على إله هو الكامل في صفاته. هو الذي خلق فدبر الخلق وفي عمله الأزلي كل ما مضى وكل ما سيأتي إلى يوم الدين. فهذا الرب الذي تتحدث عنه التوراة ليس رباً خالقاً وسع علمه كل شيء بل هو إله مزاجي كما رأينا وجل شأنه أن يكون بمثل ما وصفته التوراة.

ويرد في التوراة مرة أخرى أن أولاد نوح هم ثلاثة سام وحام ويافث. وتذكر أن نوحاً بدأ يزرع الأرض كرمة وباختصار شديد جداً ينضج العنب ويعصره نوح ويصنع منه خمراً ثم يشرب من الخمر فيسكر ويتعرى.

فأين هذا مما ورد في القرآن؟ فمال قالته التوراة لا يليق نبي. وبالطبع لسنا نرى أكثر تشويهاً من هذا التشويه. ونتساءل في صدد ذلك من أين استقت التوراة هذه المعلومة فإذا كانوا يعتقدون أن التوراة هي كلام الرب ولا سيما أسفار موسى فكيف يليق بهذا الرب أن يتحدث عن نبي اصطفاه هذا الحديث؟ ألم يجد نوحاً نعمة في عين الرب فكيف يتحدث الرب عن نوح بهذا الشكل

المخزي. فهو يسكر ويتعرى ويفقد توازنه ثم يصحو فيرى نفسه وقد سُترت عورته ويعرف بحسه الداخلي أن حاماً ابنه قد سخر منه.

نوح موجود بعد الطوفان. لكننا نكتشف أن سياق الحديث في التوراة وتسلسله يوحيان بأن لعنة نوح تمت على كنعان قبل أن يأتي إلى الوجود.

على أية حال فإن اللعنة إن تمت من قبل نوح بعد أن وُلد كنعان فهذا يعني أن كنعان الذي ارتحل إلى فلسطين والساحل الشامي وشكل مع أبنائه وأحفاده حضارة ما فإنه يعني أنه هاجر في زمن نوح أي وهو حي. لأن التوراة ترى أن نوحاً عاش بعد الطوفان أكثر من ثلاث مئة سنة وهذه السنون كفيلة منطقياً أن يتكاثر خلالها نسل أولاد نوح ويبلغون المئات إن لم نقل الآلاف.

وما نريد أن نصل إليه هو أن وجود كنعان والكنعانيين على أرض فلسطين هو أسبق بأكثر من ألفي عام من ظهور أول عبراني على وجه الأرض.

وفي جميع الأحوال نرى (أن التوراة عند عرضها للحوادث التاريخية لم تحدد التسلسل الزمني ولم تنسق الحوادث بحسب أزمانها وأدوارها وذلك لكي يلتبس الأمر على القارىء فيعجز عن تحديد مراحل الأحداث التاريخية وتتبع كل زمن منها)[1].

وهذا بالطبع ما فعلته التوراة حين أغفلت ذكر زمن مولد حام وزمن مولد كنعان وأبنائه وقد يتساءل بعضنا لماذا لم ترد تفصيلات قصة نوح ولعنته على حفيده كنعان في القرآن الكريم؟.

وكما قلنا إن هذه التفصيلات كتبت زمن احتدام الصراع بين الغزاة العبرانيين وأهل فلسطين. فهي كتابة تمت على يد البشر ولم تكن لترد في التوراة الموسوية التي أنزلها الله حقاً على موسى عليه السلام.

---

(1) د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، الطبعة 2، صفحة 181.

والقرآن الكريم عندما يتحدث للرسول صلى الله عليه وسلم عن الأقوام السابقة وخاصة الأنبياء وأقوامهم فإنه أي القرآن لم يقصد التفصيل التاريخي لأنه ليس كتاب تاريخ كما التوراة. وكما ورد كثيراً في القرآن الكريم فإن القصد يرتبط بأمور أخرى تدلنا على غايات كبرى.

ففي سورة طه الآية 99 يقول تعالى: (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد أتيناك من لدنّا ذكراً).

وفي سورة آل عمران الآية 44: (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم...).

وفي سورة يوسف آية 3: (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين).

وفي سورة الكهف آية 13: (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى).

وفي سورة الأعراف الآية 2: (كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين).

فآيات القرآن الكريم التي تتحدث عما سبق من أحداث وعمن سبق من رجال لم يحدد زمنها إذ ليس الغاية سوى الحكمة والعبرة والتحدي بعلم الغيب. على الرغم من أن القرآن الكريم يعطينا مفاتيح جميع العلوم ويترك للعقل البشري عملية التحليل والاستنباط.

ويرد في التوراة كما رأينا أن حاماً هو أبو كنعان ولم يرد ذكر شيء عن أبناء سام أو يافث رغم أن التوراة في صفحات لاحقة تشير بوضوح وبشكل مفصل كيف جاء أبناء سام ويافث وكيف توزعوا في الأرض لكن التركيز بدأ كأنه أهم ما ذكر ولأسباب كثيرة نناقشها.

فذكر اسم كنعان مرتبط بأرض كنعان وهي فلسطين. ولما كانت التوراة قد دُونت بعد موت النبي موسى بـ مئات السنين فقد كان الصراع على أشده بين الغزاة اليهود وبين سكان فلسطين من العرب الكنعانيين. وحتى يجد العبرانيون مبرراً للحرب والإبادة فقد أضافوا أو اخترعوا قصة كنعان ابن حام.

ولماذا كنعان بالذات؟ لأن أبناءه هم أصحاب الأرض الفلسطينية وأمر طردهم وقتلهم هو من الرب أنزله من عنده كما ترى التوراة.

ويصب نوح لعنته على كنعان ابن حام وليس على حام نفسه باعتباره هو الذي سخر منه أثناء سكره وتعريه.

يقول جورجي كنعان (وجاء الأب الأول نوح الناطق باسم يهوه يوزع البركات واللعنات بين أبنائه بعد ليلة سكر وتعر، يجلل واحداً بالسيادة ويصم آخر بالعبودية وكأن الإحساس الإنساني نضب في صدر الإنسان الأول بعد الطوفان فكانت اللعنة الأولى باعثاً للعداء والحقد العنصري. ففي العائلة البشرية الأولى بعد الطوفان يبدأ نوح كما أراد له الكاتب العبري العنصري بلعنه أحد أبنائه ومباركة آخر. ويصنف أبناءه بين ملعون يبقى عبداً لأخيه ومبارك يبقى سيداً لأخيه. فنوح العنصري يلعن باسم يهوه أبا الكنعانيين ويبارك أبا اليهود)[1].

في القرآن الكريم لم ترد قصة لعنة نوح. ولما جاء القرآن جامعاً لكل شيء إن كان بالتصريح أو الرمز أو الإشارة فإن عدم إشارته لحادثة اللعنة تثبت أن اليهود لفقوا وحرفوا واخترعوا ما يناسب أهواءهم. وقصة اللعنة مخترعة من أساسها أضافها الكاتب اليهودي في عصر احتدام الصراع بين الغزاة العبرانيين وأصحاب الأرض الفلسطينية الكنعانية.

(1) العنصرية اليهودية، جرجي كنعان دار النهار ـ بيروت ط1، 1983 صفحة 43.

وعلى رأي التوراة التي تنسب كنعان إلى حام بن نوح فإنه يعتبر جداً للكنعانيين وعلى ذلك لا بد من الإشارة لعدة أمور:

تقول التوراة (وعاش نوح بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنة فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين سنة ومات) تكوين 28/9.

وتقول: (إنه ركب في السفينة مع أولاده سام وحام ويافث وكل منهم له زوجة حيث ورد كما أشرنا إلى أنه حمل في السفينة ثلاث نساء بنيه).

وعلى هذا فإن نوحاً عاش بعد أن كان لديه من الأبناء ثلاثة وكلهم متزوجون فإن لم تشر التوراة إلى أحفاده وهو حي فإن ما يستخلصه المرء أن كنعان بن حام كان قد وُلد وجده ما زال حياً.

ملاحظات حول الطوفان:

أسهم باحثون كثيرون في دراسة ظاهرة الطوفان حسب ما جاء في التوراة وقدم بعضهم مقارنة بالنصوص القرآنية التي تناولت هذا الحدث الكبير.

وكان لموريس بوكاي رأي في ذلك وأورد ما قاله هذا العالم الفرنسي باعتباره وثيقة علمية تناولت هذا الحدث.

يقول بوكاي: ليس في التوراة رواية واحدة فقط عن الطوفان بل هناك روايتان ولكنهما حررتا في عصور مختلفة.

1 - الرواية اليهودية التي ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

2 - الرواية الكهنوتية التي ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد والتي أخذت هذا الاسم لأنها من تأليف كهنة هذا العصر.

ولا تأتي هاتان الروايتان كل إلى جانب الأخرى وإنما تتشابكان وتتداخل عناصر إحداهما في عناصر الأخرى. وتتعاقب فقرات كل مصدر بالتبادل مع

فقرات المصدر الآخر.

وتشير تعليقات ترجمة سفر التكوين للأب ديفو الأستاذ بمدرسة الكتاب المقدس بالقدس إلى هذا التوزع للفقرات بين المصدرين. فالرواية تبدأ وتنتهي بفكرة يهوية وهناك بالإجمال 10 فقرات يهوية وبين كل فقرتين منها توجد فقرة من النص الكهنوتي. هذه النصوص متعددة الأصول ولا تتمتع بالوضوح إلا من حيث تعاقب الأحداث. فبين النصين توجد تناقضات صارخة ويقول الاب ديفو (إنهما حكايتان للطوفان تختلف فيهما العوامل التي أدت إلى الطوفان كما يختلف زمن وقوعه ويختلف عدد الحيوانات التي شحنها نوح بالسفينة).

إن رواية الطوفان في العهد القديم غير مقبولة في إطارها العام وذلك لسببين يتضحان على ضوء المعارف الحديثة.

أ ـ يعطي العهد القديم للطوفان طابعاً عالمياً.

ب ـ على حين لا تعطي فقرات المصدر اليهوي للطوفان تاريخاً. تحدد الرواية الكهنوتية زمن الطوفان في عصر لم يكن من الممكن أن تقع فيه كارثة من هذا النوع. والحجج التي يستند إليها هذا الحكم هي ما يلي:

تحدد الرواية الكهنوتية أن الطوفان قد حدث عندما كان عمر نوح 600 عام غير أنه من المعروف بحسب الأنساب المذكورة في الإصحاح الخامس من سفر التكوين أن نوحاً ولد بعد آدم بـ 1056 عاماً (وهذه الأنساب كهنوتية المصدر هي أيضاً). وينتج عن ذلك أن الطوفان قد وقع بعد 1656 عاماً من خلق آدم. ومن ناحية أخرى فجدول نسب إبراهيم الذي يعطيه سفر التكوين يسمح بتقدير أن إبراهيم قد ولد بعد الطوفان بـ 292 عاماً ولما كنا نعرف أن إبراهيم كان يعيش في حوالي 1850ق.م فإن زمن الطوفان يتحدد إذن على حسب التوراة بـ 21 ـ 22 قرناً قبل المسيح وهذا الحساب يتفق بمنتهى الدقة مع إشارات كتب التوراة القديمة التي تحتل فيها هذه التحديدات المتسلسلة مكاناً طيباً قبل نص التوراة

وذلك في عصر كان الافتقاد إلى المعلومات الإنسانية في هذا الموضوع يجعل معطيات هذا التسلسل التاريخي للأحداث مقبولة بلا جدل لدى قرائها. حيث أنه لم يكن هناك أيضاً أي حجج مضادة.

كيف يمكن اليوم تصور أي كارثة عالمية قد دمرت الحياة على كل سطح الأرض باستثناء ركاب السفينة في القرن 21 ـ 22ق.م؟ ففي ذلك العصر كانت هناك على نقاط عدة من الأرض حضارات قد ازدهرت وانتقلت أطلالها إلى الأجيال التالية. وبالنسبة لمصر على سبيل المثال كانت تلك الفترة الوسطى التي تلت نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى وبالنظر إلى ما نعرف عن تاريخ هذا العصر فإنه يكون مضحكاً القول بأن الطوفان قد دمر في ذلك العصر كل الحضارات.

وعلى ذلك ومن وجهة نظر تاريخية فيمكن أن نتأكد أن رواية الطوفان مثلما تقدمها التوراة تتناقض بشكل واضح مع المعارف الحديثة.

أما رواية القرآن للطوفان. فإن القرآن يقدم رواية شاملة مختلفة ولا تثير أي نقد من وجهة النظر التاريخية.

لا يقدم القرآن عن الطوفان رواية مستمرة فهناك سور عديدة تتحدث عن العقاب الذي وقع على شعب نوح.

وعلى حين تتحدث التوراة عن طوفان عالمي لعقاب كل البشرية الكافرة يشير القرآن على العكس إلى عقوبات عديدة نزلت على جماعات محددة جداً.

وعلى ذلك فالقرآن يقدم حادثة الطوفان باعتبارها عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح وهذا يشكل الفرق الأساسي الأول بين الروايتين.

أما الفرق الجوهري الثاني فهو أن القرآن على عكس التوراة لا يحدد زمن الطوفان ولا يعطي أية إشارة عن مدة الكارثة نفسها.

إن رواية القرآن تتضح خالية من أي عنصر مثير للنقد الموضوعي[1].

أما الدراسات التاريخية والكشوف الأثرية فقد رفضت مقولة إن كنعان هو ابن حام. وقد أكدت أن الكنعانيين هم عرب جاؤوا من جنوب شبه الجزيرة العربية في حوالي عام 3000ق.م حيث لم يكن في هذا الوقت عبرانيون على أرض الوجود، ومسألة كون كنعان بن حام هو حفيد نوح مسألة تخص التوراة وحدها والتزوير وحده، ولا علاقة لهذه المسألة بالمنطق التاريخي العلمي أو الأسطوري الميثولوجي، ثم ليس ما يثبت أن لنوح ثلاثة أولاد هم سام وحام ويافث. وإلى جانب رفض الدراسات التاريخية فإن القرآن الكريم يرفضها كما أوردنا سابقاً. إن كلمة سام والشعوب السامية مصطلح أطلق في القرن الثامن عشر والذي أطلقه المؤرخ والباحث النمساوي (تسلوتس) عام 1781 مستنداً في ذلك على التوراة. وقد أكد الدكتور جواد علي في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام أن مصطلح شعوب سامية مصطلح مبهم بينما مصطلح شعوب عربية أقرب إلى المنطق العلمي لأن هذه التسمية ملموسة المفهوم. وقد أطلق اليونان والرومان اسم العرب على سكان الجزيرة العربية منذ الألف الأول ق.م أي قبل نشر مصطلح شعوب سامية بحوالي 2000 عام).

وليس مصادفة إذاً أن يختار اليهود أرض كنعان العربية ليستعمروها ويستوطنوها. فبعد صب لعنة نوح على حفيده صار اليهود ينسجون القصص والأقاويل حول انحطاط سكان فلسطين من العرب الكنعانيين وما زالت هذه النظرية تمارس إلى اليوم.

---

(1) موريس بوكاي، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا طرابلس دون تاريخ ص244.

الطوفان واقعة حقيقية وليست أسطورة:

شغلت حادثة الطوفان ساحة واسعة من الدراسات المختلفة. وقد اعتمد دارسو العهد القديم في دراساتهم عن الطوفان على ما أوردته التوراة باعتباره الكتاب الأقدم بين المدونات التاريخية. بينما راح بعض العلماء المتخصصين بعلم الآثار والجغرافيا والجيولوجيا يبحثون في الأرض عن معطيات جيولوجية وجغرافية علهم يجدون فيها شيئاً مما يثبت صحة وقوع الطوفان بيد أن بعض الدارسين وجدوا في حادثة الطوفان أسطورة تتكرر لدى كثير من الشعوب. ولم يجدوا أي دليل علمي يثبت أن الطوفان واقعة حدثت بينما راحوا يدرسونها في التوراة وفي أساطير الشعوب القديمة على أنها أساطير وملاحم صنعها خيال الناس.

وقد شاعت قصة الطوفان في كثير من بقاع الأرض مما جعل بعض الباحثين يقف موقف الحائر بين أن يميل إلى القول بأن الطوفان حقيقي وبين القول بأنه أسطورة.

(إن شيوع أساطير الطوفان والدمار الشامل في جميع أنحاء العالم يثير مسائل شتى تتعلق بتفسير هذا النوع من الأساطير وبواعث نشأتها.، فهل تنقل هذه الروايات المرعبة أحداثاً تاريخية وقعت في أزمان سحيقة قبل التاريخ المكتوب وترسخت في ذاكرة الشر. إن هذا التفسير رغم جاذبيته لا تؤكده الدراسات الجيولوجية والأركيولوجية حتى الآن. أم هل كشفت هذه الأساطير عن حقائق نفسية ونوازع خافية باطنة؟ هل هي طغيان النزعات التدميرية الكامنة في لا شعور البشر ورغبة لا واعية في تدمير الذات. هل هي إحساس عارم بالإحباط من حضارة تسير دوماً في اتجاه مخالف لسعادة الإنسان. حضارة يجب تدميرها كلما أحكمت حلقاتها وضيقت خناقها على صانعيها أسئلة

أتركها بلا جواب)[1].

فهذا شاهد على ما تركته حادثة الطوفان من أثر في عقول بعض الباحثين. فلا هم يجزمون بوقوعها ولا هم يؤكدون أنها أسطورة لأنهم لم يجدوا الجواب الشافي لذلك.

بينما راح باحثون آخرون يدرسون الظاهرة على ضوء بعض الدراسات الجغرافية والجيولوجية محاولين بذلك دحض مزاعم توراتية حول قصة النبي نوح والطوفان.

يقول عبد الرحمن غنيم (إن سفينة نوح التي أعيوا النفس في البحث عنها لتكون مصداقاً لما خطه كتبة التوراة عن الطوفان هي في مجابهة الغزو الصهيوني الراهن لمنزل أمتنا المبارك آية)، ثم يقول لقد فار التنور في منزل نوح في (فزان) أو قربها عام 6600ق.م إيذاناً بالصعود إلى الفلك وسيحفر الآثاريون هناك بحثاً عن التنور لكنهم سيجدون التنور (الطابون) وقد انتقل إلى بلدة أبو غوش وبلدة بيسمون في فلسطين وإلى بلدة لبوه وغيرها في لبنان وإلى تل الرماد في دمشق وتل أسود في الشمال السوري وتل الصوان في العراق خلال مئات السنين التي أعقبت وصول السفينة إلى الجودي في فلسطين.

ثم يدرس هذا الباحث طبيعة الوديان والجبال والأمطار والسيول ليصل إلى نتيجة تفيد بأن مسار سفينة نوح بدأ من غرب مصر وامتد حتى بلاد الشام والجزيرة[2].

أما وجهة النظر الإسلامية فتستند إلى آيات القرآن الحكيم المنزل من عند الله سبحانه وتعالى وكل ما أنزل في القرآن هو حقيقة ولا سيما قصص الأنبياء.

---

(1) فراس السواح: مغامرة العقل الأولى. دار الكلمة للنشر. لبنان 1981 ص 124 ـ 125 ط ثانية.

(2) روان سر الأسرار. عبد الرحمن غنيم دار الجليل، دمشق عام 1991، الطبعة الأولى، صفحة 29 ـ 30.

وكلام الله سبحانه ليس أسطورة ولا تراثاً شعبياً حتى يتأوله الباحثون في الأسطورة.

ونحن بدورنا على الرغم من إيماننا الراسخ بأن طوفان نوح حقيقة وقعت إلا أن وجهة نظرنا تستند أيضاً إلى معطيات تؤكد حقيقة الحدث وواقعيته.

الطوفان في مدوّنات الشعوب:

لم تنحصر قصة الطوفان في التوراة والقرآن الكريم بل انتشرت في مدونات الشعوب القديمة قريبها وبعيدها ولا سيما في خطوطها العامة والرئيسية. وهذا الانتشار دليل واضح على وقوع الطوفان وإلا كيف تدون الحادثة عند السومريين والبابليين واليونان والعبرانيين ثم يوحي القرآن الكريم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويخبره بأن قصة الطوفان قد حدثت فعلاً مع نبي الله نوح عليه السلام.

وإذا تعرفنا على ما دون لدى الشعوب وجغرافية المناطق من حيث تواجدها وتوضع شعوبها أدركنا أن هناك مناطق في الوطن العربي تناقل سكانها حادثة الطوفان باعتبارها حدثاً وقع فعلاً. ومن ثم تفتحت عيوننا على دراسة مقارنة بين ما دونوه، وما مدى الاختلافات والاتفاقات بينهم وبالمحصلة نستطيع أن نصل إلى معرفة الأسبق في التدوين وما دور العبرانيين في ذلك.

هل ما جاء في التوراة هو كلام الله الذي أنزل على موسى؟ أم أن التوراتيين نقلوا حادثة الطوفان عن البابليين أثناء السبي باعتبار أن تدوين التوراة تم أثناء ذلك؟

هذا السؤال الذي يطرح نفسه لا بد له من إجابة منطقية حتى ندرك أن النص القرآني هو الحق والنص التوراتي هو الذي شوّه شخصية نوح عليه السلام واخترع شخصية كنعان جد الكنعانيين ليلعنها نوح ويكون الصراع المستقبلي مع سكان فلسطين بسبب لعنة إلهية أو نبوية.

أما مدونات السومريين فتقول إن الآلهة قررت إفناء البشرية بواسطة طوفان يغمر الأرض إلا أن بعض الآلهة تظهر عدم رضائها عن ذلك القرار. فآلهة الخصب والحب (أنانا) تنوح وتبكي مصير البشر المفجع وهذا إنكي إله الحكمة يخرج عن إجماع الآلهة ويأخذ على عاتقه إنقاذ بذرة الحياة على الأرض. يتصل إنكي بالملك زيوسودرا وكان إنساناً تقياً صالحاً فيحدثه من وراء حجاب كاشفاً نوايا الآلهة شارحاً له خطته لإنقاذ الحياة. والتي تتلخص في قيام زيوسودرا ببناء سفينة كبيرة لحمل الزمرة الصالحة من البشر وبعض الحيوانات.

وتصف لنا المقاطع الموجودة في الألواح السومرية التي عثر عليها في مدينة نفر السومرية السفينة أثناء الطوفان وتحدثنا عن قيام زيوسودرا بذبح ثور وكبش قرباناً للآلهة بعد نجاته وبعد انتهاء الطوفان يكافأ زيوسودرا على علمه بإعطائه نعمة الخلود وإسكانه في أرض دلمون جنة السومريين.

أما مدونات البابليين فقد اكتشفها عالم الآثار الإيطالي جورج سميث عام 1872 وقد توصل إلى حل رموز أحد الألواح الموجودة في مكتبة بانيبال الحاوي على نص عن الطوفان مشابه للنص التوراتي.

وقد أثار هذا الإعلان الكثير من الحماس وتم الكشف عن ألواح ملحمة جلجامش الإثني عشر والتي تغطي حادثة الطوفان معظم اللوح الحادي عشر.

يصل جلجامش إلى أوتنابشتيم الإنسان الذي منت عليه الآلهة بالحياة الخالدة يسأله عن سر الخلود وكيف الحصول عليه. فيقص عليه أوتنابشتيم قصته مؤكداً أن ما حصل له هو أمر فريد لن يتكرر بسهولة لأحد من الناس ويكشف له أسرار واقعة الطوفان الكبير.

وفي أحد النصوص البابلية يرد ما يلي: قوض بيتك وابن سفينة، اهجر ممتلكاتك وانج بنفسك اترك متاعك وأنقذ حياتك. اعمل على حمل بذرة كل ذي حياة والسفينة التي أنت بانيها ستكون وفقاً لمقاسات مضبوطة. فيكون

عرضها معادلاً لطولها.

ثم يرد سأهبط إلى إبسو أعيش مع مولاي أيا. وعلي الآن أن لا أبقى في مدينتكم. أما أنتم فسينزل عليكم مطر وافر.

ويقول: وبعد أن أدخلت إليها أهلي وأقاربي جميعاً وطرائد البرية ووحوشها وكل أصحاب الحرف عين لي الإله (شمش) وقتاً محدداً. وعندما يرسل سيد العاصفة مطراً مدمراً في المساء أدخل الفلك واغلق عليك بابك. وما إن أزف الموعد حتى أرسل سيد العاصفة مطراً مدمراً في المساء. وما أن لاحت تباشير الصباح حتى علت الأفق غيمة كبيرة سوداء يجلجل في وسطها حدد.

ويتابع: عصفت الريح العاتية يوماً كاملاً. أتت على الناس فحصدتهم كما الحرب.

ناحت سيدة الآلهة ذات الصوت العذب لقد آلت إلى طين تلك الأيام القديمة ذلك بأنني نطقت بالشر في مجمع الآلهة. فكيف استطعت أن آمر بمثل هذا الشر كيف استطعت أن آمر بالحرب لتدمير شعبي.

ستة أيام وست ليال. والرياح تهب والعاصفة وسيول المطر تطغى على الأرض. ومع حلول اليوم السابع. العاصفة والطوفان خففت من وطأتها. وأخذ البحر يهدأ والعاصفة تسكن والطوفان يتوقف.

ويتابع: واستقرت السفينة على جبل نصير أمسك الجبل بالسفينة ومنعها من الحركة ومضى اليوم الأول والثاني والجبل ممسك بالسفينة وعندما حل اليوم السابع أتيت بحمامة وأطلقتها في السماء. لم تجد مستقراً فآبت. الخ[1].

---

(1) هذه النصوص منقولة من كتاب فراس السواح. مغامرة العقل الأولى الذي سبق ذكره ص 132 - 133.

ولدى المقارنة بين النص التوراتي والنصّين السومري والبابلي نجد أن تشابهاً كبيراً يقع بينهما فإله الطوفان عند التوراتيين هو (يهوه) وإله الطوفان في النص البابلي هو الإله إنليل.

والغرض من الطوفان لدى النصين هو تخليص الأرض من الفساد الأخلاقي.

أما بطل الطوفان السومري فهو زيوسودرا. والكلمة تعني الذي وضع يده على العمر المديد أما اسم أوتنابشتيم فيعني الذي رأى الحياة. ونوح حسب النص التوراتي يعمر كثيراً. فهذا تشابه واضح بين الشخصيتين. وهناك تشابه في حجم السفينة. فهي (ماجور) في المدونات السومرية وتعني عملاقة. وهي الهيكل العظيم عند البابليين. وركاب السفينة هم من الناس والحيوان على أن النصوص تتشابه بأن بطل السفينة حمل معه أهله وأقاربه. وسبب الطوفان مياه الأمطار والأمطار السفلية في النص التوراتي والنص السومري والنص البابلي.

والسؤال الذي يطرح نفسه هل اعتمد النص التوراتي على النص البابلي أو أي من النصوص الأخرى؟

الواضح أن بعض الباحثين أجاب بنعم مع بقاء الاحتمال قائماً في رجوع النصوص جميعاً إلى نص أقدم أو إلى رواية بقيت في أذهان الشعوب التي عاشت في المنطقة العربية وهي على ديانة توحيدية سابقة. والواقع أن الهيكل العام للرواية التوراتية ينطبق بكل خطوطه العريضة وبكثير من تفاصيله على النص البابلي حتى أن بعض التعابير تكاد تنطبق بحرفية مطلقة[1].

لقد قلنا قبل صفحات أن تدوين التوراة قد تم أثناء السبي البابلي ولا شك أن هذا التدوين قد وقع تحت تأثير العقلية البابلية حيث من المعروف أن

(1) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، صفحة 155.

الضعيف يقلد الأقوى والأمة المغلوبة تقلد الأمة الغالبة.

ولا شك أننا حينما نرى الإله التوراتي يندم على تدميره للأرض وقضائه على الإنسان إلاّ بعض بنيه يذكرنا فوراً بالمناحات والبكاء حين صدرت عن بعض الآلهة التي أشفقت على الإنسان من هذا الطوفان. فالإله التوراتي المأخوذة أكثر صفاته من الآلهة الوثنية البابلية وغيرها لا تنطبق عليه صفات الإله الكامل المنزه عن الحقد والكره ومن ثم الحزن والألم والندم والذي يؤكد أن النص التوراتي أخذ عن النص السومري ثم البابلي تلك الصفات التي ألصقوها بالإله. فهي بشكل واضح صفات الآلهة المتصوّرة عند تلك الشعوب وليست صفات الله الواحد.

وإضافة لما تقدم فقد أتى القرآن على ذكر عبادة قوم نوح. فهو يدعوهم إلى التوحيد وهم مصرون على الشرك. وقد عبدوا أصناماً جاء القرآن على ذكر أسمائها.

يقول تعالى في سورة نوح الآية 23 (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولايغوث ويعوق ونسرا).

فهذه الأصنام الخمسة ذكرها القرآن الكريم على أنها الأصنام التي تمثل الآلهة التي عبدها قوم نوح. فهم وثنيون انحرفوا عن ديانة التوحيد وغلوا في وثنيتهم حتى كان الطوفان عقاباً لهم وقد كانت هذه الأوثان معروفة لدى عرب الجاهلية قبل الإسلام وقالت بعض المصادر التاريخية العربية إن العرب الجاهليين جلبوا هذه الأوثان من ساحل البحر الأحمر. وإذا صح ذلك فإنه يؤكد أن مسرح انتشار قوم نوح لم يكن بعيداً عن قلب المنطقة العربية. ويؤكد أيضاً أن هبوط السفينة ومسرح أحداث الطوفان لم يبعد كثيراً عما أورده الباحث عبد الرحمن غنيم والذي ذكرنا رأيه سابقاً.

أما ما ورد في بعض الكتب التراثية ككتاب الثعلبي النيسابوري في قصص الأنبياء فلا معوّل عليه لأنه يُدخل الأسطورة بالحقيقة ويمتلئ بالإسرائيليات والأقوال التي ليس لها سند قرآني أو سند من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثالث

الأنبياء الأوّلون

ماذا بعد واقعة الطوفان؟

بين نوح وإبراهيم عليهما السلام زمن مفقود في التوراة وأحداث وشخصيات تناستها التوراة بينما جاء عليها القرآن الكريم وأكدها بشيء من التفصيل.

والمدقق في التوراة يرى أنها أوردت بعد واقعة الطوفان أسماء من أتوا بعد نوح (ع) من أولاده وأحفاده وأحفاد أحفاده. وقد قسمت شعوب العالم الشرقي حسب تقسيمات أولاد نوح ومن أنجبوا.

وقد أشارت التوراة إلى أن أولاد سام انتشروا في أماكن هي أقرب إلى وسط الجزيرة العربية وجنوبها كما أشارت إلى أن أولاد حام انتشروا في مصر والسودان وكذلك أولاد يافث حيث انتشروا في مناطق أخرى.

ويستدل من كلام التوراة أن أحفاد سام وصلوا إلى حضرموت جنوب الجزيرة العربية وهذا يعني أنهم تواجدوا في هذه المنطقة وما قبلها وهي تشمل الأحقاف والحجاز ونجد والأردن. واكتفت بهذا التقسيمات لتنتقل إلى الحديث عن أجداد النبي إبراهيم عليه السلام.

والحقيقة أننا لو دققنا النظر في الفترة الزمنية التي تفصل بين نوح وإبراهيم عليهما السلام لوجدناها طويلة وذلك للتقديرات التالية:

1 ـ حمل نوح (ع) في السفينة من آمنوا معه وأهله وهم قلة وعلى أكثر تقدير وحسب إحدى الروايات كانوا سبعين بين إناث وذكور إن لم يكونوا أقل بكثير.

2 ـ بعد هبوط السفينة واستقرارها من المفترض أن من كان مع نوح (ع) لم ينفصلوا عنه إلا بعد أن تكاثروا جداً وضاقت بهم الأرض التي نزلوا بها وهذا يحتاج لمئات السنين لأنه لا يعقل أن يذهب أولاده كلٌ في جهة ولم تتجاوز عائلته عدد الأصابع. وطبيعة الإنسان تقتضي الاجتماع وليس الابتعاد عن بني جنسه ثم ما الداعي لابتعادهم عن بعضهم والأرض التي نزلوا بها تتسع لشعوب برمتها.

3 ـ إذا نظرنا إلى عقائد الشعوب التي كانت زمن إبراهيم عليه السلام وجدنا أكثرها وثنياً بينما الذين كانوا مع نوح هم الفئة التي آمنت به وبرسالته وتحولُ الناس من التوحيد إلى الوثنية يحتاج أيضاً لزمن ليس بالقصير.

إن هذه التقديرات تجعلنا نتوقف كثيراً للبحث عن الزمن المفقود بين مرحلتين، مرحلة نوح ومن آمن معه ومرحلة إبراهيم التي كانت تعج بالشعوب والحضارات المنتشرة في وادي الفرات ودجلة وفلسطين ومصر وجنوب الجزيرة العربية.

إن القرآن الكريم يوضح لنا الإجابة على تساؤلاتنا حول هذا الزمن المفقود في التوراة. ولو عدنا إلى الآيات القرآنية الكريمة لوجدنا ذلك واضحاً دون ريب أو لبس.

ويبقى أن نسأل لماذا لم تتحدث التوراة عما جرى من أحداث بين الفترتين هذا ما سنحاول دراسته والإجابة عنه بعد أن نورد ما جاء في القرآن الكريم.

يقول تعالى في سورة الأعراف الآية 69: (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح).

ويقول تعالى في سورة الأعراف: (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون 65. قال الملأ الذين كفروا من قومه إنّا لنراك في سفاهة وإنّا لنظنك من الكاذبين 66. قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين 67. أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين 68. أو عجبتم إن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون 69. قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين 70. قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين 71. فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين72).

وقد ورد ذكر هود في القرآن الكريم سبع مرات فذكر في سورة الأعراف في الآية 65 وفي سورة هود في الآيات 50 ـ 53 ـ 58 ـ 60 ـ 89 وفي سورة الشعراء في الآية 124.

ويستطيع القارئ لآيات القرآن أن يعرف:

1 ـ هود نبي مرسل جاء بعد قوم نوح.

2 ـ ذكر القرآن مساكن قومه في الأحقاف.

3 ـ تحدث القرآن عن ضخامة أجسامهم وقوتهم.

4 ـ ديانة قوم هود وثنية.

وإذا عدنا إلى القرآن الكريم فإننا نرى أنه ذكر قوم عاد على أنهم خلفاء لقوم نوح.

ويفهم من هذه الآية أن قوم عاد استخلفوا قوم نوح الذين كفروا بديانته قبل الطوفان والاستخلاف هنا هو زمني جغرافي. إن قوم عاد جاؤوا بعد قوم نوح ولكننا نعرف أن قوم نوح قد أبيدوا بالطوفان وبقي منهم من آمن بنوح. وقد يكون أحد أبناء نوح قد سكن المنطقة التي وُجد فيها قوم عاد من بعده. وقد يكون قوم عاد من نسل أحد أبناء نوح وإذا تذكرنا ما قالته التوراة عن المناطق التي سكنها سام بن نوح أدركنا أن قوم عاد ليسوا ببعيدين من أن يكونوا من نسل سام بن نوح استخلفهم الله بعد أن أباد أجدادهم من قوم نوح.

وقد ذكر بعض الرواة العرب أن هوداً يعود بنسبه إلى سام بن نوح حسب الشكل التالي:

سام، إرم ـ عوص، عاد، الخلود، رباح، عبد الله، هود.

وقد ذكرت التوراة اسم عوص من بين أولاد سام بن نوح لكنها لم تذكر أولاده وأحفاده. أما بالنسبة لمساكن عاد فكانت في منطقة الأحقاف التي تقع شمال حضرموت وفي شمالها الربع الخالي وفي شرقها عمان، وقد ذكرنا أن اسم حضرموت ذكرته التوراة على أنه من المناطق التي يسكنها الساميّون.

يقترن اسم عاد بمدينة إرم. وقد ذكرها القرآن الكريم وذكر أنها لم يخلق مثلها في البلاد وهذا يدل على أن قوم عاد كانوا جبارين أقوياء بنوا إرم ذات العماد من الصخور التي جلبوها من أحد الوديان. وقوله لم يخلق مثلها في البلاد أي في زمنها حيث كانت الحضارات الأولى في مهدها. وباقتران هذه المدينة العظيمة بعاد يدل على أنهم عاد الأولى، نعود إلى سؤالنا الذي طرحناه في البداية لماذا لم يذكر قوم عاد ولم يذكر النبي هود في التوراة؟.

واقع الأمر تجيب عليه التوراة نفسها. فكتبتها ومدونوها الذين أوجدوها أثناء السبي البابلي دونوا المسائل التاريخية التي تخصهم أو التي تصوروا أنها تخصهم. ومسرح تنقل الأشخاص المعنيين في التوراة هي بلاد الكلدانية. وبلاد

الشام ولا سيما فلسطين ثم مصر. ولم يتعدوا ذلك ولو وجدوا خبراً واحداً عن عاد لادّعوه وربطوا أنفسهم به.

ثم إن التوراة لم تهتم بالبلاد البعيدة عن مسرح تنقلهم فتركيزهم كان على أرض كنعان أي فلسطين وما جاورها شرقاً وغرباً. أي بلاد الشام ومصر والعراق، وهي المناطق التي تواجدوا فيها إما رعاة متنقلين أو مسبيّين.

وعلى اعتبار أن قوم عاد كانوا جبارين وبناة حضارة في إرم ذات العماد فإن التوراة قد تغافلت عن ذكرهم باعتبارهم الأسبق حضارياً بين الشعوب العربية السامية وهذا لا يروق لهم ونذكر جميعاً كيف أن الصهاينة حاولوا دس أنوفهم عندما اكتشفت حضارة إيبلا. في تل مرديخ في محافظة إدلب السورية، وأي سبق حضاري يحاول الصهاينة أن ينسبوا لأنفسهم شيئاً من المساهمة فيه. هذا بغض النظر عن أن قوم عاد قد كفروا بالله عز وجل ورفضوا ما جاء به نبيهم هود.

ثم إن التوراة لا تعترف بأي نبي كان من كان إن لم يكن يتصل بنسبه إلى يعقوب.

فهي لا تعترف بهود ولا بصالح ولا بنبينا صلى الله عليهم جميعاً فكيف نريدها أن تتحدث عن عاد ونبيّها وليس عبرانياً أو ينتسب إلى يعقوب.

إن سلسلة النسب العبراني تبدأ - حسب ادعاءاتهم - من إبراهيم ثم اسحق فيعقوب فيوسف والأسباط. وموسى وهارون وداود وسليمان.

ثم إذا عدنا إلى قصة أهل إرم نجد أن الله سبحانه سلط عليهم ريحاً صرصراً في سبعة ليالٍ وثمانية أيام ويستشف من الآيات أنها أبادتهم وبقيت مساكنهم آثاراً دالة على قوتهم وضعفهم أمام رب العالمين. لقد نجى الله الفئة التي آمنت برسالة هود وكانوا قلة.

هنا لابد من العودة إلى ما قالته التوراة في سفر التكوين وفي قصة نوح بالتحديد حيث ادعت أن الله حزن في قلبه لتدمير الأرض وإغراق قوم نوح فكيف بهذا الرب يعود مرة ثانية منتقماً من قوم هود يهلكهم جميعاً إلا الفئة المؤمنة ؟.

مرة ثانية وثالثة سنجد أن الله سبحانه وتعالى وضع الجزاء والعقاب وبعث الرسل والأنبياء لهداية أقوامهم فمن لم يتعظ فإن مصيره مصير قوم نوح وعاد وغيرهم.

ومن خلال الآيات الكريمة نرى أن الريح الصرصر نزعت الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر أما ما بقي من قوم عاد فآثارهم التي بقيت بعدهم. وإذا ما قدر للمكتشفين وللآثاريين اكتشاف مدينة إرم فإن ما سيجدونه هو ما يدهش العقول والعلماء لأن الله سبحانه قال: (إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد).

إن التوراة التي يعدّها بعض الباحثين الغربيين أقدم مدوَّن تاريخي سيجدون أنفسهم أمام كتاب خاص جداً باتباع العقيدة التوراتية وسيجدونه ضئيلاً أمام حضارات الشعوب وعقائدها وأنبيائها.

بينما لو دققوا في القرآن الكريم لوجدوا أنه يمنح البشرية بعلمائها وباحثيها مفاتيح لدراسة التاريخ رغم أنه كتاب الله التشريعي وليس هو كتاباً تاريخياً كما التوراة.

نعود فنقول مرة أخرى إن الحلقة الزمنية المفقودة في التوراة بين قوم نوح وإبراهيم عليهما وعلى نبينا الصلاة السلام بينها القرآن الكريم بذكره لقوم عاد ومن أتى بعدهم من قوم ثمود.

أما قوم ثمود والنبي صالح عليه السلام فلم تذكر التوراة شيئاً عنهم شأنهم شأن قوم عاد.

والذي يستوقفنا في هذه المحطّة أن الزمن ما يزال مبكراً للحديث عن النبي إبراهيم عليه السلام، لقد قفزت التوراة من نوح إلى إبراهيم والفارق الزمني بينهما حسب نص التوراة يقدر بـ 850 عاماً لكن ذلك فيه من عدم الضبط الكثير إذ ترى التوراة أن نوحاً عاش 950 وعلى هذا الأساس فإن إبراهيم يكون قد عاصر نوحاً ستين سنة.

إن الوارد في القرآن الكريم هو غير ذلك تماماً. فقوم عاد استخلفوا قوم نوح ثم استخلف قومُ ثمود قومَ عاد ثم ذُكر إبراهيم بعد زمن طويل على انقضاء عصر نوح عليه السلام.

وما يؤكد أن كتبة التوراة دونوا ما كانوا يسمعونه من حكايات بدون ضبط، وجود نبيين في آن واحد يدعوان إلى التوحيد. فالذي نراه أن إبراهيم عليه السلام جاء برسالة تتمم رسالة النبي نوح عليه السلام. وعصر إبراهيم غير عصر نوح من حيث وجود الحضارات وتنوع العقائد وانتشار الشعوب القديمة في المنطقة العربية كلها.

ثم ما الداعي كي يكون نوح وإبراهيم قد التقيا. فنوح ظل مع من آمن معه على ديانة التوحيد إلى أن أخذ الناس يكثرون ويبتعدون عن التوحيد فجاء إبراهيم عليه السلام ليعيد إلى أذهان الناس عقيدة التوحيد.

إذا لابد أن يبعث الله الأنبياء لهداية أقوامهم وها هم قوم عاد أو ثمود لم يتركوا دون أنبياء ورسل ولاشك أن الذين عمّروا مدينة إرم من قوم عاد والذين حفروا بيوتهم في الصخر من قوم ثمود لم يفعلوا ذلك بيوم وليلة، إن زمناً طويلاً قد مرّ حتى تمّ لهم ذلك.

إبراهيم أبو الأنبياء:

تعتبر شخصية النبي إبراهيم عليه السلام من أهم الشخصيات في سلسلة الأنبياء والرسل عليهم السلام. وهذه الأهمية تفرض نفسها بسبب ما أثير حول الشخصية من أقوال ودراسات مختلفة الاتجاهات والوسائل والأهداف وبسبب ارتباطها بمجريات التاريخ الذي يعتبر قريباً منا بسبب وضوح معالم بعض الحضارات والتوسع السكاني في المنطقة العربية.

وبسبب ما جاء في التوراة من تفصيلات وما جاء به القرآن الكريم من توضيح حول هذه الشخصية وسبب ارتباط هذه الشخصية بخلفيات سياسية جغرافية استندت التوراة عليها لتربط فئة من الناس بها بقصد إيجاد الجذور السياسية والتاريخية لما ستؤول إليه الأحداث بعد ذلك.

ولهذه الأسباب جميعها ولأسباب أخرى فإن دراسة هذه الشخصية وتاريخها يستند إلى الأمور التالية:

1 ـ موطن إبراهيم، ولادته، عصره، عقائد زمنه، صحفه.

2 ـ إيمان إبراهيم، عقيدته، صراعه مع قومه، حادثة إلقائه في النار.

3 ـ رحلته من موطنه إلى بلاد الشام وفلسطين تحديداً، مرافقة لوط في الرحلة وسارة زوجته.

4 ـ أرض فلسطين ماذا تشكل بالنسبة لإبراهيم، من كان يقطنها، ديانة شعبها، علاقتهم بإبراهيم.

5 ـ دعوة إبراهيم لديانة التوحيد في الأرض المباركة.

6 ـ زواجه من هاجر، سفره لمصر، إنجابه لإسماعيل، ثم اسحق.

7 ـ بناء الكعبة برفقة إسماعيل.

8 ـ علاقة إبراهيم بالعبرانيين.

9 ـ زوجات إبراهيم، أولاد إبراهيم، قصة الفداء، بين إسماعيل وإسحق.

10 ـ إسماعيل وإسحق، عقيدتهما ودراسة شخصيتهما، أين عاش كل منهما.

هل لإسحق إخوة غير إسماعيل؟.

11 ـ اسحق وأولاده، يعقوب، عيسو.

12 ـ يعقوب، لماذا أطلق عليه إسرائيل، آراء حول هذا الإسم، طفولته، شبابه، زمنه، الأوضاع السياسية في زمنه، علاقة يعقوب وأولاده بالمحيط السكاني.

13 ـ أولاد يعقوب، الأسباط، يوسف.

وبذلك نكون قد بينا فترة زمنية مهمة ودرسنا شخصيات مهمة في أبعادها السياسية والدينية. وكل ذلك من خلال مقارنة ما جاء في التوراة بما جاء في القرآن الكريم حتى نستوضح الباطل من الحق ونضع كل أمر في نصابه.

ولما كانت شخصية النبي لوط عليه السلام مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنبي إبراهيم من حيث مسار حياته والأحداث التي دارت في زمنه نجد أن دراستها لابد أن تتداخل مع دراسة النبي إبراهيم عليه السلام وما دار في زمنه من أحداث.

وبانتهاء هذه الفترة الزمنية الواقعة بين ولد إبراهيم ووفاة يوسف عليهما السلام ينقضي وقت من التاريخ الذي هو من أشد الفترات حساسية لما له من دور بارز في الصراع بين المسلمين وبين العبرانيين وأصحاب العقيدة التوراتية.

ماذا يقول النص التوراتي:

في سفر التكوين الإصحاح 11: هذه مواليد تارح، ولد تارح إبـرام ونـاحور وهاران وولد هاران لوطا. ومات هـاران قبـل تـارح أبيـه في أرض ميـلاده في أور الكلدانيين. واتخذ إبرام وناحور لنفسيهما امرأتين اسم امرأة إبرام ساراي واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران. وكانت ساراي عاقراً ليس لها ولـد. وأخـذ تـارح إبرام ابنه ولوطاً بن هاران ابن ابنه وساراي كنته امرأة إبرام ابنه فخرجـوا معـاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك وكانت أيام تارح مئتين وخمس سنين ومات تارح في حاران.

في هذا النص نتوقف عند أمور كثـيرة جديـرة بالدراسـة والبحـث وذلـك لنقارن ما جاء في القرآن الكريم.

وأول هذه الأمور شخصية والد إبراهيم المدعو تارح.

وثاني هذه الأمور شخصية لوط وحسب النص التوراتي ابن أخ إبراهيم.

ثالثهما أور الكلدانيين وباعتبارها أرض ميلاد لوالد إبراهيم.

رابعها زواج إبراهيم وناحور شقيقه من امرأتين الأولى سارة وكانت عـاقراً والثانية ملكة بنت هاران أي أن ناحور تزوج ابنة أخيه، ويكون هو عمها.

رحلة تارح مع أولاده وتوقفهم في حاران وموت تارح فيها.

أما في القرآن الكريم فنرى أن قصة إبراهيم تتكرر في خمس وعشرين سورة وإذا أردنا التعرف على مسيرة سيرته نرى أن القصة تبدأ كالتالي:

يقول تعالى في سورة الصافات بعد أن تحدث عن قـوم نـوح: (ثـم أغرقنـا الآخرين 82. وإن من شيعته لإبراهيم 83. إذ جاء ربه بقلب سليم).

ويقول تعالى في سورة الأنبياء 51 ـ 56 (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون52. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين53. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين54. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين55. قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين 56).

ويقول تعالى في سورة الأنعام (وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين).

ويقول تعالى في سورة الأنبياء الآية 71 (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين).

ونترك الحديث في آيات الكتاب الحكيم الأخرى لنتابع المسيرة مقارنة بالتوراة.

1 ـ إبراهيم من شيعة نوح عليهما السلام.

2 ـ أتى الله إبراهيم رشده في سن مبكرة.

3 ـ والد إبراهيم المدعو آزر.

4 ـ عبادة الأصنام عند قوم إبراهيم.

5 ـ نجاة إبراهيم ولوط إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين.

فحسب النص التوراتي يرد أن والد إبراهيم هو تارح وقد هاجر بابنه وولديه الآخرين من أور الكلدانيين باتجاه أرض كنعان وأثناء مرورهم بحاران توقف فيها ثم مات والد إبراهيم وتابع مسيرته باتجاه أرض كنعان، أما لماذا هاجر إبراهيم من أرض حاران فتقول التوراة (إن الرب قال لإبرام: اذهب من أرضك.. إلى الأرض التي أريك) التكوين 12 : 1 ـ 2.

أما النص القرآني فيورد أن والد إبراهيم هو آزر ولم يرد أنه هاجر بأولاده من أور الكلدانيين. بل ذكرت الآيات الكريمة أن والد إبراهيم كان على دين قومه وهم يعبدون الأصنام. وكان معادياً لإبراهيم ودعوته إلى التوحيد. ثم يذكر القرآن الكريم أن الله نجاه ولوطاً إلى الأرض المباركة للعالمين.

والخلاف بين التوراة والقرآن كبير جداً ومهم جداً ولا سيما حين يتوقف القرآن الكريم عند نجاة إبراهيم وذهابه إلى الأرض المباركة.

تشدد التوراة على أن تارح والد إبراهيم هو من نسل نوح. وتورد أنه من آدم إلى إبراهيم يوجد عشرون شخصاً. ونوح هو الشخصية العاشرة في السلسلة التوراتية ثم تبدأ السلسلة الثانية من سام وحتى إبراهيم وتضم عشرة شخصيات والفاصل الزمني بين ولادة نوح وولادة إبراهيم 808 سنة بينما الفرق بين وفاة نوح ووفاة إبراهيم 117 سنة وهذا يعني أن إبراهيم حسب نص التوراة عاصر أواخر أيام نوح إذ تذكر التوراة أن إبراهيم ولد عام 1948 ق.م وتوفي نوح 2006 ق.م وهذا يعني أن إبراهيم عاصر نوحاً حوالي 58 سنة.

هل هذا الكلام صحيح؟

عندما يخبرنا القرآن الكريم عن إرم ذات العماد وقوم هود ـ عاد ـ ثم يخبرنا عن النبي صالح وقومه ثمود. وهذان القومان استخلفا قوم نوح لم يكن إبراهيم قد ظهر على الأرض. إذاً فالفارق الزمني بين نوح وإبراهيم هو مليء بالأحداث ومن ثم لم يكن خالياً من الأنبياء، ولا ندري كم من الشعوب تفرقت وانتشرت حتى أصبحت مثلما كانت في زمن النبي إبراهيم، حيث الواضح أن هناك في حوض الفرات ودجلة أقواماً وحضارات كالسومريين ومن ثم البابليين والكلدانيين والأكاديين ثم في فلسطين وُجد الكنعانيون وفي سوريا الداخلية الأموريون والآراميون وفي مصر الفراعنة.

إذاً فالزمن الذي استغرق حتى تكونت الحضارات بعد نوح ليس زمناً يسيراً. وعصر إبراهيم غير عصر نوح وليس من المعقول أنه خلال ثمانمئة سنة تقام كل هذه الحضارات وتكثر الشعوب بهذه الأعداد التي نراها في ما بين النهرين وفلسطين ومصر واليمن والأحقاف وغيرها.

لكن القرآن الكريم يقول: (وإن من شيعته إبراهيم) والحديث هنا يدور بداية عن نوح والهاء في شيعته تعود على نوح. ومعنى كلمة شيعته لا تعني أنه من نسله، بقدر ما تعني أنه من أصحاب التوحيد. فإبراهيم ممن حمل مبادئ نوح فهو من جماعته وشيعته الذين وحّدوا الله ولم يشركوا به شيئاً. ونقول شيعة فلان أي الذين ناصروه وأيدوا مبادئه.

والقرآن الكريم لا يركز على النسب بقدر ما يركز على الإيمان والتقوى.

وإذا افترضنا أن كل مئة سنة يبعث الله نبياً أو مصلحاً وهذا الافتراض قد ينطبق على كل الأزمان فإن نوحاً مات وجاء من بعده ليجدد ديانة التوحيد. ولم يشر القرآن إلى أن أحداً من أولاد نوح كان نبياً. والذي يخبرنا به القرآن أن هوداً وقوم عاد استخلفوا قوم نوح. وقد نفترض أن هوداً بعث لقومه بعد نوح بمائة عام على الأقل. وعندما استخلف صالح وثمود قوم عاد فإننا نفترض أيضاً أن صالح جدد ديانة التوحيد بعد موت هود بمائة عام، ثم جاء إبراهيم ليتمم ديانة التوحيد بعد أن اندثر قوم صالح بمائة عام أخرى.

فالاحتمال أن إبراهيم عليه السلام جاء بعد نوح بثلاث مئة سنة. ووجود حضارات قائمة بذاتها في ما بين النهرين وفلسطين ومصر واليمن دليل آخر على أن عصر إبراهيم عصر حضارات واتساع في العمران وعدد أبناء الشعوب.

ويرى الدكتور أحمد سوسة أن العصر الذي عاش فيه إبراهيم الخليل عصر قائم بذاته له مقوماته وقوميته ولغته. وهو مرتبط بالجزيرة العربية وبلغتها

الأم وبقبائلها التي سميت فيما بعد بالعرب البائدة لانقراضها[1].

وقد قال بعض الباحثين إن إبراهيم من عنصر عربي آرامي هاجر هذا العنصر من شبه الجزيرة العربية واستقر في جنوبي العراق في بابل.

وقد ارتبط اسم إبراهيم عليه السلام بالجزيرة العربية ولا سيما بمكة والحجاز ولم يكن ارتباطه بالخليل في فلسطين كمثل ارتباطه بمكة وبناء الكعبة.

على أية حال فإن أي باحث في عصر إبراهيم يريد أن يعرف الزمن الذي عاش فيه عليه أن يعود أولاً لدراسة مخلفات الآثار في المنطقة التي ذكرتها التوراة على أنها فعلاً بلد إبراهيم.

ثانياً: على الباحث أن يعود لدراسة الزمن الذي وجدت فيه حجارة الكعبة باعتبارها المكونة الأساسية لبناء البيت العتيق ودراسة جيولوجية المغارة التي دُفن فيها إبراهيم وتقع الآن تحت بناء مسجد الخليل في فلسطين.

ثالثاً: على الباحث أن يدرس العقائد التي كانت سائدة زمن إبراهيم والقرآن الكريم يشير بوضوح إلى تلك العقائد الوثنية من خلال قصة تحطيم إبراهيم لأصنام قومه.

وإذا عدنا إلى النص التوراتي نراه يكثف في العبارة ويقفز عن أهم الأحداث في حياة إبراهيم، فإبراهيم يتزوج من سارة التي كانت عاقراً ثم أخذه أبوه وهاجر به مع زوجته وبقية أفراد عائلته إلى حاران. حيث مات تارح فيها.

فحاران مدينة بين النهرين على نهر بليخ وهو فرع للفرات وتقع على مسافة 280 ميلاً إلى الشمال الشرقي من دمشق. وقد اتخذت إله القمر إلهاً لها[2].

---

(1) أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص 202.

(2) قاموس الكتاب المقدس، حرف الحاء.

وعلى هذا الأساس فإن إبراهيم كان قد هاجر مع أبيه من بلده الأصلي إلى حاران حيث مات أبوه وهذا هو فحوى كلام التوراة. وحاران ضمن حدود سوريا الحالية وعلى ذلك يُطرح سؤال أين وقعت الأحداث مع إبراهيم؟. تدميره للأصنام، جداله مع قومه ومحاولة حرقه بالنار. ثم هجرته أو هربه إلى أرض مباركة.

فإذا كان قد هاجر مع أبيه إلى حاران فهل كان قومه هم أهل حاران؟ بالطبع هذا ليس صحيحاً لأنه هاجر إليها وكأنه غريب عنها. ثم كيف ينجيه الله من قومه ومعه لوط إلى الأرض المباركة وهو في حاران؟.

ولو عدنا إلى نص التوراة مرة أخرى لوجدناه يقول (وأقاموا هناك) والإقامة ليس مدة قصيرة. حيث يبقى تارح والد إبراهيم فيها حتى يموت.

أما القرآن الكريم فيفتح لنا أبواب البحث بالتدرج حتى نصل إلى حقائق لم تصل لها التوراة فالتسلسل القرآني في قصة إبراهيم يجري كالتالي:

يقول تعالى في سورة الأنعام: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين. وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي. فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) الآيات 47 ـ 79.

وبغض النظر عن كون اسم أبيه آزر أو غير ذلك فما يهمنا من هذا السياق هو حديث إبراهيم لأبيه بشأن عبادة الأصنام التي درج عليها قومه.

ومن ظاهر الآيات نجد أن عبادة الأصنام كانت منتشرة بين قوم إبراهيم وقد تركزت عبادتهم على عبادة أحد الكواكب والقمر والشمس. وعلى الغالب فإن الكوكب هو المريخ أو الزهرة. باعتبارهما الأكثر لمعاناً في الليل. وقد ألهم الله سبحانه إبراهيم أن ينظر ويتفكر في ملكوت السماوات والأرض حتى يصل بتفكيره إلى الإيمان الحقيقي بالله وذلك من خلال التفكر في مخلوقات الله الكبرى كالقمر والكواكب والشمس. وسياق الآيات الكريمة يدلنا بشكل واضح كيف أن إبراهيم كان يبحث عن إله ثابت لا يأفل وهذا الإله يجب أن يكون كبيراً حتى لا يعلو عليه شيء. ولكن وعي إبراهيم وقلبه دلاّه إلى الحقيقة الإلهية التي ليس كمثلها حقيقة.

ولما أدرك إبراهيم أن الكوكب والشمس والقمر ما هي إلا أجرام تأفل وتغيب عن ناظريه رجع إلى قومه فأعلن براءته منهم ومن عبادتهم.

وتعتبر هذه المرحلة هي النقلة النوعية في حياة إبراهيم. وهي نقلة أولى سيتبعها نقلات أخرى متطورة حسب تطور الصراع بين ديانة التوحيد والإشراك بالله.

ومن المدهش حقاً أن التوراة لم تذكر هذه المرحلة نهائياً. ويبدو أن تركيزها كان على نسبه ومن ثم هجرته إلى الأرض المباركة ووعد الله بأن يمتلكها.

ويبدو أن قوم إبراهيم لم يعيروه اهتماماً في بادئ الأمر حتى الآيات الكريمة تدل على أن قومه خوّفوه من إيذاء آلهتهم له إن هو عاداها.

يقول تعالى في سورة الأنعام: (وحاجّه قومه قال أتحاجونني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون. وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) 80 ـ 81.

ويبدو أن هذا الجدال الذي وقع بين إبراهيم وبين قومه كان في فترة شبابه المبكرة حيث أن قومه لم يستخدموا معه العنف بل استخدموا التخويف، بينما قصة تكسيره للأصنام جاءت لاحقة على ذلك، ولأن قومه أدركوا أنه بات يشكل خطراً على عقائدهم الوثنية حاربوه ثم ألقوا القبض عليه ليحرقوه أما بالنسبة لأبيه آزر أو تارح والذي ذكرته التوراة ذكراً عادياً في سياق السرد القصصي التوراتي فقد كان له دور مهم في حياة إبراهيم.

فمنذ البداية ظهرت عداوة الأب لابنه. وكان أبوه متعصباً لعقيدة قومه وعبادة الأصنام، وليس مستبعداً أن يكون أبو إبراهيم فعلاً صانع تماثيل يبيعها وقد يكون قد خاف على خسارته مالياً إن توقف بيعه لها. فعداء آزر لإبراهيم عداء لسببين. سبب تجاري وسبب عقيدي باعتباره كان على قومه وآبائه.

كل ذلك لم تأتِ عليه التوراة بل اكتفت بسرد النسب الأبوي فليس هناك عداء وليس هناك ديانة توحيد وليس هناك أصنام وما شابه ذلك.

وأعتقد أن التوراة تحاشت الحديث عن الصراع بين إبراهيم وأبيه حتى لا يظهر أن نسب الإنسان ليس هو مقياس الأفضلية إنما عقيدته وفكره ومدى إيمانه بالله. ومقياس النسب يهم التوراتيين جداً حيث لا يتركون سفراً من أسفار التوراة إلا ويذكرون نسبهم إلى إبراهيم أو إلى أولاده فيه.

وفي السياق القرآني نفسه يحاور إبراهيم أباه وقومه حول عبادة الأصنام. ويظهر من هذا السياق أن إبراهيم كان يرى أباه وأفراد قومه وهم يذهبون للمعابد الوثنية يعكفون على عبادة الأصنام. وقد عرض إبراهيم على أبيه الابتعاد عن عبادة الأصنام لكن أباه رفض ذلك.

يقول الله تعالى في سورة مريم: (قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني مليا. قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان

بي حفياَ وأعتز لكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألاّ أكــون بدعـاء ربي شقيا). 46 ـ 47 ـ 48.

وتستوقفنا الآية الأخيرة أي الآية 48 من سورة مريم حيث يوضـح القـرآن الكريم أن إبراهيم بيّت نيته ليستغفر لأبيه ومن ثم ليعتزل قومه وعبادتهم. وهنا نرى أن النبي إبراهيم قبل أن يقدم على تحطيم الأصنام اعتزل قومه وعبادتهم. وهذا الاعتزال استغرق وقتـاً. وقـد التجـأ إبراهيـم للتعبـد لوحـده علـى طريقتـه التوحيدية المخالفة لعقيدة أبيه وقومه، وإذا كان أبــوه قـد هـدده بـالرجم إن لم ينته عن شتم أصنامهم وعدائه لعقيدتهم فكيــف يـهاجر أبـوه ويـأخذه معـه إلى حاران حسب نص التوراة؟.

لقد قال له أبوه اهجرني ملياً فهجره واعتزلهم لمدة زمنية لا نعلمها. المهم أنه عاد وقد ترسخ الإيمان في قلبه وانتقل من الاعتزال إلى الجهاد العملي حيث رجع ليحطم الأصنام ويعلن حربه العملية ضد الكفر والشرك.

لم يرد في التوراة أي ملمح لصراع ما بين إبراهيم وقومه وكذلـك تحطيمـه لأصنام قومه والذي يعتبر المحطة الثانية في حياة إبراهيم. وترتبط هذه المرحلـة بالجدل الــذي دار بـين إبراهيـم والملـك الـذي ادعـى الربوبيـة حيـث تتلاحـق الأحداث ولم يجد إبراهيم مفراً من تنفيذ أمر الله بالاعتزال الكلي عن قومه وعن عقائدهم والهجرة من بلاده إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين.

ومن خلال آيات القـرآن الكريـم نسـتطيع أن نفـهم مجريـات الأحـداث لنصل إلى النقلة الزمنية التالية في حياة هذا النبي العظيم عليه السلام:

بيّت إبراهيم النية على تحطيم الأصنام. ولما دنت السـاعة الـتي حددهـا ذهـب قومـه ليحتفلـوا بـأحد أعيـادهم. فذهـب إلى مجمـع بيـت الأصنـام وراح يحطمها واحداً بعد الآخر وأبقى كبيراً للأصنام على حاله.

يقول تعالى في سورة الأنبياء: (فجعلهم جذاذاً إلاّ كبيراً لهم لعلهم يرجعون 58 قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين 59. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم 60).

ثم قبضوا عليه وحاجّوه وحاججهم.

يقول تعالى في سورة الأنبياء: (قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم 62. قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون 63. فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون 64. ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون 65. قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم 66. أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون 67).

ومن خلال آيات سورة الأنبياء التي تحدثت عن النبي إبراهيم عليه السلام يتضح أن إبراهيم كان فتى أو شاباً لم يبلغ مبلغ الرجال. ويتضح أنه كان مجهولاً لدى قومه إلى هذا الوقت إذ يقول تعالى واصفاً إياهم (سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم).

ويتفق قومه على إنزال العقوبة به بحرقه في النار.

في سورة الأنبياء في الآية 68 ـ 70 ترد قصة حرق إبراهيم بالنار إذ يقول تعالى: (قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين).

ويبدو أن إبراهيم بدأ دعوته للتوحيد بأبيه الذي هو أقرب الناس إليه. ولما لم يستجب الأب لدعوته اعتزله وقومه وما يعبدون من دون الله لفترة ليست طويلة ثم عاد ليحطم أصنامهم ويتحداهم علانية.

ولم يظهر موقف أبيه أثناء حرقه. فـلا هـو دافـع عنـه ولا هـو سـاهم في إحراقه. غير أن القرآن الكريم يوضح أن أبـاه لم يؤمـن وبقـي علـى ديـن قومـه وعبادة الأصنام.

وقد أوضح القرآن الكريم أن أبا إبراهيم قد وعد ابنه بالإيمان بالله الواحد. فاستغفر له ابنه بسبب هذا الوعد. لكن الأب لم يؤمن. ولما تبين أنه كذب عليه تبرأ منه.

يقول تعالى في سورة التوبة: (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين أنه عدو الله تبرأ منه إن إبراهيم لأوّاه حليم) آية: 114.

وكما قلنا سابقاً فإن التـوراة تـورد في سـفر التكويـن أن تـارح أخـذ ابنـه إبراهيم وهاجر به من أور الكلدانيين إلى حاران ولم تشـر لا مـن قريـب ولا مـن بعيد إلى هذا العداء بين الأب وابنه والتباين في عقيدة كل منهما.

ومن خلال السياق القرآني تخبرنا الآيات الكريمة عن جدال جـرى بـين إبراهيم وبين أحد الملوك الذين ادعوا الألوهية. وقد قـال المفسـرون المسـلمون إن ذلك الملك هو النمرود.

وقصته معروفة لدى المسلمين كما وردت في القرآن الكريم وكتب التفاسير.

ويقول تعالى في سورة البقرة: (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك. إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميـت. قـال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين). آية 258.

ولا نجـد في التـوراة مجريـات لهـذه الأحـداث. بـل هـي تكتفـي بذكـر هجرتـه مـع أبيـه إلى حـاران. ثـم وفـاة والـده ثـم هجرتـه إلى أرض كنعـان. وليـس هنـاك من سـبب تذكـره التـوراة لهـذه الهجـرة هـل بسـبب القحـط أو

الجدب أم بسبب التجارة أن بسبب العقيدة. إنما نستطيع أن ندرس الأحداث التوراتية القادمة لنرى أن غاية إبراهيم من الهجرة ليس لها علاقة بالعقيدة التي آمن بها. إنما لها علاقة بوعد إلهي له بتمليكه أرض كنعان.

يأتي في سفر التكوين الإصحاح 11 ـ 12: (وأخذ تارح إبراهيم ابنه ولوطاً بن هاران ابن ابنه وساراي كنته امرأة إبراهيم ابنه. فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك. وكانت أيام تارح مئتين وخمس سنين ومات تارح في حاران).

(وقال الرب لإبرام إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة.... فذهب إبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط. وكان إبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران. فأخذ إبرام ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران. وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى أرض كنعان. واجتاز إبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة ممرا. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض فظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض. فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له).

هذا مجمل الحديث التوراتي الذي خص رحلة إبراهيم وهجرته من أور الكلدانيين إلى أرض كنعان.

أما في القرآن الكريم فيرد قوله تعالى في سورة العنكبوت الآية 26: (فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم).

ويقول تعالى في سورة الأنبياء الآية 71 ـ 72: (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين).

فإبراهيم حسب النص التوراتي الذي لا يورد شيئاً عن صراعه مع قومه وأبيه يهاجر إلى أرض كنعان دون أي سبب سوى أنه أخذ مقتنياته ولوط معه ثم اتجه إلى أرض كنعان وترى التوراة أن الرب خاطب إبراهيم وأمره أن يترك أرضه وعشيرته وبيت أبيه ليريه أرضاً أخرى يعده أن يملكه إياها.

أما ظاهر الآية القرآنية فيشير إلى أن الله سبحانه نجى إبراهيم ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين، فالنجاة لا تأتي إلا بسبب مصيبة ستحل أو بسبب مؤامرة تبيّت والله نجى إبراهيم لأن قومه كادوا له وبيتوا النية على قتله. وقد يئس من دعوته لهم، بعد أن عانى منهم ما عانى، ثم إن إبراهيم مكلف بنشر دعوته وعقيدة التوحيد وعندما يأمره الله بالهجرة فإن السبب في ذلك تكليفه بنشر دعوة التوحيد وليس لسبب آخر ويتضح ذلك من قول لوط في سورة العنكبوت: (قال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم). فإبراهيم علّم لوطاً أن هجرته بعيداً عن قومه هي من أجل غاية ربانية إلهية فآمن له وسافر معه.

يقول ابن حزم الظاهري الأندلسي: وبعد ذلك ذكر أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام لنسلك أعطي هذا البلد من نهر مصر النهر الكبير إلى نهر الفرات. وهذا كذب وشهرة من الشهر لأنه إن كان عنى بني إسرائيل وهكذا يزعمون فما ملكوا قط من نهر مصر ولا على نحو عشرة أيام منه شبراً مما فوقه. وذلك من موقع النيل إلى قرب بيت المقدس. وفي هذه المسافة الصحارى المشهورة الممتدة، والحضار ثم رفح وغزة وعسقلان وجبال الشراة التي لم تزل تحاربهم طول مدة دولتهم وتذيقهم الأمرين إلى انقضاء دولتهم ولا ملكوا قط من الفرات ولا على عشرة أيام منه بل بين آخر حوز بني إسرائيل إلى أقرب مكان من الفرات إليهم نحو سبعين فرسخاً فيها قنسرين وحمص التي لم يقربوا منها قط.

ثم دمشق وصور وصيدا التي لم يزل أهلها يحاربونهم ويسومونهم الخسف طول مدة دولتهم بإقرارهم ونصوص كتبهم. وحاش الله عز وجل أن يخلف وعده في قدر دقيقة من سرابه فكيف في تسعين فرسخاً في الشمال ونحوها في الجنوب ثم قوله النهر الكبير. وما في البلاد التي ملكوا نهر يذكر إلا الأردن وحده وما هو بكبير إنما مسافة مجراه من بحيرة الأردن إلى مسقطه في البحيرة المنتنة نحو ستين ميلا فقط[1].

وواضح القول في كلام ابن حزم أن بني إسرائيل استعمروا الأرض المذكورة أي أرض كنعان وظل أهل البلاد الأصليين يحاربونهم إلى أن أخرجوا منها. وابن حزم قرأ التاريخ وأدرك بحسه الفلسفي الموسوعي أن هذه الأرض لها أصحابها الذين لم يسكتوا على احتلال أرضهم من قبل اليهود حتى زالت الدولة التي أقاموها مدة من الزمن.

على أية حال فموضوع وعد الله لإبراهيم بأن يمنحه الأرض الواقعة بين الفرات والنيل أثار لدى كافة الباحثين القدامى والمحدثين مسلمهم وغير مسلمهم إشكالات كبيرة ارتبطت بالدوافع القومية والعقيدية والسياسية. ومازال هذا الموضوع يثير النقاش باستمرار لما له من نتائج كبيرة على ساحة الصراع القائم والمستقبلي بين الاحتلال اليهودي لأرض فلسطين وبين أصحاب الأرض والحق الأصليين وسنعود لهذا الموضوع في صفحات قادمة لنفرد له المساحة اللازمة للنقاش والاستنتاج.

وحين نعود إلى فهم قوله تعالى: (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين).

نرى أن الله سبحانه نجى إبراهيم إلى أرض آمنة وليس إلى أرض خراب وطالما أن الله بارك فيها للعالمين أي لكافة البشر فإنها على هذا الأساس ستكون

---

(1) ابن حزم الظاهري الاندلسي. الفصل بين الملل والأهواء والنحل ص 218 المجلد الأول.

أرض عطاء مادي وروحي وهذا ما سيكون المستقبل بعد إبراهيم حافلاً به حيث ظهور عدد من الأنبياء فيها وإسراء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليها باعتبار أن فيها الأقصى أولى القبلتين الذي بارك الله بالأرض التي حوله وربطها بالمسجد الحرام والحرم النبوي الشريف حيث تشد الرحال إلى هذه المساجد الثلاثة. كما أشار لذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث مشهور معروف (لا تشد الرحال إلى للمسجد الحرام والأقصى ومسجدي هذا). وفي رواية أخرى: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام. والمسجد الأقصى ومسجدي[1].

الأرض التي بارك الله فيها وهجرة إبراهيم إليها:

أوردنا أن القرآن الكريم يشير إلى أن الله سبحانه نجّى إبراهيم ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين.

فهذه الإشارة للأرض المباركة تجعلنا نتساءل أين هي الأرض التي بارك الله فيها العالمين؟ أهي مكة أم فلسطين. أم كلاهما معاً باعتبارهما مسرح الأحداث القادمة مع النبي إبراهيم عليه السلام؟ تشير التوراة إلى أن هجرة إبراهيم كانت إلى أرض كنعان وتشير أيضاً إلى أن الكنعانيين كانوا حينئذ في الأرض.

فاختيار أرض كنعان ليس اختياراً بشرياً تم من قبل إبراهيم إنما هو اختيار رباني نستطيع أن نكشف بعض جوانبه ونلقي الضوء على أسبابه.

١ - إن إبراهيم عليه السلام نادى بديانة التوحيد وهو مكلف من الله سبحانه بتبليغ رسالته أينما ذهب وأينما حلّ. ولن تتوقف دعوته بمجرد عناد قومه ورفضهم لها.

---

(١) رُوي الحديثان عن ست عشرة طريقة ورواه ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

2 ـ إن الأرض التي بارك الله فيها للعالمين كانت ممهدة لتلقي تعاليم إبراهيم الداعية إلى التوحيد ولهذا السبب لن نجد أعداء لهذه العقيدة في هذه الأرض المباركة.

3 ـ اختار الله سبحانه مكة المكرمة منذ الأزل لتكون محجاً للناس ولذلك كلف إبراهيم ببناء الكعبة. ولن يتم بناؤها دون هجرة هذا النبي الكريم من بلده إلى مكة.

4 ـ إن اختيار الله سبحانه يأتي ضمن ترتيب رباني للتاريخ القادم الذي سيشهد صراعاً مريراً بين التوراتيين الذين يدعون نسبهم لإبراهيم وبين المسلمين الذين اتبعوا دين إبراهيم وهم أصحاب الأرض التي سيحصل الصراع بسببها. وهذا الترتيب يأتي ضمن سياق الصراع الدائم بين الحق والباطل إلى أن يدحر الباطل وتنتصر عقيدة التوحيد التي يمثلها المسلمون.

وعندما نطالع النص التوراتي نرى أن الرب ظهر لإبراهيم ووعده بعد أن أراه أرض كنعان أن تكون لنسله. وقال لنسلك أعطي هذه الأرض فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له.

فهل حقاً وعد الله إبراهيم بأرض كنعان بأن تكون لنسله من بعده؟ وكيف ستكون لنسله ويقطنها شعب كنعاني متقبل لعقيدة التوحيد ولم يضايق إبراهيم في دعوته وتجواله في المنطقة؟.

صحيح أن الله اختار الأرض المباركة دار أمان لإبراهيم ونجاةٍ ودعوةٍ ولكنه لم يعده بها.

والتوراة تركز على قولها إن هذه الأرض لأبناء يعقوب الذي يعتبرونه جدهم الأكبر وجد يعقوب هو إبراهيم الذي وعده الله بأن الأرض ستمنح لنسله. إن القرآن الكريم لم ينص على أن الله وعد إبراهيم أنه سيمنحه هذه الأرض،

والاختلاف بين القرآن والتوراة هو اختلاف في طبيعة الإله. فالتوراة تنحرف تماماً في تصوير الإله. لأنها تجعل منه إلهاً قومياً خاصاً لبني إسرائيل وحاشا أن يكون الله كذلك.

ماذا حدث مع النبي إبراهيم بعد هجرته إلى الأرض المباركة؟

تفصل التوراة في مسير إبراهيم بعد وصوله إلى الأرض المباركة فتقول: فاجتاز إبرام إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض فظهر الرب لإبرام... الخ النص.

أما في القرآن الكريم فلا نجد ذكراً لما قام به إبراهيم في هذه الأرض المباركة سوى بنائه للكعبة مع ولده إسماعيل وهذا ما تنكره التوراة، وقد اقتصر القرآن الكريم على ذكر نجاة الله له باتجاه الأرض المباركة أما كيف وصل. أي طريق سلك فهذا ليس من شأن القرآن أن يتحدث عنه باعتباره كلاماً لا يمت بصلة إلى مهمة النبي إبراهيم العقيدية.

وإذا عدنا إلى قول التوراة السابق. فاجتاز إبراهيم إلى مكان شكيم إلى بلوطة ممرة.. الخ. فإننا نجد أنفسنا متوقفين عن طرح تفسيرات أخرى قبل معرفة صحة كلام التوراة أم خطئه ما الذي قال إن إبراهيم اجتاز إلى مكان شكيم؟ بالطبع ليس هناك سوى التوراة.

فالقرآن الكريم تحدث باختصار بقوله ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها... فلماذا لم يذهب إبراهيم إلى القدس وهي مركز الأرض المباركة؟ ثم لماذا استقر في الخليل ودفن هناك ولم يستقر في نابلس ويدفن فيها؟.

ستطالعنا التوراة في أسفار قادمة عن انقسام في مملكة سليمان حيث أصبحت مملكتين إحداهما في القدس والأخرى في نابلس أي شكيم. وكانت الخليل ضمن مملكة القدس. فإذا كان الوعد الإلهي لإبراهيم بأن يعطيه الأرض

له ولنسله من بعده حينما قال له انظر إلى هذه الأرض (أي فلسطين) فإن التوراتيين وجدوا ضالتهم حينما كتبوا التوراة في أول جزء من الأرض التي زعموا أن الله قد وعد إبراهيم بها له ولنسله.

وأعتقد أن كتبة التوراة أدخلوا هذه القصة أي قصة وصول إبراهيم إلى شكيم أولاً إدخالاً ورغم أن الدكتور أحمد سوسة رسم خارطة في كتابه العرب واليهود في التاريخ لمسيرة إبراهيم من بلاد الرافدين إلى فلسطين وجعله يمر في نابلس. فرغم ذلك كله لا أعتقد أن إبراهيم مر بنابلس. والذي يدفعني للقول بذلك الأحداث الآتية. حيث انقسم لوط عنه واستقر في سادوم وعامورة وإبراهيم استقر في الخليل حيث لا توجد مسافة كبيرة بين سكن لوط وسكن إبراهيم إذ أنهما كانا يلتقيان مراراً وهذا ما ورد في التوراة نفسها. والخليل أقرب كثيراً من نابلس باتجاه سكن لوط. ولا يفوتنا أن إبراهيم وزوجته وبعض أبنائه دفنوا في الخليل المكان الذي اختاره إبراهيم للاستقرار المؤقت وحين نطالع مهمة إبراهيم حسب النص التوارتي نرى أنه كرّس حياته وجهده للتجارة بالأغنام والأبقار وليس للدعوة لعقيدة التوحيد التي بسببها عذب في بلده وطورد بعد أن حطم أصنام قومه.

ليس غريباً أن يكون إبراهيم قد اقتنى الأغنام والأبقار وتاجر بها ولكن ذلك ليس هو الهم الأكبر لديه كما ورد في التوراة. فهناك مهمة مكلف بها وإلاّ ما معنى النبّوة وما معنى أن ينجيه الله إلى أرض يبشر فيها بدعوة التوحيد. ويلاقي من سكانها القبول وعدم العداء.

وتتضح علاقة إبراهيم مع سكان الأرض المباركة من خلال التعامل الذي حصل بينه وبينهم. فهم ليسوا غرباء عنه. والدراسات التاريخية تؤكد أن الشعوب العربية انطلقت من اليمن أو من جنوب شبه الجزيرة وانطلقت إلى بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين ولبنان والأردن وحملت معها لغتها بلهجاتٍ متعددة

وتراثها وعقائدها ومعتقداتها. فليس غريباً أن يفهم إبراهيم لغة الكنعانيين ويفهمون لغته ويعرف تراثهم لأنه يحمل أكثره في مخزونه النفسي والفكري من قبل أن يرحل من بلاد الرافدين مضطراً ومجبراً وباحثاً عن النجاة التي كتبها الله له.

ويظهر من حديث التوراة في الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين التنقل السريع في مسيرة إبراهيم فهو في لحظات توراتية ينتقل من شكيم إلى بيت إيل ثم يحدث جوع في الأرض فينحدر إلى مصر.

في بداية الإصحاح الثاني عشر تقول التوراة (وكان إبراهيم ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران). ويرد في الإصحاح السابع عشر قول التوراة (وقال في قلبه هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة).

فالفارق بين إبراهيم وسارة هو عشر سنوات وهذا يعني أن إبراهيم لما هاجر من حاران كان عمر زوجته خمساً وستين سنة. وإذا أضفنا الزمن الذي استغرقته رحلة إبراهيم حتى وصل أرض كنعان واستقراره فيها بعض الوقت، فإن ذلك يعني أن إبراهيم قد شارف على الثمانين عاماً وامرأته شارفت على السبعين.

وإذا عدنا إلى الإصحاح الثاني عشر نرى التوراة تقول: (وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك) وتتابع (فحدث لما دخل إبرام لمصر أن المصريين رأوا المرأة حسنة جداً ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبرام خيراً بسببها وصار له غنم وبقر حمير وعبيد وإماء وأتن وجمال).

فالتوراة التي دوّنها أحبار اليهود غفلت أو هي نسيت أن سارة امرأة هرمة شارفت على السبعين فكيف يقولون عنها إنها حسنة جداً؟.

ويستشف أيضاً أن إبراهيم ذهب إلى مصر ليتاجر بجمال زوجته ليحصل على الغنم والبقر والحمير والعبيد. وهذا الكلام مرفوض من أساسه لأن زوجته لم تكن جميلة وهي التي شارفت على الهرم. ثم حاش لإبراهيم أن يعتمد مبدأ الغاية تبرر الوسيلة فيجعل امرأته وسيلة ليحصل على الغنم وبقية الماشية والعبيد.

يقول ابن حزم الأندلسي (ومن المحال أن تكون في هذا السن تفتن ملكا)[1].

وهذا لم يأت على ذكره القرآن الكريم لأنه ينافي أبسط قواعد النبوة وقوانينها الإلهية.

ويبدو أن إبراهيم لم يطل الإقامة في الأرض المباركة بسبب حدوث جوع فيها. والتوراة تنص على أنه هاجر إلى مصر ومكث فيها مدة. ثم ما لبث أن عاد إلى الأرض المباركة وقد حمل معه بضاعته إلى جانب جارية اسمها هاجر كانت سارة قد اتخذتها جارية لها بعد عودتها من مصر ثم أهدتها لزوجها إبراهيم لينجب أولاداً لأنها شاخت ويئست من الحمل والإنجاب.

تقول التوراة في ذلك: (وأما ساراي امرأة إبرام فلم تلد له. وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراي لأبرام هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة ادخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين فسمع إبرام لقول ساراي. فأخذت ساراي امرأة إبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة

(1) ابن حزم الأندلسي الفصل بين الملل والأهواء والنحل صفحة 225 المجلد الأول.

إبرام في أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له فدخل على هاجر فحبلت) إصحاح 16.

ولم يشر القرآن الكريم إلى رحلة إبراهيم لمصر وزواجه من هاجر. إنما تحدث عن قصة ذبح إسماعيل ثم بناء الكعبة وهذا ما سنطلع عليه في حينه.

ونستطيع أن نبين الأحداث التي مرت بإبراهيم وهو في الأرض المباركة من خلال آيات القرآن الكريم ومن خلال ما أوردته التوراة.

1 - زواجه من هاجر وولادة إسماعيل عليه السلام.

2 - قصته مع لوط وتدمير سادوم وعامورة من قبل ملائكة الرب.

3 - بشرى الملائكة لزوجته سارة بإنجاب ولد.

عقيدة إبراهيم في التوراة والقرآن:

تظهر أول علاقة بين النبي إبراهيم وبين الله حسب ما ورد في التوراة عندما قال له الرب اذهب من أرضك ومن عشيرتك إلى آخر المقطع 4 من الإصحاح الثاني عشر. ثم يظهر الرب لإبرام وقال له (لنسلك أعطي هذه الأرض. ثم بعد اعتزال لوط عنه ظهر له الرب وقال ارفع عينيك وانظر إلى الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد. وأجعل نسلك كتراب الأرض... فنقل إبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون).

ثم تقول في الإصحاح الخامس عشر (بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى أبرام في الرؤيا قائلاً لا تخف يا إبرام أنا ترس لك أجرك كثير جداً فقال ابرام أيها السيد الرب ماذا تعطيني وأنا ماض عقيماً... فآمن بالرب فحسبه له برا وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها...

ثم في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض..).

وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. تختن كل ذكر منكم. فتختنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم.

ثم تقول: ولأني عرفته ولكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا براً وعدلاً فمن الملاحظ في هذه النصوص أن علاقة الرب بإبراهيم علاقة وعدٍ بمنحه أرض كنعان له ولنسله من بعده. وتكاد تقتصر العلاقة بينهما على ذلك الوعد. والواضح أيضاً أن هذه العلاقة ليست علاقة تبليغ رسالة التوحيد إلى الناس.

والواقع أن دور إبراهيم الأهم هو الدعوة لديانة التوحيد بين قومه الكلدانيين أولاً وقد ركز القرآن الكريم على هذه الناحية أشد التركيز. ولم يركز على نسبه أو علاقته الجسدية بأولاده من بعده. إنما كان التركيز دقيقاً على حفظ عقيدته وانتقالها منه لأولاده وأحفاده.

وتتضح شريعة النبي إبراهيم وعقيدته من خلال آيات كثيرة. وتوضح أنْ لا شريعة قبل النبي نوح عليه السلام. أما الأنبياء الذين بعثوا بعد نوح كانوا على شريعته إلى بعثة إبراهيم. وبعدها على شريعة إبراهيم إلى بعثة موسى وهكذا.

والأنبياء أصحاب الشرائع وأولو العزم هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام وهذا ما دلت عليه الآية الكريمة من سورة الأحزاب (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) الآية 7.

غير أن نبوة النبي إبراهيم كانت عالمية لم تقتصر على منطقة واحدة أو على قومٍ دون غيرهم حيث أن إبراهيم انتقل بديانته من أور إلى كنعان إلى مكة. ومن شعب الرافدين. إلى شعب الأرض المباركة. ثم إن الأنبياء من بعده اتبعوه واتبعوا ملّته.

يقول تعالى في سورة البقرة الآية 131: (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين).

ويقول تعالى في سورة البقرة الآية 132: (يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُن إلا وأنتم مسلمون).

ويقول تعالى في سورة طه: (إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً 98).

وفي سورة الأنعام: (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين 79).

وفي سورة النحل: (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يكن من المشركين).

وفي سورة آل عمران: (يا أهل الكتاب لمَ تُحاجّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة إلا من بعده أفلا تعقلون. ها أنتم حاجحتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين).

والسيرة التوحيدية للنبي إبراهيمٍ تسير على نسق واضح. ففي سورة مريم تقول الآية الكريمة إن إبراهيم كان نبياً: (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً)41.

وفي السورة نفسها تذكر الآيات الكريمة أن إبراهيم توجه إلى والده بالنصح كي يبتعد عن عبادة الأصنام والشيطان ويحثه على عبادة الله الواحد.

وفي سورة الأنبياء نرى فيها إبراهيم يرفض عبادة الأصنام ويتعرض للعدوان فينجيه الله.

وفي سورة الصافات. يتابع إبراهيم محاربة الكفر وعبادة قومه.

وأخيراً توضح الآيات الكريمة أن إبراهيم لم يكن يهودياً أو نصرانياً إنما كان حنيفاً مسلماً.

ويقول تعالى: (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى).

وهذا يدلنا على أن الله سبحانه أنزل على إبراهيم عليه السلام صحفاً فيها تعاليم العقيدة الحنيفية. وأهمها ما ورد في سورة (الأعلى) بقوله تعالى: (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير أبقى..).

ويقول تعالى: (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمّهن).

أما قوله: تعالى: (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين). فإن فيه وضوحاً تاماً حول علاقة إبراهيم باليهود والنصارى. فإذا كان النبي موسى عليه السلام أول نبي لليهود فإن لليهود أنبياء معروفين هم موسى وداود وسليمان وعيسى وزكريا ويحيى والياس وهارون وأيوب عليهم السلام أما إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف فهم أنبياء حنيفيون وهذا ما أكدت عليه آيات القرآن الكريم في أكثر من سورة. ولم تكن رسالتهم مقتصرة مغلقة. وتسمية حنيفيين، ليست ميزة تفضيلية على الأنبياء إنما هي تسمية لأنبياء ما قبل التوراة.

والذين يقولون بأن اليهود على دين إبراهيم لا يدركون معاني القرآن ولا مقاصدها. حتى يعقوب الذي أطلق عليه (إسرائيل) كان حنيفياً على ملة جده إبراهيم وليس لليهود علاقة به.

أما تعاليم صحف إبراهيم فهي التي نراها في القرآن الكريم والتي طبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تعاليم التوحيد والإنذار وتبيان الجزاء والعقاب وتوضيح طريق الخير من طريق الشر، غير أن الصحف التي أنزلت على إبراهيم اندثرت بشكلها المكتوب ولم تبق إلا تعاليمها التي بثها إبراهيم في أبنائه وقومه والناس الذين أتبعوه. وقضت حكمة الله أن يتوالى بعثُ الأنبياء ليكملوا تعاليم الله بعد أن يضل الناس وينحرفوا عن طريق التوحيد.

وقد جاء في التوراة ما نصه: وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي وباركه وقال مبارك إبرام من الله العلي مالك السماوات والأرض ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك) سفر التكوين.

ولم يرد ذكر لملكي صادق في القرآن الكريم غير أن بعض الباحثين قالوا بأن ملكي صادق كان نبياً أو رسولاً موحداً بين شعب كنعان. وبعضهم الآخر رفض ذلك مطلقاً واعتبر التوراتيين قد أدخلوا اسم ملكي صادق إدخالاً. فلا يعقل أن يتلقى إبراهيم مباركة من غيره وهو أبو الأنبياء وأشهر من نادى بديانة التوحيد في عصره.

وفي هذا السياق يرى عباس محمود العقاد أن اليهود تعلموا النبوة الإلهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب. ولم تكن لهذه الكلمة عند اليهود لفظة تؤديها قبل وفودهم على أرض كنعان ومجاورتهم للعرب المقيمين في أرض مدين فيقول في كتابه (الثقافة العربية ص 71): إن كلمة نبي عربية لفظاً ومعنى لأن المعنى الذي تؤديه لا تجمعه كلمة واحدة في اللغات الأخرى والعبرانيون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها، لأنهم كانوا يسمون

الأنبياء القدماء بالآباء. ولم يفهموا من كلمة النبوة في مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار فكانوا يسمون النبي بالرائي أو الناظر أو رجل الله ولم يطلقوا عليه اسم نبي إلا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين في التوراة وهم ملكي صادق وأيوب وبلعام وشعيب الذي يسمونه يثرون معلم موسى الكليم).

وهذا القول يشير إلى أن ملكي صادق ربما يكون نبياً والله أعلم.

بينما يرى آخرون أن التوراتيين أرادوا إقحام ملكي صادق للقائه مع إبراهيم كي يقولوا إن إبراهيم تلقى بعض تعاليمه من غيره.

على أية حال نعود فنقول إن القرآن الكريم لم يشر إلى لقاء بين إبراهيم وملكي صادق وإن عقيدة إبراهيم التوحيدية هي عقيدة خصها الله في عصره لينادي بها ويدافع عنها ويتفق القرآن مع ما قالته التوراة في أن الله سبحانه وعد إبراهيم بأنه سيكون أمة رغم أن التفسيرين يختلفان في معنى أمة. وعلى الرغم من أن بعض المفسرين المسلمين ذهب إلى تفسير أمة بأن إبراهيم كان إماماً يؤتم به.

ويقول تعالى في سورة النحل: (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين) الآية 120.

ويقول النص التوراتي في الإصحاح السابع عشر: (أما أنا فهو ذا عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً... وتكلم الله معه قائلاً أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم) سفر التكوين الإصحاح 17.

وتورد التوراة أن إبراهيم انتقل إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار.

وقال عن سارة امرأته إنها أخته. وتحدثت عن قصة مشابهة تماماً لقصته التي روتها التوراة عن سفره لمصر وادعائه بأن سارة أخته وليس زوجته.

وهذا بالطبع لم يرد في القرآن الكريم مثله في ذلك مثل القصة الأولى. غير أننا نقول هنا إن عمر إبراهيم آنذاك كان قد بلغ المئة وأن سارة كانت قد بلغت التسعين وقد قالت التوراة (وقال في قلبه هل يولد لابن المئة سنةٍ وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة) وهذا ما كان في الإصحاح الثامن عشر. وتورد التوراة قصة تغربه في الإصحاح العشرين وهذا التغرب كان في جرار عند الملك أبيمالك حسب قول التوراة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ما الدافع عند أبي مالك ليطلب سارة وهي امرأة عجوز عُمرها تسعون سنة؟.

إننا نعتقد أن قصة إبراهيم مع أبيمالك ليست إلا تلفيقاً توراتياً صنعه وهم أحبارهم إما عن جهل بالأمور. وإما عن قصد يريدون من ورائه إثبات أن الله أنزل معجزاته لأجل سارة التي ستكون أم اسحق، النبي الذين يدعون انتسابهم له ولابنه يعقوب من بعده.

ونستطيع أن نقول: إن المقام لم يُطل بإبراهيم في أرض واحدة فهو ينتقل من مكان إلى مكان ومن بلد لبلد وليس ذلك إلا بسبب تكليفه من الله عز وجل بتنشر ديانة التوحيد بين الناس. وليس بسبب تجارة الأغنام والأبقار كما تدعي التوراة. وكما قلنا سابقاً إن عمل إبراهيم بالتجارة ليس شيئاً غريباً ولكن الغريب في الأمر أن تتنكر التوراة لدعوته التي هي سبب سفره وتنقله الدائم في أرجاء الشام والجزيرة العربية.

إبراهيم ولوط عليهما السلام:

تتداخل شخصية النبي إبراهيم مع النبي لوط عليهما السلام ولا خلاف في أن لوطا هو ابن أخي إبراهيم وذلك حسب ما ذكرت التوراة وحسب ما قاله المفسرون المسلمون.

ويبدو من خلال الآيات القرآنية الكريمة أن صلة قوية تربط الشخصيتين ببعضهما. إذ تبدأ هذه الصلة منذ أن نجى الله إبراهيم من قومه في وادي الرافدين.

يقول تعالى في سورة الأنبياء الآية 71: (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين).

وتوضح التوراة هذه الصلة إذ تبين أن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم لكنها لم توضح لم هاجر معه دون سائر أقاربه. فالذين هاجروا مع إبراهيم هم لوط وسارة وبعض من آمن بعقيدة إبراهيم.

غير أن القرآن الكريم يوضح أن هجرة لوط مع عمه كانت هجرة إلى الله وفرارا بدينه وعقيدته يقول تعالى في سورة العنكبوت الآية 26: (فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم).

أما في التوراة فيأتي في سفر التكوين الإصحاح الثاني عشر: (فذهب إبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط. وتقول فأخذ إبرام ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل مقتنياتهما).

وفي الإصحاح 13: (فصعد إبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب).

ولوط السائر مع إبرام كان له أيضاً غنم وبقر وخيام، ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معاً. فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي إبرام ورعاة مواشي لوط. وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ ساكنين في الأرض. فقال إبرام للوط لا تكن مخاصمة بيني وبينك لأننا نحن أخوان. اعتزل عني إن ذهبت شمالاً فأنا يمينا وإن يميناً فأنا شمالاً.

فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقي قبلما أخرب الرب سدوم وعمورة فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن. وارتحل لوط شرقاً فاعتزل الواحد عن الآخر. إبرام سكن في أرض كنعان ولوط سكن في مدن الدائرة. ونقل خيامه إلى سدوم. وكان أهل سدوم أشراراً وخطاة لدى الرب جداً.

إلى هذا الحد نتوقف عند الجزء الأول من دراسة شخصية لوط المرتبطة بشخصية إبراهيم.

في القرآن الكريم يتضح أن إبراهيم اتجه إلى الأرض المباركة ومعه لوط وسارة. وأن لوطاً آمن بعقيدة التوحيد وأعلن أنه مهاجر إلى الله. وليس لغاية أخرى.

وفي التوراة يرافق لوط إبراهيم في هجرته.

لكن التوراة ترى أن لوطاً كان يمتلك غنماً وبقراً وخياماً ولكثرة أعداد الحيوانات التي معه لم تحتمله الأرض مع إبراهيم. والقارئ لهذا النص يتبادر له أن كلاً منهما كان يمتلك مئات الرؤوس من الحيوانات. وعلى ذلك يسأل السائل من أين حصل لوط على هذه الأعداد من الغنم والبقر؟ هل جلبها معه من حاران؟ أم حصل عليها بهذه السرعة وكثرت حتى ضاقت به وبإبراهيم الأرض؟

حقيقة الأمر أن الانفصال الذي تم بين إبراهيم ولوط ليس انفصالاً أبدياً. فإبراهيم استقر في الخليل ولوط استقر في دائرة الأردن عند البحر الميت والمسافة بينهما ليست بعيدة. أما لماذا افترقا فالأسباب والغايات واضحة في القرآن الكريم. الدعوة لعقيدة التوحيد وتبليغ رسالته. فإبراهيم يدعو في منطقةٍ ولوط يدعو في منطقة أخرى. وقد أوردت التوراة وأورد القرآن الكريم أن شعب سدوم وعمورة كان شعباً شريراً يأتي الفواحش.

ولما كانت المنطقة التي يقطنها إبراهيم عليه السلام قريبة من المنطقة التي يسكنها لوط عليه السلام فإنهما كانا يلتقيان باستمرار ويتواصلان. وسنرى الجزء الثاني من سيرة لوط وكيف كان يتم الاتصال بينهما.

ذهب لوط في مهمته الشاقة ليهدي قوم سدوم وعمورة.

تقول التوراة: (ونقل خيامه إلى سدوم وكان أهل سدوم أشراراً وخطاة لدى الرب جداً. وتتابع: فجاء الملاكان إلى سدوم مساء وكان لوط جالساً في باب سدوم فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض).

(وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة. رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ.... فنادوا لوطاً وقالوا له أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة أخرجهما إلينا لنعرفهما. فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب وراءه. وقال لا تفعلوا شراً يا إخوتي هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم. وأما هذا الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما دخلا تحت سقفي فقالوا ابعد إلى هناك).

(وقال الرجلان للوط من لك أيضاً ههنا وبنيك وبناتك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان لأننا مهلكان هذا المكان).

(وإذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا وناراً من عند الرب من السماء وقلب تلك المدن وكل الدائرة. ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح).

(وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الأرض. هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمرا ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا

بقيامها وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرا الليلة أيضا فأدخلي اضطجعي معه...).

(وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب وهو أبو المؤابيين إلى اليوم والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بني عمي وهو أبو بني عمون إلى اليوم).

ولم تأت التوراة على ذكر لوط بعد ذلك كيف انتهت قصته كيف كانت دعوته. وحياته وموته بعد تدمير مدن الدائرة. كل ذلك لم تأت التوراة على ذكره فغاب غيابا مفاجئا مدهشاً وتقول التوراة: (وقال الرب إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جداً. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخهما الآتي وإلاَّ فأعلم. وانصرف الرجال من هناك وذهبوا إلى سدوم. وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب).

وتتحدث التوراة عن استقبال إبراهيم للملكين حيث ذبح لهما عجلا وصنع لهما خبزاً فأكلا... وبشرا سارة ثم انطلقا ليدمرا سدوم وعمورة.

ويأتي تسلسل الأحداث في القرآن الكريم كما ورد في الآيات الكريمة التالية:

يقول تعالى في سورة الأعراف: (ولوطاً إذ قال لقومه لِمَ تأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون. وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون. فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين. وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) 80 ـ 84.

وفي سورة هود: (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه أنكرهم وأوجس منهم خيفة. قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب قالت يا وليتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب) 69 ـ 72.

وفي سورة هود أيضا: (يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) 76.

وفي سورة هود: (ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب. وجاءه قومه يهرعون إليه. ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد. قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد. قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد. قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلاّ امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد) 76 ـ 83.

ويقول تعالى في سورة الحجر: (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمون. إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين. فلما جاء آل لوط المرسلون. قال إنكم قوم منكرون. قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون. وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. وجاء أهل المدينة يستبشرون. قال إن هؤلاء ضيفي. فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون. قالوا أو لم ننهك عن العالمين. قال هؤلاء بناتي إن كنتم

فاعلين لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن في ذلك لآيات للمتوسمين) 58 ـ 75.

ويقول تعالى في سورة الشعراء: (كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون. قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكوننّ من المخرجين. قال إني لعملكم من القالين. رب نجِّني وأهلي مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين. ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) 160 ـ 174.

وقال تعالى في سورة التحريم: (ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين) آية 10.

ويقول تعالى في سورة العنكبوت: (ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين. قال رب انصرني على القوم المفسدين) 28 ـ 30.

إذاً فلوط آمن برسالة إبراهيم ثم هاجر معه بأمر من الله. ثم افترق عنه وراح يدعو لديانة التوحيد والأخلاق الحميدة في أقوام سدوم وعمورة. وكانت هذه المدن تسمى الدائرة وأهلها يأتون أبشع الفواحش ويصرح القرآن الكريم أن لوطاً هو نبي (إن لوطاً لمن المرسلين) الصافات 133. ويقول تعالى: (وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين) الأنبياء 75.

وتوضح الآيات الكريمة جداله مع قومه وإنكارهم لدعوته وتهديدهم له بإخراجه من الأرض التي يسكنون فيها وبسبب طهارته كادوا يقتلونه لأنهم اعتادوا النجاسة وإتيان الرجال والنساء.

وتتحدث الآيات عن مجيء الملائكة لإنذار لوط بأن الله سيتم أمره وعلى لوط أن يرحل ليلاً أو قبيل الصبح. ويهرب لوط مع بعض من أهله ومن آمن معه وتلتفت امرأته فيسقط الله النار عليها فتحرق. ويقلب الملائكة عالي الأرض إلى سافلها.

ولم تحدد الآيات الكريمة من بالذات الذين نجاهم الله مع لوط، ، بينما ترى التوراة أنه هو الوحيد من الرجال الذي نجاه الله ومعه من النساء ابنتاه.

وإذا عدنا للأحداث من بدايتها نرى فروقاً واضحة بين ما ذكره القرآن الكريم وما ذكرته التوراة فعندما جاء الملائكة ليخبروا إبراهيم عليه السلام بأمر الله القاضي بتدمير سدوم وعمورة قدم لهم إبراهيم طعاماً من لحم العجل وبعض الأطعمة الأخرى. وقالت التوراة أنهم وأكلوا من هذا الطعام. ومعروف أن الملائكة لا تأكل ولا تشرب فهي مخلوقات نورانية خلقها الله للعبودية ونزعت منها الشهوة للمأكل والمشرب وغير ذلك من الأمور الخاصة بالبشر.

يقول ابن حزم: في هذا الفصل آيات من البلاء شنيعة نعوذ بالله من قليل الضلال وكثيره فأول ذلك قول التوراة إن الله تعالى تجلى لإبراهيم وأنه رأى الثلاثة النفر فأسرع إليهم وسجد وخاطبهم بالعبودية. فإن كان أولئك الثلاثة هم الله فهذا هو التثليث بعينه بلا كلفة بل هو أشد من التثليث لإنه إخبار بشخوص ثلاثة. وإن كان أولئك الثلاثة ملائكة فعليهم في ذلك فضائح عظيمة. أولها: من المحال والكذب بأن يتجلّى الله تعالى له وإنما تجلّى له ثلاثة من الملائكة. ثانيهما أنه يخاطب أولئك الملائكة بخطاب الواحد إذ يقول للثلاثة يا سيدي. وثالثها سجوده للملائكة. ورابعها خطابه لهم بأنه عبدهم. وخامسها

يأخذ قليلا من ماء ويغسل أرجلهم. وسادسها أن إبراهيم لا يجهل أن الملائكة لا تشتد قلوبهم بأكل كسر الخبز. سابعها إخبار التوراة أن الرجال الثلاثة أكلوا الخبز والشوى والسمن واللبن. وحاشى أن يكون هذا خبراً عن الله تعالى لا ولا عن ملائكته)[1].

ويوضح القرآن الكريم المسألة خير وضوح. يقول تعالى في سورة هود الآية 70: (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا: سلاماً. قال سلام. فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم. وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط).

فخوف إبراهيم نابع من إحساسه الذي طرأ فجأة بأن هناك أمرا عظيما جاءت الملائكة لأجله وقد كررت التوراة القول بأن الملائكة أكلوا الخبز والفطير عند لوط وأنه سجد لهم وتعبد. وهذا لم يرد في القرآن الكريم إنما الذي ورد قوله تعالى: (ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا. وقال هذا يوم عصيب وجاء قومه يهرعون إليه...) إلى آخر الآيات والحقيقة الموافقة للمنطق أن لوطا خاف على ضيوفه من قومه وأدرك أن قومه لو رأوهم لحاولوا الاعتداء عليهم.

وتقول التوراة (وقال لا تفعلوا شراً يا إخوتي هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلا أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم).

وتقول: (فقال الرجلان للوط من لك أيضا ههنا أصهارك وبناتك وبنيك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان لأننا مهلكان هذا المكان).

وظاهر قول التوراة أن لوطاً عرض على الرجال ابنتيه ليفعلوا بهما ما يحلو لهم على ألا يتعدوا على ضيوفه.

---

(1)ابن حزم الأندلسي. الفصل بين الملل والأهواء والنحل. صفحة 220 ـ 221.

ويوضح القرآن الكريم موقف لوط تجاه هذا الحدث إذ يقول تعالى: (قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد).

يقول عبد الوهاب النجار: إن لوطا عرض على القوم بناته عرضاً سابرياً أي عرضا غير مؤكد لا يقصد به الجد وأن يعطيهم بنتيه للزنا. ولكنه عرض ابنتيه اعتمادا على أنهم يستحيون منه ويخجلون ليكفوا عن خزايته في ضيفه كما تقول لرجل يضرب آخر وأنت تحجزه عنه اضربني أنا لأنك تقول هذا القول وأنت جد واثق بأنه لن يضربك ولو علمت أنه يضربك حقيقة ما قلت هذا القول ولا تعرضت للشفاعة وهذا القول أورده كثير من المفسرين كأبي السعود والفخر الرازي والأصفهاني وغيرهم[1].

وإضافة لذلك فإن إيراد التوراة قولها أصهارك وبنيك وبناتك. فإن ذلك يعني أن للوط بنات متزوجات قد تكون ابنتاه فيهن فكيف يقبل الأصهار بذلك الشين والعار وكيف كان موقفهم حين عرض لوط ابنتيه لقومه ليفعلوا بهما ما يحلو لهم؟.

وعندما تقول التوراة إن لوطاً صعد إلى الجبل لم يكن معه سوى ابنتيه. والسؤال يطرح نفسه هو كيف يطلب الرجلان أن يأخذ لوط أصهاره وبنيه وبناته. ثم لا تأتي على ذكر من نجاهم الله مع لوط سوى ابنتيه؟ ثم تقول التوراة: وقال الرجلان للوط: من لك أيضاً ههنا) 19 : 2.

يقول ابن حزم: (لا يخلو أصهار لوط وبنوه وبناته الناكحات من أن يكونوا صالحين أو طالحين فإن كانوا صالحين فقد هلكوا مع الطالحين وبطل عقد الله تعالى مع إبراهيم في ذلك وحاشى لله من هذا وإن كانوا طالحين فكيف

---

(1) عبد الوهاب النجار قصص الأنبياء. صفحة 148.

تأمر الملائكة بإخراج الطالحين وهم كانوا مبعوثين لهلاكهم فلابد من الكذب في أحد الوجهين)[1].

ونتوقف عند قول التوراة (وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه وسكن في المغارة هو وابنتاه إلى آخر قولها إنه زنا بهما وحملتا ثم أنجبتا ولدين الخ....).

وحاشى أن يكون قد وقع مع لوط مثل هذا الأمر. إن لوطاً آمن برسالة إبراهيم التوحيدية وأخلاقها وتربيتها الصافية وقد نجاه الله مع أهله الذين آمنوا معه وتربوا تربيته ولو كانت الابنتان الوحيدتان للوط لم تؤمنا لأهلكهما الله مع من أهلك. والواقع أن للوط بنات أخريات حسب قول التوراة. ونتساءل كيف يجوز لنبي أن تسكره ابنتاه ثم يضاجعهما دون أن يشعر. ألم يشعر لوط حقاً بشربه للخمر ألم يتذوقه؟ ألم يدرْ برأسه مفعوله، ألم يشعر لوط بممارسة الجنس مع ابنتيه؟. ثم لنقل أنه كان غير واعٍ غير مدرك لما يفعل. ولكن ماذا كان رد فعله عندما كبر الحمل في رحم كل منهما؟ ألم يسألهما عن هذا المنكر ألم يسألهما كيف حملتا؟.

ثم إذا كان لوط نبياً حقاً ألا يعصم من هذه الأفعال كلها؟ إنه كان نبياً وحاشى لنبي بعد الرسالة خاصة عدا عن قبلها أن يخدع هذه الخدعة الكبرى فيسكر ثم يزني بابنتيه. لقد كانت آيات القرآن الكريم واضحة صريحة فهي تتحدث عن لوط وقومه. هو نبي يدعو إلى الوحدانية والخير والبعد عن الفاحشة. وقد أنذر قومه فما استجابوا. فكانت عاقبتهم الدمار والحرق بالنار فدمرهم الله وكانت زوجته ممن دمروا وأحرقوا كل ذلك ليبين الله سبحانه أن أكثر الناس قرباً من الإنسان وهي الزوجة لا تستحق سوى ذلك العقاب عندما ترفض الإيمان وتخون أمانة زوجها. لقد كان دور زوجته أشد كفراً من دور

(1) ابن حزم الأندلسي. الفصل بين الملل والأهواء والنحل صفحة 223.

قومها فهي حسب الروايات من أخبر القوم بأن رجلين غريبين قد دخلا بيت زوجها وكأنها تحث القوم على الفاحشة حتى ولو كانت هذه الفاحشة ستقع مع ضيفين عند زوجها.

وتقول التوراة: (فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب وهو أبو الموآبيين إلى اليوم والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بني عمي وهو أبو بني عمون إلى اليوم). نلاحظ أن التوراة أنجبت لابنتي لوط ولدين ذكرين لابنتين وكأن القدرة الإلهية تدخلت كي تنجبا ولدين ذكرين وليس بنتين. ثم سمّت الأول موآب والثاني بن عمي لتقول إن الموآبيين الذين سيحاربهم موسى في سفر الخروج هم أبناء زنى وممن؟ من لوط وابنته. ثم لتقول أن أهل عمان ـ عمّون أيضاً هم أولاد زنى. وكل ذلك التلفيق لتحط من قدر الأنبياء أولاً ثم لتحط من شأن الشعوب المجاورة لأرض كنعان ثانياً. إن قصة سكر لوط تذكرنا بقصة سكر نوح. فنوح تعرّى ولوط زنا.

وإبراهيم ذهب إلى فرعون وأبيمالك ليتاجر بجمال زوجته المزعوم تلك الزوجة التي بلغت من العمر عتيا. فهذا هو دأب التوراة في تشويه الأنبياء لأن لا صلة بين التوراتيين والأنبياء سوى العداء السافر تارة والمبطن تارة أخرى.

كيف دمر قوم لوط وماذا تقول الشواهد والدراسات والاستنتاجات حول مصير هؤلاء القوم؟.

تقول التوراة: (وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء وقلب تلك المدن وكل الدائرة ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح).

ويقول القرآن الكريم: (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد) هود 82.

ويقول تعالى: (فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل إن في ذلك لآيات للمتوسمين) الحجر 73 ـ 75.

ويقول تعالى: (ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين الشعراء) 173 ـ 174.

نلاحظ أن هناك اتفاقاً بين التوراة والقرآن على أن مصير قوم لوط ذو شقين:

1 ـ التدمير وقلب الأرض بهم.

2 ـ حرقهم بنار من السماء أمطرها الله عليهم.

يقول عبد الوهاب النجار: أعتقد أن البحر الميت المعروف الآن ببحر لوط أو بحيرة لوط لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث. إنما حدث من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربع مائة متر وقد جاءت الأخبار بأنهم اكتشفوا آثار مدن لوط على حافة البحر الميت وواقع الأمر أن كثيراً من الأمور المتعلقة بالبحر الميت تثير التساؤل والاندهاش وبعض الاستنتاجات. فهذا البحر أو البحيرة مغلق من جميع جوانبه. وينخفض عن سطح البحر حوالي 400 متر وهو أخفض منطقة في العالم ثم إن نسبة الملوحة العالية جداً فيه حرّمت الحياة الحيوانية والنباتية. فهو خال من أي مؤهل لحياة الحيوان أو النبات. ويطلق عليه عدة أسماء وأشهرها بحر لوط والذي أطلق عليه الميت هم اليونان، وحوله جبال يعلو بعضها الى 1500 متر وتنحدر في أكثر الأماكن إلى شاطئه غير أنها تبتعد عنه قليلاً في قسمه الجنوبي عند جبل اصدم.

وينقذف زفت من قعر طرفه الجنوبي عند حدوث الزلزال. وبجانبه ينابيع ساخنة من جملتها عين غوير ودرجة حرارتها مئة في شهر كانون

الثاني.

وترى الكشوف الجيولوجية أن المنطقة التي تقع جنوب البحر الميت قد اكتست بالملح وربما كان سبب هذا انفجار تحت سطح الأرض حدث بعمل النبي.

ملاحظات:

عندما تحدثت التوراة عن زنا تمّ بين لوط وابنتيه ادعت أن ابنتيه قد حملتا وولدتا ولدين وهما موآب وبني عمي. ويلاحظ أن من بين أجزاء كتبهم ما يسمّى (دليل السلوك) الذي اكتشف مع ما اكتشف في خربة قمران من مخطوطات البحر الميت وهذا الدليل فيه توجيهات نظامية وعقوبات. ثم نرى أن من بين تلك المخطوطات مخطوطة لامك باللغة الآرامية وتتضمن تعليمات لإدارة الحرب بين أسباط لاوي ويهودا وبنيامين المدعوين بأبناء النور والأدوميين والموآبيين والعمونيين والفلسطينيين المدعوين بأبناء الظلام. فالتوراة تقول عن نسل ابنتي لوط موآب وعمون بأنهم من أبناء الظلام. ولا يخفى على القارئ كيف يربط الأحداث التوراتية المقصودة ليصل إلى استنتاج واضح.

ملاحظة ثانية لابد من ذكرها:

لو حققنا بشكل دقيق في الفاحشة التي كان يرتكبها قوم لوط لأدركنا وعرفنا أنها من أبشع أنواع الممارسات الجنسية الشاذة. وقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن مرتكب هذه الفاحشة يصاب بأمراض خبيثة قاتلة ومنها مرض الإيدز (فقدان المناعة) وقد أكدت جميع التقارير الطبية العالمية أن لا دواء مكتشف لعلاج الإيدز حتى هذه اللحظات. وأن المصاب بهذا المرض أو المهيأ له ينقل الفيروس الآثم إلى الآخرين عن طريق الشذوذ أو نقل الدم. وأن الذي

يصاب به لا يلبث طويلاً ثم يموت. وقد أكدت التقارير الطبية أن أفضل حل للتخلص من المصاب بالإيدز بعد وفاته هو حرق جثته حرقاً تاماً. ولو دُفن في التراب فإن الجثة تتفسخ ولكن الفيروس المسبب للإيدز لا يموت ومن الممكن أن ينتقل إلى أشخاص أحياء عن طريق التربة.

والذي يلفت نظرنا أن قوم لوط أبيدوا جميعاً سوى لوط ومن آمن معه ولم يرتكب تلك الفواحش. وقد نصت التوراة ونص القرآن الكريم على أن تدمير قوم لوط تم أولاً بتدمير المدن ومن فيها حيث قلبت رأساً على عقب ثم أمطر الله عليهم وعلى من حاول الهرب منهم ممن كانوا على أطراف المدن بحجارة من سجيل وهي ملتهبة حتى أبيدوا جميعاً حرقاً بالنار والكبريت. ونلاحظ أن مياه البحر الميت التي غمر قسم منها مدن قوم لوط مياه مالحة مرة لاذعة ولا حياة لأي شيء فيها حتى الجراثيم الصغيرة لا يمكن أن تجد فيها حياة.

وكما قلنا لم تشر التوراة وأشار القرآن الكريم إلى نجاة بعضٍ من قوم لوط.

وحسب قول التوراة سوى لوط وابنتيه وحسب النص القرآني يقول تعالى: (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) القمر 34.

ولعلنا جميعاً نتساءل أليس عقاب قوم لوط كان حياة لكافة الناس؟. أليس الحرق بالنار هو الوسيلة الناجحة لأمراض الشذوذ الجنسي؟.

ثم أليست آيات القرآن الكريم كشفاً ربانياً سابقاً على علوم العلماء والأطباء؟ حينما عاقب المرضى بأمراض الشذوذ بالحرق والإبادة لئلا ينشروا المرض بين الناس؟ قد يكون ذلك. والله أعلم.

على أية حال نحن نتساءل ونفترض افتراضات وإلى أن يصل الجيولوجيون وعلماء البيئة والآثار إلى نتائجهم تبقى افتراضاتنا قابلة للأخذ والرد.

إبراهيم مرحلة جديدة وعصر جديد:

يتفق التوراة والقرآن الكريم على أن الله منح إبراهيم ولدين الأول هو إسماعيل والثاني إسحق ويتفقان على أن الملائكة بشرت سارة بعد أن شاخت بأنها ستلد ولداً بعد أن تحبل وسيكون هذا الولد مباركاً. ويتضح من خلال كلام التوراة أن إسماعيل بلغ الثالثة عشرة من عمره حين وُلد أخوه إسحق.

وعندما يصبح إسماعيل في مقتبل الشباب يصدع لأمر ربه ويذهب إبراهيم إليه في مكة ليبنيا الكعبة المشرفة وهذا ما نراه في القرآن الكريم وتنكره التوراة.

وسنرى كيف تسير الأحداث في التوراة والقرآن لندرك أوجه الاختلاف ثم نبين الحق من الباطل وما يتوافق مع العقل والمنطق وما لا يتوافق.

جاء في سفر التكوين الإصحاح 16 (وأما ساراي امرأة إبرام فلم تلد له وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراي لإبرام هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة. أدخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين. فسمع إبرام لقول ساراي فأخذت ساراي امرأة إبرام هاجر المصرية جاريتها. فدخل على هاجر فحبلت).

(فأذلتها ساراي فهربت من وجهها فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية على العين التي في طريق شور. وقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة. وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك وإنه يكون إنساناً وحشياً).

(فولدت هاجر لإبرام ابناً ودعا إبرام اسم ابنه الذي ولدته إسماعيل).

وفي الإصحاح 17: (وقال الله لإبراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً).

(وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه إسحق وأقيم عهدي معه أبدياً لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً اثني عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة ولكن عهدي أقيمه مع إسحق الذي تلده لك سارة).

(فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وختن لهم غرلتهم وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن).

وفي الإصحاح 21: (وافتقد الرب سارة كما قال: وفعل الرب لسارة كما تكلم فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابناً في شيخوخته. ودعا إبراهيم اسم المولود الذي ولدته له سارة إسحق).

(ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن الجارية لا يرث مع ابني إسحق. فقبح الكلام جدا في عيني إبراهيم لسبب ابنه).

فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاها لهاجر واضعاً إياهما على كتفها والولد وصرفها فمضت وتاهت في برية بئر السبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس. لأنها قالت لا أنظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت وسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية. وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر).

وفي الإصحاح 22: (وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له يا إبراهيم فقال ها أنذا فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق إلى أرض المريا واصعده هناك. فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحق وأخذه بيده النار والسكين. وكلم إسحق إبراهيم أباه وقال يا أبي هو ذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة فقال إبراهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا بني. فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه فناداه الرب من السماء: لا تمد يدك إلى الغلام فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا بكبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه).

الإصحاح 25: (وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قطوره فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحاً).

(وهذه أيام سني إبراهيم التي عاشها مئة وخمسة وسبعون سنة وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة شيخاً وشبعان أياماً ودفنه إسحق وإسماعيل في مغارة المكفيلة).

أما مجريات الأحداث مع النبي إبراهيم عليه السلام وعلاقته بأولاده وزوجتيه فإنها ترد في القرآن الكريم على الشكل التالي وحسب التسلسل التاريخي الدالة عليه آيات القرآن الكريم.

يقول تعالى في سورة الصافات: (وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين.. رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت إفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه

بذبح عظيم وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين. وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحق) 99 ـ 112.

وفي سورة آل عمران: (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق) 84.

وفي سورة هود: قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا الشيء عجيب) 72.

وفي سورة الحج: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود) 26.

وفي سورة إبراهيم (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم. ربنا لقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ربنا إنك تعلم ما يخفى وما نعلن وما يخفي على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) 37 ـ 38.

ويقول تعالى في سورة البقرة: (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطرّه إلى عذاب النار وبئس المصير. وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) 125 ـ 127.

(ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك

ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) 125 ـ 129.

ففي التوراة تركيز واضح على قصة حقد وضغينة من طرف سارة لهاجر ثم إقامة العهد مع إسحق وليس مع إسماعيل. يطلب إبراهيم من ربه أن يعيش إسماعيل ليباركه الله، لكن الرب يقول لإبراهيم إني سأجعل سارة تحبل وتأتي بولد اسمه إسحق فأقيم معه ونسله العهد وليس مع إسماعيل.

ثم تتضايق سارة من إسماعيل لأنها رأته يمزح فتطلب من إبراهيم طرد إسماعيل وأمه وتردف قولها إن إسماعيل لا يرث مع إسحق لأنه ابن جارية.

ثم زود إبراهيم ابنه إسماعيل وزوجته هاجر ببعض الماء والطعام وصرفها وتاهت في برية بئر السبع ثم جلست في ظل شجرة حتى نفد الماء منها فجاءها ملاك الرب وقال لها قومي احملي الغلام ثم تبصر بئر ماء فتملأ القربة وتسقي الغلام ثم يكبر إسماعيل وتأخذ له أمه زوجة من أهل مصر. أما متى ذهبت وجاءت بزوجة إسماعيل فلم تورد التوراة شيئاً عن ذلك ولم تذكر التوراة عن سكان ـ فاران ـ أو عمّن شاهد هاجر وكيف عاشت وكيف كبر الولد وترعرع.

ثم تورد التوراة قصة الذبيح إسحق حيث يقول الرب لإبراهيم خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق. فالتوارة تقول عن إسحق وحيدك علماً أنها لم تتوان عن ذكر إسماعيل وكيف أن الرب باركه ووعد إبراهيم أن يكثر نسله.

ويتفق القرآن مع التوراة على أن لإبراهيم ولدين والأكبر هو إسماعيل والأصغر هو إسحق لكن لنر مع التوقف ماذا خلقت التوراة من أوهام متناقضة في تفاصيل الأحداث.

يقول الإمام ابن كثير: فلفظ إسحق هنا مقحمة لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر وإنما ذلك هو إسماعيل. وإنما حمل اليهود على هذا حسد العرب فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز والذين منهم رسول الله صلى الله

عليه وسلم. وإسحق والد يعقوب وهو إسرائيل الذي (يدّعون) الانتساب إليه فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه[1].

ثم تتحدث التوراة عن أن هاجر أخذت فتاة مصرية لإسماعيل وهذا كلام يجر القارئ إلى الظن أن هاجر أخذت لإسماعيل زوجة مصرية من قومها وعليها فإن إسماعيل ليس له علاقة بالعرب.

ثم يموت إبراهيم ويدفنه إسماعيل وإسحق، أما وقد عرفنا أن إسحق قد عاش مع أبيه إبراهيم إذاً فأين كان يعيش إسماعيل؟ وكيف جاء بعد هذا الغياب أو التغييب الكبير من قبل التوراة. فجأة وبعد انقطاع طويل عن أخبار إسماعيل وأمه يظهر إسماعيل ليدفن أباه مع أخيه إسحق.

لقد بدأت قصة إبراهيم بعد استقراره في الأرض المباركة والجزيرة العربية بعيداً عن أور الكلدانيين بدعائه إلى الله أن يهب له بعد كبره غلاماً من الصالحين فبشره ملاك الرب بغلام حليم. ويكبر الولد ثم يرى إبراهيم أنه يذبحه فأخبره بتلك الرؤيا فلم يعارض الولد وأخذه ليذبحه ثم فداه بكبش عظيم. وبعد أن كبر إسماعيل ولدت سارة إسحق ولو دققنا النظر في الزمن الذي يفصل بين ولادة إسماعيل وولادة إسحق لوجدناه أكثر من 15 عاماً وإسماعيل ختن وكان عمره ثلاثة عشر عاماً ولم يكن إسحق قد وُلد بعد.

وتورد التوراة أن النبي إبراهيم أطال المسير بأمر ربه إلى أن هداه الله إلى وادي مكة حيث لا زرع ولا ماء. وعندما تورد التوراة أن هاجر جلست تحت شجرة فهذا يعني أن المكان غير صحراوي والاحتمال الأكبر فيه ماء لأن الشجر لا يحيا بدونه. والقرآن الكريم يوضح على لسان إبراهيم أنه أسكن من ذريته - إسماعيل - مع أمه في واد غير ذي زرع عند البيت الحرام. وهذا يعني أيضاً أن البيت المحرم كان معروفاً لدى إبراهيم قبل أن يبنيه وإلا فلماذا اختار الله

---

(1) البداية والنهاية جزء 1 ص 159 ابن كثير.

سبحانه أن يبنى البيت في هذا المكان. ثم قال إبراهيم. أسكنتهم ليقيموا الصلاة. ثم يدعو الله أن يجعل أفئدة الناس تهوي إليهم وأن يرزقهم من الثمرات ثم يقول إبراهيم يا رب أنت تعلم ماذا نخفي وماذا نعلن. أي ربنا تعلم ما أضمر من الحزن على فراق ولدي - ذريتي.

وتمتثل هاجر لقضاء الله وأمره وتتحلى بالصبر حتى نفذ الماء والزاد فصارت تبحث عن الماء مهرولة بين جبلي الصفا والمروه سبع مرات ثم تعود إلى ابنها لتجده يضرب الرمل بقدميه حتى نبع الماء بقدرة الله. فشربت وسقت ابنها. ثم صارت الطيور تحوم في السماء حول الماء فتنبه الرعاة وتنبه رجال القوافل للطير وأدركوا أن الطير لا تحوم إلا على ماء أو طعام فتساءلوا فيما بينهم هل في هذا الوادي ماء. فأجابوا ما علمنا أن بهذا الوادي ماء. فأرسلوا بعض رجالهم ليبشروهم بوجود نبع ماء. فأتوا إلى هاجر وآنسوها. ثم ارتحلت معهم قريبا من الماء حتى شب إسماعيل وكبر وتزوج منهم أي من قبيلة جرهم العربية.

وتقول التوراة كما مر معنا أنه تزوج من مصرية. وقد يكون هذا الكلام صحيحاً. لأن المصادر العربية تورد قصة زواج إسماعيل من اثنتين وذلك بإشارة من أبيه إبراهيم عندما زاره ولم يجده ووجد زوجته وأبدت بخلها وأخبرت إسماعيل بعد أن رجع إلى بيته بأن رجلاً أوصافه كذا وكذا يوصيه بأن يغيّر عتبة بيته. ولم تدرك معنى ذلك فعرف إسماعيل ذلك فطلقها وتزوج من أخرى أبدت كرمها وخيريتها عندما زاره أبوه مرة أخرى ولم يجده ووصى زوجته الثانية أن يحافظ على عتبة بيته، أي أن يحافظ على زوجته، ومن الطبيعي أن إسماعيل سينجب ممن بقيت عنده ودامت ويجدر بنا أن نلاحظ في هذا الصدد الخلاف في عمر إسماعيل عندما ارتحلت أمه به ما بين ما أوردته التوراة وما أورده القرآن. فالتوراة ترى أن إسماعيل أخذ يمزح مع سارة فطلبت من إبراهيم

طرده وأمه وهذا يعني أنه كان كبيراً. بينما نستدل من آيات الكتاب المبين أن إسماعيل كان طفلاً صغيراً عندما أخذ يضرب الأرض برجليه وهو لا يعي ما يفعل. ولو كان إسماعيل كبيراً وفتى في مقتبل العمر لتصرف تصرفاً آخر. فقد يبحث عن البشر. قد يتحدث مع أمه يحثها على الصبر. قد يفعل أي شيء آخر يتناسب مع سنة. هذا من جانب ومن جانب آخر لا تورد التوراة رحلة هاجر وإسماعيل إلى وادي مكة بل ذكرت أنها وصلت بئر السبع فقط. إذاً فأين الكعبة وبناؤها؟ أين إبراهيم من هذا العمل العظيم.

إن القرآن الكريم يركز على بناء الكعبة من قبل إبراهيم وإسماعيل. وقد جاء النبي إبراهيم إلى إسماعيل وأخبره أن الله أمره ببناء الكعبة وأشار عليه جبريل بالمكان الذي يبنى فيه البيت وراحا يعملان وكلما بنيا حجراً كانا يقولان ربنا تقبل منا أنت السميع العليم. وقد استجاب الله سبحانه لدعاء إبراهيم فجعل الله مكة بلداً آمناً أفاض عليه بالرزق وقد استهوى أفئدة الناس الذين يحجون إليه والذين يودون الحج إليه ومن مِنَ المسلمين لا يرغب بأداء فريضة الحج وزيارة الكعبة والطواف حولها؟ ترى بعض الروايات أن النبي إبراهيم (ص) أراد أن يضع حجراً مميزاً ليكون علماً للناس فأوصى له جبريل أن يضع الحجر الأسود في ركن من أركان الكعبة. وهذا الحجر كان قد جاء به عليه السلام من الجنة وذلك حسب روايات كثيرة. ومنها ما أخرجه الأزرقي عن عبد الله بن عمر[1].

لقد بنيت الكعبة وسط تقاطع طرق وسقت المياه المارين الرحل ثم استقر حولها بعض الناس. وتكاثروا وجلبوا إليها آخرين حتى أصبحت مأوى عدة قبائل واتسع الحرم وساحته حتى أصبح كما نراه اليوم.

---

(1) السيوطي. الدر المنثور في التفسير المأثور ص 246.

أما لماذا لم تذكر التوراة رحلة إبراهيم إلى مكة وبناء الكعبة مع ابنه إسماعيل فهناك أسباب عديدة:

1 - إن محاربة إسماعيل تدخل في صلب المصالح اليهودية بعد غزوهم لفلسطين.

2 - إن الذين كتبوا التوراة لم يتمكنوا من طمس مآثر النبي إبراهيم لأن المسيرة المتعلقة بإبراهيم الخليل لا يمكن أن يضعها سوى أعداء إبراهيم وإلا كيف نفسر العاهات التي ألصقوها بإبراهيم الخليل بالنسبة إلى اتجاره بزوجته في مصر عند فرعون وفي فلسطين عند أبيمالك وبالنسبة إلى جعله شخصية عادية دون هوية حضارية لا بل راعياً في حل وترحال حتى مماته فأين الرسالة وأين مبدأ أصحاب العقائد الذين يقدمون نفوسهم للموت دون التنازل عن مبدئهم[1].

إن بناء الكعبة من قبل إسماعيل وإبراهيم لا يروق لليهود لأنهم لا يرغبون إلا في احتكار كل أمر هام وتبنّيه، إن القبائل العربية تنتسب إلى إسماعيل وفي مقدمتهم كنعانيو فلسطين، وإسماعيل لم يذهب إلى مصر إنما ترعرع في الصحراء في قبيلة جرهم. لقد سفّه اليهود إسماعيل بداعي أنه ابن جارية[2].

لقد بدأت محاولة التزييف اليهودي بنشر التوراة متصلة بالإنجيل على ما بينهما من اختلاف وتناقض وذلك لحمل المسيحية على تبني دعواهم الباطلة في الوعد الإلهي لإبراهيم الذي يحاولون قصره على إسحق وأبناء يعقوب وحجب إسماعيل أبي العرب والمسلمين وابن إبراهيم الكبير ثم محاولة إيجاد تاريخ لهم في فلسطين[3].

---

(1) اللآلىء مفيد عرنوق ص 174 - دار النهار - بيروت.

(2) اللآلىء مفيد عرنوق ص 175 - دار النهار - بيروت.

(3) المخططات التلمودية، أنور الجندي ص 184 الطبعة الثانية دار الاعتصام 1977.

وقد أعلنت ألواح الطين التي كتبت بالخط المسماري والتي وجدت في أطلال بابل ونينوى وبلاد ما بين النهرين أن بني إسماعيل كانوا حقيقة واقعة وان أبناءه الإثني عشر صاروا قبائل قوية تناوئ بابل وآشور ومصر والإغريق والرومان[1].

لقد ركزت آيات القرآن الكريم على بناء الكعبة وذكر مكة. ولو أمعنا النظر في ذلك لعرفنا أن التركيز جاء ليدلنا على صلة نبي الله إبراهيم (ص) بالمنطقة العربية وليس للعبرانيين أية علاقة به ولو كانت لهم علاقة به حسب ما يدعون لكانوا أول من حج البيت الحرام لأن الذي بناه هو جدهم. لكن الحقيقة تقول إن بناء الكعبة وتقديسها لا يروقان لليهود كون هذا التقديس وهذا البناء تم من قبل إبراهيم وابنه البكر إسماعيل. لإن اليهود لا يعترفون ببناء الكعبة أو هم يعرفون ويخفون الحقائق.

ومكة أول بيت بني في الأرض ليعبد فيه الله سبحانه وهذا أيضاً لا يتوافق مع تعاليم التوراتيين الذين يحاولون طمس كل رمز لعقيدة التوحيد وإظهار هيكل سليمان الذي زعموه على أنه المعبد الأول الذي عُبد فيه الله الواحد في كافة أنحاء الأرض.

وحتى تلغي التوراة أية معجزة مرتبطة بماء زمزم فقد أوردت بشكل مقتضب عن هاجر أم إسماعيل حين قالت: (قومي احملي الغلام وشدي يدك به لانه سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام) الإصحاح 18.

فالأمر عادي بالنسبة للتوراة، عطش مؤقت ولا وجود لصحراء بل هناك شجر أيضاً وليست هناك معجزة بينما يأتي القرآن صريحاً حين يتحدث عن إبراهيم وإسماعيل. فإبراهيم أسكن من ذريته بواد غير زرع ولا شجر ولا نبات.

---

(1) المخططات التلمودية. أنور الجندي ص 122 الطبعة الثانية دار الاعتصام 1977.

وهنا يكمن سر المعجزة معجزة بئر زمزم، وطالما أن إسماعيل نبي اصطفاه الله فإن آية نبوته من واقعة بئر زمزم. وإلا لما كان هناك سبب آخر أو معجزة أخرى لتكون دلالة على نبوته سوى ما بشر به القرآن الكريم عن تلك النبوة.

أما عن قصة ذبح إبراهيم لابنه فقد أوردت التوراة أن إسحق هو الذبيح.

جاء في الإصحاح 22: (وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له يا إبراهيم فقال ها أنذا. فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق إلى أرض المريا وأصعده هناك فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحق ابنه وأخذ بيده النار والسكين وكلم إسحق إبراهيم أباه وقال يا أبي هوذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة فقال إبراهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا إبني.... وربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه...)

غير أن الحقيقة التي يمكن اكتشافها أن إسماعيل هو الذبيح. وهذا ما يدل عليه ظاهر الآيات القرآنية الكريمة. وما يدل عليه أيضاً ما قالته التوراة نفسها.

ففي سورة الصافات وبعد أن قال الله تعالى: (وفديناه بذبح عظيم) 107 يقول تعالى: (وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين. وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحق) 108- 113.

ولاشك أن الضمير في (وعليه) في آخر الآية راجع إلى الذبيح إسماعيل فالإتيان بالبشرى بإسحق بعد ذكر القصة صريح في أن إسحق غير الغلام الذي ابتلى إبراهيم بذبحه (وفي اعتقادي أن لفظ إسحق حشر حشراً في غضون القصة

وذلك حرصاً من اليهود على أن يكون أبوهم هو الذبيح الذي جاد بنفسه في طاعة ربه وهو في حالة صغره)[1].

والدليل على أن الذبيح هو إسماعيل من التوراة نفسها، أن الذبيح وصف بأنه ابن إبراهيم الوحيد أي الذي ليس سواه إذ سخاوة نفس إبراهيم بولده الوحيد يذبحه امتثالاً لأمر ربه له في المنام أدل على نهاية الطاعة والامتثال لأمر الله. وإذا رجعنا إلى إسحق لم نجده وحيداً لإبراهيم في يوم من الأيام لأن إسحق وُلد ولإسماعيل نحو أربع عشرة سنة كما هو صريح في التوراة وأيضاً فإن ذبح إسحق يناقض الوعد الذي وعد به إبراهيم من إن إسحق سيكون له نسل. وحقيقة أخرى تقول إن مسألة الذبح وقعت في مكة لأن إسماعيل ذهب به أبوه إليها رضيعاً وكون إسماعيل هو الذبيح يؤكده كونه الابن الأكبر وكون الحادثة جرت في مكة المكرمة حسب ما قاله أكثر المفسرين.

وهذا ما ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس حيث قال: (إن النبي صلى الله عليه وسلم قال... ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد) الخ... وهو حديث طويل يتحدث عن إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام بشكل مفصل.

وروى سعيد بن جبير ويوسف بن مهران والشعبي ومجاهد وعطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال: (إن الذبيح إسماعيل. وقال: زعمت اليهود أنه إسحق وكذبت اليهود).

قال محمد بن كعب القرظي: فذكرت ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كنت معه بالشام فقال لي عمر إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت: ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام وكان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علماء اليهود فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا

(1) عبد الوهاب النجار. قصص الأنبياء ص 131.

عنده فقال أي ابني إبراهيم الذي كان أمر بذبحه؟ فقال إسماعيل ثم قال: والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذي كان أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل الذي ذكر أنه كان منه بصبره على ما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق)[1].

أما سيرة إسحق فقد عرفنا من خلال التوراة أنها تسير على الشكل التالي:

فإسحق يأتي بعد ولادة إسماعيل بـ 15 سنة، تحمل أمه سارة به بعد أن عجزت وكان إبراهيم قد شاخ. وختن إبراهيم إسحق وهو ابن ثمانية أيام. ولما كبر وفطم صنع إبراهيم وليمة عظيمة احتفالاً باكتمال إسحق سن الفطام.

والسؤال الذي نطرحه حول هذه القصة لماذا لم يحتفل إبراهيم يوم ولادة إسماعيل أو يوم ختنه؟ أليس هو ابنه مثل إسحق. ألم يأتِ بعد شيخوخة طويلة وبعد يأس زوجته من الحمل؟ طبيعي أن التوراة تريد أن تركز على إسحق وترفع من شأنه أمام والده وأمام من حوله حتى يقال إن إبراهيم ورَّث ابنه إسحق عقيدته ووعد ربه في امتلاك الأرض حسب زعم التوراة.

ثم تتحدث التوراة عن قصة الذبيح وتنسبها إلى إسحق وقد ناقشنا هذه المسألة أثناء الحديث عن النبي إسماعيل.

وتتابع التوراة الحديث عن إسحق، فتقول إن إبراهيم طلب من رئيس خدمه أن يذهب إلى أور الكلدانية ليخطب بنت أخيه لابنه إسحق. وقد أوصى إبراهيم بألاّ يأخذوا لابنه زوجة من بني كنعان (واستحلفني سيدي قائلاً لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذي أنا ساكن في أرضهم بل إلى بيت

---

(1) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص: 131ـ 132.

أبي تذهب وإلى عشيرتي وتأخذ زوجة لابني. ويـتزوج إسـحق إحـدى قريباتـه وتدعى رفقة أخت لابان وبتوئيل).

ونتساءل مرة أخـرى لماذا يطلـب إبراهيـم أن لا يـتزوج ابنـه مـن بنـات الكنعانيين بينما تشير التوراة وبعض الأخبـار أن زوجـة إبراهيـم الثالثـة والـتي تدعى قطورة هي كنعانية؟ لماذا لم يجد إبراهيم حرجاً من زواجـه مـن كنعانيـة بينما يجد هذا الحرج في زواج ابنه. إن التوراة تريد أن تقول مـن وراء ذلـك إن نسل إسحق نقي وهو جنس واحد. على الرغم من أن زواج إسـحق مـن قريبتـه يعني حفاظه على عرقه الكلداني وليس لليهود شـأن أو علاقـة بـالموضوع كلـه. لكن اليهود الذين يحاولون أن ينسبوا أنفسهم إلى يعقوب بن إسحق يريدون من وراء ذلـك أن يثبتـوا زعمـهم بانتسـابهم إلى عـرق نظيـف لم يخـالط دمـه دمـاء الشعوب الأخرى والتوراة نفسها التي تدعـي أن إبراهيـم رفـض زواج ابنـه مـن كنعانية لم تورد السبب لا من قريب ولا من بعيد. ولم يذم إبراهيم الكنعانيين أو يستاء منهم. وكيف يستاء منـهم وهـم الذيـن وجـدوا في عقيدتـه التوحيديـة مـا يتناسب وعقائدهم.

وتتابع التوراة قولها: في الإصحاح 25 (وأعطى إبراهيم إسحق كل ما كان له وأما بنو السراري اللواتي كانت لإبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحق ابنه شرقاً إلى أرض المشرق) فالتوراة تصر على أن إبراهيم يميز بين أبنائه. وإبراهيم الـذي بارك إسماعيل وبنى وإياه الكعبة يحرمه من ورثتـه بينمـا تقتصـر الورثـة علـى إسحق. ويحرم إبراهيم أولاده الآخريـن أبنـاء السـراري لأنـهم أولاد جاريـات. وكأن الله الذي اصطفـى إبراهيـم نبيـاً لا يعـرف كيـف ينتقـي أنبيـاءه ليكونـوا عادلين حتى بين أبنائهم. إن الله سبحانه منزه عن ذلك وإبراهيم منزه أيضاً عن ذلك. والقرآن لا يشير لا من قريب أو من بعيد إلى تفضيل إسحق على غيره من

أبناء إبراهيم وقال تعالى: (لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) سورة البقرة الآية 285.

يقول تعالى: (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحدا ونحن له مسلمون) البقرة 133.

فحكمة الله اقتضت أن لا يفرق بين رسله. فعلى لسان يعقوب وهو الذي يدّعي اليهود نسبتهم له يقول مخاطباً أبناءه ما تعبدون. قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق. فقد ساوى الله سبحانه بين إسماعيل وإسحق في ورثة إبراهيم. وهي ورثة عقيدة التوحيد وهي أهم ما ورّث إبراهيم لبنيه.

وتقديم إسماعيل على إسحق في الآية الكريمة لا يعني التفضيل ولا تقديم إسحق على إسماعيل يعني التفضيل. إنما أشارت الآية هنا إلى أن إبراهيم أنجب إسماعيل أولا فإسماعيل وعي عقيدة أبيه التوحيدية قبل إسحق بسبب فارق السن الكبير وهو خمسة عشر عاماً. إذاً لا أسبقية لأحد على الآخر سوى في السن.

وتورد التوراة قولها (تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة) والخطاب لهاجر أم إسماعيل ثم تورد: (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً إثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة). إصحاح 17.

وتورد التوراة أيضاً والخطاب لإبراهيم من قبل الرب: (أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر).

فإذا نظرنا ملياً إلى هذه الفقرات فإننا سنجد أن وعد الله لإبراهيم وإسماعيل قد تحقق فقد كثر أبناؤهما حتى أصبحوا بمئات الملايين. ودعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم جعلت مئات الملايين تعتنق الإسلام. هذا على

مستوى الجانب العقيدي وإذا كان الأمر على مستوى الجانب العرقي فالعرب وهم من نسل إسماعيل يبلغون 200 مليون نسمة. فوعد الله لإسماعيل تحقق على يد محمد صلى الله عليه وسلم وإذا أخذنا الجانب الآخر وهو وعد الله لإسحق بأنه سيكثر نسله حتى يصبح كرمل البحر الذي على الشاطئ فإننا سنجد هذا الوعد لم يتحقق في بني إسحق ويعقوب. فإذا ادعى اليهود أنهم من أتباعه ومن نسله وإذا ادعت التوراة أن الله وعد إسحق بتكثير نسله فأين نسله منذ ظهر اليهود حتى اليوم؟ وحسب النص التوراتي فإن نسل إسحق يجب أن يكون على أقل تقدير كنسل اسماعيل إن لم يكن أكثر منه. لكن أتباع العقيدة اليهودية فرضوا على عقيدتهم ستاراً حديدياً فلا يقبلون من يتهود إلاّ لغايات يهودية خاصّة جداً ولذلك ظل الدين اليهودي ديناً غير عالمي كالإسلام.

على أية حال نحن لسنا بصدد عمل إحصائي نحصي فيه اليهود حتى نقارب أعدادهم بأبناء إسماعيل أو أتباع العقيدة الإسلامية. والمسألة لا تؤخذ في هذا الاتجاه إلا من جانب التوراة، أما الجانب القرآني فلا تقر الآيات الكريمة ولا جوهر العقيدة الإسلامية بكثرة النسل والاعتزاز به إنما يقر المنهج القرآني الرباني بعدد الذين يتبعون عقيدة إبراهيم والذين لا يشركون بالله شيئاً. والذين يؤمنون بأنبياء الله وتعاليم الخالق. فالآيات القرآنية جميعها تتناول المسألة من باب العقيدة التوحيدية. ومن باب من يتبع هذه العقيدة. ولو كان الأمر مرتبطاً بالنسب العرقي واقتصار تعاليم الله على جنس دون جنس لانتفى عدل الله وحاشى له أن لا يكون عادلاً. وهذا بالطبع مرفوض عقيدياً ومرفوض في تعاليم القرآن. إن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قال لسلمان الفارسي أنت من أهل بيتي ونسبه إلى بيته لتقواه وليس لنسبه. ومعلوم أن سلمان فارسيُّ الأصل والمنبت.

وحين نتابع التوراة وهي تتحدث عن النبي إسحق عليه السلام سنرى مزيداً من الحس العنصري العرقي الذي تنسبه التوراة إلى الرب تارة وتارة أخرى إلى الأنبياء.

ففي سفر التكوين الإصحاح 25 (وصلى إسحق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته وتزاحم الولدان في بطنها فقال إن كان هكذا فلماذا أنا فمضت لتسأل الرب فقال لها الرب في بطنك أمتان ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعب وكبير يستعبد الصغير).

فلما كملت أيامها لتلد إذا في بطنها توأمان فخرج الأول أحمر كله كفروة شعرة فدعوا اسمه عيسو وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعي اسمه يعقوب، نلاحظ هنا أن مسألة عقم الزوجة يتكرر. فإبراهيم لا تحبل امرأته إلا بعد أن عجزت وتلك معجزة أقرها القرآن الكريم وأقرتها التوراة، ومرة أخرى تأتي زوجة إسحق عاقراً ثم تحبل بمعجزة من الله بتوأم أحدهما يعقوب والآخر عيسو أو العيص.

وهذا يعني حسب تركيبة الأخبار في التوراة أن ولادة الأنبياء الذين ينتسبون إليهم لن تتم إلا بمعجزة من الله. فلماذا زوجة إسحق فقط؟ لماذا لم تكن زوجة إسماعيل عاقراً هي أيضاً؟ بالطبع حتى يقول اليهود إن الله بارك نسل إسحق بعد عقم زوجته. فالمسألة ترتبط بمعجزة ولم يأت يعقوب إلا بعد معجزة وهكذا أصل بني يعقوب منذ إبراهيم ومن ثم إسحق.

والقرآن الكريم لم يتعرض لقصة إسحق كما أوردتها أخبار التوراة إن الآيات القرآنية تركز على إيمان إسحق واتّباعه ملة أبيه إبراهيم حنيفاً مسلماً.

يقول تعالى في سورة النساء: (وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب) 164.

ويقول تعالى في سورة البقرة: (يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) 132.

وعلى أية حال فإن قصة إسحق حسب ما جاء من كلام الحق في القرآن الكريم ترتبط بالتعاليم التي تلقّاها على يد أبيه وهي تعاليم الوحدانية ومن ثم ترتبط بتعليمه أولاده من بعده تلك التعاليم.

وتنص التوراة على أن جوعاً حدث فذهب إسحق ومعه زوجته إلى أبيمالك وهو أحد ملوك مدينة جرار الفلسطينية وحدث نفس ما حدث لإبراهيم من ادعائه أن رفقة أخته وليست زوجته وتصر التوراة على تكرار ما حدث لإبراهيم مع إسحق. ومخالفة الواقع والمنطق في ذلك واضحة لا تخفى على أحد.

تقول التوراة في الإصحاح 26 (وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم فذهب إسحق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار وظهر له الرب وقال له لا تنزل إلى مصر وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هي أختي لأنه خاف أن يقول امرأتي لعل أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر).

ولعلنا نتذكر جميعاً حادثة مشابهة لإبراهيم مع نفس الملك المدعو أبيمالك. والتي وردت أيام تغرب إبراهيم بسبب الجوع الذي حدث في الأرض. فالملفت للنظر أن كاتب التوراة نسي أن ما حدث لإبراهيم أيام أبيمالك سبق ما حدث لإسحق عند نفس الملك بأكثر من ستين عاماً فهل يعقل أن يظل أبيمالك من أيام إبراهيم حتى أيام إسحق وقد بلغ من العمر أربعين عاماً.

ثم لماذا يتغرب إسحق إلى جرار وفيها ملك ليس له به معرفة ولماذا لم يذهب إلى أخيه إسماعيل وهو الأقرب عطفاً وعطاء من أي إنسان آخر على أخيه؟ وهل ليس ثمة علاقة تربط إسحق بإسماعيل؟ ألا يستحق إسماعيل أن يُسأل عن أحواله من قبل أخيه. وهل لاحقاً أن إسحق لم يزر أخاه إسماعيل أو

أن إسماعيل لم يزر أخاه إسحق؟ وطالما حدث جوع في الأرض فأول ما يتبادر إلى ذهن إسحق هو السفر بأهله إلى بلاد أخيه التي قد يكون فيها زرع وخير. تريد التوراة أن تقطع صلات الأخوة بين إسحق وإسماعيل وهما نبيّان مرسلان كما قرر القرآن الكريم. وهذا القصد التوراتي ينطوي على أهداف أهمها أن يظهر إسحق وحيداً في مخصوصية الوعد الإلهي المزعوم بامتلاك الأرض ثم لتقول إن عقيدة إسحق وما سينبثق عنها في الأجيال التالية متفردة ليس لها علاقة بعقيدة إسماعيل.

وتنفرد التوراة دون القرآن في الحديث عن زوجة إسحق وحملها بولدين هما عيسو ويعقوب. وباعتبار أن القرآن لم يورد شيئاً عن أحداث هذه الأمور فسنكتفي بإيراد ما أوردته التوراة بشكل مختصر.

تقول التوراة في سفر التكوين الاصحاح 25 ـ 27 (فكبر الغلامان وكان عيسو إنساناً يعرف الصيد إنسان برية ويعقوب إنساناً كاملاً يسكن الخيام. فأحب إسحق عيسو لأن في فمه صيداً وأما رفقة فكانت تحب يعقوب).

(ولما كان عيسو ابن اربعين سنة اتخذ زوجة يهوديت ابنة بيري الحثي وبسمة ابنة إيلون الحثي فكانتا مرارة نفس لإسحق ورفقة).

وتقول التوراة: (والآن خذ عدتك جعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لي صيداً واصنع لي أطعمة كما أحب لآكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت. وكانت رفقة سامعة).

(وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة: فالآن يا إبني اسمع لقولي في ما أنا آمرك به اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين جيدين من المعزى فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته).

(وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة وألبست يعقوب ابنها الأصغر وألبست يديه وملامة عنقه جلود جديي المعزى).

(فدخل إلى أبيه وقال يا أبي فقال ها أنذا من أنت يا بني فقال يعقوب لأبيه أنا عيسو بكرك قد فعلت كما كلمتني. قم إجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك. فقال إسحق لابنه ما هذا الذي أسرعت لتجد يا إبني. فقال إن الرب إلهك قد يسّر لي. فقال إسحق ليعقوب تقدم لأحبك يا إبني أأنت هو إبني عيسو أم لا. فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه فجسّه فقال الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو. فباركه ثم دعا إسحق فليعطك اللّه من ندى السماء ومن دسم الأرض ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل. كن سيداً لأخوتك وليسجد لك بنو أمك ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين).

(ولما عاد عيسو فقال لإسحق أنا ابنك بكرك عيسو فارتعد إسحق ارتعاداً عظيماً جداً وقال فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إلي. فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة).

(وقال لأبيه باركني أنا أيضاً يا أبي فقال قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك).

(فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة، وهرب يعقوب بأمر من أمه فذهب إلى أخواله في فاران ومكث هناك عشرين سنة يخدم خاله ويتزوج من ابنتيه ليئة وراحيل).

فالواضح مما ورد أن إسحق يحب عيسو ويفضله على يعقوب.

وأمه تحب يعقوب وتفضله على عيسو.

تقوم الأم بالتعاون مع ابنها يعقوب بخداع إسحق الأعمى ويتنكر بثياب أخيه. أما كيف يُخدع إسحق وقد عرف صوت يعقوب فهذا شأن توراتي خالص.

وتتم المباركة ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل بمجرد تغيير يعقوب لثيابه وخداع أبيه يستأثر بالبركة وينتزعها انتزاعاً. وما المانع أن يُبارك يعقوب ويبارك عيسو. وهل البركة إرث مادي أو وعد بالإرث المادي المحصور بابن دون آخر؟

ولعلنا بصدد الحديث عما قالته التوراة عن إسحق نرى أن النبي إسحق عليه السلام لا يمكن أن يخدع في مسألة كهذه لأن الأنبياء موحى لهم. ثم إنهم لا يحصرون بركة الله على إنسان دون آخر.

لكنه الحس التوراتي الذي يرتب الأحداث والشخصيات حسب منظار خاص يخدم الفكرة اليهودية المبنيّة على قانون الانتقاء والاصطفاء الذي صنعه اليهود.

عيسو لن يكون له شأن في مجريات الأحداث الآتية. فهو أولاً غير مبارك من أبيه وثانيا تزوج من غير قومه. أما يعقوب فهو مبارك من قبل أبيه وهو سيتزوج من جنسه ولا يختلط الدم فيضيع شعب الله المختار! ! وسنرى فيما بعد أن يعقوب سينجب أولاده من أختين هما ليئة وراحيل وسيكون أولاده يوسف وبنيامين وبقية الأسباط هم أساس بني إسرائيل الذين يزعمون الانتساب إلى يعقوب. أما يعقوب عليه السلام فله شأن آخر في القرآن كما أن له شأناً آخر في التوراة باعتباره الشخصية المركزية في التراث العبراني.

وما نراه من صفات شخصية لدى يعقوب في القرآن أنه نبيٌ عظيمٌ صابرٌ أخلاقه أخلاق الأنبياء وليست أخلاق أناس عاديين. وهذا ما يناقض ما قصته التوراة عما فعله يعقوب بأخيه عيسو.

يقول تعالى في سورة يوسف: (قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين) آية 5.

ويقول تعالى: ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ 18.

وقال تعالى ﴿يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾67.

وقال: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ 86.

فهذا هو النبي يعقوب عليه السلام يتصف بصفات الأنبياء المرسلين. يرفض أن يقص ولده يوسف رؤياه على إخوته لئلا يمكروا به. ويدرك يعقوب أن الشيطان الذي يسوّل للنفس أن تعمل الشر لابد من مقاومته ورفض وسوسته.

إذاً فكيف به وهو الذي يتصف بهذه الصفات يقوم بخداع أبيه والكذب عليه. إن حديث التوراة كدأبها تشوه الأنبياء وتمس كرامتهم. يعقوب يتوكل الله ويشكو حزنه له وهو الصابر على بلاءٍ صعب وامتحان قاس. فهذه هي صفات الأنبياء وليست تلك الصفات التي وصفتها إياه التوراة.

إن ما ذكره القرآن الكريم عن يعقوب يضعه في مكانة سامية من الحكمة واليقين[1].

ويعلق الباحث سميث على تصرفات يعقوب كما وردت في التوراة بقوله: «لا نجد بحال من الأحوال وسيلة لقبول تصرفات يعقوب فقد كان واضحاً أنها غير عادلة. وكان يسلك مختلف السبل وينتهز كل الفرص لينال حقوق أخيه. كان مستعداً أن يستعمل أساليب المكر والختل والحيل ليحقق أهدافه. فيعقوب هذا يعتبر نموذجاً حقيقياً لأخلاق اليهود. وعلى هذا تعتبر تسميتهم باسمه

(1) أحمد شلبي مقارنة الأديان اليهودية ص 134.

ميراثاً دقيقاً. فقد ورثوا عنه أكثر مما ورثوا عن إبراهيم الذي كان رجل عقيدة وإيمان أكثر منه رجل ختل ودين[1].

وطبيعي أن القرآن الذي يرفض أن يتصف نبي من أنبياء الله بهذه الصفات يوضح أن يعقوب النبي ما كان كذلك. بل كان نبياً صادقاً صابراً حافظاً لوصايا أبيه وجده إبراهيم وعقيدة التوحيد إنما أرادت التوراة أن تقول كان يعقوب بصفات كذا وكذا وهم يجهلون أن البحوث المقارنة والدراسات ستكشف عن انحرافهم التام عن عقيدة يعقوب وبقية الأنبياء.

يقول الدكتور أحمد شلبي معلقاً على الحياة في بيت يعقوب قائلاً: (قارئ التوراة يجد أحداثاً عجيبة يدهش الإنسان أن تجري في بيت رسول. ومن هذه الأحداث أن زوجة يعقوب راحيل كانت وثنية وقد بلغ من وثنيتها أنها سرقت أصنام أبيها وفرت بها هاربة من بيت أبيها مع زوجها إلى مكان سكنه. ومن هذه الأحداث أيضاً أن رأوبين بن يعقوب البكر قد زنى ببلهة زوجة أبيه وأمام أخويه دان ونفتالي وشاع هذا الخبر حتى سمعه يعقوب)[2].

وقد جاء في سفر التكوين الإصحاح الحادي والعشرين: فسرقت راحيل أصنام أبيها وخدع يعقوب قلب لابان الآرامي إذ لم يخبره أنه هارب.

وفي نفس الإصحاح يقول لابان مخاطباً يعقوب والآن أنت ذاهب لأنك اشتقت إلى بيت أبيك ولكن لماذا سرقت آلهتي.

وهذا دليل على أن راحيل لم تستطع الاستغناء عن ديانة أبيها لابان وقومها. فحباً بهذه الأصنام وعبادتها سرقتها وهي ملك أبيها وأرادت أن تحافظ

(1) God and man in early Israel نقلاً عن كتاب مقارنة الأديان أحمد شلبي ص 260.

(2) مقارنة الأديان. أحمد الشلبي ص 261.

عليها لاسيما أنها ستهاجر مع زوجها إلى منطقة أخرى قد لا يكون فيها آلهة متمثلة بالأصنام التي كانت تعبدها.

وإذا تساءلنا ما هي تلك الأصنام وماذا تعني بالنسبة للألهة الآرامية التي يعبدها لابان خال يعقوب وابنته راحيل؟.

إذا درسنا الزمن الذي وجد فيه يعقوب عرفنا أنه يقع تقريباً في 1600 ـ 1700ق.م وهذا يعني أيضاً أن الآراميين في تلك الفترة وجدوا في (كركاميش) أي جرابلس وفي شمال زنجرلي وفي حلب ودمشق وكان أهم إله عندهم هو حدد أو حداد وهو في الأصل إله الزوابع والعواصف وقد صنعوا له رمزاً بشكل صنم يضعونه في بيوتهم وينقلونه في حلهم وترحالهم كما كان يفعل الأقوام المتنقلون من مكان إلى مكان أو تلك الأقوام التي تنتقل لأجل المرعى والأمن. وقد كان لابان خال يعقوب يسكن فدان آرام التي هي مدينة آرامية في شمال سوريا أو بين النهرين.

وعندما لم يستطع لابان إعادة أصنامه بسبب إخفائها من قبل ابنته زوجة يعقوب يئس من محاولته وعقد عهداً بينه وبين يعقوب. وتقول التوراة إن لابان ويعقوب صنعا رجمة من حجارة وجعلاها شاهدة على العهد. وهذا التقليد العقيدي يرتبط بالخرافة والأسطورة والمعتقد الأسطوري أكثر مما يرتبط بديانة توحيدية. وقد اتفق لابان ويعقوب على تحكيم إله إبراهيم وآلهة ناحور آلهة أبيهما أي آلهة والد لابان ووالد يعقوب فقالت التوراة (إله إبراهيم وآلهة ناحور آلهة أبيهما يقضون بيننا).

وعلى هذا فأين عقيدة يعقوب التي أخذها عن أبيه إسحق و جده إبراهيم عليهم السلام وهل حقاً يقبل نبي مرسل أن يحكّم آلهة وثنية وهو بها كافر أصلاً. وكيف يقبل يعقوب السكوت على سرقة زوجته لأوثان أبيها وهو يرفضها طالما هو على ديانة أبيه و جده وجاء في سفر التكوين الإصحاح 35 أيضاً (فقال

يعقوب لبنيه ولكل من كان معه اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم فأعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التي في أيديهم) وهذا يعني أن يعقوب يعترف بوجود إلهه غير إلهه ولكنها آلهة غريبة وله إله خاص ولغيره من الناس آلهة خاصة بهم ولكل ميله واعتقاده. وهذا لا يعني أن الآلهة الغريبة مرفوضة لأنها أقل شأناً من إله يعقوب. وإذا كانت مهمة يعقوب كنبي نشر ديانة التوحيد ورفض الوثنية فما مبرر طلبه من أهله جمع الآلهة الغريبة لديه، إنَّ هذا إن دل على شيء فإنه يدل على الأمور التالية:

1 ـ إن أولاد يعقوب وهم الأسباط إضافة لابنه يوسف حملوا معهم من فدان آرام عقائد قومهم الذين عاشوا بينهم وهي عقائد وثنية تعتمد الآلهة الوثنية الصنمية المجسدة.

2 ـ إن راحيل زوجة يعقوب حملت معها أوثان أبيها لتعبدها ولكنها لم تكن وحدها التي اهتمت بأوثانها.

3 ـ إن يعقوب أراد إبعاد الآلهة غير المختصة به فهو له إله خاص وبقية الآلهة غريبة.

4 ـ يحاول اليهود القول بأن لنبي إسرائيل إلهاً خاصاً هو لهم وحدهم دون سواهم وعلى هذا فإن هذا الإله قبلي خاص بهم كما للقبائل آلهة خاصة.

بينما تقول التوراة ذلك يصرح القرآن الكريم بما يفضح زيفهم، يقول تعالى في سورة البقرة الآيتان 132 ـ 133: (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل وإسحق إلها واحداً ونحن له مسلمون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون).

ويقول تعالى في سورة البقرة الآية 131: (وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون).

ونحن نتذكر جميعاً أن إبراهيم لما هاجر هو ولوط بأمر ربه من بلده إلى الأرض المباركة كان أهم سبب في هذه الهجرة الخلاف والتناقض الكامل بين عقيدته التوحيدية وعقيدة قومه الوثنية. فكيف يتوافق يعقوب وهو حفيد إبراهيم مع ديانة رفضها مع ديانة جده وأبيه؟ كيف يقبل على نفسه وهو يعرف كيف رفض جده الوثنية أن يغطّي على سرقة زوجته للأوثان وجلبها معها حيث هو ذاهب؟

إن الحقيقة تقول إن يعقوب لم يعبد آلهة وثنية وكذلك أبناؤه. فلا تعدد للآلهة وليس هناك إلهٌ خاصٌ قبلي. إن يعقوب وبنيه لم يعبدوا سوى الله الواحد الذي عبده الموحدون إبراهيم وأبناؤه والذي سيعبده كافة الأنبياء حتى محمد صلى الله عليه وسلم وهو خاتم الرسل والنبيين.

لقد أشارت كل المصادر ومن بينها التوراة أن يعقوب عاش غريباً عن أرض فلسطين أي مكان تواجد أبيه. ومكث عند أخواله في فدان أرام عشرين عاماً وتزوج هناك من ابنتي خاله لابان. وقد أنجب هناك كافة أبنائه إلا الأصغر منهم المدعو بنيامين. وبعد انقضاء العشرين عاماً. أتى إلى مكان تواجد أبيه وكان يخشى أن يقتله أخوه عيسو لكن أخاه استقبله ورحب به وعفا عنه.

وما يُلفِتُ النظر في الإصحاح الثاني والثلاثين قول التوراة (فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر. فقال لا أطلقك إن لم تباركني فقال له ما اسمك فقال يعقوب فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت.. فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً لأني نظرت الله وجهاً لوجه).

وفي الإصحاح الثـالث والثلاثـين: (وأمـا هـو فاجتـاز قدامـهم وسـجد إلى الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى أخيه).

فبصريح العبارة ترى التوراة أن يعقوب صارع الله وظل قابضا عليه حتـى باركه ثم اختار له اسما آخر غير يعقوب هو اسم إسرائيل وقـال يعقـوب (لأنـي نظرت الله وجها لوجه)، فإضافة لما رأيناه مـن عقـائد وثنيـة في سـيرة يعقـوب تغرق التوراة في الوثنية فتلصق بيعقـوب قصـة صراعـه مـع الله يـداً بيـد حتـى الفجر.

ثم إن يعقوب يسجد لأخيه عيسو سبع مرات وهو الذي حمل بركة أبيـه دون أخيه ثم إن نساء يعقوب الأربع ليئة وجاريتها وراحيل وجاريتـها وأولاده جميعهم يسجدون أمام عيسو. وكل ذلك نابع من الخوف وليس بسبب حب أو احترام. فيعقوب ومن معه لم يجد وسيلة يرضي بها أخاه سوى السجود. وهـذا ما ينافي طبيعة النبوة التي خصـها الله ليعقـوب وهـذا يذكرنـا بسـجود إبراهيـم للملائكة حين أتوا ينذرونه بأنهم سيدمرون قوم لوط حسب قـول التـوراة إلا إذا كان السجود سجود تحية.

على أية حال سنعود لدراسة العقائد الوثنية في العقيدة اليهودية في فصول قادمة لندرك حقيقة هذه العقيدة وما يتلبسها من وثنية تخالف جميع خصائص العقائد التوحيدية.

أما عن الوعد الإلهي المستمر والذي يصـل إلى يعقـوب بـأن يمتلـك أرض كنعان ومن ثم أولاده من بعده فإننا سنفرد له صفحات خاصة لما له مـن أهميـة على مستوى الصراع العقيدي بين المسلمين والصهاينة.

وحين نتابع سيرة يعقوب عليه السلام فإننا نجد أنفسنا مع النبي يوسف وقصته مع إخوته الذين يطلق عليهم الأسباط.

بشكل عام تتوافق الخطوط العريضة لقصة يوسف في التوراة والقرآن وهذا التوافق يمكن أن نلخصه بالنقاط التالية:

1 ـ يوسف ابن نبي مرسل يدعى يعقوب.

2 ـ يوسف أصغر من إخوته باستثناء واحد.

3 ـ اخوة يوسف يغارون منه ويحسدونه فيتآمرون عليه لقتله أو لإلقائه في بئر.

4 ـ يوسف يُباع في مصر بعد أن يلتقطه بعض رجال القوافل التجارية.

5 ـ الحوادث التي تحدث ليوسف مع امرأة سيده ثم سجنه وخروجه وتملكه على خزينة الدولة هي واحدة في التوراة والقرآن.

6 ـ لقاء يوسف بإخوته وحجزه لأخيه ثم تعرفهم إليه واعترافهم بذنبهم وعودة جمع شمله مع أبيه.

7 ـ وفاة يعقوب.

ومع هذا التوافق في الخطوط العريضة للقصة بين التوراة والقرآن إلا أننا سنجد اختلافات جذرية أيضاً في الغايات والأهداف وبعض الزيادات التوراتية التي أضيفت لتضفي على القصة أسلوباً خيالياً أسطورياً.

تقول التوراة في سفر التكوين الإصحاح 27 (ومضى إخوته ليرعوا الغنم غنم أبيهم عند شكيم فقال إسرائيل (يعقوب) ليوسف أليس إخوتك يرعون عند شكيم تعال فأرسلك إليهم، اذهب انظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم ورد لي خبراً فأرسله من وطاء حبرون إلى شكيم).

(فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم في دوثان).

(فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه.. هلم نقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونقول وحش رديء أكله).

وفي الإصحاح 39: (ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عليه ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت. فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة انظروا قد جاء رجل عبراني ليداعبنا. دخل إلي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي هرب وخرج إلى خارج فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته).

وفي الإصحاح 42 (فذكر يوسف الأحلام التي حلم عنهم وقال لهم جواسيس أنتم لتروا عورة الأرض جئتم. أرسلوا واحداً منكم ليجيء بأخيكم وأنتم تحبسون فيمتحن كلامكم هل عندكم صدق وإلا فوحياة فرعون إنكم لجواسيس بهذا تمتحنون. وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلى بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا).

وفي الإصحاح 46 (وُلد ليوسف في أرض مصر منسَّى وإفرايم اللذان ولدتهما له أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون).

(فصعدوا من مصر وجاءوا إلى أرض كنعان إلى يعقوب أبيهم وأخبروه قائلين يوسف حي بعد. فجمد قلبه لأنه لم يصدقهم ثم كلموه بكل كلام يوسف الذي كلمهم به).

وفي الإصحاح 46. (جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت معه إلى مصر سبعون.

وفي الإصحاح الخمسين: (فوقع يوسف على وجه أبيه وبكى عليه وقبله وأمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه. فحنط الأطباء إسرائيل وكمل له أربعون يوماً لأنه هكذا تكمل أيام المحنطين. ومات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين فحنطوه ووضع في تابوت في مصر).

أما في القرآن الكريم فقد أفرد الله سبحانه وتعالى سورة تضم 111 آية اختصت بالحديث عن يوسف وأبيه وإخوته والعزيز وإمرأته. إضافة إلى آية من سورة الأنعام وآية في سورة غافر.

وسبب نزول هذه السورة في القرآن الكريم أن كفار مكة لقي بعضهم اليهود وتباحثوا في ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فقال لهم اليهود: سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف فنزلت. وهذا ما قاله النسفي في تفسيره.

ونستعرض الآيات التي تشير إلى بداية صراع بين يوسف وإخوته ومن ثم مسيرة حياة يوسف كما يراها القرآن الكريم.

يقول تعالى: (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين. قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين) آية 4 ـ 5.

ويقول تعالى: (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُ إلى أبينا منّا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين8. اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين9. أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون12).

(فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون 15).

(وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشراي هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون 19).

(ولما بلغ أشده أتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين22).

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)21.

(وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون) 23.

(يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا الله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون) 39ـ 40.

(وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين)54.

(قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين) 78.

(واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا الصادقون) 82.

(فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاةٍ فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين) 88.

(ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) 100.

(رب قد أتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة وتوفني مسلماً وألحقني بالصالحين) 101.

ضمن الخطوط العامة نرى توافقاً في الأحداث التي جرت مع النبي يوسف في التوراة والقرآن وقد أوردنا ملخصاً لهذه الخطوط.

تورد التوراة أن يوسف كان قد بلغ من العمر سبعة عشر عاماً عندما كاد له إخوته بينما يورد القرآن أنه كان غلاماً صغيراً وذلك في قوله تعالى يا بشراي هذا غلام. ومن كان في السابعة عشرة من عمره يبعد أن يصنع معه ما صنع يوسف. ولو كان فعلاً في هذا السن لقاوم أو صرخ أو تصرف أي تصرفٍ مدافعاً عن نفسه حين هم إخوته بإلقائه في الجب.

ويوسف حسب ما أوردته التوراة بشأن عمره أصبح يشكل خطراً على إخوته بسبب حب أبيه المميز له وبسبب صفاته الخاصة التي افتقدوها والتي تؤهله كي يصبح ذا شأن.

ويفيدنا القرآن الكريم أن قصة الرؤيا لدى يوسف وحديثه لأبيه بشأنها حدث أثناء غياب إخوته وتفيد التوراة أن قصة الرؤيا حدثت بحضرة إخوته وتقول إن أباه انتهره على هذا القول وقال له متهكماً (لعلنا نسجد لك أنا وأمك وإخوتك).

وهناك اختلاف في قول التوراة إن يعقوب هو الذي بعث بيوسف ليرى شأن إخوته ولو كان يعقوب يخاف على ابنه من إخوته لما بعثه خشية أن يدبروا له أمراً مكروهاً بينما القرآن يقول إن المؤامرة قد تمّ تصورها وأنهم طلبوا لأبيهم أن يبعث معهم يوسف ليرتع ويلعب وقد كان يخشى يعقوب على ابنه من كيدهم.

وفي الروايات الإسلامية أن يوسف بعدما ترك في الجب جاءت قافلة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه في البئر فتعلق به يوسف فلما نزع الدلو يحسبها قد امتلأت ماء فإذا غلام وسيم قد تعلق بها فاستبشر الرجل وقال يا بشراي هذا

غلام ويقول المفسرون فسحبوا يوسف وبـاعوه لقافلـة فيـها إسمـاعيليون عـرب. ويصل يوسف مع القافلة إلى المصريين.

وتورد التوراة أن يوسف دخل مصر وأحد الفراعنة يحكم مصر. بمعنى أن الزمن الذي جاء به يوسف إلى مصر كان زمن إحدى الأسر الفرعونية الحاكمـة. وترى الدراسات التاريخية ومنها دراسة الدكتور أحمد سوسة العرب واليهود في التاريخ أن الذين كانوا يحكمون مصر آنذاك هم الهكسوس.

والقرآن الكريم لم يأت على ذكر كلمة فرعون خـلال سـورة يوسـف إنمـا ذكر كلمة الملك بينما ذكر فرعون في قصة سيدنا موسى عليه السلام. وهذا دليـل على أن القرآن الكريم يساعد في معرفة الزمن الذي نزل فيه يوسف في مصر.

ويـرد في التـوراة أن يوسـف حلـف بحيـاة فرعـون. (وحيـاة فرعـون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا) وتكرر هذا القسم أكـثر مـن مرة. وظاهر الكلام أن يوسف سار على نهج الناس هناك حيث ألّـهوا ملوكـهم. والحقيقة أن يوسف راح يدعو إلى ديانـة التوحيـد وهـو في السـجن، ومـن كـان يعرف حقيقة التوحيد لا يمكن أن يقسم الإيمان بحيـاة أشـخاص ولا سـيما إذا كانوا ملوكاً يدّعون الألوهية أو أنصافها وتتفق التوراة مع القرآن على أن يعقوب وأولاده كانوا يعتاشون من رعي الغنم وكانوا بدواً رحلاً بيوتهم من الخيام ليـس لهم مستقر. ولا تربطهم بأرض كنعان أية رابطة.

أما بالنسبة لقبر يوسف فهناك رواية يهودية تقول إنه بين جبلي عيبـال وجرزيم وفي واد منخفض يقع تل بلاطة الذي ورد اسمه في الكتـب الدينيـة وفي وسطه مبنى صغـير مـن حجرتـين. يقـع قـبر النـبي يوسـف ويعتـبره المسـلمون واليهود أخطر بؤرة بعد الحرم الإبراهيمي في الخليل بسـبب الاحتكـاك اليومـي بين المسلمين والمستوطنين.

وقد توسع المستوطنون اليهود من مستعمرة (إيلون موريه وبدأوا بزيارة قبر يوسف وسط بلاطة. وفي عام 1985 أقاموا في الحجرة المجاورة للمقام التي كان يسكن فيها العجوز فياض الدويك الذي كان القائم عليها حتى وفاته مدرسة دينية يؤمها الطلاب اليهود من الصباح حتى المساء وعززهم الجيش الصهيوني بحراسة دائمة من جنوده).

يبدو المكان الذي تحيط به الأسلاك الشائكة وكأنه مكان لا يمت إلى المسلمين بصلة. ففي وسطه حجر كبير مغطى بقماش بلاستيكي أخضر كتب عليه بالعبرية (قبر يوسف الصديق) وعلى جانبيه حجران دائريان يعتبر اليهود أحدهما قبر إفرايم بن يوسف والآخر منسّى بن يوسف وتغطي كتابات عبرية كل زاوية في الحجرة الصغيرة إضافة إلى باب واحد في جدرانها تعلوه نجمتا داود ويؤكد حارس المكان الشاب فياض الدويك أن المكان الذي تعلوه نجمتا داود هو مكان المحراب الذي أغلقه المستوطنون بباب حديد واحتفظوا بمفتاحه.

هذا المكان يعتبره اليهود المكان الذي دفنت فيه عظام يوسف بعد أن أحضرت من مصر. ويقول المسلمون مؤكدين أن هذا المكان ليس سوى مقام أقيم له. وبعض الروايات تقول إن المكان الذي يعتبره بعضهم قبر يوسف لا يتجاوز عمره المائتي عام وهو مكان بناه رجل تقي صالح يُدعى يوسف وذلك في العهد التركي.

أما بالنسبة للرواية اليهودية فإن أحداث التوراة تشير إلى استحالة نقل عظام يوسف من مصر إلى فلسطين. ففي سفر الخروج تورد التوراة أن العبرانيين حفروا قبر يوسف ونقلوا عظامه معهم عبر سيناء. ومن المعروف توراتياً أن العبرانيين ظلوا في سيناء أربعين عاماً ومات النبي موسى ولم يدخلوا فلسطين ودخلوها غازين أيام يوشع بن نون والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال أين كانت عظام يوسف أثناء التيه في سيناء لمدة أربعين عاماً هل احتُفظ بها

ومن الذي احتفظ بها وهل حافظت على شكلها ولم تتفتت وسؤال آخر يطرح نفسه أيضاً. إن التوراة تورد أن يوسف لما مات حنطوه ودفن في قبر كما فعلوا بيعقوب. فلماذا حافظت مومياء الفراعنة على شكلها حتى عصرنا الحاضر بينما أصبحت جثة يوسف عظاماً نخرة في أقل من أربع مئة سنة.

وبالنسبة إلى المزاعم التوراتية عن نقل عظام يوسف إلى فلسطين من مصر، نقول إن الأحاديث النبوية الصحيحة تشير إلى أن الأنبياء لا تتغير أجسادهم بعد الموت وتبقى كما هي. وهذا النبي سليمان يموت وهو متوكئ على عصاه ويبقى سنة كاملة كأنه واقف في معبده حتى تنخر الدودة عصاه فتسقط جثته على الأرض فما بال جسده لا يتأثر بالانحلال أو النخر أو الاهتراء رغم مرور سنة على وفاته؟

إذاً يوسف ظل مدفوناً في مصر ولم تنقل عظام ولا جثة. وادعاؤهم باطل ومرفوض.

مسألتان يجدر الإشارة إليهما:

في سياق التوراة يرد أن يوسف حنط أباه واحتفظ بجثته أربعين يوماً كما يفعل المصريون ثم يرد أن يوسف لما مات حُنط الآخر ودفن بأرض مصر.

والتحنيط عادة مصرية أو هي تدخل في صلب العقائد المصرية. وكانوا يحنطون الملوك ومن جاراهم من الوزراء والقادة. اعتقاداً منهم أنهم سيرجعون إلى عالم آخر يطلقون عليه العالم السفلي حيث تحاسبهم الآلهة وكانوا يضعون إلى جانب الجثة ما يحتاجه المرء من أكل وشراب ويعقوب عليه السلام حُنط ونفذت وصيته بأن يدفن إلى جانب أبيه إسحق وجده إبراهيم. أما يوسف فيموت ويدفن في مصر ولم يرد أنه وصّى أن يدفن مباشرة إلى جانب أبيه

وأجداده. إنما وصّى أن تنقل عظامه. وهذا حسب ما ورد في سفر التكوين 24 : 50 ـ 25.

المسألة الثانية تورد التوراة أن يوسف قد تزوج من أسنات بنت فوطي فارع الكاهن الأكبر لدى المصريين. والكهنة في زمن يوسف ولا سيما في مصر كانوا خداماً للمعابد الوثنية. فهل حقيقة أن يوسف تزوج ابنة هذا الكاهن؟ وكيف كانت العلاقة الدينية إذاً بين يوسف وبين والد زوجته؟ هل كان يوسف يذهب معه إلى المعابد الوثنية أم أن يوسف وهو نبي دعا هذا الكاهن إلى ديانة التوحيد؟ وحقيقة الأمر أن التوراة لا تجيب على هذه التساؤلات المفترضة بناءً على ما جاء من حيثيات ووقائع في النص التوراتي. وقد يحتمل أن تكون زوجته موحدة. والله أعلم.

ثم تقول التوراة إن يوسف أنجب من أسنات بنت الكاهن ولدين وسماهما منسى وإفرايم وباعتبار أن أمهما مصرية ظلا يعيشان في مصر وتزوجا مصريتين وأنجبا أولادا وأحفاداً في مصر. وحسب التشريع اليهودي فإن من كانت أمه غير يهودية لا يعتبر يهودياً. وعلى هذا فإن ولدي يوسف لا يمتّان بصلة إلى عقيدة أعمامهما وهما غريبان حتى في النسب والعرق إذ اختلط الدم وهذا أيضاً ينفي نظرية العرق النقي للشعب العبراني التي يقول بها اليهود.

وبانتهاء دور يوسف وموته لا نجد أي أثر لأولاده في مكانة أبيهم. فلا نرى مثلاً منسى أو إفرايم أو أي حفيد يتسلم منصباً مماثلاً لمنصب يوسف أو لأي منصب آخر. وكأن موت يوسف كان نهاية حقبة وبداية حقبة في الحياة المصرية السياسية والدينية.

ويظهر أن حكم الهكسوس الذي عاش في كنفه النبي يوسف قد انتهى بالاندحار وعودة الفراعنة المصريين إلى شمال مصر بعد أن انكفأوا في الجنوب وظلوا يحاربون الهكسوس حتى أخرجوهم من ديارهم. وباعتبار أن أحفاد

يعقوب عاشوا بنعيم واستقرار أثناء حكم الهكسوس فإن المصريين نقموا منهم وراحوا يذيقونهم أصناف العذاب. وكل ذلك بسبب ما ظهر من تعاون وثيق بينهم وبين الهكسوس الذين استعمروا مصر حقبة من الزمن.

وبانتهاء حقبة يوسف نكون قد أتينا على نهاية فترة زمنية امتدت من إبراهيم وحتى يوسف اختلفت وستختلف عما نراه من شخصيات وأحداث في الأزمان التالية.

الفصل الرابع

من غياب يوسف إلى موسى والخروج

من يوسف إلى موسى ـ الحلقة التوراتية المفقودة

من غياب يوسف إلى موسى والخروج

من يوسف إلى موسى ـ الحلقة التوراتية المفقودة.

من يستقرئ التوراة يرى أن وفاة يوسف تعني انتهاء عهد لـه خصائصه ومميزاته. وحين يموت هذا النبي الذي هو آخر الآباء الأولين أو الأنبياء الموحّدين. تنهي التوراة مرحلة يتشابك فيها الوهم والحقيقة والأسطورة بالواقع وكلما تقترب الأحداث زمنياً من زمن تدوين التوراة يدرك المدقق في الأسفار التوراتية أن كتبة التوراة يقتربون أكثر فأكثر من تزييف الحقائق وطمس كثير من الأمور التي هي في غاية الأهمية لأي باحث أو قارئ للتاريخ.

ولعل ما يلفت النظر أن التوراة حين تنهي سفر التكوين وتبدأ بسفر الخروج تقفز قفزاً زمنياً يقلب الأمور قلباً مدهشاً وتنقلب الأحداث بمجرياتها ومعانيها انقلاباً غريباً. يدرك أي قارئ أن هناك أسباباً كثيرة تقف وراء هذا القفز الزمني المخيف.

ولعل ذلك يدفع للتساؤل ما الزمن المفقود بين يوسف وموسى؟

هل هناك أحداث وقعت لم تشر لها التوراة؟

وهل هناك أنبياء بعثهم الله لأقوامهم أغفلتهم التوراة أو تغافلت عن ذكرهم؟

ما مصير أحفاد يوسف والأسباط أي أخوة يوسف بعد وفاته؟ هل ظلوا في مصر أم هجروها أم انخرطوا بالشعب المصري وانتهوا فيه مثل ما انتهت الحقبة الزمنية تلك؟

ماذا يخبرنا القرآن الكريم؟ كيف مهدت الأمور لظهور موسى على مسرح الأحداث؟

لنقف طويلاً متأملين...

تقول التوراة في الإصحاح الأول من سفر الخروج: ومات يوسف وكل إخوته وجميع ذلك الجيل. وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا وكثروا كثيرا جدا وامتلأت الأرض بهم. ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف. فقال لشعبه هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس.

ففي بضعة سطور تتحدث التوراة باختصار شديد عن موت يوسف وإخوته وبروز جيل جديد من بني إسرائيل تكاثروا حتى ضاق بهم المصريون وتولى السلطة ملك جديد ما سمع قط بيوسف وراح المصريون يذلون بني إسرائيل خوفا من أن يكونوا أقوياء ويتحالفوا مع الأعداء وقد قالت التوراة إن اليهود بنوا لفرعون مدينتين.

ولعلنا نتساءل ما الذي حدث خلال الفترة الزمنية الفاصلة بين يوسف وموسى. ولماذا أدخلتنا التوراة في سفر الخروج هكذا فجأة؟ وكم هي المدة الحقيقية التي فصلت بين الزمنين؟

التوراة تقول إن الفاصل حوالي أربع مائة سنة وثلاثين.

وقد رد كثير من العلماء والباحثين على ذلك فشككوا بهذه المدة واعتبروا كتبة التوراة مزورين للتواريخ، وقد رد على ذلك ابن حزم الأندلسي الظاهري بقوله:

يقول ها هنا إن مسكن بني إسرائيل بمصر أربع مائة سنة وثلاثون سنة وقد ذكر قبل أن فاهات بن لاوي دخل مصر مع جده يعقوب ومع أبيه لاوي ومع سائر أعمامه وبني أعمامه وأن عمر فاهات بن لاوي المذكور كان مئة سنة وثلاثة وثلاثين سنة وأن عمران بن فاهات بن لاوي المذكور كان عمره مائة سنة وسبعاً وثلاثين سنة وأن موسى بن عمران بن فاهات بن لاوي المذكور كان إذ خرج ببني إسرائيل من مصر مع نفسه ابن ثمانين سنة.

هذا كله منصوص كما نذكره في الكتاب الذي يزعمون أنه التوراة. فهبك أن فاهات دخل مصر ابن شهر أو أقل وأن عمران ابنه ولد بعد موته وأن موسى بن عمران ولد بعد موت أبيه ليس يجتمع من كل ذلك إلا ثلاثمائة عام وخمسون عاماً فقط فأين الثمانون عاماً الباقية من جملة أربعمائة سنة وثلاثين سنة.

فإن قالوا نضيف إلى ذلك مدة بقاء يوسف بمصر قبل دخول أبيه وإخوته قلنا قد بين في التوراة أنه كان إذ دخلها ابن سبع عشرة سنة وأنه كان إذ دخلها أبوه وأخوته ابن تسع وثلاثين سنة فإذن: كان مقامه بمصر قبل أبيه وإخوته اثنين وعشرين سنة ضمها إلى ثلاثمائة سنة وخمسين سنة يقوم من الجميع بلا شك ثلاثمائة واثنان وسبعون سنة أين الثماني والخمسون الباقية من أربعمائة وثلاثين سنة. والصحيح الذي يخرج على نصوص كتبهم أن مدة بني إسرائيل قد دخل يعقوب وبنوه مصر إلى أن خرجوا منها مع موسى عليه السلام

لم تكن إلا مائتي سنة وسبعة عشر عاماً فهذه كذبة في مائتي عام وثلاثة عشر عاماً[1].

وإذا خلصنا إلى قول ابن حزم وغيره ممن حققوا في مدة بقاء بني إسرائيل في مصر نستطيع أن نلقي الضوء على بعض الأحداث والشخصيات التي ذكرها المؤرخون والمفسرون والتي طمسها كتاب التوراة أو حاولوا تأجيل الحديث عنها لأسباب نذكرها في السياق العام.

فإذا أمعنا النظر وجدنا أن عددا من الأنبياء وجدوا في هذه الفترة أي الفترة التي تفصل بين يوسف وموسى. وهؤلاء هم أيوب. وذو الكفل وشعيب وقد ذكروا في القرآن الكريم وتناولتهم الأخبار.

وقد قيل إن زوجة أيوب هي رحمة بنت النبي يوسف وقد ذكر ذلك الثعلبي في كتابه قصص الأنبياء. وقيل أيضا أن أم أيوب من ولد لوط. وهذه أخبار ليست محل ثقة. إنما المعول عليه هنا أن هذا النبي وجد في تلك الفترة الواقعة بين يوسف وموسى.

وتنص التوراة أن موسى قد صاهر صاحب مدين المدعو يثرون. ويشير القرآن بوضوح إلى أن شعيب بعث لأهل مدين. وتتفق الروايات على أن شعيبا كان شيخا كبيرا عندما التقى بموسى وهو ما يزال في ريعان شبابه.

أما ذو الكفل فيشير الإخباريون أنه ابن أيوب النبي ويدعى بشرا بعث رسولا إلى أرض الروم.

وهذه الأخبار لا تؤكدها أية مصادر أخرى إنما ما جاء في القرآن الكريم هو خطوط عامة تتحدث عن دعوة هؤلاء الأنبياء للتوحيد والأخلاق الحميدة.

---

(1) الفصل بين الملل والأهواء والنحل ص253.

وما يهمنا في هذا السياق هو أن شعيباً النبي بعث لقومه في مدين والتقى به النبي موسى وقلنا إن الأول كان شيخاً عجوزاً والثاني كان شاباً. وهذا يعني أن نبوة شعيب سبقت نبوة موسى، ويعني أيضاً أن الحلقة الزمنية المفقودة بين يوسف وموسى لم تكن خالية من الرجال الأنبياء الذي يمهدون لبعضهم الرسالة ويكملونها.

ولهذا سنتوقف عند شخصيتي أيوب وشعيب باعتبار أنهما ذكرا في التوارة والقرآن لنرى مدى التوافق والاختلاف بين ما جاء فيهما. وأين نجد الباطل وكيف توضح الحق آيات الكتاب المبين.

أما في المنحى العام فإن أيوب ابتلي من الله بنقص بالمال والبنين والمرض وهذا ما تتفق التوراة مع القرآن به.

أما في القرآن الكريم فيقول تعالى في سورة الأنبياء الآية 83 ـ 84 (وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجنبا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين).

ويقول تعالى في سورة ص الآيات 41 ـ 44: (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب. أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب. وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب).

ويفهم من سياق الآيات أن أيوب كان قد ابتلي وأصابه المرض فصبر طويلاً ثم دعا ربه أن يرفع عنه البلاء فاستجاب له وعوض له عما فقده من مال وبنين وصحة، ويدرج ضمن قائمة الأنبياء الذين أتوا من نسل إبراهيم عليه السلام. إذ يقول تعالى في سورة الانعام: (وتلك حجتنا أتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) 83. (ووهبنا له إسحق ويعقوب كلاً

هدينا ونوحاً هدينا من قبل. ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين 84).

ويقول في الآية 89: (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة...).

والآية تشير إلى الأنبياء الذين ورد ذكرهم في الآيات السابقة وأيوب نبي منهم، أما التوراة فإنها تخصص سفراً مستقلاً لأيوب وهو السفر الثامن عشر، حسب الترتيب التوراتي.

وأهم ما يلفت النظر هنا أن السفر جاء بصيغة شعرية فهو أشبه بقصيدة طويلة لما فيه من اللغة الوجدانية والصور البلاغية وسنعود لدراسة هذا السفر فنياً في سطور لاحقة غير أن ما يمكن أن نراه في شخصية أيوب يدلنا عل الاختلاف الجذري بين التوراة والقرآن.

يأتي في سفر أيوب: وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم فقال الرب للشيطان من أين جئت فأجاب الشيطان الله وقال: من الجوَلان في الأرض (1: 6 ـ 7).

ويطلب الشيطان من الله أن يمتحن أيوب فيستجيب له (يقول له ابسط يدك الآن ومسّ كل ماله فإن في وجهك يجدف عليك (1: 11).

وفي الإصحاح 9 يقول (الله لا يرد غضبه ينحني تحته أعوان رهب).

ثم يقول (لو دعوت ما استجاب لي لما آمنت بأنه سمع صوتي ذاك الذي يسحقني بالعاصفة ويكثر جروحي بلا سبب إذا قتل السوط بغتة يستهزئ بتجربة الأبرياء).

يقول: (أحسنٌ عندك أن تظلم أترذل عمل يديك وتشرق على مشورة الأشرار ويقول: متسائلاً ألك عينا بشر أم كنظر الإنسان تنظر أمامك كأيام

الإنسان أم سنوك كأيام الرجل حتى تبحث عن إثمي وتفتش عن خطيئـــتي) 3ـ 6.

ويقول: (إلى أرض ظلمة وظل الموت أرض ظلام مثل دجى ظل الموت وبلا ترتيب وإشراقها كالدجى) 10: 20 ـ 22.

ويقول: (هو ذا يهدم ولا يبني يغلق على إنسان ولا يفتح) 12: 14.

ويقول: (أترعب ورقة مندفعة وتطارد قشا يابسا) 13 ـ 25.

ويقول: (أما الرجل فيموت ويبلى. الإنسان يسلم الروح فأين هو والإنسان يضطجع ولا يقوم) 14: 10 ـ 12.

ويقول: (وكذلك أنت تبيد رجاء الإنسان تتجبر عليه أبـدا فيذهـب) 14: 19 ـ 20 (هو ذا قد يسوه ولا يأتمنهم والسموات غير طاهرة بعينيه) 15 ـ 15.

ثم يقول: (فحطمني ونصبني له غرضا. سفك مرارتي على الأرض ويعـدو علي كجبار طرحني كنت مستريحا فزعزعني وأمسك بقفاي فحطمـني).16: 12 ـ 14.

ويقول: (فاعلموا) (21 ـ 15) (إذا أن الله عوجني ولف علي أحبولته) 19 ـ 6 (من هو القدير حتى نعبده وماذا ننتفع إن التمسناه. الله يخزن إثمه لبنيـه) 21: 9.

ويقول أخيرا (هأنذا أذهب شرقا فليس هو هناك وغربا فلا أشعر به شمالا حيث عمله فلا أنظره يتعطف وإلى الجنوب فلا أراه) 23: 8 ـ 9.

فإذا ما حاولنا المقارنة بين ما جاء في التوراة ومـا جـاء في القـرآن الكريـم سنجد أن شخصية أيوب تختلف بين هذا وذاك. فأيوب في القرآن الكريـم نـبي ابتلاه الله فصبر صبرا ضرب به المثل وجزاء صبره فقد عوضه الله عما فقده مـن

مال وصحة وبنين.

بينما هو كذلك في القرآن الكريم نجده في التوراة رجلا مجدفا على الله يائسا من رحمته. وسنرى تتابعا سيرة أيوب في التوراة حسب النصوص التي وردت:

ففي النص الأول نلمس أن كتبة التوراة قد جعلوا لله أبناء إن كان ذلك على الحقيقة أو المجاز وهذا يؤكد أن كلمة أبناء الله تدل على جزء من عقائد الوثنية لدى التوراتيين ولعلنا نتذكر قول التوراة في سفر التكوين بأن أبناء الله رأوا بنات الناس حسناوات فراحوا يتزوجونهن وينجبون رجالا عظاما منهن.

والحوار الذي يدور بين الله والشيطان لايدل إلا على حوار مجسد مشخص ويرى القارئ أن هذا الإله المحاور ليس إلا زعيم قبيلة له أبناء يلتفون حوله. وإلا لماذا يدخل الشيطان في وسطهم وكيف يدخل؟ هل هذا الرب غافل عن رؤية دخول الشيطان إلى ملكه وعرشه وهل هناك ثمة علاقة بين الرب والشيطان بعد اللعنة الأبدية التي لعن فيها إبليس؟

ويطلب الشيطان من الرب أن يمتحن أيوب فيستجيب له عندما يقول له (أبسط يدك الآن.. الخ) ويمتحن الرب أيوب فتسرق جماله وخرافه وممتلكاته ويموت أولاده، كل ذلك ليثبت الشيطان للإله أن أيوب لن يصبر على امتحان الرب، وكأن الرب لا يعلم الغيب ولا يدرك ماذا سيحدث مع أيوب.

وبعد الامتحان الأول يطلب الشيطان من الرب أن يزيد في ابتلاء أيوب حتى أنه يهيج الله على أيوب حتى يكاد يبتلعه. إذا ما هذا الرب وما طبيعته الغريبة حتى يستطيع شيطان أن يهيجه وأن يرميه في عداء مع عباده وأنبيائه؟

وتقع المصيبة على أيوب فينهار إيمانه بربه من ساعتها بالتجديف على ربه في جميع الإصحاحات الموجودة في السفر.

وإذ لاحظنا ما جاء في الإصحاح الرابع نرى أن التوراة تنسب الحماقة للملائكة على لسان أيوب. ومن المعروف حسب عقائد التوحيد أن الملائكة ينفذون ما يأمرهم الله ولا يخطئون لأنهم خلقوا ليكونوا أمناء على تنفيذ أحكام الله إنهم يسبحون ربهم ولا يحيدون عن أوامره، فلا حماقة يرتكبونها ولا الرب يخطئ أو تصيبه الحماقة فينسبها إلى ملائكته تخلصا من خطئه.

وفي الإصحاح السادس يصب الله كل سهامه ضد أيوب وتحيط به أهواله وكأن الله الرحيم يتحول إلى منتقم جبار حاقد.

ويطلب أيوب من الله إن كان ربا حقيقيا أن يسحقه ويقطعه ويخلصه من هذا الداء الوباء. ويطلب منه الموت. وحسب رأي التوراة فإن الموت نهاية الإنسان ولا قيامة ولا نشور. ولذلك تنفي التوراة عن نبي الله أيوب إيمانه بالنشور والحساب والعذاب وتجعله يطلب الفناء والموت نهاية لهذه الآلام.

ويتضايق أيوب من الله إلى أقصى حد حتى أنه يطلب منه أن يكف يده عنه ويبعد تسلطه عنه وفي الإصحاح التاسع إشارة لعدم استجابة الله لعبيده وأنبيائه حسب ما تزعم التوراة على لسان أيوب. فإذا أراد العبد أن يحاجج ربه لا يجيبه هذا الرب ولو على واحد من ألف مما يطلبه العبد. ثم يقول الباسط السموات وحده والماشي على البحار هو ذا يمر علي ولا أراه فلا أشعر به.

ففي هذا النص عبارة صريحة عن وثنية التوراة. فالله يتجسد كالإنسان يتمشى على أعالي البحار، ويمر قرب أيوب فلا يشعر به ولا يراه. لا هذا يشعر بربه ولا الرب يشعر بعبده المتألم. فهذا الرب سادي يتلذذ بمصائب الآخرين ويفرح لعذاباتهم.

وفي الإصحاح التاسع يقول (الله لا يرد غضبه ينحني تحته أعوان رهب).

فالله الغاضب دوما يجند أتباعه للرعب والرهب والخوف، أعوانه ينحنون خوفا منه وينفذون رعبهم ورعبه على بني البشر وهنا نرى أيضا إلغاء صفات الله الرحيم على الخالق ثم يقول: لو دعوت فاستجاب لي لما آمنت بأنه سمع صوتي ذاك الذي يسحقني بالعاصفة ويكثر جروحي بلا سبب إذا قتل السوط بغتة، يستهزئ بتجربة الأبرياء.

فصفة الله أنه يكثر آلام البشر بلا سبب ويسحقهم بالعاصفة حبا بالقتل والتعذيب ثم يقول مخاطبا ربه: فهمني لماذا تخاصمني. وهنا يضيق بأيوب الحال ويطلب من ربه أن يوضح له لماذا ابتلاه بهذا المرض. لكن ربه لا يجيبه بل يظل على تعذيبه له.

وفي الإصحاح العاشر: (أحسن عندك أن تظلم أن ترذل عمل يديك وتشرق على مشورة الأشرار). وهنا تساؤل واضح من أيوب لربه يستنكر فيه عمل ربه حيث يعترف أنه خلق الإنسان ليسعده فلماذا يشقيه ثم لماذا يستمع هذا الرب لمشورة الأشرار والشياطين ويتسلط على عباده؟

وفي الإصحاح العاشر نفسه يقول أيوب متسائلا (ألك عينا بشر أم كنظر الإنسان تنظر أيامك كأيام الإنسان أم سنوك كأيام الرجل حتى تبحث عن إثمي وتفتش عن خطيئتي) فلا يفتش عن الإثم أو الخطيئة إلا البشر أما الله فيتنزه عن ذلك، وهذا ما يؤكد اقتراب عقيدة أيوب التوراتي من عقيدة الإنسان الوثني الذي يرى في ربه مثلما يرى في البشر.وهذا بالطبع ما تزعمه التوراة.

ويظهر عدم إيمان أيوب باليوم الآخر في نفس الإصحاح حيث يقول (إلى أرض ظلمه وظل الموت أرض ظلام مثل دجى ظل الموت وبلا ترتيب وإشراقها كالدجى). وفي فقرات أخرى تظهر حدود الله في عقل أيوب فهو كما ورد في الإصحاح الحادي عشر أطول من الأرض طوله وأعرض من البحر.

ويسود شعور أيوب إحساس بأن الرب ظالم لئيم لا يرحم وهو يتعقب الضعفاء ولا يقدر على الأقوياء بل يتسلط على الناس بلا شفقة ولا هوادة.

والحوار الذي يدور بين أيوب وبين (يلدد الشوحي) و (أليفاز الثيماني) وغيرهما ممن حاورهم بشأن بلاء الرب ومصائبه يظهر أيضا أن الرب حسب زعمهم لا يأتمن ملائكته ولا قديسيه ولا رسله. بل هو يشكك في كل من خلقه في السموات والأرض.

يقول (وكذلك أنت تبيد رجاء الإنسان تتجبر عليه أبدا فيذهب هوذا قديسوه لا يأتمنهم والسموات غير طاهرة بعينيه) إن ذلك يذكرنا بمميزات يهوه الممتاز بالرعونة.

ثم يلقي أيوب التهم الكثيرة على ربه فهو برأي التوراة قد خرب كل بيته وجماعته ودفعه إلى الظالم وفي أيدي الأشرار (فحطمني ونصبني له غرضا، سفك مرارتي على الأرض يعدو علي كجبار طرحني كنت مستديما فزعزعني وأمسك بقفاي فحطمني).

والتوراة في هذا السفر كما في بقية الأسفار لا تكاد تخرج عن تصور كهنتها وكتابها وتأثيرهم بأساطير الشعوب القديمة وتراثها.

يقول أيوب (فاعلمو أن الله عوجني ولف علي أحبولته من هو القدير حتى نعبده وماذا ننتفع إن التمسناه الله يخزن إثمه لبنيه).

وأخيرا يفتش أيوب عن ربه فلا يجده في أي مكان. (هاأنذا أذهب شرقا فليس هو هناك وغربا فلا أشعر به شمالا حيث عمله فلا أجده يتعطف، وإلى الجنوب فلا أراه).

هذه شخصية أيوب كما وردت في التوراة فأين هذا مما جاء في القرآن الكريم وأين هذا من صبر الأنبياء وتحملهم وعقيدتهم؟.

لقد اعتبر بعض الأدباء والنقاد الغربيين أن سفر أيوب لوحة شعرية عظيمة بل هو سفر شعري كتب في وقت متأخر من حياة اليهود.

وواقع الأمر يقول حتى لو كان هذا السفر شعرا فهو ذو مضمون لا أخلاقي وقد عرفنا أن للأدب وظيفة أخلاقية بغض النظر عن الشكل الفني. وإذا كان التجديف على الخالق وشتمه أو تجسيده كوثن أو كإله بشري يعني روعة الفن الشعري فلا بأس ساعتها أن نسقط من حسابنا ومن معارفنا وثقافتنا كل ما هو شعري أو كل ما هو رائع فنيا.

ليس بالضرورة أن يكون التجديف على الخالق وإن كان في قالب فني - فنا رائعا. ولو كان أصحاب التوحيد الحقيقيون من اليهود يثقون بما كتب في التوراة لما رفضوا جميع أسفارها باستثناء الأسفار الخمسة الأولى. لكنهم يرفضون تلك الأسفار لأن فيها من التأليف والوهم ومناقضة الواقع والحقائق ما هو مناف للعقل والمنطق وما هو مناف لعقيدة التوحيد الحقيقية. وما ينطبق على سفر أيوب ينطبق على غيره من الأسفار.

قلنا قبل صفحات سابقة إن النبي شعيب أسبق وجودا من النبي موسى. وأيوب وذو الكفل وقد يكون غيرهم أيضا غطوا المسافة الزمنية الفارغة في التوراة وهي التي تقع بين موت يوسف ونبوة موسى.

حين نعود إلى ما تعارف عليه الناس نرى أن شعيبا هو الذي صاهر موسى والتقى به لكن التوراة لا تورد اسم شعيب بل تورد أن صاحب مديان يدعى مرة رعوئيل ومرة يثرون وتشير إلى أن يثرون من نسل عيسو أو من نسل إبراهيم وبالتحديد من زوجته الكنعانية قطورة. وتذكر التوراة أن موسى تزوج ابنته المدعوة صفورة وارتبط به مدة زمنية كبيرة.

جاء في سفر الخروج آخر الإصحاح الثاني (فهرب موسى من وجه فرعون وسكن في أرض مديان وجلس عند البئر).

ثم تقول: (وكان لكاهن مدين سبع بنات فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن. فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن قال ما بالكن أسرعتن في المجيء اليوم... وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان).

وتقول في الإصحاح الرابع: (فمضى موسى ورجع إلى يثرون حميه وقال له أنا أذهب وأرجع إلى إخوتي الذين في مصر لأرى هل هم بعد أحياء فقال يثرون لموسى اذهب بسلام. فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر وأخذ موسى عصا الله في يده).

وجاء في الإصحاح الثامن عشر: (فسمع يثرون كاهن مديان حمو موسى كل ما صنع الله إلى موسى وإلى إسرائيل شعبه. أن الرب أخرج إسرائيل من مصر. فأخذ يثرون حمو موسى صفورة امرأة موسى بعد صرفها وابنيها اللذين اسم أحدهما جرثوم لأنه قال كنت نزيلا في أرض غريبة واسم الآخر أليعازر لأنه قال إله أبي كان عوني وأنقذني من سيف فرعون. وأتى يثرون حمو موسى وابناه وامرأته إلى موسى في البرية حيث كان نازلا عند جبل الله. فقال لموسى أنا حموك يثرون آت إليك وامرأتك وابناها معها فخرج موسى لاستقبال حميه وسجد وقبله وسأل كل واحد صاحبه عن سلامته ثم دخلا إلى الخيمة).

فقص موسى على حميه كل ما صنع الرب بفرعون والمصريين من أجل إسرائيل ففرح يثرون بجميع الخير الذي صنعه لإسرائيل الرب. وقال يثرون مبارك الرب الذي أنقذكم من يد فرعون. الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآلهة. فأخذ يثرون حمو موسى محرقة وذبائح لله وجاء هارون وجميع شيوخ إسرائيل ليأكلوا طعاما من حمي موسى أمام الله وحدث في الغد أن موسى جلس ليقضي للشعب فوقف الشعب عند موسى من الصباح إلى المساء. فلما رأى حمو موسى كل ما هو صانع للشعب قال ما هذا الأمر الذي أنت صانع للشعب. ما بالك جالسا وحدك وجميع الشعب واقف عندك من الصباح إلى المساء. فقال

موسى لحميه إن الشعب يـأتي إلي ليسأل الله إذا كـان لهـم دعـوى يـأتون إلي فأقضي بين الرجل وصاحبه وأعرفهم فرائض الله وشرائعه. فقال حمو موسى له ليس جيدا الأمر الذي أنت صانع. إنك تكـل أنت وهـذا الشعب الـذي معك جميعا لأن الأمر أعظم منك، لا تستطيع أن تصنـع وحـدك الآن اسمـع لصوتـي فأنصحك فليكن الله معك كنت أنت للشعب أمـام الله وقـدم أنـت الدعـاوى إلى الله علمهم الفرائض والشـرائع وعرفـهم الطريـق الـذي يسلكونه والعمـل الـذي يعملونه وأنت فـانظر مـن جميـع الشـعب أناسـا أقويـاء أتقيـاء لله مستقيمين. يكرهون الطمع وول منهم عليهم رؤساء: فيكـون أنـهم يقضـون للشـعب في كـل وقت كل أمر عظيم. وكل أمر صغير. يحكمون فيه هم. وخفف عن نفسك. وهـم يحملون معك. فسمع موسى لصوت حميه وفعل كل ما قال.

يقول قاموس الكتاب المقدس: يـثرون اسـم مديـاني معنـاه فضـل. كـاهن مديان وحمو موسى ويدعى رعوئيـل أي صديـق أو خليـل الله. ويظـهر أن هـذا الاسم كان اسمه الشخصي ويثرون لقب شرف أطلق عليه. ورعـى موسـى أغنـام حميه سنين طوال ثم دعاه الله فرجع إلى مصر، ويرجح أن يثرون كان من نسل إبراهيم وقطورة.

ويقول عن مديان: اسم سامي معناه محكمة وهو أحـد أولاد إبراهيـم مـن قطورة وقال بعضهم إن أرض مديان كانت تمتد من خليج العقبة إلى موآب وطور سيناء وكان شعبها يتاجرون مع فلسطين ولبنان ومصر. وكان الاسمـاعيلون مـن سكان مديان. وسكن موسى مدة في مديان[1].

أما في القرآن الكريم ففي آياتـه قصتـان مختلفتـان. القصـة الأولى وتتعلـق بمديان والشيخ الكبير دون التصريح باسمه.

---

(1) قاموس الكتاب المقدس ص 850.

وهي في قوله تعالى في سورة القصص من 22 ـ 25: (ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير. فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك لِيجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين. قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين. قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين. قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل).

وجاء في سورة طه 40 ـ 41: (فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسي).

فلم يصرح القرآن الكريم باسم صاحب مدين أو اسم الشيخ الكبير بينما عندما تحدث القرآن عن شعيب بصريح الاسم فقد ورد من خلال قصة نبوته وصراعه مع قومه.

وقد ورد في سورة الأعراف 85 ـ 93 وفي سورة هود من 84 ـ 93. وفي الشعراء 176 ـ 183. وفي سورة العنكبوت 36 ـ 37. وعن أصحاب الأيكة في سورة الحجر 78 ـ 79.

يقول تعالى في سورة الأعراف: (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين 85. ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن

به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين 86. وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين 87. قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين 88. قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين 89. وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة وأصبحوا في دراهم جاثمين، الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين 92. فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصت لكم فكيف آسى على قوم كافرين 93).

في سورة هود. تقترب معاني الآيات من معاني الآيات في سورة الأعراف إلا أننا نرى هنا توضيحا للأسباب والنتائج.

يقول تعالى: (قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد 87).

ويقول تعالى: (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد 89).

ولو عدنا إلى ما نص عليه القرآن الكريم وما نصت عليه التوراة بالنسبة للنبي موسى ومصاهرته للشيخ الذي لم يذكر اسمه لوجدنا توافقا في القصتين دون اختلاف كبير فلم تتناول التوراة ولا القرآن في ذلك السياق الحديث عن قوم الرجل وما هي عقيدتهم. فكانت القصة مقتصرة على تعرف موسى عليه واستئجاره له وزواج موسى من ابنته. وتبين الآيات الكريمة أن الرجل فعلا

رجل صالح لا سيما حين قص عليه موسى ما جرى معه فقال له نجوت من القوم الظالمين.

وواقع الأمر أن هناك فروقا واضحة بين شخصية النبي شعيب ومهمته وبين شخصية الشيخ العجوز ومهمته ومن ثم علاقته بموسى.

وقد أورد بعض المفسرين والعلماء أن الذي صاهر موسى هو شعيب وقد أوردوا بعض الأحاديث المضطربة حول ذلك فلم يؤخذ بها بشكل كلي. ومن هؤلاء أب جعفر الطبري الذي أورد ثلاث روايات تنتهي كلها لابن عباس وفي روايتين منها أن الذي صاهر موسى هو يثرى صاحب مدين وفي الثالثة أن اسم أبي المرأة التي تزوجها موسى هو يثرى[1].

أما ابن كثير فقد أورد أن صهر موسى هو شعيب. وقال آخرون كان شعيب قبل موسى بمدة طويلة لأنه قال لقومه (وما قوم لوط منكم ببعيد) وقد كان هلاك قوم لوط في زمن إبراهيم عليه السلام وبين إبراهيم وموسى مدة تصل إلى حوالي ستمائة سنة على الأقل وأربعمائة في بعض الروايات.

على أية حال لم تذكر التوراة أن اسم الذي صاهر موسى هو شعيب بل أوردت اسم يثرون وكذلك القرآن الكريم لم يذكر اسم من صاهر موسى.

والذي جعل المفسرين يميلون إلى القول بأن من صاهر موسى هو شعيب كون التوراة قالت أن صهر موسى هو كاهن مديان وهو رجل صالح.

وقد ربطوا بين اسم مدين وبين شعيب حيث أورد هذه العلاقة القرآن الكريم وهذا يعني أن المنطقة واحدة في القرآن الكريم وفي التوراة.

غير أن الذي يستوقف ويستوجب النظر هو عدم ذكر قوم الشيخ البتة لا في التوراة ولا في القرآن الكريم عند الحديث عن اللقاء بين موسى وبينه ومن ثم

(1) تاريخ الطبري المجلد 1 ص 400.

استئجاره لموسى وتزويجه من ابنته.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا لم تشر التوراة إلى علاقة ما بين شعيب وبين قومه من أهل مدين؟

ثم لماذا تحدث القرآن الكريم عن قوم شعيب وجداله لهم في مواقع عدة من القرآن غير الموقع الذي تحدث عن مصاهرة الشيخ العجوز لموسى؟

إذا دققنا النظر في الآيات الكريمة التي تحدثت عن شعيب وقومه وجدنا مايلي:

1 ـ قوم شعيب مشركون لا يعبدون الله بدليل قوله تعالى (اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم).

2 ـ قوم شعيب أصحاب أخلاق وعادات سيئة ينقصون الكيل والميزان ويبخسون الناس أشياءهم.

3 ـ يفسدون في الأرض.

4 ـ يقعدون في الطرقات يصدون الناس عن سبيل الله.

5 ـ أنعم الله عليهم بأن كثر نسلهم وعددهم بعد أن كانوا قلة.

6 ـ آمن بعض قوم شعيب بما أرسل لهم.

7 ـ قوم شعيب يهددونه بإخراجه من ديارهم أو يعود إلى دينهم وهذا دليل ضعفه وقلة أنصاره.

8 ـ كانت عاقبتهم أن أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين.

9 ـ تولى شعيب عن قومه بعد أن عاقبهم الله.

هذا ما يمكن أن نلخصه لما ورد في الآيات الكريمة من سورة الأعراف.

وفي سورة هود نستطيع أن نضيف بعض ما فهمناه إضافة لما ورد في سورة الأعراف.

1 ـ قوم شعيب يعبدون ما وجدوا آباءهم عليه وذلك في قوله تعالى (قالوا ياشعيب أصلواتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا...) هود 87.

2 ـ قوم شعيب على علم بما حل بالأقوام السابقة بدليل قوله تعالى (ويا قوم لا يجر منكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) هود 89.

ونضيف أمرا أخيرا أوضحته الآيات في سورة الشعراء.

1 ـ أصحاب الأيكة كذبوا المرسلين وكانت مهمة شعيب هدايتهم إلى دين الوحدانية وإلى الأخلاق الحميدة.

وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا) سورة يونس 75.

وكانت الآيات قد أوردت ذكر نوح ثم هود فصالح فلوط فشعيب قبل ذكرها لموسى وهارون.

إن هذه الملاحظات ترشدنا إلى بعض مفاتيح الأمور لنستطيع الوصول إلى بعض الحقائق حول شخصية شعيب وإن كان له علاقة بزمن موسى أم لا ولنستطيع أيضا أن نرى ما يتوافق به التوراة والقرآن وما يختلفان.

تورد التوراة أن موسى بعد أن تزوج ابنة الرجل العجوز عاد إلى مصر وقد كانت الرسالة قد نزلت عليه وكلمه الله سبحانه وبلغه رسالة السماء وطلب منه أن يذهب إلى فرعون ويحاججه ثم ينقذ أبناء قومه من عذاب فرعون. ثم إن موسى بعد أن استطاع إنقاذ قومه من فرعون توجه باتجاه سيناء وبطريقة ما علم

الشيخ العجوز (يثرون) بمقدم موسى فاستقبله وعلمه بعض أساليب الدعوة التي يجب على موسى اتباعها ليرشد قومه.

أما في القرآن الكريم فإن قصة عودة موسى ولقائه بصهره أو بوالد زوجته لم ترد ولم يأت عليها القرآن الكريم وعلى ذلك فإن ملاحظات عدة يجب ذكرها في هذا السياق:

1 ـ تعترف التوراة بأن يثرون هو كاهن مديان ولم تقل أنه نبي أو رسول وكلمة كاهن تعني أنه رجل صالح يعترف بالرب والتوحيد لكنه لم يصل درجة النبوة كما وصل لها موسى.

2 ـ تقول التوراة إن هذا الرجل علم موسى بعض أساليب الدعوة والقضاء وقد استجاب موسى لإرشاداته.

3 ـ لم تذكر التوراة شيئا عن قوم مدين، من كان يسكنها؟ ما هي عقيدة أهلها؟ ولا حتى الصلة بين كاهنها يثرون وبين قومه. ولو كان هناك قوم أو جماعة مع يثرون لشاركوه على الأقل في استقبال موسى وقومه عندما رجع من مصر.

بينما نرى في القرآن الكريم أن لشعيب قوما مشركين فاسدين وتصدى لهم فلم يلينوا فأبادهم الله وهذا ما يؤيد القول بأن الذي صاهر موسى ليس شعيبا وإنما هو رجل آخر صالح مستقيم ويمكن القول بأن هناك توافقا بين ما ورد في القرآن الكريم وما ورد في التوراة بالنسبة لزواج موسى من ابنة الرجل العجوز الذي هو على الأرجح يثرون كاهن مديان. ويقع الاختلاف بين التوراة والقرآن كما قلنا في عودة موسى لوالد زوجته واستقباله له حيث لم يرد ذلك في القرآن الكريم بينما ورد في التوراة.

إذا طالما أن الأمر فيه شيء من الترجيح فلماذا لم تذكر التوراة شعيبا بالاسم؟ لماذا لم تأت على ذكر قومه؟ وزمنه؟ بينما ذكر القرآن شعيبا وقومه في أكثر من موقع وبشكل مفصل. قد يقول قائل إن كثيرا من الأسماء في التوراة جاءت بلغة العبرانيين فليس شرطا أن تورد التوراة اسم شعيبا التي هي مشتقة من أصل لغوي عربي والكلمة تصغير لشعب. وليس لها شأن في اللغة العبرانية.

والحقيقة أن التوراة أوردت معظم الأسماء كآدم ونوح وإبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان باسمها المتعارف عليه في اللغات العبرانية والعربية والسريانية وغيرها. لكنها لم تورد شعيب باسمه لأنها لا تعترف به ولا بنبوته. وقد اعتبرت يثرون وهو الذي صاهر موسى كاهن مديان والكهانة لا تصل بأي شكل إلى مرتبة النبوة.

ونحن نلاحظ أن التوراة ركزت على نسل إسحق ولم تركز على غيره من الأنبياء والكهنة والمصلحين. وقد جاء في بعض نصوص سفر التكوين أن إبراهيم قد تزوج امرأة ثالثة وهي قطورة ومنها أنجب عددا من الأولاد منهم مديان الذي سميت منطقة مديان باسمه وكان يثرون أحد أبناء مديان أو أحد أحفاده.

ويجدر بنا أن نذكر أن التوراة لم تأت على ذكر هود وصالح وفعلت ذلك أيضا مع النبي شعيب وهناك بعض الروايات ترى أن هؤلاء الأنبياء من العرب ولا تريد التوراة ولا كتبتها أن يدخلوا هؤلاء الأنبياء ضمن الحديث عن أنبياء بني اسحق لأنها أساسا لا تعترف بهم ونذكر جميعا كيف تحدثت التوراة عن هاجر وإسماعيل فكيف بها تتحدث عن شعيب وأمه ليست سارة أو من نسل سارة.

إذا هناك أسباب كثيرة تدعو للقول بأن الرجل الذي صاهر موسى ليس شعيبا وإنما رجل آخر.

احتمالات وافتراضات:

إشارة من القرآن الكريم إلى أن صهر موسى شيخ عجوز. يفتح باب الظن أن شعيبا بعد أن أباد الله قومه بقي ومن آمن معه وهم قليل. فقد تكون إبادة قومه في زمن شبابه أو ما قبل عجزه وشيخوخته. وربما أن موسى التقى به بعد سنوات طويلة من إبادة قومه. وهذا احتمال قد يفترضه الذين قالوا أن صهر موسى هو شعيب.

وإشارة لقول التوراة إن الشيخ العجوز هو كاهن مديان وهو من علم موسى ونصحه في كيفية القضاء بين قومه وإشارة لقول القرآن الكريم: (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) يفتح باب الظن أن كاهن مديان والشيخ العجوز الذي قال لموسى نجوت من القوم الظالمين هو رجل صالح قد يكون نبيا أو مصلحا فإن كان نبيا فإن نصيحته لموسى وإرشاداته له ومن ثم تقبل موسى لها يدل على أن النبي موسى وهو من أولي العزم قد تعلم شيئا في نشر دعوته من نبي قد جرب معنى الظلم والظالمين وعانى من قوم ظالمين، ربما كان يعيش بين ظهرانيهم. وإذا افترضنا أن الشيخ العجوز هو شعيب فلا عجب إذا أن يستفيد موسى من تجربته مع قومه الذين أبادهم الله. وهذا ما ترفضه طبيعة العقيدة التوراتية حيث أن اليهود يعتبرون موسى نبيا لا شبيه له ولم يكن مثله في بني إسرائيل. ويرفضون أن يتعلم موسى من رجل كاهن، كيف يدير شؤون القضاء في قومه، لكن التوراة تشير إلى أن هذا الرجل هو كاهن وليس نبيا. وقد يراد من كلام التوراة إظهار أن موسى كان يحترم والد زوجته حتى بلغ الاحترام حد قبول النصيحة منه ولا سيما في الشؤون الدينية.. وهذا ما لم يرد في القرآن الكريم إنما قد يوصي الرجل الصالح موسى ببعض الوصايا وهذا ليس فيه شيء غريب.

ونستطيع أن نستشف من آيات القرآن الكريم أن الله سبحانه اختار لموسى زوجة هي بنت رجل صالح موحد. وليست بنت رجل وثني مخالف لعقيدة التوحيد التي كان عليها موسى ومن تبع موسى.

وهذه بالطبع حكمة إلهية أراد الله منها أن تكتمل دائرة الإيمان عند موسى لا سيما أن الرجل الصالح لابد أن يكون له تأثير في تربية موسى وإرشاده. أو مساعدته في تثبيت دعوته لعقيدة التوحيد، والأنبياء بشر لابد من أن تمر في حياتهم لحظات يحتاجون فيها للتثبيت.

وقد ذكر ابن كثير سبب ذكره شعيبا وقومه بعد لوط وقومه فقال مؤكدا زمن هذا النبي بقوله (وذكرنا ما وقع في زمانه من قصة قوم لوط وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب عليه السلام لأنها قرينتها في كتاب الله عز وجل في مواضع متعددة. فذكر الله تعالى بعد قصة لوط قصة مدين وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كما قدمنا. فذكرناها تبعا لها اقتداء بالقرآن العظيم)[1].

ويفهم من كلام ابن كثير أنه يؤيد ويميل إلى القول بأن زمن شعيب أقرب إلى زمن لوط وإبراهيم من زمن موسى عليهم السلام.

الخروج التوراتي وحقائق القرآن:

لعل أكثر ما تحفل به التوراة هو خروج بني إسرائيل من مصر باعتباره نتيجة لأسباب الاضطهاد الفرعوني وهذا الخروج يحوي الحديث عن شخصيات مهمة وأحداث حاسمة شهدتها المنطقة الممتدة من مصر إلى حدود فلسطين. وبسبب الامتداد الزمني الذي استغرقه هذا الخروج فقد ركزت دراسات كثيرة على دراسة التاريخ والجغرافية والشخصيات متوخية من ذلك التوصل إلى مجريات الأحداث الحقيقية التي شهدتها المنطقة.

---

(1) ابن كثير: قصص الأنبياء صفحة 196. دار الخير الطبعة الأولى 1992 بيروت.

وقد أفردت التوراة سفرا كاملا سمي باسم الخروج ويضم أربعين إصحاحا وجاء في التوراة خلال 70 صفحة. واعتبره الدارسون من أهم الاسفار.

وقد أورد القرآن الكريم قصة الخروج في أماكن متفرقة من السور، ويرى الباحث أن تشابها يقع بين التوراة والقرآن في كثير من المسائل والأحداث والشخصيات. واختلافا قد يصل حد التناقض الكلي.

1 - يتفق التوراة والقرآن على حدوث الخروج وأسبابه.

2 - يتفق التوراة والقرآن على قيادة موسى عليه السلام لهذا الخروج.

3 - يتفق التوراة والقرآن على مكان الهروب وهو صحراء سيناء.

4 - يتفق التوراة والقرآن على أحداث كثيرة صغيرة وكبيرة نوردها في السياق.

أما الاختلافات فسنجدها أيضا من خلال المقارنة الدقيقة وذلك بهدف كشف الحقائق المادية أو الاجتماعية أو العقيدية المرتبطة ببني إسرائيل.

يبدأ سفر الخروج بالحديث عن موسى بعد تمهيد قصير يتحدث عن أسماء بني إسرائيل الذين جاؤوا إلى مصر عندما كان يوسف هناك وتقول التوراة إن عدد أبناء يعقوب كان سبعين نفسا وترى أن جميع ذلك الجيل قد مات (وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرا جدا وامتلأت الأرض منهم).

وتنتقل التوراة للحديث عن مجيء فرعون جديد لم يكن يعرف يوسف فاضطهد بني إسرائيل واستعبدهم وتتعرض للحديث عن قتله لأطفالهم منذ المقطع 15 - وحتى المقطع 22.

أما الإصحاح الثاني فيبدأ بالحديث عن زواج رجل لاوي من بنت لاوي ثم ولدت هذه الزوجة وأنجبت موسى. (ولما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر. ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد أخذت له سفطا من البردي وطلته بالحمر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به) المقطع 3 ـ 4.

يقول تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين. فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا. إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين. وقالت إمرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولد وهم لا يشعرون) سورة القصص 7 ـ 9.

فالقصة كما وردت كحدث مجرد تتلخص بأن أم موسى ألقت طفلها في اليم (النهر الكبير ـ أو البحر) وهي تضعه في صندوق خشبي. أما القصة من حيث ظلالها وصلة الحدث بالأمر الرباني فهناك اختلاف جذري في الأسباب والنتائج.

وهنا تكمن دقة القرآن في وصف الحادثة وظلالها. فموسى عليه السلام مختار من الله سبحانه بأمر إلهي مسبق. وحتى تكون المعجزة أوحى الله لأم موسى. والوحي هنا إرشاد لمعرفة الفعل الذي تقوم به لإنقاذ طفلها. لقد أوحى الله لها أن ترضعه ولا تخشى فرعون وجنوده ثم بعد إرضاعه أوحي لها أن تلقي به في اليم. خوفا عليه. فكيف يطلب الوحي من إنسان كي ينقذ طفله أن يلقيه في خضم نهر كبير أو بحر؟ وعلى مقياسنا البشري فإن الظاهر يقول لنا إن من يريد أن ينقذ طفله من الموت عليه أن يخفيه أو يبعده عن الخطر. لكن الوحي قال لها ألقيه في هذا الخطر ولا تخافي ولا تحزني. وقد استجابت لنداء

الوحي لأنها مؤمنة بالله أشد الإيمان ولو كانت امرأة عادية لما قامت بما أمرها الله سبحانه.

وألقي موسى في اليم لغاية أرادها الله ووضحها في كتابه الكريم. فقال تعالى لأمه إنا رادوه إليك ثم إنا جاعلوه من المرسلين. فاطمأنت الأم بأن الله سبحانه سيعيده إليها ثم سيكون يوما من خيرة الناس حيث سيكون مختارا من الله نبيا ورسولا.

ويلتقطه آل فرعون وهم لا يشعرون أنه سيكون عدوا لهم وسيكون أحد أسباب انهزامهم واندحارهم وغرق فرعون وجنوده.

دورة غريبة على العقل البشري. فرعون يقتل أطفال بني إسرائيل. وموسى طفل منهم وينجيه الله بأسلوب يدهش العقل حيث يلقى في أحضان العدو القاتل لكن الله يريد غير ما يريده البشر وإرادته هي النافذة.

هذا هو الفارق الجوهري بين ما ذكرته التوراة وما ذكره القرآن الكريم وهو فارق له قيمته الكبرى في دراسات الأديان المقارنة الخاصة باليهودية والإسلام.

ويقع الخلاف بين ما ذكرته التوراة وما ذكره القرآن الكريم حول المرأة التي التقطته فالتوراة ترى أن ابنة فرعون هي التي التقطته تقول التوراة في الإصحاح الثاني من سفر الخروج (فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته.. ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابنا ودعت اسمه موسى وقالت إني انتشلته من الماء).

أما القرآن الكريم فيحدد أن التي انتشلته من الماء هي امرأة فرعون يقول تعالى (وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك). والواضح أن امرأة فرعون فرحت بالطفل فرحا شديدا فاعتبرته قرة عين لها لأنها كانت عاقرا. ولو كان لديها

أولاد لما قالت قرة عين لي.

والأقرب إلى المنطق العقلي أن التي التقطت موسى هي امرأة فرعون وليست ابنته لأن المرأة المتزوجة والعاقر هي التي تجد في هذا الطفل منى لقلبها. وليست للبنت مصلحة في هذا الطفل لأنها لا تدري معنى للأمومة وهي ما زالت بنتا لم تكن تدرك بشعورها وبإحساسها معنى لاحتضان هذا الطفل.

يقول ابن كثير (وعند أهل الكتاب أن التي التقطت موسى (دربته) ابنة فرعون وليس لامرأته ذكر بالكلية وهذا من غلطهم على كتاب الله عز وجل)[1].

ثم تتحدث التوراة عن موسى وقد صار شابا (وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى أخوته لينظر في أثقالهم فرأى رجلا مصريا يضرب رجلا عبرانيا من إخوته فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحد فقتل المصري وطمره في الرمل) الإصحاح الثاني من سفر الخروج 11 ـ 12 ـ 13.

وأورد القرآن الكريم قصة قتل موسى للرجل على النحو التالي:

يقول تعالى: (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين. ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه. قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين. قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين) سورة القصص رقم الآيات 14 ـ 17.

ففي الإطار العام نرى قصة واحدة أو حادثة بعينها توردها التوراة ويوردها القرآن. ثم يتفقان على أن موسى هرب على إثر الحادثة من مصر واتجه نحو مدين وأقام بها مدة.

---

(1) ابن كثير قصص الأنبياء صفحة 270.

على أن ذلك لا ينفي الاختلاف في الأسباب. ففي التوراة قتل موسى تعصبا لبني جنسه دون أن يطلب منه. ثم تقول إنه دفن المصري في الرمل.

بينما يقول القرآن الكريم إنه قتله في المدينة وكان الناس في غفلة ثم إنه لم يقدم على وكز الرجل إلا بعد أن استغاث به الرجل الآخر. والاستغاثة تظهر أن المستغيث ضعيف لا يقدر أن يصمد أمام خصمه. ثم إن القرآن الكريم يقول باللفظ وكزه والوكز لا يقتل. مهما كان قويا وهذا أيضا دليل على أن موسى لم يرد القتل بقدر ما كان يريد الردع لأنه لا يعرف ولا يدرك أن وكزته ستؤدي إلى قتل الرجل.

أما فيما يتعلق بهروب موسى إلى أرض مدين فقد تحدثنا عنه عند حديثنا عن النبي شعيب عليه السلام أو الرجل الصالح الذي صاهر موسى.

ونتابع رحلة نبي الله موسى. فعندما ذهب ومعه زوجته يلتمس الطريق ويلتمس النار حتى يقي نفسه وزوجه البرد. ظهر له ملاك الرب. وبلغ أنه في مكان مقدس وعليه أن يخلع نعليه.

وهذا ما ورد في التوراة وما ورد في القرآن الكريم ولا كثير اختلاف بينهما.

يرد في التوراة في الإصحاح الثالث (فقال لا تقترب إلى ههنا إخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة) 4 ـ 5 (ثم قال أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله) 6 ـ 7.

ويأتي في القرآن الكريم قوله تعالى: (يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى) سورة طه 17 ـ 18.

والذي يلفت النظر ههنا قول التوراة فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله. والجملة تفيد أن الله كان حاضرا بشكل تجسيمي أو مجسم

وخاف موسى أن ينظر إليه. والصحيح أن موسى نودي من قبل الله سبحانه. ولكن لا حدود لهذا النداء الرباني إنما هناك علامة لنور الله الذي ليس له حدود. وهو ما أشارت إليه الآيات الكريمة في قوله تعالى: (فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين) القصص 30. ويلفت النظر في الآية العلاقة بين الفعل نودي. وبين أن يا موسى إني... فإن مفسرة - أن يا موسى مفسر للفعل نودي.

وقد ذكر المهدوي: كلم الله تعالى موسى من فوق عرشه وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالانتقال والزوال وشبه ذلك من صفات المخلوقين.

وقال أبو المعالي: وأهل المعاني وأهل الحق يقولون: من كلمه الله تعالى وخصه بالرتبة العليا والغاية القصوى فيدرك كلامه القديم المقدس عن مشابهة الحروف والأصوات والعبارات والنغمات وضروب اللغات كما أن من خصه الله بمنازل الكرامات وأكمل عليه نعمته ورزقه رؤيته يرى الله منزها عن مماثلة الأجسام وأحكام الحوادث ولا مثل له سبحانه في ذاته وصفاته[1] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عباس رضي الله عنهم في قوله نودي من شاطئ الواد الأيمن قال: كان النداء من السماء الدنيا[2].

وقد كان خوف موسى ليس بسبب عدم قدرته على تحمل رؤية الله سبحانه كما ذكرت التوراة إنما بسبب الدهشة التي أصابته حين رأى النار في الشجرة والشجرة خضراء لا تحترق.

---

(1) القرطبي. نقلا عن كتاب تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه. محمد علي طه الدره مجلد 10 ص 488.

(2) السيوطي. الدر المنثور في التفسير المأثور المجلد 5. صفحة 242.

قيل إن موسى لما رأى النار في الشجرة الخضراء علم أنه لا يقدر على الجمع بين النار وخضرة الشجرة إلا الله تعالى فعلم بذلك أن المتكلم هو الله تعالى وأن ذلك الكلام كلام الله تعالى[1].

وتتفق التوراة والقرآن فيما كان عليه حال موسى من استثقال لسانه ومعونة أخيه هارون حين أمره الله سبحانه أن يذهب إلى فرعون ويدعوا للتوحيد ورفع الظلم عن بني إسرائيل.

لكن الذي يستوقف هنا قول التوراة (وهو يكون لك فما وأنت تكون له إلها) الإصحاح الرابع 17.

وقولها: (فتقول لفرعون هكذا يقول الرب إسرائيل ابني البكر فقلت لك أطلق ابني ليعبدني فأبيت أن تطلقه ها أنا اقتل ابنك البكر) الإصحاح 4 ـ 22 ـ 23.

ففي الجملة الأولى هناك تصريح لا تأويل له. تكون له إلها. فما المقصود بذلك سوى ما يفهمه أي قارئ لهذه الجملة.

أما في الجمل التالية فإن التوراة تصرح أن أبناء إسرائيل هم أبناء الله. وفي الحالتين فإن تصريح التوراة بهذه الألفاظ ليس سوى شاهد واضح على الإشراك بالله.

مهمة النبي موسى:

يوضح الإصحاح الخامس وما بعده من سفر الخروج المهمة الأساسية التي كلف بها موسى من قبل الله (هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليعيدوا

(1) محمد الدرة. تفسير القرآن الكريم إعرابه وبيانه ص 488. مجلد 10.

لي في البرية فقال فرعون من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه فقالا: إله العبرانيين قد التقانا) 1 ـ 2 ـ 3.

وفي الإصحاح السادي يرد: (ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء وأما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم وأيضا أقمت معهم عهدي أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي تغربوا فيها) 2 ـ 5.

وفي الإصحاح نفسه أي السادس يعود الحديث عن أمر الرب لموسى بأن يذهب إلى فرعون ليطلق سراح بني إسرائيل. ويعترف موسى للرب أن بني إسرائيل لم يسمعوا كلامه وكاد أن يملهم لما لاقاه من العناد عندهم.

فالمهمة التي أوكل إليها موسى هي إنقاذ بني إسرائيل مما حاق بهم من العذاب على يد فرعون وجنوده ومن ثم تنفيذ وعد الرب بمنحهم أرض كنعان ميراثا لهم ولأبنائهم وأحفادهم من بعدهم.

أما في القرآن الكريم فتتشعب المهمة وتتنوع أهدافها وغاياتها.

فموسى عليه السلام مختار من قبل الله. (وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) طه 13.

وأول ما طلبه الله سبحانه منه أن يوحده ويعبده ويقيم الصلاة لذكره (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري)طه 14.

وربط إيمان موسى بالله بالإيمان باليوم الآخر (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزي كل نفس بما تسعى) طه 15.

وبعد ذلك كله يطلب الله سبحانه من موسى أن يذهب إلى أكبر طاغية في ذلك العصر وهو فرعون مصر (اذهب إلى فرعون إنه طغى) طه 24.

(اذهبا إلى فرعون إنه طغى) طه 43.

(ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا) سورة الفرقان 35 ـ 36.

وقال تعالى: (هل أتاك حديث موسى إذ نادى ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى) النازعات 15 ـ 19.

فالمهمة التي كلف بها موسى متشعبة الأوجه وباعتباره مصطفى من قبل الله سبحانه لتبليغ الرسالة فقد كانت هذه المهمة تهدف إلى هداية القوم المشركين وعلى رأسهم فرعون. وتهدف فيما تهدف إلى رفع الظلم الذي أحيط ببني إسرائيل ومن ثم إخراجهم من أرض مصر.

اما التوراة فتركز على إخراج بني إسرائيل من مصر دون سواه. وتظهر أن الرب الذي بعث موسى هو رب بني إسرائيل وحدهم. ثم تقحم وعد هذا الرب لهم بمنحهم أرض كنعان ميراثا لهم ولأبنائهم. والآيات القرآنية الكريمة تذكر طغيان فرعون بشكل مكرر.وهذا الطغيان ليس اضطهاد بني إسرائيل إنما هو الادعاء بالربوبية وعدم الاعتراف بالله الخالق.

وهذا ما سنراه من خلال الحوار الذي يدور بين النبي موسى عليه السلام وبين فرعون فهو حوار قائم على المناقشة في ماهية الرب الذي نادى موسى لعبادته والذي ينكره فرعون.

يقول تعالى: (إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى. قال فمن ربكما يا موسى. قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. قال فما بال القرون الأولى. قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينس. الذي جعل لكم الأرض مهادا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به

أزواجا من نبات شتى. كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى. منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) سورة طه 48 ـ 55.

ويقول تعالى: (قال فرعون وما رب العالمين. قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون. قال ربكم ورب آبائكم الأولين. قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون. قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) الشعراء 23 ـ 28.

ولعلنا نرى أن دعوة فرعون للتوحيد هي الهدف الأول الذي أرسل موسى لأجله. أما دعوة موسى فرعون لرفع الظلم عن بني إسرائيل فهو هدف لاحق. أو أنه يأتي في المقام الثاني من مهمة هذا النبي وأعتقد أن فرعون لو لبى نداء موسى وآمن بما دعا له لما كانت هناك مشكلة بالنسبة لبني إسرائيل فالمؤمن لا يظلم وفرعون لو آمن لانتهت مشكلة بني إسرائيل دون أية معوقات.

وقد اعتبر عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء أن محور رسالة موسى والغرض الأول المقصود بها هو إطلاق بني إسرائيل[1].

وحقيقة الأمر أن مهمة أي نبي من أنبياء الله تبتدئ بالدعوة إلى التوحيد وعدم الإشراك بالله. وتأتي الأمور الأخرى مسببات أو ملحقات تدعم الموقف الذي يقفه الأنبياء، ولو نظرنا إلى حياة النبي موسى وكفاحه بين بني إسرائيل لأدركنا أن مهمته ليست إخراجهم من ظلم فرعون بل إدخالهم في العقيدة التوحيدية وإبعادهم عن الوثنية والشرك.

ويذكر القرآن الكريم أن فرعون ظل على جبروته وعناده، وحتى يبرر موقفه أمام حاشيته طلب من هامان وزيره أن يبني له صرحا ليصعد إليه ويتحدى إله موسى وعلى الرغم من ذلك فهو يعلم أنه لن يبلغ السماء مهما بنى

(1) عبد الوهاب النجار. قصص الأنبياء ص 227.

من بنيان لكنه أراد أن يخرج من مأزقه حينما بين له موسى عليه السلام سمات الله خالق السماوات والأرض ومنبت الزرع... الخ.. وقصة بناء الصرح أو الأمر الذي أصدره فرعون ببناء الصرح لم يرد في التوراة على الإطلاق.

وتذكر التوراة قصة تحدي موسى عليه السلام للسحرة الذين استقدمهم فرعون من جميع أطراف بلاده فتقول: (وكلم الرب موسى وهارون قائلا إذا كلمكما فرعون قائلا هاتيا عجيبة تقول لهارون خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعبانا فدخل موسى وهارون إلى فرعون وفعلا هكذا كما أمر الرب. طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعبانا. فدعا أيضا الحكماء والسحرة ففعل عرافو مصر أيضا بسحرهم كذلك. طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب) خروج إصحاح7.

وتنتهي قصة هذا التحدي بهذا الشكل الذي لا تتوضح فيه نتائجه ومجريات أحداثه.

لقد ذكر القرآن الكريم قصة التحدي في أكثر من موضع وهذا ما يجعلها حدثا فاصلا في مسيرة كفاح النبي موسى عليه السلام.

ذكرت قصة التحدي في سورة الأعراف من الآية 106 ـ 126 وذكرت في سورة يونس من الآية 75 ـ 89 وفي سورة طه من الآية 57 ـ 76 وفي سورة الشعراء من الآية 29 ـ 51.

يقول تعالى (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين. فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين. قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولايفلح الساحرون. قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين. وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليهم. فلما جاء السحرة قال لهم

موسى ألقوا ما أنتم ملقون. فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين. ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون. فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين. وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين. فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) 75 ـ 86 سورة يونس.

ويقول تعالى: (قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى. قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى. فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى. قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى. فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى. قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى. فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى. قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى. قال بل ألقوا فإذا حبا لهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى. قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى. قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى. قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) طه 57 ـ 73.

فقصة هذا التحدي قصة متكاملة ويترتب عليها ونتائجها أمور تتعلق بالسحر وأمور تتعلق بالسحرة.

ففي التوراة ينسب سفر الخروج العصا لهارون أخي موسى (ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم). والعصا في القرآن الكريم تنسب لموسى لأنه صاحب الشأن الأول في جدال فرعون. أما بالنسبة للسحر فكان في عصر فرعون علما له شأنه والذي يفرق ما بين سحر السحرة وعصا موسى قدرة الله سبحانه على المعجزة. لقد ألقى السحرة حبالهم وعصيهم فانقلبت خادعة أعين الناس إلى ثعابين وعندما ألقى موسى عصاه تحولت إلى ثعبان حقيقة وليس سحرا والذي يؤكد ذلك أن السحرة يعرفون صنعتهم بالسحر ويميزون بينه وبين الحقيقة. فلما ابتلع ثعبان موسى ثعابينهم المزيفة أدرك السحرة أن هذا معجزة ربانية وليست سحرا فآمنوا بل خروا ساجدين معترفين بعجزهم أمام الحقيقة الربانية.

ولم تميز التوراة بين فعل موسى وفعل السحرة ولم تنسب الفعل الذي حدث إلى معجزة إلهية إنما جاء الخبر خاليا من كل بعد إلهي سوى الأمر الذي ألقاه الرب على موسى وهارون أما بالنسبة للسحرة فإن مجريات الأمور تقول لنا إن موسى عليه السلام عندما خرج من مصر إلى سيناء أخذ معه بني إسرائيل ومن آمن معه. وكان السحرة ممن هرب مع موسى.

فهل كان السحرة من بني إسرائيل أم من المصريين؟ واقع الأمر يقول إنهم من المصريين حيث جمعهم فرعون من كافة بلاده وهذا حسب نص التوراة وحسب نص القرآن الكريم. وهذا يعني أن من دخل سيناء كان خليطا من الناس الإسرائيليين والمصريين. فلا يمكن الموافقة على ما يقوله اليهود بالنسبة لنقاء العرق اليهودي وصفائه.

وحين رفض فرعون الإيمان وظل على عناده على الرغم من رؤيته معجزة العصا وفشل السحرة أرسل الله سبحانه لموسى تسع آيات بينات منها ما ارتبط بقصة التحدي لفرعون ومنها ما يخص بني إسرائيل.

يقول تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا) الإسراء الآية 101.

وقد أورد القرآن الكريم ذكر الآيات البينات في عدة مواقع.

ففي سورة الأعراف (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) الأعراف 130.

(فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) الأعراف 133.

وفي سورة طه: (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) طه 56.

ووردت أيضا في سورة النمل الآية 13 ـ 14 وفي سورة القصص 36 ـ 37 وفي سورة الزخرف 46 ـ 50 وفي سورة القمر 41 ـ 42 وفي سورة النازعات 20 ـ 21.

وذكرت التوراة الآيات التي جاء بها موسى إلى فرعون وملئه وجعلتها اثنتي عشرة آية وقد وردت في سفر الخروج الإصحاح 14 ـ الإصحاح 8 ـ الإصحاح 9 ـ الإصحاح 10 الإصحاح 11.

غير أن الذي يلفت النظر فيما ورد في التوراة أن نهر النيل ينقلب ماؤه دما لمدة سبعة أيام وموت السمك في النهر ونتن مائه. وصعود الضفادع من النهر إلى أرض مصر حتى غطت الأرض وتفشى الوباء في مواشي المصريين من الخيل والحمير والبقر والجمال والغنم. ونزول البرد العظيم يهلك ما أصاب من المواشي والناس وإظلام أرض مصر ثلاثة أيام. وموت كل بكر من الناس والبهائم في مصر.

فإذا كان الوباء قد قتل ما لفرعون وأهل مصر من الحيوانات فمعنى ذلك أنه لم يبق لديهم شيء من هذه الحيوانات. وحسب النص التوراتي فإن جميع الدواب هلكت وهذا يعني أيضاً أن دواب بني إسرائيل لحقها الهلاك. لكن التوراة تورد أن مواشي بني إسرائيل لم تهلك ! ! .

وفي قصة قلب الماء دماً فضيحة أخرى ظاهرة الكذب وهي أن في نص الكلام الذي يزعمونه التوراة (ثم قال السيد لموسى قل لهارون مد يدك بالعصا على مياه مصر وأنهارها وأوديتها ومروجها وجناتها لتعود دماً وتصير ماء في آنية التراب والخشب دماً. ففعل موسى وهارون كل ما أمرهما به السيد إلى قوله وصار الماء في جميع أرض مصر دماً ففعل مثل ذلك سحرة مصر بسحرهم واشتد قلب فرعون ولم يسمع لهما على حال). هذا نص حالهم فأخبر أن كل ماء كان بمصر صار دماً فأي ماء بقي حتى يقلبه السحرة دماً كما فعل موسى وهارون[1].

ولو تم فعلاً قلب الماء دماً لمدة سبعة أيام فكيف عاش الناس ومنهم بنو إسرائيل مدة سبعة أيام بالعطش دون ماء؟ ثم كيف صبر موسى وهارون على العطش مدة سبعة أيام؟ لكن التوراة تورد أن المصريين حفروا حوالي النهر لأجل ماء ليشربوا لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر. فهذا مدعاة لعدم تصديق النص التوراتي. لأن المدة هنا غير محددة على اعتبار أن القصد من وراء ذلك إظهار المعجزة أو الآية التي تبين قدرة الله الذي لا يريد فرعون أن يؤمن به. فالقرآن الكريم لم يحدد وقتاً، إنما طرح معجزة أو علامة. وقد لا يدوم زمن وقتها كثيراً لأن القصد اقناع فرعون وقومه وليس قتلهم أو إماتتهم عطشاً وإلا لو كان القصد إماتتهم لأماتهم الله جميعهم وأنقذ موسى وقومه دون أية عقبات تذكر.

---

(1) ابن حزم الظاهري الأندلسي، الفصل بين الملل والأهواء والنحل صفحة 250 المجلد الأول.

ثم عندما تذكر التوراة أن أرض مصر أظلمت ثلاثة أيام قالت إن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم خلال هذه الظلمة المستمرة ثلاثة أيام. ولو كان الأمر حدث فعلاً لجرى للمخلوقات بما فيها البشر وضمن هؤلاء موسى وهارون ما لا يساعدهم على البقاء، لأن الإنسان أو أي مخلوق حي يحتاج لأشعة الشمس وحرارتها حتى يتابع حياته. ولو افترضنا أن ذلك حدث فعلاً فإن أي عاقل يسأل كم من الممكن أن تصبح درجة الحرارة إذا استمرت ظلمة ما بشكل متواصل مدة ثلاثة أيام؟ وهل تحتمل المخلوقات بما فيها البشر درجة حرارة منخفضة جداً ولا تتعرض لأمراض فتاكة أو موتٍ مؤكد؟ وكل الأسئلة جائزة إلا إذا كان في الأمر معجزة.

بعد هذه الحوادث أمر الله موسى أن يهرب من مصر ومعه بنو إسرائيل. فقال تعالى: (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى) طه الآية 77.

أما التوراة فإنها ترى أن فرعون هو الذي أذن لموسى بالرحيل وتتحدث عن قصة أخذ الإسرائيليين أمتعة من ذهب وفضة من المصريين. (طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين. فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ست مئة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد)36 ـ 37 ـ 38.

(وقال الرب لموسى وهارون هذه فريضة الفصح. كل ابن غريب لا يأكل منه. ولكن كل عبد مبتاع بفضة تختنه ثم يأكل منه. النزيل والأجير لا يأكلان منه) الإصحاح الثاني عشر 43 ـ 44 ـ 45 ـ 46.

فالقرآن الكريم يورد حادثة هرب بني إسرائيل بأمر من الله سبحانه. وهذه الحادثة تأتي زمنياً بعد الجدال الطويل الذي جرى بين النبي موسى وبين فرعون.

غير أن التوراة تورد حوادث وأموراً قبل الحديث عن العبور. وما ورد يستحق التوقف والمناقشة. ترى التوراة أن الرب أمر الإسرائيليين بسرقة المصريين عن طريق الحيلة. فهذه الحادثة فيها عدة وجوه.

1 ـ إذا كان الرب قد أمر بني إسرائيل فعلاً بسرقة المصريين فإن هذا يعني أن الرب نفسه يبيح السرقة وهذا منافٍ لطبيعة أوامر الله. والذي نراه أن كاتب التوراة أدخل هذه الحادثة بقصد. وقد لا تكون حدثت فعلاً. لأن الصراع بين العبرانيين والمصريين كان على أشده والإسرائيليون مهددون في أي لحظة. من قبل فرعون وشعبه، فكيف تسنى للإسرائيليين وهم حسب قول التوراة أكثر من نصف مليون إنسان أن يسلبوا المصريين أواني الذهب والفضة ثم يرحلوا وهم يحملونها باتجاه البحر ومن ثم سيناء. ثم هل لديهم الوقت الكافي كي يستعيروا هذه الأواني الفضية والذهبية وهم متأهبون للهروب خائفون من فشلهم؟

2 ـ ما الغاية من سرقة المصريين أوانيهم؟ هل ليثبت الإسرائيليون أنهم قادرون على خداع المصريين أم ليدللوا على أنفسهم أنهم ذوو رغبة جامحة في اقتناء الذهب والفضة؟ ثم ما الوجه القانوني الذي يبيح لهم سرقة مثل هذه الأشياء. لقد نصت التوراة حرفياً على السرقة وفعل السلب (حتى أعاروهم فسلبوا المصريين).

3 ـ إذا كانت الحادثة حدثت فعلاً فإنها تدلل على أن بني إسرائيل وقائدهم موسى ذوو ميول عدوانية منذ بدء حياتهم.

أما الذي نراه أن موسى عليه السلام لم يأمرهم بسرقة المصريين، وكان هدفه الأساسي إخراج قومه وبأقصى سرعة من مصر ليتخلصوا من ظلم فرعون.

وإذا كانت التوراة ترى كما نصت أن الرب أعطى نعمة للشعب في عيون المصريين حتى يعيروهم الأمتعة. فإن ذلك أيضاً يؤكد أن الرب ساعدهم حتى في الوسيلة غير الشرعية ليحصلوا على هدف غير شرعي.

أما قول التوراة بأن بني إسرائيل بلغ عددهم عندما ارتحلوا ستمائة ألف راجل ما عدا الأولاد. فإن التوراة نصت سابقاً أن الذين دخلوا مصر من أبناء يعقوب وأحفاده بلغوا بضعاً وسبعين فرداً. وإذا افترضنا أنهم فعلاً مكثوا أربعمائة سنة في مصر (وهذا أيضاً رقم مرفوض) فإنهم لن يبلغوا هذا العدد الخيالي ستمائة ألف إنسان عدا الأولاد. ولنفترض أن من بين كل ستة أشخاص شخصاً يحمل ولداً أو يجره فإن عدد الأولاد سيبلغ مائة ألف وهذا يعني أن المجموع بلغ سبعمائة ألف إنسان وعلى ذلك نسأل كم عدد المصريين آنذاك؟

كم استغرق تجميع هذه الأعداد الهائلة حتى يسيروا مسيراً واحداً نحو البحر وسيناء؟ ألا يمكن لهذه الأعداد الهائلة منهم أن تقف في وجه فرعون وتقوم بثورة إذا ما ظلمت. ثم إن نص التوراة يؤكد أن الذين هربوا مع موسى لم يكونوا من بني إسرائيل فحسب إنما كان معه العبيد والأجراء والنزلاء.

ومن التناقض في ذلك أن بني إسرائيل أنفسهم كانوا مستعبدين فكيف كان لديهم عبيد وأجراء ونزلاء؟

ثم إن السحرة الذين هم ليسوا من بني إسرائيل آمنوا بموسى وبرب موسى واتبعوه في هروبه. على أية حال وعلى الرغم من أن أعداد الذين هربوا مع موسى لم يكونوا بهذا الحجم إلا أنهم كانوا خليطاً من البشر. منهم أعداد من بني إسرائيل ومنهم السحرة ومنهم آخرون من الفقراء والمظلومين أما حادثة عبورهم بالبحر فهي واردة في التوراة كما هي واردة في القرآن الكريم. والواسطة كانت عصا موسى إلا أن التوراة تقول: هبت ريح قوية أزاحت المياه عن مكانها بينما في القرآن الكريم ظلت في نطاق المعجزة الإلهية.

ولو لاحظنا ما في الآيات القرآنية من بيان لوجدنا أنه يرشدنا إلى جميع القضايا السابقة بأسلوب واضح جلي.

فقوله تعالى: (فأرسل فرعون في المدائن حاشرين إن هؤلاء شرذمة قليلون) يدل على أن بني إسرائيل لم يكونوا كثيري العدد حسب ما تزعم التوراة. ولو كانوا كذلك لما استهان بهم فرعون ووصفهم بالشرذمة.

بنو إسرائيل في سيناء:

يشغل وجود بني إسرائيل ومن هرب معهم من مصر في صحراء سيناء حيزاً واسعاً في التوراة والقرآن. ولعل جميع ما شرعه موسى لهم كان أثناء وجودهم في هذه الصحراء. ويتفق القرآن والتوراة في معظم الخطوط العامة لحياة بني إسرائيل في الصحراء.

غير أننا نرى في التوراة أموراً يجب التوقف عندها قبل الحديث عن مجريات الأمور في صحراء سيناء.

أولاً: تقول التوراة: (وأخذ موسى عظام يوسف معه لأنه كان استحلف بني إسرائيل بحلف قائلاً إن الله سيفتقدكم فتصعدون عظامي من هنا معكم) خروج الإصحاح الثالث عشر 18 ـ 19.

وكانت التوراة قد قالت في آخر جملة من سفر التكوين (ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين فحنطوه ووضع في تابوت في مصر).

فمعلوم أن المكتشفات العلمية المتخصصة بالفراعنة وبالتحنيط بالذات أقرت بأن التحنيط يبقي على الجثة البشرية مدة طويلة من الزمن قد تصل ألفي عام أو أكثر. وهناك في متحف لندن والمتاحف المصرية بضع جثث محنطة لبعض الفراعنة وتقوم إلى الآن عليها دراسات علمية تشريحية.

فإذا كان يوسف قد حُنِّط فعلاً فالمفترض أن تبقى جثته سليمة إلى حد كبير لأنه لا يفصل بين موته وخروج بني إسرائيل أكثر من مائتي سنة على أكثر تقدير.

وقد سبق أن أشارت التوراة إلى أن يوسف أمر بتحنيط جثة أبيه النبي يعقوب عندما مات في مصر وذكرت أن مدة تحنيط جثته استمرت أربعين يوماً ثم وضعت في تابوت ونقلت إلى الخليل لتدفن هناك.

ولم يورد القرآن الكريم شيئاً عن وفاة يوسف أو تحنيط جثته أو حتى نقل رفاته إلى فلسطين من مصر.

ثانياً: وتقول التوراة في آخر الإصحاح الثالث عشر من سفر الخروج: (وكان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلاً في عمود نار ليضيء لهم ليمشوا نهاراً وليلاً. لم يبرح عمود السحاب نهاراً وعمود النار ليلاً من أمام الشعب).

فهذا النص يشير إلى تجسيد واضح للإله. وهل يعجز الله أن يهديهم بأسلوب آخر كأن يرسل ملكاً يتحمل مسؤولية هدايتهم إلى الطريق؟ أو أن يسخر لهم عمود نار أو دخان يدلهم السبيل؟ ألا يصح مسيرهم إلا إذا كان الرب يسير أمامهم في الليل والنهار؟.

يقول تعالى في كتابه العزيز: (قال أصحاب موسى إنا لمدركون. قال كلا إن معي ربي سيهدين) الشعراء 61 ـ 62.

ومعنى الهداية هنا أن الله سبحانه سيساعدهم في الطريق.

يقول ابن كثير: (وكانوا يسيرون في النهار والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عمود نور. والليل أمامهم عمود نار فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هناك)[1].

ثالثاً: وتقول التوراة في الإصحاح الخامس عشر: (من مثلك بين الآلهة يا رب) فهذا النص يؤكد إيمان بني إسرائيل بأن هناك آلهة أخرى غير الإله الذي أنقذهم من فرعون وظلمه وسار معهم يهديهم الطريق على شكل عمود من دخان وعمود من نار في الليل والنهار.

رابعاً: تقول التوراة في الإصحاح الخامس عشر (يسمع الشعوب فيرتعدون تأخذ الرعدة سكان فلسطين حينئذ يندهش أمراء أدوم، أقوياء موآب تأخذهم الرجفة. يذوب جميع سكان كنعان. تقع عليهم الرهبة والرعب، بعظمة ذراعك يصمتون كالحجر حتى يعبر شعبك يا رب).

وهذا النص يوضح تماماً أنه وضع بعد موسى بمئات السنين. لأن مجريات الأحداث تقول إن موسى وقومه كانوا يترجون الله أن ينقذهم من فرعون ويهربون. فما الذي جعل موسى وبني إسرائيل يأتون على ذكر الأدوميين والمؤابيين والفلسطينيين والكنعانيين أليس هذا مدعاة للقول إن بني إسرائيل بعد أن سباهم البابليون صنعوا هذه الكتابات ليربطوا القضايا الدينية بالقضايا السياسية التي استجدت والتي لم يكن لموسى شأن فيها؟ وإلا لماذا يحب موسى أن يرتعب هذا الشعب وهذا الشعب وهو لا يرتبط بهم بأية علاقة جغرافية أو سياسية أو حتى اجتماعية؟.

ثم ما هذه المفاجأة التي أوحت لموسى أن يذكر هذه الشعوب وهو لم يذكرها سابقاً أو يتذكرها؟ إن كان هناك مدعاة للتذكر.

---

(1) ابن كثير قصص الأنبياء صفحة 322.

ويستطيع المرء أن يلحظ أن مهمة موسى وبني إسرائيل في التوراة بدأت تنقلب في توجهاتها وأهدافها وهذا ما ستؤكده الأحداث التالية في تاريخ بني إسرائيل.

وتتابع الأحداث فيدخل بنو إسرائيل سيناء ويتذمرون على موسى وهارون لقلة الماء والأكل فدعا موسى ربه أن يكفيهم حاجاتهم فبعث لهم الله المن والسلوى وهذا ما جاء في التوراة في الإصحاح السادس عشر وأكده القرآن الكريم فلا خلاف حول هذه المسائل.

وعندما استقر بهم المقام في سيناء ذهب موسى لميقات ربه ليتلقى تعاليم الشريعة من قبل وحي الله عز وجل. وقد غاب موسى عن قومه ثلاثين يوماً وأتبعها بعشر ليال ثم تلقى رسالة السماء.

يقول تعالى: (قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيك وكن من الشاكرين وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين) الأعراف الآيتان 144 ـ 145.

وترد تفاصيل كثيرة عن ذهاب موسى لربه عند جبل (حوريب) في سبناء وذلك في الإصحاح 19 والإصحاح 20 من سفر الخروج. **وهذه التفاصيل تجسد الله** بشكل فج وتحدده.

تقول التوراة: (فقال الرب لموسى ها أنا إليك في ظلام السحاب) مقطع 9.

(لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء) مقطع 11.

(وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله) **مقطع** 17.

(وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه) مقطع 18.

(نزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل) مقطع 20.

ويقول تعالى: (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تُبت إليك وأنا أول المؤمنين) الأعراف 143.

ففي المقاطع التوراتية نرى تجسيداً واضحاً للرب لأن الشعب حسب قولها سوف ينزل على الجبل فيراه موسى وكافة أفراد الشعب. وتكرار الحديث في عدة مقاطع عن نزول الله على الجبل يؤكد تحريف التوراة التي نزلت على موسى. لأن الله سبحانه لم يتجسد لموسى ولا لقومه.

ولو نظرنا إلى الآية القرآنية الكريمة السابقة لأدركنا صحة الحدث كما حصل فعلاً. فالله سبحانه لم يتجسد ولم يهبط من أعاليه على الجبل كما قالت التوراة، فالذي حدث أن موسى طلب رؤية ربه فقال له الله إن رأيت الجبل مستقراً فإنك ستراني فنظر موسى ينتظر لكن الله تجلت قدرته على الجبل فدُك دكاً ولهول ما أرى موسى من دك الجبل خر صعقاً مغشياً عليه فلما أفاق استغفر ربه لما بدر منه من التمادي وتجاوز الحدود.

وعلى ذلك فإن موسى لم ير الله سبحانه وإنما سمع نداء الله ليبلغه رسالة السماء. فإذا كان الذي حدث مع موسى قد صعقه فكيف إذا رأى الشعب كله الله، وهم ليسوا أنبياء مهيئين لحمل رسالة السماء كما هو موسى عليه السلام.

وفي غياب موسى لتلقي الرسالة انقلب قومه على ديانة التوحيد وصنعوا عجلاً وراحوا يعبدونه حتى عاد موسى. وهذا ما صرح به القرآن الكريم وصرحت به التوراة. لكننا سنجد اختلافاً كبيراً بينهما.

ففي القرآن الكريم يقول تعالى: (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين) الأعراف 148.

ويقول تعالى: (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال يا بن أمَّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين) الأعراف 150.

ويقول تعالى: (ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) سورة طه 90 ـ 91.

وتقول التوراة في سفر الخروج الإصحاح الثاني والثلاثين: (ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً فقالوا هذه إلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر).

فالفرق الذي نراه أن التوراة تقول إن هارون أخا موسى استجاب لطلبهم وصنع لهم العجل والحقيقة القرآنية ترى أن السامري هو الذي صنع العجل بينما حاول هارون أن يثنيه ويثنيهم عن صنع العجل لكنهم أبوا وهددوا بقتله إن هو عارضهم أو قاومهم والآية القرآنية تصرح بذلك كما مر معنا (إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني).

وهارون كما صرح القرآن الكريم نبيٌّ مرسل مثله مثل موسى عليهما السلام ولا يمكن أن ينجرف نبي إلى عقيدة وثنية بعدما منّ الله عليه وشرح صدره للتوحيد ومعلوم أن الله عصم الأنبياء من أن ينحرفوا عن الإيمان بوحدانيته. وقد أوضحت الدراسات أن بني إسرائيل تأثروا بعقائد الشعوب التي خالطوها أو مروا بها وهم في طريقهم عبر سيناء. فعبادة العجل أو رمز البقرة موجودة لدى المصريين القدماء وبعض شعوب المنطقة. وانحراف بني إسرائيل إلى هذه العقائد يدل بشكل واضح على أنهم لم يرسخوا عقيدة التوحيد في نفوسهم وعقولهم، وهذا ما يدل عليه تقبلهم الدائم والمستمر من عقيدة إلى أخرى.

وقد أوردت التوراة في سفر الخروج وفي الإصحاح الثالث والثلاثين مقاطع عديدة تعيد فيها التأكيد على أن الله ينزل ويجتمع بموسى في خيمة الاجتماع التي نصبها موسى ليقضي للشعب تقول: (وكان عمود السحاب إذا دخل موسى الخيمة ينزل ويقف عند باب الخيمة ويتكلم الرب مع موسى) مقطع 9.

وتقول (ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه) مقطع11. وهذا أيضاً يناقض قول التوراة (وقال لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني ويعيش) خروج 23: 20.

ألواح موسى:

يشير القرآن الكريم وتشير التوراة إلى أن وصايا الله لموسى كتبت في ألواح أو في لوحين كما تقول التوراة.

يقول تعالى: (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء) الأعراف 145.

ويقول تعالى: (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه) الأعراف150.

وجاء في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج (ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما وتقول: ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحي الشهادة لوحي حجر مكتوبين بإصبع الله).

فالذي، فهم من سياق آيات القرآن الكريم أن الله سبحانه أوحى لموسى بالتوراة وبكتابتها على ألواح حتى تحفظ ويعلمها لبني إسرائيل.

ويفهم أيضاً أن موسى ألقى الألواح وقد تكون تكسرت وهذا يعني أن التعاليم المكتوبة فيها لم تُحفظ باعتبار أن الألواح أتلفت.

إلا أن التوراة تشير إلى أن الله أمر موسى أن يصنع لوحين جديدين لتكتب عليهما تعاليم التوراة. على أية حال فإننا نرى اتفاقاً في أن الألواح ألقيت ولكن القرآن لا يشير إلى استبدال اللوحين بلوحين جديدين.

غير أن الذي يستوقف هنا هو قول التوراة أن ما كُتب في اللوحين هو بخط إصبع الله أو بيده وهذا ما يذكرنا دوماً بالحس التجسيدي لدى اليهود لذات الله حيث يضعون له ما يضعونه لبني البشر.

أما محتوى هذه الكتابات الموجودة على الألواح فملخصها أنها تدعو بني إسرائيل إلى التمسك بالتوحيد دون الاشراك بالله إضافة لتعاليم أخلاقية كعدم السرقة وعدم الزنا إلى ما هنالك من تعاليم أخلاقية أخرى.

على أية حال فإن قول القرآن الكريم ـ كتبنا له في الألواح ـ يحدد أن التوراة كتبت على ألواح وليس على لوحين كما ذكرت التوراة. والتوراة بما فيها من تعاليم موسى تحتاج أصلاً لعدة ألواح حتى تدوّن عليها ولا يكفيها لوحان.

وهناك أقاويل حول طبيعة الألواح هل هي من فخار مشوي أم هي من صخر نحتت على شكل لوح؟ أم هي ألواح خشبية. وهذا ليس فيه جزم إنما هي أقوال متباينة.

ـ ما هي التوراة التي أنزلت على موسى؟ ما هي لغتها؟

لم يصرح القرآن الكريم في آية من آياته عن طبيعة اللغة التي أنزلت بها التوراة أما عن تعاليمها فيستطيع أي قارئ للقرآن والتوراة أن يعرفها بتفاصيلها على الرغم من أن كتبة التوراة أخفوا الكثير من الحقائق التوراتية التي أنزلت على موسى.

وكتب الله تعالى ما يحتاج إليه بنو إسرائيل من بيان الحلال والحرام والمحاسن والقبائح في ألواح اختلف المفسرون في عددها بين عشرة واثنين كما اختلفوا في حقيقتها بين خشب وحجر. وكان المكتوب فيها مواعظ وأحكام وتفصيل لكل شيء يهم بني إسرائيل وأمره الله تعالى أن يأمر بني إسرائيل أن يأخذوا بأحسنها أي يسيروا على أحسن وأفضل ما رسم فيها.

أما بالنسبة للغة التوراة فإنها لا تشير إليها لكن أحبار اليهود ذكروا فيما بعد أنها اللغة العبرية. فهل حقاً أنزلت التوراة باللغة العبرية؟

فموسى كنبي رحل من مصر هارباً وهو شاب وكان قد تربى في بيت فرعون وحفظ لغة المصريين ولم يعرف لغة غيرها. وعندما جاء إلى مدين مكث عشر سنوات. وهذه السنوات كفيلة بأن يتعلم موسى لغة أهل مدين. وعندما عاد إلى مصر ليحاجج فرعون كان يعرف لغتين لغة أهل مصر ولغة أهل مدين، ولما

هرب مع بني إسرائيل إلى سيناء وذهب إلى جبل حوريب وأنزلت التوراة عليه فقد أنزلت باللغة التي يفهمها هو وقومه.

يقول تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم) سورة إبراهيم الآية 4.

يقول ابن كثير: (هذا من لطفه تعالى بخلقه أن يرسل إليهم رسلاً بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم)[1].

إذا فاللغة التي يفهمها بنو إسرائيل آنذاك كانت المصرية أو هي خليط من المصرية وغيرها وموسى لم يعرف سوى اللغة المصرية ولغة مدين. وعلى ذلك فإن التوراة لم تنزل على موسى باللغة العبرانية إنما نزلت بلغة موسى وقوم موسى.

والدارسون للغات يؤكدون أن العبرية ظهرت متأخرة عن اللغة المصرية أو الكنعانية فهي حديثة بالنسبة لغيرها من اللغات الشرقية.

ولما دُونت التوراة في زمن السبي البابلي كانت اللغة العبرية قد اكتملت بالشكل القديم لها وظلت متداولة بين اليهود منذ ذلك الوقت والفاصل الزمني بين وجود موسى والسبي البابلي يبلغ أكثر من سبعمائة عام. وهذه الأعوام كفيلة أن تغيّر في لغة التوراة وفي كثير من تعاليمها كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم.

---

(1) عبد الوهاب النجار. قصص الأنبياء صفحة 2260.

الأرض المقدسة والوعد التوراتي:

يشكل مفهوم الأرض المقدسة مفصلاً هاماً في تاريخ بني إسرائيل باعتبارها حسب ما نصت عليه التوراة الأرض التي وعدوا بها أن يتملكوها. وهـذا الوعد حسب أقوال التوراة بدأ منذ النبي إبراهيم واستمر يفعل فعله حتى زمن موسى.

وقد نص القرآن الكريم في سورة المائدة على ذكر الأرض المقدسة. وخاطب موسى بني إسرائيل أن يدخلوها. أما التوراة فقد ذكرت الأرض الموعودة مرات عدة في سفر التكوين وتكرر ذكرها في أسفار عدة كسفر الخروج والتثنية وغيرهما.

وقد وقع معظم الدارسين والمفسرين في أخطاء دينية وأخرى تاريخية بسبب فهمم لما عنته الآية القرآنية ولما عنته التوراة.

يقول تعالى: (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وأتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين. يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين. قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) المائدة 20 ـ 26.

وقد وردت آيات قرآنية أخرى تتحدث عن الأرض المباركة.

يقول تعالى: (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) سورة الأنبياء الآية 61.

ويقول تعالى: (ولسليمان الريح تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين) الأنبياء الآية 81.

ويقول تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) الإسراء الآية 1.

ويقول تعالى: (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها المسير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين) سورة سبأ الآية 18.

فهنا أرض مباركة. وهناك أرض مقدسة فهل هما أرض واحدة؟ نرجئ الجواب بعد أن نورد النصوص التوراتية التي تحدثت عن الأرض التي وعد الله بها إبراهيم حسب ما جاء عندهم.

تقول التوراة في سفر التكوين الإصحاح السابع عشر (ولأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً).

وجاء في الإصحاح السادس والعشرين (لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد وأفي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك).

وجاء في الإصحاح الثامن والعشرين (الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك).

وجاء في سفر الخروج الإصحاح الثالث: (فقلت أصعدكم من مذلة مصر إلى الأرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً).

وجاء في الإصحاح الثالث والثلاثين: (قال الرب لموسى اذهب اصعد من هنا أنت والشعب الذي أصعدته من أرض مصر إلى الأرض التي حلفت لإبراهيم واسحق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها وأنا أرسل أمامك ملاكاً وأطرد الكنعانيين

والأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً).

وجاء في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية: (وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل نبّو إلى رأس الفسحة الذي قبالة أريحا فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان وجميع نفتالي وأرض إفرايم ومنسّى وجميع أرض يهودا إلى البحر الغربي والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخيل إلى صوغر. وقال له الرب هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر. فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم. ولم يقم بعد نبيٌ في إسرائيل مثل موسى الذي عرف الرب وجهاً لوجه).

قد يجد المقارن بين ما جاء به القرآن الكريم وما جاءت به التوراة تشابهاً فيما وعد به بنو إسرائيل من منحهم أرضاً مقدسة بناء على وعدٍ قدمه الله سبحانه للنبي إبراهيم.

غير أن القرآن الكريم لم يصرح أو يلمح في أية آية من آياته الكريمة أن الله قطع وعداً لإبراهيم بأن يملكه ونسله أرضاً ما. وإذا كان الرب قد وعد إبراهيم بامتلاك أرض كنعان حسب ما قالت التوراة فلماذا لم يحقق الله وعده. ولم يملك إبراهيم أو اسحق وأولاده هذه الأرض. ووعد الله لإبراهيم يشمله ويشمل نسله من بعده وهذا يعني أيضاً أن إسماعيل له الحق بالتملك باعتباره ولد إبراهيم.

قلنا عند مناقشة سفر التكوين أن الله سبحانه نجّى إبراهيم ولوطاً من القوم الكافرين إلى الأرض التي باركها الله للناس كافة (للعالمين) وقد وردت في

عدة آيات قرآنية كما رأينا، لكن لم يرد أن الله قطع وعداً لإبراهيم بأن يملكه هذه الأرض المباركة.

أما قوله تعالى: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) فهكذا قال موسى لقومه وتحديد الأرض بالمقدسة لا يعني بالضرورة هي نفسها الأرض المباركة. لأنها لو كانت نفسها لجاء ذلك مكرراً بلفظ المقدسة في عدة مواقع. فالأرض المباركة باركها الله للعالمين وليس لشعب دون شعب وهي تعني المباركة الروحية الدينية ولا تعني التملك المادي والاستئثار ولو كان ذلك يعني التملك لكان من حق كافة الناس أن يدعوا أنها تخصهم أما إذا أردنا التوقف عند قول موسى ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم فهي لا تفهم مقاصدها إلا إذا قرأناها في سياق الآيات الكريمة التي جاءت بعدها وقبلها ولو توقفنا أولاً عند كلمة ادخلوها لوجدنا أنها لا تحمل معنى افتحوها أو اغزوها أو اقتلوا من فيها أو ما شابه تلك الألفاظ من الأفعال التي تأمر بالغزو. والدخول يعني عدة احتمالات وليس احتمالاً واحداً. وقبل التفصيل في هذه المسألة نعود إلى السياق القرآني حيث تقول الآية الكريمة على لسان بني إسرائيل: (إن فيها قوماً جبارين). فمن هم هؤلاء الجبارون وما هي تلك الأرض المقدسة التي كانوا فيها؟

لو قلنا إنهم الكنعانيون فالكنعانيون لم يعرفوا بالجبارين ولو كانوا كذلك لما نجى الله إبراهيم ولوطاً إلى أرضهم. ولم يشر القرآن ولا حتى التوراة إلى أية معاملة سيئة قوبل بها إبراهيم من قبل أهلها الكنعانيين.

ولو قلنا إن الأرض المقدسة هي القدس. فالقدس لم يكن فيها قوم جبارون بل كان فيها بنو يبوس أي اليبوسيون الذين لم يعهدهم التاريخ أنهم جبارون، وليست هناك أية دلائل تشير إلى ذلك لا من خلال الدراسات التاريخية ولا الأثرية المرتبطة بها.

ثم لو نظرنا إلى القول التوراتي على لسان ربهم مخاطباً موسى ولكنك إلى هناك لا تعبر فمات هناك موسى ولم يعرف إنسان قبره.

ولو نظرنا إلى الآية القرآنية عندما تقول: (فإنها محرمة عليهم، أربعين سنة يتيهون في الأرض) نجد أن اتفاقاً قرآنياً توراتياً ينص على أن موسى وقومه لن يدخلوا تلك الأرض المقدسة وهي محرمة عليهم.

والمدقق في سياق الآيات القرآنية يرى أن قول موسى ادخلوا الأرض المقدسة لا يبتعد كثيراً عن قول الله تعالى فإنها محرمة عليهم. وهذا يعني أن قول موسى ادخلوا الأرض المقدسة ما هو إلا امتحان من موسى لقومه لكي يظهرهم الله لهذا النبي على أنهم جبناء ولا يعتمد عليهم. تصوروا قولهم لموسى لن ندخلها حتى يخرجوا منها. فكيف يمكن أن يخرج الجبارون من أرضهم هم وأولادهم ونساؤهم ويفرغوها ثم يقولون لبني إسرائيل ها هي الأرض نظيفة أمامكم فتعالوا اسكنوها؟

فقوم موسى ليسوا رجال قتال حتى يستند موسى عليهم لدخول أرض فيها قوم جبارون. فالمسألة برمتها لا تعدوا أن تكون في نطاق الكشف عن خباياهم ونكثهم للعهود والمواثيق التي عقدوها مع موسى ومع رب موسى.

ومع الافتراض أن اليهود وعدوا من قبل موسى بدخول الأرض المقدسة فلا يعني ذلك احتلالها والدليل قوله تعالى على لسانهم (إن فيها قوماً جبارين). قد يكون الدخول يتضمن قتالاً ضد هؤلاء الجبارين. لكن هؤلاء الجبارين ليسوا أصحاب أرض إنما هم جنود أو جيوش مارست الحرب والفتح عندما جاءت إلى هذه الأرض. وهذا ما يقرّبنا إلى القول إن أقواماً من شعوب البلستة اليونانية هي المقصودة. لأن كافة الدراسات التاريخية تشير إلى أن هذه الشعوب زحفت من البحر باتجاه فلسطين قبل 1150 من الميلاد وهذه الفترة

ذاتها التي كان موسى موجوداً فيها على مقربة من حدود الأردن وفلسطين فالكنعانيون بجميع قبائلهم لم يعرفوا بالجبروت طوال حياتهم.

وهناك افتراضات أخرى يمكن أن نلقي الضوء عليها لنتبين أبعاد المسألة أكثر فأكثر. فالقرآن الكريم يصرح ضمن الآيات الكريمة بقوله: (ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون) وهذا يعني أن الأرض المقدسة المقصودة هنا ليست سوى قلعة أو قرية صغيرة محصنة ولها باب. وعندما تقول الآية القرآنية ادخلوا عليهم الباب أي أن مركز القوة أو الضعف هو عند باب هذه القلعة أو القرية المحصنة.

وهذا يعني أيضاً إذا كان هناك وعد إلهي بالأرض حسب النص الذي ورد في القرآن فإن هذه الأرض المقدسة قد لا يعني أكثر من هذه القلعة أو هذه القرية الصغيرة المحصنة وهي ليست لها علاقة بالأرض المباركة التي باركها الله للعالمين.

ثم هناك افتراض آخر يقول إن القوم الجبارين قوم وثنيون، وعندما طلب موسى من قومه دخول الأرض المقدسة كان القصد تخليص هذه الأرض المقدسة من الوثنية وإقامة دين موسى التوحيدي والله يرث الأرض لعباده الصالحين.

لكن قوم موسى لم يكونوا صالحين، وثبت عدم صلاحهم منذ أن امتحنهم موسى الامتحان الأول حين رفضوا إطاعة أوامره.

فالقصة منذ أن طلب موسى منهم دخول الأرض المقدسة وحتى نزول أمر الله بتحريمها عليهم أحد الأدلة الكثيرة التي توضح طبيعة بني إسرائيل في تعاملهم مع أوامر أنبيائهم وطالما أن آيات القرآن الكريم تخاطب قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم فإن إيرادها من قبل رب العالمين تدخل ضمن سياق التعليم والعبرة والإخبار بالماضي والغيب الذي لا يعلمه بتفاصيله إلا الله سبحانه وتعالى.

محطات في حياة موسى:

يقع كثير من الباحثين الغربيين والعرب في تقديرات فاحشة حينما يصورون شخصية النبي موسى عليه السلام. فمنهم وبسبب هوى قومي أو ديني يجدون في موسى قائداً عسكرياً محارباً دموياً وليس له أي فضل في إرساء ديانة التوحيد ومحاولته نشرها بين بني إسرائيل.

ولعل ما وقعوا به من تجنٍّ على هذا النبي هو تفسيرهم لما جاء في نصوص التوراة من تصوير لشخصيته ولعدم تفحص شخصيته كما بينها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فالتوراة التي كتبت بعد موسى بقرون لم تترك نبياً من الأنبياء إلا وحاولت تشويهه منذ النبي إبراهيم وحتى آخر أنبياء ورجال بني إسرائيل.

وإذا أردنا إلقاء الضوء الحقيقي على الأنبياء ولا سيما موسى عليه السلام علينا أن ندرك أن القرآن الكريم أعطانا أدق التفصيلات في تصوير حياته وبين الحق من الباطل فيما قيل عنه. فموسى ليس كما يتصوره بعض الباحثين من أنه قائد محارب دموي وليس هو كما صورته التوراة. وإذا أردنا الإنصاف والحق فلا بد لنا من العودة إلى نصوص القرآن الكريم لنرى شخصية هذا النبي على حقيقتها.

فموسى قبل أي اعتبار نبي مرسل تلقى من الله سبحانه رسالة التوحيد وقد حاول كل جهده تثبيت هذه العقيدة في نفوس قومه إلا أنهم آذوه كثيراً وشكا منهم طوال حياته ومات وهو غير راضٍ عنهم وعن إيمانهم المشوه والمتزعزع.

وما نزل عليه من تعاليم لا يختلف في جوهره عما نزل على قلب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من قرآن. فالأنبياء جميعاً ينهلون من نبع رباني واحد. وإن اختلفت الأحداث أو العصور.

ولننظر إلى ما وقع فيه الباحثون من تجن على شخصية هذا النبي:

يقول الباحث ندرة اليازجي: (موسى وسيلة لإيقاف الشر بالعنف ولهذا ساد العنف في الناموس ومن هنا يحاول المؤرخون أن يوازنوا بين شريعة حمورابي وشريعة موسى. فكلا الشريعتين تجعلان من العنف وسيلة لوضع حد للشر ولا تعلمان الخير وتظل المقارنة بينهما ما ظل العنف والقسوة. فهل يمكن أن تقوم شريعة بدون عنف وقسوة؟ لا إذن لا ناموس ولا شريعة من الله)[1].

ويقول اليازجي (ولم يخرج موسى عن حكمة مصر والكلدان ولم تكن مؤلفاته إلا نسخة ثانية لحكمة الآخرين لكنها نسخة مشوهة)[2].

ويقول (لم يصل موسى إلى درجة النبوة قبل الأربعين. ففي الأربعين اكتملت فيه درجة حكمة المصريين. وكان موسى متعصباً لبني قومه أي لإلهه وعرقياً برأيه وليس إبراهيم إلا شخصية موسى ذاتها التي وضعها لتشير إلى ديانة يهوه إله الغضب والحقد والدم[3].

ويقول: عندما نقارن بينه وبين موسى نجد ما يلي:

1 ـ عرقية موسى وعالمية المسيح والعرقية تعصب لشعب وكره لشعوب أخرى والعالمية محبة وتضحية.

2 ـ موسى يقتل يريق الدم فهو قاتل يمثل الناموس الحرف والمسيح يحب أن يراق دمه فهو ناموس الله.

3 ـ موسى قائد شعب والمسيح محب للإنسانية جمعاء وخادمها[4].

---

(1) ندرة اليازجي رد على التوراة ص 165 ـ 166 دار الغربال دمشق ط ثا 1987.

(2) ندرة اليازجي المصدر نفسه ص 165 ـ 166.

(3) ندرة اليازجي المصدر نفسه ص 165 ـ 166.

(4) ندرة اليازجي المصدر نفسه ص 165 ـ 166.

(أما موسى فقد قاده تعصبه إلى قيادة أهل مصر الإسرائيليين قادهم مادياً ولم يقدهم روحياً ولو قادهم روحياً لظلوا حيث كانوا يعبدون الإله الحق. إن تعصب موسى قاده إلى تشخيص الإله تشخيصه في أرض وفي ناموس وكانت هذه العملية علة لغضب الإله)[1].

ويقول اليازجي: (عمد اليهود وعلى رأسهم موسى إلى أخذ آراء غيرهم والعمل على طمسها لتعطي الأسبقية لهم ولتظل من تراثهم ولتعتبر خاصة بهم وهكذا لم يكونوا من حاملي مشاعل النور. وقد أخذ موسى مبادئه من تعاليم الأمم التي لم يفهمها تماماً)[2].

فمن خلال هذه النصوص وغيرها مما جاء في كتاب الباحث اليازجي لا يرى المرء إلا آراء تعصبية من شأنها التحامل على شخصية النبي موسى عليه السلام ولو اطلع ندرة اليازجي على قصة النبي موسى كما أوردها القرآن الكريم لعفى نفسه من جميع ما قاله بشأن موسى فاستناده على التوراة جعله يطلق أحكاماً في غاية القسوة وغاية الذاتية، وليست التوراة محل ثقة لنستند عليها سيما إذا أردنا أن نتحدث عن أنبياء الله.

فما الذي يدري الباحث أن شخصية هذا النبي كانت هكذا مثلما وصفتها التوراة؟ وهل تكفي التوراة ليؤكد أن هذه الشخصية فعلاً هكذا كانت؟

لقد درج كثير من الباحثين المنحازين إلى الكنعانية وإلى مفهوم أرض سوريا الكبرى إلى الهجوم دون هوادة على إبراهيم وموسى وبقية الأنبياء وهذا الهجوم يعتبر في نظرهم حق لأنهم يهاجمون الغزوة العبرية التي قادها بعض هؤلاء الأنبياء وهذا بالطبع ما جاء في التوراة وهو يجافي الحقيقة التي يمكن أن نكتشفها من خلال القرآن الكريم.

---

(1) ندرة اليازجي المصدر نفسه ص 165 ـ 166.

(2) ندرة اليازجي المصدر نفسه ص 175.

وعندما نتصفح ما كتبه الدكتور جرجي كنعان في كتبه نجد أنه لا يخرج عما جاء به الباحث ندرة اليازجي. فموسى حسب رأيه قائد قاتل غادر غـاز لا يمت إلى النبوة في شيء. وفي جميـع مـا كتبـه هـذا البـاحث يتجـاهل الحقـائق القرآنية التي تبين شخصية موسى على حقيقتها. وهذا هو نفس القصـور الـذي وقع فيه الباحث ندرة اليازجي.

فالتوراة ليست مقياساً البتـة في التعريـف بـأي شـخصية هامـة ولاسـيما شخصية نبي من الأنبياء إننا إذا أردنـا الإنصـاف والموضوعيـة علينـا أن نـدرك الحقائق والسمات لأي شخصية نبوية ليس من خلال ما سطرته أقلام البشر بل من خلال الحقائق الإلهية التي لا يمكن أن تخطئ بأي مقولة مهما كانت.

يقول جرجي كنعان: (لعل أول سطر في سيرة موسى هو صفـة العنصريـة الشوهاء والتعصب الأعمى التي خلعها على أتباعه وجعلها فريضة دينية)[1].

ويقول: (وكأن موسى كان يعي أن سلطان الدين سبيل إلى تحقيق سلطان الدنيا ووجد من الضروري أن يكون لجماعتـه إلـه يرعـاهم ويطعمـهم ويحميـهم ويخطط لهم في المعارك ويقودهم في الحروب ويكون بينه وبينهم نوع مـن المنفعـة المتبادلة)[2].

ويقول: (ففي واد من أودية سيناء أوهم موسى أتباعه بأن رسـالة جديـدة جاءت له من إلهه)[3].

ويقول في موقع آخر: (ألا يكون الأقرب إلى العقل والمنطق أن موسى النبي حين كان زعيماً لقبيلـة يهوديـة ضاربة في صحراء سيناء فكر بغزو أطراف أرض

---

(1) جرجي كنعان سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية صفحة 43 ط1 1980.

(2) جرجي كنعان سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية صفحة 43 ط1 1980.

(3) جرجي كنعان سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية صفحة 43 ط1 1980.

كنعان لكنه مات قبل أن يحقق حلمه)[1].

ويقول: (ووجد موسى من الضرورة أن يكون لجماعته إله يخطط لهم في المعارك ويقودهم في الحروب ووجد أن خير الصفات تكون لهذا الإله هي الغضب والحقد والاغتباط وسفك الدماء وإشعال نار الحروب. وهذه الصفات في الغالب صفات موسى أعطاها لربه وقاد بها أتباعه. فموسى حين حاول أن يجمع قومه بيهوه كان من الطبيعي أن يجعل منه إلهاً قومياً خاصاً بهم. ويكفي أن نعلم أن يهوه إله حرب إقليمي قبلي مثله مثل آلهة القبائل أو الممالك الأخرى اتخذه موسى إلهاً وجعله ينطق بما يشاء ويضع الأوامر والأحكام على لسانه لتكتسب صفة المقدس. وفرض عبادته على قومه بني إسرائيل بالإرهاب المصحوب بالقتل والتذبيح)[2].

وقد بر يهوه أو موسى لا فرق فهما اسمان لحقيقة أو شخصية واحدة بر بقسمه وأخرجهم من مصر وتحت ضغط النازية كتب العالم النفسي اليهودي فرويد كتابه المشهور موسى والتوحيد توصل حسب رأيه إلى أن موسى رجل مصري قاد حملات عسكرية إلى الحبشة وغيرها وأنه استقى ديانة التوحيد من الفرعون المصري أخناتون وقد تمرد على سادته الجدد من الفراعنة وخرج من مصر ومعه بنو إسرائيل وبعض المضطهدين دينياً من المصريين إلى سيناء.

وقد استند إلى هذا الرأي بعض الباحثين كالدكتور أحمد سوسة في كتابه العرب واليهود في التاريخ كما أسهم كتاب وباحثون أوروبيون في دعم هذه الآراء حتى بات موسى في نظرهم جميعاً رجلاً لا يمت بأي صلة للنبوة. فهو الذي

---

(1) الوثيقة الصهيونية في العهد القديم، جرجي كنعان ص33، دار النهار، الطبعة الأولى 1977.

(2) الوثيقة الصهيونية في العهد القديم. جرجي كنعان ص 43، دار النهار، الطبعة الأولى 1977.

كتب التوراة، وهو الذي قاد الغزو باتجاه سيناء وفلسطين، وكأنه لم يتلق رسالة من السماء.

ورداً على هذه الآراء وغيرها فإننا ملزمون للاطلاع على سيرة النبي موسى كما نراها في القرآن الكريم.

فموسى عندما قتل الرجل المصري لم يكن قد تلقى النبوة، فهو فتى لم يبلغ سن الرجولة ورغم ذلك فإنه لم يكن يقصد قتل ذاك الرجل فالوكز لا يقتل رجلاً لكن الحكمة الإلهية أرادت أن يموت الرجل بسبب وكزة ليكون ذلك مقدمة لما أراده الله لموسى من هروب إلى مديان ومن ثم تلقي الرسالة في سيناء. على أية حال فإن قتل موسى للرجل لم يكن قتل نبي مرسل إنما قتل رجل عادي لرجل عادي. وموسى عندما تلقى الرسالة أصبح مسؤولاً أمام ربه عن أي عمل يقوم به. فهو لن يقتل إلا بحق ولن يكون سفاحاً طالما هو نبي مسؤول أمام الله وهذا رد على من اتهم موسى بأنه قاتل وأن رسالته تدعو للقتل.

وموسى لم يخترع إلهاً من تصوره كما قال بعض الباحثين فالله في نظر موسى ليس إلهاً قومياً إقليمياً يدعو إلى القتل ويغار ويتجسد. وآيات القرآن واضحة في التعريف بذات الله الذي آمن به موسى.

يقول تعالى: (قال فرعون وما رب العالمين 23 قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين 24 قال لمن حوله ألا تستمعون 25 قال ربكم ورب آبائكم الأولين 26 قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون 27 قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون 28) سورة الشعراء.

ويقول تعالى: (قال فمن ربكما يا موسى. قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. قال فما بال القرون الأولى. قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينس. الذي جعل لكم الأرض مهاداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) 49 ـ 53 طه.

فأين صفات الله التي ألصقوها بإله موسى من هـذه الآيـات الـتي توضـح بصدق صفـات الله. فـهو خـالق السـموات والأرض ورب المشـرق والمغـرب ورب الناس أولهم وآخرهم. وهو الذي أعطى كـل شـيء خلقـه وجعـل الأرض مـهاداً وأنزل من السماء ماء فأخرج الزرع والنبات.

أهذه صفات الإله الخاص ببني إسرائيل؟ أليست هي ذاتـها صفـات الله كما عرفها المسيح وكما عرفها محمد عليهما الصلاة والسلام؟

أما إذا كانت التوراة قد وصفت الإله الـذي عرفـه موسـى بالإلـه القومـي المتعصب الدموي فهذا شأنها وليس لموسى عليه السلام ذنب في ذلك.

وإذا نظرنا إلى تعاليم التوراة الحقيقية التي نزلت على موسى عليه السلام وجدنا أنـها مبثوثة في ثنايا آيات القرآن الكريم.

يقول تعالى: (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثـرون الحيـاة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيـم وموسـى) الأعلى 14 ـ 19.

إذاً هذه هي تعاليم التوراة الحقيقية كما نزلت على موسى. تزكية النفس وتشمل كثيراً من التعاليم المرتبطة بالعقيدة والمسلك وعبادة الله وحده والخضـوع له.

ذلك باختصار ما جاء في التوراة وليس كما جاء فيما كتبـه بنـو إسـرائيل بعد موت موسى.

موسى عليه السلام والعبد الصالح:

لم نعثر في التوراة على ذكر قصة لقـاء موسـى بـالعبد الصـالح الـذي ورد ذكره في القرآن الكريم. وعلى الرغم من أن ليس هناك وجه للمقارنة بين التـوراة

والقرآن بهذا الشأن إلا أن ما جاء به القرآن الكريم يوضح ملامح شخصية موسى التي تنافي تلك الصفات التي فهمها الباحثون الذين أشرنا إلى بعض أقوالهم وهم يتناولون دراسة شخصية موسى عليه السلام فهذا اللقاء يوضح على مراحل تلك الشخصية النبوية الصافية والتي تخالف تماماً ما جاء في التوراة.

على أية حال ما يعنينا من هذه القصة على أهميتها هي تلك السمات التي جعلت موسى يصل الذروة في الأدب والتعامل مع من اختارهم الله لهداية البشر وعلمهم بظواهر الأمور قبل بواطنها يقول تعالى في كتابه العزيز: (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً. فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً. فلما جاوزا قال لفتاه إئتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً قال ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً. فوجدا عبداً من عبادنا أتينه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً. قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً قال إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً. قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا. فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا. قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا. فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا. قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا. قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا. أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن

أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا. وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا. فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما. وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً) الكهف 60 ـ 82.

وقد أورد المفسرون قصة لقاء موسى بالعبد الصالح وقال أكثرهم أن هذا العبد الصالح هو الخضر عليه السلام وقال بعضهم استناداً على بعض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إن هذا العبد الصالح هو الخضر فعلاً قد أتاه الله العلم اللدني واعتبره بعضهم رسولاً أو نبيا. وأوردوا قصة حول أسباب هذا اللقاء. ومختصره أن موسى فاخر بنفسه أمام قومه حيث سألهم عمن أعلم منه. فأتاه الوحي وأخبره أن عبداً صالحاً تجده عند مجمع البحرين هو أعلم منك. فجد موسى السير وكان معه فتاه حتى وصلا مجمع البحرين وكان فقدان السمكة (الحوت) التي أراد أكلها بسبب الجوع الدليل على مكان وجود العبد الصالح. فالتقى موسى به وجرى ما جرى بينهما حسب ما جاء به النص القرآني الكريم أما الذي يستفاد من القصة هي أخلاق النبي موسى مع هذا المعلم. فهو مخلص بلقائه أولاً ثم هو يعترف بخطئه كلما أخطأ ولم يغضب أو يتذمر حتى انتهى به الأمر إلى الفراق.

فلو كان موسى كما يزعم هؤلاء الباحثون لما تمتع بهذه الأخلاق النبوية العظيمة ولَكان قد تكبر على الرجل ورفض التعلم منه. ولكان ادّعى أنه أعلم الناس وظل على ادعائه، أما لماذا تنكر التوراة هذه القصة فإنهم يرون في موسى أعظم رجل مر في حياتهم من حيث علمه وفقهه فكيف يتعلم من غيره، إن هذا لا يجوز في نظرهم فلذلك أخفوا هذه الحادثة ولم يشيروا إليها لا من قريب ولا من بعيد.

لقد أساء العبرانيون إلى شخصية النبي موسى إساءات بالغة كما أساء الباحثون الذين لم يطلعوا على سماته الحقيقية في القرآن الكريم. فحقيقته أنه نبي كسائر الأنبياء ذو سمات وصفات خاصة. وليس هو قائداً عسكرياً دموياً كما صوّروه. وقد بلّغ رسالة السماء ودعا إلى التوحيد بأمر من الله سبحانه وتعالى.

فأحق الناس بموسى هم المسلمون وليس سواهم وإذا كان اليهود يدعون نسبهم دينياً له فهذا هراء ولا يثبته دليل فهم أبعد الناس عنه سلوكاً وعقيدةً. والقرآن الكريم يصرح في أكثر من موضع أن الأنبياء متساوون أمام الله من حيث هم مبلغون منذرون وقد أوذوا جميعاً من قبل أقوامهم ولم ينج موسى من إيذاء قومه حيث كذبوه وخدعوه وخانوه فعبدوا العجل في غيابه واتهموه اتهامات باطلة حتى برأه الله سبحانه وتعالى ويذكر القرآن الكريم فتى موسى ورحلته معه للقاء العبد الصالح ولم يصرح باسمه ولم يذكر هذا الفتى إلا في هذه الحادثة.

ونرى أن القرآن يصرح بكلمة الفتى إشارة إلى أنه كان يساعد النبي موسى ويخدمه ويرافقه وهو بذلك ليس رجلاً كبيراً إنما هو فتى في مقتبل العمر. ونرى أن القرآن الكريم لم يأت على سيرة هذا الفتى أثناء رحلة النبي موسى مع العبد الصالح. فالشأن شأن موسى وليس لهذا الفتى علاقة بهذه الرحلة أو أية علاقة بما دار من حوار بين موسى والعبد الصالح. وغابت شخصية الفتى غياباً كاملاً مما يدل على أنه شخصية ثانوية جداً ليس لها أي أثر في حياة موسى أو تعاليم موسى بينما نرى التوراة تفرد سفراً كاملاً بعنوان يشوع ويستغرق في التوراة أربعاً وعشرين إصحاحاً ويعتبرونه تلميذ موسى وصاحبه الأول بعد أخيه هارون.

ويقع المفسرون المسلمون الأوائل والمتأخِرون في مطب الإسرائيليات حيث يورد معظمهم أن فتى موسى هو يشوع. والحقيقة ليس هناك أي دليل يثبت أن فتى موسى هو يشوع وإلا لكان صرح به القرآن الكريم. لأنه حسب التوراة شخصية هامة جداً أفردت التوراة لها سفراً مع العلم أن هارون أخا موسى شاركه كل مهماته الرسالية وهو شخصية مهمة ولم تفرد التوراة له سفراً أو أي جزء من سفر. على أية حال لو كان يوشع هو فتى موسى المقصود، في القرآن فإن القرآن الكريم لم يورد شيئاً عنه ولم يتحدث عن مهمة قام بها يتابع فيها مسيرة النبوة والتوحيد عند موسى.

أما سفر يشوع كما ورد في التوراة فهو سفر يركز على تصوير قائد عسكري دموي يقود بني إسرائيل لفتحِ أرضٍ وغزوها وذبح أهلها وحيواناتها.

على أي حال سنعود إلى ما قالته التوراة عن غزو يوشع وبني إسرائيل أرض كنعان ومدى صحة أو كذب ما قالته حول هذا الغزو الجماعي.

بعض ما اتفق القرآن والتوراة عليه:

وردت في القرآن الكريم قصة رجل من قوم موسى يدعى قارون كان مشهوراً بغناه أنكر نعمة الله عليه وطغى طغيان الظالمين المستكبرين فخسف الله به الأرض.

ويرد في التوراة في سفر العدد في الإصحاح السادس عشر من الآية الأولى حتى الآية 35.

وقد ورد اسم ذاك الرجل بـ قورح.

يقول الله تعالى: (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وأتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين 76 وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا

وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين 77 قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون 78 فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم 79 وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقّاها إلا الصابرون 80 فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين 81 وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون 82 تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّا في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين 83) سورة القصص.

وجاء في سفر العدد من التوراة: (فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التي تحتهم وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال. فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياءً إلى الهاوية وانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة).

والاختلاف بين الحادثتين في الغاية والسبب ففي التوراة يخرج قورح (قارون) على موسى ومعه عدد من الأتباع وكادوا يشعلون فتنة في قوم موسى وبسبب تذمرهم خسف الله بهم الأرض. بينما القرآن الكريم يركز على استكبار قارون وغناه حيث كفر بالله وظن أن ماله سيخلد ويملك به الدنيا فخسفت به الأرض بسبب استكباره. على أي حال فالقرآن والتوراة يتفقان في صحة القصة والشخصية أما العبرة المستفادة من قصة القرآن الكريم فهي واضحة حيث يربط القرآن بين العمل ونتائجه ومن ثم الغاية العلمية التربوية من وراء ذلك وهذا ما لم نجد له أثراً في التوراة.

الفصل الخامس

زمن ما بعد موسى

زمن ما بعد موسى عليه السلام

لو تصفحنا القرآن الكريم وتتبعنا مسار قصة موسى وبني إسرائيل لوجدنا أن توقفاً واضحاً يحدث بعد موت موسى على الرغم من أن القرآن الكريم لم يشر إلى موت موسى ونستطيع أن نتوقف مع القرآن الكريم عند قوله تعالى: (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) سورة المائدة آية 26. وإذا أخذنا بظاهر السياق القرآني الواضح نرى أن حياة موسى تتوقف ها هنا كما تتوقف حياة هارون.

وقد أشرنا أن التيه أربعين سنة جاء بعد مكوث بني إسرائيل في صحراء سيناء مدة زمنية طويلة جرت خلالها أحداث كثيرة منها نزول أكثر التعاليم الإلهية على النبي موسى عليه السلام. والأمر بالدخول إلى الأرض المقدسة يأتي بعد جميع الأحداث التي مرت بحياة هذا النبي.

والذي يستوقفنا هنا هو أن القرآن الكريم لم يتحدث عن يشوع بن نون الذي قاد بني إسرائيل حسب رأي التوراة ودخل الأرض المقدسة غازياً، بل لم يتحدث القرآن الكريم عن أي أحداث تشير إلى حصول الدخول إلى أرض فلسطين، بينما تكرس التوراة سفراً كاملاً باسم سفر يشوع للحديث عن بدء حملة إسرائيلية يقودها يشوع تدخل أكثر من ثلاثين قرية ومدينة بحد السيف بدءاً من أريحا وحتى دان في شمال فلسطين.

والسؤال الذي يطرح نفسه هل حقاً تم غزو عبراني لأرض فلسطين؟ لماذا لم يشر القرآن الكريم إلى ذلك؟ لماذا أسهبت التوراة في الحديث عن هذا الغزو بالتفصيل.

قال بعض علماء التفسير أن الله أمر بني إسرائيل أن يدخلوا قرية ما دون ذكر اسمها وأغلب الظن أنها أريحا.

يقول تعالى: (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين 58 فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون 59) سورة البقرة.

ويقول تعالى: (وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين. فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذين قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون) الأعراف 161 ـ 162.

ولو افترضنا أن هذه القرية أريحا أو أي بلد من فلسطين وهذا مجرد افتراض فإن القرآن الكريم يخبرنا وبكل وضوح أن الله أمر بني إسرائيل أن يدخلوا هذه القرية من بابها وهذا يعني أنه أمرهم بدخولها سلماً لأن فيها سكاناً وحياةً وأمرهم بالانحناء وهم يدخلون بابها احتراماً لنعمة الله وإشارة لأهل القرية بأن هؤلاء دخلوا قريتهم مسالمين وليسوا محاربين. وفي سورة الأعراف يأمرهم ربهم بأن يأكلوا من نبات القرية وثمرها. لأنها على ما يبدو كانت آهلة بالسكان المزارعين وبالزراعة المتنوعة.

وظاهر القرآن الكريم يخبرنا أن هذه الأوامر بدلت. فشنوا حربهم الدموية على القرية وأهلها الذين كان بابهم مفتوحا للغرباء الذين يريدون العيش بأمان وسلام في أرضهم.

وإيراد الحادثة في موقعين من مواقع القرآن الكريم تأكيد على أن بني إسرائيل بدلوا قول الله ظلماً وعدوانا وادعوا أن الرب ـ كما جاء في التوراة ـ أمرهم بإبادة أهل البلاد الأصليين.

ولو ناقشنا سفر يوشع لوجدنا حقيقة هذا التبديل في قول الله.

فيوشع يستخدم جاسوسين يتفقان مع الزانية راحاب وهي من أهل أريحا أن تفتح لهم باب المدينة. ثم بعد دخولهم الدموي يأمرهم الرب أن يقتلوا كل السكان وكل الحيوانات حتى البقر والحمير، وقال لهم يوشع إن الرب حرّم عليكم أكل لحوم هذه الحيوانات فأين هذا من قوله تعالى (وكلوا منها حيث شئتم).

وفي جميع الأحوال فإن قول الله سبحانه إن كان ذلك في سورة البقرة أو في سورة الأعراف لا يشير إلى وعد إلهي بتملك أرض مّا وليست هناك أية إشارة لوعد إلهي يقطعه لبني إسرائيل بالتوسع واستعمار أرض الميعاد التي هي فلسطين هناك أمر إلهي بالدخول إلى قرية مّا بكل تذلل واحترام لأهل تلك القرية دون غدر أو سفك دم أو استغلال لطيبة السكان الأصليين وغدرهم واحتلال أرضهم.

إن تأكيد القرآن الكريم على أن هؤلاء بدلوا قول الله من أمرٍ بالدخول إلى القرية المذكورة بسلام وذل إلى أمر بالغزو والقتل هو أكبر دليل علىً نفي ما سمي بالوعد الإلهي بتملك الأرض واستعمارها.

وبعد ذلك كله نرى أن التوراة تُدخل سفر يشوع إدخالاً مقحماً بين أسفار موسى فسفر التكوين ثم سفر الخروج ثم سفر التثنية فالعدد فاللاويين هي أسفار موسى كما تقول بعض المذاهب اليهودية. إننا نلاحظ سفر يشوع الدموي يدخل بعد سفر التثنية في ترتيب أسفار التوراة ويرى المرء أنه يختلف تماماً من حيث مضمونه عن الأسفار السابقة. كما يلاحظ المرء انتقال التوراة من عهد إلى عهد.

عهد موسى وتعاليمه ومدى ما لاقاه من عذاب على أيدي قومه إلى عهد قائدٍ عسكري دموي وشعب متجبر متعطش للدماء والاحتلال.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن النبي موسى بريء مما بدله قومه من أوامر الله وتعاليمه فما قام به قومه مخالف تماماً لمهمة الدين التوحيدي الداعي إلى العدل والمساواة وعدم الاعتداء.

وإذا عدنا إلى سفر يشوع لوجدنا حقيقة المخالفة الإسرائيلية لقول الرب.

تقول التوراة: (في ذلك اليوم فقط داروا دائرة المدينة سبع مرات وكان في المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأبواق أن يشوع قال للشعب اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة. فتكون المدينة وكل ما فيها محرما للرب).

وتقول: (فهتف الشعب وضربوا بالأبواق وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً فسقط السور في مكانه وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة. وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف) الإصحاح السادس سفر يشوع.

إذاً نحن نرى أن جيشاً مّا يدور حول قرية صغيرة سبع مرات في يوم واحد ثم ينقض عليها فيأخذها ويقتل كل ما فيها من بشر وحيوان.

ولننظر مرة أخرى إلى ما تقوله التوراة في السفر نفسه في الإصحاح السابع.

(فقال الرب ليشوع قد أخطأ إسرائيل بل تعدوا عهدي الذي أمرتهم به بل أخذوا من الحرام بل سرقوا بل أنكروا بل وضعوا في أمتعتهم).

أليس هذا القول من كاتب التوراة يشير إلى أن بني إسرائيل نقضوا عهد الله وبدلوا ما أمرهم به؟ فبدل أن يدخلوا القرية مسالمين خاضعين دخلوها محاربين غادرين.

كل ذلك مع الأخذ بعين الاعتبار أن القرآن لم يصرح باسم القرية ولم يصرح بمن أمر أهو يشوع أم غيره؟ إنما الواضح أن هذه الحادثة جرت بعد موسى لأن القرآن الكريم لم يشر لموسى هنا ولا لهارون ولا إلى أي نبي أو شخصية أخرى تقود هؤلاء الرعاة من بني إسرائيل.

وأعتقد أن أهل القرية على صغرها وقلة عدد سكانها لو كانوا يعلمون أن يوشع ومن معه كانوا ينوون الغدر والقتال والغزو لحاربوهم بكل ما يملكون ولتغيرت صورة الأحداث حتى تلك التي أوردتها التوراة.

على أية حال لن نأخذ بعين الاعتبار ما أوردته التوراة عن المعارك المتعاقبة التي خاضها بنو إسرائيل ضد المدن والقرى الفلسطينية باعتبار أن القرآن لم يتعرض لها.

ومجال المقارنة هنا ليس له مبرر طالما ورد في التوراة ولم يرد في القرآن الكريم.

لكن الذي يمكن الاستفادة منه أن بني إسرائيل دخلوا إحدى القرى بالغدر وقلنا إنه من الممكن أن تكون هذه القرية من قرى فلسطين. وإذا كان هذا الافتراض يحمل في ذاته شيئا نسبيا من الحقيقة فإنه من المفترض أيضا أن نقول إن تسرب بني إسرائيل إلى أرض كنعان قد بدأ مع هذه الحادثة. والتسرب قد يكون فرديا وقد يكون جماعيا. ومع مرور عشرات السنين أمكن لهؤلاء التجمع وإيجاد شكل من أشكال الاستقرار النسبي والتوسع في الأراضي وإقامة حكمهم عليها ولو لفترة وجيزة.

يشوع والنبوة:

يقع بعض المفسرين المسلمين في إشكال يتعلق بيشوع وهذا الاشكال يرتبط بنبوة يوشع أو عدمها.

لقد ذكر القرآن الكريم في سورة الكهف فتى موسى وقد تقدم البحث في ذلك. فالقرآن كما قلنا لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى إسم يشوع أو إلى نبوة فتى موسى. أما التوراة فإنها كما قلنا أفردت ليشوع سفراً كاملاً وتحدثت عنه بشكل مقتضب في ثنايا الأسفار الأخرى.

ففي الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية يرد قول التوراة: (ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة إذ وضع موسى عليه يديه فسمع له بنو إسرائيل وعملوا كما أوصى الرب موسى).

وجاء في الإصحاح الأول من سفر يشوع: (وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى).

وخلال سفر يوشع يظل الرب يكلم يشوع خاصة في شؤون الغزو والحرب.

وقد ورد في كتاب قصص الأنبياء لابن كثير قوله: (يوشع عليه السلام هو الخليل يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام. وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب).

وحقيقة الأمر أن يشوع لم يكن نبياً ولو كان نبياً لذكره القرآن الكريم.

غير أن هناك حديثاً نبوياً صحيحاً أشار إلى يشوع بالاسم لكن لم يصرح بأنه نبي وقد ورد في مسند أحمد.

وكونه نبياً أو غير نبي يعود إلى علم الله سبحانه وتعالى.

ثم إن الأعمال التي قام بها حسب نص التوراة وهي جرائم متلاحقة تتنافى مع طبيعة النبوة وإذا كان يشوع فتى موسى كما ورد في سورة الكهف فإن ذلك لا يعني أنه نبي، ولا يعني أن لا يقوم بتلك الجرائم التي قام بها. ففي حياة موسى كان يخدمه ويرافقه وبعد وفاة موسى قد ينقلب الشخص من حال إلى حال ويصبح شريراً. وطالما أنه ليس نبياً فهو غير معصوم وقابل للخطأ.

وقد أجمع دارسو التوراة والمؤرخون على أن يشوع قائد عسكري خشن الطباع قاد بني إسرائيل للذبح والغزو والتقتيل. مستندين في ذلك على ما روته التوراة المزورة.

ثم هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي أن يوشع حسب النسب التوراتي ابن نون بن إفرايم وإفرايم هو ابن يوسف وأمه هي مصرية وهي بنت الكاهن المصري فوطي فارع. وعلى هذا الأساس لا يدخل في صلب اليهودية التي يقول حاخامات اليهود في تعريف اليهودي أنه من كانت أمه يهودية.

وقد خصص التوراتيون أبناء لاوي بالنبوة والرئاسة ومنهم موسى عليه السلام. أما يشوع فهو ليس من سبط لاوي إنما من سبط يوسف. ولم تخصهم التوراة بعد وفاة يوسف بالنبوة أو الرئاسة.

ويذكر العالم سميث في كتابه الله والإنسان في إسرائيل الأولى. أن الذين عاصروا موسى من بني إسرائيل قد هلكوا جميعاً في الصحراء ولم يدخل منهم فلسطين إلا اثنان كان يوشع واحداً منهما. أما باقي الجيش الذي اقتحم فلسطين فكان من الأبناء الذين ولدوا في فترة التيه[1].

أما ول ديورانت فيصف أحداث هذه الفترة أدق وصف فيقول:

كانت هزيمة العبرانيين للكنعانيين مثلاً واضحاً لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين. وقد قتل العبرانيون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم وسبوا من بقي من نسائهم وجرت دماء القتلى أنهاراً وكان هذا القتل ـ كما تقول نصوص الكتاب المقدس فريضة الشريعة التي أمر بها الرب موسى وزكاة للرب. ولما استولوا على إحدى المدن قتلوا من أهلها اثني عشر ألفاً وأحرقوا وصلبوا حاكمها. ولسنا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا

---

(1) God and manin Early Israel. P52.

الاسراف في القتل والاستمتاع به وقد كان موسى من رجال السياسة المتصفين بالصبر والأناة أما يوشع فلم يكن إلا جنديا فظا وقد حكم موسى حكما سليما لم تسفك فيه دماء أما يوشع فقد أقام حكمه على قانون الطبيعة الذي يقول إن أكثر الناس قتلا هو الذي يبقى حيا[1].

بين عصر وعصر... التيه العقيدي

بعد أن تسرب بنو إسرائيل إلى فلسطين وتجمعوا جماعات جماعات في بعض المناطق الداخلية والجبال بدت على أجيالهم تغيرات كبيرة شملت حياتهم البدوية والنفسية والعقيدية. وحسب النص التوراتي فإنهم وجدوا في فلسطين شعبا متحضرا مستقرا يعرف فنون الزراعة والصناعة. وكان لا بد من التأثر بهذا الشعب وبمعتقداته وعقائده. ومن الطبيعي أن يؤثر الشعب المتحضر بغيره من الشعوب غير المتحضرة. وهذا ما كان شأنهم مع بني إسرائيل، وقد ظهر ذلك جليا في سفر القضاة وسفر صموئيل الأول وسفر صموئيل الثاني.

والمدقق في هذه الأسفار يرى أن بني إسرائيل راحوا يتغيرون تغيرا كبيرا حتى أن بعضهم ذابت شخصيته تماما في البيئة الجديدة.

ولما كان القرآن الكريم يتناول أخبار الأمم السابقة ومدى ارتباطاتها بالأنبياء والعقائد فإنه لم يتحدث عن بني إسرائيل في هذه الفترة ضمن سياق الصراع بين الأنبياء والمشركين. فنلاحظ أن موت موسى عليه السلام يعني انتهاء عصر كامل وبدء عصر جديد. العصر الموسوي عصر النبي موسى وأخيه هارون وهو عصر الصراع بين موسى وقوى الشر الخارجية والداخلية. وهو بكل الأشكال صراع ليس لأجل الأرض إنما هو من أجل العقيدة والتوحيد.

---

(1) قصة الحضارة ج2 ص226 ـ 322.

بينما يأتي العصر الثاني بعد موسى خاليا من الأنبياء وهذا يعني بالنسبة لأي باحث الشيء الكثير.

فموسى وأخوه هارون ماتا في أرض قفر أو في متاه صحراء الأردن. وموسى أنهى مهمته العقيدية بأن بلغ رسالته لبني إسرائيل بما تحويه من توحيد وتشريع وأنهى فصل حياته بأن أماته الله في نفس اللحظة التي امتحن بها قومه بدخول الأرض المقدسة ورفضهم طلبه ثم تحريم الله الأرض عليهم والقضاء الرباني بأن يتيهوا في الأرض أربعين عاما.

والحكم الإلهي لا راد له. فماذا يمكن أن يفعل أناس تائهون تيها عقليا ونفسيا وعقيديا؟

وأعتقد أن الزمن الذي جاء على بني إسرائيل بعد موسى هو زمن البحث الإسرائيلي عن عقيدة جديدة وعن عادات وتقاليد أخرى غير تلك التي تعودوها زمن موسى وأخيه هارون. لقد أنهوا العلاقة بينهم وبين موسى برفضهم أوامره وأوامر الرب. وهذه بداية الانقلاب الكبير في عقيدتهم التوراتية.

وقد استند بعض الباحثين أثناء الحديث عن فترة ما بعد موسى ويشوع على ما جاء في أسفار التوراة التي أشرنا إليها وهي كما قلنا القضاة وصموئيل الأول والثاني، ولا يختلف المفسرون المسلمون الأوائل عن الباحثين الجدد في هذا الجانب.

فإن ابن كثير تحدث في كتابه قصص الأنبياء عن من يسمون أنبياء بني إسرائيل واستند في حديثه على ابن جرير الطبري الذي قال: لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنا ثم من بعده كان القائم بأمورهم حزقيل بن يوذي فلما قبض نسي بنو إسرائيل عهد الله إليهم وعظمت فيهم الأحداث

وعبدوا الأوثان[1].

وقال على لسان ابن جرير الطبري: ثم خرج أمر بني إسرائيل وعظمت منهم الخطوب والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً[2].

ويقول عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء: لما دخل بنو إسرائيل بلاد فلسطين مع يوشع بن نون وقسم لهم الأرضين قام يوشع بأمرهم إلى وفاته وأقاموا على ذلك يقيم لهم أمرهم قضاة منهم وليس فيهم ملك ستا وخمسين وثلاثمائة سنة بعد موسى عليه السلام. وكان بنو إسرائيل في تلك الأثناء عرضة لغزوات الأمم القريبة منهم كالعمالقة من العرب والمديانيين والفلسطينيين والآراميين وغيرهم وكان الأنبياء في ذلك العهد مرشدين لأولئك القضاة والحكام من اليهود وواسطة بينهم وبين الله تعالى وفي بعض الأحيان يكون النبي قاضياً[3].

ويقول أحمد الشلبي في كتابه مقارنة الأديان ـ اليهودية ـ كان رؤساء بني إسرائيل في الفترة التي تبدأ من يشوع إلى صموئيل يسمون القضاة. ويتحدث هذا السفر عن بعض القضاة العظام مثل عثانائيل وأهوز وباراق ودبورة وجدعون ويفتاح وشمشون. ويتحدث هذا السفر كذلك عن شغب بني إسرائيل على يهوه وعبادتهم آلهة أخرى من الحجارة والأشجار ويبين كيف انتقم الله منهم فسلط عليهم أعداءهم وأنزل كثيراً من النوائب بهم[4].

---

(1) ابن كثير قصص الأنبياء صفحة 419.

(2) ابن كثير قصص الأنبياء صفحة 420.

(3) عبد الوهاب النجار قصص الأنبياء صفحة 327.

(4) أحمد الشلبي مقارنة الأديان اليهودية ص 236.

ويقول الدكتور أحمد سوسة: يستدل من عرض التوراة لوضع الموسويين في كنعان بعد موت يشوع على أنهم أصبحوا مهددين بالفناء وقد اضطروا أن يخلوا بعض المدن التي استولوا عليها. فضاق بهم الأمر جداً حتى أقام لهم الرب قضاة ليخلصوهم من يد أعدائهم ولذلك سمي هذا العهد بعصر القضاة الذي استمر حسب تقدير المؤرخين حوالي قرن كامل بين سنة 1125 ـ 1025 ق.م. وكان عهد القضاة عهداً مضطرباً تخللته عدة نكسات كادت تهدد الموسويين في فلسطين بالفناء إذ تعترف التوراة أن الكنعانيين والفلسطينيين أصبحوا من القوة بحيث تمكنوا من إخضاع الإسرائيليين الموسويين تحت حكمهم في فترات متواصلة قبيل وخلال عهد القضاة وأول من أخضعهم كوشان وشعتايم ملك آرام النهرين ثماني سنين ثم هجم عليهم بنو عمون والعمالقة فضربوهم واستولوا على مدينة أريحا ثم ضايقهم يابين ملك كنعان في حاصور بشدة عشرين سنة واستعبدهم بنو عمون والفلسطينيون ثماني عشرة سنة وفي أواخر عهد القضاة أوقع الفلسطينيون بالموسويين هزائم شديدة حتى أنهم استولوا على تابوت العهد وخضع الموسويون إلى حكمهم أربعين سنة[1].

أما العالم الفرنسي موريس بوكاي فيتحدث عن كتب تاريخية في التوراة ويقصد بها بعد أن يحددها. سفر القضاة. وسفر صموئيل وسفر الملوك فيقول عنها:

«تتناول هذه الكتب تاريخ الشعب اليهودي منذ تسربه إلى أرض الميعاد ويحدد على أحسن تقدير معقول بنهاية القرن الثالث عشر ق.م حتى النفي البابلي في القرن السادس ق.م وتؤكد نبرة هذه الكتب على ما يمكن تسميته

---

(1)العرب واليهود في التاريخ. د. أحمد سوسة صفحة 292 ـ 293.

بالواقع القومي وتقدمه الكتب باعتباره تنفيذاً لكلام الله، والرواية لا تحفل بالدقة التاريخية[1].

ويقول (إن محور سفر القضاة هو الدفاع عن ـ الشعب المختار ـ ضد الذين كانوا يحيقون به وإغاثة الرب له، ولقد تعدل الكتاب مرات عدة وذلك ما يشير إليه بموضوعية كبيرة الأب لوفيفر في تمهيده لتوراة ـ كرامبون ـ وتشهد بذلك المقدمات والحواشي المتداخلة)[2].

(أما كتاب صموئيل وكتب الملوك فهي أساساً مجموعات من السير تخص صموئيل وطالوت وسليمان، وقيمتها التاريخية مشكوك فيها)[3].

ويقول إدموند جاكوب (إن ما يرويه العهد القديم عن موسى والآباء الأولين لا يتفق إلا بشكل تقريبي مع المجرى التاريخي للأحداث، ولكن الرواة كانوا يعرفون حتى في هذه المرحلة من النقل الشفهي كيف يضفون الاناقة والخيال حتى يربطوا بين أحداث شديدة التنوع. وقد نجحوا في تقديم هذه الأحداث المختلفة في شكل حكاية لما حدث في أصل العالم والانسان، ويستطيع العقل النقدي أن يراها في نهاية الأمر معقولة بشكل كافٍ)[4].

وقد جاء في كتاب أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية وهو من تأليف الباحث ريجسكي وترجمة الدكتور اليهودي آحو يوسف (وفقاً للنصوص التوراتية كتاب (القضاة وكتب الملوك) كان الكثير من كل أصناف الـ (روئي) هؤلاء معتكفين في فلسطين. الأنبياء والبصارين والمطببين وكان من بينهم ليس فقط أنبياء يهوه بل وأنبياء الآلهة الأخرى لا بل من المحتمل أن عدد أنبياء

---

(1) موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص 33 ـ 34 ـ 21.

(2) موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص 33 ـ 34 ـ 21.

(3) موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص 33 ـ 34 ـ 21.

(4) موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص 33 ـ 34 ـ 21.

بعل كان أكثر من عدد أنبياء يهوه لكن مؤلفي التوراة حين يصفون معجزات ومآثر هؤلاء يسمون بالاسم قلة قليلة منهم وإذا سموا فإنهم يسمون أنبياء يهوه فقط والسبب مفهوم لقد أبدى دارس التوراة الأمريكي مورتون سميث ملاحظة صائبة بقوله ليس العهد القديم أكثر من مكتبة طقوسية كانت تهدف إلى تمجيد رجال الديانة المشهورين من كهنة وأنبياء وملوك كانوا يرعون عبادة يهوه)[1].

ويقول: (لا شك أن النبية دبورة كانت شخصية فريدة ولكن الجمهور من الأنبياء الذين كانوا يجولون في فلسطين فرادى أو جماعات ويتصرفون كأنهم مخبولون كان يستدعي على الأرجح ـ شعور الازدراء ـ بل السخرية من جانب الناس فالبعض فقط من الأنبياء كان يعلو فوق المستوى العام)[2].

هذا ما قاله بعض الباحثين عن الفترة الزمنية ما بين موت موسى وظهور النبي داود هذه الفترة لا تقل عن خمسمائة عام. ولقد لاحظنا أن هذه الفترة أفصحت عنها عدة أسفار في التوراة كسفر القضاة وصموئيل الأول والثاني والملوك الأول.

هنا نعود إلى مسألة هامة تطرح السؤال التالي:

ما دامت هذه الفترة الزمنية الطويلة ترجمتها عدة أسفار فلماذا لم يشر القرآن الكريم إليها وإلى أحداثها؟

وللجواب نرى أن آيات القرآن الكريم عندما تحدثت عن بني إسرائيل جاء الحديث ضمن سياق يتحدث عن الأنبياء. فالأحداث الهامة في حياة بني إسرائيل ارتبطت بالنبي موسى وأخيه هارون ارتباطاً وثيقاً.

---

(1) م. ريجسكي. ترجمة أحمد يوسف. أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية ص35.
(2) م. ريجسكي. ترجمة أحمد يوسف. أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية ص35.

والفترة الزمنية الفاصلة بين موت موسى وظهور داود لم يوجد فيها نبيٌّ يستحق الذكر. وهذا ما يؤكده صحة القول إن هذه هي فعلاً فترة التيه العقيدي والفكري لبني إسرائيل بل هي فترة الضياع الكاملة التي هي تنفيذ لحكم الله. إنها تيه في الأرض مادياً وتيه للروح والعقل والعقيدة. وحين ندرس عقائد بني إسرائيل في هذه الفترة سنرى صحة ما نقول وتشهد على ذلك التوراة نفسها والآثار التي اكتشفت ولم تدل على أي أثر لبني إسرائيل على الاطلاق في المنطقة، ولو كان هناك ثبات في المكان واستقرار لبني إسرائيل لتركوا شيئاً من الآثار المادية التي تدل على ذلك.

هذا من جانب ومن جانب آخر تحدث القرآن وبشكل مفصل عن عقائد بني إسرائيل لا سيما إيمانهم بالوثنية البعلية حيث أخذوها عن الكنعانيين وكذلك تحدث عن أخلاقهم وقتلهم لكثير من الأنبياء والمصلحين والرسل. وإفسادهم في الأرض ونشرهم كافة السلوكيات السيئة بين شعوب المنطقة.

الفصل السادس

من صموئيل إلى داود وسليمان

داود، حقيقته - عقيدته - ملكه

من صموئيل إلى داود وسليمان، داود حقيقته ـ عقيدته ـ ملكه

شأن شخصية داود لا يقل عن شأن موسى إن كان ذلك في القرآن الكريم أو كتاب التوراة وهذا الشأن يبرز من خلال التركيز على شخصيته من جانب ومدى التناقض بين ما ورد في القرآن الكريم وما ورد في التوراة من جانب آخر ومن جانب ثالث رأي الباحثين وتناقضات تصوراتهم حول شخصيته وعقيدته وملكه.

ولا شك أن القرآن الكريم والتوراة يتفقان على أن نبيا من أنبياء بني إسرائيل سبق بقليل ظهور داود على مسرح الأحداث وارتبط به حيث اعتبر هذا النبي ممهدا لبروز النبي داود.

تقول التوراة في سفر صموئيل الأول وتحديدا في آخر الإصحاح الثالث:

وكبر صموئيل وكان الرب معه ولم يدع شيئا من جميع كلامه يسقط إلى الأرض، وعرف جميع إسرائيل من دان إلى بئر سبع أنه قد أؤتمن صموئيل نبيا للرب.

وجاء في السفر نفسه الإصحاح الرابع: (فأجاب المخبر وقال هرب إسرائيل أمام الفلسطينيين وكانت أيضا كسرة عظيمة في الشعب ومات أيضا إبناك حفني وفيخاس وأخذ تابوت الله).

وجاء في الإصحاح الخامس: (فأخذ الفلسطيبيون تابوت الله وأتوا به من حجر المعونة إلى أشدود. وأخذ الفلسطينيون تابوت الله وأدخلوه إلى بيت داجون وأقاموه بقرب داجون)، وجاء في الإصحاح الثامن: (فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب).

أما في الإصحاح الحادي عشر فتقول التوراة: (وقال صموئيل للشعب هلموا نذهب إلى الجلجال ونجدد هناك المملكة فذهب كل الشعب إلى الجلجال وملكوا هناك شاؤل أمام الرب).

هذا ما جاء في سفر صموئيل عن قصة بروز شاؤل وصموئيل وللقصة بقية طويلة سنعود إليها.

أما في القرآن الكريم فيقول الله تعالى: (ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله. قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا. قالوا وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا. فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين، وقال لهم نبيّهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال. قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم. والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم. وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده. قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا

صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) سورة البقرة الآيات من 246 ـ 250.

بداية الأمر نرى أن القرآن الكريم والتوراة يتفقان على أن هذا الحدث وقع بعد موسى عليه السلام ولم يحدد القرآن الكريم الفترة الزمنية التي وقعت فيها الحادثة إنما أشار إلى أنها بعد موسى عليه السلام.

وأشار القرآن الكريم إلى نبي من أنبياء إسرائيل دون أن يشير ما هو اسمه وقد ذكرت التوراة أيضاً أن صموئيل اؤتمن نبياً للرب.

وأشار القرآن الكريم إلى التابوت كما أشارت له التوراة.

ويتفق القرآن الكريم والتوراة على أن النبي رشح لهم ملكاً لكنهم رفضوه مبدئياً لأنه لم يكن لا من بيت مال ولا من بيت النبوة لكن النبي صرح لهم أن الله اختار هذا الملك ليقودهم ضد أعدائهم ودليل ذلك أنه يأتي بتابوت الرب.

ثم يتفق القرآن الكريم والتوراة بالحديث عن الصراع الذي دار بين طالوت وجنوده من جهة وبين جالوت وجنوده من جهة أخرى.

يرد اسم النبي في التوراة صموئيل واسم الملك شاؤل بينما يرد اسم الملك طالوت. ويرد اسم جالوت في القرآن بينما يرد جوليات في التوراة.

ركز القرآن الكريم في قوله إذ قالوا لنبي لهم. فهذا التعبير لم يأت عبثاً. فالنبي هناك نكرة لم يعرف من هو. ولو كان نبياً مرسلاً لذكر القرآن اسمه وقد قال تعالى نبي لهم بمعنى أن النبي خاص بهم وليس هو مكلف برسالة محددة. وهذا يعني أيضاً أن لهم أنبياء كثيرين ومرتبتهم لا تتعدى كونهم رجالاً مصلحين مستقيمين لكنهم خاصون لبني إسرائيل.

على أية حال فإن القرآن الكريم يبين دور هذا النبي في حياتهم بعد أن ووجهوا بقوى كثيرة وأخرجوا عن المناطق التي استقروا فيها بعد طرد أهلها منها.

ولعل الآية القرآنية توضح في هذا الظرف المرتبط ببني إسرائيل أن بعضا منهم كانوا يدركون الإيمان الحقيقي بينما الأكثرية منهم نقضوا عهود الله وعبدوا الأوثان وقتلوا الأبرياء من الناس ـ تقول الآية ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله ويظهر من خلال أقوالهم أنهم أخرجوا من المناطق التي استقروا فيها وأخذت الأقوام المجاورة تأسر أولادهم وتستعبدهم.

وعندما أصبح طالوت ملكا عليهم جمعهم للقتال وكان أول امتحان لهم طلبه منهم ألا يشربوا من ماء النهر حتى يرتووا. لكنهم شربوا وارتووا فارتد معظمهم عن القتال. ولما اخترق طالوت النهر وواجه جالوت وقومه خاف البقية الذين معه وقالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت. فبقي القليل القليل وهم فئة قليلة ممن آمنوا.

وعندما نقرأ قوله تعالى: (ولما برزوا الجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين). ندرك أن الذين ظلوا مع طالوت هم القلة القليلة من بني إسرائيل وهذه القلة كانت مؤمنة بخلاف الأكثرية التي تراجعت ووصفها الله بالظالمين.

هنا لا بد من التوقف طويلا عند عدة قضايا:

1 ـ ما اسم النهر الذي ذكرته الآية الكريمة؟

2 ـ من هو جالوت ومن هم جنوده وأين وقعت المعارك بينه وبين بني إسرائيل؟

إذا قارنا بين ما جاء في التوراة وبين ما جاء في القرآن نرى أن التوراة لا تأتي على ذكر النهر وتستبدله بأسطورة أو بحكاية غريبة عن المنطق. وهي قول التوراة إن الله غطى الزرع في الحقول بعسل وطلب شاؤل أن لا أحد يذوقه. وتستطرد في القول فنرى أن ابن شاؤل نفسه أكل من ذلك العسل وهدده أبوه

بالموت من قبل ربه لأنه خالف أمره لكن الشعب يرفض موت الابن فيقبل الرب هذا الرفض فيعفيه من الموت.

جاء في صموئيل الأول الإصحاح الرابع عشر: (لأن شاؤل حلّف الشعب قائلاً ملعون الرجل الذي يأكل خبزاً إلى المساء حتى أنتقم من أعدائي.. وجاء كل الشعب إلى الوعر وكان عسل على وجه الحقل. أما يوناثان ـ ابن شاؤل ـ فمد طرف النشابة التي بيده وغمد في قطر العسل وردّ يده إلى فيه فاستنارت عيناه... فافتدى الشعب يوناثان فلم يمت).

أما النهر الذي لم تتحدث عنه التوراة فإنه يشكل مفصلاً مهماً في الجغرافيا البشرية في ذلك الوقت والواقع أن النهر هو نهر الأردن وقد أكد ذلك الرواة الإسلاميون والمفسرون. وهذا يعني أن بني إسرائيل كانوا متواجدين شرق النهر أي خارج حدود فلسطين وأن جالوت وجنوده كانوا داخل فلسطين ويبدو أن الأقوام التي وجدت آنذاك داخل فلسطين طردت بني إسرائيل من الأراضي التي كانوا قد مكثوا فيها وتشير التوراة في سفر القضاة وسفر صموئيل مراراً وتكراراً إلى معارك حدثت وكان بنو إسرائيل خاسرين فيها. ولكن التوراة لا تشير إلى إخراج بني إسرائيل إلى خارج حدود فلسطين وتحديداً شرق النهر.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس: (فلما فصل طالوت بالجنود غازياً إلى جالوت قال طالوت لبني إسرائيل إن الله مبتليكم بنهر) بين فلسطين والأردن)[1].

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: (فلما انتهوا إلى النهر ـ وهو نهر الأردن...)[2].

---

(1) السيوطي: الدر المنثور في التفسير المأثور ص 564 المجلد الأول. تفسير سورة البقرة.

(2) السيوطي: الدر المنثور في التفسير المأثور ص 564 المجلد الأول. تفسير سورة البقرة.

إن هذا يؤكد عدم مكوث بني إسرائيل بشكل حضاري مستقر في أرض فلسطين وإذا تتبعنا حديث التوراة عن الأماكن التي تواجد فيها جالوت وجنوده وجدنا أن مدينة أسدود ومدينة جت وما حولها كانت الأرض التي تواجدوا فيها.

ومنطقة أسدود تقع على الساحل الفلسطيني في الجنوب وإلى الشرق منها توجد مدينة جت. وبين هاتين المنطقتين ونهر الأردن توجد مسافة تقدر بحوالي ستين كلم وهذا يعني أن الاشدوديين ظلوا يلاحقون بني إسرائيل حتى أخرجوهم إلى شرق الأردن أما المناطق التي ذكرتها التوراة في هذا السفر فتقع جميعها بالقرب من أسدود كمنطقة الجلجال. والمصفاة والرامة. وجبع وعزيقة وبيت لحم وجبعة وهي غير جبع.

وعندما تذكر التوراة أن بني عمون نسبة إلى عمان في الأردن ـ قد هاجموا بني إسرائيل واستعبدوهم عددا من السنوات فإنما يدل على أن بني إسرائيل عندما دخلوا أرض شرق النهر رفضهم العمونيون وهاجموهم لطردهم من أراضيهم أيضا.

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أنهم كانوا مرفوضين من قبل شعوب المنطقة كلها.

نعود إلى السؤال الثاني من هو جالوت ومن هم جنوده؟

تركز التوراة على قولها إن جالوت أحد ملوك الفلسطينيين الذين كانوا مستقرين في أسدود وغزة وعقرون وجت.

والقرآن الكريم لم يشر إلى نسبة جالوت ولم تضخم شخصيته كما فعلت التوراة إنما هو رجل عادي كان يقود جيشا وحسب قول بني إسرائيل انصرنا على القوم الكافرين فهذا يعني أن جالوت كان وثنيا وأن البقية المتبقية التي

حاربت مع طالوت كانوا موحدين مؤمنين. وتؤكد التوراة أن الصـراع بـين بـني إسرائيل وبين الفلسطينيين دام سنوات طوال.

وقد رأى بعض الباحثين أن التشابه بين اسمي طالوت وجالوت يجب أن يلفت انتباهنا إذ قد يشكل دلالة على أن الحرب لا تقع بـين قومـين مختلفـين من الناحية الاثنية إن جالوت ليس اسما فلسطينيا ولا لقبا فلسطينيا ولذلك قلبه كتبة التوراة إلى جليات التي تعـني في اللغـات الهنـدو أوروبيـة العمـلاق. لكـن جوليات لا تحمل هذه الدلالـة أو ظلـها في فلسـطين ذلـك أن الكلمـة الشـبيهة (جلياط تعني الكذاب المغرور مدعي البطولة وهو جبان فكيف جاء هــذا المفـهوم للفلسطينيين ولأهل بلاد الشام بشكل عام. لنلاحظ هنا لقد نسبوا لجـالوت أنـه ملك جت وزعموا أن جت مدينة فلسطينية ومع ذلـك أعطـوا الأحيـاء الخاصـة التي يسكنونـها اسم (جت) فهل يستعير أحد اسم مدينة عدوه ليعممها على كل مواقع تواجده وكأنـها كلمة السر في تعرف اليـهودي على اليـهودي حيثما اتجـه لم تكن جت عزيزة عليه. وهل يختار أحـد اسم ملـك عـدوه جـالوت فيجعلـه الاسم الذي ينزل في ضيافته وحماه حيثما اتجه في العالم باعتبار رئيس الجالية في الجت (الجيتو) لو لم يكن جالوت هذا عزيزا على قلب كل يـهودي وجـزءا من كيانه الديني والسياسي)[1].

لقد أشار المفسرون المسلمون إلى ان جالوت ينتمي إلى العمالقة أي إلى بطن من بطون الكنعانيين باعتبار أن المنطقــة كـانت مسـكونة مـن قبـل عـدة بطـون كنعانية كاليبوسيين والفلسطينيين والحثيين والعمالقة والأموريين أو العموريين.

وترى بعض الدراسات التاريخية أن آخر من هاجر إلى أرض فلسطين هـم الفلسطينيون وهم من الأقوام الإيجية (أهل السواحل. وكـانوا قـد احتلـوا بعـض السواحل السورية العليا في أوائل القرن الثاني عشر ق.م ومنها هاجموا مصـر في

(1) عبد الرحمن غيم. روان سر الأسرار ص 170.

عهد رعمسيس الثالث 1198 ـ 1166ق.م وقد صدهم هذا الفرعون في معركة حربية بحرية نشبت بينهم حوالي 1191ق.م فاتجهوا بعد إخفاقهم إلى الساحل الفلسطيني الجنوبي في القسم الذي يمتد من غزة جنوبا إلى أسفل يافا شمالا ويذكر أن هؤلاء الفلسطينيين قد اندمجوا بالكنعانيين والعموريين كليا بحيث لم يعد بالإمكان تمييزهم عن العناصر الكنعانية والعمورية. فيقول لودس في كتابه (إسرائيل) إن الفلسطينيين قد تكنعنوا على حد قوله بسرعة في حوالي القرن الحادي عشر ق.م في خلال فترة تقل عن 150 عاما بعد استقرارهم على أرض فلسطين وكان بنو إسرائيل قد دخلوا أو تسللوا إلى بعض مناطق جنوب شرق فلسطين قادمين من الأردن. ولم يستطع يشوع أن يتحرش بهم لأنهم كانوا متفوقين بالأسلحة عليهم).

ولو أخذنا بعين الاعتبار أن الفلسطينيين قدموا إلى ساحل فلسطين الجنوبي عام 1198 فإن ذلك يعني أن هذا الزمن هو زمن التسلل الإسرائيلي الأول إلى أرض الأردن وبعض أطراف فلسطين. ولو افترضنا أن الفلسطينيين مكثوا حوالي 150 عاما وهم يندمجون شيئا فشيئا بأهل البلاد الأصليين فإننا ندرك أيضا أن الصراع بين قبائل بني إسرائيل وبين الفلسطينيين قد امتد حوالي مئة سنة على الأقل. والطبيعي أن يحدث هذا الصدام ويستمر بين طرفين يريد كل طرف السيطرة على الأرض والتوسع فيها ولما لم يكن بنو إسرائيل من القوة ليصمدوا أمام الفلسطينيين تراجعوا جغرافيا حتى أصبحوا في شرق النهر حين كان العمونيون الذين رفضوا بدورهم بقاء عنصر غريب في أرضهم فهاجموا بني إسرائيل واستعبدوهم فترة من الزمن كما أشرنا سابقا.

أما أهل البلاد الأصليون من كنعانيين ويبوسيين وعموريين فقد أشارت الدراسات أنهم كانوا منقسمين انقسامات حادة. وكل طرف منهم يعيش منغلقا في مناطق محصنة كالقدس وبعض المدن في شمال فلسطين.

فالصراع الأولي الذي احتدم كان بين طرف فلسطيني خارجي وبين طرف إسرائيلي خارجي أيضا. والصراع مع الكنعانيين كان صراعا ذا شقين. الأول مع شعوب البحر والثاني مع بني إسرائيل. وقد استوعب أهل البلاد الأصليون الشعب الفلستي حتى دمجوهم في حياتهم. وهذا هو منطق الحضارة. فالأقوى حضاريا والمستقر جغرافيا يستوعب الوافد والطاريء مهما كان جنسه أو عقائده أو تراثه، فطبيعة الأرض الكنعانية وكذلك طبيعة الحياة البشرية استطاعا استيعاب هؤلاء الفلسطينيين نهائيا. وأعتقد أنه من الطبيعي أن يستوعب الكنعانيون شعوب البحر بسرعة لتقارب ما في النمط الحضاري والأسطوري والعقيدي. بينما نرى عدم استيعاب لبني إسرائيل لأسباب كثيرة أهمها. المستوى الفكري والثقافي المتخلف جدا، والتقلب العقيدي المستمر، والطبيعة الشخصية العدوانية وهذا الأخير أكدته التوراة كما أكده القرآن الكريم وكذلك تؤكده الدراسات الاجتماعية والتاريخية كما تؤكده الوقائع اليومية التي نراها ونلمسها في عصرنا الحاضر، على أية حال فإننا نرى أن شخصية جوليات أو جالوت شخصية ليس لها خصائص مميزة سوى أنها شخصية رجل قاد جيشا وسقط صريعا في إحدى المعارك. وما تقوله التوراة في وصفها له ليس إلا من باب التأكيد على إدامة الصراع مع الفلسطينيين بعد أن أصبح اسم فلسطين تسمية لأرض كنعان وشعبها الكنعاني.

المهم في الأمر أن بني إسرائيل لم يستطيعوا مقاتلة جوليات والفلسطينيين والذي حاربه هم فئة قليلة تميزت بأنها موحدة مؤمنة بالله الواحد وبتعاليم الوحدانية الصحيحة كما جاءت في توراة موسى. ولو دققنا النظر في النصوص التوراتية لوجدنا أن بني إسرائيل أو غالبيتهم كانوا وثنيين حتى في أوج أزمتهم زمن صموئيل وشاؤل وهذا سفر صموئيل الأول والثاني والملوك يمتلئ بالحديث عن وثنيتهم المستمرة قد يقول قائل إن هذا لا ينفي أن بني إسرائيل جميعهم قد انتصروا على الفلسطينيين وأعادوا احتلال جزء من البلاد وذلك بأمر من الرب

الذي ساهم حسب نص القرآن في انتصار داود على جالوت وإقامة ملك بني إسرائيل.

وحقيقة الأمر أن المسألة ليست كذلك ولو دققنا في آيات القرآن الكريم لأدركنا أن نصرة الله لداود ولمن كان معه ليست نصرة لبني إسرائيل. لقد نصر الله داود ليس لأنه من أكثرية بني إسرائيل وليس لأنه كما تقول التوراة ينتمي إلى أحد الأسباط وليس لأنه كان يهوديا كما يزعم بعضهم. إن نصرة داود الإلهية هي نصرة للدين الموحد ضد التعددية والوثنية وضد بني إسرائيل أنفسهم وسنرى كيف أن الأحداث تؤكد ذلك وخاصة إذا دققنا النظر جيدا فيما قالته التوراة عن داود وفيما قاله القرآن الكريم.

لقد تحدثنا في الصفحات السابقة عن وقائع وأحداث وقضايا سبقت الحديث عن داود (ع) باعتبارها التمهيد الضروري لمعرفة الظروف التي جعلت داود عليه السلام يبرز إلى ساحة الأحداث.

ونعود في هذا البحث إلى شخصية داود وكيف تحدثت عنه التوراة وكيف تحدث عنه القرآن الكريم. ثم نستعرض أقوال بعض الباحثين الغربيين والعرب وبعض ما قاله المفسرون وهم يتناولون تفسير الآيات القرآنية الخاصة بالحديث عن داود عليه السلام.

يبدأ ظهور داود عليه السلام في النص التوراتي في الإصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الأول وتنقطع أخباره إلى أن تحدث معركة بين شاؤل وبني إسرائيل من جهة وبين الفلسطينيين من جهة أخرى فيكثر الحديث عن داود إلى أن يقتل شاؤل مع أولاده الثلاثة في معركة جبل جلبوع وهذا السياق يأتي مع نهاية سفر صموئيل الأول في الإصحاح الحادي والثلاثين.

وتبدأ حياة داود كزعيم منذ الإصحاح الأول في سفر صموئيل الثاني، ومع بداية سفر الملوك الأول يظهر داود وقد شاخ وكبر وبرز ابنه سليمان وفي

الإصحاح الثاني من هذا السفر يموت داود ويخلفه في الحكم سليمان، وتتحدث التوراة عن داود في أخبار الأيام الأول، ثم تخصص لداود مزامير وتشير يقولها، لإمام المغنين على ذوات الأوتار مزمور داود وتنسب إلى داود سبعين مزمورا.

جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الأول: (فأجاب واحد من الغلمان وقال هو ذا قد رأيت ابنا ليسى البيتلحمي يحسن الضرب وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه) (فجاء داود إلى شاؤل ووقف أمامه فأحبه جدا وكان له حامل سلاح).

(فقال داود لشاؤل لا يسقط قلب أحد بسببه عبدك يذهب ويحارب هذا الفلسطيني فقال شاؤل لداود لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الفلسطيني لتحاربه لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه) الإصحاح السابع عشر.

وفي نهاية الإصحاح السابع عشر: ولما رأى شاؤل داود خارجا للقاء الفلسطيني قال لأبنير رئيس الجيش ابن من هذا الغلام يا أبنير فقال أبنير وحياتك أيها الملك لست أعلم... ولما رجع داود من قتل الفلسطيني أخذه أبنير وأحضره أمام شاؤل ورأس الفلسطيني بيده فقال له ابن من أنت يا غلام فقال داود عبدك ابن عبدك يسى البيتلحمي.

وجاء في الإصحاح الثامن عشر: (هوذا قد سر بك الملك وجميع عبيده قد أحبوك فالآن صاهر الملك. فتكلم عبيد شاؤل في أذني داود بهذا الكلام فقال داود هل هو مستخف في أعينكم مصاهرة الملك وأنا رجل مسكين وحقير).

وتقول: (ولم تكمل الأيام حتى قام داود وذهب هو ورجاله وقتل من الفلسطينيين مئتي رجل وأتى داود بغلفهم فأكملوها للملك لمصاهرة الملك فأعطاه شاؤل ميكال ابنته امرأة فرأى شاؤل وعلم أن الرب مع داود، وميكال ابنة شاؤل كانت تحبه، وعاد شاؤل يخاف داود بعد ذلك وصار شاؤل عدوا لداود كل الأيام).

ويأتي في الإصحاح الحادي والعشرين: (وقام داود وهرب في ذلك اليوم من أمام شاؤل وجاء إلى أخيش ملك جت فقال عبيد أخيش له أليس هذا داود ملك الأرض. فوضع داود هذا الكلام في قلبه وخاف جدا من أخيش ملك جت. فغير عقله في أعينهم وتظاهر بالجنون بين أيديهم وأخذ يخربش على مصاريع الباب ويسيل ريقه على لحيته).

وفي الإصحاح الثاني والعشرين: (فذهب داود من هناك ونجا إلى مغارة عدلام فلما سمع إخوته وجميع بيت أبيه نزلوا إليه إلى هناك. واجتمع إليه كل رجل متضايق وكل من كان عليه دين وكل رجل مر النفس فكان عليهم رئيسا وكان معه نحو أربعمائة رجل.

وذهب داود من هناك إلى مصفاة موآب وقال لملك موآب ليخرج أبي وأمي إليكم حتى أعلم ماذا يصنع الله، فودعهما عند ملك موآب فأقاما عنده كل أيام إقامة داود في الحصن).

وفي الإصحاح 24: (ولما رجع شاؤل من وراء الفلسطينيين أخذ ثلاثة آلاف رجل منتخبين من جميع إسرائيل وذهب يطلب داود ورجاله على صخور الوعول).

وجاء في الإصحاح السابع والعشرين: (فقام داود وعبر هو والست مائة الرجل الذين معه إلى أخيش بن معوك ملك جت. وأقام داود عند أخيش في جت هو ورجاله).

وفي الإصحاح 29: (فدعا أخيش داود وقال له حي هو الرب إنك أنت مستقيم، فأجاب أخيش وقال لداود علمت أنك صالح في عيني كملاك الرب).

وجاء في الإصحاح الحادي والثلاثين: (ولما رأى رجال إسرائيل الذيـن في عبر الوادي والذين في عبر الأردن أن رجال إسرائيل قد هربوا وأن شـاؤل وبنيـه قد ماتوا تركوا المدن وهربوا فأتى الفلسطينيون وسكنوا بها).

وجاء في الإصحاح الثاني في صموئيل الثاني: (فقال داود إلى أيـن أصعـد فقال إلى حبرون، وأصعد داود رجاله الذين معه كل واحد وبيته وسكنوا في مدن حبرون وأتى رجال يهوذا ومسحوا هناك داود ملكا على بيت يهوذا).

(وكانت المدة التي ملك فيها داود في حبرون على بيت يهوذا سبع سنين وستة أشهر، وجاء في الإصحاح الخامس، وجاء جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك في حبرون فقطع الملك داود معهم عهدا في حبرون أمام الرب ومسحوا داود ملكا على إسرائيل).

وكان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك. وملك أربعين سنة، في حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر وفي أورشليم ملك ثلاثـا وثلاثـين سـنة علـى جميع إسرائيل ويهوذا.

وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض. فكلموا داود قائلين لا تدخل إلى هنا ما لم تنزع العميان والعرج. وأخذ داود حصـن صـهيون وهي مدينة داود.

وفي الإصحاح السادس: (وبقي تابوت الرب في بيت عوبيـد أدوم الجـتي ثلاثة أشهر وبارك الرب عوبيد أدوم وكل بيته).

وفي الإصحاح السابع: (قال الرب أأنت تبـني لي بيتـا لسـكناي لأنـي لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليـوم بـل كنـت أسير في خيمة وفي مسكن).

وجاء في الإصحاح الحادي عشر: (وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جدا فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها. ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلى.

وفي الصباح كتب داود مكتوبا إلى يوآب وأرسله بيد أوريا وكتب في المكتوب يقول اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت. ومات أوريا الحثي فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها. ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب).

وجاء في الإصحاح الثاني عشر: (فأرسل الرب ناثان إلى داود فجاء إليه وقال له كان رجلان في مدينة واحدة واحد منهما غني والآخر فقير. وكان للغني غنم وبقر كثيرة جدا فأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها وكبرت معه فجاء ضيف إلى الرجل الغني فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيىء للضيف الذي جاء إليه، فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيأ للرجل الذي جاء إليه، فحمي غضب داود على الرجل جدا فقال لناثان حي هو الرب إنه يقتل الرجل الفاعل ذلك ويرد النعجة أربعة أضعاف فقال ناثان لداود أنت هو الرجل هكذا قال الرب إله إسرائيل.. لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه قد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة. والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد... فقال داود لناثان قد أخطأت إلى الرب فقال ناثان لداود الرب أيضا قد نقل عنك خطيتك. لا تموت غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشتمون فالابن المولود لك يموت وضرب الرب الولد الذي ولدته امرأة أوريا لداود فقتل).

وعزى داود بتشبع امرأته ودخل إليها واضطجع معها فولدت ابنا فدعا اسمه سليمان والرب أحبه. فجمع داود كل الشعب وذهب إلى ربة وحاربها وأخذها.

وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد فأمرهم في أتون الآجر وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون.

إلى هنا يتوقف فصل آخر من حياة داود، حيث يبدأ فصل جديد يرتبط بصراع أبنائه وبعض ما فعلوه من هتك للأعراض والثورة على داود وقتل عدد منهم.

أما في القرآن الكريم فقد ورد ذكر داود عليه السلام ست عشر مرة في آيات متفرقات ونستطيع أن نحدد من خلالها مسار حياته وفكره وحتى زمنه.

يقول تعالى: (فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وأتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) البقرة 251.

ويقول تعالى في سورة النساء: (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وأتينا داود زبورا 163، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما 164).

ويقول تعالى: (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) المائدة 78.

ويقول تعالى: (ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين) الأنعام 83 ـ 84.

ويقول تعالى: (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان وكلا أتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) الأنبياء 78 ـ 80.

ويقول تعالى: (ولقد أتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعلمون بصير) سبأ آية 11.

ويقول تعالى: (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق. والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه وأتيناه الحكمة وفصل الخطاب. وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب. إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط. إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجة وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا الزلفى وحسن مآب. يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) سورة ص 17 ـ 26.

من خلال المقارنة بين ما ورد في التوراة وما ورد في القرآن نرى أن خطوطا كثيرة مشتركة نجملها فيما يلي:

1 ـ بروز داود خلال حرب شاؤل مع أعدائه (شاؤل ـ طالوت).

2 ـ وصوله للملك وتعزيزه وتقويته.

3 ـ القضاء عند داود خاصة في قصة الخصمين اللذين تقاضيا عنده بشأن النعاج.

4 ـ الاتفاق على أن داود والد سليمان.

5 ـ الاتفاق على أن داود جمع إلى الملك النبوة والحكمة.

6 ـ الاتفاق على طول مدة الملك.

وهناك اختلافات كثيرة أيضا:

1 ـ تشير التوراة إلى داود على أنه ابن يسى البيتلحمي وتشير له بأنه من أحد أسباط إسرائيل بينما القرآن لا يشير إلى ذلك.

2 ـ يفترق القرآن عن التوراة بأنه لا يشير إلى أي صراع بين داود وشاؤل.

3 ـ ترى التوراة أن هناك نبيا أو أنبياء وجدوا في عصر داود وكانوا قريبين منه.

4 ـ تزعم التوراة أن داود خطف امرأة أوريا الحثي وزنا فيها وأنجبت ولدا حراما ثم تزوجها بعد قتله لزوجها وأنجبت سليمان النبي.

5 ـ التناقض في كلام التوراة لا سيما في وصف داود وشخصيته.

6 ـ ترى التوراة أن داود تصنع الجنون عند الملك أخيش وهذا ما لم يرد في القرآن الكريم.

7 ـ تشير التوراة إلى مزامير تنسب بعضها لداود بينما يورد القرآن بقول الله تعالى وآتينا داود زبورا.

8 ـ تدعي التوراة أن الله طلب من داود بناء بين ليسكن فيه بدل أن يظل في السحاب.

9 ـ تدعي التوراة أن داود قتل أبناء عمون بالمناشير والفؤوس وأحرقهم بالأفران.

تعتبر شخصية داود مفتاحا لعدد من الدراسات والبحوث لما لها من علاقة بالقضايا التاريخية والعقيدية ولما تفتح من آفاق بحثية حول علاقة بني إسرائيل به وطبيعة ملكه ومملكته.

فاليهود المعاصرون يعتبرون أن داود أحد أهم الشخصيات النبوية في تاريخهم. فهو مؤسس أول مملكة إسرائيلية في تاريخهم بل يعتبرونه أول من استطاع توحيد القبائل الإسرائيلية في دولة واحدة، ولهذه الأسباب وغيرها كان لا بد من التوقف طويلا وبشكل دقيق أمام ما أوردته التوراة وما أورده القرآن الكريم عن داود.

فداود ينتسب إلى يسى البيتلحمي وهو من أسرة ليست مشهورة في بني إسرائيل خاصة زمن شاؤل ـ طالوت ـ وإذا نظرنا إلى سفر راعوث وجدنا أن التوراة تتحدث عن امرأة أرملة مات زوجها اسمها راعوث وهي من موآب وليست إسرائيلية، وباختصار يتزوجها رجل يسمى بوعز وهو من بين لحم وهذا بوعز يأتيه ولد منها اسمه يسى).

ويسى هو والد داود حسب النص التوراتي، وعلى هذا فجدة داود التي هي راعوث موآبية وليست من بني إسرائيل.

وكان لداود إخوة كثيرون قالت التوراة إنهم سبعة، لكن والد داود وإخوته السبعة وجميعهم أكبر من داود لم يكن لهم شأن بين القبائل الإسرائيلية، ولو كان والد داود أو داود له أهمية مسبقة لدى بني إسرائيل لظهر تسلسل أهميته منذ والده مرورا بإخوته ولو لم يكن هناك اختيار رباني لداود ليكون نبيا وملكا لما أصبح كذلك كونه من أسرة مغمورة في بني إسرائيل.

ويستوقفنا في هذا الشأن اسم داود نفسه، فالاسم ليس مألوفا بين أسماء بني إسرائيل فنحن نرى أن أسماء إخوته كما وردت في التوراة هي أسماء أقرب إلى اللسان العبري فالأول اسمه ألبآب والثاني أبينا داب والثالث شمة بينما اسم داود لا يمت بصلة إلى هذا اللسان. والذين دونوا التوراة لم يستطيعوا إخفاء حقيقة اسمه وغاب عن أذهانهم أن هذا الاسم ليس اسما عبرانيا مما يفتح الباب للتساؤل إذا من أين جاء الاسم؟ وهل هذا يعني أن لا صلة بين داود وبين القبائل العبرانية؟

لقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب).

فالأيد هو التأييد. وإن ذا الأيد في القرآن الكريم هي تفسير لاسم داود كما يرى بعض الباحثين[1]. ومن الواضح أقرب لغتين لاسم داود هما الآشورية والبابلية (دا، أود) إذن فالاسم ليس عبرانيا ولو نظرنا إلى أسماء بعض الأشخاص في عصره لتبين لنا ذلك. فنرى مثلا صموئيل شاؤل، أفرايم، أبنير، يوناثان. أبشالوم، إمنون إلى آخر ما هناك من أسماء، حين نبحث عن اسم سليمان كذلك نرى أنه غريب أيضا عن أسماء اللغة العبرية.

إذا انتقلنا للبحث في نبوة داود وملكه. نرى أن القرآن يشير إلى نبوة داود قبل الملك وهذا منطقي إذ أن النبوة أسبق على الملك طالما أن غاية الله في بعث أنبيائه هداية البشر أولا ثم الحكم لهم ثانيا والواقع أن الحديث عن نبوة داود يستجر الحديث عن عقيدته وماهيتها وشأن الكتاب ـ الزبور الذي أنزل عليه.

()عبد الرحمن غنيم. روان. سر الأسرار. صفحة 102 ـ دار الجليل دمشق.

فهل كان داود على دين اليهودية وعقيدتهم؟

لنعد إلى قوله تعالى: (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) البقرة آية 48.

فالحديث هنا عن طالوت الذي قاتل داود في صفوف جنوده وقتل جالوت.

فالآية توضح أن التابوت يحوي بقية من تعاليم آل موسى وآل هارون، ومعلوم أن موسى ألقى الألواح التي كتب عليها الشريعة أو كسرها حسب قول التوراة وبقيت منها بقية من التشريع الإلهي لموسى، فإذا كان داود عليه السلام مكلفا بإقامة دين التوحيد فإنه لا شك سيقيم تشريع موسى الداعي إلى التوحيد، وهذا يعني أن عقيدة داود هي عقيدة موسى وأن ما بقي من شريعة التوراة أخذه داود بعد شاؤل وصفاه من شوائب بني إسرائيل ومن تشويههم الشفهي له.

فالأنبياء جميعا ولا سيما الذين ذكرهم الله عز وجل في القرآن الكريم ينتمون لعقيدة الإسلام فموسى كما أشرنا لم يخترع اليهودية أو يؤسسها بل تابع دين الإسلام واليهود هم من تخلوا عن موسى ثم قالوا بعد زمن إنهم تابعوا ورجعوا إلى الحق. وما ينطبق على موسى ينطبق على داود. فإذا كان داود يحكم بشريعة موسى التي بقيت منها أشياء فإنه بذلك يحكم من خلال العقيدة الإسلامية بمفهومها الشامل.

يقول تعالى: (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) المائدة 44.

فهل بعد هذا البيان الإلهي نستطيع أن نطلق على داود أنه يهودي أو من أنبياء اليهود إن جميع الآيات القرآنية التي تحدثت عن الأنبياء تشير بوضوح إلى أنهم أسلموا لله قلوبهم وعقولهم وحكموا أقواما متنوعة عقائدهم. والآية السابقة تشير إلى أن هؤلاء الأنبياء الذين أسلموا كانوا يحكمون لليهود في قضاياهم العقيدية التشريعية. ولولا أن الأنبياء أسلموا الله لما حكموا أو حكم غيرهم إلا بما يهوى هؤلاء اليهود.

ولعلنا ونحن نطالع الآية الكريمة السابقة والآيات التي تليها لعرفنا أن المقصود بهؤلاء الأنبياء هم داود وسليمان وزكريا ويحيى، والدليل على ذلك ما نراه في سورة المائدة:

يقول تعالى: (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون 44، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون 45، وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وأتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين 46) المائدة 44 ـ 46.

فالآيات واضحة في قول الله وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم، والمقصود على آثار هؤلاء الأنبياء الذي أسلموا وحكموا لليهود قبل عيسى، ومعلوم أن الأنبياء الذين أرسلهم الله قبل عيسى هم زكريا ويحيى وسليمان وداود، وأقاموا حكم الشريعة التوراتية كما نزلت على موسى عليه السلام لا كما أرادها بنو إسرائيل أو كما وصلتنا مصنوعة بأيديهم.

وقد أشارت التوراة إلى أن داود كان إمام المغنين وما كان يرنمه ويغنيه عبارة عن مزامير. وقد أشرنا إلى أن المزامير التي نسبوها لداود تصل بحدود الخمسين مزمورا بينما يشير القرآن الكريم إلى أن الله أنزل على داود زبورا.

وإذا نظرنا جيدا في المزامير وجدنا أنها في أكثرها أدعية للرب وما جاء في هذه المزامير يدل على صلة قوية بين النبي داود عليه السلام وبين ربه. ولكننا لو دققنا النظر جيدا وجدنا أن بعض ما كان يقوله داود يخالف ما ورد في التوراة في الأسفار التي تحدثت عن داود.

فنرى مثلا في المزمور الخامس: (رجل الدماء والغش يكرهه الرب أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل بيتك أسجد في هيكل قدسك بخوفك).

وجاء في سفر الملوك: (وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد فأمرهم في أتون الآجر وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون).

وفي بعض المزامير نرى خطاب داود لربه يتغير حتى ليشعر المرء أن رجلين يتكلمان وليس رجلا واحدا.

جاء في المزمور الرابع والأربعين: (استيقظ لماذا تتعافى يا رب، انتبه لا ترفض إلى الأبد لماذا تحجب وجهك وتنسى مذلتنا وضيقنا).

وباعتبار أن التدوين التوراتي تم في أيام السبي فقد جمعت نصوص كثيرة تحت عنوان مزامير حتى أن بعضها قيل على شاطىء الفرات باعتراف التوراة نفسها.

وقد ورد ذكر الزبور مرتين في القرآن الكريم مرة في سورة النساء بقوله تعالى (وآتينا داود زبورا 163). ومرة أخرى في سورة الأنبياء بقوله تعالى: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) الآية 105.

وذكر المفسرون. أن الزبور الذي أنزل على داود هو مئة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام. بل فيها تسبيح وتقديس وتحميد وثناء على الله عز وجل ومواعظ[1].

وهذا القول عام لأن المدقق بمزامير داود يجدها مائة وخمسين ولكنها لا تنسب جميعها إلى داود. فهناك مزامير لسليمان ومنها صلوات نسبوها للنبي موسى عليه السلام كالمزمور رقم 90 ومنها قصائد نسبوها لإيثان الازراحي كما في المزمور 89 وغير ذلك كثير مما نسب لقورح إمام المغنين، ومنها مزمور أوله (على أنهار بابل).

وقد نص القرآن الكريم على أن داود لعن بني إسرائيل لأنهم عصوا. يقول تعالى: (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) المائدة 78.

ففيما يتعلق بالعصيان والاعتداء فإن أكثر بني إسرائيل عصوا أوامر داود التي استند فيها على التوراة الحقيقية واعتدوا على الناس والأنبياء والاعتداء شامل عام لم يحدد بفئة معينة. وهذا يدل على أنهم كرروا الاعتداءات حتى أصبحت ملاصقة لطبيعتهم ولذلك لعنوا على لسان داود وعلى لسان المسيح عليهما السلام.

وحين ترتبط نبوة داود بملكه يتسع المجال أكثر ليدرك المرء طبيعة ملك **هذا** النبي ومملكته.

لقد ورد ذكر داود في القرآن الكريم ست عشرة مرة وذكرنا ذلك سابقا وإذا نظرنا في الآيات الكريمة وجدنا أنها تساعد في فهم تسلسل حياة داود كنبي وكملك.

---

(1) إعراب القرآن وبيانه. محمد علي طه الدرة، المجلد الثالث صفحة 188.

(وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) البقرة 251.

(واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) سورة ص 17.

(إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق) ص 18.

(والطير محشورة كل له أواب) ص19.

(وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) ص20.

(وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب. إذ دخلوا على داود ففزع منهم).

(يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) ص26.

(وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين) الأنبياء 78.

فقد ظهر داود فجأة أثناء صراع طالوت مع جالوت، وقتل داود الجبار جالوت ولم يشر القرآن الكريم كيف قتله. ولكن التوراة تشير إلى أنه أصبح محبوبا لدى شاؤل وزوجه ابنته ميكال ثم جرت عدة محاولات لقتله من قبل شاؤل وباءت جميعها بالفشل إلى أن حدثت إحدى المعارك بين شاؤل والفلسطينيين وقتل فيها هو وأبناؤه الثلاثة. ثم ارتحل داود إلى الخليل حيث بايعه أنصاره وعينوه ملكا بينما أنصار شاؤل انقسموا لوحدهم وعينوا ابنا لشاؤل ملكا عليهم، ثم ما لبث داود أن قاتلهم ومن ثم خضع له جميع أسباط إسرائيل وعينوه ملكا عليهم فأصبح ملكه يضم بني يهودا وبني إسرائيل.

فمن حيث السياق العام لا خلاف بين القرآن الكريم والتوراة في أن داود تسلم الملك بعد شاؤل ـ طالوت ـ وقد علمه الله سبحانه مما يشاء من أمور الحكم والقضاء والقوة.

وتذكر التوراة أن داود قام بحروب كثيرة واتسع ملكه حتى وصل خليج العقبة ودانت له البلاد التي حولها فافتتح بلاد الفلسطينيين وأخذ دمشق عاصمة ملك الآراميين بعد حرب شديدة وحارب الأقوام الذين على الفرات ونصر عليهم.

ولكن التوراة نفسها تذكر أمورا تتناقض كليا مع طبيعة النبوة التي كان عليها داود فقد ذكرت أن داود رأى امرأة تستحم فجلبها وزنا فيها فأنجب ولد حرام وبعث بزوجها الحثي أوريا ليقتل في الحرب وقتل الرجل فجلبها داود إلى مجموع نسائه ثم ضاجعها فولدت له سليمان بعد أن مات الطفل الأول.

فهذا المنطق التوراتي لا يتوافق مطلقا مع النبوة، فالأنبياء معصومون والعصمة إلهية فكيف بداود يرتكب فاحشتين هما الزنا والقتل بغير حق. وهذا الخبر لم يرد في القرآن الكريم لأنه تلفيق من خيال من كتبوا التوراة بعد داود بمئات السنين. وقد استخدم داود أخس الأساليب ليقتل أوريا الحثي حيث أوصى رئيس جنده بأن يبعث بأوريا في مقدمة الجيش ليكون في متناول الأعداء وَتورد التوراة أن ناثان الذي جاء ليقرع داود بفعله كان نبيا. فكيف يصح أن يقرع ناثان داود وكيف يمكن أن يكون ناثان نبيا أرفع شأنا من داود والتوراة نفسها لا تعطي أي وزن لناثان إلا في هذه الحادثة؟

وتحاول التوراة أن تخفي دور الملائكة الذين جاؤوا ليحكموه في أمر النعاج. وقد أورد القرآن الكريم القصة بوضوح، فليس هناك وجود لنبي اسمه ناثان بل هناك وجود لملكين دخلا على داود بهيأة رجلين وقد فزع داود منهما. والسبب أنه لا يمكن أن يدخل قصره رجل ويجتاز الأبواب والحراس. وفزعه هو دهشته لكيفية دخول هذين الرجلين إلى مخدعه.

يقول البيضاوي: وأقصى ما في هذه القصة الإشعار بأنه عليه السلام ود أن يكون له ما لغيره وكان له أمثاله فنبهه الله بهذه القصة فاستغفر وأناب وما

روي أن بصره وقع على امرأة فعشقها وسعى حتى تزوجها وولدت منه سليمان وما قيل أنه أرسل أوريا مرارا إلى الحرب وأمر أن يتقدم حتى قتل فتزوجها هزء وافتراء، ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مئة وستين. مئة حد القذف وستون زيادة لأن المقذوف نبي.

وبعيد من الحكمة أن يكون الحكيم فاسقا قاتلا من غير حق ولا برهان.

وداود كنبي معصوم لا يمكن أن يقع بمثل هذه المغريات وقد شهدت له التوراة نفسها بصدقه وخوفه من الله وطهارته.

ففي صموئيل الثاني في الإصحاح 22 يقول داود (يكافيني الرب حسب بري حسب طهارة يدي يرد علي لأني حفظت طرق الرب ولم أعص إلهي لأن جميع أحكامه أمامي فرائضه لا أحيد عنها).

وفي الإصحاح الثالث من سفر الملوك الأول فقال سليمان (إنك قد فعلت مع عبدك داود أبي رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبر واستقامة قلب معك فحفظت له هذه الرحمة العظيمة).

وفي الإصحاح السادس من أخبار الأيام الثاني قول الله لداود (إن يكن بنوك طرقهم يحفظون حتى يسيروا في شريعتي كما سرت أنت أمامي) فهل يريد الله لأبناء داود الذين يقويهم ويملكهم أن يكونوا كداود زناة قتلة[1].

وإذ عدنا إلى الحديث عن ملك داود فإننا لا نرى في القرآن الكريم سوى أن الله سبحانه آتاه الملك دون أن نعرف أين ملكه وفي أي أرض كان وقد من الله عليه بالحكمة والقضاء وتسبيح الجبال والطير معه لكثرة ما كان يسبح الله.

---

(1) عبد الوهاب النجار قصص الأنبياء ص 340 ـ 341.

وقد وصفه الله سبحانه بقوله: (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) سورة ص17. فهو المؤيد من الله سبحانه وكان أوابا لله متبتلا.

لكننا إذا عدنا لبعض الآيات الكريمة التي تحدثت عن سليمان وجدنا بعض ملامح هذه الأرض التي أقام داود مملكته عليها ثم ورثه ابنه سليمان فيها.

يقول تعالى: (ولسليمان الريح عاصفة تجري إلى الأرض التي باركنا فيها) فالأرض التي باركها الله تشمل القدس وما حوله وتصل حتى حدود مكة وقد أشرنا لذلك أثناء حديثنا عن إبراهيم عليه السلام.

ورغم ذلك لا يعني أن هذه الأرض كانت هي ملك داود ومن بعده سليمان. فقد تكون المملكة المشار إليها جزءا من هذه الأرض، وعلى افتراض أن داود عليه السلام أقام ملكه في أرض فلسطين فإن ذلك يستدعي التوقف طويلا حول ذلك.

سبق وأشرنا إلى قول التوراة أن داود حكم في حبرون ـ الخليل ـ سبع سنوات وستة أشهر وحكم في إسرائيل اثنتين وثلاثين سنة وستة أشهر بمعنى أنه حكم أربعين سنة.

لنرى معا ماذا تقول التوراة:

(وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض فكلموا داود قائلين لا تَدخل إلى هنا ما لم تنزع العميان والعرج. وأخذ داود حصن صهيون. وهي مدينة داود).

وكانت المدة التي ملك داود في حبرون على بيت يهوذا سبع سنين وستة أشهر. وجاء جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك في حبرون فقطع الملك داود معهم عهدا في حبرون أمام الرب ومسحوا داود ملكا على إسرائيل.

وفي أورشليم ملك ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهودا.

وفي سفر القضاة الإصحاح الأول تقول التوراة: (وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم).

ولم يطرد منسّى أهل بيت شان وقراها ولا أهل تعنك وقراها ولا سكان دور وقراها ولا سكان بلعام وقراها ولا سكان مجدو وقراها.

وأفرايم لم يطرد الكنعانيين الساكنين في جازر فسكن الكنعانيون في وسطه في جاذر زبولون لم يطرد سكان قطرون ولا سكان نهلول فسكن الكنعانيون في وسطه ولم يطرد أشير سكان عكو ولا سكان صيدون وأحلب وأكزيب وحبلة وأفيق ورحوب.

ونفتالي لم يطرد سكان بيت شمس ولا سكان بيت عناة بل سكن في وسط الكنعانيين سكان الأرض.

وجاء في الإصحاح الثالث ـ قضاة: فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لنبيهم وعبدوا آلهتهم.

فبالنسبة للقدس بقيت في أيدي سكانها باعتراف التوراة نفسها. والملك داود لما أراد أن ينشئ قصره في القدس قام بشراء قطعة أرض على جبل الزيتون خارج أسوار المدينة من أصحابها اليبوسيين.

وليس هناك ما يشير إلى أي حدث تاريخي اضطر سكان القدس غير الموسويين بسبب مغادرة مدينتهم إذ لم يصبهم شيء من تيارات التشريد والتقتيل والسبي التي أصابت الموسويين والدليل على احتفاظ سكان البلاد

الأصليين بأرضهم أنهم تمكنوا من إخضاع بني إسرائيل لحكمهم قبيل وخلال عهد القضاة[1].

لماذا اختار داود جبل الزيتون ليبني قصره ومعبده؟

لو نظرنا إلى التسرب الإسرائيلي إلى فلسطين لوجدنا أن أكثر التجمعات الإسرائيلية وجدت في منطقة الخليل. وفي الشمال الشرقي حيث بقي سكان المدن الساحلية متواجدين في أراضيهم.

فكان يمكن لداود أن يبقى في الخليل أو أن يصنع مدينة تكون له عاصمة ملكه في الشمال لكنه ترك الخليل ولم يذهب إلى الشمال واختار جبل الزيتون المطل على القدس ليؤسس هناك عاصمة ملكه ولذلك أسباب كثيرة.

قلنا في صفحات سابقة إن داود لم يكن من عائلة قوية حتى ينافس غيره على الملك. وقد كان معه حسب ما قالت التوراة نفسها أربع مائة رجل ثم ستمائة وأخضع يهوذا لملكه. ثم حارب إسرائيل مدة زمنية طويلة حيث سحب الملك من ابن شاؤل وقتل فدان له بنو إسرائيل. وفي المحصلة فإن يهوذا وإسرائيل كانوا على عداء سابق مع داود. وداود لن يأمن غدرهم وشرهم فاختار منطقة بعيدة عن هؤلاء وهؤلاء أي أنه اختار جوار القدس وفضل مجاورة اليبوسيين الكنعانيين على مجاورة يهودا وإسرائيل، وهذا يؤكد أن عقيدة داود لم تكن كعقيدة اليهود. فقد استطاع إخضاعهم لملكه وعقيدته وقد عاونه بذلك أناس لم يكونوا من بني إسرائيل كأوريا الحثي وبعض الأدوميين وبعض اليبوسيين ولم يكن على عداء مع اليبوسيين لا عقيديا ولا استراتيجيا، وهذا ما يؤكده قول الله تعالى: (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) المائدة 44. فداود المسلم كان يحكم بقضائه للذين

---

(1) أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ 294.

كانوا يهوداً وهو يدرك أن هـؤلاء اليـهود لـن يحكمـهم ملـك أو نـبي مـن أبنـاء عقيدتهم لأنه سيضل كما يضلون والتوراة أكبر شاهد على ذلك. لقد حكـم بـني إسرائيل في عهد القضاة عشرات منهم لكنهم فسدوا وعملوا الشر في عـين الـرب وكذلك لو نظرنا إلى العهد الذي جاء بعد سليمان لوجدنا أن ملوكهم أقاموا عقائد الوثنية وأحلـوا الحـرام. ولم يتمكـن سـوى داود وسـليمان مـن حكمـهم حسـب العقيدة الصحيحة لأنـهما كانـا مسـلمين علـى ملـة إبراهيـم وموسـى ولم يكونـا يهوديين. وعلى الرغم من ذلك وذاك فإن علـم الآثـار والمكتشـفات يـرى أنـه لا توجد مخلفات كثـيرة خـارج القـدس تعـود إلى عـهد داود لأنـه في الحقيقـة لم يشتهر بتشييد الأبنية ورأى أن داود كان مشغولاً بالدفـاع عـن عقيـدة التوحيـد والقضاء حسب الشريعة الإسلامية العامة لمشاكل هـؤلاء اليـهود. ولعـل الآيـات القرآنية بعدم إشارتها لجغرافية ملكه دليل واضح على أن الملك لدى داود كـان ملكاً يستند إلى قوة العقيدة التوحيديـة ونشـرها وليـس إلى قـوة التشـييد والبنـاء الحضاري.

ولعل علماء الآثار الذين لم يكتشفوا آثاراً تدل على عصر داود لا يدركـون أن مُلك الأنبياء ليس شرط إقامة البنيان والحضارة المادية بقدر ما هو نشـر ديـن الوحدانية ومحاربة المعتدين والفاسقين والذين ينقلبون بين يوم وليلة من عقيـدة لعقيدة.

وفي حزيران من عام 1993 طرد البروفسور توماس طومسن أستاذ علم الآثار في جامعة ماركويت في ميلواكي من منصبه لأنه أوضح في كتابه الأخير (التـاريخ القديم للإسرائيليين) أن مجموع التاريخ الغربي لإسرائيل وللإسـرائيليين يسـتند إلى قصص من العهد القديم من صنع الخيال. ويرى البروفسور أنه لم يتم العثور على أي أثر لقيام مملكة إسرائيل في القرن العاشر ق.م أو على وجود مستوطنات سكنية في منطقتي القدس والضفة الغربية التي يصر الإسرائيليون على تسـميتها

بـ يهودا والسامرة. والقدس نفسها لم تكن حتى القرن السابع ق.م سوى مقاطعة إقليمية ولذلك من المستبعد جداً أن يكون هناك أي قوم في منطقة القدس قبل القرن الخامس ق.م ولا وجود لأي صلة (إثنية) في منطقة القدس القديمة وإسرائيل في العصور الحجرية والأقوام التي أعادت بناء القدس في سنة 450ق.م ذلك أن المنطقة بكاملها كانت مسرحاً للصراع بين الفرس والعراقيين القدماء[1].

وقد اعترف جوناثان توب الذي يعد من أكبر علماء الآثار في تاريخ المنطقة العربية القديم في المتحف البريطاني (بأن طومسُن دقيق جداً في بحثه العلمي الكبير وشجاع في التعبير عما كان كثير منا يفكر فيه حدساً منذ زمن طويل ولكن فضلوا كتمانه).

ونستطيع أن نستخلص من آيات القرآن الكريم أن الأكثر عداوة لداود هم اليهود أنفسهم فداود المسلم المؤمن بربه الذي سار على ملة إبراهيم عليه السلام كان عدوّاً لليهود بسبب استقامته وقمعه لكفرهم وظلمهم.

يقول تعالى: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين أمنوا اليهود والذي أشركوا) المائدة 82.

فاليهود والذين أشركوا سواسية في العداء للمؤمنين أيا كان زمنهم وأيا كان مكانهم لقد لعنهم داود بسبب ما كانوا يأتون من منكر وقد قال تعالى في ذلك.

(لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون 78 كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون 79) المائدة 78 ـ 79.

---

(1) جريدة الحياة التاريخ 1993/6/30.

ويقول تعالى: (لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون) 70 المائدة.

وعلينا أن نلاحظ هنا أن التسميات التي سمى بها الله سبحانه بني إسرائيل تختلف باختلاف الأزمنة. فبنو إسرائيل واليهود، وأهل الكتاب، تسميات أطلقت في القرآن الكريم حسب التسلسل الزمني التاريخي وحسب الظرف الموضوعي والعقيدي.

ولو عدنا لآيات القرآن الكريم التي تحدثت عن نعم الله التي أنعمها على داود لوجدناها كثيرة، فمنها أن الله منّ على داود بالنبوة والملك والحكمة وجعل ابنه سليمان نبياً وملكاً. وألان له الحديد ليصنع الدروع وسخر له الطير والجبال تسبح معه.

ويستوقفنا قول الله تعالى: (وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد) ص30.

وقوله تعالى: (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم) ص 31.

وهاتان الآيتان تدلنا على عصر عاش فيه داود عصر عرف الحديد ودخل مجال التصنيع ومن الصناعات الحديدية صنع الدروع والزرد.

ثم إن آيتين أخريين تفتح أمامنا البحث عن عصر لا يخص اليهود بل يخص داود ومن آمن معه يقول تعالى: (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم) ص 21 ـ 22.

إن التوراة التي تتحدث عن بناء داود هيكلاً للرب تكذب وتفتري، فليس هناك ما يدل على وجود هياكل، والآية الكريمة التي تشير إلى المحراب تكشف لنا عن أن داود المسلم كان يعرف المحراب الذي جعله للعبادة، وهذا المحراب كان معروفاً لدى الكنعانيين في فلسطين (إن ذلك مؤشر قوي على انعدام علاقة

داود باليهود الذين كانوا يعيبون على الفلسطينيين هذا النمط من المحاريب المقامة على المرتفعات)[1].

وحين يحكم داود بالعدل بين المتنازعين من الرعاة والمزارعين فإن ذلك يعني أن عصر داود عصر قضاء وقانون. عصر يحتاج للقضاء وللقانون، وهذا إن دل فإنه يدل على أن التجمع اليهودي وغيره في ذاك العصر قد كثر فيه الظلم والاعتداء حتى بلغ أشده وإلا لما منح داود الحكمة والقضاء ودعّم بالتأييد الإلهي حتى يستطيع أن يحل المشاكل الاجتماعية التي انتشرت في بني إسرائيل.

لقد خص الله سبحانه كل نبي بخاصية تختلف عن خاصية الأنبياء الآخرين. فعصر موسى الذي كان السحر فيه سائداً على ما عداه من المعارف احتاج فيه موسى لمعجزة تصدت للسحر، وعصر عيسى عليه السلام عصر الطب والعلوم الكيميائية فمنحه الله قوة شفاء الأمراض المستعصية ولعل عصر داود عصر الفتن وقوة العدوان فاحتاج هذا العصر لقوة القانون والقضاء حتى يستطيع داود مجابهة الظلم والاعتداء بشتى أشكاله، ولعله من قبيل المنطق أن نقول إن مجتمعاً يعيش بسلام وأمن وعدل لا يحتاج لكثير من القوانين أو للقضاة، وهذا يعيد إلى الأذهان أن خشونة بني إسرائيل ومكرهم واعتداءاتهم على بعضهم من جهة وعلى غيرهم من الناس بلغ حداً لا يطاق مما يستدعي وجود القوة النبوية الملكية التي تتمتع بفهم القانون وفهم الحكم بين الناس بالعدل والحق. ولولا كون داود نبياً وملكاً عادلاً لكان كأي من بني البشر أو كأي من بني إسرائيل لكن الله الذي اصطفاه نبياً مسلماً يحكم بالحق والعدل اختاره ليكون اليد القوية والعقل الناضج المليء بالحكمة حتى يحكم هؤلاء اليهود ويُخضعهم بالقوة لسلطانه وقضائه.

(1) عبد الرحيم غنيم روان سر الأسرار ص186.

وتقول التوراة إن داود حكم أربعين عاماً ولم يحدد القرآن الكريم مدة حكمه إلا أنه أشار إلى قوته وتثبيته من قبل رب العالمين.

ماذا يقول الباحثون والآثاريون عن مملكة داود:

مرة أخرى نرى أن الباحثين والآثاريين يختلفون في تصوراتهم وأبحاثهم حول مملكة داود ومدى اتساعها وقوتها وضعفها. فبعضهم ذهب إلى نفي وجود مثل هذه المملكة وارتأى أن ملك داود لم يكن سوى على ولاية صغيرة تارة تخضع للشرق وتارة لمصر وبعضهم الآخر ارتأى حسب رأي التوراة أن داود أقام ملكاً واتسعت بقعة أرضه حتى استطاع احتلال دمشق ووصلت مملكته نهر الفرات.

وبعضهم الثالث رأى رأياً آخر حيث أقر بوجود مملكة لداود ولكنها لم تتجاوز أرض فلسطين أو قسماً منها حيث بقي الساحل بيد الفلسطينيين واختلطت شعوب الكنعانيين باليهود في الداخل حيث شكلوا مملكة بقيادة داود.

يقول المؤرخ المشهور ويلز في كتابه (معالم تاريخ الإنسانية) ولا يستطيع أحد أن يزعم أن أرض الميعاد وقعت يوماً بيد العبرانيين اليهود ويلوح أن داود وضع نفسه في حماية حيرام ملك صور فثبتت هذه المخالفة الفينيقية ملكه[1].

ويقول الدكتور أحمد سوسة: (وهنا تستوقفنا نقطة أساسية لا بد من إثارتها وشرحها. وهي هل كانت هناك في زمن داود وسليمان دولة إسرائيلية بمعنى يهودية حقاً، وهذا يسوقنا إلى أن نسأل ما هي اللغة والثقافة التي كانت سائدة في فلسطين في عصر داود وسليمان في القرن العاشر ق.م. هل كانت لغة داود وسليمان عبرية بمعنى يهودية إذ ذاك؟ إن هذه المسألة محفوفة بالغموض الكثيف لعدم توافر أدلة محسوسة توضح لنا حقيقة الأمر. إذ لم يعثر حتى الآن

---

(1) معالم تاريخ الإنسانية الترجمة العربية، الكتاب الرابع صفحة 279.

على وثائق من هذا العصر على ما وصل إليه علمنا. إلا أن القرائن كلها تدل بوضوح تام على أن هذه الدويلة التي تشكلت في زمن داود وسليمان لم تكن قد توفرت فيها المقومات القومية والثقافية، إذ لم تكن لها لغة أو ثقافة أو حضارة خاصة بها بل كانت قائمة على تراث كنعاني بحت كما تؤيد لنا ذلك الحقائق التاريخية)[2].

داود وأبناؤه:

تتحدث التوراة عن عدد من أبناء داود فتورد اسم أدونيا ابن حجيث، وحجيث هي أمه وزوجة من زوجات داود وهو أخ لأبشالوم ثم تورد اسم سليمان، وأثناء عرض الكلام عن أبنائه في الإصحاح الأول من الملوك الأول تورد اسم ناثان النبي. فتقول (هوذا ناثان النبي فدخل إلى أمام الملك وسجد للملك على وجهه إلى الأرض).

وكانت التوراة قد أوردت تمرد أبشالوم على أبيه في صموئيل الثاني حتى كاد أن ينتزع من أبيه الملك. وأثناء تمرد أبشالوم تقول التوراة (وأما داود فصعد في مصعد جبل الزيتون كان يصعد باكياً ورأسه مغطى ويمشي حافياً). ويضيّق أبشالوم الخناق على أبيه داود ويلاحقه من مكان لمكان ليقتله، ويهرب داود ولا يستقر به قرار حتى دخل الأردن مختبئاً من بطش ابنه. وبعد مقتل أبشالوم يقوم شبع بن بكري وهو من سبط بنيامين بثورة ضد داود وتقول التوراة في ذلك (فصعد كل رجال إسرائيل من وراء داود إلى وراء شبع بن بكري) وأما رجال يهودا فلازموا ملكهم من الأردن إلى أورشاليم.

ثم يصبح سليمان ملكاً مكان أبيه ويموت داود بعد أن يوصي ابنه سليمان بوصايا كثيرة منها وصيته بقتل بعض الأعداء الذين عاهد داود نفسه بعدم قتلهم

---

(2) أحمد سوسة. العرب واليهود في التاريخ صفحة 299.

بيده ومنها وصايا بعدم البعد عن طريق الله...الخ.

أما في القرآن الكريم فترى أن الآيات الكريمة تذكر سليمان وحده كابن لداود ولا يرد أي ذكر لأولاد داود الآخرين وقد ورد ذكر سليمان في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً، تماماً كذكر داود في ستة عشر موضعاً.

وإذا تتبعنا سيرة النبي سليمان من خلال ترتيب آيات القرآن الكريم نجد ما يلي:

يقول تعالى: (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أوّاب) سورة ص 30.

ويقول تعالى: (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا أتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال) سورة الأنبياء 78 ـ 79.

ويقول تعالى: (ولقد أتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين 15، وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين 16) سورة النمل.

ويقول تعالى: (إذا عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) ص 23.

ويقول تعالى: (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب) ص35.

(فسخرنا له الريح تجري بأمره رفاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص) ص36 ـ 37.

ويقول تعالى: (ومن الجن من يعمل بين يديه فإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) سبأ 12 ـ 13.

وقال تعالى: (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون) النمل 17.

(حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) النمل 18 ـ 19.

ويقول تعالى: (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبيّنت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) سبأ 14.

وقد ذكر القرآن الكريم قصة سليمان وطائر الهدهد ومملكة سبأ في سورة النمل من الآية 120 حتى الآية 44 وسنورد هذه الآيات عند مناقشة هذه القصة وماذا تقول التوراة فيها.

ماذا تقول التوراة في سليمان:

مرّ معنا سابقاً أن بني إسرائيل لفقوا قصة سطو داود على امرأة أوريا الحثي وهذه القصة التوراتية تقول إن (بتشبع) قد انجبت ولداً سفاحاً من داود ثم مات وبعد أن قُتل زوجها أوريا الحثي ضمها داود إلى زوجاته فأنجبت له سليمان، وكان لداود نساء أخريات أنجبن أولاداً ومنهم أبشالوم وأمنون وأدونيا، وفتاة هي شقيقة أبشالوم الذي اغتصبها إمنون أخوها من أبيها وتدعى

ثامار، ويتضح من خلال سياق التوراة أن إمنون وأبشالوم وأدونيا أكبر سناً من سليمان والآن لننظر إلى نساء داود اللواتي أنجبن هؤلاء الأولاد والبنت.

فأول زوجة يرد اسمها هي ميكال ابنة شاؤل.

تقول التوراة في الإصحاح الثالث من صموئيل 2: (وولد لداود بنون في حبرون وكان يكره إمنون من أخينوعم اليزرعيلية، وثانية كيلا يامن أبيجايل امرأة نابال الكرملي والثالث أبشالوم ابن معكة بنت تلماي ملك جشور والرابع أدونيا ابن حجيث والخامس شفطيّا ابن أبيطال والسادس يثرعام من عجلة امرأة داود، هؤلاء ولدوا لداود في حبرون)، وفي السفر نفسه الإصحاح الخامس: (وأخذ داود أيضاً سراري ونساء من أورشليم بعد مجيئه من حبرون فولد أيضاً لداود بنون وبنات وهذه أسماء الذين ولدوا له في أورشليم: شموع وشوباب وناثان وسليمان ويجار وأليشوع ونافج ويافيع وأليشمع وأليداع وأليغلط).

إذاً يكون عدد أبناء داود وبناته سبعة عشر فرداً.

ويقتل إمنون على يد أخيه أبشالوم لأنه اغتصب اخته ثم يقتل أبشالوم ويلحقه أدونيا أما بقية أولاده عذا سليمان فلا يتكرر الحديث عنهم في التوراة.

إن هذا التفصيل عن أولاد داود لم يرد في القرآن الكريم ولم يرد أيضاً شيء عن نسائه ومن خلال حديث التوراة نجد أن نساءه ينتسبن إلى أقوام كثيرة، فمنهم الإسرائيلية ومنهم الحثية، والجثورية.

وكانت أم سليمان هي بتشبع الحثية، ولم تكن من بني إسرائيل وهذا ما صرحت به التوراة نفسها، عندما ذكرت قصة أوريا الحثي وزوجته بتشبع.

فإذا قارنا سليمان بإخوته وجدنا الملاحظات التالية وهي جديرة بالانتباه والمتابعة:

1 ـ سليمان من أصغر إخوته حيث يرد قبله إخوته الذين ولدوا في حبرون وهم ستة إخوة كل واحد من أم غير أم الآخر. وقد وُلد قبله في أورشليم حسب زعم التوراة ثلاثة أبناء لم ترد أسماء أمهاتهم.

إذاً فهناك تسعة أبناء سبقوا سليمان فلماذا اختار داود سليمان ليرث ملكه ولم يختر غيره. لمَ لمْ يختر داود ابن المرأة اليزرعيلية أو ابنه ملك جشور أو ابنه نابال الكرملي وهو أيضاً من بني إسرائيل، لماذا اختار صغيراً خلفاً له؟ ثم لماذا اختار ابن امرأة حثية وليست من بني إسرائيل؟ وماذا يترتب على هذا الكلام؟

2 ـ هناك اختيار رباني يتدخل لاختيار سليمان وريثاً لأبيه ونبياً يأخذ بتعاليم الكتاب الحقيقية التي ورثها عن أبيه شفاها وقد أوردت التوراة أن سليمات امتاز بالحكمة ولا يصفونه بالنبي غير أن ذلك لا يمتاز به أي من إخوته.

3 ـ إن عدم اختيار داود لغير سليمان وريثاً لملكه يؤشر إلى أن داود لم يكن يثق بمن كانت أمه إسرائيلية أو وثنية لتجربته مع بني إسرائيل المتقلبين بين لحظة وأخرى من عقيدة لأخرى. وإذا نظرنا إلى تصرف بتشبع أم سليمان وكلامها حتى ذاك المصرح به في التوراة نرى أنها موحّدة مؤمنة بالرب الذي يؤمن به داود وهي غير يهودية ولا وثنية.

وتقول التوراة نفسها عن سليمان في الإصحاح الثالث من الملوك الأول (وأحب سليمانُ الربَّ سائراً في فرائض داود أبيه).

وتقول على لسان الرب: (هو ذا قد فعلت حسب كلامك هوذا أعطيتك قلباً حكيماً ومميزاً حتى أنه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك)، وتتحدث التوراة بشكل مفصل عن حكمة داود وانتشرت حكمته بين الناس

حتى سمع بها القاصي والداني. وهذا ما يتطابق مع قول القرآن الكريم عن حكمته وعدله.

وتكرس التوراة الحديث عن بناء سليمان للهيكل منذ الإصحاح الخامس في الملوك الأول وحتى نهاية الإصحاح السابع. وفي الإصحاح الثامن يدخل سليمان تابوت الرب إلى الهيكل. فتقول (فأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت في قدس الأقداس).

وتقول التوراة: (وبعد نهاية عشرين سنة بعد ما بنى سليمان البيتين بيت الرب وبيت الملك وكان حيرام ملك صور قد ساعد سليمان بخشب أرز وخشب سرو وذهب حسب كل مسرته أعطى حينئذ الملك سليمان حيرام عشرين مدينة في أرض الجليل).

وتقول التوراة في الإصحاح الحادي عشر من الملوك الأول (وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات) فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري فأمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه فذهب سليمان وراء عشتروت إلآهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين وحينئذ بنى سليمان مرتفعه لكموش رجس المؤآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولمولك رجس بني عمون. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع إلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب).

يتفق القرآن والتوراة على أن سليمان أوتي حكمة منذ صغره وأوتي الملك لكن التوراة لا تصفه بالنبي بينما القرآن الكريم يصرح بأن سليمان نبي مرسل

وتختلف رواية التوراة عما جاء في القرآن الكريم عن سليمان اختلافاً جذرياً في أكثر جوانب حياته.

فالآية القرآنية تصرح بأن الله وهب لداود سليمان. ونحن نعلم أن داود حسب النص التوراتي كان أبا لسبعة عشر ولداً ولم يشر القرآن إليهم بل أشار إلى سليمان على أنه هبة من الله لداود لأنه نبي أوّاب. فكما وهب الله لإبراهيم إسحق وهب لداود سليمان. إذاً فسليمان يقع ضمن دائرة الاختيار الإلهي لأنه سيكون نبياً حسب علم الله المسبق.

وقد لازم سليمان أباه داود ليتعلم منه القضاء والحكم فأوردت الآية قصة غنم القوم التي نفشوا في الزرع ففهم الله سليمان حلّ المشكلة التي طرأت بين أصحاب الزرع وأصحاب الغنم.

ووهب الله لداود وسليمان علماً خاصاً وشكرا الله على نعمته عليهم.

وقد ورث سليمان داود وعلمه الله منطق الطير واعتبر سليمان ذلك فضلاً من الله.

وقد وردت في القرآن الكريم أحداث تخص النبي سليمان كالصافنات الجياد، ومملكة سبأ وتسخير الجن.

ولا بد لنا أن نتوقف هنا أمام عدة أسئلة.

لماذا ذكر القرآن الكريم المحاريب ولم يذكر الهيكل؟

لماذا تذكر التوراة أن سليمان تزوج ألف امرأة ولم يرد ذلك في القرآن الكريم؟

لماذا تذكر التوراة أن سليمان بنى لنسائه معابد وثنية وأصناماً لعبادتهم ولم يذكر القرآن ذلك؟

إذا دققنا قليلاً في آيات القرآن الكريم وجدنا أن الأنبياء جميعاً ينطلقون من منطلق واحد وهو منطلق التوحيد. ولا شك أن العبادة لدى الأنبياء جميعاً هي عبادة واحدة في روحها وعندما يذكر القرآن الكريم المحاريب التي بنيت لسليمان فإن ذلك يدل على أن صلاة هذا النبي كانت تتم في هذه المحاريب. والمحراب بشكل عام معروف في الإسلام فهو التجويف الموجود في جدار المسجد المتجه نحو الكعبة. وقد ورد في العبادات الكنعانية أن المحراب كان معروفاً لدى الشعب الكنعاني. وليس بعيداً أن يكون النبي سليمان قد وجد في هذه المحاريب وسيلة حسنة للتعبد أو الصلاة. ولا شك أن ذكر القرآن الكريم لكلمة محاريب بصيغة الجمع يدل على أن هناك عدة معابد بناها النبي سليمان ووضع فيها المحاريب. بمعنى أنه بنى في كل معبد محراباً.

أما ما قالته التوراة عن بناء سليمان لما يسمى الهيكل فهناك وقفة تاريخية جغرافية آثارية ودينية.

مر معنا كيف ان التوراة وصفت الهيكل وصفاً ووضعت أرقاماً دقيقة لأطواله وارتفاعه وعرضه والساحات المحيطة به.

ترى التوراة أن هيكل سليمان بني على بقعة سهلية في القدس، وعندما نقارن المساحة التي ذكرتها والتي بني عليها الهيكل مع المساحة الجغرافية الحقيقية في القدس وجدنا كما وجد كافة علماء الآثار أنه لا توجد أية بقعة سهلية في جبال القدس تسع لهذا الهيكل أي أن المساحة المزعومة في التوراة لا تتطابق البتة مع المساحة الجغرافية لطبيعة القدس الجغرافية وإذا أردنا أن نفصل فهذا هو الإصحاح السادس من سفر الملوك أمامنا. وإذا جمعنا عدد الأذرع التي بني عليها الهيكل وسرادقاته وجدنا أنها تبلغ مساحة أكبر بكثير مما هو موجود في الواقع عدا مرابط الخيول التي بنيت خارج هذا الهيكل.

ترى التوراة أن الهيكل بني من الحجارة وخشب الأرز المستورد وأن الذين شاركوا في بنائه بلغوا 30 ألف مسخّر من العبيد.

ماذا يقول النص التوراتي؟ (والبيت في بنائه بني بحجارة صحيحة مقتلعة ولم يسمع في البيت عند بنائه منحت ولا معول ولا أداة من حديد) إصحاح 6. الملوك الأول، فالعبيد المسخرون وهم ثلاثون ألف رجل اقتلعوا الحجارة اللازمة وهي صحيحة. ولم يستخدموا في قلعها أداة للنحت أو معول أو أي أداة من حديد.

ما الذي يعنيه النص وماذا يفيدنا إذا ما وضعناه في سياق علم الآثار؟

الواقع يقول لنا إن الحجارة كانت موجودة مسبقاً ولم تأخذها الأيدي من الصخور. ثم هي صحيحة أو منحوتة جاهزة للبناء إذ لم يستعمل لأجلها أي أداة حديدية.

وعلم الآثار يقول بكل بساطة إن مثل هذه الحجارة لا تكون بهذا الشكل إلا إذا كانت حجارة بيوت أو معابد مهدمة حديثاً. وهي بهذه الكثافة تدل على أنها كانت مشيّدة في أبنية ضخمة سبق وجودها وجود النبي سليمان وأتباعه والطبقات الصخرية تدل بشكل قاطع على أن الحجارة التي تزعم التوراة أن الهيكل بني بها ليست حجارة بعيدة العهد عن عصر سليمان ومن المسلمات الآثارية أن الأقوام التي تلي أقواماً أخرى رحلت أو غيرت مكان سكنها تستخدم حجارة بيوتها في بناء بيوت جديدة.

والتوراة نفسها تورد أن أهل يبوس ظلوا في مساكنهم وعايشهم بنو إسرائيل وتصاهروا معهم فمن أين جاء العبيد بالحجارة التي بني بها هيكل سليمان؟ أهل القدس ظلوا في مساكنهم ولم تهدم البيوت. والعبيد لم يقتلعوا حجارة جديدة من الصخور ونحتوها. فهل هناك معجزة إلهية أسقطت مئات

الآلاف من الحجارة المنحوتة الجاهزة للبناء؟ أم أن هيكل سليمان بني من خشب ولم تدخل في بنائه الحجارة؟ أم أن الهيكل قصة تخيلها كتبة التوراة وهي ليست حقيقة واقعة؟ وإذا كان الهيكل المفترض قد بني فعلاً حسب زعم التوراة فما علاقة المقدس به. لقد كان من الممكن أن يختار سليمان أي مكان آخر ليبني هيكله عليه طالما أن اختيار المكان هنا هو اختيار إنساني وليس إلهياً. وقد نفترض أن سليمان قد بنى هيكلاً له ولكن ليس في مدينة القدس حتماً لأن كافة المعطيات الأثرية والتاريخية تتناقض تماماً مع ما قالته التوراة عن الهيكل.

إن المقدس الإلهي يخضع للثبات في المكان بينما المقدس البشري قابل للتهدم والإفناء. ولعل أدبيات التوراة وأصحاب التوراة يفتقدون للثبات في المكان. ودلائل التاريخ كثيرة وإذا كانوا الآن يحاولون التشبث بأسنانهم وأظافرهم باستعمار فلسطين فإن ذلك يدل أن الضياع اليهودي عبر آلاف السنين أصبح عقدة نفسية. ردة فعلها التشبث بأي مكان ولو أدى ذلك لاختراق القوانين البشرية كلها ولو أدى أيضاً إلى تدمير العالم تدميراً نهائياً.

إن ما أوردناه من نفي لوجود ما يسمى هيكل سليمان يعني أن سليمان لم يكن يتعبد بما يسمى هيكلاً إنما كان له معابد هي أشبه بالمساجد طالما أنه كان يقيم محاريب. وهذه المحاريب هي أجدر أن تكون أمكنة للتعبد ولاسيما الصلاة.

أما بالنسبة لقول التوراة إن سليمان تزوج نساء كثيرات وبنى لكل منهن معبداً وثنياً فليس ذلك إلا من قبيل تشويه النبي سليمان، وطالما أن التوراة نفسها لا تصفه بالنبي إنما بالملك فهي تجيز لنفسها أن تجعله يسلك سلوك الملوك وليس سلوك الأنبياء، فليس من طبع الأنبياء أن يؤمنوا بالله وحده وهو الذي اصطفاهم لنفسه ليكونوا أنبياءه أن ينحرفوا عن عقيدة التوحيد ويتبعون

أهواءهم فيفسحون المجال لعبادة الأوثان في بلادهم. ولا سيما أنهم بعثوا أيضاً لمحاربة الاشراك بالله.

إن التوراتيين لا يعترفون بنبوة سليمان ويشوهون شخصيته تشويهاً مقيتاً. وهذا يدل كما أسلفنا على عدم علاقتهم عقيدياً بسليمان أو داود أو موسى أو حتى بقية الأنبياء.

وتورد التوراة أن سليمان قد تزوج ابنة فرعون مصر وأن هذا الفرعون هاجم إحدى مدن الساحل الفلسطينية واحتلها وأهداها لسليمان مهراً لابنته، وهذا الحديث كله لم يأت القرآن الكريم على ذكره ويبدو أن هذه القصة التي أوردتها التوراة قصة متخيلة ليس لها أساس من الصحة.

والأدلة على ذلك كثيرة.

أولاً: لم يكن سليمان ذا مُلكٍ يضاهي مُلك الفراعنة المصريين حتى يصاهروه، وإذا كان ولا بد فقد يكون حكام مصر قد أهدوا لسليمان زوجة من الخاصة مكافأة له على ما أبداه من حماية حدود مصر الشمالية أمام أطماع البابليين أو الآشوريين، وهذا افتراض قد يصح وقد لا يصح.

ثانياً: المدة الزمنية بين موت موسى وظهور داود وسليمان ليست طويلة والمصريون كانوا قد غضبوا على بني إسرائيل أثناء خروج بني إسرائيل من مصر فما الذي غير الموقف الفرعوني تجاه أتباع التوراتية حتى وصل بهم الأمر لمصاهرة سليمان؟

فالتوراة لا تعطي أي سبب لذلك، وفجأة نرى سليمان يتزوج بنت فرعون مصر دون أي تعقيب على العلاقة بين سليمان وبين الفراعنة، ودون إيضاح لعلاقة ما حدثت بينهما كتمهيد لهذه المصاهرة.

ثالثا: إذا كان سليمان قد تزوج ابنة فرعون فما هي عقيدتها التي كانت عليها، فمن المعروف أن الفراعنة كانوا وثنيين والآلهة عندهم متعددة، ولنفترض أن سليمان قد تزوج ابنة فرعون فهل أصبحت عقيدتها كعقيدة سليمان. فالتوراة لا تأتي على أي ذكر للمسألة الدينية في هذه القصة، أما نحن فنرى أن النبي سليمان لن يكون نبياً في الأساس إذا رضي بالزواج من مئات النساء الوثنيات ومنهن ابنة فرعون، وبقين على عقائدهن.

لقد افترض كتبة التوراة أن سليمان تزوج ابنة فرعون ليبرهنوا على أن سليمان كان ملكاً قوياً تمتد مملكته على أراض واسعة وتهدد جيرانها الأقوياء فلذلك صاهره الملوك طمعاً بتحالفه معهم أو خوفاً من جيوشه، والدراسات التاريخية جميعها تشير إلى أن الفراعنة حتى في أيام ضعف مملكتهم لم يخضعوا لما يسمى مُلك سليمان أو داود، ولم تكن مملكة داود أو سليمان سوى مملكة صغيرة جداً. والقرآن الكريم عندما يتحدث عن مُلك سليمان لم يحدد هذا الملك بجغرافيا أرضية إنما بامتداد معنوي رافق النبوة.

وماذا عن قصة وادي النمل:

فقد أورد القرآن الكريم قوله تعالى: (حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعي أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) النمل 18 ـ 19.

وأورد ياقوت الحموي في معجم البلدان: (قيل أنه بين بيت جبرين وعسقلان) وقال ابن بطوطة الرحالة الشهير (إن بظاهر عسقلان وادي النمل ويقولون إنه المذكور في الكتاب العزيز) وينتشر من الإسرائيليات قولهم إن سليمان كان يمتلك بساط الريح الذي يأمره فيطير به حيثما أراد. والحقيقة أنه

لو كان لسليمان مثل هذا البساط لما قالت النملة إن سليمان وجنوده سيحطمونهم. وهذا يعني أن جيشه كان يمشي على الأرض ولا يطير على بساط الريح.

وقد تعرض القرآن الكريم كما تعرضت التوراة لقصة مملكة سبأ. لكن الاختلاف الكبير الذي يقع هو أن سليمان غضب لسماعه أن قوماً على رأسهم ملكة يعبدون غير الله. فكان قوله إما أن تؤمنوا بالله وحده وإما الحرب. ولم تورد التوراة قصة الصرح ولا قصة الهدهد ولا قصة إيمان ملكة سبأ، وركزت على قيام هذه الملكة بتقديم الهدايا من ذهب وفضة لسليمان تقول التوراة (وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة. لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان) ملوك أول إصحاح 10.

ولم تورد التوراة أن سليمان تزوج من ملكة سبأ وكذلك لم يرد مثل هذا في القرآن الكريم وما يقال وما يتناقله بعض المفسرين المسلمين عن زواج سليمان بالملكة لا يستند إلى أساس تاريخي علمي ثابت.

ومن خلال السياق القرآني نرى أن سليمان بما أوتي من نبوة وحكمة جعل ملكة سبأ تؤمن بالله الواحد وتبتعد عن عبادة الشمس والأصنام. ولم يصل سليمان ولا جيشه إلى اليمن إنما الظاهر أن ملكة سبأ آمنت برب سليمان وعادت إلى بلادها دون أن تقع بين الطرفين حروب أو غزو أو احتلال.

يقول تعالى: (إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم 23. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون 24).

ويتابع قوله تعالى: (اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون 28. قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم 29. إنه من

سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم 30. إلا تعلـوا علـيّ وأتونـي مسـلمين 31) سورة النمل.

ويقول تعالى: (فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فيما أتاني الله خـير مما أتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون 36. إرجع إليهم فلنأتينـهم بجنـود لا قبـل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) 37 النمل.

وقال تعالى: (قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مـع سـليمان لله رب العالمين) 44 النمل.

وهذا هو الفارق الجوهري بين التوراة والقرآن. فسليمان يغار على إسلامه ودينه التوحيدي فيدعو الملكة للإسلام والتوحيـد فتسـلم بينمـا التـوراة لا تذكـر سوى أن الملكة سمعت بملكه وحكمته فزارتـه وقدمـت لـه الهدايـا مـن الذهـب والفضة، والفرق واضح بين الملكين، فـهناك ملـك دنيـوي بكـل مـا يحمـل مـن صفات الدنيوية وهناك ملك نبوي توحيدي غايته نشر دين التوحيد. وقد ورد في التوراة شيء من المدح لسليمان على لسان ملكة سبأ حيث تقول: ليكـن مباركـاً الرب إلهك الذي سرّ بك وجعلك على كرسي إسرائيل) الملوك الأول 9 ـ 10.

ما بعد سليمان:

بموت سليمان عليه السلام انتهت مرحلة مهمة في ما كتبتـه التـوراة وإذا راجعنا نصوص هذا الكتاب وجدنا أن الأنبياء قد اختفوا من حياة بني إسرائيل فترة زمنية طويلـة فبعـد سـليمان بـدأ التفكـك يـدب في أوصـال بـني إسـرائيل وانقسمت المملكة إلى مملكتين واحـدة في منطقـة القـدس والأخـرى في السـامرة، وراحت المملكتان تتحاربان وتضعفان حتى جاء السبي البابلي، وهذا حسب ما جاء في التوراة.

يموت النبي سليمان في نهاية الإصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول، حيث يرد في آخر هذا الإصحاح أن سليمان طلب قتل يربعام الذي ثار ضد حكم سليمان وليقيم مملكة خاصة به وحسب قول التوراة أن يربعام افرايمي من صردة وكان عبداً لسليمان واسم أمه صروعة وهي امرأة أرملة.

وتورد التوراة أن رحبعام ابن سليمان ذهب إلى شكيم لينصبه بنو إسرائيل ملكاً عليهم ثم تورد أخباراً عن انشقاق المملكة إلى اثنتين إلى أن يصل حديث التوراة إلى آخآب ابن عمري الذي ملك على إسرائيل في السامرة اثنتين وعشرين سنة وتقول التوراة إنه تزوج من إيزابيل إبنة اثبعل ملك الصيدونيين وعبد البعل وسجد له.

وتورد التوراة أن إيليا التشبي من مستوطني جلعاد دعا آخاب إلى العودة للتوحيد وعبادة الله إلا أن آخاب رفض التوحيد وتورد التوراة في الإصحاح الثامن عشر من الملوك الأول أن إيليا تحدى آخاب وانتصر على كهنة البعل وقتلهم ثم لوحق فهرب من وجه آخاب. وتورد التوراة أنه هرب إلى بئر السبع ومن هناك إلى جبل الله حوريب.

وتتفق التوراة مع القرآن الكريم في الخطوط العامة لهذه القصة وهذا النبي، فإيليا هو إلياس حسب كافة المفسرين وقد ورد ذكر دعوته للتوحيد ونبذ عبادة البعل الذي اتخذه آخاب بن عمري إلهاً من دون الله.

يقول تعالى: (وإن إلياس لمن المرسلين. إذا قال لقومه ألا تتقون. أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين. الله ربكم ورب آبائكم الأولين. فكذبوه فإنهم لمحضرون. إلا عباد الله المخلصين) الصافات 123 ـ 128.

وملخص قصة الصراع بين النبي إلياس وآخاب بن عمري أن إيزابيل زوجة الأخير جمعت كهنة البعل في جبل الكرمل ليتحدّوا النبي إلياس. واستطاع بعون ربه أن يغلبهم فحملت إيزابيل على النبي ودبرت له مقتلاً

فهرب إلى بعلبك وتوارى عن أنظار أعدائه حتى تغير الملك أو قُتل فعاد إلى دعوته للتوحيد.

وقد أوردت التوراة نصوصاً كثيرة تتحدث عن عبادة اليهود للبعل، وبعل كان إلهاً رئيسياً لدى الفينيقيين والكنعانيين بعد أن تقلبت عقائدهم.

ومنذ النبي إلياس لم يأت القرآن الكريم على ذكر أي نبي مرسل مرتبط ببني إسرائيل وما ذكرته التوراة عن بعض الأنبياء ورجال الله كما تطلق عليهم لم يكونوا أنبياء مرسلين كبقية الأنبياء المعرّفين في القرآن الكريم، وهناك آيات قرآنية كثيرة تشير إلى ما فعل الله سبحانه ببني إسرائيل بعد أن انحازوا كلياً عن ديانة التوحيد.

أما من حيث الزمن الفارق بين إلياس وبين الأحداث التي جرت لبني إسرائيل من سبي وتشريد فإن التوراة تورد أحاديث كثيرة عن ذلك. وتتحدث عن بعض الأنبياء الذين لم يصرح القرآن بالحديث عنهم.

وهناك بعض التقاطعات في الاتفاق بين التوراة والقرآن الكريم كالحديث عن عازر جامع التوراة ومدوّنها. ونقول بعض التقاطعات لأن اختلافات كثيرة تقع بين النص التوراتي والقرآن الكريم.

ففي التوراة سفر باسم عزرا وهو من عشر إصحاحات وأحداث هذا السفر تقع زمن احتلال الفرس لبلاد الرافدين على يد كورش.

وتقول التوراة إنه في زمن مُلكِ أرتحشتا لفارس ظهر عزرا الذي ينسبونه إلى هارون وتقول عنه إنه كان كاتباً ماهراً في شريعة موسى التي أعطاها الرب إلهُ إسرائيل.

أما القرآن الكريم فلم يصرح باسم العزير في قصة موته مئة عام ثم بعثه لكن الرواة المسلمين أجمعوا على أن الآيات الكريمة التي تتحدث عن الرجل

الذي أماته الله مئة عام هو العزير. وقد صرح الكريم باسم العزير في سورة التوبة وفي سياق آخر حين قال وقالت اليهود عزير ابن الله. التوبة 30.

ولاختلاف أحداث القصص المرتبطة بعزرا بين التوراة والقرآن الكريم ولعدم تصريح القرآن باسمه آثرنا عدم الخوض في مقارنات متصوَّرة قد تكون خاطئة في أكثر تقويماتها.

أما عن الفترة الزمنية التي فصلت بين ميلاد المسيح عليه السلام وبين النبي سليمان فقد تحدثت عنها التوراة بشكل مفصل لا سيما قصة السبي والتشريد والعودة ثم تدمير الهيكل مرة ثانية وتتحدث التوراة في سفر زكريا وهو السفر ما قبل الأخير في التوراة عن حكم داريوس ويقدم زكريا في هذا السفر رؤيته وكلام الرب إليه كما تقول التوراة. فيبشر بخراب أورشاليم وسبي نسائها. (واجمع كل الأمم على أورشليم للمحاربة فتؤخذ المدينة وتُنهب البيوت وتفضح النساء ويخرج نصف المدينة إلى السبي وبقية الشعب لا تقطع من المدينة). اصحاح 14 سفر زكريا.

وإذا نظرنا إلى الأسفار منذ سفر الملوك الثاني أي بعد موت سليمان وحتى سفر ملاخي وجدنا أن سمة حياة بني إسرائيل هي الاقتتال الداخلي ومن ثم التعرض لهجوم قوى كثيرة عليهم.

وإذا تفحصنا مضامين الأسفار التي سميت بأسماء أصحابها وهي أشعياء، وإرميا وحزقيال ودانيال وميخا وناحوم وزكريا وملاطي. نرى أن الأنبياء غاضبون على بني إسرائيل. فهي مليئة بالأدعية لأجل أن يُدمّر بنو إسرائيل. وتكتنفها جنسية وثنية صريحة خاصة في مراثي إرميا.

وما يمكن أن نقارنه هنا هي تلك الخطوط العامة التي يتعرض لها القرآن الكريم ويتحدث فيها عن إذلال بني إسرائيل وتسليط الأمم عليهم.

يقول تعالى: ﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يـوم القيامـة مـن يسـومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم. وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ الأعراف 167 ـ 168.

ويقول تعالى: ﴿وقضينـا إلى بـني إسـرائيل في الكتـاب لتفسـدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنـا أولي بـأس شديد فجاسوا خلال الديار وكـان وعـداً مفعـولاً. ثـم رددنـا لكـم الكـرة عليـهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً. إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كمـا دخلـوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا﴾ الإسراء 4 ـ 7.



ملحق

يهود الأمس ومتهودو اليوم

يهود الأمس ومتهودو اليوم

يخرج هذا الموضوع عن نطاق بحثنا المخصص للمقارنة بين التوراة والقرآن في مسألة الخلق الكوني والتاريخ الإنساني. غير أن تاريخ اليهود تاريخ متشعب الجوانب. فيه من الغموض أكثر مما فيه من الوضوح وتسلسل التواجد اليهودي في المنطقة يفقد حلقات متعددة تكاد كتب التاريخ لا تذكرها. وقد جاء العصر الحديث ليحمل معه وجود موجة يهودية حديثة تظهر في أوروبا الشرقية وتتمدد لتخرج بالتالي الحركة الصهيونية كحركة سياسية تخلط في مستنداتها بين الانتماء لليهودية التوراتية وبين الانتماء لحركة استعمارية حديثة تحتل فلسطين في ظروف غريبة وتهدد المنطقة العربية بالتوسع الجغرافي والهيمنة الاقتصادية والثقافية على الشرق برمته.

إن هذا الوجود الجديد للذين يدّعون اليهودية يضع أمامنا وأمام الباحثين جميعاً تساؤلات كثيرة من شأنها أن تثير مسائل متعددة قد تصعب الإجابة عليها إن لم ندقق بمجريات الأحداث التاريخية ودراسة الواقع العقيدي والاجتماعي والتواجد البشري لهؤلاء الذين ركبوا موجة اليهودية واستطاعوا أن يحققوا قفزة استعمارية خبيثة في المنطقة والأسئلة التي يمكن طرحها:

هل من صلة عرقية بين يهود الأمس ومتهودي اليوم؟

ماذا يقول التاريخ عن اليهود بعد تدوين التوراة؟

ماذا يقول القرآن الكريم عن اليهود وعلاقتهم بالسيد المسيح؟

ماذا يقول القرآن الكريم عن اليهود وعلاقتهم بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم؟

ما الذي جرى مع اليهود بعد ترحيلهم عن الجزيرة العربية في القرن الهجري الأول؟

أين توزعوا وأين استقروا بعد انتشار الإسلام؟

ما العلاقة بين يهود الشرق ويهود الغرب؟

من المعروف أن ساحل الوطن العربي على البحر المتوسط خضع للاستعمار الروماني منذ القرن الأخير قبل الميلاد واستمر حتى أعاد العرب المسلمون الأرض العربية لأصحابها. والتوراة لم تدوّن الكثير عن هذه الفترة الزمنية. وخضع اليهود على اعتبارهم فئة كانت تعيش في بعض مناطق فلسطين الضيقة مع من خضع من سكان فلسطين لهذا الاحتلال الروماني. وقد تم ذلك سنة 63ق.م حيث استولى القائد الروماني بومبوس، أو بومباي على القدس وفلسطين برمتها واستقر الوضع للرومان حيث حكم فلسطين هيرودس الكبير منذ عام 72 ـ 4ق.م. ثم دمر الامبراطور الروماني تيطس مدينة القدس وأحرقَ معابدها. ثم حكم بعده أدريانوس فأزال معالم مدينة القدس سنة 135م إذ حرث الأرض وسوّاها وزرعها. وعلى إثر ذلك لم يبق يهودي واحد في فلسطين حيث هجّروا أو هربوا إلى مصر وشمال أفريقيا وإسبانيا وأوروبا. وأقام أدريانوس معبداً وثنياً باسم جوبيتر رب الآلهة عند الرومان وبقي هذا المعبد حتى قامت المسيحية بشكل رسمي فدمره المسيحيون من أساسه في عهد الإمبراطور قسطنطين.

ويدعي اليهود أن ثورة عارمة أقاموها ضد الحكم الروماني مما حدا بالأباطرة إلى تدمير الهيكل الثاني. والحقيقة أن فلسطين خضعت لسبعة من الحكام الرومانيين في الفترة بين 44 ـ 66م تذكر كتب التاريخ أنهم جميعاً فاسدو الخلق ومرتشون وظالمون. وقد أرهقوا سكان فلسطين بالضرائب مما جعل أهل فلسطين يقومون بثورة ضد الحكم الروماني وذلك عام 70م وكان غالبية القتلى من أهل فلسطين المسيحيين وقتل بعض اليهود في هذه الثورة وقد ذكر المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف صفحة 110 أن عدد القتلى بلغ ثلاثة آلاف ألف.

وقد حوّل الرومان اسم مدينة القدس إلى اسم إيليا كبتولينا. ولم يشكل اليهود في أي عهد من العهود أكثرية في فلسطين.

ودخلت اليهودية كعقيدة إلى مناطق عدة من الوطن العربي لا سيما الجزء الشرقي. أي شمال الجزيرة العربية، وبعض أجزاء من اليمن، ومن هناك دخلت إلى بعض أطراف الحبشة. واعتنق بعض العرب في يثرب العقيدة اليهودية.

وتواجد اليهود أيضاً في بلاد الرافدين، ومن هناك انتشروا في بعض مناطق إيران خاصة أصفهان وقد دلت الآيات القرآنية الكريمة بشكل واضح على مواقف اليهود من البعثة عندما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة (يثرب).

وتذكر كتب السيرة وكتب التاريخ الإسلامي أن اليهود العرب كانوا ضمن قبائل يعايشون الأوس والخزرج وبعض القبائل العربية الأخرى ومن قبائلهم، بنو النضير. وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وكانوا أيضاً يسكنون خيبر وفدك وتيماء. ووضح أن اختلافهم مع الإسلام هو اختلاف عقيدي عميق الجذور وليس اختلافاً قومياً. وتذكر كتب السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاول كسبهم إلى صف المسلمين على اعتبارهم أهل كتاب لكنهم ظلوا يكيدون له وللدولة الإسلامية الفتية حتى ضاق بهم ذرعاً وحاربهم وطردهم طرداً نهائياً

من المدينة وضواحيها ومن ثم تابع خلفاؤه طردهم من الجزيرة كلها فانتشروا في بعض أجزاء بلاد الشام ومنهم من هاجر إلى العراق، ومنهم من حاول التسلل إلى فلسطين، وبعضهم هاجر إلى اليمن، وتؤكد الوقائع أن سبب تشتتهم سبب عقيدي بالدرجة الأولى، فكما تشير آيات القرآن الكريم فإنهم حرفوا التوراة وشنعوا على الأنبياء موسى وداود وسليمان وعلى من سبقهم كإبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف، وشنعوا على السيد المسيح وحاربوا الرسالة الجديدة بالخداع والمكر والخيانة وحاولوا بشتى السبل إيقاع الخلاف بين الأوس والخزرج وحرضوا على قتل النبي صلى الله عليه وسلم.

على أية حال فاليهود الذين تواجدوا في المدينة هم يهود عرب أو أنهم قبائل عربية تبنت العقيدة اليهودية، وعندما اصطدمت تحريفاتهم ومصالحهم مع الرسالة الجديدة اضطر المسلمون لإبعادهم وإبعاد خطرهم عن العقيدة الجديدة والدولة الجديدة، وهذا ما لم يحدث مع من تنصّر من العرب وبقي في أرضه مسالماً أو مقاتلاً مع إخوته العرب لا سيما أثناء الحروب مع الفرس، ولم تشر كتب السيرة أو كتب التاريخ أية إشارة إلى طرد المسيحيين العرب عن الجزيرة، فأهل نجران ظلوا في أراضيهم على الرغم من اختلافهم العقيدي مع المسلمين ونزاعهم أحياناً معهم.

والمدقق بأسماء رجال اليهود وأنسابهم يرى أن هذه الأسماء عربية الأصل والجذر، منهم مثلاً حسب ما أورده ابن هشام في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنانة بن الربيع ابن أبي الحقيق، وسلاّم بن أبي الحقيق، والربيع بن الربيع، وعمرو بن جماش وكعب بن الأشرف وهو من قبيلة طيء، الحجاج بن عمرو وهؤلاء من بني النضير.

ومن بني ثعلبة، ابن الفطيون، وعبد الله الأعور، ومخيرق، وكان حبراً كبيراً فيهم وقد أسلم ومن بني قينقاع، زيد بن اللّصيت، وسعد بن حنيف،

ومحمود بن سيحان، وعزيز ابن أبي عزيز، وعبد الله بـن صيف، وسويد بـن الحارث، ورفاعة بن قيس، وشاس بن عدي، وزيد بن الحارث، ونعمان بـن عمرو، وعدي بن زيد، ونعمان بن أبي أوفى، ومحمود بـن دحيّة ومالك بـن صيف، وكعب بن راشد، ورافع بن أبي رافع، ورافع بن حارثة.

ومن بني قريظة الزبير بن وهب، وكعب بن أسد، وجبل بـن عمرو بـن سكينة، والنحام بن زيد ووهب بن زيد، ونافع بن أبـي نافع، والحارث بـن عوف، وأسامة بن حبيب.

ومن بني زريق: لبيد بن أعصم.

ومن يهود بني النجار سلسلة بن برهام، ومن بني عمرو، قردم بن عمرو ومن يهود حارثة، كنانة بن صوريا، وقد أسلم مـع رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم عبد الله بن سلام، وكان حبراً عالماً وقد اوردت سيرة ابن هشام خبر إسلامه في الصفحة 516 ـ 517، في الجزء الثاني من السيرة.

وممن قاتل مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد مخيرق، وكان حبراً عالماً وكان غنياً كثير الأموال، وكان يعرف رسول الله بصفته وما يجد في علمه، وقد خاطب قومه يوم أُحد وكان يوم سبت يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم حق، قالوا إن اليوم يوم سبت، قال لا سبت لكم ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد وعهد إلى من وراءه من قومه إن قتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد يصنع فيها ما يراه، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما بلغني «مخيريق خير يهود».

وقد أجلي يهود عن أرض الجزيرة نهائياً في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما تحقق من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمع في الجزيرة دينان.

ولو تفحصنا الإنجيل لوجدنا أن بعض اليهود كانوا متواجدين في فلسطين كقلة زمن العصر الروماني الوثني وقد تحالفوا مع الرومان الوثنيين ضد دعوة السيد المسيح، ولاحقوه وعذبوا بعض رفاقه، وعندما تبنى قسطنطين المسيحية لعب اليهود دور التخريب العقيدي في الديانة المسيحية وظل الأمر كذلك حتى جاء التحرير العربي الإسلامي . ومما يدل على أن تواجد اليهود في فلسطين أيام الفتح العربي الإسلامي زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب كان نادراً ما جاء في العهدة العمرية لأهل بيت المقدس من العرب المتنصرين حيث كان أحد شروط التسليم ألاّ يساكن أهل القدس يهود أو رومان، فأخرج الرومان من القدس ومنع اليهود من الدخول إلى فلسطين قروناً طويلة، وظلت فلسطين والقدس أرضاً خالية من التواجد اليهودي حتى القرن التاسع عشر، حيث بدأ التوجه الصهيوني الاستعماري لاحتلال الأرض العربية.

والواضح أن اليهودية بعد انتشار المسيحية والإسلام أصبحت عقيدة مرفوضة منبوذة وذلك بسبب سوء تصرف اتباعها وانحرافها الكلي عن عقيدة موسى التوحيدية، ولهذه الأسباب انحصرت اليهودية وانطفأت حتى بات أتباعها لا يشكلون سوى نسبة ضئيلة بين سكان العالم.

ويمكن أن نلخص اتجاه تواجد اليهود بعد انتشار الدعوة الإسلامية على الشكل التالي:

١ - يهود في اليمن: حيث تبنى بعض الملوك العرب اليمنيين الدين اليهودي بسبب ظرف سياسي حيث التناحر بين الفرس والأحباش لاحتلال اليمن، وبسبب التأثير الديني الذي مارسه بعض أحبار الجزيرة العربية على الملك اليمني حيث أوغروا صدره ضد المتنصرين الجدد حيث اعتبرهم امتداداً للأحباش الطامعين ببلاده.

2 - يهود في العراق وبلاد فارس، وهم من بقايا من سُبي من اليهود أيام البابليين ومن بقايا من هُجِّر من الجزيرة العربية أيام احتدام الصراع بين المسلمين واليهود في يثرب.

3 - يهود في بعض المدن الشامية كدمشق وحلب، وهم من بقايا يهود هجّروا من الجزيرة ومن اليهود الذين رحلتهم الدولة الرومانية إلى مناطق متفرقة من الإمبراطورية الرومانية.

4 - يهود في المغرب العربي، تونس، مراكش، ومن هناك إلى الأندلس وهؤلاء ممن هجّر من اليهود في زمن الرومان.

وعلم الأجناس ومن ثم علم الإنسان يؤكد أن اليهود نشروا عقيدتهم على نطاق محدود. ومع تقادم الزمن تميزت عدة أعراق أو أجناس من الذين تبنوا العقيدة اليهودية، ويلاحظ بشكل قطعي أن هناك يهوداً من أصول عربية وتبدو سحناتهم واضحة. كاليهود السوريين والعراقيين، وكذلك اليهود كاليهود اليمنيين الذين تمتاز بشرتهم باللون الأسمر الزيتوني وهناك أيضاً اليهود الأحباش (الفلاشا) فهم أقرب إلى العرق الزنجي فهم سمر داكنون وأصحاب شعور سوداء جعد.

وقد تحدث بعض علماء الأجناس عن ذلك حيث أكدوا أن من يعتنقون اليهودية ينتسبون إلى سبعة عشر عرقاً أو جنساً لا يتشابه جنس مع الآخر.

أما يهود أوروبا لا سيما الشرقية فإنهم متهوِّدون اعتنقوا اليهودية وأسسوا مملكة الخزر وعندما انكسرت هذه المملكة انتشر متهودوها في أوروبا الشرقية كلها ومنها انطلقوا إلى بقية بلدان أوروبا الغربية.

ويرى عدد كبير من الباحثين أن تحول الخزر إلى العقيدة اليهودية الخالصة يعتبر أمراً فريداً من نوعه في التاريخ.

ويرى آرثر كوستلر، أنه في بداية القرن الثامن الميلادي كان العالم مستقطباً بين القوتين العظميين الممثلتين للمسيحية والإسلام، وكانت إمبراطورية الخزر تمثل قوة ثالثة أثبتت أنها ندّ لكل منهما سواء باعتبارها خصماً أو حليفاً، ولكنها كانت تستطيع الاحتفاظ باستقلالها فقط عندما ترفض اعتناق المسيحية أو الإسلام لأن كلاً من الخيارين كان سيؤدي تلقائياً إلى الانضواء تحت سلطة الامبراطورية الرومانية أو خليفة المسلمين.

وقد حدث أن بيزنطة اضطهدت اليهود في امبراطوريتها مما جعلهم يهربون باتجاه بلاد الخزر وقد اطلع الخزريون على العقيدة اليهودية، ولأسباب سياسية تبنى الخزر العقيدة اليهودية حتى يظلوا مستقلين سياسياً عن نفوذ بيزنطة وخليفة المسلمين.

ويؤكد المؤرخ المسعودي أن ملك الخزر تبنى اليهودية في عهد هارون الرشيد، انضم إليه اليهود من كافة أمصار الإسلام ومن بيزنطة، ومملكة الخزر صارت نوعاً من الوطن القومي.

ويورد آرثر كوستلر في كتابه أن البكري صاحب كتاب الممالك والمسالك أورد قصة اعتناق ملك الخزر لليهودية، ويرى أن الباحث بيوري كان قد استنتج من هذه القصة أن النفوذ والتأثير اليهودي في البلاط الخزري كانا لا محالة قويين بالفعل قبل إجراء المناقشة الرسمية بين زعماء الرسالات السماوية الثلاث في المملكة الخزرية.

ويقول كوستلر: قام الخزر قبل الغزو المغولي وبعده بإرسال فروع منهم إلى البلاد السلافية التي لم تقهر وعاونوا بذلك إلى أقصى حد على تشييد المراكز اليهودية الضخمة في أوروبا الشرقية ويقول إن انتماء الأغلبية العددية والاجتماعية لسكان هنغاريا اليهود في العصور الوسطى إلى الأصل الخزري قد تم تعزيزه بالوثائق بشكل جيد نسبياً.

وعندما يقسم الباحثون اليهود إلى سفارديم وإلى أشكنازيم فإنهم يؤكدون أن السفارديم هم من سلالة اليهود الذين عاشوا في إسبانيا إلى أن طردوا منها في نهاية القرن الحادي عشر واستقروا في حوض المتوسط والبلقان، أما الأشكنازيم فيعودون في أصولهم إلى الخزر الذين انتشروا في بلدان أوروبا الشرقية بعد سقوط دولتهم المتهودة.

ويؤكد الأستاذ جوان توماس أن اليهود ليسوا متجانسين من الناحية السلالية وذلك أن هجراتهم الدائمة وعلاقاتهم الاختيارية أو غيرها بأوسع مجموعة من الأمم والشعوب قد أحدثت فيهم درجة من التهجين.

وقد بلغ اعتناق اليهودية ذروته في عهد الإمبراطورية الرومانية فيما بين سقوط الدولة اليهودية وظهور المسيحية فقد تهودت كثير من العائلات النبيلة في إيطاليا، ويتحدث فيلو عن التحول الضخم إلى اليهودية في اليونان.

ويقول توينبي، هناك أسباب كثيرة تدعونا للاعتقاد بأن أثراً قوياً من دماء هؤلاء اليهود يسري اليوم في العروق الإيبيرية في إسبانيا والبرتغال في الطبقتين الوسطى والعليا. وإن كان من الصعب على أدق المحللين النفسيين اكتشاف الذين ينحدرون من أصول يهودية، فيما لو عرضت عليه نماذج من الإسبان والبرتغاليين الحاليين من الطبقتين العليا والوسطى.

وباختصار نرى كما يرى الباحثون أن الذين أقاموا دولة الكيان الصهيوني المغتصب هم يهود أوروبا الشرقية ذوو الأصول الخزرية، وليس لهم علاقة بالمنطقة التي عاش فيها يهود الأمس، والتركيز على أرض فلسطين واستعمارها لا يشكل بالنسبة لهم أي رابط مقدس بالتوراة حتى تلك النصوص المزيفة التي كتبت أيام السبي البابلي.

فعلى الرغم من أن التوراة يدعو إلى الاستعمار والاعتداء إلا أن استعمار فلسطين جاء نتيجة تحالف قوى الغرب لإقامة ما يسمى وطناً قومياً لليهود في

فلسطين. وبسبب ظروف أخرى مشابهة بظروف العنف الموجهة ضد اليهود في أوروبا الشرقية وألمانيا فقد غدا هؤلاء المتهودون عالة على مجتمعاتهم الأوروبية مما أدى إلى بروز اتفاق ضمني بين اليهود وبين القوى الغربية على تغذية الشعور بالقومية لدى كافة متهودي العالم، وقد جاء الاستعمار البريطاني وكذلك الفرنسي ومن ثم الأمريكي يسعى لتحقيق هذا الهدف دون النظر إلى العواقب المترتبة عليه.

لقد تتبع الباحث آرثر كوستلر شعوب أوروبا ومتهوديها منذ القرن السابع للميلاد وحتى القرن العشرين. ويبين بالأدلة القاطعة أن الخزر المتهودين زرعوا القبائل المجرية التابعة لهم في مواقع جديدة من أوروبا يخدمون منها أهدافهم الاستراتيجية ومن ثم يأتي الاستعمار الغربي ليزرع أحفاد الخزر في فلسطين. وينقض الكاتب كوستلر مقولة أن المتهودين الحاليين هم ساميّون أو أنهم من نسل بني إسرائيل القدامى، ويثبت أنهم آريون عامة وقوقازيون خاصة.

ولعل من أبرز أدلته هنا بحوث أستاذ التاريخ اليهودي بولياك الذي يدرس في جامعة تل أبيب في فلسطين المحتلة. ثم ينقض قول المتهودين إنهم من جنس واحد نقي. فهم خليط من أجناس مختلفة، وقامت أحكامه على دراسة علم الشعوب وعلم الأجناس والوراثة وما شابه ذلك وذكر أن الباحثين متفقون على أن هجرة اليهود والخزر قد أسهمت بالتأكيد على نمو اليهودية البولونية. حتى أن البولونيين نصبوا أحد اليهود ملكاً على بلادهم.

إن الفكرة الصهيونية هي فكرة سياسية قبل أي اعتبار آخر، وقد استفادت الحركة الصهيونية من الظروف السياسية التي سادت أوائل هذا القرن واستطاعوا بالتالي التسلل إلى فلسطين وإقامة كيان لهم بعد أن طردوا الشعب العربي الفلسطيني من أرضه.

فهرس موضوعات

الجزء الأول

والعبد الصالح.

الفصل الخامس: زمن ما بعد موسى ويتضمن:

بين عصر وعصر. يشوع والنبوة. التيه العقيدي.

الفصل السادس: من صموئيل إلى داود وسليمان ويتضمن:

ما قبل داود. داود. شخصيته. عقيدته. حقيقته. ملكه. لماذا اختار داود جبل الزيتون لبناء قصره؟ ماذا يقول الباحثون والآثاريون عن مملكة داود. داود وأبناؤه. سليمان وملكه. الهيكل المزعوم. مملكة سبأ. ما بعد سليمان.

ملحق:

يهود الأمس ومتهودو اليوم. يهود الخزر يحتلون فلسطين قادمين من أوروبا الشرقية.

مقارنة الأديان (١)

القرآن والتوراة

أين يتفقــان
و
أين يفترقان..؟

حسن الباش

قتيبة
للطباعة والنشر والتوزيع

مقارنة الأديان
١

القرآن والتوراة

أين يتفقان
و
أين يفترقان ؟

الجزء الثاني

حسن الباش

دار قتيبة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

درجت كلمة عقيدة على ألسنة الشعوب منذ زمن بعيد، واتخذت لدى الديانات الكتابية مسارا محددا، حتى أصبح يطلق على اليهودية والمسيحية والإسلام مصطلح عقيدة. وفي الإسلام اتسمت بقضايا الإيمان الواسعة، الصغرى والكبرى. وقد فهم المسلمون مباحث العقيدة، على أنها ترتبط بالتوحيد أولا، والمعاد، والجزاء والعقاب واليوم الآخر، وقد وصلت بحوثهم قمتها زمن الجدال الفكري، والاجتهاد الفلسفي، أيام المأمون في العصر العباسي، فتوسعت هذه المفاهيم وتفلسفت.

وكان لعلم الكلام دوره المهم في تطوير مفاهيم العقيدة ومصطلحاتها، ولا نبالغ إذ نقول: إن بحوث العقيدة في الإسلام هي من أكثر البحوث دقة وتعقيداً وتفلسفاً.

وقد اهتمت الدراسات الإسلامية الأكاديمية ببحوث العقيدة اهتماماً بالغاً، كونها تعتبر الأساس الديني في الإسلام.

لقد درج الباحثون منذ زمن بعيد أيضاً على إضفاء مصطلح عقيدة وعقائد، على ديانات الشعوب والأمم، وتداخلت بحوثهم مع علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) بجانبه الفكري والثقافي والديني. وبرز كثير من العلماء والباحثين في تناول هذه الدراسات، أمثال إدوارد تايلور. وأميل دوركهايم. وجيمس فرايزر. وغيرهم.

وصفوا عقائد الشعوب المتعددة، خاصة تلك التي تعيش في نظام قبلي متخلف عن الحضارة الحالية، وخاصة شعوب بعض مناطق أفريقيا، وأستراليا.

ومع هذه الدراسات التي اختلطت فيها العقائد بالعادات والتقاليد والمعتقدات السحرية، برزت دراسات على مساحات واسعة من العالم الغربي، تناولت العقائد الكبرى بالبحث وأنتجت عدداً لا يحصى من الكتب، ولاسيما تلك التي تتناول ما يسمى الكتاب المقدس، بشقيه العهد القديم، والعهد الجديد، وما يرتبط بهما من عقيدتي اليهودية والمسيحية. لكن المفكرين، وبدءاً من نهاية العصر الأموي، أولوا مسألة العقيدة عناية فائقة، وما إن بلغت الحضارة العربية الإسلامية، أوجها، زمن الرشيد والمأمون، حتى أصبح علم العقيدة من أخطر العلوم الدينية، وبرز المعتزلة كأهم فرقة كلامية تحدثت بالعقيدة، وكذا الأمر بالنسبة للأشعرية، والمرجئة، والقدرية، والماتردية، والظاهرية.

ولما كان المسلمون الأوائل في المدينة المنورة، على احتكاك مباشر باليهود، وهم أصحاب عقيدة معروفة، برز جدل لم يتوقف بين المسلمين واليهود، وتناول جدلهم العقيدة في أدق تفاصيلها. واستمر الاهتمام بهذا الجدل، حتى برزت مناقشات ومناظرات بحضور الخلفاء، بين منظري الفكر

الإسلامي، وكبار الربانيين اليهود وغيرهم وتبع ذلك بروز كتب كثيرة، تناولت مفاهيم العقيدة اليهودية، ومقارنتها بما جاءت به العقيدة الإسلامية، من مفاهيم عقيدية.

ولعل من أهم الأسباب التي أججت الجدل والحوار، كون اليهودية تمتلك كتاباً يسمى التوراة وهو من أقدم الكتب الدينية التاريخية، التي تتناول في أسفارها ذات الله، وصفاته، وعالم الغيبيات الأخرى كالملائكة، والجن، والبعث، والموت واليوم الآخر، وما إلى ذلك. وكون القرآن الكريم كتاباً سماوياً فقد حفل بمسألة الخلق والبعث، والدنيا والآخرة، ومواضيع أخرى، تقع في صلب العقيدة.

وبمعنى آخر فقد ارتبطت مفاهيم العقيدة بالكتب السماوية بالدرجة الأولى. القرآن، والتوراة والإنجيل. وباعتبار التوراة ـ رغم تحريفها ـ مصدر التشريع، حتى بالنسبة للعقيدة النصرانية، فإن الاهتمام بدراسة ما جاء فيها من قضايا عقيدية، كان الأساس الذي بنيت عليه الدراسات والبحوث المخصصة لقضايا العقيدة في الإسلام وكل من اليهودية والنصرانية.

لقد وقف العلماء والمفكرون المسلمون من التوراة واليهودية، موقفاً واضحاً عبر التاريخ. هذا الموقف يتجلى في نقد التوراة ونقد اليهودية. وما كان يتسنى لهم ذلك، لولا وجود القرآن الكريم، الذي لم يترك شاردة أو واردة في العقيدة اليهودية بشتى نواحيها، وبيّن ما جاء به النبي موسى عليه السلام، وما زيد عليه أو حرّف فيه. ومما قوّى حجة هؤلاء العلماء في الرد على الأفكار اليهودية، صحة قوة الحجج والبراهين القرآنية المتوافقة مع المنطق العلمي، والمنطق التاريخي، والمنطق الاجتماعي الإنساني، إضافة لكون التوراة خضعت في كتابتها وتدوينها لفترات زمنية طويلة ومتباعدة، ومن ثم اقتراب قضايا العقيدة التوراتية، من التركيبة الأسطورية، غير المتوافقة مع الفطرة الدينية

التوحيدية البشرية، والمنسجمة وثنياً مع الواقع التاريخي لأصحاب العقائد الوثنية الأسطورية في التاريخ القديم.

وقد ظهر لدى الدارسين التناقض في عقيدة اليهود، بعد أن دحض القرآن الكريم كثيراً من افتراءاتهم، وتحريفهم للعقيدة الموسوية الصحيحة، وهذا التناقض برز بشكل جلي في صفات الله، وعالم الغيبيات، حيث التجسيم والتشبيه، والقدرة الكلية المطلقة والأخرى النسبية. وكذلك الأمر بالنسبة لعمل الإله، وأعمال الملائكة والجن وإبليس، وما إلى ذلك.

لقد أثبتت غالبية العلماء على شتى أجناسهم، عدم ثبات العقيدة اليهودية على الأسس المعروفة في العقائد السماوية، ولم يعتبروا ذلك التغيير أو التحول تطورا في الفكر العقيدي، إنما اعتبروه انحرافا، باعتباره يخص العقيدة وأسسها ولا يخص التشريع، والمعاملات والمفاهيم الاجتماعية، من علاقات مع البشر، ومع المخلوقات.

وحين ينظر الدارس في أسفار التوراة، سيرى أن أسس العقيدة تتغير وتتبدل بأسلوب انحرافي واضح، فما يرد في سفر التكوين نفسه مثلا يدلل بشكل مباشر على الانحراف والتعرج العقيدي. وكذا الأمر ينطبق على بقية أسفار التوراة. غير أن القرآن الكريم، حين يتحدث عن العقيدة لدى بني إسرائيل واليهودية، يشير مباشرة إلى طبيعة النفسية اليهودية، التي ترفض الثبات في العقيدة. فمنشأ العقيدة التي نادى بها موسى عليه السلام هو منشأ الوحدانية، وكذلك هي طبيعة العقيدة السماوية. لكن الملفت للنظر، أن اتباع النبي موسى عليه السلام، لم يكونوا اتباعه في العقيدة، على الرغم من أنه كان يدعو حثيثا إلى الثبات على العقيدة التي نادى بها. لقد كانوا أتباعا له في الرغبة في الهروب من الفراعنة. ولذلك نرى آيات القرآن الكريم تركز على مجريات

الأحداث، وعلاقتها بالعقيدة، بقدر ما يكونون على علاقة قوية أو ضعيفة بالخالق، وبقدر قربهم من الاستجابة لعقيدة موسى أو بعدهم عنها.

وفي كافة الأحوال، فقد أولى الباحثون والمهتمون بدراسة التوراة العقيدة اليهودية كثيراً من البحث والدراسة، حتى صار لدى القارئ مجموعة كبيرة من الكتب قد يختلف أسلوب المعالجة فيها، ولكنها تتفق جميعها في الأساسيات العقيدية والفروع في العقيدة اليهودية.

لقد سبق ورأينا بعض المفكرين العرب الذين صنفوا العقائد والديانات في العصور السابقة، قد تناولوا العقيدة اليهودية بأشكال مختلفة، وقد وصلتنا كتبهم، مما ساهم في زيادة معرفتنا للعقيدة اليهودية تحديدا.

صنَف في العقائد الشهرستاني في كتابه الملل والنحل، وتحدث عن اليهودية وفرقها ومذاهبها. وكذلك صنَف في العقائد والفرق الخطيب البغدادي وذلك في كتابه الفَرْقُ بين الفِرَقْ. وتبع الاثنين الفيلسوف ابن حزم الأندلسي الظاهري، وذلك في كتابه المهم. الفصل بين الملل والأهواء والنحل، وقد غلب عليه الحس النقدي والتحليل أحيانا بخلاف ما جاء به الكتابان السابقان على الرغم مما يشوبه من تهكم وإسفاف أحيانا.

ولم تقتصر البحوث في العقائد ـ خاصة العقيدة التوراتية ـ على هذه الكتب، إنما تأتي أهمية ذكرها، بسبب شمولها للعقائد، وإظهار ما فيها من أجزاء عقيدية متعددة.

ويطالعنا العصر الحديث بعدد من الكتاب والباحثين الذين تناولوا اليهودية وذلك ضمن عدة مناهج واتجاهات. ولا نستطيع أن نحصر جميع ما كتب حولها، إنما يمكن الإشارة إلى كتاب العرب واليهود في التاريخ للدكتور احمد سوسة وإلى كتاب (الله) لعباس العقاد. وكتاب مقارنة الأديان لاحمد شلبي وكتاب اليهود في القرآن لعبد اللطيف طبارة. وكتاب التراث الإسرائيلي

للدكتور صابر طعمه، وكتاب نقد التوراة للدكتور حجازي السقا. وكتاب القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم لموريس بوكاي. وكتاب لمحمد عزة دروزة. وكتاب للمفكر الإسلامي الفرنسي رجا غارودي.

وهناك الكثير من الكتب التي تناولت العقيدة اليهودية، وكثير من المقالات والدراسات التي تبث في الصحف والمجلات، والتي تهتم بمثل هذه القضايا.

لقد ألقى الباحثون الأضواء على العقيدة اليهودية، غير أن الدراسات تشابهت في المضمون، وإن اختلفت في الشكل والأسلوب، وكانت جميعها لبناتٍ تعمّر فوق بعضها بعضاً لبناء رؤية واضحة، لما كانت عليه وما آلت إليه العقيدة اليهودية. وعلى الرغم مما أتى به من إيجابيات بحثية جادة، إلا أنه يحتاج دوماً لتسليط الضوء والكشف. وأعتقد أن علم مقارنة الأديان كفيل أن يدرس العقيدة اليهودية بشكل واعٍ، ومتكامل، خاصة إذا ما صدمت نصوص التوراة بنصوص القرآن الكريم نصاً بنص وفكرة بفكرة.

لقد احتج بعض الباحثين أمثال الدكتور شلبي بأن قضايا كثيرة موجودة في القرآن الكريم غير موجودة في التوراة، وكذلك العكس. وعلى هذا الافتراض، لا نستطيع أن نلجأ إلى مقارنة النص بالنص.

والواقع أن الافتراض هذا ليس صحيحا خاصة بالنسبة لمسائل العقيدة. فذات الله وصفاته موجودة في التوراة، كما هي موجودة في القرآن الكريم. وتطور مفهوم الخالق أو الإله وجد في التوراة. وكذلك أوضح القرآن الكريم تطور مفهوم المعبود عند اليهود وبني إسرائيل من قبلهم، في كافة السور والآيات التي تناولتهم منذ خروجهم من مصر ودخول سيناء، وحتى فترة الصراع الواضح بين اليهود والمسلمين في المدينة المنورة والجزيرة العربية.

وكما أكدت نصوص التوراة نظـرة البشـر إلى الله المجـرد والغيـبي تـارة، والمجسد والمجسم تارة أخرى، فقد أوضح القرآن الكريم تطـور نظرتـهم إلى الله المجرد الغيبي، والمجسد والمجسـم. وكمـا اختلـف كتبـة التـوراة، وفرقـهم في فهمهم لطبيعة الله وذاته، كذلك بين القرآن الكريـم، اختلافـهم في ذلـك الفـهم وذلك في كثير من السور.

وعندما يدوَّن في التوراة فهم اليهود لعالم الغيبيـات المتضمـن القـوى غـير المنظورة كالملائكة والجن، فإن القرآن الكريم يشير بشكل مكشوف لهذا الفـهم، بل إن آيات القرآن الكريم ردت على مزاعمهم، وتصوراتهم التي أضافوها علـى التوراة الأصلية حول ذلك العالم الغيبي.

وحينما يغفل التوراتيون الحديث عـن بعـض مـهمات الملائكـة تـبرز لنـا آيات القرآن الكريم لتكشف مـا أغفلـوه، ويدحـض مزاعمـهم، مـن خـلال قـرع الحجة بالحجة، ومن خلال تحريك العقل باتجاه المقبول عقلياً ومنطقياً.

ولما كان الانحراف اليهودي كلاً لا يتجـزأ فإنـهم دوَنـوا في توراتـهم مـا تصوروه حول الجن وعلاقته بالأنبياء والبشر بعامة وأولوه أهمية بالغـة، حتـى خلطوا عن قصد أو عدم إيمان بين مهماته ومهمات الله أو الملائكة، وقد اعتبروه قوة خارقة متجاهلين محدودية قوته أمام قوة الخالق الكلية المطلقة.

لقد نسبوا إلى إبليس مهمات، هـي في أساسـها مـهمات الله سـبحانه أو مهمات الملائكة. وفعلوا العكس أيضـاً، عندمـا ألصقـوا بـالله والملائكـة، أعمـالاً إبليسية تمثل الشر المطلق.

ولم يغفل القـرآن الكريـم عـن ذلـك، بـل بـين بـالتصريح مـا آلـت إليـه تصوراتهم في خلط أعمال الشر المتمثل بإبليس، وأعمال الخير المتمثل بذات الله.

وبسبب من الطبيعة البدوية القاسية التي فطر عليها اليهود، رأوا بأن الله خادم لهم لم ينفذ ما يرغبون، فوجدوا أن الله لا يصلح أن يكون رباً إلا إذا واجه أنبياءهم وجها لوجه، وواجههم شخصاً بشخص. وحين يواجههم - حسب نصوصهم - فإنه يصبح خاصاً لهم. يطلقون عليه اسم يهوه تارة، ورب الجنود تارة أخرى، يقاتل من يقاتلون، وإذا عاند مزاجهم غضبوا وتحولوا عنه ريثما يعود إلى هدوئه ويبرد حموَ غضبه.

وتسجل آيات القرآن الكريم هذه التطورات العقيدية في الديانة اليهودية، والتي لم تحدث في أي عقيدة أخرى.

لقد عرفت اليهودية عدداً كبيراً من الأنبياء، وخلط اليهود بين من هو نبي خاص ومن هو نبي عام. ونسبوا لهم أنبياء التوحيد الذين بدأهم النبي إبراهيم عليه السلام وانتهوا مع موت يوسف عليه السلام. لكنهم وعلى الرغم من هذا الانتساب المفتعل لم تكن عقولهم تطيق منهج هؤلاء الأنبياء، فألصقوا بهم الكثير من الصفات السلبية غير الأخلاقية، وشوهوا مفهوم النبوة، وحذفوه أحياناً عن بعض الأنبياء.

إبراهيم يحاول أن يتاجر بزوجته سارة لأنها جميلة، ولوط يزني بابنتيه بعد تدمير سدوم وعمّوره. وإسحق لا يعرف من يبارك من أولاده عيسو أم يعقوب، ويعقوب يجلب الأوثان من بيت خاله لابان. والأسباط يغدرون بأخيهم يوسف، ويكذبون على أبيهم. أما الأنبياء الآخرون كموسى وهارون وداود وسليمان، فإنهم يمنحون الأول نبوة وشريعة ويمنعونها عن داود وسليمان. أما هارون فيصنع العجل الذهبي ليعبده بنو إسرائيل في غياب موسى عليهم السلام جميعهم.

ويغدو مفهوم النبوة غامضاً مشوشاً ومشوهاً، بل يغدو مقتصراً على التنبؤ السحري كما حدث مع أنبيائهم أيام السبي البابلي، فلا عصمة للأنبياء. الذي

يرتكبونـه فاحشـة كـبرى. ولم يدحـض افتراءاتـهم وتشـويهاتهم لمفـهوم النبـوة والأنبياء، سوى آيات القرآن الكريم.

لقد أعادت هذه الآيات الكريمة الاعتبار للنبـوة والأنبيـاء. هـذا الاعتبـار الذي قصد اليهود أن يلغوه إلغاء كلياً.

واستناداً على مقولة شعب الله المختار، فقد رأوا في أنفســهم مرتبـة فـوق النبوة وفوق الأنبياء. ويرون أحياناً أنفسهم فوق الإله ذاته، طالما يسير هذا الإله حسب رغبتهم وهواهم.

ويتضح الفارق واضحاً بين عقيدة الأنبياء في التـوراة وعقيدتـهم في القـرآن الكريم ولعل مسألة التوحيد هي أهم ما في هذه العقيدة، لكن فلسـفة الانحـراف اليهودية لم تصل إلى مستوى فهم عقيدة التوحيد كما أقرها الله سبحانه وتعالى. وكما فهمها الأنبياء.

ولما كانت عقيدة التوحيد عقيدة جميع الأنبياء، فقد أنكـر اليـهود نبـوة بعضهم ليفصلوا التسلسل التوحيدي، الـذي أراده الله سـبحانه لمسيرة العقيـدة بين أنبيائه منذ النبي آدم عليه السلام وحتى محمد صلى الله عليه وسلم.

وعلى الرغم من أن الأنبياء ـ ولا سيما موسى وعيسى ويحيى عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، قد بشروا برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلا أن اليهود الذين لا يروق لهم الاستقامة على التوحيد، رفضوا كل ما قالـه الأنبيـاء بشأن النبي العالمي القادم محمد صلى الله عليه وسلم.

وحين بعث الله سبحانه عيسى بن مريـم نبيـاً مصححـاً لمسيرة الضـلال اليهودي، تناقضت مصالح اليهود مـع دعوتـه، ورفضـوه، كمـا رفضـوا دعوتـه التوحيدية وحـاربوه وحـاولوا قتله.

وهكذا فإن مفهوم النبوة جاء في التوراة وفي اليهودية مشوهاً مشوشاً عن قصد وعن سابق إصرار.

ويظهر أن رحلة الحياة في العقيدة اليهودية، أولت اهتمامها الأكبر للدنيا دون الآخرة، فهي المنشأ، وهي الغاية. ومن كان سعيداً فيها فهو في جنة الخلد. ومن كان شقياً فقيراً فهو في الجحيم. ولا نعيم ولا جحيم إلا في هذه الدنيا. ولذلك نرى أصحاب اليهودية أكثر الناس حرصاً على الحياة الدنيا، لأن المخلوق ينتهي بالموت إلى عالم ضبابي معتم، فيه الشك والظن السلبي. ولأن العلاقة بين المخلوق والخالق علاقة مصلحة مادية، فلا اعتبار لعالم ما بعد الموت. ونادرة هي ملامح يوم البعث والقيامة. والحساب هو حساب الدنيا في غالبية الحالات. لا عمل يُثاب عليه البشر ولا عقاب.

وبعض الفرق اليهودية الضعيفة والمحدودة عدداً وتأثيراً، ترى أن مسيحاً منتظراً سوف يأتي إلى الأرض، ويقيم مملكة العدالة فيها، ويسحق مع أتباعه، كل الكفرة والمرتدين عن الشريعة. ولكن إلى أي مدى يقيم هذا المسيح العدل على الأرض؟ لا ندري المهم أنه يقيم العدل الألفي السعيد كما يدعون. ولكن ماذا بعد الألف السعيدة؟ لا أحد يدري. وكل ذلك غامض غير واضح في العقيدة اليهودية. وغير ثابت.

وتأكيداً على أساطير اخترعها اليهود والبروتستانت، فقد رأوا أن العالم سينتهي بحرب مدمرة، أطلقوا عليها اسم معركة هرمجدَون. ويكون فناء الكون نتيجة حتمية لها. فقط عندها ينتهي الكون وتنتهي البشرية. أما ماذا بعد ذلك فليس هناك أي وجود، وليس هناك أي مصير أخروي وليس هناك إله، وحساب وموازين.

وهذا الحس الأسطوري، يكاد يكون عين الحس الوجودي المادي الذي يرى كل شيء في هذا الكون، خارجاً عن نطاق الدائرة الكونية. وخارجاً عن

نطاق خالق مبدع، فالكون حسب نظرهم، تحكمه قوانين الطبيعة الصمّاء والصُّدف العمياء.

لقد فضح القرآن الكريم ادعاءات اليهود وتَقَوُّلاتِهم بشأن العلاقة مع الله. وفضح خفايا نفوسهم، وزيفَ ما يدَعون، وحقيقة ما يسرون ويبطنون ويضمرون.

ولعل الأدهى من ذلك كله، اختراع أحبار اليهود لما يسمى التلمود، الذي فسر التوراة في المشنا والجمارا، تفسيرا حاخاميا، يُدرج المصلحة اليهودية فوق كل مصلحة، ولو كانت ربانية إلهية، ويصبح هذا التلمود أهم من التوراة في المرجعية الحياتية والتشريعية، فالعقيدة اليهودية تصبح عقيدة الأحبار، وعقيدة التلمود، وليست عقيدة موسى ولا حتى عقيدة التوراة، على الرغم مما فيها من اختلاط بين الواقعية والأسطورة، وبين ما هو عقلي وما هو غير عقلي.

وتلعب الفلسفة دورها الخطير في تطوير العقيدة اليهودية منذ زمن بعيد. حتى يصبح مثلا موسى بن ميمون أهم بكثير من النبي موسى عليه السلام، ويصبح منظرو الفلسفة اليهودية أهم بكثير من أنبياء بني إسرائيل وتعاليمهم. وذلك يؤكد أن اليهودية ليست عقيدة ترتبط بالسماء بقدر ما ترتبط بالفلسفة الوضعية والتحولات المصلحية.

ومن هذا المنطلق جعلوا مفاهيم المثل والقيم مقلوبة المضمون، محصورة في الاتباع، تصبح الحرية بمفهومها، حرية الإنسان المطلقة، وتصبح الإرادة الفردية اليهودية مطلقة اليدين، الخطأ فيها صواب، والشر بعينيها خير، القدر بيدها والكون كله ملك لنوازعها. وهذا ما كشفه القرآن الكريم كشفا دقيقا واضحا. لقد أكد كتبة التوراة الحس العنصري والفوقية، وجعلوا من تعاليم هذا الكتاب أفكارا خاصة لاتباع اليهودية. لم يطرحوا في التوراة عقيدة مفتوحة للآخرين، وكانت عقيدتهم قومية عنصرية، غير إنسانية وغير عالمية. اكتنفت تطبيقاتها الأسرار الغامضة، وسيطرت عليها. وما يزال اتباع اليهودية يبثون أفكارا

تهديمية مخربة في كافة بقــاع الدنيــا، وذلـك بسـبب عـدم قناعاتـهم وعدائـهم للعقيدة التوحيدية، والأنبياء جميعا. وبسبب قناعاتهم بأن العنصريــة اليهوديـة فوق العقيدة، فقد رأوا في العقائد الأخرى خطـرا عليـهم فراحـوا يبثـون أفكـار التهديم والتخريب في جميع المجتمعات. ودفعوا باتجاه إنشـاء حركـات دينيـة تارة تؤمن بالشيطان، وأخرى تؤمن بالإباحية الجنسية. والثالثة تؤمن بخرافات سحرية. إضافة إلى حركات الماسونية الهدامة واندية الروتاري والليونـز والبونـد والفرقة الداودية، وغير ذلك من الحركات الدينية التخريبية المدمرة المنتشــرة في كافة أنحاء العالم.

لقد رصدت أجهزة الأمن الأمريكية اكثر من أربعمائــة حركـة دينيـة لهـا عقائدها ومعتقداتها في الولايات المتحدة الأمريكيــة وحدهـا. إنـها طبيعـة أتبـاع اليهودية، التي صنعـها أحبـار اليـهود، وفلاسـفتهم، وطـوروا في توراتـهم ومـا يزالون يطورون، وكل ذلك حسب مـا تقتضيـه الظـروف، وحسـب مـا تقتضيـه المصلحة الخاصة لليهود.

ولهذا قسّمنا هذا الجزء إلى مقدمة وستة فصول وملحق. وذكرنا في المقدمـة نبذة عن علم مقارنة الأديان، ودور الفرق الكلامية في تشعُّب مفهوم العقيدة. ثـم وضعنا في السياق سؤالاً هل اليهودية عقيدة، وما هي سماتها ثـم في ضـوء ذلـك تحدثنا عن مقارنة الأديان ومنهج مقارنة النص التوراتي بالنص القرآني ثـم مـا مدى إدخال الأساطير في العقيدة اليهودية من قبل بعض الأحبار اليهود.

وفي الفصل الأول: درسنا العقائد في التاريخ وسـلّطنا الضـوء علـى عقـائد الشعوب القديمة التي عاشت في منطقـة الوطـن العربـي وكذلـك شـعوب الهنـد والصين واليابان وعــالم الشـرق القديـم. وتناولنـا اليهوديـة مـن حيـث منشـؤها وبيئتها وموقعها بين العقيدة الوضعيــة والرسـالة السـماوية. وبينّـا أن اليهوديـة عقيدة منغلقة وليست عالمية بل هي عقيدة عنصرية.

وفي الفصل الثاني: تحدثنا عن العقيدة اليهودية ورحلة التصوّر اليهودي للإله. ثم تناولنا بالبحث مفهوم شعب الله المختار والإله القبلي المختار. وكذلك الإله التوراتي غير الثابت والضائع الهويّة. والإله المجسَّد وكذلك إله الذهب. ثم تناولنا مفهوم الإله المحارب عند التوراتيين، وكذلك الإشراك بالوحدانية لدى اليهود. ثم تناولنا تطور مفهوم الإله عندهم ومن ثم عند فلاسفتهم.

وفي الفصل الثالث: تناولنا مفهوم النبوة لدى اليهودية ومعالمها وسماتها. من خلال مفاهيم تتعلق بالإيمان بالأنبياء وحاجة الناس إليهم. وتناولنا بعض الأنبياء الذين اشتركت التوراة والقرآن الكريم في الحديث عنهم، وعن بعض الأنبياء الذين انفرد القرآن الكريم بالحديث عنهم وكذلك الأنبياء الذين انفردت التوراة بالحديث عنهم. ثم تحدثنا عن منهج الدعوة لدى الأنبياء جميعاً. وتحدثنا في هذا الفصل عن الأسرار التي تمنع اليهود من الاعتراف بنبوة المسيح عليه السلام ونبوة محمد صلى الله عيه وسلم.

أما الفصل الرابع: فقد تناولنا فيه عالم المخلوقات الخفيّة كالملائكة والجن وتحدثنا بإسهاب عن طبيعة هذه المخلوقات وكيف فهمها كل من المسلمين والتوراتيين.

وفي الفصل الخامس: تناولنا مفاهيم الموت والبعث والجنّة والنّار والحساب والعقاب وما إلى ذلك من مفاهيم.

وفي الفصل السادس: تحدثنا عن تطور العقيدة اليهودية عبر التاريخ ودور الأحبار والفلاسفة اليهود في هذا التطور. ثم تناولنا الفِرق اليهودية وكذلك المذاهب والصراعات التي حدثت وما تزال قائمة بينها. ثم تناولنا أفكار بعض الفلاسفة اليهود وكيف ساهموا في تطوير العقيدة اليهودية.

وألحقنا هذا كلّه برسالة لأحد الحاخامات الذين أبطلوا العقيدة اليهودية ورفضوها.

وتوضيحاً لمضمون القسم الثاني من الجزء الثاني كان لابد لنا من وضع استكمال مفصّل لما في الجزء الثاني من الكتاب.

فقد امتازت بعض الأمم والشعوب القديمة بوضع تشريعات وقوانين تنظم حياة الإنسان وارتباطه بالإله إن كان واحداً، أو بالآلهة إن كانت متعددة، وكذلك ارتباطاته بأخيه الإنسان، إن كان من أبناء شعبه أو أمته أو كان من أبناء الشعوب المغايرة.

ومنذ وجد الإنسان العاقل على هذا الكوكب، وجدت معه علاقات، أقامها مع الخالق ومع الإنسان، وهذه العلاقات هي على الأغلب علاقات ود ومحبة وخشية وخوف. وتعبيرا عن هذه العلاقة أوجد هذا الإنسان طقوسا حركية وقولية وسلوكية تشير إلى نفسه، بأن العلاقة تحتاج لتنفيذ رغبة معينة يريدها الخالق، إن كان خالقا متصوراً كما في العقائد الوثنية أو كان خالقا صمداً فرداً كما في العقائد التوحيدية.

ومن ذلك وجد ما يسمى العبادات، وهي الرابط المقدس بين الله والإنسان، والرابط المتصور بين الإنسان الوثني ومجموع الآلهة التي صنعها خياله، ثم عبدها إما لتكون زلفى وواسطة بينه وبين الخالق الأكبر، وإما أن تكون رمزا لهذا الخالق المحيّر العجيب.

وعندما أصبح جنس البشرية أفرادا يعدون بالآلاف والملايين، رأى الإنسان نفسه بحاجة إلى قوانين تنظم التعامل بين البشر في كافة شؤون الحياة المادية أو العقلية والنفسية أو الروحية. فوجد ما يسمى المعاملات، وأصبح من المسلم به أن هذه المعاملات تحتاج دوما لقوانين تتجدد كلما تعقّد التعامل بين البشر وكلما ازدادت المصالح اتساعاً وشمولاً وعمقاً.

ومن هنا يفرض علينا البحث أن نوضح في الصفحات الأولى معنى العبادات ومعنى المعاملات كما فهمها الإنسان التوحيدي أيضاً. فلكل منهما أسبابه وأهدافه وغاياته ولكل منهما علاقاته المختلفة باختلاف الارتباط بينه وبين المعبود.

فالصلاة عبادة مثلاً، وقد وجدت صلوات لدى غالبية الشعوب موحِّدها ووثنيها، وهي بشكل عام صلة بين الإنسان وبين القوة الخالقة. وهي إما حركات ذات طقوس محددة، وإما كلام يتوجه به المرء لخالقه وقد اختلفت هذه الصلاة من أمة لأمة ومن عقيدة لعقيدة.

فالصلاة عند الشعوب الوثنية صنعها الكهنة وكبار رجال الدين وأوجدوا لها طقوسا حركية وكلامية، واتبعهم فيها عامة الناس، وقد أضفوا عليها من تصوراتهم كثيرا من الأساطير والقداسة حتى تكون مقبولة لدى اتباعهم.

أما في العقائد التوحيدية فقد كان العكس تماما، فقد فرضها الله على الموحدين أي أنها لم تكن إرادة ورغبة بشرية بل هي إرادة إلهية وقد أوحى الله سبحانه إلى مبلّغ الرسالة أي النبي والرسول بأن هذه الصلاة تكون على الشكل كذا حركة وقولا. وإذا نظرنا إلى الصلاة مثلا في العقيدة الإسلامية وجدنا أن كل حركة فيها وكل قول يقال أثناءها له غايته وله مبرراته العقيدية. وقد كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يوضح ذلك من تعليمه للصحابة وسلوكه التعبدي أمامهم.

وكذلك الصوم فهو عبادة، والصوم الامتناع. وقد اتخذ طرقا عدة، منها الصوم عن الطعام. والصوم عن الكلام. والصوم عن السلوك الحركي الذي يتنافى مع التعبد والأخلاق الحميدة والمعاملات الحسنة مع الناس.

وإذا دخلنا التفاصيل وجدنا أن العقائد بشكل عام حفلت بالصوم، فمن العقائد ما يفرض على المتعبد صوماً عن كل ما ينتجه الحيوان من دهن أو لحم

أو بيض أو حليب إلخ... ومنها ما يفرض على المتعبد الالتزام بكلامٍ محمـود أو بإيماء دون كلام أو ما شابه ذلك. ومنها ما يفرض على المتعبد صوماً عن الأكـل والشرب والكلام الفاحش المضر والسلوك الشائن غـير الأخلاقـي وغـير المسؤول وبذلك يصبح الصوم عبادةً كليـةً خاصـةً لهـا مـيزات قـد تختلـف عـن مجمـل العبادات ولذلك يقول معنى الحديث القدسي عن الله سبحانه. الصوم لي وأنـا أجزي عليه، وقد يرتبط الصوم بحدث وزمن أو بمأساة أو مسـرة فيكـون تطوعـا من الفرد لأن فيه تحقيق وعد ووفاء لمن قطع على نفسه من عهود. أو أن يكـون تضرعا طمعا في إبعاد مصيبة أو حلول مسرة أو رفع شدة.

وكذلك الجهاد في سـبيل الله، فـهو يـأخذ في العقـائد التوحيديـة معنـى شموليا يحوي الذود عن الحرمات والمقدسات والأوطان ويحوي مجاهدة النفس، وعدم إطلاق العنان للشهوات المضرة للفرد والمجموع. ويصبح هذا الجهاد عبادة عندما يفرضه الخالق على عباده وذلك لأسباب وأهداف وغايات. وعندما يدرك المؤمن ويوقن بـأن الجـهاد فـرض إلهـي لـه أسـبابه الواضحـة وأهدافـه المعلنـة وغاياته، فإنه ينفذ هذه العبادة دون أي اعتبـار للنتـائج علـى مسـتوى "الأنـا" المختبئة خلف الشخصية.

وإذا ما نظرنا بشكل دقيق لمعنى العبادة على المستوى الشـمولي نـرى أن هناك أسساً واضحةً لها، وآفاقاً تتسع لتشمل جميع أعمال المرء. فكل عمل يُراد به وجه الله عباده وكل عمل يُقصد من ورائه منفعـة البشـر عبـادة. ولعـل هـذا الربط بين عمل الخير والعبادة هو ربط كلـي يقصـد بـه إعمـار الكـون لا خرابـه وإصلاح حال الدنيا والناس لا إفسادهما. ومن ثم خلق يقين عند المـرء بـأن كـل عمل خير هو خير له وللمجموع. خير له في دنياه وآخرته. وبالمحصلة فالعبادة مجموعة قوانين تضبط العقل والنفس والـروح وتوجـه الوجـدان والفكـر والجسد نحو الخالق. فتنعكس سلوكاً وتعاملاً في كافـة شـؤون الدنيـا مـن علاقـات مـع

الإنسان والحيوان والنبات والجماد ومع كل مخلوقات الله على الأرض وتحتها وفوقها وما بينها وبين السماء. ولهذا كان الإيمان مقرونا بالعمل، وكانت العبادة مقرونة بالسلوك الاجتماعي. فالصلاة لا تعتبر صلاة ما لم تنه عن الإفساد والمنكر. والصيام ليس صياما ما لم يمتنع الإنسان عن استغابة الآخرين أو غشهم أو سرقتهم أو إبخاس الميزان الذي يكيل البضاعة لهم. والجهاد ليس جهاداً ما لم يكن مقرونا بنشر الدعوة التوحيدية وردع العدوان وتحرير الأوطان. الجهاد ليس جهادا إن كانت غايته السلب والنهب وقطع الرؤوس وإبادة الجنس البشري.

والعفيدة أي عقيدة توضع لها موازين تحدد حقوقاً وتوجب واجبات. تنظر للمخلوق نظرة كلية. فالإنسان كرجل له حقوق وعليه واجبات وكذلك المرأة والشاب والبنت فإذا تدخلت اليد البشرية في صنع القوانين والنظرات الفكرية والنفسية الموجهة نهو تقييم الفرد فإنها مهما حاولت الرقي في الموازين تظل ملتزمة بنوع من الأهواء الشخصية أو المزاجية. فربما ظلمت المرأة وهي تظن أنها أنصفتها وربما تستلب الرجل بسبب لونه أو عرقه كثيراً من حقوقه الإنسانية الأولية وحين تفسر القوانين حسب المصلحة الذاتية تصبح مقاييسها جائرة. فقد تظلم فرداً أو أفراداً ولكنها في مراحل كثيرة قد تظلم شعوبا بأكملها مما يخلق في الأرض نزاعات وحروباً دامية تودي بحياة أبناء الأمم وحضاراتها.

وفي هذا المبحث نعود إلى دراسة العبادات والمعاملات كما وردت في التوراة وكما وردت في القرآن الكريم مستكملين بحوث المقارنة التي تناولت مسألة الخلق الكوني والتاريخ الإنساني وكذلك مسائل العقيدة والمعتقد.

ولكون التوراة كتاباً تشريعياً يهودياً يعج بألوان العبادات والمعاملات كما يراها أتباع اليهودية فإنه يصبح من الواجب علينا أن نتناول النصوص التوراتية ذات الشأن في المعاملات والعبادات مستندين في ذلك على ما جاء في القرآن

الكريم من موافقات وتفصيلات قد تفضح زيف قوانين التشريع اليهودي وتفضح ما آلت إليه هذه التشريعات من تحريف مقصود.

ولأن القرآن الكريم تناول الشخصية اليهودية تناولاً تفصيلياً دقيقاً، فإننا سنوضح معالم هذه الشخصية وسماتها وما لها من شطحات تعبدية، وما صنعت لنفسها من تعاليم تحدد طبيعة المعاملات مع أبناء اليهودية من جهة ومع أبناء الأمم الأخرى من جهة أخرى. لقد فصلت ثمانمائة سنة بين نزول التوراة الحقيقية على النبي موسى عليه السلام، وبين تدوين ما يسمى التوراة. لقد دوّن التراث الشفهي التوراتي كله زمن السبي البابلي. وكانت هذه السنون الطويلة كفيلة لصنع عبادات ومعاملات تختلف كلياً عما كان عليه في الأصل.

وبسبب من اختلاط بني إسرائيل بالكنعانيين والمصريين والبابليين وغيرهم فقد استفاد كتبة التوراة من تراث هذه الشعوب العقيدي والحياتي فاستلهموا الطقوس والقوانين وباتت نسخة مشوهة عن أصولها.

ففي العبادات لم يعد الرابط بين أتباع اليهودية والخالق سوى رابطة المصلحة والهوى. فالإنسان هو الذي أضفى على معبوده ما يريده. وتصبح العبادة أمراً شخصياً مقرراً من الإنسان وليس من الله.

وبسبب من التقلب الشنيع المستمر في العقيدة أصبحت العبادات ذات علاقة بالوثن والميت والملك. ونُحّيَ الخالق وتعاليمه التعبدية. لقد تقلب بنو إسرائيل في عقيدتهم تقلباً لم يُعرف في أي فئة على مدار التاريخ كله. وهذا التقلب جعل أتباع هذه العقيدة يغيّرون عباداتهم تغييراً سريعا فاختلط التوحيد بالوثنية واختلطت تشريعات الإله بقوانين الكهنة والأحبار والحكماء وطورت الصلوات حسب الظرف وحسب الحالة النفسية فأصبح كل متنبئ أو مصلح يفرض على أتباعه ما تمليه عليه تصوراته وإحساساته. وكذا ظل الأمر كذلك حتى تعقدت العبادات والمعاملات تعقيداً لم تشهده عقيدة أخرى.

وبسبب من النظرة الدينية العنصرية كرس علماء اللاهوت اليهود كل جهودهم لوضع قوانين تحدد العلاقة بين اليهودي وغيره من أبناء الأمم وأصحاب العقائد الأخرى. حرَّموا الربا بين اليهودي واليهودي وحللوه مع (الغوييم) الغرباء غير اليهود.

اعتبروا أن الإحسان لغير اليهودي خطيئة وذنب. وجعلوا الزنا حلالاً مع النساء غير اليهوديات لأنهن برتبة الإماء والعبيد أو حتى الحيوانات.

بينما راحوا يشددون في بداية عهد التدوين في قوانينهم التي تحكم أبناء عقيدتهم. أما الحلال والحرام فهو نسبي دوما ومتقلب حسب الظرف، وحسب من يعاملون من البشر إن كانوا يهوداً أو غير يهود. فما كان اليوم حلالاً يصبح غداً حراماً. وما كان حراماً لدى أبناء جنسهم يصبح حلالاً أو محللاً مع الغرباء. والمتصفح لعشرات الآلاف من صفحات التلمود الذي هو شرح لقوانين التوراة المدونة يجد أن اليهودية أصبحت عقيدة يصنعها كبار الربانيين ولا تمت بصلة إلى تعاليم موسى. حتى أنهم اعتبروا التلمود كلام الله الذي نزل شفاهية ومن لم يؤمن بالتلمود لن يفيده الإيمان بالتوراة.

وهذا التلمود نفسه، هو الذي ينظم حياة الفرق اليهودية في غالبيتها. في شؤون الزراعة والتجارة والصناعة والطهارة والنجاسة وجميع العبادات والمعاملات إن كانت معاملات تعبدية أو معاملات إنسانية بشرية. وعلى الرغم من أن التحريف في التوراة واضح ومقرّ من قبل كافة الدارسين والباحثين فإن كتبة التلمود وشارحيه فضّلوا أن يتوقفوا عند قوانينها وصنعوا التلمود حتى يتناسب كلية مع نفسيتهم وعلاقاتهم مع الكون ومع البشر والمخلوقات الأخرى.

وبناء على ما تقدم من نظرة شمولية حول العبادات وبعض المعاملات فقد قسمنا هذا البحث إلى سبعة فصول ومقدمة وخاتمة.

الفصل الأول: وقد سلطنا فيه الضوء على عبادات الشعوب الشرقية القديمة ومعاملاتها بشكل مختصر ومكثف، القصد من ورائه التنبيه لبعض طقوس وعبادات التوراتيين التي اقتبست من عبادات تلك الشعوب. ولما كان الفراعنة والبابليون والكنعانيون أكثر أقسام الشعب العربي التي كان لها علاقة سلمية وحربية مع اليهود فقد كانت لنا جولة في بعض عباداتهم ومعاملاتهم وبعض قوانينهم التي استفاد منها مدوّنو التوراة وكاتبو التلمود.

صحيح أن التوراة ولاسيما أسفار موسى الخمسة فرضت عبادات ومعاملات على بني إسرائيل، وصحيح أن بعضها لا يختلف في جوهره عن تعاليم التوحيد والرسالات السماوية، ولكن التدوين الذي تم بعد نزول التوراة بأكثر من سبعمائة سنة طور في مفاهيم كثيرة في العبادات والمعاملات، وذلك بسبب احتكاك بني إسرائيل بالبابليين الذين عرفوا التشريعات والعبادات، وعرفوا المعابد بشكلها الراقي فالصلاة حُددت أوقاتها بثلاثة أوقات بعد أن كانت مسموحة في أي وقت وفي أي وضع نفسي. وكذلك ما يقال في الصلاة. فلم يعد ما قاله موسى عليه السلام، هو الوحيد الذي يقال بل زيد عليه بما يتناسب مع الظرف والحالة النفسية لبني إسرائيل. واختلطت الأقوال التعبدية بتوجهات سياسية فرضها الكهنة ورجال الدين والمتنبئون الذين ظهروا أيام السبي البابلي وأيام الاغتصاب الثاني لأرض فلسطين بمعاونة الفرس.

وما ينطبق على القرابين هو نفسه الذي ينطبق على الصلاة وغيرها من العادات التعبدية ولكن الذي يدهش أن الكهنة الذين تسلّطوا على بني إسرائيل أصبحوا هم الذين يستفيدون من التقدمات العينية كالأضاحي والأموال والتقدمات الأخرى. وأصبح على جماهير اليهود واجب الدفع لهؤلاء الكهنة دون نقاش. ومن يرفض التقديم لهم يطرد من قومه وتحاك ضده المؤامرات فينفى أو يقتل أو تشوّه سيرته وسمعته وتصبح طبقة الكهنوت ذات امتيازات عالية لا

يصل لها بقية الناس العاديين وقد وصفهم القرآن الكريم في بعض الآيات وفضح أساليبهم في نهب أموال الناس بالحرام.

أما الفصل الثاني: فقد تناولنا فيه مفهوم المعبد ومن ثم مفهوم العبادة في التوراة وبيّنا أن مفهوم المعبد لم يكن عند بني إسرائيل ذا أهمية أو حتى اهتمام على الإطلاق، لقد عاشوا في الصحراء عشرات السنين دون أن يحتاجوا لما يسمى معبداً. وقد ربطتهم خيمة الاجتماع ثم ربطهم تابوت العهد. وكلاهما ينقلان من مكان إلى آخر دون ثبات أو استقرار. وكانت غالبية عباداتهم تقتصر على تقدمة القرابين والمحرقات في الخلاء وعلى كومات من الحجارة يصنعونها لذلك. وبعد مرور مئات السنين أنشأ اليهود أول معبد في ضواحي القدس على يد النبي سليمان. وبدل أن يكون المعبد معبدا توحيديا أصبح معبدا وثنيا حسب ما وصفته التوراة، تمارس فيه طقوس عبادة الأوثان والأصنام التي تمثل آلهة الشعوب المختلفة. وقد هاجم أنبياء التوراة ما فعله بنو إسرائيل في هذا المعبد هجوما قاسيا.

وقد استغل الكهنة وجود هذا المعبد ليكسبوا من وجودهم فيه المال والتقدمات وليكسبوا الموقع السياسي والاجتماعي المميز بين بني إسرائيل.

وبدا واضحا أن هناك تحولاً في العبادات، طالما أصبح لديهم مركز للعبادة فيجب تقنين هذه العبادات، ويجب اختراع طقوس جديدة تناسب الوضع المكاني للمعبد فلذلك نرى هذه العبادات في طور التوسع في حركاتها وأقوالها وطقوسها. ولما حدث السبي البابلي كان لا بد من دمج العبادات بالحس السياسي، فالقدس لم تعد مجرد معبد يربط اليهود بالعقيدة بل أصبح حلما سياسياً تقدس فيه أو له كل المقولات السياسية بدءاً من تجميع بني إسرائيل وانتهاءً بما يسمى العودة أو التسرب الثاني إلى أرض فلسطين.

أما الفصل الثالث: فقد كرس لدراسة طبيعة الطقوس في العبادات وبيّنا فيه أنواعا من التسابيح اليهودية والتوسّلات والتشكرات، وبيّنا أيضا كيف أصبحت للصلاة أوقات. وأوضحنا الأقوال التي تقال في الصلاة وكيف أن الكهنةُ اخترعوا أقوالا جديدة تقال في الصلوات لم تكن موجودة في التوراة وقد اخترع الكهنة ما يسمى التبريكات الثماني عشرة وضمنوها اللعنات التي تستهدف العقائد الأخرى ولاسيما المسيحية. وقد صدّر اليهود كتبا للصلاة لكل فرقة كتاب يختلف عن الآخر. وبيّنا أن القرّائين من اليهود صنعوا لأنفسهم كتابا للصلاة لا يأخذ بما جاء في التلمود. ثم اخترع اليهود أنواعا من الصيام لم تكن موجودة في التوراة أيضا. ومنها صيام إحراق بيت المقدس وهذا ما فرضه أحبار اليهود وأنبياء التوراة أيام السبي البابلي.

أما التفاصيل المتعلقة بالقرابين فقد جاءت على غالبية الطقوس التي تقام بشأنها. وقد بيّنا منذ البداية أن قضية القربان بالنسبة للديانات السماوية بدأت منذ ولدي آدم عليه السلام. وكذلك بيّنا أهمية تقديم إبراهيم عليه السلام لابنه كي يذبحه وكيف فداه ملاك الله بكبش عظيم. وقد جاءت القرابين متنوعة، فهي تضم الحيوانات الطاهرة وبعض الحبوب والزيت ثم فصّلنا القول في أنواع الذبائح التي كان عليها اليهود وطوّروا في مفاهيمها وأنواعها. وذكرنا أعياد اليهود وما يقام بها من طقوس وأشرنا لفطير صهيون وكيف يقدم فيه دم غير اليهودي معجونا بالدقيق. وشمل هذا الفصل معنى الحج وأهمية بيت المقدس بالنسبة لحج اليهود. ومدى تماديهم في اختراع الأساطير حول ما يسمونه حائط المبكى الذي هو حائط البراق.

أما الفصل الرابع: فقد خصّصناه لدراسة بعض التشريعات الفقهية لدى العقيدة اليهودية وهي تتعلّق بالطّهارة والنجاسة بمفهوميهما العامّين. وفيه أيضا

توضيح لكافة أنواع النجس عند المرأة والرجل. وأوضحنا كيف ضيقت الشريعة اليهودية على أتباعها واضطهدت المرأة اضطهادا كبيرا.

وقد أوضحنا حسب النص التوراتي نوعية الحيوانات والطيور والحشرات النجسة والطاهرة.

وقد بينا من خلال آيات القرآن الكريم ما حُرِّم على بني إسرائيل وما حُلِّل لهم موضحين من خلال هذه الآيات كيف حرّف اليهود الأحكام الخاصة بالتحريم والتحليل.

ولعل الزواج والطلاق من أهم الأمور التي اهتمت بها الشريعة اليهودية. ولذلك فقد فصّلنا فيها القول. في الشروط والمهور والسن. والعادات والتقاليد التي حكمت اليهود في زواجهم وطلاقهم. لقد حرمت اليهودية الزواج من غير عقيدتها. بيد أن اتباع هذه العقيدة ظلوا ملازمين الزواج من القريبات وظل الأنبياء التوراتيون يرفضون الاختلاط . ويرفضون زواج اليهود إناثاً كانوا أو ذكوراً من الأمم الأخرى. ليحافظوا على مزاعم العرق اليهودي الذي لا يجب أن يختلط متجاهلين أن العقيدة شيء والعرق شيء آخر. ومتجاهلين كذلك أن أتباع اليهودية لم يكونوا على عقيدة موسى التوحيدية منذ دخولهم سيناء وحتى عصرنا الحالي.

واخترنا أن يكون موضوع **الفصل الخامس** خاصّاً بالعقوبات التي تتناول كافة الحالات. مثل حالات القتل العمد وغير العمد والزنا والاغتصاب وعقوق الوالدين والشتم واللعن الخ.. وكل ذلك حسب ما جاء في التوراة. وقد ارتأينا أن تترك التفاصيل في العقوبات والمحرمات والنواهي والأوامر لفصل آخر لأنها جميعها ارتبطت بالتلمود أكثر مما ارتبطت بالتوراة. وتبناها اليهود أكثر مما يتبنون قوانين التوراة.

ولذلك كان **الفصل السادس**، واخترنا أن يكون تحت عنوان اليهودية من الداخل حيث تناولنا فيه طبيعة العلاقة بين اليهودي واليهودي. طبيعة القتل الجماعي والفردي بينهم متضمناً الاغتيال والقتل بالغدر. ثم تناولنا فيه ظاهرة الاغتصاب المتفشي بين اليهود منذ زمن التوراة وحتى العصر الحالي، ثم بينا موضوع حقوق الإنسان وخاصة حقوق المرأة التي اضطهدها التشريع اليهودي في حقوقها الخاصة والعامة.

وتعرضنا لموقف اليهودية من البغاء والإجهاض واللقطاء والاسترقاق. وقد عرضنا في هذا الفصل تحليلاً للشخصية اليهودية المنحرفة وذلك انطلاقاً من الاستناد على آيات القرآن الكريم التي رصدت نفسية اليهود في كافة قضاياها الشخصية والاجتماعية والاقتصادية تلك القضايا التي اعترفت التوراة بها على لسان أنبيائها وكهنتها رغم كل التحريف والتزوير.

أما **الفصل السابع**: فكرّسناه لدراسة اليهودية من الخارج. أي مجمل التشريعات والقوانين التي تحكم علاقة اليهود بغيرهم من الأمم والشعوب. وبينا كيف أن التلمود كرّس معظم صفحاته لتبيان العلاقة بين اليهودي وغيره وذلك إن كان في زمن السلم والحياة الآمنة أو كان زمن الحرب والصراع. إن كان ذلك بحكم الضعف اليهودي أو كان بحكم القوة. ولذلك تناولنا كثيرا من القضايا المرتبطة بالتعامل الحياتي اليومي، كالربا والمداواة والزراعة والبيع والشراء والعداوة والبغضاء والدسائس ومحاولات الاغتيال والقتل والاغتصاب وكل ذلك يأتي في سياق تشريعات التلمود التي تعتبر كل من عدا اليهود غرباء ووثنيين يجب أن يختلف التعامل معهم عما هو عليه بين اليهود. وأوردنا فيه الشواهد المعاصرة اللازمة التي تبين عنصريتهم وحقدهم على شعوب العالم..

ثم قدّمنا في آخر الكتاب **خاتمة** تحوي نداء إلى اليهود أنفسهم كي يخلصوا أنفسهم من عقدة اليهودية المنحرفة ويعودوا إلى دراسة حقائق التوراة

ويرفضوا المؤسسة الدينية اليهودية الكهنوتية التي تتحكم في رقابهم وتسوقهم إلى الهاوية. وفي هذه الخاتمة دعوة لكافة المسلمين كي يعيدوا النظر في كل ما قرأوه عن اليهود حتى يدركوا مدى التحريف التوراتي ومدى ما أدخل في عقول المسلمين من تلفيقات يهودية وإسرائيليات وموضوعات.

إننا ومن باب الحرص على كشف الحقائق نستعين بالله العلي العظيم كي يسدد خطانا وتكون غايتنا إخلاصنا لعقيدة التوحيد الإنسانية الشاملة. اللهم إن كنا أخطأنا فلا تؤاخِذنا واغفِر لنا وتُب علينا وإن أصبنا فلكَ الشُكر الدائم لأننا دون تأييدك لا نستطيع القبض على القلم أو رؤية الكلمة لنقرأها.

والحمد لله رب العالمين

حسن الباش

نهاية شهر 6 عام 1998

القسم الأول

في العقيدة والمعتقد

الفصل الأول

العقائد في التاريخ

العقائد في التاريخ:

لا شك أن عقائد البشر في الأرض لا يمكن حصرها بشكل تفصيلي واسع، فكل أمة في هذه المعمورة لها عقائدها، ومعتقداتها. وعبر التاريخ وجدت عقائد لم نعرف عنها إلا النزر القليل، وبعضها الآخر لم نعلم عنه شيئاً.

وقد ذكر معظم علماء التاريخ والأديان ما وصل إليهم من العقائد الكبرى، التي انتشرت بين ملايين البشر، وأصبحت تعاليمها وأتباعها، في متناول البحث، وقد تصدى لدراستها كثيرون من المهتمين والمتخصصين. وسلطوا الأضواء على تاريخ نشأتها، وعلى تعاليمها وتطورها منذ أن بدأت، وحتى انتشارها بشكل واسع، وتواجد أتباعها حتى هذا اليوم.

ولسنا هنا بصدد دراسة هذه العقائد، وتحليل ما فيها من تعاليم ومعتقدات وعبادات إنما الذي يعنينا من هذه الدراسة، معرفة علاقة هذه العقائد بالوثنية والتوحيدية أو بمعنى آخر، علاقة هذه العقائد بالإله إن كان إلهاً واحداً أو عدة آلهة، وعلاقتها بالقوة الغيبية إن وجدت، إضافة لأهم قضايا العقيدة، كالموت والبعث والروح والحساب، وما إلى ذلك.

وبسبب كون الموضوع يرتبط بدراسة العقيدة اليهودية، على ضوء معطيات التوراة والقرآن الكريم، فإن إلقاء الضوء على عقائد الإنسانية الأخرى، يمنحنا بعض التعرف على مفاهيم عقيدية، قد تتقاطع مع اليهودية أو لا تتقاطع، وعندها فقط يمكن التعرف على ما إذا كان هناك تأثرٌ وتأثيرٌ، وأخذ وعطاء بين

العقائد جميعها وعندها أيضاً يمكن التعرف على تقدّم عقائد وتأخُّر أخرى، حسب التسلسل الزمني التاريخي لوجود هذه العقائد .

ويحكمنا في هذه الإضاءة عدة أمور، لا يمكن إغفالها أو الإقلال من أهميتها :

1- اتساع المساحة الجغرافية لكل عقيدة أو محدوديتها جغرافياً .

2- عمق المساحة التاريخية لكل عقيدة. انقطاعها أو تواصلها .

3- علاقة هذه العقيدة بالوحدانية أو التعددية، والتجريد والتجسيم.

4- نقاء هذه العقيدة أو امتزاجها بعقائد أخرى

5- طبيعة الظروف التي انتشرت بها العقيدة، والكيفية التي من خلالها تم نشرها والدعوة لها .

وكنماذج لهذه العقائد حسب الأمور التي طرحناها، نجد أمامنا عقائد المنطقة العربية القديمة، وعقائد بلاد فارس، وعقائد الهند الكبرى، والعقائد الصينية. وبعض العقائد لدى الحضارات التي كُشِف عنها حديثاً في أمريكا. وأفريقيا ويمكن حصر هذه العقائد بما يلي :

1- عقيدة البابليين والآشوريين والكنعانيين، وحضارة المنطقة العربية، عقائد الفراعنة.

2- الزرادشتية، والمانوية، والمجوسية .

3- الهندوسية (البراهمية). البوذية. والجانتية .

4- الكونفوشوسية .

5- عقائد الهنود الحمر في أمريكا .

6ـ عقائد الشعوب الأفريقية والأسترالية القديمة .

لقد جاءت اكثر الدراسات المتخصصة بالشرق القديم، على معظم ما كان لدى الشعوب في ما بين النهرين، من عقائد وديانات ومعتقدات، واستندت جميعها على آلاف اللوحات الفخارية والرقم المكتشفة في مناطق تواجد شعوب تلك الحضارات. وأصبح لدى الباحث مواد غنية ووفيرة، سيما أن تلك الكتابات ترجمت كثيرا إلى أكثر من لغة.

وقد ركز العلماء والآثاريون والباحثون في الشرق القديم على تناول السومريين ومعتقداتهم، كأقدم مجموعة بشرية أنشأت حضارة في الماضي، ثم سقطت الحضارة السومرية أو انهارت في ظل بروز قوة البابليين. ما بين النهرين، وخلفت وراءها آثاراً كتابيةً. وعلى الرغم من أن جميع الباحثين يتفقون على أن السومريين ليسوا شعباً سامياً أو عربياً، إلا أن وجودهم في المنطقة العربية، جعل الباحثين يدرجونهم ضمن حضارات هذا الحوض العربي الكبير، ولسبب آخر أيضاً هو قولهم: بأن البابليين والآشوريين استندوا في معتقداتهم وأساطيرهم على عقائد وأساطير السومريين ومعتقداتهم.

ترتكز الأفكار الدينية عند السومريين على تصور متعدد الجوانب للآلهة .فهم يرون أن الإله (آن) هو إله السماء، وهو الحاكم الأسمى والإله الرئيسي. ويرون أن هذا الإله تزوج من (كي) وهي الأرض، ثم انجبا بقية الآلهة. ومن أهم المعتقدات الدينية لديهم، اعتقادهم أن الكون كان في الأساس البحر ثم انبثق من البحر الشمس والقمر والكواكب والنجوم، ثم النبات، والحيوان، والإنسان أو الحياة البشرية.

لكن السومريين اعتقدوا أن الآلهة تتصرف كالبشر، فهي تـأكل وتشـرب وتنام وتتزوج (لكنها خلاف البشر خالدة، وقد احتفظت للبشر بالموت، وأبقـت الحياة في يدها)[1].

ويجتمع لدى المعتقـدات السـومرية مجمـع آلهـة كثـيرة، كإلـه الغـلاف الجوي والرياح (إنليل) ويقال لديهم: إن هذا الإله، يمسك بيـده ألـواح القـدر، التي سطرت فيها أقدار الناس جميعا. وهناك أيضاً الإلهة (إنانـا)سـيدة السـماء والإله (إنكي) أو (أيا) إله العالم السفلي، أو إله الأعماق.

ويظهر من ذلك أن التعددية والتجسيمية، أو المزج بين الصفات البشـرية والإلهية كانت مسيطرة على التفكير العقيدي لدى السومريين.

وهـذا مـا سـنجده عنـد معظـم عقـائد الشـعوب الـتي سـكنت المنطقـة أو استوطنت فيها فيما قبل الميلاد.

وقـد تـوارث البـابليون المعتقـدات والعقـائد السـومرية، بعـد أن سـقطت الحضارة السومرية أو انهارت في ظل بروز قوة البابليين .

ويبرز الإله مردوخ (مردك) أو المريخ كأهم الآلهة الـتي عبدهـا البـابليون. وقد أقام له البابليون معبدا، أطلق عليـه (الإيزاجيـل) أي المعبـد الـذي تنـاطح ذروته السماء. وللإلـه مـردوخ زوجـة، يطلـق عليـها (صربنيتـو) وهـي مختصـة بالحمل والإنجاب. وتقول الألواح البابلية: إن مردوخ أخذ موافقة بقية الآلهة، إنْ هو قضى على (تعامت) إلهة العالم السفلي، أن ينصب كبيرا للآلهـة. ويتـم له ذلك حيث تقول الأسطورة: إنه قسمها بسيفه إلى نصفين، ثـم نُصِّـب كبـيراً للآلهة البابلية وصار يتصرف نيابة عن تلك الآلهة. وكانت تُوجه إلى هذا الإلـه الصلوات والتراتيل التي تمجِّد صفاته، ومنجزاته .

---

(1) جفري بارندر. المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ترجمة إمام عبد الفتاح إمام. عالم المعرفة ص 12.

وترى الأسطورة أن الآلهـة (تعـامت) أوتيمـات، اتخـذت الإلـه (كينغـو) زوجاً لها وقائداً لجيوشها في حربها مع (مردوخ) وبعد أن قتلها مردوخ وسـجن زوجها خلق الإنسان من دماء السجين (كينغو) بعد أن قتله، وأفـرج عـن بقيـة الأسرى، كما خلق النباتات والحيوانات[1].

وتقول الأسـطورة البابليـة: التفـت مـردوخ بعـد ذلـك إلى بقيـة عمليـات الخلق، فخلق النجوم محطاتِ راحةٍ للآلهة، وصنع الشمس والقمر، وحدد لهما مسارهما. ثم خلـق الإنسـان. ونظـم الآلهـة في فريقـين، جعـل الفريـق الأول في السماء، وهم الأنونانكي والثاني جعله في الأرض وما تحتـها وهـم (الألجيجـي) "1" وبعد الانتهاء مـن عمليـة الخلـق، يجتمـع الإلـه مـردوخ بجميـع الآلهـة، ويحتفلون بتتويجه سيدا للكون. ثم بنوا مدينة بابل، ورفعوا له وسطها معبـدا، وأعلنوا في هذا الاحتفال، أسماء مردوخ الخمسين.

فمن خلال الأسطورة البابلية، نـرى أن البـابليين، اعتمـدوا التعدديـة في عبادة الآلهة، ونلاحـظ تشـابها واضحـا بـين أعمـال الآلهـة واعمـال الإنسـان. فالآلهة أشبه بالملوك والأمـراء، حتـى إنـها تفتقـد إلى الخلـود. وهـذا عـائد إلى مرحلة ضعف حضارتها فهي في طور الضعف تصبح أقل قيمة وارتباطا مـن قبـل الإنسان بها.

وعلى الرغم من ذلك نجد أن هناك كبيرا للآلهة. بمعنـى أن هنـاك ملكـا يحكم حاشية. فمردوخ سيد آلهة بابل، ولكنه لا يعيش بمفرده، بل إلى جانبـه عدد كبير من الآلهة التي تعاونه في عمليات الخلق والكون وما إلى ذلك.

ويلاحظ أن كتابة الأسطورة البابلية تتوافق مـع سـيادة بـابل علـى وادي الرافدين والمناطق المتحضرة الجديدة. والسيادة العسكرية تتبعـها سـيادة ثقافيـة دينية تثبتها وتمد في عمرها. فكانت الأسـطورة وسـيلة لنشـر الديانـة البابليـة،

---

(1) المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ص 22 سبق ذكره

وتثبيتا لعبادة إلهها ـ مردوخ ـ الذي ساد الآلهة جميعـها، وتفوق علـى آبائـه وأقرانه[1].. وترى الأسطورة البابلية أيضاً أن الإلهة (مامي) أو كما تدعـى أيضـاً (تنماخ) أو ننخر ساج أو ننتو. وهي صاحبة الخلـق الأول، وهـي الأم الكـبرى. ويقصدون بها الأرض والتربة الخصبة. ويقابلها عند الكنعانيين ـ عشيرة ـ فكل الثقافات القديمة عبدت آلهة أنثى كبيرة. وهي الأرض الأم الـتي كـانت مركـزا للحياة الروحية)[2].

أما العقائد الكنعانية: فترى أن هناك مجمعـا إلهيـاً، علـى رأسـه يقـف الإله (إيل) وفي هذا المجمع ـ الإله بعل، والإلهة عشيرة، والإلهة عناة وبعـض الآلهة الصغيرة. تصف ألواح أوغاريت الإلـه إيـل بكبـير الآلهـة ورب السـماء، يعتلي عرشه في السماء السابعة. أما الإله بعل فهو الإله ـ حدد ـ وهو إله المطـر والسحاب والصاعقة. تقول المعتقدات الأسطورية الكنعانية: إن الإلـه إيـل جـاء نتيجة تزاوج الإله عليون والإلهة عشتروت. وتقول بعضها أيضاً إن إلـه السـماء تزوج بإلهة الأرض. فأنجبت له أربعـة أولاد، وهـم الإلـه إيـل والإلـه داجـون. والإله عتل والإله سيتون. وعندما بلغ إيل مبلغ الرجال، اتخذ الإلــه ـ تـوت ـ كاتبا له وكاتما لأسراره، ثم أشعل إيل حرباً ضد أبيه لأنــه أهـان أمـه الأرض. وتعني كلمة إيل القدرة والقوة. ويعتبر إيل أعظم آلهة الشعوب العربية القديمة. وعُرف أيل برب الأرباب. أو إيل إيلوهيم. ويقال: أنـه كـان لإيـل ابـن وحيـد يدعى شديدا توهم فيه الغدر يوما فذبحه.

وتقول الأسطورة: إن إله السماء أي والد إيل سئم حربه مع ابنــه فبعـث إليه ببناته الثلاث. عشتروت. وسميرنا. وبعلكي، كـي يوقعـهن بـه لكـن إيـل استمالهن وتزوجهن وولد لإيل من عشتروت سبع بنات، ـ يعرفـن في الأسـاطير

---

(1) فراس السوّاح. مغامرة العقل الأولى المستندة على ترجمة الكسندر هيدل وترجمة سبنسر ص 44

(2) فراس السوّاح. مغامرة العقل الأولى ص 76 ـ 77 سبق ذكره.

الكنعانية بالترابيات ـ كما أنه أنجب من سميرنا سبعة ذكور. ثم أنجب من عشتروت إلهين آخرين هما الشوق والعشق[1].

تقول الأسطورة الكنعانية أيضاً: إن إيل هو أول من تزوج بجنية، إسمها عين عفريت، وأنجب منها ولدا وحيدا. والشعب الكنعاني الذي يقدس إيل، لا يحترمه لصفاته المميزة فحسب، بل إنه يرى فيه إلها غير مشخص. وهو خالق السماوات والأرض وجميع البشر. وإيل يمثل الفكرة التوحيدية الأولى مثل الإله شمس. والإله إيل لا يحاور البشر كبقية الآلهة، بل يتجلى بشكل حلم أو وحي أو الهام. وفي النصوص الأوغاريتية لم يظهر إيل للناس مشخصا، كما هو الحال عند بقية الآلهة، مثل بعل وعشيرة وعناة التي تتدخل بشؤون الناس وتظهر لهم.

وفي بعض تفاسير الأسطورة الاوغاريتية، جاء أن إيل أبو الآلهة، وهو يقيم في حقولهم عند منابع الأنهار. وقد دام حكمه الفعلي 32 عاما. ويرد أنه شاخ وعجز. ومن أهم صفاته أنه الأبدي، خالق المخلوقات، وأبو البشر والآلهة. وحتى يثبت أبديته لم يرد أنه مات أو فني.

وترى بعض النصوص الكنعانية أن للإله إيل 70 ولدا، 50 ذكرا و20 أنثى وأطلقوا عليه أحيانا صفة الرحمة والعظمة، ويعتبر الكنعانيون أنفسهم شعبه الخاص[2] ويتميز أيضاً بتوزيع المكرمات، كإهداء الندى والطل. كما أنه يجلب الموت بواسطة بعض أولاده، وله سلطان على بعث الأموات. ويظل المرجع الأساسي في حل مشاكل الآلهة وصراعاتهم، وبناء المعابد، ولا ينافسه أحد من الآلهة وهو الحاكم المطلق .

(1) شوقي عبد الحكيم الفلكلور والأساطير العربية ص 64

(2) ديل ميدكو. اللآلئ، نصوص من الكنعانية ترجمة مفيد عرنوق ص34

ويرى العلامة سيفر أن ما يسبغه الكنعانيون من نعوت التعظيم والتفوق فوق الجميع، يدل بوضوح على ميل الكنعانيين لتقبل عقيدة التوحيد[1].

ويعتبر الإله بعل، أهم الآلهة عند الكنعانيين بعد الإله إيل على الإطلاق. ويرد اسمه على شكل آخر هو الإله حدد. وهو إله زراعي معروف في الأسطورة الكنعانية، فهو يسوق الغيوم والأمطار والأنهار، ويرد عنه أيضاً أنه إله الصواعق والبرق، وله عظمة وقدرة، كرسيُّه فوق الغيوم، وينتقل عادة في مركبته، مما أعطاه لقب ممتطي الغيوم. وأحياناً يتلذذ بعذاب البشر، فيأمر بالأعاصير، ولا يتردد في النيل من الناس بيديه حتى أنه لا يتردد في مصارعتهم. وله أيضاً بعض الصفات المستمدة من الإله إيل. فمرة يُعتبر إلهَ الموت وله القدرة على إحياء الموتى وبعثهم، كما أن له سلطةً على إذلال الإنسان الحي .و يقال: إنه كان يُضحي بالبشر قرابينَ لهذا الإله. ويكلفه أبوه إيل بمصارعة قوى العماء والوحوش الضارية، فيتغلب عليها ثم يأخذ بخلق الكون أو تتمة خلقه.

ومن أهم معابد الكنعانيين معبد لبعل في مدينة نابلس، وقد عبده التوراتيون في مرحلة من المراحل وصلّوا له، وذلك في زمن القضاة. ويقال: إنه أقيم معبد للإله إيل بين القدس ونابلس، لكنه كان يغص بالأصنام والتماثيل التي ترمز للآلهة المعاونة لإيل الموصوف بالمحتجب .

أما الآلهة عند المصريين القدماء، فلديانتهم تاريخ طويل معقد. فقد مرت عبر التاريخ بتغيرات عديدة، وذلك بسبب عمق الحضارة الفرعونية، واتساع الرقعة التي تواجدوا فيها .

---

(1) ديل ميدكو. اللآلئ، نصوص من الكنعانية ترجمة مفيد عرنوق ص35

وجدت في مصر آلهة محلية، تخصصت بها المناطق المصريـــة،في الشـمال والجنوب. ووجدت أيضاً آلهة عامة، تبناها المصريـون وأصبحـت في وقـت مـن الأوقات آلهة بعض الشعوب المجاورة .

في الديانات المحلية سادت ديانة حوريس، الإله الصقر الذي توحد مـع فرعون الحي. وقد ظهرت هذه الديانة بشكل عام، عندما انتصرت مصر السفلى على مصر العليا.

أما آلهــة مصـر الكـبرى فقـد بيّنـت مسـؤولية الخلـق. فتقـول الأسـطورة الفرعونية إن الإله الخالق الأول هو أتوم (ATUM) الذي اتحد في هويـة واحـدة، مع إله الشمس (رع). وتقول الأسطورة: إن أتوم خرج من عماء المياه الذي يسمى (نون) (NUN). ثم ظهر فـوق التـل، وأنجـب بغـير زواج الإلـه (شـو) الهـواء ـ والإلهة تف توت أو تفنت ـ الرطوبة ـ والإله أتوم أتم نفســه بنفســه، أي خلـق نفسه أولا، ثم خلق العالم، ومن صفاته (ذلك الذي جاء للوجود من تلقاء نفسه). أما الإلهة تفنت، فهي زوجة الإله ـ شو ـ . وقد عبدهـا المصريـون علـى شـكل الأسد وزوجته في الدلتا، وشاركت زوجها أعباء مهمته السلمية في حمل الأفـق. وهذان الإلهان خلقا كما يدل اسمهما بطريقة البصق الأول، ويعـني أتـوم أيضـاً الواحد الكامل. ومـن آلهــة المصريـين، إلـه السـماء نـوت (NUT) والإلـه جـب (GEB). وأوزوريس وإيزيس، وست ونفتيس.

ويظهر الإله بتاح (PTAH) خاصا بمدينـة منـف الـذي يسـمى في آن معـا الأب والأم لكن عملية الخلق تعزى إلى الإله الصـانع خنـوم (KHNUM). وتقـول الأسطورة: إنه يجلس إلى دولابه الفخاري ليصنع البشر. ثـم أصبحـت السـيادة الإلهية للخصوبة والشمس، فلذلك عبدوا الإله شمـس ـ رع ـ الـذي اتحـد مـع الإله أتوم، في صيغة واحدة (رع أتوم)، ومع إله السماء حوريـس الإلـه الصقـر.

وقد اصبح فرعون يسمى ابن الإله ـ رع ـ ونظر المصريون إلى الإلهة ـ ماعت ـ على أنها ابنته.

أما آمون فتعني الخفي، لكن هذا الإله كان يتجلى في أشكال كثيرة. وقد ظهر التثليث الإلهي عند المصريين في مرحلة من المراحل. فقد جمع الإله بتاح وسخمت وتعزتم في ثالوث واحد. وكذلك جمع آمون وموت وفنسو في ثالوث ثان. وجمع بتاح وسوكاريس وأوزوريس في ثالوث ثالث.

(ومن الواضح أننا نجد هنا استباقا للعقيدة المسيحية حتى لو أعوزنا الدليل الذي يثبت أن لها تأثيرا معينا على الصياغة المسيحية[1]). وحسب كافة المصادر الآثارية والتاريخية، فان مصر الفراعنة، قد شهدت تطورا ملحوظا في مفهوم الإله. وأرجع بعضهم هذا التطور إلى تغير الوضع السياسي والكهنوتي لدى الفراعنة والشعب المصري بشكل عام. ويرى عباس محمود العقاد أن عبادة آتون هي أرقى ما وصل إليه البشر من عبادات التوحيد في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. فلم يكن المراد بآتون قرص الشمس ولا نورها المحسوس بالعيون، ولكن الشمس نفسها كانت رمزا محسوسا للإله الواحد، المتفرد بالخلق في الأرض والسماء وإنما جاء هذا التطور بعد تمهيدات دينية وسياسية، تهيأت لمصر، ولم تتهيأ لغيرها من الدول الكبرى في تلك الفترة .

ويرى أيضاً أن الإله فتاح ارتفع طبقة أخرى في مدارج القدرة، والتنزه عن النظراء. فتعالى عن الأجساد الشاخصة للحس، وتمثل لعباده روحا مسيطرة على كل حركة، وكل سكون في جميع المخلوقات، من ذات حياة، وغير ذات حياة. فكان فتاح كما جاء في إحدى صلواته هو (الفؤاد واللسان للمعبودات. ومنه يبدأ

---

(1) جفري برندر. المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ص 52 سبق ذكره.

الفهم والمقال، فلا ينبعث من ذهن ولا لسان فكر أو قول بين الأرباب أو الناس أو الأحياء أو كل ذي وجود إلا وهو من وحي فتاح)[1].

وما وجد شيء من الأشياء قط إلا بكلمة من لسانه صدرت عن خاطر في فؤاده فكلمته هي الخلق والتكوين.

وقد توطدت كَهانة آمون في أيام المملكة الوسطى. وبلغت أوجها بعد عهد تحوتمس أكبر ملوك الأسرة الثامنة عشرة.

ومع اتساع النفوذ السياسي للفراعنة اتسع النفوذ الديني وأدى إلى تطور آخر في النظرة إلى الخالق، وأصبح ينتقل من بيئة محلية إلى بيئة عالمية. وعندما ارتقى عرش مصر، الفرعون أمنحوتب الرابع أو أخناتون كما تَسمَّى فيما بعد، كان التمهيد للعبادة الجديدة قد بلغ مداه. وكان اتساع الأفق في النظر إلى الدنيا، والنظر إلى صفات خالقها قد وسع له المجال للابتكار والتجديد. وأعان عبقريته على التدعيم بعد التمهيد.

وألغى أخناتون جميع الأرباب وأعوانهم، من الأرواح والأبالسة، وأولهم الإله أوزوريس. ويتضح من صلوات أخناتون، أنه أضفى على الإله أعلى الصفات التي ارتقى إليها فهم البشرية قديما في إدراك الإله بكماله. ومن صفات أخناتون كما يرد في النصوص المكتشفة أنه الحي الـمُبدِئ للحياة. الملك الذي لا شريك له، في الملك، خالق الجنين وخالق النطفة التي ينمو منها الجنين، نافث الأنفاس الحية في كل مخلوق، بعيد بكماله، قريب بآلائه. تسبح باسمه الخلائق على الأرض والطير في الهواء. وترقص الحملان من مرح في الحقول. فهي تصلي له وتستجيب لأمره، ويسمع الفرخ في البيضة دعاءه، فيخرج إلى نور النهار واثبا على قدميه. قد بسط الأرض، ورفع السماء واسبغ عليها حلل

---

(1) عباس العقاد. الله. دار المعارف المصرية ص: 68 عام 1964.

الجمال. وهو ملئ البصر وملئ الفؤاد، وهـو الوجـود وواهـب الوجـود. وشـعوب الأرض جميعها عبيده لأنه هو الذي أقام كل شعب في موطنه، ليأخذ نصيبه من خيرات الأرض، ومن أيام العمر في رعاية الأحد آتون)[1]

وقـد رأى بعـض البـاحثين الغربيـين، أن عقيـدة أخنـاتون القريبـة مــن التوحيد كان لها أبعد الأثر في عقائد العبرانيين، وهذا ما يمكن مناقشـته في مـا يلحق من فصول.

وتبرز لنا عقائد الفرس القديمة كإحدى أهم المجموعـات العقديـة الهامـة فيما قبل الميلاد، وكان لها تأثير واضح، وانتشار لدى الشعوب الآرية.

ولعـل العقيـدة الزرادشـتية مـن أهـم العقـائد البـارزة في فـارس القديمـة. فزرادشت الذي يعتبر أكبر مبشر فارسي بعقيدة واسعة الانتشار، يعود تاريخـه حسب أكثر المصادر إلى حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد، أو بحدود عام 628 إفرنجي ق. م. وما يميز الزرادشتية، أن مبشرها لم يدَّعِ الألوهية إنما كـان داعيا.

وتتجلى الألوهية عند زرادشت بأن الله هو السيد المهيمن الحكيم ـ أهورا مزدا ـ خالق السماوات والأرض، وهو الأول والآخر. ومع ذلك أيضاً هو الصديق الذي دعاه منذ البداية. ولا يمكن أن تكون لله علاقـة بالبشـر. فروحـه المقدسـة هي التي تقيم الحياة، وتخلق الرجال والنساء.

وتعارض الروح الشـريرة، أو القـوة المدمـرة الـتي تتسـم بالنوايـا الشـريرة والتكبر والكذب[2] .

---

(1) عباس محمود العقاد. الله في نشأة العقيدة ص 69 ـ 70 ـ سبق ذكره.

(2) جفري بارندر. المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ص 116 سبق ذكره.

غير أن المدقق في طبيعة العقيدة الزرادشتية يرى أن داعيها يقول بوجود إلهين وليس إلها واحدا. فيرى أن اهورامزدا هو توأم الإله الآخر المدعو أهرمان ويقول: على البشر أن يختاروا بين هاتين القوتين المتعارضتين أو بين التوأم من آلهة.

ولكن زرا دشت يرى أيضاً أن الصراع بين الخير والشر، أي بين اهورامزدا وأهرمان ليس أبديا، إذ سوف تأتي لحظة التحول الأخيرة في العالم، عندما يلتحم جيشا الخير والشر. ونرى أيضاً أن الزرادشتية تُدخل النار في مسائل العقيدة. فعند الالتحام بين الخير والشر فان على البشر أن يخضعوا للاختيار العظيم عن طريق النار. ويرى زرادشت أن طقوس النار القديمة هي رمز النور والقانون الكوني للإله فاستخدمها في صلواته.

وللزرادشتية كتاب مقدس يدعى الأبستاق (AVESTA) وقد دون على أقرب وجه في القرن الخامس الميلادي، أي بعد انتشار الزرادشتية بألف عام. وهذا ما يذكرنا بتدوين كتاب التوراة الذي لم يتم إلا بعد النبي موسى عليه السلام بسبعمائة عام على الأقل.

وترى تعاليم زرا دشت أن النظام أو المبدأ، هو ما نراه في السماوات والأرض، وهو ما يجعلنا نتعرف على الوجود غير المتناهي للإله القادر على كل شيء. كما يجعلنا نؤمن به، والحياة هي التي تعلم أن الله هو الموجود الأعظم، والأفضل والأسمى. من حيث الفضيلة والاستقامة والخير. والله لايمكن أن يكون مسؤولاً عن الشر، لأن الشر جوهر مثله مثل الخير، وكل منهما يرجع في النهاية إلى سبب أول هو الله من جهة، والشر من جهة أخرى.

وكأي عقيدة وثنية أسطورية ترى الزرادشتية أن لله كما للشيطان أتباع وقوى، فمع الله ملائكة ستة مقربون، يجلسون أمام العرش، ومكلفون بحراسة العناصر التي يتألف منها العالم. وهناك أيضاً ملائكة آخرون أقل مرتبة وبمقابل

هذه القوى توجد قوى شريرة، معاونة للشيطان، الذي يمثـل الشر وتقـوم بنشـر الجوع والمرض والعطش والفوضى، والأفكار الشـريرة، والعصيـان والارتـداد عـن الدين.

ويعتقد أتباع هذه العقيدة أن بهرام هو النيران الرئيسية، أو ملك النـيران الذي يتوج ويوضع على العرش، ولا يكتفي بتنصيبه فحسب. كذلك فلديـهم الإله المدعو ـ هوما ـ ويرمـز لـلأرض (وفي طقوسـه يسـحق الإلـه، ومـن العصـير يستخرج شراب الخلود. وفي هذه القرابين الخالية من الدماء يكون القربان في آن معاً هو الإله والكاهن والضحية. ويقوم المؤمن بالتهام هذا القربان الإلهي مستبقاً بذلك القربان الذي سيقام في نهاية العالم ويجعل جميع البشر خالدين)[1].

وقد حفلـت عقـائد الفـرس بديانـات أخـرى، أقـل أهميـة وانتشـاراً مـن الزرادشتية فنجد مثلاً الديانة الزرفانية، وزرفان هو إله الزمان المتناهي، والقدر المسيطر الذي يؤثر من بعيـد في مصـائر البشـر . والزرفانيـة عقيـدة معدلـة عـن الزرداشتية بعد أن طوَّرها كهنة النار، لتصبح تعددية، لم تقتصر على إله واحد. لكن الملفت للنظر في هذه العقيدة أن الإلهين أهورامـزدا وأهرمـان توحـدا في إلـه واحد ولكن لزرفان أربعة وجوه، وترمـز هـذه الوجـوه أو الصفـات إلى الإنجـاب والميلاد، والشيخوخة، والعودة، إلى اللامتناهي. ففي الواحد نجد جميع مظاهر الحياة. النور والظلمة والحرارة والبرودة. وترى الأسطورة المرتبطة بـهذه الديانـة أن زرفـان أنجـب الإلهـين أهورامـزدا وأهرمـان. وتـرى الأسـطورة الفارسـية أن أهرمان كان الأول في الدخول إلى العالم، ولهذا السـبب حكـم لـمدة تسـعة آلاف عام، أما أهورامزدا فقد أُعطِي سلطة الكهنوت والنصر النهائي[2]

---

(1) جفري بارندر. المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص 122 – 123 سبق ذكره.

(2) جفري بارندر. المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص124 سبق ذكره.

ومن العقائد العقيدة المترية. وقد عبد الإله مترا في إيران كإله للعقود والاتفاقات. ومن مهماته حفظ الحق والنظام والقضاء على القوى المفرقة. قوى الشر والغضب والجشع والتكبر، والمماطلة وجميع الأشرار من الآلهة والبشر. ويوصف بأنه محارب جبار، وهو الذي يتعبد له المحاربون، وهم على ظهور جيادهم، قبل ذهابهم إلى المعركة. وبوصفه حارساً للحقيقة، فهو قاضي الأرواح بعد الموت .

ومن العقائد الفارسية عقيدة أتباعها قليلون، ويطلق عليهم (النازوريون) وهم متواجدون جنوب العراق بجوار إيران، ويصفون المطلق بأنه الكائن الأعظم الذي لا شكل له، ويلقبونه بملك النور وسيد العظمة. وهو يقاتل ضد مملكة الظلام. وقد تم خلق العالم عن طريق فيوض صدرت عن ملك النور .

ومن العقائد أيضاً عقيدة المانديين التي تختلط بالفلسفة، فيرى أتباعها أن الروح شعاع من النور سجين المادة، منذ بداية الخلق. وعلى حين أن البدن خلقته الكواكب فإن الحياة والتنفس جاءا من عالم النور، غير أن الروح لا تتخلص من أسر البدن عن طريق خضوع هذا الأخير وإذعانه. ويرون أن الكواكب والنجوم هي التي تعرقل تحرر النفس .

ويدعي أتباع المانديـة أنهم من سلالة يوحنا المعمدان، ويعتقدون أن أسلافهم فروا إلى بارثيا شمال إيران عندما سقطت القدس بيد المسيحية الرومانية. ومن الطبيعي أن نلاحظ هنا أنهم نسبوا أنفسهم ليوحنا المعمدان الذي هو يحيى عليه السلام. ومعروف لدى العقائد المسيحية والإسلامية والوثنية الرومانية أن يحيى قتله اليهود بالتعاون مع الرومان الوثنيين وهو شاب لم يُنجب. ثم هناك ملاحظة هامة وهي أنهم يدعون انتسابهم إلى سكان (القدس). وبمعنى آخر فإنهم من بقايا اليهود الذين سبوا إلى العراق أو أنهم من بقايا سكان القدس الذين سُبوا إما أيام العصر البابلي أو أيام الامتداد الفارسي ق.م .

ولعل المانوية من العقائد التي انتشرت بشكل قوي في فارس وامتدت إلى آسيا عن طريق الهند وقد وجد ماني أيام الحكم الساساني الفارسي. وادعى أنه جاء ليتمم عقيدة زرادشت وبوذا والمسيح. ومعروف أن ماني ولد عام 216م أي بعد ميلاد المسيح.

أما بالنسبة للإله في عقيدة ماني، فقد وحد هذا الداعي آلهته بوصفه رسول النور مع آلهة المستمعين له، فهو اليسوع في أتباع اليسوعية وهو الإنسان الأول أهورامزدا عندما يخاطب أتباع الزرادشتية. وقد كان ماني يكره آلهة العهد القديم والله في نظره أب العظمة ولكن هناك من يعارضه وهو إله الظلام. والإثنان عنصران أوليان. والعالم مخلوق من أجساد حكام الظلام. والموت هو عدو والملفت للنظر أن ماني حرّم الأوثان، لكنه كان يؤمن بالقيمة التربوية للفن. وقد طور الكهنة المانوية كما طوروا الزرادشتية. فقد فرض على أتباع المانوية العشر في أموالهم، والصلوات الأربع في اليوم والليلة، والدعاء إلى الحق. وترك الكذب والقتل والسرقة والزنا، والبخل والسحر وعبادة الأوثان .

ويعتقد أتباع المانوية أن أول من بعث الله تعالى بالعلم والحكمة آدم أبا البشر ثم بعث شيثا ثم نوحا بعده، ثم إبراهيم عليه السلام ثم بعث (بالبدارة) إلى أرض الهند. وزرادشت إلى أرض فارس. والمسيح كلمة الله وروحه إلى أرض الروم والمغرب وبولس بعد المسيح إليهم .

وما يزال اتباع المانوية موجودين في بعض أجزاء الهند وتايلاند. وقد احتفل بعيد مولد ماني في تايلاند في السادس عشر من الشهر التاسع أيلول، من العام 1997. وقد نقلت محطات التلفزة أخبار هذا العيد .

وأغرب العقائد في بلاد فارس العقيدة المزدكية. فهي لا تختلف من حيث إيمان أتباعها بإلهين، إله النور وإله الظلام (ولكن مزدك نهى عن المباغضة والقتال، ولما كان ذلك يقع بسب النساء والأموال، فقد أحل ماني النساء وأباح

الأموال وجعل الناس شركاء فيها ومذهبه في الأصول والأركان ثلاثة. الماء. والأرض. والنار. ولما اختلطت، حدث عنها مدبر الخير ومدبر الشر. فما كان من صفوها، فهو مدبر الخير، وما كان من كدرها فهو مدبر الشر[1].

وترى المزدكية. أن الله قاعد على كرسيه في العالم الأعلى على هيئة قعود (خسرو) في العالم السفلي. وبين يديه أربع قوى. قوة التمييز، والفهم، والحفظ، والسرور. ومن بين العقائد الفارسية العقيدة الديصانية. وهي في جوهرها لا تختلف عن الزرداشتية والمانوية. وقد تفلسف أتباعها في المقارنة بين النور والظلام. وأدخلوا في معتقداتهم أساطير عن الخلق والصراع بين إلهي الخير والشر.

مفاهيم الألوهية في العقائد الهندية والصينية واليابانية

تعتبر الهند فسيفساء العقائد والديانات. فهي لكبر مساحتها، وتنوع الأجناس والعروق فيها. وبسبب موقعها الجغرافي تأثرت وأثرت، خاصة في العقائد والمعتقدات ويجمع الباحثون وعلماء الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) أن الهند من أقدم الحضارات في العالم، وشعوبها من أقدم شعوب العالم. وقد حصر العلماء أكثر من ستين عقيدة وديانة في شبه القارة الهندية. غير أن بعض الديانات سيطرت بشكل واسع، وانتشرت حتى خارج الهند نفسها، لما حوته من تعاليم معقدة وواسعة، ولما لها من تميز على غيرها. ومن أشهر ديانات الهند الديانة الهندوكية البراهمية، والديانة البوذية، والإسلام، والجانتية، والسيخية. وباعتبار أن المسلمين ينتمون إلى عقيدة عالمية لها ارتباط بالقرآن الكريم فلن نتحدث عنها. وسنحاول إلقاء الضوء على مفهوم الإله في البراهمية والبوذية والجانتية والسيخ على اعتبار أن هذه هي العقائد القديمة والمستمرة في

---

(1) الشهرستاني. الملل والنحل. ج 1 ص249. دار المعرفة بيروت ط2 1975.

الهند. ففي البراهمية تتجلى صفات الخالق من خلال نصوص (اليوبانشاد) وبعض الكتب القديمة وفي أحد هذه النصوص يقول براهما: (أنا أقوى من السماء واعظم من الأرض، وأرفع من كل هذه الأجرام، والكواكب حولي. أنا أعلى من جميع هذه الأشياء. أنا الكل في الكل، أفعل ما أريد وأخلق كل ما يخطر لي، أنا جوهر هذا العالم الواحد الشامل، لست بالذكر ولا بالأنثى. إنما أنا روح غير مشخَّص في صفاته. أحتوي كل شيء وأكمن في كل شيء. لا تدركني الحواس لأني أنا حقيقة الحقيقة أنا براهما.)[1].

وتقول كتب العقيدة البراهمية: إن براهما خلق جسما عملاقا، وشقّه نصفين. نصف لرجل ونصف لامرأة. وعلى اعتبار أن العقيدة البراهمية اعتمدت تقسيم الناس إلى طبقات، فرأت أن أي إنسان خيِّر، سينتقل بعد موته، إلى الطبقة الأعلى من طبقته، وإذا كان شريرا، فسينتقل إلى طبقة دون طبقته بعد موته وهذا هو مبدأ التناسخ في العقيدة البراهمية. وترى هذه العقيدة، أن الروح الخيرة تصل أخيرا إلى روح براهما، لتتحد معها. وهذا ما يسمى بالهندوسية بالنيرفانا.

غير أن تطور العقيدة الهندوسية، يدل على ابتداع هذه الديانة صورا أخرى للإله براهما. وقد أضفى اتباعه عليه صورا ثلاثية الأوجه في إله واحد. وهذا الإله ثلاثة في واحد، يسيطرون على الكون. وهم براهما الخالق، وفشنو الحافظ، وسيفا المدمر. وبراهما سيد الجميع، وهو القوة الخالقة للطبيعة. أما فشنو فهو إله الحب، ويساعد البشر في شفائهم من الأمراض. أما شيفا فعبادته من أقدم وأبشع العناصر التي تتألف منها العقيدة الهندوكية. وهو إله القسوة.

---

(1) اسماعيل مظهر: قصة الديانات ص 68 .

ويرى الكثير من الباحثين في عقائد الشعوب، أن الهندوسية جاءت قبل بروز المسيحية بحوالي ألف سنة. وقد بلغت أعداد المعبودات في هذه العقيدة حدا قد يصعب حصره. فالإله فشنو أو سيفا أو الإلهة شاكتي، لها تجسيداتها وخدامها من آلهة صغار أو آلهة أبناء للإله الأكبر وزوجته. ومن هذه الآلهة درجا وسكاندا وجانيشا. ويرى هؤلاء الباحثون أن الريج ـ فيدا ـ Rig-vida ـ هي عبارة عن مجموعة تراتيل دينية براهمية، وهي أقدم وثيقة دينية مكتوبة في العالم. وهذا ما ينفي كون التوراة أقدم كتاب ديني دوِّن في التاريخ. لأن الفيدا ذات تعاليم قديمة جداً، وهي أسبق من أتباعها بزمن طويل.

وقد وجدت لهذه العقيدة آلهة فرعية كثيرة، أو تحولت شخصية بعض الآلهة إلى آلهة أخرى. فإله السماء ينقلب إلى الإله إندرا، وهو إله الحرب وملك الآلهة، وهو يركب السماء على رأس جيشه من (الماروث) وهم آلهة العاصفة الأقل شأناً، وهو هنا يرتبط بالبرق بصفة خاصة. سلاحه الذي مزق بطن التنين ـ فريترا ـ عندما أعتق هطول المطر الذي يبعث الحياة.)[1].

إن هذه الصفات تذكرنا بالإله الكنعاني ـ بعل ـ إله البرق والعواصف. وتذكرنا أيضا بالإله التوراتي الذي قتل التنين ـ لوياثان ـ وبالإله مردوك، الذي قتل تعامت من اجل إنشاء الحياة، وبعث المطر وإخصاب الأرض.

ولدى البراهمة آلهة للشمس، وهي كثيرة منها ـ سريبا وهي تقود عربة نارية بعجلة واحدة تجرها سبعة جياد. وهذا يذكرنا بعربة آلهة الشمس عند المصريين. ولديهم أيضا الإله آجني وهو إله النار. وهو الذي يحمل القرابين المحترقة إلى الآلهة. ومن الآلهة أيضا الإله ـ فارونا ـ والإله مترا والإله ياما والإله رودرا.

---

(1) نقلا عن احمد شبلي. مقارنة الأديان. أديان الهند الكبرى ص 37.

ونلاحظ أن الهندوسية تعج بالآلهة، وينسبونها جميعا إلى الإله الأكبر براهما. وقد جسد الهندوس جميع هذه الآلهة بأصنام تمثلها.

والواقع أن العقيدة الهندوسية تتنوع وتتفرع. ويرى الباحثون أنها خليط من العقائد. تبدأ من عبادة الحشرات وبعض الحيوانات كالبقرة والثعبان وتنتهي عند براهما.

وتدخل الأسطورة في العقيدة البراهمية بشكل أساسي. فتتوزع الآلهة حسب المناطق، وحسب الأعمال، التي تناط بهذه الآلهة. فلكل منطقة إله ولكل عمل أو ظاهرة إله[1]. وتأتي العقيدة البوذية لتصحح كثيرا من تعاليم الهندوسية. وقد ظهرت البوذية في القرن السادس قبل الميلاد. ويرى الباحثون أن بوذا لم يطرح في فلسفته نظرية محددة عن الله. حتى بدا أحيانا أن بوذا اتجه لنكران الله مما أدى إلى نكران براهمة عصره له واتهامه بالإلحاد والكفر.

والأيمان بإله إتجاهٌ نفسي قوي لا يقل عن قوة الغرائز في البشر. وإهمال هذا الاتجاه يحدث ارتباكا واضطرابا. من أجل هذا نجد أتباع بوذا من بعده يفكرون في الإله، ويعملون للوصول إليه أو التعرف عليه. ولما كان بوذا قد ترك هذا المجال خاليا، فقد لعبت بهم الأهواء، فاتجه بعضهم إلى الاعتقاد، أن بوذا ليس إنسانا محضا بل إن روح الله قد حلت فيه. وهذه العقيدة تشبه عقيدة الحلول التي يعتنقها بعض المسيحيين ويعتقدونها في السيد المسيح عليه السلام[2].

والواضح أن تطور العقيدة البوذية، لم يعفها من الاندماج بالهندوسية، لاسيما في الهند. فبوذا تصنع له التماثيل الضخمة بالمئات. وهذا يعني أن البوذية انقلبت من تعاليم فلسفية وأخلاقية إلى عقيدة وثنية.

---

(1) نقلا عن احمد شلبي. مقارنة الأديان. أديان الهند الكبرى. ص 38.

(2) احمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص 172.

وانقسمت البوذية إلى فرق، تختلف في نظرتها للذات الإلهية. ومن هذه الفرق فرقة تقول: بوحدانية الله. وأخرى تقول أن الله أودع الأرواح التي أرسلها بالخير والشر. وفرقة ثالثة ترى أن الله يفرغ الكلمات الإنسانية في كل زمان على إنسان يتجرد لعبادته، ويبتعد عن إرضاء الشهوات الحيوانية. وتقول فرقة رابعة بأن الله يحل في أية صورة يختارها من صور أفراد الإنسان، حلول تطهير وتكميل، لاحلول استقرار. وكل الفرق تتفق على التناسخ وارتباطه بما يسمى - الكارما - .

أما فيما يتعلق بالإله نجد الفكر الهندي يتراوح بين التعدد والإنكار والإهمال، والعجيب أن موقف الجينيين والبوذيين من الاعتراف بالإله كان رد فعل لتصرف طبقة البراهما، واستبدادهم. فخاف البوذيون والجينيون أن تتكون عندهم طبقة لاهوتية كالبراهمة إن قالوا بالإله، فأنكروه أو أهملوا الكلام عنه لهذا الغرض[1].

وقد انتشرت عقيدة جديدة في الهند، هي عقيدة السيخ التي تعتبر خليطا من العقائد الهندية الكبرى بما فيها الإسلام. ولديهم أهم مصطلح هو (تذكر اسم الله) (نام ساميران) ويعنون به النحو نحو الله والنحو في الله .

وهي عملية متدرجة شبهها معلمهم (ناناك) بسلسلة من المراحل الصاعدة، وخامس هذه المراحل وآخرها هي المسماة: عالم الحقيقة. وهي الإتمام النهائي، أو الإنجاز الأخير حيث تجد الروح اتحادها الصوفي بالله. وفي هذا الوضع الذي تشعر فيه بسعادة لا يمكن وصفها تتنسخ أغلال التناسخ. وتبلغ الروح مرحلة الانعتاق المطلق باندماجها في الله)[2].

---

(1) أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص 201.

(2) جفري بارندر المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص 250 سبق ذكره.

وتعتبر الصين من أقدم الحضارات التي وجد فيها الإنسان. وقد تشعبت عقائدها بقدر مساحتها وعمق حضارتها. وتطورت هذه العقائد عبر التاريخ.

عبد الصينيون القدماء مظاهر الطبيعة خوفا منها. فعبدوا الريح والرعد والأشجار والجبال، وآمنوا بأن لكل من هذه المقدسات روحا يجب أن تعبد.

ومع تطور عقائدهم آمنوا بوجود حاكم أعلى واحد، فوق كل الأديان، وفوق كل الناس يدعى ـ شانج تي ـ وهو القوة العليا المسيطرة على العالم. وقالوا إنه عادل لدرجة أنه مهما صلى له الأشقياء فلن يقبل العفو عنهم. غير أنهم اعتقدوا أن هناك إلها هو سيد كل الآلهة إله اسمه ـ تيان ـ أي إله السماء، وهو بنظرهم رب الأرباب الذي يأتي بالمطر والريح والرعد، وهو موجود في السماء.

ومنذ عام 2500 يظهر الحكيم كونفوشيوس أي قبل الميلاد ب 550 عاما تقريبا. ركز جل اهتمامه على الحكمة والمعاملات الخلقية بين الناس. وقد اعتبر بعض الباحثين مذهبه ليس عقيدة، أو دينا، باعتبار أنه لم يتحدث عن الإله. إنما قصر كلامه على الحياة وفلسفتها. واعتبرها بعضهم مذهبا إنسانيا. بمعنى أنه أول إنساني ظهر في العالم. وأساس تعاليمه ألاّ يعتمد الإنسان على أي كائن علوي أو أية قوة غير منظورة. يطلب منها العون، والتوفيق في حياته.

إلا أن عقائد بعض الصينيين لم تكن عقائد حكيمة، ولم يظهر فيها أي اثر للمعبود الإله. بل راحوا يؤمنون بالشياطين والمردة والجن، ومصاصي الدماء والغيلان، وكل أرواح الشر، حتى أنهم لحقوا أتباع الكونفوشوسية، فقال بعض حكمائهم: لا حاجة بالناس أن يشغلوا أنفسهم بالله في سمائه أو بالحياة الأخرى. وتسمى هذه العقيدة بالداوية. أتباع الحكيم ـ لاوتسي ـ الذي أصبح لدى الداوية مع مرور الزمن إلها يعبدونه. وأحاطوه بالأساطير. فقالوا إن أمه ولدته ولادة سماوية. ويقولون حسب أسطورتهم، إنه مكث ثمانين عاما في بطن أمه.

والمطّلع على عقائد الصينيين، يجد أن الطبيعة هي الأساس الأول في عقائدهم. ثم يأتي في المقام الثاني الحكمة والفلسفة والعلم. وبشكل عام لا نجد للإله صدى في عقائدهم، كما في الهند. ومن الملاحظ أن البوذية كعقيدة، دخلت الصين واتبعها الكثيرون من أبناء الصين الذين كانوا يتبعون الداوية والكونفوشيوسية.

وإذا رحنا نتفحّصُ طبيعة المعبود في العقائد اليابانية وجدنا اليابانيين آمنوا أولا بأن السماء هي أساس الوجود. وأهم عقائدهم عقيدة الشنتو المستندة على عقائد الأديان بكل أشكالها الخيرة والشريرة.

وعبادة الأسلاف أساس في هذه العقيدة. ويعتبرون أن هؤلاء آلهة أسسوا الدولة، وأقاموا بناءها. ولذلك نراهم يعبدون الإمبراطور ـ الميكادو ـ إذ أنهم يرونه ليس بشرا، بل له سمات الإله. وهو أقرب للشمس والقمر وجبل فوجي المقدس. وهو كائن لابدّ أن يعبد.

وترى العقيدة اليابانية أنه في البداية كانت الآلهة، وكانت تلد ذكرا وأنثى ثم تموت حتى حدث في النهاية، أن أصدر شيوخ الآلهة أمرهم إلى إلهين شابين هما (إيزاناجي) و(إيزانامي). بأن يخلقا الأرض ويقيما عليها الحياة. وتقول الأسطورة الشنتية إن إيزانامي أنجبت بنتا. أما تيراسو وهي ربة الشمس قد أمرها أبوها أن تسير إلى السماء، ثم تعطي نورها للأرض والبشر. ثم أنجبا إلها جديداً إسمه (تسوكي يومي) وهو إله القمر، الذي أرسله أبواه على قوس قزح، ليستقر هو أيضا في السماء ثم أنجبا إلها للعواصف وإلها للنار، وجرى صراع بين الآلهة والأبناء، وانتهى الصراع بانتصار آلهة الشمس.

ويعتقد اليابانيون أن الإمبراطور هو حفيد آلهة الشمس (أماتيراسو) ولذلك يجب حبه وطاعته، والانتحار لأجله إذا ما حاول أحد المساس به.

وإذا تأملنا عقيدة الشنتو، وطبيعة الآلهة فيها، وجدنا اقترابها من عقيدة السومريين والبابليين خاصة بتعدد الآلهة والصراع الذي دار بينهم وانتصار أحدها على الجميع، ولهذا فإن اليابان تختلف في فهمها لطبيعة الآلهة عن الصين، التي ركزت عقائدها مع عبادة الطبيعة وحب الحكمة والعلم.

وقد دخلت عقيدة البوذية إلى اليابان، كما دخلت الكونفوشوسية. وأصبحت عقائد اليابان، خليطا من هذه العقائد، على الرغم من أن احترام العقيدة الأساسية ظل قويا عندهم.

بين عقائد الشعوب والرسالات

يطلق المسلمون وباحثو عقائد المنطقة العربية، إسم الرسالات السماوية على العقيدة اليهودية، والعقيدة المسيحية، والعقيدة الإسلامية، على اعتبار أن أنبياء هذه الرسالات، بلغوا الدعوة من قبل رب العالمين عن طريق الوحي.

وقد أصبحت التسمية علما على مسمى،للتمييز بينها وبين عقائد الشعوب الوثنية والشعوب الأخرى البعيدة عن الحوض العربي .

وقد امتازت العقائد السماوية بالدعوة إلى التوحيد، وعدم الإشراك بالله، وامتازت أيضا بأنها استندت على رسالة سماوية، أي كتاب مقدس هي التوراة الأصلية التي نزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل كما نزل على عيسى عليه السلام، والقرآن الكريم الذي نزل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والواقع أن هناك إشارات واضحة لبعض الكتب الأخرى والصحف التي نزلت على أنبياء التوحيد في المنطقة. فقد أنزل الزبور على داود عليه السلام، وأشار القرآن الكريم إلى صحف أنزلت على النبي إبراهيم عليه السلام .

غير أن كافة المصادر الإسلامية وغيرها، لم تُشر إلى أن الزبور كتاب تشريع كما التوراة أو القرآن الكريم .

والواقع أن التوراة التي بين أيدينا اليوم تضم ما يسمى بالمزامير. وتنسب في غالبيتها لداود عليه السلام. وهي كما هي عبارة عن أدعية، وتعبير عن أحداث ومواقف جرت مع النبي داود عليه السلام، ويجمع الكثيرون على أن هذه المزامير هي ما يسمى بالزبور. وليس هناك أي مصدر آخر لهذا الزبور أو لهذه المزامير سوى التوراة التي بين أيدينا.

وتاريخياً فقد سبق النبي موسى عليه السلام، نزول الإنجيل والقرآن الكريم.

والواقع أن جوهر العقائد الثلاث هي التوحيد، والإيمان بالله المجرد المنزه، والمطلق أما ما جرى من تحريف للتوراة، فهو لاحق على نزوله المبدئي الأولي الذي تلقاه موسى عليه السلام. وهذا التحريف، هو الذي لحق نزوع بني إسرائيل لعبادة الآلهة الوثنية التي كانت لدى شعوب المنطقة آنذاك .

وإذا ما قارنا بين عقائد الأمم والشعوب، وبين الرسالات السماوية، وجدنا أنه لا بد من القول: إن الإنسان بفطرته ينزع إلى المعبود. الأعلى والأكمل. ولكن مسار العقل البشري يدلنا على تنوع في التصور لهذا المعبود. وطبيعة العلاقة به، ومن ثم لا ننكر أن هذا النزوع إلى الأكمل، خالطه حب معين لتجسيد المعبود، واستحضاره أمام العين بأشكال وثنية، أو رسوم أو رموز موحية للإله .

على أن ذلك التطور أو الانحراف، لا يلغي أن السماء هي الأساس في العقيدة. ولو حاولنا تبسيط الموضوع أكثر، نرى أن الإنسان العاقل الأول ـ آدم ـ أختاره الله ليكون أول نبي موعود على الأرض. وبغض النظر عن وجود نظريات عدة ترفض كون آدم أول مخلوق بشري ـ إنسان ـ إلا أن آدم جسَّد الإنسان

العاقل المفكر. ولهذا كانت الحكمة الإلهية في اختياره ليكـون نبيـا، وأول نـبي يدعـو إلى عقيـدة التوحيـد. لقـد كـانت صلـة آدم العـاقل بالسـماء أولا، وليـس بالأرض. وتلقى التعاليم التوحيدية مـن خالقـه، إمـا عـن طريـق الوحـي أو أي طريق إلهي آخر.

يقول تعالى: ﴿فتلقـى آدم مـن ربـه كلمـات فتـاب عليـه إنـه هـو التـواب الرحيم﴾ «البقرة 37»

وهذا ما كان من شأن أول إنسان عاقل أو من شـأن أول نـبي علـى وجـه الأرض. إذا فالبداية كانت السماء. والبداية كانت بالتوحيد.

ولعلنا ونحن نتعرف على عقائد الشعوب ودياناتهم، نجد أن الأساس في كافة العقائد، هو الشعور بالحاجة إلى قوى عظمى. وهكذا يجب أن تكون هـذه القوى حتى تصبح معبودات، والطبيعة البشرية نزاعة دوما إلى إقامة علاقة ما، بينها وبين قوى خارقة ليست فيها صفات البشـرية. إنمـا فيـها صفـات خـرق الناموس البشري الأرضي المتعارف عليه. ولكن الواقع يقـول لنـا: إن التجسـيد لهذا المعبود نشأ أيضا من حاجة هذا الإنسان ليرى معبوده، لتكن الصلـة صلـة مشاهدة محسوسة وليست صلة وعي داخلي فحسب، وهذا ما نجـده في عقـائد البوذيـين والـبراهميين وحتـى الوثنيـين العـرب وغـيرهم مـن أصحـاب العقـائد الأخرى. يقول الدكتور محمد جمال جعفر: (فالعقيدة في إله أو قوة فاعلة مؤثرة تتعالى وتسمو على الكون والطبيعة، جزء حيوي يشكل الأساس لكل ديـن علـى وجه الأرض، سواء أكان في حالة بدائية أو في حالة متطورة)[1].

ويقول أيضا: فلا يعقل مثلا أن ينحـت إنسـان حجـرا، أو يصنـع شـيئا بيده، ثم يعتقد في نفس الوقت أن هذا الحجر، وهـذا المصنـوع يعلـوه ويحكمـه

---

(1) محمد كمال جعفر. الإنسان والأديان ص33.

ويخضعه ويدبر أمره ويسير حياته، ويفرض عليه عبادته، لأن صفات الحجر من البداهة والعفوية ما ينفي ذلك[1] على أي حال فإن الديانات السماوية ـ أي الديانات التي مصدرها الأساسي السماء ـ نادت بالتوحيد والتجريد. على عكس العقائد الأخرى التي جعلت للإله عدة وجوه، إضافة إلى أنها جسمت المعبود، ورمزت له بصور على الغالب هي صور آدمية، وأحيانا بصور حيوانية مثل بوذا وبراهما وبعل ومردوخ. ومثال الصقر والأفعى والتمساح وما إلى ذلك.

وعلى الرغم من أن اليهودية في أساسها سماوية، وعلى الرغم من أن موسى عليه السلام تلقى تعاليم العقيدة من الله سبحانه، وأوضح لليهود طبيعة الله الفرد المنزه وغير المجسم، إلا أن أتباع هذه العقيدة لم يصلوا بوعيهم إلى القناعة بهذه الوحدانية وهذا التنزيه .

(ولكنهم أظهروا بلا شك عدم قناعتهم بعبادة من لا يرون ولا يلمسون. ولذا تراهم يسألون موسى كما يقول القرآن الكريم. وكما تتحدث التوراة أن يريهم الله جهرة فلما ردعهم موسى عن ذلك، رجوه أن يجعل لهم إلهاً يماثل آلهة القبائل التي كانوا يمرون بها. وهي بالطبع تماثيل تحاكي الإنسان حينا وتحاكي الحيوان أحياناً)[2].

ونعود لما قلناه لنرى أن بعض التقاطعات، قد تحدُثُ بين رسالة سماوية وبين ديانات غير سماوية. فنرى مثلاً أن أحد أوجه المعبود في العقائد غير السماوية قوة الخلق. أي أن هذا المعبود هو خالق بدأ الكون منه. فهو الذي خلق الكون والإنسان والحيوان وما إلى ذلك. وقد نرى أيضا تقاطعا في بعض التعاليم، كالدعوة للخير والمحبة والتفكير، وبناء الإنسان من داخله بناء مستقيما.

---

(1) محمد كمال جعفر. الإنسان والأديان. ص 26.

(2) محمد كمال جعفر. الإنسان والأديان ص 28 سبق ذكره.

ولكن الاختلاف الجوهري في مسألة التعدد والتجسيم. فالرسالات السماوية، لا تعدد ولا تجسم في جوهرها. فالله عند اليهود يرتبط بالجوهر كما يقول هيغل، والله مجرد (وهذا التجريد أو انعدام التمايز، يعني أن هذه الشخصية عبارة عن واحد لا ينقسم. ومن ثم فالله واحد. لكنه ليس الواحد اللاشخصي الهندي. وهو وحده الحقيقة المستقلة، إن على الإنسان أن يمجد الله وأن يعرف قدر نفسه وعدميتها. وما دام الوعي المتناهي لا يستطيع أن يصمد أمام الله فليس له الحق في الوجود وإنما وجوده بفضل من الله ومنه.. ولهذه الأسباب كلها نجد أن موقف الإنسان تجاه الله بالضرورة موقف الخوف والخشية)[1]. ولا بد من الإشارة أيضا إلى أن تطور مفهوم المعبود عند بعض الفئات الدينية، لم ينبع من الخوف والخشية .. إنما ينبع من المحبة والاحترام للذات الإلهية.

وقد تندمج المحبة بالخشية، ويندمج الجلال والاحترام، لتشكل جميعها نظرة تكاملية لدى الإنسان تجاه المعبود. فالمعبود يستحق المحبة لأنه رحيم بعباده. ويستحق الخشية لأنه العظمة المطلقة. ويستحق الاحترام، لأنه الخالق الواهب العادل. ويستحق الجلال لأنه غير المحدود، وغير المتناهي والخالق كل شيء من غير شيء.

وطبيعي أن هذه الصفات، تنحصر حتما بالإله الذي تعارفت عليه العقائد السماوية في جوهرها. أما كيف فهم اتباع اليهودية طبيعة هذا الإله فذلك ليس مرده جوهر العقيدة. إنما هو عائد إلى طبيعة الوعي والفهم لدى اتباع هذه العقيدة.

---

(1) ولتر ستيس. فلسفة هيغل. فلسفة الروح. ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام ص 192 ـ 193 .7

الفصل الثاني

العقيدة اليهودية ورحلة التصور اليهودي للإله

العقيدة اليهودية وعنصرية الدين

كيف يمكن أن يوصف الدين بأنه دين عالمي أو أنه دين عنصري إقليمي؟

لقد رأينا في كثير من عقائد الشعوب ـ خاصة ـ العقائد البوذية والبراهمية أنها انتقلت من بلد إلى آخر، وشكل معتنقوها أكثرية أحياناً في بعض البلدان .

فانتقال عقيدة من موطنها الأصلي إلى أقطار أخرى، يعني أن أفكارها شكلت قبولاً لدى أكثر من مجموعة بشرية، بما فيها من تعاليم فكرية، ومعاملات إنسانية يرتضيها البشر عن قناعة، وبسب وجود طموحاتهم النفسية والفكرية فيها. وبمعنى آخر بسبب كون هذه العقيدة حققت لهم نوازعهم على شتى مناحيها .

لقد وجدنا البوذية تنتقل من الهند إلى كثير من بلدان جنوب شرق آسيا وشرقها مثل فيتنام وكوريا وتايلاند وسيريلانكا وبورما وحتى اليابان والصين .

و الواقع أن هذه المناطق انسجمت مع ما طرحه بوذا والبوذية من أفكار أخلاقية، وسلوكيات اجتماعية متميزة، لم يكن التركيز فيها على أهمية الخالق، وعلاقته بالإنسان بقدر ما ركزت على الجانب الأخلاقي والمسلكي الاجتماعي

و ليس غريباً هذا الانتشار لعقيدة مثل البوذية. فالظروف الفكرية، والحياة الاجتماعية، ساهمت بشكل واضح في انتشارها. فكانت ردة فعل على ما آلت إليه العقائد السابقة بين تلك الشعوب، وما آل إليه التعسف البشري ضد الإنسان. وخاصة الطبقات الفقيرة المضطهدة.

لقد تجاوزت البوذية حدود منشئها، وبلدها الأصلي ولكنها لم تنتشر بشكل عالمي. فهي تتجمع في منطقة إقليمية واضحة. لم تستطع مثلاً الوصول إلى أفريقيا، فلا نجد مثلا بوذياً واحداً اعتنق البوذية في الوطن العربي وآسيا الغربية وأفريقيا. على الرغم من أن كل الدراسات تشير إلى أن بداية البوذية كانت قبل المسيح ب 600 عام وقد صنف العلماء البوذية على أنها عقيدة وضعية ليس للسماء علاقة بها. وهم حين يدرسون تعاليم بوذا يجدون فيها نوعاً من الأخلاقية والفكر، لا تنحصر لشعب دون شعب. وكانت تعاليمها مطروحة للإنسان أي إنسان. دون تمييز بين الناس، بل يرون فيها تمرداً على تعاليم الهندوسية الداعية إلى وجود نظام للطبقات، والتمييز بين البشر وعلى الرغم من ذلك كله، فإن عشرات الملايين يعتنقون البوذية دون أي استناد على إقليمية العقيدة أو انحصارها أو ادعاء أحد بأنه وحده صاحب الحق باعتناقها .

و نستطيع القول: إن البوذية ليست عقيدة عالمية. ولكنها أيضاً ليست عقيدة ضيقة محدودة أو عنصرية. فهي تجاوزت منشأها واعتنقها مئات الملايين من البشر .و لا شك أن حديثنا عن عالمية الدين أو إقليميته ينطبق إلى حد ما على العقائد السماوية وغيرها من العقائد. ولكن هذه العقائد ارتبطت بالسماء كما قلنا. ومن الطبيعي إذا ما دققنا النظر في المسيحية والإسلام، وجدنا أنهما انتشرتا في كافة أنحاء العالم وقلما تجد بلداً يخلو منهما حتى أقصى جنوب شرق آسيا أو حتى أمريكا شمالها وجنوبها .

ولا شك أن الدعوة للعقيدة كان لها الدور في الانتشار. وبغض النظر عن أساليب الدعوة والتبشير والتنصير وطرقها المختلفة والمتعارضة أحيانا مع حقيقتها. رغم ذلك كله فإن المسيحية والإسلام عقيدتان عالميتان يعتنقهما مئات الملايين من البشر المنتشرين في كافة أنحاء الأرض.

وفي هذا الإطار لا بد أن نذكر أن المسيحية والإسلام ترحبان بكل إنسان يعتنقهما مهما كان جنسه ولونه، ولم تحصرا الدين في قومية واحدة أو شعب واحد، إنما انفتحتا على كل الناس دون أي اعتبار للعرق أو اللون أو الجنس .

وعلى الرغم من أن اليهودية بدأت كدعوة منذ أن أنزلت التوراة الحقيقية على موسى عليه السلام، إلا أن أتباع هذه العقيدة يقلون ويقلون أمام البوذية مثلا. على الرغم من أن اليهودية رسالة سماوية في منشئها وأصلها، والبوذية عقيدة وضعية ليس لها علاقة بالسماء.

والواقع أن التعاليم التي دونها أتباع اليهودية، تظهر جانبا من جوانب عدم الانتشار، فحسب التوراة المدوَّنة، يعتقد اليهود أنهم شعب الله المختار، انتقل من صفوة البشر إلى الصفوة الصفوة. فلذلك لا يرضى المؤمنون بهذا الاختيار أن يدخل اليهودية أي من الناس. وبلغ اعتقادهم بسمو عنصرهم أنهم يترفعون عن الأجناس البشرية الأخرى. ولا يندمجون فيها. بل إنهم ينكرون المساواة مع الذين يشتركون معهم في النسب إلى النبي إبراهيم عليه السلام.

(ومن أجل ذلك لم يسعوا إلى التبشير بدينهم، وأنِفوا من اشتراك غيرهم في شرف الانتساب إلى إبراهيم وحصروا هذا الشرف في نسل يعقوب وحده،

واعتبروا باقي البشر همجا أو شبه أنعام (غوييم) خلقهم الله لخدمتهم وليكونوا تحت إمرتهم)[1]

وعلى الرغم من عدم قبول اليهود غيرهم في عقيدتهم فإن ظروفا معينة ساهمت في اعتناق عدد من أفراد الشعوب عقيدة اليهودية، فوجدناها انتشرت في أجزاء من اليمن نكاية بالدولة الرومانية المسيحية والإمبراطورية الحبشية. وذلك في عهد ذي نواس، وكذلك فقد هودت عناصر آرية بسبب ظروف خاصة كتهوّد الصقالبة والجرمانيين وسكان سواحل بحر البلطيق إضافة للخزريين، الذين شكلوا النواة الحقيقية ليهود شرق أوروبا. وقد اعتبرت الصهيونية كل من يؤمن بأفكارها، هو من الشعب المختار ولكن وللحقيقة نرى الآن انكفاء اليهودية على نفسها لما فيها من تعاليم تنافي الحس الإنساني العالمي. وانكفأ اتباعها. وظل أعداد معتنقيها لا يتجاوز العشرين مليونا في العالم. وعلى مر التاريخ لم يكن اليهود منفتحين على الآخرين، ولاسيما منذ تشتتهم زمن الرومان أي قبل حوالي ألفي عام. وقد عرف العالم بكل مجتمعاته حارات اليهود المغلقة ـ الغيتو ـ . هذه الحارات التي انتشرت في أوروبا الشرقية بشكل خاص، وفي بعض المناطق العربية بشكل عام. وما كانت تقام هذه الحارات المغلقة، لولا نظرة اليهود إلى الآخرين. النظرة المبنية على الاختلاف في الطبيعة والماهية والاعتقاد.

قلنا: لقد بدأت اليهودية منذ نزول التوراة الحقيقية على النبي موسى عليه السلام، وحين ندقق في طبيعة النص التوراتي نرى أن كتبة التوراة يصرون على أن موسى وهارون وبقية الأنبياء الذين ورد ذكرهم في التوراة هم خاصّون لبني إسرائيل. ولم تشر التوراة إلى أي من الأنبياء الذين دعوا إلى ديانة التوحيد، من غير أبناء إسرائيل. وتظهر تعاليم أنبياء التوراة تعاليم خاصة جدا لمجموعة من البشر ولا يمكن أن يتجاوزوها.

---

(1) محمد علي علوبة. فلسطين والضمير الإنساني. كتاب الهلال ص 57.

فحسب النص التوراتي يظهر نضال النبي موسى عليه السلام لأجل غاية واحدة. وهي رفع الظلم عن بني إسرائيل، والسماح لهم بالخروج من مصر. وليس هناك إشارة لدعوة، أو طلب نبوي من موسى باتباع عقيدة التوحيد ونشرها، أو قبول أي فرد من شعوب المنطقة في هذه العقيدة أو إطارها.

فنحن نعرف أن الدعوة لأي عقيدة تتخذ طريقين كبيرين، إما طريق الترغيب أو طريق الإكراه والترهيب. إما طريق الهداية والدعوة السلمية أو طريق العنف والإجبار. غير أن أتباع اليهودية وحسب النص التوراتي التاريخي لا نجدهم يدعون للعقيدة اليهودية، لا عن طريق الهداية والدعوة السلمية، ولا حتى عن طريق العنف والإرهاب. فهم لا يريدون نشر هذه العقيدة لأنها عقيدة بني إسرائيل وحدهم. هم يريدون حصرها في هذه المجموعة البشرية التي خرجت من سيناء خشنة الطباع. ويريدون إبادة كل من يجدونه في الأرض أمامهم، دون أن يأخذوا بنشر دعوتهم. ومن هنا نجد انحصار العقيدة اليهودية انحصارا شديدا على أتباع التوراة كما يتصورها الكتبة فيما بعد.

وهذا الانحصار يدلل بشكل قاطع على طبيعة النفسية التي كان عليها اليهود أيام تدوين التوراة. أي أثناء وجود اتباع اليهودية في السبي البابلي. وقد عكس مدونوها وهم يدونون الأحداث الماضية الخاصة بأجدادهم جنوحهم الشديد نحو عنصرية العقيدة وعنصرية الاتباع.

لقد ارتبطت اليهودية بشعب معين، وهي لهذا تشبه الهندوسية في أنها ديانة مغلقة أي ليست من ديانات الدعوة، وليست إلا تعبيرا طبيعيا لشعب خاص وجزءا من ثقافة اجتماعية لا تقبل الغرباء[1]

(1) احمد شلبي. مقارنة الأديان اليهودية. ص 186.

والذي يقرأ الأسفار كلها لا يجد فيها ما يدل على أن موسى أو بني إسرائيل كانوا مأمورين بدعوة غيرهم إلى ديانتهم. وكل ما في الأسفار منصبٌّ على كون الديانة اليهودية ديانتهم الخاصة وكون الرب ربهم الخاص[1].

ويقول العالم بري: لم يكن للعبرانيين تصور للعالم. ولهذا لم يصلوا إلى تصور إله غير محدود. ولقد كان عالمهم محدودا وكان إلههم محدودا كذلك[2].

وأسفار التوراة جميعها تفصح عن هذه العنصرية التي تتميز بها هذه العقيدة اليهودية. والواقع أن الديانة المتقوقعة المنحصرة لدى اليهود، أدت إلى دمج فكرة القومية بالدين. ومنذ ولدت الصهيونية السياسية في القرن التاسع عشر وهي تعمل جاهدة على تكوين شخصية اليهودي القومية. هذه الشخصية المختارة كان لا بد لها من أرض تأخذ بها أبعادها. والأرض المختارة أيضا حددها الرب في وعوده المتكررة لأنبياء إسرائيل ومن هنا كانت اليهودية قومية. كما كانت القومية اليهودية دينية. فلا فرق عند اليهودي بين دينه وقوميته. ولا معنى لأحدهما من دون الآخر، لأن هذين المقوِّمين يكوِّنان شخصيته الدينية والدنيوية. ومخطيء من يقول: إن اليهودية دين والصهيونية أرض لا خلط بينهما. أقول مخطئ من يدعي هذا القول، لأن الدين اليهودي يتضمن جميع المبادئ الصهيونية. والصهيونية متجذِّرة في الدين اليهودي. لا وجود لحدود فاصلة بين شريعة اليهود الدينية وبين مقومات قوميتهم، لأن الشريعة اليهودية تتلخص في تمجيد عنصرهم. وتقديس عرقهم. وتبشيرهم بأنهم شعب الله المختار ووعدهم بأرض يخطط حدودها الرب .

فاليهودية هي الديانة القومية للشعب اليهودي. والصهيونية تنحصر في

---

(1) محمد عزة دروزة. بنو إسرائيل في أسفارهم جزء 1 ص 73.

(2) بري. أساطير العالم. ص 31 نقلا عن احمد شلبي. اليهودية.

تأمين أرض لهذا الشعب، أو قاعدة إقليمية لهذه القومية[1].

اليهودية. النشأة. البيئة

من المتعارف لدى كافة الدارسين، أن تدوين التوراة قد تم بشكل نهائي أيام السبي البابلي. وقليل من الباحثين لم يتعرض لمشكلة تدوين التوراة. وبشكل عام فمسألة تدوين التوراة، أصبحت من المسائل التي لا تحتاج لجدال طويل أو مناقشة دائمة. فطبيعة التوراة نفسها، طبيعة الأسفار التسعة والثلاثين تفصح عن نفسها بشكل واضح.

فأسفار موسى الخمسة. التكوين والخروج والتثنية والعدد واللاويين، اعتبرت أسفاراً أنزلت على النبي موسى عليه السلام أيام تلقي الرسالة السماوية. أما باقي الأسفار فقد ارتبطت بالأحداث التاريخية التي ارتبطت باليهود خلال حوالي سبعمائة سنة أو تزيد. وكما أوردت التوراة، فقد مات النبي موسى عليه السلام وانقطعت صلته بالسماء، وجاء سفر يشوع ليسجل حسب نص التوراة ملحمة العبور إلى أرض فلسطين. ملحمة الإبادة البشرية لشعب المنطقة الكنعانية .

ويبدأ تسلسل الأحداث ليخترق السنين، ويسجل تاريخياً ما جرى لهذه الفئة وعقيدتها من تقلبات وتغيرات وتطورات .

ولكن يبدو أن تناقضاً واضحاً يقع أكثر الباحثين فيه حول بداية اليهودية ونشأتها. فمن الباحثين من يعتبر أن جذور اليهودية بدأت منذ زمن النبي إبراهيم عليه السلام. بينما راح بعضهم يقول: إن بداياتها نشأت منذ النبي موسى عليه السلام. وآخرون يرون أن اليهودية نشأت كعقيدة بعد موسى بمائة

---

(1) جرجي كنعان. الوثيقة الصهيونية في العهد القديم. ص 154.

وخمسين عاماً. واختلفت الآراء حول ذلك، باختلاف الباحثين، واختلاف ثقافاتهم وخلفياتهم الفكرية والدينية واختلاف أهدافهم وغاياتهم .

ولو عدنا إلى نصوص التوراة ونصوص القرآن الكريم لوجدنا أن هذه العقيدة لم تكن موجودة قبل موسى. وباعتبار أن الأسفار الخمسة جاءت خاصة بالنبي موسى ومن اتّبعه. فهي في منشئها عقيدة توحيدية .

وهناك آيات قرآنية كثيرة تشير بوضوح إلى نزول التوراة على موسى وليست على غيره. ومع نزول هذا الكتاب، تبينت العقيدة اليهودية، وظهرت معالمها وآفاقها وتشريعاتها التعبدية والمعاملات فيها. وبذلك تكون اليهودية أول رسالة سماوية كبرى سبقت المسيحية والإسلام وذلك حسب قول الإنجيل والقرآن الكريم .

والتوراة التي تفصّل في الأحداث التاريخية، تعطينا مؤشرات على زمن نزول التوراة على النبي موسى. وتعطينا ملامح واضحة لزمن هذا النبي. وقد اتفق الباحثون بشكل عام على أن النبي موسى وجد حوالي 1300 ق. م تزيد قليلاً أو تنقص وهذا يعني أن المسافة الزمنية بين موسى وعيسى هي 1300 عام. أما الزمن الفاصل بين عيسى ومحمد عليه الصلاة والسلام هو على تقرير المُجمِعين والمتفقين على التواريخ هو 570 عاماً. فإذا أضفنا 570 سنة إلى 1300 سنة فإن الفارق الزمني بين اليهودية والإسلام هو حوالي 1870 عاماً على أقرب تقدير .

ويشير القرآن الكريم إلى عدة سمات تاريخية لعصر موسى والتوراة الأصلية

- موسى يلتقي بالنبي شعيب نبي مدين ويتزوج من ابنته وذلك حسب قول المفسرين .

- موسى يأمر بنشر دعوته عند فرعون. ومن خلال معطيات القرآن الكريم نجد أن فرعون مصر قد بلغ ذروته من القوة والعظمة زمن موسى .
- قوم موسى يمكثون عشرات السنين في سيناء .
- وجود أقوام محيطة بسيناء ومنهم من وُصفوا بالجبارين .
- قصة البقرة التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ودلائلها .
- الطلب من موسى أن يخاطب ربه لتنتج الأرض بعض المزروعات كالثوم والقثاء .
- سيناء وجبل حوريب .

فهذه المعطيات البيئية والتاريخية والجغرافية، تفتح للباحثين أبواباً تاريخية، يستطيع أن يقاطعها بمعطيات علم التاريخ والدراسات التاريخية كي يصل إلى عصر موسى وزمن نزول التوراة عليه.

الواضح من هذه المعطيات أن الفراعنة بلغوا شأناً عالياً في عقائدهم وقوتهم. فلديهم عبيد مسخَّرون. وبنو إسرائيل جزء من هؤلاء المسخَّرين والمستعبدين. وهذا ما دلت عليه آيات القرآن الكريم. وما دلت عليه نصوص التوراة. وما دلت عليه مخطوطات تل العمارنة والآثار المصرية الأخرى.

وإذا نظرنا إلى المحيط السكاني آنذاك وجدنا أن للفراعنة عقائد وثنية متعددة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأقوام التي سكنت سيناء، ومحيط الأردن، وسكان أرض كنعان، ولهذه الأقوام عقائدها. وبنو إسرائيل الذين لم ينفصلوا عن هذا المحيط، حملوا معهم عقائد الشعوب والأقوام المنتسبة لهذا المحيط. ولا شك أن الصراع بين الوحدانية والوثنية، هو صراع قائم منذ آدم عليه السلام. وشعيب الذي يلتقي بموسى عليه السلام، كان موحدا في قومه الذين رفضوه ورفضوا عقيدته التوحيدية. وعلى الجانب الآخر، كان الجبروت الفرعوني يرسّخ الوثنية والتعددية. بينما كان الشعب العربي الكنعاني، يحاول أن ينتقل

نقلة نوعية من التعددية إلى التوحيد. رغم مظاهر الوثنية لدى بعض قبائله. في هذا الجو المحيط، لم يكن لبني إسرائيل وبعض الفئات الأخرى التي آمنت بموسى وبعقيدته، أي علاقة أو اطلاع بعقائد ما بين النهرين آنذاك. ونستطيع أن نحصر في هذه الزاوية الفراعنة وعقائدهم. وبطون الشعوب الكنعانية الساكنة شمال سيناء وفلسطين، وبعض القبائل العربية التي تقطن بعض مناطق شرق الأردن كمدين وموآب وعمون.

وهذا ما يساعدنا في القول: إن نشوء اليهودية على يد موسى برز في هذه البيئة وبين هذه القبائل وهذه العقائد.

وعلى هذا التأسيس، يمكن دراسة نظرية الإنسان للعقيدة والخالق. ومن ثم يمكن دراسة المؤثرات الواقعية في العقيدة اليهودية أثناء تطورها بعد موسى. وقد تطرقنا في بداية هذا الفصل إلى عقائد كل من الكنعانيين والفراعنة والبابليين كما تطرقنا إلى عقائد شعوب أخرى كالهندوسية والبوذية وبعض عقائد الشرق الأقصى وفارس وما لها من علاقة بمفهوم الله.

ويمكن لنا ونحن ندرس نشأة اليهودية أن نسلط الضوء على عقائد الفراعنة والكنعانيين وعقائد بطون الشعوب العربية المنتشرة في شرق الأردن، وذلك أثناء بروز العقيدة اليهودية استنادا على ما قالته نصوص التوراة. وما يمنحنا إياه القرآن الكريم من إشارات حول ذلك.

تورد التوراة أن موسى عليه السلام عاش طفولته في مصر. ثم هرب منها في شبابه باتجاه سيناء. والتقى بالكاهن يثرون في مدين. ثم عاد إلى مصر، لإخراج بني إسرائيل من عذاب فرعون. وعند خروجه إلى سيناء، كانت تسكن المنطقة قبيلة عربية كنعانية. ثم في سيناء أنزلت التوراة على موسى. وعلى حدود فلسطين الجنوبية مات موسى دون أن تطأ قدمه أرض فلسطين .

و المدة التي مكث فيها بنو إسرائيل في سيناء وعلى أطراف أدوم، أبرزت عقائدهم بشكل جيد. وكانت سيناء مسرح تطور هذه العقائد. ولا سيما المرتبطة بطبيعة التصور العقيدي للإله. وحيثيات الواقع تدل بشكل كبير، على مدى ما استلبه بنو إسرائيل من عقائد الشعوب التي عاصرتهم، إنْ كان ذلك في مصر وأطرافها أو في شمال سيناء وجنوب الأردن.

الشعب المختار والإله القبلي المختار

استند المفهوم الديني لدى اليهودية على مقولة شعب الله المختار. وقد ورد هذا المستند في كثير من نصوص التوراة .

تقول التوراة: (وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً) .خروج 3/6

وفكرة الشعب المختار هي من اختراع سفر الإشتراع إضافة لما جاء في الأسفار الأولى من إشارة إلى الشعب المختار. وسفر الإشتراع، يلغي كل ما اقترفه الإنسان بحق الله (الخطيئة الأصلية التي تمرد فيها الإنسان على طاعة الله ـ مقتل هابيل على يد قابيل ـ ادِّعاء الإنسان بمساواة الله حينما شيد برج بابل... ليجئ الطوفان ويمحو كل هذه المعاصي ..الخ.

وتقول التوراة: (فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك إبنا وتدعو اسمه إسحق وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده). تكوين إصحاح 18 ـ 19.

وجاء في سفر الخروج: وأتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً. إصحاح 6 ـ 7.

وقد أسس بنو إسرائيل تصورهم العقائدي للإله على أساس أنهم شعب خاص لإله، هذا الإله اختارهم لوحدهم ليكون لهم دون غيرهم .

من هذا المنطلق نسير مع رحلة التصور الإسرائيلي لهذا الإله الخاص .

في الإصحاح الثالث من سفر الخروج يبدأ كاتب التوراة بتصوير الإله. وتطور علاقته مع بني إسرائيل. فالله عندما يتجلى لموسى عليه السلام يقول له: (أنا إله أبيك إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب) 3 ـ 6. وعندما يحاور موسى ربه يقول فإذا قالوا لي ما اسمه، فماذا أقول لهم. فقال الله لموسى أهيه الذي أهيه وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه أرسلني إليكم. وقال الله لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يهوه إله آبائكم أرسلني إليكم. هذا اسمي إلى الأبد) خروج 3 ـ 13 ـ 14 ـ 15.

فالحديث الحِواري القائم بين موسى وربّه يبرز ثلاث تسميات لله. الله. أهيه. يهوه، فاسم الله معروف بشكل متواتر في العقائد كلها ولا سيما الكتابية منها. ولكن إذا نظرنا إلى المصطلحين الآخرين نجد غرابة ما تكتنفهما. فأهيه. ويهوه في صيغة المضارع الحاضر أي الكائن الآن ولا يفهم من التعريفين سوى ذلك.

ويبدأ تخصص الله لبني إسرائيل منذ هذا السفر. حيث يخصهم بالنسبة. وبالإضافة، تقول التوراة: هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي) خروج 5 ـ 1 وتقول: فقالا: (إله العبرانيين قد التقانا) خروج 5 ـ 3.

فالإله هو خاص هنا لبني إسرائيل. وهذا ما سيكون المحور المهم في العقيدة اليهودية فيما بعد، إذ أن الإله إله فئوي. وفي هذا الإطار يكون الإله العبراني عبارة عن تصوير بشري بحدوده وصفاته. وليس هو إلهاً مجرداً له خصوصيته المنفصلة عن التصور الضيق أو التصور الفئوي.

وقد ربط العبرانيون الإله المتصوَّر بوعد قطعه على نفسه بمنحهم أرضاً يسكنون فيها. وهذه العلاقة تجسد الطموح الذي كان عليه زعماء بني إسرائيل، وهم في الأسر البابلي أيام تدوين التوراة. ويأتي أمر الوعد في سياق خطاب النبي موسى لبني إسرائيل الذين بدأوا التمرد عليه منذ اللحظات الأولى للقائه بهم

بعد عودته من سيناء في الإصحاح الثامن من سفر الخروج يـرد: (وقـل لـه هكـذا يقول الرب أطلق شعبي ليعبدني) 225

وفي الإصحاح التاسع: (وقل له هكذا يقول الرب إلـه العـبرانيين أطلـق شعبي ليعبدوني) 2 خروج

وجاء في الإصحاح 24 من الخروج (ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شـبه صنعة...) 9

وفي سفر التثنية يرد: (الرب إلهنا كلمنا في حوريب) 1 ـ 61

ويرد: (الرب إله آبائكم يزيد عليكم) 1 ـ 12

ويرد: (كما أمرنا الرب إلهنا 1 ـ 19 ـ الذي أعطانا الرب إلهنا) 21

ويرد: (وعصيتم قول الرب إلهكم) 9 ـ 26

ويرد: (الرب إلهنا قطع معنا عهداً في حوريب) تثنية 5 ـ 2

وترد عبارة الرب إلهك أكثر من خمسين مرة في سفر التثنية وحده

وفي سفر يشوع 8: 30 (حينئذ بنى يشوع مذبحـاً للـرب إلـه إسـرائيل في جبال عيبال)

وفي سفر يشوع 10: 4 (فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسـهل والسفوح وكل ملوكها لم يبق شـارداً بـل حـرم كـل نسـمة كمـا أمـر الـرب إلـه إسرائيل)

وفي يشوع 10: 4 (لأن الرب إله إسرائيل حارب عن بني إسرائيل)

وفي يشوع 23: 3 (لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم)

وفي يشوع 32: 22 (إله الآلهة الرب إله الآلهة الرب هـو يعلـم وإسـرائيل سيعلم).

في يشوع 32: 22 (مالكم وللرب إله إسرائيل).

يشوع 23: 1 (لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم).

يشوع 24: 1 (هكذا قال الرب إله إسرائيل).

يشوع 24: 23 (فالآن انزعوا الآلهة الغريبة التي وسطكم وأميلوا قلوبكم إلى الرب إله إسرائيل).

فمن خلال هذه النصوص، يؤسس كتبه التوراة خصوصية الإله فهو إله إسرائيل دون سواهم. وهذا التأسيس بني عليه التصور التوراتي كله. ففي كافة الأسفار تظل خصوصية الإله الإسرائيلي مستمرة.

وتلعب هذه الخصوصية دورها العقيدي والنفسي في الشخصية اليهودية. فالدور العقيدي يعني تماماً رفض آلهة الشعوب الأخرى. صحيح أن الشعوب التي عاشت في فترة بروز اليهودية في غالبيتها شعوب وثنية، ولكن العقيدة اليهودية ترفض أن يكون الله الخاص بها هو ذاته الله في الرسالات الأخرى كالمسيحية والإسلام. وعلى المستوى النفسي فقد بنى هذا الاتجاه في الشخصية اليهودية تماهياً واضحاً بين الله والفرد اليهودي. حيث سنرى في نصوص أخرى أن اليهودي يأمر الله فيطيعه. فيصبح في حالة من الحالات هو الله والله الفرد. وهذا ما يشير لنا بوضوح إلى تأثر اليهودية الكبير بالعقائد الوثنية السائدة آنذاك.

وعندما نتذكر أن تدوين التوراة قد تم أيام السبي البابلي ندرك أن هذا التدوين ما كان ليتم دون تأثير المأثورات العقيدية البابلية والكنعانية وغيرها في العقيدة اليهودية.

فلجميع شعوب المنطقة آلهة قومية خاصة. وهذه هي طبيعة العقائد في الشعوب قبل الرسالات السماوية.

ففي بابل كان الإله الرئيسي مردوخ وقد أشرنا لذلك في صفحات سابقة وفي كنعان كان الإله الرئيسي إيل وفي مرتبة ثانية كان الإله بعل. وفي المدن الهامة أيضاً وجدت لدى الشعوب آلهة خاصة مفضلة على غيرها من آلهة الشعوب. فأهل بيسان كان إلههم الخاص (داجون). وفي نابلس وجد الإله بعل بريث (رب العهد) والإله ملكوم إله العمونيين. وكموش إله المؤابيين. ومولك أيضاً للعمونيين. ويبدو أن المنطقة التي تنقسم إلى مدن وقرى ومناطق لم تتوحد في عقائدها. ومجاراة من قبل بني إسرائيل لهذه الشعوب فقد خصصوا لهم إلها يختلف عن آلهة الشعوب كما يختلف بنو إسرائيل في تصورهم وعقائدهم ومسيرة حياتهم عن بقية الشعوب أو بقية الأقوام.

إله بني إسرائيل كما أراد كاتبو التوراة تصويره هو إله محلي وليس إلهاً عالمياً. وهذا طبيعي قياسا للمحيط الذي عاشوا فيه. ولكن طبيعة هذا الإله، تنسجم مع طبيعة النفسية التوراتية، النفسية اليهودية، النفسية البدوية وليست طبيعة النفس الزراعية المستقرة. لقد عاش بنو إسرائيل حياتهم متنقلين غير مستقرين. وهذا التنقل لا بد له من إله متنقل أيضاً.

إننا نلاحظ أن الآلهة المحلية لبقية سكان المنطقة تستقر في معابد المدن والقرى لأن السكان ذاتهم مستقرون في أرض، مرتبطون بها. أما بنو إسرائيل فلم يرتبطوا بأرض ولذلك كان إلههم متنقلا غير مستقر لا في طبيعته ولا في صفاته.

وحين سمحت لهم الظروف بعد تسرُّبهم إلى فلسطين، وتأسيس ما يسمى مملكة داود وسليمان، فقد ارتبطوا ارتباطا محدودا بهيكل يهوه. وقد اعتبروا أن الهيكل هو مقر إلههم. وقد أصبح الإله الأوحد لهم بعد أن شركوا معه في عبادتهم آلهة وثنية كثيرة. لقد خص بنو إسرائيل أنفسهم بالإله الخاص بهم ولم يقبلوا أحداً من سواهم في عقيدتهم.

تقول التــوراة: (أنـا الـرب إلهـك الـذي أخرجـك مـن أرض مصـر بيـت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي) 20ـ 1 ـ 2

وهذا اعتراف توراتي، بأن إله اليهود لم يكن وحده إلها في هذا الوجود. وهذا يعني أن بني إسرائيل لم يعرفوا الإلــه الواحـد إلـه الخلـق أجمعـين. لقـد عبدوا إلها قوميا خاصا كما ذكرنا لا يقبل أحداً من الناس في عبادته سوى بني إسرائيل. تقول التوراة: (لا يدخــل عمّونــي ولا مؤابــي في جماعـة الـرب حتـى الجيل العاشر. لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد.) تثنية 23: 2

ولو لاحظنا عقائد الشعوب الوثنية آنذاك وجدنا أن لا موانع أمام أي من البشر في دخول عقائدهم. بل إننا نرى بعـض الشـعوب القويـة الـتي اجتـاحت المنطقة، فرضت عقائدها وآلهتها على الشـعوب الـتي احتلـت أراضيـها. وهـذا يرمز إلى قوة الشعوب المستندة إلى قوة معبودها.

وإذا ما رحنا نستطلع طبيعة الإله المعبود الذي فهمه أنبياء بني إسرائيل من خلال القرآن الكريم، وجدنا النقيض تماما. وجدنـا الله الـذي عرفنـاه مـن خلال ديانة الإسلام وعقيدة التوحيد الإسلامية.

يقول تعالى على لسان يوســف عليـه السـلام: (إنــي تركـت ملـة قـوم لا يؤمنون بـالله وهـم بـالآخرة هـم كـافرون واتبعـت ملـة آبـائي إبراهيـم واسـحق ويعقوب. ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء. ذلك من فضـل الله علينـا وعلـى الناس. ولكن أكثر الناس لا يشكرون. يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خـير أم الله الواحد القهار. ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتـم وآبـاؤكم مـا أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبـدوا إلا إيـاه. ذلـك الديـن القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) سورة يوسف 37 ـ 40. والنبي يوسف هو آخر الأنبياء من سلسلة إبراهيم الذين انتهت بهم التواريخ إلى توقف الأخبار أربعمائة سنة حتى ظهور موسى عليه السلام. وبمعنى آخــر فـإن النـبي يوسـف الموحـد

والذي عرف الله الواحد الأحد رب العالمين، انقطعت عنده هذه العقيدة ولم تظهر أية إشارة بعده إلى هذه العقيدة حتى ظهور موسى عليه السلام. وهذا يعني أن بني إسرائيل لم يدركوا عقيدة التوحيد بل اندمجوا بالعقائد المصرية، حيث عرفوا نمطاً آخر من الآلهة، هو نمط الآلهة القومية المحلية. والبعيدة عن الإله الواحد وعقيدة التوحيد.

ولهذا السبب نجد مفهوم الإله الذي استوعبه بنو إسرائيل، لم يكن ما يقصد إليه النبي موسى عليه السلام.

ويجيبنا القرآن الكريم على التساؤل الذي يقول: ما الذي كان يقصد به النبي موسى عليه السلام بمفهوم الإله.

تطالعنا الآيات القرآنية الكريمة بقولها: (قال فرعون وما رب العالمين. قال رب السماوات والأرض وما بينهما أن كنتم موقنين. قال لمن حوله ألا تسمعون. قال ربكم ورب آبائكم الأولين. قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون. قال رب المشرق والمغرب وما بينهما أن كنتم تعقلون). سورة الشعراء 23ـ 28.

فالآيات توضح طبيعة الله في مفهوم النبي موسى وعقيدته التوحيدية. فالله ليس خاصاً ببني إسرائيل، إنما هو رب العالمين. خالق السماوات والأرض وما بينهما من نجوم وكواكب وإنسان وحيوان ونبات وجماد. وهو رب المشرق والمغرب وما بينهما، إنه رب البشر جميعا ما بين مشرق الكون ومغربه.

وهناك آيات قرآنية كثيرة تشير بوضوح إلى طبيعة فهم موسى لله سبحانه وتعالى. والمدقق في بعض الآيات القرآنية يكتشف أن الحوار الذي كان يجري بين النبي موسى وبني إسرائيل يدل بشكل واضح على أنهم لم يفهموا هذا الإله ولم يعترفوا به إلهاً للجميع بل هو إله موسى وحده، وليس لهم علاقة به.

يقول تعالى: (وإذا قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض....) البقرة 61.

ويقول تعالى: (قالوا ادعُ لنا ربك يبين لنا ما هي...) البقرة 68

وتتكرر هذه الآية. (قالوا ادعُ لنا ربك يبين ما هي...) البقرة 70. وفي قوله تعالى: (ربك). عبرةٌ ودرسٌ. وقد تعني الكثير من المقاصد. ومن هذه المقاصد أن بني إسرائيل يفصلون بينهم وبين رب موسى، ولا يعتبرونه ربا لهم إنما هو خاص لموسى.

وفي بعض الآيات القرآنية إشارات واضحة إلى ما آلت إليه نظرة التوراتيين المنحرفين إلى الله القومي الخاص بهم. فالله لن يعذبهم، ولن يحاسبهم طالما هم شعب الله المختار. يقول تعالى: (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتّخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون.) البقرة 80

وقال تعالى: (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيُّهم قل هاتوا برهانكم أن كنتم صادقين.) البقرة 111

وهذا يدل بشكل واضح على أن الله القومي الخاص بهم يصنع لهم جنة خاصة بهم. وهذا طبيعي لأنه يترتب على البعد القومي الخاص للإله الذي تصوروه.

ويقول تعالى: (قل أتحاجُّوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون.) البقرة 139.

فهم يؤمنون بإله يبعث الأنبياء من بني جنسهم، فإن بعث الله نبيا آخر ليس من بني إسرائيل فإن هذا الإله ليس هو إلههم. وقد أنزلت هذه الآيات لترد عليهم عندما بعث الله سبحانه وتعالى محمدا بن عبد الله نبيا ليس من

بني إسرائيل. فهذا لم يكن في حسبانهم فرفضوا نبوته وجادلوا في اختيار الله له نبيا. حتى وصل بهم الحد إلى نكران الله الذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم نبيا للعالمين.

وقال تعالى: (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير.) المائدة 18.

فما تصوره بنو إسرائيل هو أن الله خاص بهم. فهم أحباؤه لأنه لهم وحدهم. ولن يعذبهم كبقية البشر لأنهم شعبه المختار.

ولما كان الإله المتصوَّر إلهاً خاصاً فإن علاقته ببني إسرائيل تتمدّد وتتّسع لتشمل كل القضايا الخاصة ببني شعبه.

فنرى هذا الإله يقسم ميراث النبي إبراهيم قسمة غير عادلة. فيخصص بالميراث إسحق وابنه يعقوب وينفي هذا الميراث عن إسماعيل وأبنائه. والميراث هنا مادي ومعنوي، يرتبط بأموال إبراهيم وممتلكاته من جهة وبنبوّة إبراهيم وميراثه الروحي من جهة أخرى .

تقول التوراة: (فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك إبنا وتدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده) تكوين 17: 19

وتقول: (فقالت لإبراهيم أطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق) تكوين 21: 11

وهذا يعني حسب تصور التوراة، أن الميراث من حق إسحاق ونسله. ونسلُه يعقوب والأسباط ويوسف وكل من يدّعي بعدئذ أنه من نسل يعقوب .

الإله التوراتي ـ نفي الثبات، ضياع الهوية

بعد انقطاع الخبر التاريخي التوراتي، منذ وفاة يوسف وحتى بروز موسى عليه السلام لم تبرز لنا عقائد بني إسرائيل ولم تظهر. وكثيرٌ من الباحثين يرون أن هذه الفترة التي تقدر بأربعمائة سنة تقريبا هي حلقة مفقودة في تاريخ هذه الجماعة التي أطلقت عليها التوراة بني إسرائيل.

والحديث الذي أبرزته التوراة هو قولها: مات يوسف وإخوانه وجميع ذلك الجيل وأما بنو إسرائيل، فأثمروا وتوالدوا وكثر عددهم وامتلأت الأرض منهم ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فخشي من كثرة بني إسرائيل وانضمامهم للأعداء عند حدوث الحرب. فسخرهم واستعبدهم وأذلهم بالأعمال الشاقة ولم يشر القرآن الكريم إلى هذه الفترة أو الحلقة المفقودة، والذي يمكن أن نجده في التوراة والقرآن الكريم هو الحديث عن استعباد فرعون لبني إسرائيل وتسخيرهم وقتل أطفالهم الذكور المولودين حديثاً. واستحياء نسائهم .

أما عن عقيدتهم فلا نجد ذكراً لذلك خاصة الفترة التي بدأت منذ وفاة يوسف وحتى بدء ظهور النبي موسى. وهناك بعض الآيات القرآنية التي تشير إلى موت يعقوب عليه السلام ووصيته لأبنائه بعبادة الإله الواحد .

يقول تعالى (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي. قالوا نعبد ألهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون.) 133البقرة

يقول تعالى: (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين.)البقرة 135. (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى

وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) البقرة 136.

فهل بقي أبناء يعقوب على دين يعقوب؟ وإذا كان الأسباط بما فيهم يوسف عليه السلام قد تمسكوا بعقيدة التوحيد فهل بقي أبناؤهم وأحفادهم على هذه العقيدة؟ أم تداخلت عقائد الفراعنة في عقيدتهم وتشوهت؟ إن أربعمائة سنة من وفاة يوسف حتى بروز موسى خلت من الأنبياء. ولم يرد ذكر أي نبي جاء لبني إسرائيل لا في التوراة ولا في القرآن الكريم. ويظل البحث في عقيدتهم ضمن الظن والتخمين، إذ ليس هناك أي برهان قاطع يدل على عقائدهم فمن المحتمل أنهم تأثروا بعقائد المصريين، ومن المحتمل أنهم ظلوا دون عقيدة واضحة، وربما بقي قسم منهم على ديانة التوحيد، وانحرف بعضهم الآخر ولعل الأحداث التي بدأت مع نبوة موسى عليه السلام قد تدلل على ما كانوا عليه .

تتحدث التوراة في سفر الخروج عن قصة ظهور ملاك الرب بلهب النار في وسط علّيقة ثم يسمع موسى صوت الله إذ يقول: إن موسى غطى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله. ويقول الرب لموسى. لقد رأيت مذلة شعبي في مصر ونزلت لأنقذهم وأصعدهم (إلى أرض تفيض لبنا وعسلا) خروج 3: 8.

وتذكر التوراة أمر الله لموسى ليتحدث لبني إسرائيل من أجل الخروج وتقول التوراة وتقولون له (إن إله العبرانيين قد التقانا) خروج 3: 18.

فنلاحظ هنا أنه قبل الخروج من مصر كانت التوراة تستخدم لفظ إله العبرانيين، وبعد الخروج أصبح إله إسرائيل دون العبرانيين .

ومهمة الله حسب نص التوراة، هي نزوله من عليائه لينقذ شعب العبرانيين بينما نجد أن القرآن الكريم يتحدث عن مهمة موسى الأولى وهي دعوة فرعون إلى ديانة التوحيد.

يقول تعالى: (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) طه 14

و يقول تعالى: (اذهبا إلى فرعون إنه طغى. فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى) طه 43 ـ 44 ويدخل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون ويوضحان من خلال حوارهما معه ما هو الله. وأنه رب السماوات والأرض. والذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى. والله لا يضل ولا ينسى. وهو الذي جعل الأرض مهاداً وجعل فيها سبلاً وأنزل من السماء الماء إلى آخر ما هنالك من توضيحات.

وتبدأ قصة وتقلبات وضياع هوية الإله في عقلية بني إسرائيل مع بدء رحلة الخروج المشهورة .

تقول التوراة: (فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم ففزعوا جداً وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية. ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كفٌ عنا فنخدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية) خروج 14: 10 ـ 13

ففي هذا الحدث يتجلى الأفق النفسي للعقيدة عند بني إسرائيل. فلمجرد أول امتحان أو أول هزة، يتعرضون لها يثورون بوجه موسى، لأنهم لا يريدون الموت، ولا يريدون مغادرة العبودية. فعقيدة التوحيد ليس لها وجود في نفوسهم أو عقولهم. وفي هذه النصوص يغيب الرابط بينهم وبين العقيدة .والنبي موسى عليه السلام هو الذي يعرف بنبوته وعقيدته أن الله معه. ويحاول جاهداً تعليمهم أن الله سيكون معهم لو آمنوا. ولكن لا جدوى، فالطبع العقيدي غير

التوحيدي يطغى على عقولهم. وهو الذي يمنع عقولهم، من التحرك لخوفهم الله وفهم التوحيد.

تقول التوراة: (ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطئ البحر. ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين. فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبده موسى) خروج 14: 30

وهذه اللحظة بالذات تدل بشكل واضح أن الأيمان الذي آمنوا هو إيمان الخوف والرهبة. آمنوا بالرب بسبب فعله. أي أن الإيمان جاء كردة فعل آنية. وهذا طبيعي على المستوى النفسي. ولكن ردة الفعل (الخوف والرهبة)، دائما تزول عندما يفقد السبب.

فعندما يدخل بنو إسرائيل سيناء ويبتعد الحدث عنهم، يعودون إلى طبيعتهم السابقة أي طبيعة الكفر، أو الانقلاب على لحظة الإيمان العابرة.

ففي الإصحاح 16، وبعد أن يرنّم بنو إسرائيل للرب لأنه أغرق فرعون، يدخلون برية سين التي بين إيليم وسيناء. وبعد خمسة عشر يوماً من دخولهم الصحراء .

تقول التوراة: (فتذمر كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون في البرية وقال لهما بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع. فأنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع) خروج 16: 1 ـ 3

ومرة بعد مرة يثور بنو إسرائيل، ويتذمرون من موسى بسبب صورة الماضي التي تعني لهم العبودية لفرعون، ولشعبه مقابل امتلاء البطون بالخبز واللحم.

ثم في الإصحاح 17 تقول التوراة: (ولم يكن ماء ليشرب الشعب. فخاصم الشعب موسى وقالوا أعطونا ماء لنشرب... فلماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش. فصرخ موسى إلى الرب قائلاً. ماذا أفعل بهذا الشعب بعد قليل يرجمونني) خروج 17: 1 ـ 2 فليس لله مكان في العقلية التي ركبت لدى بني إسرائيل. فالمسألة لا تعدو كونها صراعاً بينهم وبين النبي موسى عليه السلام.

وبعد هذا التذمر المتكرر تبدأ التقلبات العقيدية من حال إلى حال والدارس لتقلبات العقيدة في النفسية اليهودية، يراها قد أخذت في كل فترة منحى حاداً. وهذا ما يشير إلى أن العلاقة بينهم وبين التوحيد هي علاقة هشة ليس لها استنادات قوية في النفوس.

سنرى ماذا يقول القرآن الكريم :

يقول تعالى: (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. قال إنكم قوم تجهلون) الأعراف 138

فهذا هو الحدث الانقلابي الأول بالنسبة للعقيدة. ولعلنا جميعاً نتساءل أين الله الذي عرّفهم موسى على قدرته وعالميته ؟. يبدو أن الفترة الزمنية التي عاشوها في مصر جعلتهم يتمثلون عقيدة الأقوام، لاسيما المصريون الفراعنة فهم يريدون إلهاً مثل بقية الشعوب. وهذا حق لهم ولكن هذا الإله الذي يريدونه هو أشبه بآلهة الأقوام التي مروا بها في سيناء. والواقع أن طلبهم من موسى أن يجعل لهم إلهاً كالأصنام التي يعكف على عبادتها أقوام مروا بهم دليلُ إعجابهم المفرط بهذه الآلهة. وغيرتهم الزائدة أو حسدهم للأقوام الأخرى التي لها آلهة بينما هم بدون آلهة. !

ماذا كان يفعل موسى في تعاليمه لهم؟ ألم يقل لهم إن لكم إلهاً أنقذكم من عذاب فرعون؟ ألم يقولوا هم أنفسهم أن الرب أمات جنود فرعون فخافوه؟

لكنها طبيعة التقلب العقيدي التي جبلت بها نفوسهم.

ولندخل في أعماق الصحراء معهم لنصل إلى قصة العجل التي تعتبر من أهم القصص الحقيقية التي توضح ذلك التقلب .

فالتوراة تشير إلى هذه القصة بإسهاب .

والقرآن الكريم يتحدث عنها في أكثر من موضع. فما هي حيثيات هذه القصة وما المفارقات فيها؟

فمع أول غياب للنبي موسى عليه السلام عن بني إسرائيل، يبدأ الانقلاب الكبير في العقيدة. فبنو إسرائيل الذين اعتادوا رؤية عبادة المصريين، لم يستطيعوا تقبل وحدانية الله. وغياب موسى يعني بالنسبة لهم غياب الإله.

تقول التوراة: (ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم. صوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكا. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر) خروج 32: 1 ـ 5 وتقول التوراة: (صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر) خروج 32 ـ 8. وتقول التوراة: (وسمع يشوع صوت الشعب في هتافه فقال لموسى صوت قتال في المحلة فقال ليس صوت صياح

النصرة ولا صوت صياح الكسرة بل صوت غناء أنا سامع. وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص) خروج 32: 17 ـ 19.

وتقول التوراة: (ولما رأى موسى الشعب أنه معرًى. لأن هارون كان قد عرَّاه) خ: 32: 25. فالذي ترسمه التوراة في هذه الصورة كالتالي:

عجل ذهبي يصنعه هارون. يسجدون له وذبحوا له القرابين. ثم يغنون له ويرقصون حوله عراة .. فالصورة واضحة تحتاج لتعليق بسيط. وهو أن بني إسرائيل لا يبتعدون عما نسمعه عن الأقوام البدائية في مجاهل الغابات. فالصورة توضح أنهم في الحضيض من التخلف العقيدي والعقلي والنفسي. ولا تبتعد الصورة عما ترسمه الأفلام الأمريكية عن الهنود الحمر أو قبائل الماو ماو في أفريقيا. ولا شك أن سؤالاً يطرح نفسه يقول ما الذي جعل بني إسرائيل يختارون العجل الذهبي إلهاً؟

الواقع أن الطبيعي بالنسبة لبني إسرائيل أن يختاروا أحد الآلهة المرموز لها بالعجل، كما هو الحال عند المصريين والبابليين، والثور في الأسطورة البابلية أو المصرية رمز القوة في حراثة الأرض، ونقل بعض الأدوات عليه، كما هو الحال عند الهنود. وبنو إسرائيل الذين لم يمض على خروجهم من مصر الكثير من الوقت، ما يزالون يحتفظون في مخزونهم النفسي والفكري معتقدات المصريين وعقائدهم. إضافة لذلك فإن تدوين التوراة الذي تم في السبي البابلي، لم يكن بمعزل عن المؤثرات العقيدية الموجودة في بابل ثم في مدائن الفرس.

(وتعدُّ عبادة عجل آبيس Apis في منف من أقدم عبادات الحيوان في مصر، إذ أن عبادته قديمة قدم الأسرة الأولى، وتكشف عبادة آبيس عن تطور كان شائعا في الواقع. فهي تبدأ عبادة مستقلة بذاتها، ثم ترتبط عقائديا بعد ذلك بكبار الآلهة مثل رع وأوزوريس كما ترتبط باسم بتاح وكذلك بأهم آلهة منف. وقد تمت خطوة أبعد لا نظير لها. ففي بداية العهد البطلمي انتشرت

عبادة أوزوريس ـ آبيس عن وعي لإقامة عبادة جديدة هي عبادة سيرابيس. وربما قصد بها أن توجه للإغريق المقيمين في مصر، غير أن سيرابيس فقد بمرور الزمن هيئة الثور آبيس)[1].

وقد اهتم الهندوس بعبادة الثور والبقرة كثيرا وفي (رج فيدا) أنشودة تقول: (لتصعد أنشودتي الملهمة إلى فيشنو الثور ساكن الجبال، صاحب الخطى الكبيرة. نتوق للذاهب إلى حيث تسكن حيث توجد الأبقار النشيطة ذات القرون العديدة. ومن هناك يشع فيشنو علينا فيشنو الثور بخطوته العالية.)[2]. وقد أصبحت تماثيل البقرة في كل معبد ومنزل وميدان، ولا يجوز للهندوسي تحت أي ظرف من الظروف أن يأكل لحمها أو يستغل جلدها في أية صناعة من الصناعات وهي إذا ماتت وجب دفنها بجلال مع أعظم طقوس الدين.)[3]

وقد أوضح القرآن الكريم قصة عبادة بني إسرائيل للعجل بشكل مسهب، ولا تكاد تختلف عما جاء في التوراة من حيث هي كحدث. ولكن الاختلاف الجذري يقع في اتهام التوراة لهارون بأنه هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل، إضافة لبعض الجزئيات الأخرى التي يمكن اكتشافها من خلال مقارنتنا النص التوراتي بالنص القرآني.

يقول تعالى: (وإذا واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون) البقرة 51

ويقول تعالى: (وإذ قال موسى لقومه إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) البقرة 54

---

(1) جفري بارندر. المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ص 51 ترجمة امام عبد الفتاح امام.

(2) سر قبالي داداكر وشارلز مور. الفكر الفلسفي الهندي. ترجمة ندرة اليازجي 1967.

(3) سليمان مظهر. قصة الديانات ص 86 الوطن العربي القاهرة ـ بيروت 1984.

ويقول تعالى: (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين) الأعراف 148

ويقول تعالى: (وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئس ما يأمركم به أيمانكم إن كنتم مؤمنين) البقرة 93

ويقول تعالى: (ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً) النسأ 153

ويقول تعالى: (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أمَّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين) الأعراف 150

ويقول تعالى: (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلّة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين) الأعراف 152

ويقول تعالى: (فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى. أفلا يرون ألاّ يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً. ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري. قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى. قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا. ألا تتبعن أفعصيت أمري. قال يبنؤُمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي. قال فما خطبك يا سامري. قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي. قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا) سورة طه 88 ـ 97

لقد وردت الإشارة إلى عبادة بني إسـرائيل للعجـل في تسـع مواضـع مـن القرآن الكريم وجميعها تشير إلى الحدث بوضـوح وتتقـاطع مـع قـول التـوراة في ذلك. لكن الاختلاف كما قلنا يقع في الحديث عن النبي هارون. فحسـب قـول التوراة، فإن هارون هو الذي يصنع العجل ليعبدوه. فهارون نبي بتصريح القرآن الكريم. وهو مكلف مثل موسى عليه السلام بتبليغ رسالة التوحيد. فلا يعقل أن يضل نبي عن عقيدته ليصنع عجلا من ذهب ليعبده قومه. والواقع أن السامري هو من صنع لهم هذا العجل وأمـا هـارون فنـهاهم عنـه ولكنـهم عصـوه وكـادوا يقتلونه حسب نص القرآن الكريم .

بعد موت يشوع يفتقد بنو إسرائيل للموجِّه والقائد، ويفتقدون بعد موسى عليه السلام للنبي الذي يواصل مسيرة الهداية بينهم. وبعد أن تسربوا إلى بعض أجزاء فلسطين، وجدوا شعباً كنعانياً متحضراً مستقراً، شـعباً زراعيـاً لـه مدنـه وقراه. وكان لابد للغزاة العبرانيين من النظر في عقـائد الكنعـانيين. ولاسـيما أن الشعب الكنعاني تحملهم وسكنوا في قراهم ومدنهم وهذا ما صرحت بـه التـوراة نفسـها.

وكأمثلة على ذلك تقول التوراة: وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين ولم يطرد منسـى أهـل بيـت (شـأن) وقراها ولا أهل (تعنك) وقراها ولا سـكان (دور) وقراهـا ولا سـكان (يبلعـام) ولا سكان (مجدو) وقراها وافرايم لم يطرد الكنعانيين الساكنين في (جازر). زبلون لم يطرد سكان (قطرون) ولا سكان (تهلول). ولم يطرد أشير سكان (عكا) ولا سكان (صيدون ويحلب وأكزيب وحلبة وفيق ورحوب). ونفتاي لم يطرد سكان (بيـت شحى) ولا سكان (بيت عنا) بل سكن في وسط الكنعانيين سكان الأرض) القضاة 2: 22 و2 ـ: 27. و2: 30 ـ 31 ـ 32 ـ 33 ـ 34.

وقبل أن ندرس ضياع هوية الإله عند بني إسرائيل يجدر بنا أن نصحح كلام التوراة الذي ورد في هذه النصوص .

فبدل قولها سكن اليبوسيون مع بني بنيامين يكون القول الصواب سكن بنو بنيامين مع اليبوسيين. كما ورد في قولها بل سكن في وسط الكنعانيين سكان الأرض. وهذه النصوص التي صرحت بها التوراة تفتح أمام أعيننا دراسة التأثر والتأثير بين الكنعانيين وبني إسرائيل، وإذا عدنا إلى نصوص التوراة نفسها، وجدنا أن التأثير من جانب واحد فبنو إسرائيل لم يؤثروا في الكنعانيين بل الذي حدث هو أن الكنعانيين هم الذين أثروا ببني إسرائيل. وكان من المفترض أن يؤثر أصحاب عقيدة التوحيد في عقيدة الوثنية، غير أن بني إسرائيل الذين ما انفكوا يتقلبون في عقيدتهم بل في عقائدهم، لم يكونوا قادرين على تمثل عقيدة التوحيد ولم يكونوا قادرين على التأثير في غيرهم من الشعوب. وبرهنت نفسيتهم على أنهم سرعان مايتمثلون عقائد الآخرين بمجرد رؤية طقوسهم ومعابدهم وعقائدهم.

تقول التوراة: على لسان الرب (لم تسمعوا لصوتي) لكن صوته يذهب أدراج الرياح .

تقول التوراة: (وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم، وتركوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر، وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب) القضاة 2: 11ـ13.

(تركوا الرب وعبدوا البعليم وعشتاروت) القضاة 2: 14.

ولقضاتهم أيضا لم يسمعوا بل زنوا وراء آلهة أخرى وسجدوا لها. حادوا سريعا عن الطريق التي سار بها آباؤهم لسمْعِ وصايا الرب لم يفعلوا هكذا) القضاة 2: 17 ـ 18.

وتقول التوراة: فعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب ونسوا الرب إلههم وعبدوا البعليم والسواري. القضاة 3: 7.

وتقول: (وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم وعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبدوه.) قضاة 10: 6.

وقد تميزت آلهة الشعوب أو القبائل التي كانت تسكن المنطقة بأنها آلهة منقسمة فيما بينها. وحسب الأساطير الكنعانية فإن الإلـه بعل وهو من كبار الآلهة يمثل السطوة والقوة والشر، على الرغم من أنه يمثل أحيانا إله الخصب والأمطار والصواعق، باعتباره إلها زراعيا وكان في المقابل آلهة أخرى تمثل الجانب الخير في الأسطورة الكنعانية يمثله الإله إيل والإلهة عناة.

غير أن بني إسرائيل مالوا في عقيدتهم إلى الإله بعل ولم يميلوا إلى إيل والجانب الخير ونصوص التوراة تشير عشرات المرات إلى أن بني إسرائيل ساروا وراء البعليم ومن صفات بعل إنه يتلذذ بأرزاء البشر، يحب العقاب وهو الذي يأمر الأعاصير، ولا يتردد في النيل من الناس بيده حتى إنه لا يتردد في مصارعتهم.

ولم يكن لبعل أتباع رسميون في البداية، ثم انتشرت عبادته وصار له معابد، ولهذا الإله أتباع من خارج نطاق الشعب الكنعاني. ويقال إن زوجته تدعى عشتار، ويرد إنهما يدعوان للإباحية على العكس من الإله إيل والآلهة عناة، فهما يدعوان للمحبة والحفاظ على الأسرة، ويقفان في وجه الإباحية التي ينشرها بعل وعشتار. وفي عصر القضاة تعلق بعبادة بعل أكثر بني إسرائيل وبنوا له المعابد، ولذلك نجد أنه ينتشر كصنم في كثير من المناطق ويطلقون عليه عدة أسماء.

من ذلك نرى اسم (بعل فغور) (وبعل زبوب) (وبعل بريث) والأخير هو الذي يعبده الكنعانيون في نابلس، ويعبده بنو إسرائيل. وهناك أيضا (بعل تامار) أي إله التمور أو النخيل و(بعل جاد) و(بعل حاصور) و(بعل حرمون) أي إله جبل حرمون و(بعل صفون) أي إله الشمال، و(بعل فراصيم) أي إله الانفجارات و(بعل هامون) أي إله الجمهور وبعل معون أي إله السكن .

وليس مستغرباً أن يتبع بنو إسرائيل الإله بعل لأن تقلّبهم في العقيدة اقتضى منهم أن يكونوا على نقيض من تعاليم الله التي أنزلت على موسى عليه السلام. وهذه التعاليم تتقاطع في كثير من القضايا الخيرة مع عبادة الإله إيل. ولذلك كان اختيارهم لبعل اختياراً لنوازعهم المنحرفة، وميلهم إلى الإباحية، ورفض كافة تعاليم السماء. وقد أوردت التوراة كما رأينا أن بني إسرائيل عبدوا البعل وآلهة أخرى وزنوا وراءها. وهذا ما يؤكد ميلهم إلى الإباحية التي مثّلها بعل في الأساطير الكنعانية. وقد تعاقبت عبادة الأصنام والآلهة الوثنية من الآباء إلى الأبناء وتورد التوراة أن الأبناء كانوا يفسدون أكثر من آبائهم في الذهاب وراء آلهة أخرى، يسجدون لها ويعبدونها.

وكان ربهم الأول ـ رب الجنود ـ قد حرَّم عليهم الاختلاط بالشعوب، لكن الشعوب كانت أقوى منهم وهذا طبيعي لأن المتخلف لا بد أن يتأثر بالمتحضر، والمتنقل يتبع المستقر، ولعل من أهم الأسباب التي جعلت بني إسرائيل يتقلبون من عقيدة إلى أخرى الاختلاط العرقي مع الشعوب التي سكن بنو إسرائيل في وسطهم. وهذا الاختلاط جاء نتيجة التزاوج المستمر بينهم وبين تلك الشعوب .

تقول التوراة: (فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين، واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء، وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم) قضاة 3: 5 ـ 6.

وقباساً على هذا التزاوج فقد أوردت التوراة زوراً وبهتاناً أن النبي سليمان قد تزوج ألف امرأة وبنى لهن جميعاً معابد وصنع لهن أصناماً يعبدنها .

تقول التوراة: (وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون. موآبيات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات وحثيات .. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري فأمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى وذهب وراء عشتروت وملكوم وكموش وبنى مرتفعة لهن على الجبل الذي تجاه أورشليم. وهكذا عمل لجميع نسائه اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن) الملوك 1: 11 ـ 4.

وتقول متهمة سليمان عليه السلام بالانحراف عن ديانة التوحيد: (وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى. ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه) ملوك أول 11: 5

وإذا نظرنا في سفر الملوك الثاني ونهاية سفر الملوك الأول لوجدنا تعاقب ملوك كثر على ما سمي دولتي إسرائيل ويهودا، ولوجدنا أن أكثرية هؤلاء الملوك تركوا عبادة إله إسرائيل واتبعوا عبادة آلهة الشعوب الوثنية، حتى أنها سيطرت تماما على عقائدهم جميعها، بمعنى أن عبادة الأصنام لحقها معتقدات دينية كثيرة، اختلطت بالسحر تارة ، وبالقرابين تارة أخرى والمحرقات تارة ثالثة. وهذه الملحقات كانت موجودة زمن النبي موسى عليه السلام، ولكن توجهها أصبح باتجاه الأصنام وليس باتجاه إرضاء إله بني إسرائيل.

ولعل أكبر تحول عقيدي أوردته التوراة، هو الذي حدث عندما تسلم المُلكَ على إسرائيل المدعو آخاب بن عمري. وحسب قول التوراة فإنه تملك اثنتين وعشرين سنة. وتقول التوراة: (وعمل آخاب بن عمري الشر في عيني الرب أكثر من جميع الذين من قبله وكأن سلوكه كان أمراً زهيداً قياساً بخطايا يربعام بن نباط، حتى اتخذ إيزابل ابنة اثبعل ملك الصيدونيين إمرأة وسار

وعبد البعل وسجد له، وأقام مذبحاً للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة وعمل آخاب سواري وزاد آخاب في العمل لإغاظة الرب إله إسرائيل أكثر من جميع ملوك إسرائيل الذين كانوا قبله) ملوك أول 16: 30 ـ 33

وقد صرّحت التوراة بأن من بقي من بني إسرائيل لم يسجد للبعل هم سبعة آلاف فقط فقالت على لسان الرب: (فقد أبقيتُ في إسرائيل سبعة آلاف كل الركب التي لم تجثُ للبعل وكل فم لم يقبله) ملوك أول 19: 18

وفي سفر الملوك الثاني تزداد عبادة بني إسرائيل للأصنام غلواً، ويرى القارئ في هذا السفر أن العقيدة غابت تماماً من نفوسهم وأكثرية ملوكهم خرجوا عن عقيدة إله إسرائيل .

فعلى سبيل المثال تقول التوراة (كان منسَى إبن إثنتي عشر سنة حين ملك... وعمل الشر في عيني الرب حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل. وعاد فبنى المرتفعات التي أبادها حزقية أبوه وأقام مذابح للبعل وعمل سارية كما عمل آخاب ملك إسرائيل وسجد لكل جند السماء وعبدها) ملوك 2: 21: 1 ـ 3 وتقول: (وعبرّ ابنه في النار وعاف وتفاءل واستخدم جانّ وتوابعَ، وأكثر عمل الشر في عيني الرب لإغاظته. ووضع تمثال السارية التي عمل في البيت الذي قال الرب عنه لداود وسليمان ابنه في هذا البيت) وفي أورشليم التي اخترت من جميع أسباط إسرائيل أضع اسمي إلى الأبد ملوك 2: 21 ـ 5

وقد أشار القرآن الكريم إلى عبادة البعل من قبل بني إسرائيل، في سياق الحديث عن النبي إلياس.

يقول تعالى: (وإن إلياس لمن المرسلين. إذ قال لقومه ألا تتقون. أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين. الله ربّكم وربَّ آبائكم الأولين. فكذبوه فإنهم لمحضرون) الصافات 123 ـ 127. والنبي إلياس على أكثر الأقوال هو نفسه إيليا الذي ذكرته التوراة وذكرت صراعه مع آخاب بن عمري وزوجته إيزابل اللذين أشاعا عبادة البعل بين اليهود. ولاحقا النبي إيليا بسبب دعوته لعقيدة التوحيد .

الإله التوراتي، مسيرة التجسيم والتجسيد

لدى بني إسرائيل تجليات كثيرة في مسيرة تصورهم للإله. وعلى اعتبار أن الإله الذي أرادوه لأنفسهم خاصة، فلا بد أن يكون التعامل مع هذا الإله على أساس الخصوصية الإسرائيلية، وعلى أساس أنهم اختاروه بأنفسهم ليضفوا عليه تصوراتهم وتخيلاتهم، وعلاقتهم معه.

لقد بدأ هذا التصور منذ سفر التكوين، ولكنه راح يتكامل في سفر الخروج، ليؤسس فكرا دينيا خاصا لأتباع اليهودية فيما بعد.

يبدأ التصور بمسير الله أمامهم عندما هربوا من فرعون وجنوده، في طريقهم إلى سيناء، تقول التوراة: (وكان الرب يسير أمامهم نهارا في عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلا في عمود نار ليضيء لهم لكي يمشوا نهارا وليلا لم يبرح عمود السحاب نهارا وعمود النار ليلا من أمام الشعب). خروج 13: 21ـ 22.

وكما جسد كاتب التوراة الله في عمود سحاب وعمود نار، فإنه يتجاوز ذلك مع تطور تصوره، فلا حدود تمنعه من هذا التجاوز، ولا عقيدة توحيدية تسعفه في الحد من الغلو الذي يقع فيه:

تقول التوراة: (لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء) (وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل إلى الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب لملاقاة الله... وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخان كدخان الآتون. وارتجف كل الجبل جدا.. ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل) خروج: 19: 16 ـ 20.

وعندما نقارن هذه النصوص بنصوص بابلية أو كنعانية سنرى التصورات نفسها، التصورات اليهودية التي اقتبست من تلك الأساطير الوثنية. فالملك البابلي أو الكنعاني ينقلب إلى إله وما عدا ذلك فإن جميع الأمور تتشابه. نزول الإله على الجبل يشابه تماما نزول الإله الوثني بعل من السحاب إلى الأرض. وأصوات البوق والزمور من الأدوات المستعملة في المراسم الملكية. وخاصة البوق المصنوع من القرون الكبيرة.

والنص التوراتي الذي أوردناه من سفر الخروج لا يترك مجالاً للتفسير المجازي. فنزول الرب نزول مادي. عيون الشعب أيضا ليست رؤيا أو بصيرة. وصوت البوق والرعود والبروق والسحاب الثقيل. وملاقاة الله. وجبل سيناء يدخن. ونزول الإله بالنار ودخانه ثم نزول الرب على رأس الجبل. كل ذلك ليس ثمة فرصة لتفسيره تفسيراً مجازياً كما يدّعي بعض اللاهوتيين.

وتتمادى الرؤية التوراتية في وصف العلاقة بين بني إسرائيل وبين الله حتى تصل درجة التأكيد الاستمراري على الرؤية البصرية لله وهي رؤية جماعية. إن هذا يفتح الأعين على طبيعة التأسيس الكهنوتي في وصف الله والقوى الغيبية كالملائكة والجن. ولكن الدارس لطبيعة العقائد الوثنية، سيرى أن التأسيس الكهنوتي اليهودي لم يكن تأسيسا توحيديا إنما جاء تأسيسا وثنيا مخالفا لكل ما جاء به النبي موسى عليه السلام. تقول التوراة:

(ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا) الخروج: 24: 9 ـ 11.

وهذا تجسيد واضح وتشبيه لا خفاء فيه. وفد وردت عبارة أخرى في سفر العدد تقول: يا رب ظهرت لهم عينا لعين. وسحابتك واقفة عليهم وأنت سائر

أمامهم بعمود سحاب نهارا وبعمود نار ليلاً) العدد: 14 ـ 14. لكن معنى هذه العبارة يرد في نسخة أخرى من التوراة بقولها:

(وكان منظر عظمة السيد كنار آكلة في قرن الجبل يراه جماعة بني إسرائيل)، وهذا يدل على استمرار التحريف في التوراة من وقت لآخر[1].

في النص السابق يتضح التطوير اليهودي لصورة الله. لقد رأوا فيه عظمة وجبروتا، ولكن يجب أن يمنحوه أيضا جمالا وروعة تفوق جمال الإنسان. ومن الطبيعي جدا أن يجاري بنو إسرائيل الشعوب الأخرى في تصوراتها. فكتبة التوراة وجدوا ما كان عليه ملوك بابل وأصنامهم وما يحاط بها من هالة وتزيين. والواقع الجغرافي البيئي يقول لنا: إن بني إسرائيل الذين ما يزالون في صحراء سيناء، لا يرون سوى الرمال والحر والعواصف لا يمكن أن يأتوا بهذا الوصف للإله. خاصة بقول التوراة (شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف).

وفي مثل هذا النص يحددون خاصية لهذا الإله. فهو إله إسرائيل، ويجب أن يكون هذا الإله الخاص متميزا عن جميع الإلهة. وهذا طبيعي بالنسبة للشعوب والفئات الوثنية، فالتنافس في إضفاء الصفات الرائعة والمخيفة، الجميلة والجليلة، كان رفيق تلك الشعوب، وتلك الأزمنة. فكلما كان الإله يمتاز بصفات أكثر تضادا كلما كان أقوى وأكثر تفوقا، ويستحق التقدير. وتحضرنا الآن صورة الإله الهندوسي براهما ذو الأقانيم الثلاثة. فهو في أحد وجوهه إله الحرب، وفي وجه آخر إله الحب والرحمة. وهو في وجه ثالث إله خالق. لكنه إله واحد متعدد الوجوه، متعدد الصفات، مع ذلك فإن المأساة اليهودية تكمن في أن الإله الذي يتصوره بنو إسرائيل لم يكن هو الذي يضفي

---

(1) ابن حزم الأندلسي. الفصل بين الملل والأهواء والنحل ص 255 من تعليق المحقق د: عبد الرحمن عميرة.

على نفسه صفات القوة والعظمة والجمال والجبروت. إنما هم من يصنعون هذه الصفات لتتناسب وتفكيرهم وتصوراتهم القادمة وظروفهم المستجدة.

أن العقلية الإسرائيلية في سفر الخروج تؤكد على الصلة المباشرة بينهم وبين الله، ففي أكثر من عشرة مواضع يركز كاتب التوراة على نزول الرب من عليائه ولقائه ببني إسرائيل. وفي كل لقاء، يضفي كاتب التوراة على الجو المحيط هالة أسطورية مهيبة. تقول التوراة: (وأخذ موسى الخيمة ونصبها له خارج المحلة بعيدا عن المحلة. ودعاها خيمة الاجتماع. فكان كل من يطلب الرب يخرج إلى خيمة الاجتماع التي خارج المحلة وكان جميع الشعب إذا خرج موسى إلى الخيمة يقومون ويقفون كل واحد في باب خيمته. وينظرون وراء موسى حتى يدخل الخيمة. وكان عمود السحاب إذا دخل موسى الخيمة تنزل ويقف عند باب الخيمة، ويتكلم الرب مع موسى فيرى جميع الشعب عمود السحاب واقفا عند باب الخيمة. ويقوم كل الشعب ويسجدون كل واحد في باب خيمته. ويكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه) خروج 37: 7 ـ 11.

والواضح من خلال النص أن أفراد بني إسرائيل يدخلون إذا رغبوا إلى الخيمة واحدا بعد الآخر يريدون لقاء الرب. فإذا عدنا إلى بداية سفر الخروج نرى أن التوراة تورد أن الذين خرجوا من بني إسرائيل هم ستمائة آلف راجل فكيف يتسنى لهذا العدد أن يدخل لخيمة الاجتماع، أو نصفه أو ربعه. ولو كان الأمر مرتبطا بشخص نبياً كان أو غير نبي لاستحالت مقابلته لهم إلا بعد أشهر فكيف إذا كان هذا الذي يقابلهم هو الرب؟.

ويؤكد كلام الرب على وجود عمود السحاب الذي ينزل كلما دخل موسى الخيمة، ويذهب بعيدا إن خرج موسى من تلك الخيمة.

وموسى يكلم الرب وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه. فإن كان هذا من باب المجاز فنقول لماذا تصر التوراة على قولها كما يكلم الرجل صاحبه.

وإن قلت هذا من باب الحقيقة فإن الرب في هذه الحالة يتجسد شخصا عاديا، يجلس في الخيمة كالبشر. وهذا يتنافى حتى مع التوحيد الموسوي الذي أوضحه القرآن الكريم في كثير من آياته.

يقول تعالى: (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني - أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه سوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا. فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) الأعراف 143.

وقد أشارت الآيات القرآنية الكريمة إلى أن موسى عليه السلام كان كليم الله. وهذا مما خصه الله سبحانه لهذا النبي. ولكن رؤية الله على الحقيقة أمر محال. وظاهر الآية يدل على ذلك. فموسى عليه السلام لم ير الله، ولن يراه، حتى تلقى رسالة السماء. وقد وجد بعض المفسرين وبعض قراء هذه الآية (ولما جاء موسى لميقاتنا...) إلى آخر الآية أنها تدل على جواز الرؤية لله. وقد رد بعض الدارسين على ذلك. وجاء في أحد الردود:

إن موسى عليه السلام لم يسأل الرؤية لنفسه، إنما سألها لقومه، فقد روي أن قومه طلبوا ذلك منه، فأجابهم بأن الرؤية لا تجوز على الله سبحانه وتعالى. فلجّوا به وألحّوا عليه في أن يسأل اللّه تعالى أن يريهم نفسه، وغلب في ظنه أن الجواب إذا ورد من جهته، جلت عظمته كان أحسم للشبهة وأنفى لها.

ويقوي هذا الجواب قوله تعالى: (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فآخذتهم الصاعقة بظلمهم) النساء 135.

ومنها قوله تعالى: (وإذا قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) البقرة 55[1].

وإذا عدنا إلى الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر الخروج نرى الكلام يجاري الصواب في مسألة رؤية موسى وذلك ما يناقض القول الأول ـ كما يكلم الرجل صاحبه ـ فتقول التوراة: فقال أرني مجدك...

وقال (لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش) الخروج 33: 18ـ 20.

ومع ذلك فإن التزيينات التوراتية، والزيادات التحريفية تأبى أن يبقى السياق توحيديا.

تقول التوراة: (وقال الرب هو ذا عندي مكان فتقف على الصخرة ويكون حتى أجتاز مجدي إني أضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز ثم أرفع يدي فتنظر ورائي وأما وجهي فلا يرى) خروج33: 21 ـ 23.

وهذا يعني أن الرب أجاز لموسى عليه السلام أن يرى ظهر الله وقفاه، وأن لا يرى وجهه، وهذا تجسيد بشع من قبل التوراة، ووثنية واضحة، إذ جعلت الله محدودا مجسدا، له وجه وله ظهر، وهذا ما يتنافى كليا مع عقيدة التوحيد التي تنزه الله عن المكان والحدود. والتجسيد والتجسيم.

وتتابع التوراة هذا التجسيد بقولها (فنزل الرب من السحاب. فوقف عنده هناك ونادى باسم الرب فاجتاز الرب قدامه) خروج34: 5 ـ 6.

(1) أبو القاسم الحسيني الموسوي. تنزيه الأنبياء ص 111ـ 112.

إله الذهب اليهودي

في عقائد التوحيد وحتى بعض العقائد الإثنية كالزاردشتية يتنزه الإله عن الماديات مهما كان قدرها ومهما كانت قيمتها. ومن المعروف أن أساس العقائد هو الجنوح دوما نحو المعنويات. فالمادة في خدمة قيم الخير والعدل والجمال وما إلى ذلك، لكن طبيعة أتباع العقيدة اليهودية تأبى أن تكون العقيدة كذلك. ويأبى هؤلاء أن يكون الإله منزها عن الماديات.

فالذهب هو المعدن الأثمن، يصبح في العقلية اليهودية وسواساً وهوساً حتى يصل بهم الحد إلى إفصاح إلههم عن حبه للذهب ولو كان الذهب حراماً ومسروقاً. وضمن تسلسل سفر الخروج وما بعده. سنجد الذهب يلعب دوره بشكل قوي في العقيدة اليهودية وفي ميول الإله التوراتي.

هذا الإله يأمر بني إسرائيل أن يسرقوا المصريين آنية الذهب والفضة بحجة الاستعارة، وذلك قبل يوم من هروبهم باتجاه سيناء.

تقول التوراة: (طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين) خروج 12.

ولكننا في الإصحاح الخامس والعشرين نرى الرب يأمر مباشرة بصنع تابوت العهد الذي ستحفظ به تعاليم التوراة. وسنرى كيف يلعب الذهب دوره المهم في صنع هذا التابوت.

تقول التوراة: وكلم الرب موسى قائلاً: (وهذه هي التقدمة التي تأخذونها منهم. ذهب وفضة ونحاس) خروج 25: 1و3.

فيصنعون تابوتاً من خشب السنط. وتغشيه بذهب نقي. من داخل ومن خارج تغطيه وتصنع عليه إكليلاً من ذهب حواليه. وتسبك له أربعة حلقات من

ذهب. وتصنع له عصوين من خشب السنط وتغشيهما بذهب. وتصنع غطاء من ذهب نقي طوله ذراعان ونصف. وتصنع كروبين من ذهب. وأنا أجتمع بك هناك، وأتكلم معك من على الغطاء من بين الكروبين اللذين على تابوت الشهادة.

خروج 25: 10 ـ 11 ـ 12 ـ 14 وتصنع مائدة من خشب السنط، طولها ذراعان. وعرضها ذراع وارتفاعها ذراع ونصف وتغشيها بذهب نقي. وتصنع لها إكليلاً من ذهب حواليها. وتصنع لها حاجبا على شبر حواليها. وتصنع لحاجبها إكليلاً من ذهب حواليها.

وتصنع لها أربعة حلقات من ذهب. عند الحاجب تكون الحلقات بيوتاً لعصوين لحمل المائدة. وتصنع العصوين من خشب السنط وتغشيهما بالذهب. وتصنع صحافها وصحونها وكاساتها وجاماتها التي يسكب بها من ذهب نقي تصنعها، وتصنع منارة من ذهب نقي. عمل الخراطة تصنع المنارة قاعدتها وساقها. تكون كاساتها وعجرها وأزهارها منها. وست شعب من جانبيها. من جانبها الواحد ثلاثة شعب منارة. ومن جانبها الثاني ثلاثة شعب منارة. وفي الشعبة الواحدة ثلاث كاسات لوزية بعجرة وزهر. وفي الشعبة الثانية ثلاث كاسات لوزية، بعجرة وزهر وهكذا إلى الست شعب الخارجة من المنارة. وفي المنارة أربع كاسات لوزية، بعجرها وأزهارها، وتحت الشعبتين منها عجرة. وتحت الشعبتين منها عجرة إلى الست الشعب الخارجة من المنارة تكون عجرها وشعبها منها جميعها خراطة واحدة من ذهب نقي. وتصنع سرجها سبعة. فتصعد سرجها لتضيء إلى مقابلها وملاقطها ومنافضها من ذهب نقي من وزنة ذهب نقي تصنع من جميع هذه الأواني وانظر فاصنعها على مثالها الذي أظهر لك في الجبل.

وتقول: (وتصنع خمسين شظاظاً من ذهب).

ففي سفر الخروج، وفي إصحاح واحد هـو الإصحـاح الخـامس والعشـرون ترد كلمة ذهب عشرين مرة. وكل ذلك، ليؤكد الرب عظمته وهيبته وقدسية مـا يقول النبي موسى ليحفظ تابوت العهد.

ولا شك أن هذه الفقرات المطولة توحي لنـا بكثـير مـن الأسـئلة. أولهـا: موسى وبنو إسرائيل في سيناء أي في الصحراء فمن أين يأتون بكل هذا الذهب؟.

ثانيها: إذا كان الذهب الذي يحتاجونه لهذا الصنع موجودا فهل يعـني أنهم سرقوا المصريين كل ذهبهم؟.

ثالثها: ما العلاقة بين الله والتوحيد من جهة، والذهب وتـابوت العـهد الذهبي من جهة أخرى؟.

والمدقق في حياة بني إسرائيل يرى أن الذهب يشكل فيها العنصـر الأول. وعلى مدى التاريخ عرف اليهود بالإتجار بالذهب في كافة الأوساط الاجتماعيـة العالمية. وقد جاء ذلك من خـلال المخـزون النفسـي اليـهودي الـذي بـني علـى أساس إقتصادي صرف.

أما بالنسبة لما ورد في التوراة، فان المدونين في السبي البابلي نقلوا كل ما يمكن نقله عن البابليين، خاصة ما يتعلق بشؤون العبـادة والمعـابد وملحقاتـها، ومن الطبيعي أن يلعب أغلـى معـدن ـ وهـو الذهـب ـ دوره المـهم فيمـا يخـص المعبود عند بني إسرائيل. وسنجد ذلك أيضا، وبشـكل واضـح عندمـا يصنعـون العجل الذهبي، ويعبدونه في غياب النبي موسى عليه السلام.

ويرد في سفر الملوك الأول والثاني عبارات كثيرة تدل بشكل واضـح علـى دور الذهب في حياة بني إسرائيل.

فحسب ما جـاء في التـوراة أن سـليمان بنـى هيكـل الـرب (بخشـب أرز وخشب سرو وذهب حسب كل مسرّته) ملوك اول9: 11

ثم يرد: (وأرسل حيرام للملك مائة وعشرين وزنة ذهب) ملوك 9: 14.

وتقول التوراة: (ولأجل المحراب عشرون ذراعا طولا وعشرون ذراعاً عرضاً. وعشرون ذراعاً سمكاً. وغشاه بذهب خالص وغشى المذبح بأرز. وغشى سليمان البيت من داخل بذهب خالص. وسد بسلاسل ذهب قدام المحراب وغشاه بذهب وجميع البيت غشاه بذهب إلى تمام كل البيت وكل المذبح الذي غشاه بذهب) ملوك أول 6: 20ـ 23.

وتقول: (وغشى الكروبين بذهب.) 6: 29.

وتقول: (وغشى أرض البيت بذهب من داخل ومن خارج). 6: 30 ـ 31.

وتقول: (ورسم عليهما نقش كروبيم ونخيل وبراعم وزهور وغشاهما بذهب، ورصّع الكروبيم والنخيل بذهب). 6: 32.

وتقول: (وعمل سليمان جميع آنية بيت الرب المذبح من ذهب والمائدة التي عليها خبز الوجوه من ذهب والمنائر خمساً عن اليمين وخمساً عن اليسار أمام المحراب من ذهب خالص والأزهار والسرج والملاقط من ذهب، والطسوس والمقاص والمناضح والصحون والمجامر من ذهب خالص. والوصل لمصاريع البيت الداخلي أي لقدس الأقداس ولأبواب البيت أي الهيكل من ذهب). ملوك أول 7: 48ـ 51

وتقول: (وأدخل سليمان أقداس داود أبيه الفضة والذهب والآنية جعلها في خزائن بيت الرب..) 7: 50.

وتقول التوراة: (وكان وزن الذهب الذي أتى سليمان في سنة واحدة ست مائة وستا وستين وزنة ذهب ما عدا الذي من عند التجار وتجارة التجار وجميع ملوك العرب وولاة الأرض) ملوك أول 10: 14ـ 15.

وتقول: (وعمل الملك سليمان مائتي ترس من ذهب مطرق. خص الترس الواحد ست مائة شاقل من الذهب وثلاث مئة مجنّ من ذهب مطرق خص المجنَّ ثلاثة أمناء من الذهب) 10: 16ـ 17.

وتقول: (وعمل الملك كرسيا عظيما من عاج وغشّاه بذهب إبرين) 10ـ 18.

وتقول: (وجميع آنية شرب الملك سليمان من ذهب وجميع آنية وعر لبنان من ذهب خالص لا فضة) ملوك أول 10: 21.

والواقع أن تركيز التوراة على الذهب كان الأهم من الحديث على أي أمر آخر. وقد تناست أو تقصّدت أن تتناسى مهمة النبي سليمان في الدعوة لديانة التوحيد. وكانت لمسات الملك وحدها هي الطاغية على شخصية النبي سليمان وليست لمسات النبوة.

وطالما أن التوراة افترت على النبي سليمان وادعت أنه انحاز عن طريق الله حينما أمالت نساؤه قلبه وراء الآلهة الوثنية. فليس غريبا أن تركز على اهتمام شخصية سليمان على عنصر الذهب وليس على عنصر التوحيد والعقيدة. إن تحليل الشخصية اليهودية عبر التاريخ يدلنا على أنها شخصية بنيت على علاقة اليهودي بدنياه وهذه العلاقة تستند إلى مقولة أن الإنسان في هذه الدنيا يخلق جنته وجحيمه بيديه. فليس هناك جحيم ولا جنة في الآخرة. وإن كان، فإن العقلية الكهنوتية اليهودية تحقن في نفوس اليهود مقولة إن الله لن يحاسب اليهود، وأنهم سيدخلون النعيم بغير حساب.

وعبر التاريخ بنيت بعض الخرافات والأساطير حول علاقة اليهود بالذهب. وهذه الخرافات والأساطير خلقها اليهود أنفسهم. فهناك مقولة إن الله أنزل بدل المطر ذهبا على بني إسرائيل لمدة سبعة أيام وما شبعوا. وفي مساحات فولكلورية كثيرة يقول بعض الجهلة إن اليهود من يوم أن أمطر الله عليهم الذهب وهم أغنياء يمتلكون ذهب العالم. وهناك خرافات أيضا تقول بأن كنوز

الذهب المدفونة في الأرض لا يعرف مكانها وأسرار كشفها سوى اليهود. وكم من قصة، وكم من إشاعة وإشاعة صدرها اليهود. تقول بأنهم بعد حرب 1967 قد حفروا مناطق كثيرة في الجولان وجنوب لبنان وحتى في سيناء ووجدوا كميات هائلة من الذهب.

ومع كل ما في هذه الأقاويل من خرافات ومبالغات فإن الثابت لدى الناس جميعاً حتى الأوروبيين بأن العقلية اليهودية عقلية مالية، وعلاقتها بالذهب علاقة وطيدة. وقد برزت هذه المقولات في الأدب الأوروبي بشكل عام. فمسرحية تاجر البندقية لشكسبير، أكبر دليل على عقلية اليهودي المحب للمال والذهب. فشايلوك اليهودي لم يثره هرب ابنته مع رجل مسيحي بقدر ما أثارته سرقة ذهبه وأمواله.

وقد أشاع اليهود منذ زمن بعيد أسطورة ما يسمى كنوز سليمان. وقد تناقلتها الألسن في التراث العربي بشكل واسع جدا وكذلك في التراث الأوروبي. وقد أضفت حولها كثيرا من الهالة والتضخيم حتى أصبحت في التفكير الشعبي شيئا لا يضاهى...

يهوه الإله المحارب

في أسفار التوراة الأولى، يبرز لنا سياق الأحداث الملحمي للقصص والحكايات التي تصور بداية صراع بني إسرائيل مع كثير من الأقوام التي كانت تقطن في شرقي الأردن وجنوب فلسطين. وهذه الأحداث التي تتطور، يتطور معها تصور بني إسرائيل للإله فهو أولا يأمرهم بالحرب، ويعدهم بسحق أعدائهم، ثم التدخل لصالحهم بقوة لا يمكن ردها ولو كانوا معتدين أو كانوا على باطل.

ويبلغ أوج الملحمة الأسطورية التوراتية في سفر يشوع، حيث تبدأ الصياغة بتسليط الضوء على طبيعة الإله المحارب.

ومن الطبيعي أن التصورات الإسرائيلية لهذا الإله تتجاوب مع الواقع الموضوعي والنفسي الذي يعيشه بنو إسرائيل في كل مرحلة من مراحل حياتهم.

وعلى الرغم من أن كثيرا من الدراسات تنفي ما تقوله التوراة عن الفتح الحربي الذي أجراه يشوع والإسرائيليون[1] إلا أن التدوين التوراتي يعطي لتلك الحروب التي قادها يشوع أهمية كبرى، باعتبارها تنفيذا لوصايا الرب ووعوده.

وبغض النظر عن صحة ما ورد في سفر يشوع أو عدم صحته، إلا أن التصورات التوراتية للإله تأخذ أهمية بالغة في هذا السفر. إذ يرى القارئ تحول هذا الإله إلى قائد عسكري دموي يقود مجموعة متوحشة من البشر باتجاه الإبادة للبشر والمدن والحضارة.

وترتكز صورة يهوه على الارتباط بما يسمى تابوت عهد الرب، فبه ينتصر إسرائيل وبدونه ينكسرون. وتركز الإصحاحات الأولى من سفر يشوع على وجود هذا التابوت باعتباره رمز العقيدة الإسرائيلية.

وتقول التوراة: (وأمروا الشعب قائلين عندما ترون تابوت عهد الرب إلهكم والكهنة اللاويين حاملين إياه فارتحلوا من أماكنكم وسيروا وراءه) يشوع 3:3.

وتقول: (وقال يشوع للشعب تقدسوا لأن الرب يعمل غدا في وسطكم عجائب) يشوع 3: 5.

ثم تقول (هو ذا تابوت عهد سيد كل الأرض عابرا أمامكم في الأردن) 3: 11.

---

(1) ينفي فراس السوّاح دخول يشوع ارض كنعان ومن ثم ينفي كل ما حدث من مذابح على يد يشوع

ويرى بعض الباحثين المستندين على كلام التوراة أن يهوه إله حرب إقليمي، مثله مثل آلهة القبائل أو الممالك الأخرى، المنتشرة في الشرق القديم، اتخذه موسى إلها وجعله ينطق بما يشاء، ويضع الأوامر والأحكام على لسانه لتكتسب صفة المقدس وفرض عبادته على قومه بني إسرائيل بالإرهاب المصحوب بالقتل والتذبيح)[1] والواقع أن النبي موسى عليه السلام لم يدعُ إلى إله قبلي يذبح ويقتل ولكن التوراة المدونة هي التي شوّهت شخصية النبي موسى عليه السلام. بل شوّهت الإله، وجعلته إلها محاربا مزاجيا دمويا.

تبدأ قصة المحارب من هذه المستندات، والتصور التوراتي يحصر الإله في كونه قائدا عسكريا يخوض المعارك أمام بني إسرائيل

تقول التوراة: (وعبر بنو رأوبين وبنو جاد ونصف سبط منسى متجهزين أمام بني إسرائيل كما كلمهم موسى، نحو أربعين ألفا متجهزين للجند، عبروا أمام الرب للحرب إلى عربات أريحا) يشوع 4: 12ـ 13.

والواقع الذي يشير إليه النص أن الإله قائد عسكري أعلى يستعرض صفوف الجند والمقاتلين ثم يبعث هذا الإله القائد نائبه ليلتقي يشوع شاهرا سيفه، ويلبس عدة الحرب ليخوض المعركة الدموية إلى جانب بني إسرائيل.

تقول التوراة: (وحدث لما كان يشوع عند أريحا أنه رفع عينيه ونظر وإذا برجل واقف قبالته وسيفه مسلول بيده فسار يشوع إليه وقال له هل أنت لنا أو لأعدائنا فقال كلا بل أنا رئيس جند الرب الآن أتيت فسقط يشوع على وجهه إلى الأرض وسجد وقال له بماذا يكلم سيدي عبده فقال رئيس جند الرب ليشوع إخلع نعلك من رجلك لأن المكان الذي أنت واقف عليه هو مقدس) يشوع 5: 13ـ 15.

---

(1) جرجي كنعان: وثيقة الصهيونية في العهد القديم ص 43.

ويقود الرب المحارب بني إسرائيل في معارك عديدة، يفتح البلدان والمدن ويأمر بتصفية أبنائها. يقتل الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والبقر والحمير، وتحرق المدن، وهذا ما تصرح به التوراة نفسها.

تقول التوراة: (لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم) يشوع 23: 3.

وتقول: (قد طرد الرب من أمامكم شعوبا كثيرة وقوية... رجل واحد منكم يطرد ألفا لأن الرب هو المحارب عنكم كما كلمكم) يشوع 23: 10.

وتقول التوراة: فبعد غزو الرب ويشوع لعشرات المدن يستعرضان مرة أخرى جنود بني إسرائيل (وجمع يشوع جميع أسباط إسرائيل إلى شكيم. ودعا شيوخ إسرائيل ورؤساءهم وقضاتَهم وعرفاءهم فمثلوا أمام الرب) يشوع 24 /1ـ 2.

وفي الملحمة اليشوعية التوراتية نرى أن الإلـه ذو نفس متصلبة قاسية، روحه عنيفة حاقدة، مرعبة، منتقمة، ونفسيته تشتعل بالثأر والانتقام، يسير أمام المحاربين لأنه رب الجنود، ويأمر بتدمير المدن وتذبيح البشر في هجمات بربرية وحشية.

ويبدو أن بني إسرائيل منذ اتخذوا يهوه إلَهاً لهم، جعلوه إلَـهاً غاضباً ظالماً قاسياً يسر لرائحة المحرقات وينتشي برائحة الدم. ومسيرة الملحمة اليشوعية تظهر لنا طبيعة هذا الرب المحارب.

جاء في سفر يشوع (ويكون عند أخذكم المدينة أنكم تضرمون المدينة بالنار. كقول الرب تفعلون) يشوع 8: 8. ثم يعلّم الرب يشوع طرق الحرب وأساليبها وفنونها فقال الرب ليشوع مد المزراق الذي بيدك نحو عاي لأني بيدك أدفعها). يشوع 8: 18.

وتقول التوراة: (وأخذ يشوع جميع أولئك الملوك وأرضهم دفعة واحدة لأن الرب إله إسرائيل حارب عن إسرائيل). يشوع 10: 42

وتقول التوراة: (فقال الرب ليشوع لا تخفهم لأني غدا في مثل هذا الوقت أدفعهم جميعا قتلى أمام إسـرائيل فتعرقـب خيلـهم وتحـرق مركباتـهم بالنـار) يشوع 11: 6.

ويأمر الرب يشوع أن يجعل بعض المدن ملجـأ للمجرمـين وقطـاع الطـرق فيقول:

(وكلم الرب يشوعاً قائلا كلم بني إسـرائيل قـائلا إجعلـوا لأنفسـكم مـدن الملجأ كما كلمتكم على يد موسى لكي يهرب إليها القاتل ضـارب نفـس سـهوا بغير علم) يشوع 20: 3. وتكمل قولها: (فتكون لكم ملجأ من ولي الدم، فيهرب إلى واحدة من هذه المدن ويقف في مدخـل بـاب المدينـة ويتكلـم بدعـواه في آذان شيوخ تلك المدينة فيضمونه إليهم إلى المدينة ويعطونه مكانا فيسكن معـهم) 20: 4. وإذا تبعه ولي الدم فلا يسلموا القاتل بيده)20: 5.

وتقول التوراة: (وأنتم قد رأيتم كل ما عمل الـرب إلهكـم بجميـع أولئـك الشعوب من أجلكم لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم) يشوع 23: 3

وفي سفر القضاة ترد مقاطع كثيرة تشـير إلى أن الـرب إلـه إسـرائيل كـان يتدخل باستمرار إلى جانب بني إسرائيل في حروبـهم العدوانيـة ضـد الشـعوب والقبائل.

تقول التوراة: (فقالت دبورة لباراق قم. لأن هذا هو اليوم الذي دفـع فيـه الرب سيسرا ليدك. ألم يخرج الرب قدامك. فنزل باراق من جبـل تـابور ووراءه عشرة آلاف رجل فأزعج الرب سيسرا وكل المركبات...) قضاة 4: 15ـ 15.

وهكذا نجد الإله التوراتي قائدا عسكريا يخطط للمعـارك. ويتدخـل عنـد اللزوم لصالح بني إسرائيل، إن كانت حربهم عدوانية. أو كانت لأجل السـلب والتدمير أو القتل الجماعي والإبادة.

وقد أشرنا منذ البداية إلى أن هذا التصور التوراتي للإله المحارب، والمعارك الإبادية التي خاضها بنو إسرائيل لا يأتي على ذكرها القرآن الكريم. وقد تحدث القرآن الكريم عن صراع بين طالوت وجالوت. وجبن بني إسرائيل وفرارهم من المعركة أمام جيش جالوت. أما فيما يتعلق بالملحمة التوراتية اليشوعية، فان التوراة تنفرد بالحديث عنها.

وقد أكد الباحثون الآثاريون والمؤرخون عدم وقوع هذه الملاحم التوراتية اليشوعية وذلك بسبب عدم ورود أي دليل تاريخي أو أثري يدل على وقوعها.

وإذا كانت قد حدثت فإنها في كافة الأحوال تفصح عن العقلية التوراتية المتمسكة بالإله الخاص المحارب الذي يخص بني إسرائيل وحدهم.

التوراتيون والإشراك بالله

تحدثنا في صفحات سابقة عن التعددية في العقيدة التوراتية وكذلك عن الإله العنصري والقبلي، وكذلك تعرفنا على علاقة الإله التوراتي بالذهب، ثم تعرضنا لهذا الإله المحارب، الذي تصوره التوراة بالقائد العسكري والمخطط الحربي الاستراتيجي.

وفي هذه الصفحات نرى عقيدة التوراتيين وقد جعلت هذا الإله بين آلهة أخرى. ومن ثم افترض التوراتيون أن له ولدا أو أولادا. وما إلى ذلك من قضايا الإشراك بالله. التي تدل على العقلية التوراتية الأسطورية وتخلفها عن ديانة التوحيد.

ونستطيع أن نرى عدة اتجاهات للعقيدة التوراتية في هذا الاتجاه:

1ـ الطغيان الأسطوري على العقيدة.

2ـ الثنائية الإلهية بحيث يظهر الإله التوراتي ليس وحده في هذا الكون

3ـ نسب بعض البشر لهذا الإله.

أما الطغيان الأسطوري فإنه يظهر في سفر التكوين بشكل كبير وفي الأسفار الأخرى بشكل موجز.

يرد في سفر التكوين: (وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت. فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت) تكوين 3: 8 ـ 9 ـ 10.

وجاء في سفر التكوين: (وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أُخذ منها) تكوين 3: 22ـ 23.

ومن خلال هذين النصين نجد أن العنصر الأسطوري يطغى على كافة المفاهيم المطروحة وعندما نقول العنصر الأسطوري فإننا نعني به الاعتماد على عنصر الأسطورة المخالف لطبيعة التوحيد. فالله في النصين:

1ـ مجسد يتمشى لا يعلم أين آدم وامرأته يختبآن، فيقول النص أين أنت هو سؤال استفهامي وليس سؤالاً استنكاراً. والدليل على ذلك تجسيد القدرة الكلية المطلقة بقدرة جزئية، أو بعجز واضح.

2ـ وهو ليس له علم الغيب ولا القدرة على معرفة ماذا سيحصل مستقبلاً. لأن قول التوراة صار كواحد منا يعني أن آدم صار كالإله. ثم قولها لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ...

3ـ سبب كون الإله إلهاً يتجسد بالأكل من شجرة المعرفة وشجرة الحياة. فالله يبقى حيا لأنه أكل من شجرة المعرفة وشجرة الخلد وكل من يأكل منها يصبح مثله إلهاً. فهناك ثلاث صفات تنتقص من صفات الله الخالق.

وهي: أنه مجسد، وليس له علم بالغيب. ويخاف مما يتوقع حدوثه.

وهذه الصفات هي تخيل توراتي أسطوري لطبيعة الإله التوراتي. وهي تنم عن جهل في عقيدة التوحيد. وتنم عن إشراك بالله وبطبيعة الذات العلية له.

جاء في سفر التكوين: وحدث لما ابتدأ الناس يتكاثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسناوات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد. 6: 1 ـ 2

و تقول: (وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو إسم) 6: 4

وجاء أيضا في التكوين: (ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب لأنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه. فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته) 6: 5ـ 7.

ومرة أخرى فالنصوص تنفي عن الله العلم المسبق المحيط بكل شيء. غير أن ذلك لا يتوقف هنا بل تصف الله أن له أولادا. وتعجبهم بنات البشر فيهبطون من عليائهم ليتزوجوهن. فمن هم أبناء الله؟. هل تقصد التوراة جنس الملائكة؟ أم تقصد أن أبناءه بشر أو لهم صفات البشر ينكحون ويعاشرون النساء. فإذا كان المقصود الأول فان النص لا يشير إلى أنهم ملائكة، ثم أن الملائكة أجسام نورانية ليس لها صفات البشرية فهي لا تشتهي وليس لها أعضاء تناسلية. وهي منزهة عن البشرية. لها طبيعتها الخاصة وإن كان المقصود أن لله

أبناء وهذا ما يشير إليه النص. فهم كالبشر ولهم شهوة وأعضاء تناسلية يقدرون على ممارسة الجنس مع النساء.

وفي الحالتين فإن التوراتيين يقعون في دائرة الشرك والكفر. ويضعون طبيعة الله في دائرة الحس الأسطوري الذي تناقلوه عن أساطير الشعوب الوثنية ثم إنه لو كان لله أبناء فلماذا لا يكون له بنات؟ يتزاوجون أبناء وبنات وينجبون أولادا لهم طبيعة الآلهة، طالما أن العنصر الإلهي مفضل على العنصر البشري؟.

إن النص التوراتي يريد أن يقول إن لله أبناء محرومين من الجنس ومن النساء. ولا يوجد نساء إلا بين البشر فاختار أبناء الله التنازل عن عنصرهم الإلهي وأرادوا أن يمارسوا مع البشر بشريتهم المتجسدة فقط في إعجابهم بالنساء البشريات ومن ثم ممارسة الجنس معهن وإنجاب أولاد منهن.

وعلى هذا أيضا لا نستخلص أن الأطفال المنجبين سيكونون ذوي نصفين في الطبيعة أي أنصاف آلهة وأنصاف بشر؟ أليس هذا هو التراث الأسطوري الذي استفاده التوراتيون من أساطير الشعوب التي تؤلّه ملوكها وأمراءها وقادتها الكبار، وفي سياق الطغيان الأسطوري الدال على الإشراك بالله تصور الإله ذا مزاج متقلب وتصور أفعاله بسبب ردة فعل آنية.

وتقول التوراة: (وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته) تكوين 8: 21.

وتقول التوراة: (فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما وقال الرب وهو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض فكفوا عن بنيان المدينة) تكوين: 11: 5 ـ 8.

ففي النص الأول يتضح أن الإله التوراتي صمم أن يقلع عن تدمير الأرض وإماتة البشر بعد أن يكون قد لعن الأرض لكثرة شرور بني البشر ووعد نوحا أن يبيد البشرية بالطوفان بعد أن أمره أن يبني فلكا يصعد فيه هو وأبناؤه.

أما النص الثاني ففيه أكثر من مظهر للإشراك بالله:

1- نزول الله من عليائه ليرى ماذا يبني هذا الإنسان.

2- غيرة الله من بني البشر لأنهم لسان واحد ويريدون بناء مدينة عظيمة.

ويتضح من خلال النص أن بني آدم لو ظلوا على لسان واحد وعمل واحد لفعلوا المعجزات التي من شأنها الخروج عن قدرة الله وتسييره للكون

3- قول التوراة هلم ننزل... فإما أن كلمة هلم هي قول الرب لنفسه بينه وبين ذاته أو أنها قوله لجنده وأمرٌ بالهبوط من السماوات العُلى إلى الأرض.

4- يفترض هذا النص أن الله ليس له علم مسبق بما سيؤول إليه الإنسان وعمله في الأرض وهذا أيضا يفترض أن الله لم يكن قبل أن ينظر إلى الأرض يعلم أن بني البشر راحوا يسعون لبناء مدينة وبرج في بابل. وبمعنى آخر فإنه كان ساهيا أو غافلا أو ما شابه ذلك. وهذا ما يدل بشكل قاطع على الشرك بالله والكفر بعظمته وقوته المطلقة. وقد ظهرت الوثنية بشكل مريع في نصوص التوراة. ويظهر أن تعدد الآلهة كان سمة بارزة لدى الشعوب آنذاك فمنذ النبي يعقوب تبدأ نصوص التوراة بالحديث عن الآلهة الأخرى من دون الله وكأنها أمر مسلم به، وكأن الإله واحد من هذه الآلهة. جاء في سفر التكوين: (فقال يعقوب لبيته ولكل من كان معه اعزلوا الإلهة الغريبة التي بينكم) 35:2.

جاء في سفر الخروج: (الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الإلهة) 18:11. وهذا القول جاء على لسان يثرون حمي موسى. وهو الذي وصفته التوراة

بأنه رجل صالح وزوج ابنته للنبي موسى. . وقوله أعظم من جميع الإلهة، هو مقارنة بين الإله والآلهة الوثنية المصنوعة بيد البشر. وهذا غير صحيح لا بالمقارنة ولا في سياق الإيمان بالإله المنزه الواحد وقد جاء في سفر الخروج: (لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الأباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيّ) 20: 3ـ 5.

وجاء في سفر الخروج: (من مثلك بين الإلهة يا رب من مثلك معتزا في القداسة مخوفا بالتسابيح) 5: 11.

ونحن نريد أن نسأل مصنف هذا الكلام هل كان إله موسى بين الآلهة معتزا بالقداسة؟ وإذا كان كذلك فما موقعه فيما نبحث عنه في الأسفار الخمسة من الإشراك بالله. ويعلق عباس العقاد على ذلك بقوله: إن الوحدانية التي كان يدركها بنو إسرائيل في ذلك الزمن لم تكن وحدانية تفكير، ولكنها وحدانية تغليب لرب من الأرباب على سائر الأرباب. ولم يخط اليهود خطوة غير هذه الخطوة وهي أن لليهود إلها يعلو على آلهة غيرهم من البشر[1].

وجاء في سفر التثنية: (لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم لأن الرب إلهكم إله غيور في وسطكم لئلا يحمى غضب الرب إلهكم عليكم فيبيدكم عن وجه الأرض) 6: 14ـ15.

و لقد أصبح التوحيد يعني الواحد بالمعنى الرياضي (إسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد) تثنية 6: 4.

(و لما كان النصر في المعارك هو انتصار الإله على الآلهة الأخرى حسبما

---

(1) عباس محمود العقاد. إبراهيم أبو الأنبياء. ص 60 دار الهلال القاهرة بدون تاريخ.

تمليه بيئة الطوطم الثقافية، قال الكهنة وهم يضاهئون أعدائهم (الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآلهة) خروج 18: 11 كما قالوا لنفس السبب (إن الله قائم في مجمع الله في وسط الإلهة يقضي) مزامير 82: 1 إنه زعيم الآلهة إنه أعظمهم، (من في السماء يعادل الرب من يشبه الرب بين أبناء الله) مزامير 89: 6 (فلله أبناء والطريق إلى الألوهية أسهل)[1].

ومن هذا الذي تقدم نرى أن الإله التوراتي يدل على قصور عقل بني إسرائيل، والكتبة الذين دونوا هذا التوراة، لم يدركوا حقيقة التوحيد، ولا عرفوها. وهذا الذي أتوا به يتناقض كلياً مع ما أوحي إلى النبي موسى عليه السلام. ويتناقض حتماً مع نظرته كنبي موحد للذات الإلهية. ولو عدنا إلى القرآن الكريم نجد أن صفات الله كما عرفها موسى ليست هي صفاته التي وردت في التوراة المدونة. وطالما نسبوا للإله أبناء يتزوجون من بنات الناس في الأرض، فقد سهل عليهم أن ينسبوا عزيراً إلى الله فقالوا إن عزيراً ابن الله.

يقول الله تعالى: (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون) التوبة الآية: 3

يقول الله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) التوبة: 31.

والواقع أن القرآن الكريم يوضح لنا أن من آمن بعقيدة موسى قليلون جداً وإيمانهم كان خوفاً ولم يكن إيمان عقيدة.

---

(1) عمر لطفي النجار. العقل والإلحاد ص 143 مكتبة المبتدأ والخبر دمشق 1997 ط1.

يقول تعالى: (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه علــى خـوف مـن فرعـون وملإيـهم أن يفتنـهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين) يونس 83.

و يتضح أن المسافة بعيدة جداً بين فهم موسى عليــه السـلام لطبيعـة الله سبحانه وبين فهم اليهود أو بني إسرائيل. ولذلك نجد أن موســى يتذمـر منــهم طوال دعوته بينهم. وقد نصت التوراة على هــذا التذمـر كمـا أن القـرآن الكريـم عرض لذلك في آياته البينات كما رأينا مما سبق.

تطور مفهوم الإله عند بني إسرائيل

بعد السبي البابلي حدث اندماج بين اليهود وبين البابليين. فكان لا بــد من التأثير والتأثر. ولما كان الأقوى يؤثر بــالأضعف فـإن بـني إسـرائيل هضمـوا تراث البابليين العقيدي وحاولوا مجاراتهم العقيدية في كثير من أجزاء العقيدة.

ومنذ البداية عرفنا أن بني إسرائيل حملوا مفهوماً محدداً للإلــه الخـاص بهم. وعندما استقروا مسبيين في بابل وجدوا أن الله الذي تمثلوه لم يكـن سـوى إله القومي صغير بالقياس إلى آلهة البابليين ولاسيما الإله الكبير مردوخ.

ولقد أدرك بعض أنبيائـهم هذا التفاوت الكبير في طبيعة الفهم لذات الله، فكان لا بد من إعادة النظر فيها وصياغتها صياغة جديــدة تتناسـب مـع تطـور الفهم ذاته. لقد ظن بنو إسرائيل أن يهوه إله لا يقهر وشعبه لا يقـهر. وعندمـا أصبح الانهزام أمراً واقعاً، وأصبح بنــو إسـرائيل أسـرى بيـد البـابليين سـقطت مفاهيم كثيرة ترتبط بالإله القوي يهوه. فشعبه يهزم ويسبى،ولذلك فإنه حسـب رأي الكثير منهم إله مهزوم لا يقدر على الصمود أمام آلهة الشعوب

إن هذا ولّد لــدى أنبيائــهم ردود فعـل نفسـية وفكريــة. فخرجـوا بنظـرة جديدة للإله. الإله الأعظم والأكبر، الإله الواحد الذي لا تحاربه آلهة ولا أصنام أو أوثان وقد تجلت هذه النقلة النوعية في مفهوم الإله منذ النبي إشعيا.

جاء في التوراة: (أنا الرب وليس آخر. لا إلــه سـواي. أنـا الـرب وليـس آخر، مصدر النور وخالق الظلمة، صانع السـلام، أنـا صنعـت الأرض وخلقـت الإنسان عليها) أشعيا: 45.

و تقول أيضاً: (هكذا يقول الرب خالق السماوات وناشرها، باسط الأرض ورازقها ومعطي الشعب عليها نسمة، والساكنين فيها روحاً... أنا الـرب وهـذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر) إشعيا24: 5 ـ 8.

و تقول أيضاً: (أنا الأول والآخر، ولا إله غيري، وكل شيء أنا أعلم به، أنا الرب صانع كل شيء. ناشر السماوات وحـدي، باسـط الأرض، مـن معـي؟ مبطل آيات المخادعين، وممحق العرافين، مرجع الحكماء إلى الـوراء، ومجـهِّل معرفتهم، مقيم كلمة عبده، ومتمم رأي رسله) إشعيا 44.

و قبل إشعيا بقليل كان النبي إرميا مـن أكـثر أنبيـاء التـوراة نقـداً لبـني إسرائيل وعقيدتهم وهو الذي أسس تقريبـاً لمفـهوم الإلـه العـادل المنصـف كلّـي الجبروت.

جاء في التوراة أن يهوه أمره (أوصهم إلى سادتهم قائلاً: هكذا قـال يـهوه رب الجنود إله إسرائيل إني أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الـذي علـى وجه الأرض. وأعطيتها لمن حسن في عيني) إرميا 27: 4 ـ 5

و عند إشعيا الثالث تأكيد على أن يهوة ليس في شديد حاجـة إلى المعبـد (هكذا قال الرّب السماوات كرسي والأرض موطئ قدمي. أين البيت الذي تبنون لي وأين مكان راحتي) 66: 1

وعلى الرغم من هذا التحول فإن مفهوم الإله ظل معنياً به إله إسـرائيل، وليس إله كل الشعوب. صحيح أنه حسب هـذا التحـول إلـه خـالق السـماوات والأرض والإنسان والحيوان لكنه ظل هو يهوه أي إله إسرائيل الذي يخص بني

إسرائيل ويغضب على من سواهم.

و لم يستطع بنو إسرائيل التخلص من هذه النظرة، وقد انعكست على جميع تصوراتهم، حتى تلك التي برزت بعد السبي البابلي واستمرت طويلاً إلى يومنا هذا.

إن من يعتبر اليهودية ديانة توحيدية يكون مخطئاً. لأن مستندها كما هو معروف تخيلات وتصورات وروايات كتبها أحبار اليهود أيام السبي البابلي. في ديانة أقرب إلى الوثنية. وتختلف كلياً عن عقيدة النبي موسى عليه السلام التي وصفها القرآن الكريم وبين فيها ذات الله المتنزهة عن التجسيم والتجسيد والمحدودية البعيدة عن الوثنية، والتعددية وما إلى ذلك مما تخيله مدونو التوراة.

تطور مفهوم الله عند فلاسفة اليهود

لم تخل العقيدة اليهودية من آراء فلسفية لعبت دوراً ما في تطور مفهوم الإله. فقد كان لهذه الآراء دور في نقد العقيدة اليهودية مما آلت إليه من تراكمات وثنية كثيرة وقد حاول بعض فلاسفة اليهود تحديد بعض المفاهيم المتعلقة بإله كذات.

وأقدم فلاسفة اليهود الذين وفّقوا بين النظرة الدينية والأفكار الفلسفية هو فيلون الإسكندري الذي ولد في السنة العشرين قبل الميلاد وتوفي بعد الميلاد بنحو سبعين سنة. وهذا يعني أنه عاش ما يقارب التسعين سنة. وقد اطلع فيلون على الفلسفة اليونانية وهضمها، واستطاع أن يصل إلى بعض الأفكار التوفيقية بين العقيدة اليهودية والفلسفة.

و تجلى نقده للتوراة والعقيدة اليهودية برفضه للصفات التي ألحقها كتبة التوراة بذات الله وقد رفض التجسيم والتشبيه. ورأى أن الله في وجوده الكامل

المطلق أعلى من أن تحده صفة تدركها العقول. لقد تعلم فيلون من دينــه أن اللہ ذات، وتعلم من الفلسفة أن اللّه عقل مطلق مجرد من ملابسات المادة.

و كان فيلون يرفض أقوال الرواقيين التي تشــبه القـول بوحـدة الوجـود، وتجعل اللّه من العالم والعالم من اللّه. ولكنه أيضاً كان يرفض مذهب أرسطو في تجريده اللّه عن المخلوقات وزعمه أن كمال اللّه يقتضي هــدا التجريـد. ويرفـض فيلون زعم الزاعمين أن اللّه يحتويه مكان أو زمان لأنه محيط بكـل مكـان وكـل زمان.

يقول (إن اللّه واحــد ولكنـه بقدرتـه خـيّر وحـاكم فبالخـير صنـع العـالم وبالحكم يديره وثمة شيء ثالث يجمع بين القدرتين وهو الكلمة لأن اللّه بالكلمة يجود ويحكم. والكلمة كانت في عقل اللّه قبل جميع الأشياء. والواقع أن أقـوال فيلون اليهودي كانت بمثابة ثورة دينية في بني إسرائيل. وقد أدت هذه الثــورة إلى انقسام المجتمع اليهودي إلى قرائين ملتزمين بـالنصوص وربـانيين يجـيزون التفسير والتوفيق بين النص ومعطيات العلم والفلسفة. وقـد ظـهرت بـوادر هـذا الانشقاق بعد فيلون بتسعة قرون أي في زمن شيوع الفلسفة الإسلامية واسـتفاضة البحث في مسألة القضاء والقدر على الخصوص لأنها هي المسألة الـتي اسـتحكم عليها الخلاف بين القرائين القائلين بالقضاء والربانيين القائلين بالاختيار)[1].

وقد برز من بين اليهود الفيلســوف موســى بـن ميمـون القرطـبي (1135 ـ 1204) وقد حضنته الحضارة العربية في الأندلس وبرع في الطب لكنــه قـرأ علـوم الكلام وبحوث التوحيد الإسلامية واطلـع علـى فلسـفة اليونـان باللغـة العربيـة فألف كتابه الأول (دلالة الحائرين) وتناول فيه مسائل الفلسفة ببعض التفصيل، ولا سيما مسألة الذات والصفات ومسألة المعاني والنصوص. وقد نقـد تفسـيرات بعض الربانيين اليهود فيما نسبوه إلى اللّه وفسر النصـوص تفسـيراً مختلفـاً عمـا

(1) عباس العقاد. الله في عقائد الشعوب صفحة 167.

عهدوه من التفاسير.

ففسر مثلاً قول التوراة (إننا نصنع إنساناً على صورتنا وشبهنا) بقوله: إن الناس قد ظنوا لفظ صورة في اللسان العبري يدل على شكل الشيء وتخطيطه فيؤدي ذلك إلى التجسيم المحض ورأوا أنهم إن فارقوا هذا الاعتقاد كذبوا النص. وقال عن صفات الله كلها: إنها وضعت بحسب الأفعال الموجودة في العالم. أما إذا اعتبرنا ذاته مجرداً عن كل فعل فلا يكون له اسم مشتق بوجه، بل اسم واحد مرتجل للدلالة علي ذاته.

و يقول (تبرهن أن الله عز وجل واجب الوجود، لا تركيب فيه، ولسنا ندرك إلا آنيته لا ماهيته).

ويقول: إن الله صورة العالم وسبب وجوده لأن وجود الباري هو سبب لكل وجود، وهو يمد بقاءه بالمعنى الذي يكنّى عنه بالفيض.

و يقول ابن ميمون بحدوث العالم: (أما أنا فأقول إن العالم لا يخلو من أن يكون قديماً أو محدثاً فله مُحدِث بلا شك.

ويقول (الاعتقاد بأن الله ليس جسماً لا يعارض المعتقدات الدينية التي تقوم عليها الشريعة، في حين أن الاعتقاد بقدم العالم كما هو الحال عند أرسطو يقضي على أساس الشريعة أي أنه يثبت عدم الجسمية لله عز وحل ويثبت أن العالم حادث[1].

وخرجت لنا بحوث معاصرة قالت بأن فلسفة ابن ميمون تستند في غالبيتها إلى صوفية محي الدين بن عربي. وقد كشف بعض الباحثين الاسبان أن ابن ميمون قد سرق الكثير من فلسفة ابن عربي ونسبها إليه. فليس له الفضل في أي نظرة فلسفية حول العقيدة وخاصة تلك المرتبطة بذات الله وصفاته.

---

(1) دلالة الحائرين الفصل 25 ج2. نقلاً عن كتاب. نقد التوراة للدكتور أحمد حجازي السقا ص 55.

الفصل الثالث

معالم النبوة ومفهومها

بين التوراة والقرآن

الإيمان بالأنبياء جزء من العقيدة

من المعروف أن العقيدة لا تكتمل ما لم يكتمل الإيمان بالله، وملائكته وبكتبه، وبأنبيائه، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره. وقد أوضح القرآن الكريم في كثير من آياته أن أركان الإيمان هي تلك التي أوردناها.

ولا يجوز الإيمان بالله والكفر بأنبيائه، ولا يجوز أن يكون الإيمان إلا بالأركان كلها. فهي تتكامل ومن ينتقص منها لا يكون مؤمنا.

يقول تعالى: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) البقرة الآية 285.

وكثيرة هي الآيات التي تشير إلى تكامل أركان الإيمان وتداخلها فيما بينها، وتحت هذه الأركان تندرج عشرات الأمور حتى روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: الإيمان بضع وسبعون شعبة أولها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من شعب الإيمان.

وفي أصول العقيدة فإن أركان الإيمان ترتبط أولا بالإيمان بالله وحده. وما أمر الله به يصبح ملزما لمن يريد أن يصبح مؤمنا حقا. وقد فرض الله سبحانه الإيمان بكتبه ورسله وملائكته وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

معنى النبوة والرسالة:

قد يظن بعضنا أن النبي إنما سمي بذلك لأنه يتنبأ بالغيب، أو المستقبل. والواقع أن مدلول كلمة نبي لا يعني التنبؤ بالغيب، فالغيب محصور لله سبحانه وتعالى. وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أنه لو يعلم الغيب لاستكثر من الخير وذلك في القرآن الكريم.

يقول تعالى في سورة الأعراف: (يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون. قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) الأعراف الآية 187ـ 188.

وهذا أبلغ تصريح بأن النبي لا يعلم الغيب ولا يتنبأ. إنما هو نذير وبشير لمن يؤمن.

أما النبوة فتعني معنى الإخبار وهو النبأ. والنبي هو الذي يوصل ويحقق ما أمر به الله عن طريق الوحي. ومهمة النبي على هذا الأساس هي علاقة قائمة بين الخالق والنبي. هذه العلاقة تحقق الإبلاغ والإنباء. وهي تهدف إلى إيصال الخير من الله إلى عباده عن طريق من اختاره وهو النبي)[1].

أما الرسالة فهي صلة ما بين الرسول والناس. ولهذا كانت النبوة مما يمكن أن يتحقق بها معنى الرسالة إذا كلف النبي بالتبليغ[2].

---

(1) د: عبد السلام التونجي. الإيمان بالأنبياء والرسل ص 31.

(2) المرجع السابق. ص 31.

حاجة الناس إلى الأنبياء :

منذ أن خلق الله سبحانه آدم عليه السلام أرادت حكمته أن يكون أول البشر نبيّاً فكان آدم عليه السلام أول نبي لبني البشر. وقد حفل التاريخ الإنساني بشخصيات كان لها من الميزات والصفات ما مكنها من قيادة المجتمعات إلى طريق الهداية وبناء الأرض بناء صالحاً. لقد وُجد المصلحون والمفكرون والقادة الاجتماعيون، ليؤثروا في مسيرة أبناء قومهم. بعث الأنبياء والمرسلون ليوضحوا الرابط بين الخالق والمخلوق، بين الدنيا والآخرة.

والنبي المرسل، هو حامل تلك العلاقة بين السماء والأرض، يتلقى تعاليم السماء عن طريق الوحي، ويبلغها للبشر كي يظل التوازن قائماً في الأرض. ومن الطبيعي أن الصراع بين الخير والشر بمفهومهما العام يحتاج لمن يدافع عن الخير ويتصدى للانحراف ولذلك كان الأنبياء قادة يدعون للخير والصلاح والعلاقات الإنسانية الطيبة.

والصراع بين الخير والشر، يرتبط بالحساب الأخروي. وقد قدم الأنبياء بشكل واضح، طريق النجاة الموصل إلى حياة أخرى بعد الموت وأوضحوا لبني البشر آلاف التعاليم والموازين، التي تفرق بين طريق الهلاك والندم، وطريق الرضا وراحة النفس. ولم يعد لبني البشر حجة على الله، بأن التعاليم لم تصلهم، أو لم يعرفوها، لأن الله سبحانه بعث الأنبياء موضحين شارحين كل السبل على شتى نتائجها. يقول تعالى :

(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) الإسراء 15.

وهذا هو الميزان المنطقي الذي لا يرفضه عاقل. فمهمة الرسول التبليغ وإظهار طريق الحق من طريق الباطل. وما كان الله ليعذب أحداً أو قوماً دون أن يبعث لهم رسولاً يرشدهم إلى طريق الحق. فإن أبوا كان العذاب الإلهي جزاءً

وفاقاً لهم. وعندما ننظر إلى كافة الأقوام التي وجدت عبر التاريخ نرى أن الله بعث لها الأنبياء والرسل والمصلحين.

وفي آيات القرآن الكريم ذكر لكثير من الأقوام ولأنبيائهم. يبين من خلال آيات القرآن الكريم منهج الدعوة عند الأنبياء جميعاً وكذلك يوضح كيف أن العذاب لا يحيق بقوم إلا بعد أن رفضوا دعوة الأنبياء للتوحيد والصلاح والخير.

اختيار النبي والرسول من قبل الله سبحانه:

النبي لا يختار نفسه ليكون نبياً والأمر عائد لاختيار الله سبحانه. فهو الذي يختار من يشاء ليكون نبياً مبلغاً. وهذا الاختيار لا يكون عبثاً أو عشوائياً. فالله سبحانه يعرف أين يضع الرسالة، وبعلمه الخاص يختار من يصلح ليكون نبياً. بل إن دراسة واعية لشخصيات الأنبياء نرى أن الله سبحانه يهيئ النبي ليكون نبياً منذ خلقه. فالأنبياء كأشخاص وبشر تميزوا قبل بعثتهم وقبل أن يكونوا أنبياء. ولقد نقّاهم الله ونقّى قلوبهم وعقولهم تنقية متميزة حتى يكونوا مهيئين للنبوة أو الرسالة، يقول تعالى: (الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس) سورة الحج 75 فالأنبياء صفوة أخيار، وقد أثبت القرآن الكريم علو فطرتهم وصحة عقولهم وصدق أقوالهم، وتبليغهم الأمانة التي عهد الله إليهم أن يبلغوها.

يقول تعالى: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) آل عمران 33.

ويقول تعالى: (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم) آل عمران 179.

وهذا الاختيار الرباني منزّهٌ عن الخطأ، يعرف أين يضع أمانته ورسالته، فكم هو عدد الأنبياء والرسل نسبة إلى عدد أبناء البشرية؟ بالطبع فهم قلائل

لأن الصفات التي يحملونها هي صفات من اختيار رباني.

وطالما أن النبي يختاره الله ليكون مبلغا للرسالة كان لا بد له من قرائن دالة على نبوته. هذه القرائن منها ما يخصه هو، أي ما يميز شخصيته ونفسيته. فهو يتحلى بصفات كثيرة بين قومه كالصدق والأمانة والعفاف والمروءة والشجاعة، ومنها ما يخص رسالته أو دعوته، وتنحصر في الوحي والرسالة، فإما أن تكون عن طريق كتاب سماوي، أو يمكن أن تكون عن طريق تعاليم يوحيها الله إليه عن طريق الأمين جبريل أو عن طريق الرؤيا.

فالنظرة الموضوعية للحركة النبوية تتجلى بالفرق بين النبي الموحى إليه والنبي المحترف فالنبي الموحى إليه يقاوم بعنف فكرة الألوهية القومية للعقيدة الشعبية الوثنية ويدعو إلى فكرة الإله الواحد رب العالمين.

بينما مدّعي النبوة أو النبي المحترف لا يبشر بمبدأ شخصي بل ينتهز اتباع التيار الشعبي مجرداً عن أي أثر أخلاقي، بعيداً عن أي إلهام رباني[1].

معالم النبوة بين التوراة والقرآن الكريم

بعد تلك التمهيدات التي أوردناها في الصفحات القليلة السابقة، والتي عرفنا من خلالها الفرق بين النبوة والرسالة، والاختيار الرباني للنبي، ومهمة التبليغ والرسالة، ندخل صلب الموضوع المتمحور حول معالم النبوة، كما وردت في التوراة وكما وردت في القرآن الكريم لندرك مدى التوافق، إن وجد ومدى الاختلاف والتناقض بين ما أوردته التوراة وما أورده القرآن الكريم.

لقد أوردت التوراة أسماء عدد كبير من الأنبياء وكذلك أورد القرآن الكريم عدداً محدَّداً من الأنبياء.

---

(1) عبد السلام التونجي: الإيمان بالأنبياء والرسل ص28 سبق ذكره.

والأنبياء الذين ورد ذكرهم في التوراة والقرآن هم:

آدم. إدريس (أخنوخ) نوح. إبراهيم. إسماعيل. إسحق. يعقوب. يوسف. موسى. داود. سليمان. إلياس. وأيوب وشعيب (يثرون).

أما الأنبياء الذين ورد ذكرهم في التوراة ولم يرد ذكرهم في القرآن الكريم فهم: أشعيا. أرميا. حزقيال. دانيال. صموئيل.

والأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن ولم يذكروا في التوراة صراحة فهم:

صالح. يونس. هود. عيسى. محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام.

وقد أوردت التوراة أسماء نساء ادَّعينَ أنهن نبيات. مثل مريم أخت موسى وهارون ودبورة التي عاشت في عصر القضاة.

وهناك أنبياء وردت أسماؤهم في القرآن الكريم بخلاف أسمائهم الواردة في التوراة مع أن الأحداث التي مروا بها تتشابه أو تتطابق. مثل أليشع. ذو النون. ذو الكفل. أما آدم عليه السلام فقد ورد في القرآن الكريم على أنه نبي. وكذلك أكدت نبوته أحاديث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول تعالى: (إن الله اصطفى آدم ونوحاَ وآل إبراهيم على العالمين) آل عمران 33.

فآدم نبي اصطفاه الله سبحانه وتعالى مثل ما اصطفى نوحاَ وبقية الأنبياء وقد وردت بعض الأحاديث المشيرة إلى نبوته.

فروى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله كم الأنبياء قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، قلت يا رسول الله كم الرسل منهم قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر: جم غفير قلت يا رسول الله من كان أولهم قال آدم

قلت يا رسول الله نبي مرسل ؟ قال نعم خلقه الله بيده ثم نفخ من روحه ثم سواه قبلا)[1].

وقد أورد القرآن الكريم قصة خلق آدم وفيها طلب الله سبحانه من الملائكة السجود لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر. ومعنى السجود احترام ما خلق الله وليس سجود عبادة. ثم يورد القرآن الكريم قصة خطأ آدم. وبين أن آدم لم يكن له عزمٌ. وعلى هذا قيل إن آدم لم يكن من الأنبياء ذوي العزم.

على أية حال فإن مهمة آدم عليه السلام تبليغ عقيدة التوحيد لأولاده وأحفاده وتميزت منذ بدايتها بالاستغفار لله وطلب الهداية.

يقول تعالى: (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) البقرة 37.

ويقول تعالى: (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننًّ من الخاسرين) الأعراف 23.

أما التوراة فلا تشير إلى نبوة آدم وأنه صاحب رسالة. ويقتصر حديثها على أن الرب صنعه من تراب ووضعه في جنة عدن شرقا ثم خلق الله له حواء. ثم أغوت الحية حواء، فأكلت من الشجرة المحرمة. وأطعمت زوجها. ثم غضب الله عليهما وأهبطهما من الجنة إلى الأرض. وفي التراث التوراتي وكذلك التراث المسيحي، أن آدم سبَّب بخطيئته لعنة الله على الأرض، فقد ورد في رومية 5 : 12 (يذكر الرسول بولس أنه بآدم دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت. وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس).

(1) ابن كثير: قصص الأنبياء ص 53.

أما أخنوخ والذي هو إدريس حسب كافة المصادر الإسلامية فإن التوراة تحدثت عنه بشكل عابر جداً فهي تقول (وعاش أخنوخ خمساً وستين سنة وولد متوشالح. وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه) تكوين 5: 21ـ 24.

أما في القرآن الكريم فقد ورد ذكر النبي إدريس عليه السلام وأشارت الآيات إلى نبوته.

يقول تعالى: (واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا. ورفعناه مكانا عليا) مريم 56ـ 57.

فقد أثنى عليه الله ووصفه بالنبوة والصدّيقية ويقال إنه أول نبي أُعطيَ النبوة بعد آدم عليه السلام. ولم تتضح رسالته وقومه. إنما الإشارة تقتصر على نبوته.

أما نوح عليه السلام ففي التوراة تفصيل توراتي عنه، وقد ذكر في القرآن الكريم في سور عديدة. ويتضح منهج دعوته وطبيعة قومه وقصة بنائه السفينة ثم الطوفان، تشير التوراة إلى صلاح نوح تارة وفساده تارة أخرى، فتقول: (كان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله، وسار نوح مع الله)، وتشير التوراة إلى أن الله تحدث لنوح عن فساد الأرض والبشر: (فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي لأن الأرض امتلأت ظلما منهم) تكوين 6: 13.

وهذه الإشارة تبين أن صلة ما كانت موجودة بين الله وبين نوح وهذه الصلة كما نعرف لا تقوم إلا عن طريق الوحي بين الله سبحانه وبين نبي.

إن التوراة لم تشر إلى نوح على أنه نبي باللفظ إنما الواضح أنها تكني عن النبوة بقولها ـ سار مع الله ـ.

وتقول التوراة: (وبنى نوح مذبحاً للرب) تكوين 8: 20.

ثم تقول: (وبارك الله نوحاً وبنيه) تكوين 9: 1.

وقد جاء في سفر التكوين الإصحاح التاسع بعض التشريعات التي فرضها الله على نوح.

تقول التوراة: (غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه. وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط من يد كل حيوان أطلبه. ومن يد الإنسان أطلب نفس الإنسان. من يد الإنسان أخيه، سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه)تكوين 9: 4 ـ 7.

وتقول (وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم. ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم) تكوين 9: 9ـ 10.

وقد أشارت التوراة إلى أن نوحاً قد سكر وتعرى داخل خبائه :

(استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته) تكوين 9: 24ـ 25.

والفقرات التوراتية التي أشارت لتعري نوح وشربه الخمر ولعنته لكنعان. ملفقة عليه. وهي من صنع كتبة التوراة.

وقد ورد الحديث عن النبي نوح عليه السلام في القرآن الكريم في عدد من السور، فقد ورد الحديث عنه في سورة يونس وفي سورة هود. وفي سورة المؤمنين وفي سورة الشعراء. وفي سورة العنكبوت وفي سورة الصافات وفي سورة القمر ووردت سورة كاملة باسم سورة نوح. وورد الحديث عنه في سورة النساء وسورة الأنعام وسورة التوبة. وسورة إبراهيم. وسورة الإسراء. وسورة الأحزاب. وسورة غافر وسورة الشورى وسورة ق وسورة الذاريات وفي سورة النجم وفي سورة الحديد. وفي سورة التحريم. والآيات التي أشارت إلى نبوته كثيرة.

يقول تعالى: (ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) سورة الحديد 26.

ويقول تعالى: (إنَّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نــوح والنبيـين مـن بعـده) الأنعام 163.

ويقول تعالى: (إنَّا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) سورة نوح.

ويقول تعالى: (قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين) الأعراف 61.

فالآيات تشير إلى نبوة نوح ورسالته. وتشير إلى الوحي الذي كان واسـطة الرسالة إليه. أما منهجه في الدعوة فنعـود لـه في صفحـات قادمـة لـنرى مـدى التناقض بين ما أوردته التوراة وما أورده القرآن الكريم.

ويعتبر إبراهيم من أكثر الأنبيـاء الذيـن تحدثـت عنـهم التـوراة وتحـدث عنهم القرآن الكريم.

وفي الاتفاق بين التـوراة والقـرآن فـإن النـبي إبراهيـم هـو أب لإسمـاعيل وإسحـاق، وإسحق أنجب يعقـوب، ويعقـوب أنجـب الأسـباط ويوسـف عليـهم السلام. وقد ورد ذكر النبي إبراهيم عليه السلام في خمسة وعشرين سورة هـي: البقرة وآل عمران والنسـاء والأنعـام والتوبـة وهـود. يوسـف. إبراهيـم. الحجـر. النحـل. مريـم. الأنبيـاء. الحـج. الشـعراء. العنكبـوت. الأحـزاب. الصافــات. الشورى. ص. الزخرف. الذاريات. النجم. الحديد. الممتحنة. الأعلى.

وتتضح فيها نبوته ورسالته، ودعوته لديانـة التوحيـد. ومنهجـه في هـذه الدعوة. أمّا في التوراة فإن الحديث عن النبي إبراهيم يظهر مع بداية الإصحــاح الثاني عشر من سفر التكوين. حيث تورد قولها المتكـرر وقـال الـرب لأبـرام... تقول التوراة في سفر التكوين: (وقال الرب لأبرام اذهـب مـن أرضـك وعشـيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك) 12: 1.

وتقول (وقال الرب لأبرام بعد اعتزال لوط عنه) تكوين 13: 14.

وتقول بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى أبرام في الرؤيا قائلا لا تخف يا أبرام أنا ترس لك. أجرُكَ كثيرٌ جداً) تكوين 15ـ 1.

وتقول: (في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا) تكوين 15 :8.

وتقول: (ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له أنا الله القدير. سر أمامي وكن كاملاً فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً) تكوين 17: 1 ـ 3.

وتقول: (وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي) تكوين 17: 9.

وتقول: (وظهر له الرب عند بلوطات ممرأ وهو جالس في باب الخيمة وقت حرّ النهار) تكوين 18: 1.

وجاء في التوراة: (ونادى ملاك الربِ إبراهيم ثانية من السماء. قال بذاتي أقسمت يقول الرب) تك 22: 15ـ 16.

وجاء قبله: (فناداه ملاك الرب من السماء وقال إبراهيم إبراهيم فقال هأنذا) تكوين 22: 11.

وجاء فيها: (وشاخ إبراهيم وتقدم في الأيام وبارك الرب إبراهيم في كل شيء) تكوين 24ـ 1.

وجاء فيها (وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة شيخا وشبعانَ أياما وانضم إلى قومه) تك 25: 8.

ونلاحظ أن لفظة النبي وكذلك لفظة النبوة لم تردا في التوراة. إنما الذي دل على نبوته مناداة الله له أو مناداة ملاك الرب.

ومن خلال هذا النصوص التوراتية نرى أن إبراهيم لم يكن صاحب رسالة أو صاحب دعوة أو صاحب منهج معين في الدعوة. ولم تشر التوراة إلى أي رسالة سماوية تلقاها إبراهيم من ربه. ولم تتضح أية تعاليم تلقاها إبراهيم من ربه وكذلك لم نر أي تشريعات خاصة بديانة التوحيد.

ومن هنا نستطيع القول إن نبوة إبراهيم حسبما جاءت معالمها في التوراة هي نبوة ناقصة فيها عنصران هامان وتفتقد إلى عدة عناصر:

أ ـ عنصر الكلام بينه وبين الله والوحي.

ب ـ انصياعه لأمر الله في بعض القضايا واعتراف التوراة بأخلاقه الحميدة. بينما تفتقد نبوته إلى:

1 ـ الرسالة التي من المفترض أن يكون تلقاها من ربه.

2 ـ الدعوة إلى عقيدة التوحيد.

3 ـ منهج الدعوة كما عهدناها عند الرسل والأنبياء.

وإذا عدنا إلى آيات القرآن الكريم تتضح لنا معالم النبوة كاملة متكاملة. والآيات نفسها تبين ذلك.

يقول تعالى: (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) الأنبياء 51.

ويقول تعالى: (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً) مريم الآية 41.

وهذا يدل صراحة بأن إبراهيم عليه السلام كان نبياً وصادقاً ودليل الرسالة التي تلقاها إبراهيم عليه السلام من ربه هو قوله تعالى:

(إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) سورة الأعلى أخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قلت

يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب. قال مائة كتاب وأربع كتب. أنزل على شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. قلت يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم؟ قال أمثال كلها. أيها الملك المتسلط المبتلي المغرور لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض. ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها ولو كانت من كافر. وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ثلاث ساعات. ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه ويتفكر فيما صنع. وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال فإن في هذه الساعة عوناً لتلك الساعات واستجماعاً للقلوب وتفريغاً لها. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظاً للسانه. فإن من حسب كلامه من عمله أقل الكلام إلا فيما يعنيه وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث مرمّة لمعاش أو تزود لمعاد أو تلذذ في غير محرم.. قلت يا رسول الله: هل أنزل عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى. قال يا أبا ذر نعم (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى)[1].

أما قصة إبراهيم عليه السلام فهي الدليل على رفضه عبادة الأصنام ودعوته للتوحيد ثم جداله مع من ادّعى الألوهية، ثم هجرته بدعوته تاركاً قومه إلى قوم آخرين ثم بنائه للبيت الحرام ودعوة الناس للحج تلبية لأمر الله ثم إقراره لأمر الله بذبح ابنه.

فرفضه لعبادة الأصنام ظهر في عدة مواقع من القرآن الكريم يقول تعالى: (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) الأنبياء 52.

---

(1) السيوطي: الدر المنثور في التفسير المأثور ص 571 المجلد 6.

ويقول تعالى: (قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين) الأنبياء 56

ويقول تعالى: (قال تالله لأكيدين أصنامكم بعد إن تولوا مدبرين. فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون.) الأنبياء 57 ـ 58.

وقوله تعالى في نجاته: (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) الأنبياء 71 ومحاجّته للملك الذي ادعى الألوهية.

يقول تعالى: (ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي الفوم الظالمين) البقرة 258.

أما هجرته بعقيدته ففي قوله تعالى:

(فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم.) العنكبوت 26.

أما انصياعه لأمر ربه في ذبح ابنه ففي قوله تعالى :

(فبلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ما ترى. قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتلّه للجبين وناديناه أنْ يا إبراهيم. قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين) الصافات 102 ـ 105.

وهذه الدلالات لا وجود لها في التوراة. سوى ما حرفت فيه من أن الذبيح هو النبي إسحق عليه السلام.

أما بناؤه البيت الحرام فهو دليل آخر على نبوته لأن بناء البيت يعني تأسيس عبادة للموحدين جميعهم.

يقول تعالى: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) البقرة 127 ـ 128.

ويقول تعالى: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود. وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) الحج 26 ـ 27.

وترتبط نبوة النبي إبراهيم عليه السلام بنبوة ولديه إسماعيل وإسحق باعتبار أنهما عاشا مع النبي إبراهيم زمنا طويلا. أما إسماعيل عليه السلام فقد ورد ذكر نبوته صراحة في القرآن الكريم.

يقول تعالى: (واذكر في الكتاب إسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) سورة مريم 54 ـ 55.

أما في التوراة فيرد حديث عن إسماعيل ليس فيه ما يدل على اعترافها بنبوته فقد ورد قولها: (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. هأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا) تك 17: 20.

وجاء في التوراة: (فسمع الله صوت الغلام. ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها ما لك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة) تكوين 21: 17 –19.

وهذا الحديث الذي تكتفي بــه التــوراة لا يشـير مـن قريـب أو بعيـد إلى عقيدة إسماعيل أو نبوته أو رسالته أو أي دليل يدل على أنه نبي مرسل. أما في القرآن الكريم فقد أوضحت الآيات الكريمة الأمور التالية:

1ـ إسماعيل نبي بصراحة اللفظ في القرآن الكريم.

2ـ يقول الله تعالى: (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) سورة إبراهيم الآية 37.

فمهمة إسماعيل إقامة الصلاة التي تعني رمزاً من رموز عقيدة التوحيد

3ـ اشتراك إسماعيل مع أبيه إبراهيم بإقامة قواعد البيت الحرام. وتعـني إقامـة البيت بناء صرح خاص لعقيدة التوحيد وهذا الصرح يرتبط بركن مــن أركـان عقيدة الإسلام وهو الحج. يقول تعالى: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيـت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) البقرة 127.

4ـ واستقرار إسماعيل في وادي مكة يعني أن مهمتـه متابعـة الدعـوة التوحيديـة التي بدأها أبوه في الخليل وما جاورها.

5ـ وقد صدق إسماعيل رؤيا أبيه وانصاع لأمره حين أمره أن يستعد للذبح.

6ـ طالما أن القـرآن الكريـم أشـار إلى صحـف إبراهيـم فمـن الحـق أن يقـال إن إسماعيل علم التشريعات التي وردت في هــذه الصحـف وطالما أشـار القـرآن الكريم إلى نبوته فهذا يعني أن رسالة التوحيد تعلمها على يد أبيـه واسـتمر عليها.

أما إسحق فقد ذكر القرآن الكريـم نبوتـه صراحـة وذلـك في قولـه تعـالى: (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين. وباركنا عليه وعلى إسحق ومــن ذريتــهما محسن وظالم لنفسه مبين) سورة الصافات 112 ـ 113.

أما في التوراة فقد وردت قصة إسحق من مولده إلى وفاته والإشارة إلى كرامة إسحق في التوراة واضحة دون ان تلفظ بلفظة النبوة الخاصة به.

تقول التوراة: (وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابنا) تكوين 17: 16

وتقول: (فقال إني أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن) تك 18: 10.

وتقول: (وافتقد الرب سارة كما قال وفعل الرب لسارة كما تكلم فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابناَ في شيخوخته) تكوين 21: 1 ـ 2.

وتقول: (وصلّى إسحق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته) تكوين 25: 21

وتقول: (وظهر له الرب وقال لا تنزل إلى مصر) تكوين 26: 3.

وتقول: (فظهر له الرب في تلك الليلة وقال أنا إله إبراهيم أبيك لا تخف لأني معك وأباركك وأكثر نسلك من أجل إبراهيم عبدي) تكوين 26: 24.

فإسحاق منحة من الله سبحانه لإبراهيم بعد أن شاخ وهرم ويبشر الله إبراهيم وزوجته بالغلام الذي ستحمل به سارة، وإسحق يصلي لله سبحانه ويدعوه أن تنجب امرأته فاستجاب الله له وقد ظهر له الرب. أو ملاك الرب في الرؤيا بمعنى أن هناك صلة بينه وبين الله ويأتي نص التوراة صريحا بقول الله سبحانه أنا إله إبراهيم أبيك.

وكل ذلك يعني أن إسحق سار على منهج التوحيد الذي كان عليه أبوه النبي إبراهيم :

1ـ فولادته معجزة من الله باعتبار أن أمه كانت عجوزا حين حملت به وولدته.

2ـ وقد رأى الله سبحانه بالرؤيا أو سمع كلامه. أو أوحي له حسب قول التوراة.

3ـ وقد صلى لله وهذه صفة من صفات الموحدين.

أما في القرآن الكريم فيرد أن ملائكة الله سبحانه بشرته بغلام عليم. يقول تعالى: (وبشروه بغلام عليم) الداريات 28.

ويقول تعالى: (قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) سورة هود 73.

ويقول تعالى: (قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين) الحجر 55.

ولم يصرح القرآن الكريم برسالة ما كلف بها إسحق، وكذلك لم تنص التوراة على ذلك وكان تركيزها على الوعد الذي زعمته بامتلاك إسحق ونسله لأرض كنعان وهذا ليس له صلة بنبوة أو رسالة، وتشير التوراة إلى وفاته بقولها (فأسلم إسحق روحه ومات وانضم إلى قومه شيخا وشبعان أياما ودفنه عيسو ويعقوب ابناه) تك 35: 29.

أما لوط عليه السلام، فهناك تناقض كبير حوله فيما ورد في التوراة وفيما ورد في القرآن الكريم، فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: (فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم) الأنبياء 71.

ويقول تعالى: (كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين) الشعراء 160 ـ 163.

ويقول تعالى: (وإن لوطاً لمن المرسلين. إذ نجيناه وأهله أجمعين) الصافات 133 ـ 134. فلوط نبي مرسل وهذا ما صرحت به آيات القرآن الكريم. وقد أرسل إلى قومه لأسباب كثيرة. إتيانهم الفاحشة وهي اللواط. وقطع السبيل. والإتيان بالمنكر في ناديهم. وتكذيبهم للرسل.

لقد بدأت رحلة الإيمان لدى النبي لوط عليه السلام منذ أن هاجر مع إبراهيم عليه السلام من أور إلى الأرض التي باركها الله للعالمين. وكانت مهمته كنبي إبعاد قومه عن تكذيب الرسل والرسالات. وإبعادهم عمّا ينافي الأخلاق الحميدة. ومن ثم نهيهم عن قطع السبيل وكانت العاقبة أن نجّاه الله ودمّر قومه تدميراً كاملاً. أما منهج دعوته فله صفحات أخرى.

أما التوراة فتورد أن الملاكين قد أتيا إلى سدوم مساء. (فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض) تك 19: 2.

وتقول التوراة (فقال لهما لوط لا يا سيد هو ذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك وعظمت لطفك الذي صنعت إلي باستبقاء نفسي) تك 19: 18 ـ 19.

ولكن التوراة لا تشير إلى الصراع بين لوط وقومه سوى ما حدث عندما جاءه الملاكان وحاول قومه خلع باب بيته للوصول إلى الملاكين الذين على هيأة رجلين. ومع ذلك فإنها تلفّق على لوط ما يتنافى وأبسط قواعد السلوك البشري. ولم تمنحه أية عصمة بشرية أخلاقية. حيث قالت إنه زنى بابنتيه بعد أن سقتاه خمراً حتى ثمل وحملتا منه.

فلا علائم للنبوة ولا صفات إنسانية أخلاقية حميدة. إنما إلصاق التشويهات بشخص لا صلة بينه وبين ربه، أو عقيدة التوحيد التي تعلمها أساسا من عمه النبي إبراهيم عليهما السلام.

أما يعقوب فتتوسع الدائرة في الحديث عن نبوته إن كان ذلك في التوراة أو في القرآن الكريم. تورد التوراة أن إسحق بارك يعقوب ولكن هذه المباركة لم تتم إلا عن طريق الخدعة حيث كان إسحق قد فقد بصره وكان يحب ابنه الأكبر عيسو ويريد مباركته ولكن أم يعقوب تآمرت مع ابنه ليكذب على أبيه وينال بركته. وكل ذلك موجود بالتفصيل في التوراة.

وتقول التوراة: (ورأى حلما وإذا سلمٌ منصوبةٌ على الأرض ورأسها يمس السماء وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها. وهو ذا الرب واقف عليها فقال: أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحق) تكوين 28: 12 ـ 13.

وتقول: (وها أنا معك أحفظك حيثما تذهب وأردك إلى هذه الأرض لأني لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به) تكوين 28: 15.

وتقول: (وقال لي ملاك الله في الحلم يا يعقوب...) تكوين 31: 11.

وتقول: (وأما يعقوب فمضى في طريقه ولاقاه ملائكة الله. وقال يعقوب إذ رآهم هذا جيش الله) تكوين 31: 2.

وتقول: (وقال يعقوب يا إله أبي إبراهيم وإله أبي إسحق الرب الذي قال لي إرجع إلى أرضك وإلى عشيرتك فأحسن إليك) تكوين 32: 9

وتقول: (ثم قال الله ليعقوب ثم اصعد إلى بيت أيل وأقم هناك واصنع هناك مذبحا لله الذي ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك) تك 35: 1.

وتقول: (فقال يعقوب لبيته ولكل من كان معه اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم) تكوين 35: 2.

وتقول: (وظهر الله ليعقوب أيضاً حين جاء من فدان آرام وباركه وقال له الله اسمك يعقوب لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل) تك 35: 9 ـ 10.

وتقول: (وقال له الله أنا الله القدير أثمر وأكثر. أمة وجماعة أمم تكون منك) تك 35: 11.

وتقول: (فكلم الله إسرائيل في رؤى الليل وقال: يعقوب يعقوب فقال هاأنذا فقال أنا الله إله أبيك لا تخف من النزول إلى مصر) تكوين 46: 2 ـ 3.

فمن خلال النصوص التي مرت معنا، نرى أن إسحق النبي بارك ابنه يعقوب ثم أن الرؤيا تكررت لدى يعقوب، رأى من خلالها ملائكة الله وسمع من خلالها نداء ربه، ويرد أن الله تعهد له بحفظه وأمره عدة أوامر فنفذها يعقوب تلبية لنداء ربه، ثم إن يعقوب يدعو أهله وبنيه لعبادة الله الواحد وعدم الإيمان بالآلهة الوثنية التي اعتبرتها التوراة غريبة عن إله يعقوب.

ثم إن الله سبحانه كلم يعقوب وغير اسمه إلى إسرائيل وهذه الكلمة تعني عبد الله. وجميع هذه المعالم هي من صفات النبوة عند يعقوب. إلا أن التوراة لم تشر صراحة إلى نبوته ولا إلى رسالته ودعوته وهذا ما رأيناه أيضاً من التوراة حين تحدثت عن بقية الأنبياء.

أما يعقوب في القرآن الكريم فتتضح معالم شخصيته النبوية بشكل آخر.

يقول تعالى: (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفّه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) البقرة 130 ـ 132.

ويقول تعالى: (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) البقرة 133.

فمن خلال الآيات السابقة ندرك أن يعقوب تلقى ديانة التوحيد عن إبراهيم وإسماعيل وإسحق. ثم وصى يعقوبُ نفسُه بنيه أن يظلوا على ديانة التوحيد فالله واحد أحد. والإيمان بوحدانية الله هو إيمان متصل لا انقطاع فيه.

ويقول تعالى: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) البقرة 136.

فهذه الآية توضح ثلاث نقاط تتعلق بنبوة يعقوب:

1ـ إن الله أنزل على إبراهيم وأبنائه ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى رسالة التوحيد.

2ـ هؤلاء لهم صلة بالنبوة.

3ـ عقيدتهم وعقيدة أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم واحدة وهي عقيدة التوحيد ويقول تعالى: (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين. وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) الأنبياء 72 ـ 73.

فالواضح من الآية أن يعقوب مثلُ إسحق وإبراهيم إمامٌ في النبوة. وأوحي له كما أوحي للأنبياء قبله. وطبيعة الوحي أمرٌ من الله بفعل الخيرات وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وعبادة الله الواحد الأحد.

ويقول تعالى: (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا) النساء 163.

فظاهرة الوحي تخص الأنبياء ويعقوب أوحي له كما أوحي لغيره من الأنبياء. ويضاف إلى ذلك أن النبي يعقوب ابتلي بتغييب ابنه يوسف من قبل إخوته وصبر على المصيبة التي حلت به وقال في معرض صبره: (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) يوسف 18.

ويقول تعالى: (وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) يوسف 67.

ويقول تعالى: (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيئسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) يوسف 87

فهذه الآيات تشير أيضاً إلى الإيمان الراسخ لدى النبي يعقوب عليه السلام. وهذا الإيمان لا يتحلى به سوى الأنبياء ومن سار على منهجهم.

والتفاصيل التي جاء على ذكرها القرآن الكريم لم نرها في التوراة، وعلائم النبوة التي رأيناها في آيات القرآن الكريم هي بمثابة الأدلة المتكاملة على نبوة متكاملة أيضاً. وتطالعنا نبوة النبي يوسف عليه السلام بعد النبي يعقوب عليه السلام باعتبار أن هذا النبي ورث عن أبيه وجده إسحاق والنبي الأسبق إبراهيم عليه السلام وقد وردت آيات كريمة تدل على نبوته.

يقول الله تعالى: (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم) سورة يوسف الآية 6

ويجتبيك ربك يصطفيك ثم يفهمك من معنى الكلام وتعبير المنام مالا يفهمه غيرك ويتم نعمته عليك بالوحي. ويحسن إليك بالنبوة كما أحسن بها إلى إسحق وإبراهيم وقد أوحى الله ليوسف في عدة مواقع.

يقول تعالى: (وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون) يوسف 22.

ويقول تعالى: (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) يوسف 22.

وإتيان الحكمة والعلم من دلائل النبوة بعد أن اكتمل يوسف وأصبح مهيأ للنبوة وقد عصمه الله من الفحشاء عندما راودته امرأة العزيز. فهو من سلالة الأنبياء وقد حماه الله من مكر النساء.

وقد دعا يوسف صاحبيه في السجن إلى عبادة الله الواحد الأحد. وكانت دعوته لهما في هذا الحال في غاية الكمال.

يقول تعالى: (يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار. ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يوسف 39 ـ 40.

فهذه الدلالات إضافة لمسيرة حياة يوسف وهو يعمل عند ملك المصريين تدل بشكل واضح على نبوته.

أما في التوراة فتظهر كرامات يوسف وحرصه على عقيدته وأخلاقه من خلال رفضه ما دعت إليه امرأة قائد الحرس لدى ملك المصريين ودخوله السجن، ثم مقدرته على تفسير الأحلام، ثم عفوه عن إخوته الذين أتوا إلى مصر بسبب المجاعة ليأخذوا القمح إلى ذويهم. لكن التوراة لم تشر إلى نبوة يوسف لا من قريب ولا من بعيد. ولم تشر إلى دعوته إلى عقيدة التوحيد التي كلفه الله بها كما كلف الله بها آباءه وأجداده.

وبموت يوسف عليه السلام تنتهي مرحلة مهمة من مراحل النبوة الأولى التي بدأت بإبراهيم عليه السلام وانتهت بيوسف عليه السلام.

وعندما نتوقف عند النبي موسى سنرى الوضع يختلف تماما فسيرة موسى تأخذ مساحة واسعة في التوراة وكذلك في القرآن الكريم.

ومعالم نبوته تكاد تتطابق في ما بين التوراة والقرآن الكريم. وتعتبر شخصية النبي موسى من أهم الشخصيات النبوية في تاريخ الأنبياء. وذلك لأسباب كثيرة أهمها :

1- أن النبي موسى صاحب رسالة ونزل عليه كتاب هو التوراة وهو من بين أربعة كتب نزلت على أنبياء مشهورين. وهي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن الكريم.

وقد وضحت التوراة تشريعات دينية كثيرة وهي مبثوثة في أسفار الخروج. واللاويين والعدد والتثنية.

2- أن النبي موسى كلم الله سبحانه وتعالى، وهذا ما نصت عليه التوراة ونص عليه القرآن الكريم إضافة لما أوحي إليه بواسطة الوحي أو ملاك الرب كما تقول التوراة.

3- أن النبي موسى ظل على رسالته مجاهداً موحداً على الرغم مما لاقاه من بني إسرائيل من كفر وانحراف ونفاق.

4- لقد صرح القرآن الكريم وكذلك التوراة بنبوته بل إن التوراة لم تصرح بنبوة أحد من الأنبياء الأوائل سوى موسى عليه السلام.

5- في القرآن الكريم وكذلك في التوراة قصة وضع موسى في صندوق وإلقائه في اليم ونجاته بقدرة الله.

6- في القرآن الكريم يرد أن الله اصطفاه نبياً لنفسه.

7- في القرآن الكريم منهج نبوي واضح لدى موسى خاصة في الدعوة إلى ديانة التوحيد وهنا يوجد اختلاف بين القرآن الكريم والتوراة حيث أن التوراة تركز على أمر واحد هو إنقاذ بني إسرائيل من ظلم بني فرعون.

يقول تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين) القصص 7.

ويقول تعالى: (وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني) طه39

ففي الآيتين السابقتين إشارة واضحة إلى أن موسى عليه السلام سيكون من المرسلين وأنه قد رعاه الله رعاية خاصة واصطفاه.

يقول تعالى: (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) وهذه طبيعة رسالة التوحيد فالله سبحانه يهيىء من يريده أن يكون نبياً. ثم عندما يبلغ أشده ويصبح مؤهلاً لتحمّل الرسالة يؤتيه الله الحكمة والعلم والحكم ويقول تعالى: (لبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى. واصطنعتك لنفسي) طه 40 ـ 41 وقد من الله على موسى عليه السلام بأن منحه معجزة العصا. ومعجزة يده التي أمره الله أن يدخلها في جيبه فتخرج بيضاء.

يقول تعالى: (ما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاي أهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى. قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى. قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى. واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى) طه 17 ـ 22 وقد عرف عدد من الأنبياء بمعجزات يقومون بها بإذن الله ومعجزة موسى عليه السلام كانت في العصا وفي يده.

ويقول تعالى: (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا) الإسراء 2.

ويقول تعالى: (فلما أتاها نودي يا موسى. إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى. إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) طه 11 ـ 14.

ناداه وكلمه دون وحي ولذلك يقال موسى كليم الله. استناداً إلى قوله تعالى: وكلم موسى تكليما.

ويبين القرآن الكريم دعوة موسى إذ يقول تعالى:

(اذهب إلى فرعون إنه طغى) طه 4 فموسى عليه السلام دُعمت نبوته بكتاب وهو التوراة.

ويقول على لسان موسى: (كي نسبحك كثيراً. ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيرا قال قد أوتيت سؤلك يا موسى) طه 33 ـ 36.

ومن علامات نبوة موسى عليه السلام قوله تعالى:

(وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) الأعراف 142.

ومن علامات نبوة موسى عليه السلام إيذاء بني إسرائيل له. يقول تعالى: (وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين) الصف5 فمن سمات الأنبياء أن أقوامهم كانوا يعاندونهم ويؤذونهم ويتمردون عليهم.

ويقول تعالى: (واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاَ وكان رسولاَ نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا. ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) مريم 51 ـ 53.

وفي هذه الآية وغيرها من الآيات إشارة واضحة إلى نبوة موسى عليه السلام وكذلك نبوة هارون عليه السلام.

أما في التوراة فتتجلى نبوة موسى عليه السلام على الشكل التالي:

ا - (وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقه) خروج 3 ـ 2 (فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العلّيقة وقال موسى موسى فقال هاأنذا. فقال لا تقترب إلى ههنا إخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة. ثم قال أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب) خروج 3: 4 ـ 6.

وتقول التوراة: (فقال له الرب ما هذه في يدك فقال عصا قال اطرحها إلى الأرض فطرحها إلى الأرض فصارت حية فهرب موسى منها ثم قال الرب لموسى مد يدك وأمسك بذنبها...) خروج 4: 2 ـ 4

ثم قال له الرب أيضاً أدخل يدك في عبك فأدخل يده في عبه ثم أخرجها فإذا يده بيضاء مثل الثلج) خروج 74: 6 ـ 7.

ومن علامات النبوة أيضاً أن بني إسرائيل تذمروا على موسى وكادوا يقتلونه وهذا ما وجدناه في آيات القرآن الكريم أيضاً.

تقول التوراة: (وتذمر الشعب على موسى وقالوا لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش. فصرخ موسى إلى الربْ قائلاَ ماذا أفعل بهذا الشعب بعد قليل يرجمونني) خروج 17: 3 ـ 4.

وعن توراة موسى تقول التوراة:

(فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده) خروج 32: 15.

وتقول التوراة في نبوة موسى:

(ولم يقُم بعدُ نبّيٌ في بني إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه في جَميع الآيات والعجائب التي أرسله الرب ليعملها في أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وكل أرضه) تثنية 34: 10 ـ 12.

وقد تكررت عبارة وكلم الرب موسى في هذا السفر عشرات المرات، لتؤكد أن موسى عليه السلام. كان يكلم الله تكليماً في أغلب أوقاتـه دون وحـي. وقـد وردت بعض المقاطع في التوراة تدل على أن موسى عليه السلام قد التقى مـلاك الرب.

ومما مر معنا في نصوص القرآن الكريم وفي نصوص التوراة نستدل على أن هناك اتفاقا شبه كامل فيما ورد في الحديث عن النبوة لدى موسى عليه السلام. أما منهج الدعوة عنده فهو مجال اختلاف جذري بين الذي ورد في التوراة ومـا ورد في القرآن الكريم.

أما النبي هارون عليه السلام فقد ورد الحديث عنه في سياق آيات القرآن الكريم وفي نصوص التوراة.

وقد ورد الحديث عن نبوته صراحة في آيات القرآن الكريم يقـول تعـالى: (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) مريم 53.

وقد كانت رسالته رسالة التوراة الـتي أنزلـت علـى النـبي موسـى عليـه السلام وقد رافقه في معظم حياته النبوية، حيث ترافقا معا في دعـوة فرعـون إلى ديانة التوحيد وكان موسى عليه السلام يلقنه تعاليم التوراة يوما بعد يوم.

غير أن التوراة لم تشر إلى نبوة هارون بل اتهمته بأنه هو الذي كـان وراء صنع العجل الذهبي الذي عبده بنو إسرائيل أثناء غيـاب موسـى عليـه السـلام للقاء ربه. و ادعت التوراة أن هارون كان وراء مقتـل أخيـه حسـب ادعـاء بـني إسرائيل.

وعندما نصل إلى معـالم النبـوة عنـد النـبي داود عليـه السـلام، نجـد أن القرآن الكريم يشير إلى أن الله سبحانه منحه النبوة والملك. وقد أنـزل الله عليـه

كتابا اسمه الزبور. إلا أن التوراة ركزت على ملكه، واستثنت الحديث عنه كنبي له رسالة وله منهج.

يقول تعالى: (وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) البقرة 251.

و يقول تعالى: (وآتينا داود زبوراً) النساء 163

ويقول تعالى: (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا) الإسراء 55.

وهذه الآيات الكريمة تشير إلى نبوة داود بشكل واضح، وتشير أيضاً إلى أن الله سبحانه أنزل على داود كتابا اسمه الزبور.

ومن علامات تأييد الله سبحانه لنبوة داود تسخير الجبال والطير يسبحن له.

يقول تعالى: (مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين)

ويقول تعالى: (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير) سبأ 10 ـ 11.

ويقول تعالى: (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) ص 17.

ويقول: (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق. والطير محشورة كل له أواب. وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) ص 18 ـ 20.

وقوله تعالى: وآتيناه الحكمة أي آتيناه النبوة.

ويقول تعالى: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) ص 26.

وداود عليه السلام كان أعدل الناس في عصره وهذه منحة من الله سبحانه له وتقوية لعلائم نبوته.

أما في التوراة فترد بعض النصوص التي تشير إلى إيمان داود عليه السلام بالله منذ صغره.

تقول التوراة: (لأنه عير صفوف الله الحي) صموئيل الأول 17: 26.

وتقول: (وأنا آتي إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل) صموئيل 171: 45.

وتقول على لسان داود: (هذا اليوم يحبسك الرب في يدي فأقتلك وأقطع رأسك) 46.

ثم تأخذ التوراة بالحديث عن سؤال داود للرب فيما يتعلق بحركاته وتحركاته، ثم تقول التوراة: (وأتى رجال يهوذا ومسحوا هناك داود ملكا على بيت يهوذا) ص2 :1/ 4.

ثم تقول: (وجاء جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك إلى حبرون فقطع الملك داود معهم عهدا في حبرون أمام الرب ومسحوا داود ملكاً على إسرائيل) صموئيل الثاني 5: 3.

وتتوالى الفقرات التي تشير إلى أن الله قد تحدث لداود وأرشده في شؤون الحرب والقتال. وفي الإصحاح السابع من سفر صموئيل الثاني مقاطع تدل على مناجاة داود لربه وصلاته له.

وتقول: (فدخل الملك داود وجلس أمام الرب وقال: من أنا يا سيدي الرب وما هو بيتي حتى أوصلتني إلى هنا وقل هذا أيضاً في عينيك يا سيدي الرب) ص2 7: 18 ـ 19.

وتقول: (لذلك قد عظمت أيها الرب الإله لأنه ليس مثلك وليس إله غيرك حسب كل ما سمعناه بآذاننا) صموئيل الثاني 7: 22.

وتورد التوراة أقوالاً منسوبة إلى النبي داود تدل بشكل واضح على صلته القوية بالله. ليس صلة الملك وإنما صلة الأنبياء على الرغم من أن التوراة تصر على تحييد النبوة عن داود وتركز على كونه ملكا. تقول: (وحي داود بن يسّى ووحي الرجل القائم في العلا مسيح إله يعقوب ومرنم إسرائيل الحلو. روح الرب تكلم بي وكلمته على لساني.. إذا تسلط على الناس بار يتسلّط بخوف الله) صموئيل الثاني 23: 1 ـ 2 ـ 3.

ويأتي في التوراة أن داود وصى سليمان عندما قربت وفاته وتقول التوراة: (احفظ شعائر الرب إلهك إذ تسير في طرقه وتحفظ فرائضه ووصاياه وأحكامه وشهاداته كما هو مكتوب في شريعة موسى لكي تفلح في كل ما تفعل وحيثما توجهت) ملوك أول 2: 3.

ومن خلال ما تقدم نرى أن كثيراً من الدلائل تشير إلى أن داود كان مع الله وكان الله معه لكن التوراة لم تشر إلى نبوته. وإنما أشارت إلى مزامير داود التي هي عبارة عن أناشيد وأدعية قالها على آلة موسيقية. ولم تشر إلى أن الله سبحانه أنزل عليه كتابا اسمه الزبور. ويعتقد كثيرون أن ما قاله داود عليه السلام في المزامير ليس سوى الزبور نفسه. ولكن آخرين نفوا ذلك إذ أن هذه المزامير من صنع داود ولم تنزل على داود من لدن رب العالمين.

وترتبط شخصية سليمان النبوية بشخصية داود عليهما السلام. فقد استلم سليمان الملك في أواخر حياة أبيه وتمتع من صغره بالفطنة والذكاء مما أتاح له التعلم من أبيه أصول ديانة التوحيد والحكمة والعلم والملك. يقول تعالى:

(ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين. وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين) سورة النحل 15 ـ 16.

والمراد بقوله (من كل شيء) كثرة نعم الله تعالى عليه ومنها تعليمه كلاما لا يعلمه سواه وهذه المنحة لم تذكر في كتب أهل الكتاب. وإنما يذكرون أن سليمان كان عظيم الحكمة ولذلك يسمونه سليمان الحكيم ولا يلقبونه بالنبي أصلاً[1].

ومن نعم الله عليه لتقوية معالم نبوته تسخير الله له الريح يقول تعالى: (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) سورة ص 36.

وقوله تعالى: (ولسليمان الريح عاصفة تجري إلى الأرض التي باركنا فيها) الأنبياء الآية 81. وقد آتاه الله ملكا لم يعطه لنبي قبله أو بعده.

قال تعالى: (قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهّاب) ص 35.

وكذلك فقد أسال الله له عين القطر أي النحاس ليدعم به ما بناه. وقد منَّ الله تعالى عليه وهداه إلى ما لم يهتد إليه أحد من قبله والتوراة خالية من ذلك[2]

(1) عبد الوهاب النجار. قصص الأنبياء صفحة 346.

(2) عبد الوهاب النجار. قصص الأنبياء صفحة357.

وسخّر الله له الجن. يقول تعالى: (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجراب وقدور راسيات) سبأ الآية 13.

ولم يمنح نبي قط تسخير الجن له. وهذه ما تخص نبوة سليمان دون غيره من الأنبياء.

ومن نعم الله عليه أنه دعا ملكة سبأ إلى عقيدة التوحيد فآمنت. وكذلك من نعم الله عليه أنه عندما وافته المنية لم يعرف أحد من الجن والإنس أنه مات وما دلهم على موته سوى دابة الأرض. كما جاء ذلك في القرآن الكريم ولم يرد في التوراة.

وقد أوردت التوراة بعضاً من النصوص التي تشير إلى علاقة سليمان كملك بربه.

تقول التوراة: (وأحب سليمان الرب سائراً في فرائض داود أبيه) ملوك أول 3: 3.

وتقول: (في جبعون تراءى الرب لسليمان في حلم ليلا وقال الله اسأل ماذا أعطيك فقال سليمان إنك قد فعلت مع عبدك داود أبي رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبر واستقامة قلب معك) ملوك 3: 5 ـ 6.

(فأعط عبدك قلبا فهيما لأحكم على شعبك) ملوك 3: 9 (وأميز بين الخير والشر) .

وتقول التوراة: (ولما سمع جميع إسرائيل بالحكم الذي حكم به الملك خافوا الملك لأنهم رأوا حكمة الله فيه لإجراء الحكم) ملوك أول 3: 28.

وتقول التوراة: (وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر وكان أحكم من جميع الناس) ملوك أول 3: 28.

وتقول: (وكان صيته في جميع الأمم حواليه. وتكلم بثلاثة آلاف مثل وكانت نشائده ألفا وخمسا) 33. وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته) ملوك أول 4: 34.

إذا فقد تبين لنا أن سليمان رأى الله في منامه. بمعنى أنه أوحي إليه. ومنحه الله الملك ووسعه. وأعطاه منه ما لم يعط غيره وكان حسب قول التوراة أحكم الحكماء. ومع هذا كله فإن التوراة لا تقول بنبوته إطلاقا ولا تأتي على ذكر دعوته التوحيدية وهذا ما يتناقض مع الحقيقة التي أوردتها آيات القرآن الكريم وفصلت في ذكرها.

لقد أوردنا ماذا قال القرآن الكريم بشأن الأنبياء الذين ورد ذكرهم في التوراة وكذلك في القرآن الكريم وتبين لنا أن ما أتت به آيات القرآن الكريم عن نبوة الأنبياء لم تأت به التوراة باستثناء النبي موسى عليه السلام. إذ هو النبي الوحيد المعترف عليه من بين أنبياء العهد القديم أي الأنبياء الذين بدأهم النبي إبراهيم وانتهوا عند النبي سليمان.

وتجدر الإشارة إلى أن التوراة جاءت على ذكر كثير من الأنبياء وسمتهم ولكن هؤلاء الأنبياء كانوا خاصين لبني إسرائيل يخدمون الرب عن طريق تمسكهم بشريعة النبي موسى عليه السلام.

من هؤلاء صموئيل. حزقيال. دانيال. وإرميا. وهؤلاء لهم أسفار في التوراة. وهناك ذكر لأنبياء جاء الحديث عنهم عرضاَ مثل النبية مريم أخت موسى وهارون. ودبورة والنبي ناثان الذي كان مع النبي داود عليه السلام. وإيليا التشبي "إلياس". وأليشع. ونحميا. وأيوب. وأشعياء. ويوئيل. وعاموس. وعوبديا. ويونان بن أمتاي. وميخا. وناحوم. وحبقوق. وصفنيا ، وحجي. وزكريا وملاخي.

ويرى الكثيرون من المفسرين وبعض المهتمين بالدراسات التوراتية أن إيليا هو النبي إلياس. وأن أيوب هو نفسه الوارد ذكره في القرآن الكريم. وأن يونان هو يونس عليه السلام. ولكن زكريا ليس زكريا النبي الذي ورد ذكره في قصة مريم. وبعضهم يرى أن كاهن مدين يثرون هو شعيب عليه السلام باعتباره والد زوجه موسى عليه السلام. وكما قلنا ينفرد القرآن الكريم بذكر صالح وهود وشعيب وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام:

1 ـ هل النبي شعيب هو نفسه يثرون كاهن مدين؟ ما معالم نبوته في التوراة؟ وما معالم نبوته في القرآن الكريم؟

2 ـ هل النبي إيليا هو النبي إلياس؟

3 ـ هل النبي أيوب هو نفسه النبي أيوب الذي ورد ذكره في القرآن الكريم؟

4 ـ هل النبي يونان بن أمتاي هو النبي يونس؟

جاء في التوراة أن النبي موسى عليه السلام عندما هرب من مصر بعد قتله المصري توجه نحو مدين ووجد فتيات يستسقين لغنمهن فساعدهن، وظهرت أخلاقه الحميدة أمامهن وعندما عدن تحدثن إلى أبيهن. فبعث واحدة منهن لتجلب موسى إليه. وقد ذهب موسى إلى ذلك الرجل الذي أطلقت عليه التوراة اسم يثرون ووصفته بأنه كاهن مدين. ثم تزوج موسى من ابنته التي تدعى صفوره. ثم يعود موسى إلى فرعون ليخرج بني إسرائيل من مصر. وعندما يعود إلى الصحراء مع قومه يتذكر حميه يثرون فيزوره ويروي له ما فعل الله بفرعون وجنوده. فحمده يثرون ثم أشار عليه أن يقضي لبني إسرائيل ولم تزد التوراة عن ذلك شيئاً.

والواقع أن قصة زواج موسى من بنت يثرون تشبه تماماً القصة التي وردت في القرآن الكريم. فمن المحتمل أن يكون هو شعيب عليه السلام باعتبار

أن حدث الزواج ووجود اسم مدين هو نفسه في نص التوراة ونص القرآن الكريم. ومع ذلك لم تبرز أية معالم للنبوة عند يثرون سوى مدحه لإله موسى الذي نجاه من الظالمين.

بينما نجد في القرآن الكريم معالم النبوة لدى شعيب عليـه السـلام. فـهو نبي مرسل، ودعا قومـه إلى عقيـدة التوحيـد فرفضـوا فصعقـهم الله جـزاء علـى رفضهم دعوة نبيهم.

يقول تعالى: (كذب أصحـاب الأيكـة المرسـلين. إذ قـال لهـم شـعيب ألا تتقون إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون) الشعراء 176 ـ 179.

فهذه الآية تشير بوضوح إلى أن شعيب كان نبياً مرسلاً.

وعقيدته واضحة من خـلال الآيـات الكريمـة فـهو يدعـو إلى الله الواحـد وعبادته.

يقول تعالى: (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود) هود 90

ثم نهاهم عن فعل السـوء الـذي تجلـى في قولـه تعـالى: (ويـا قـوم أوفـوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين) هود 85 .

وقد أشار القرآن الكريم في عدة مواضع إلى أن النبي شعيباً بعث لقومه من أهل مدين بقوله تعالى: (وإلى مدين أخاهم شعيباً. قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم. فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خـير لكـم إن كنتـم مؤمنـين) الأعراف 85 ويروي المفسرون أن قومه كانوا يعبدون الأيكة وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها. وكـانوا يقطعـون السـبيل ويخيفـون المـارة. ومـن أسـوأ

الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما. ويأخذون بالزائد. ويدفعون بالناقص فبعث الله فيهم رجلاً هو رسول الله شعيب عليه السلام[1].

ثم حاول قومه أن يطردوه إذا لم يعد إلى ملتهم وضلالهم. ولكن النبي شعيب رفض كفرهم فعاقبهم الله بعد ذلك (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) الأعراف 91

و هذا الذي نراه في القرآن الكريم لا نراه مطلقاً في التوراة.

أما النبي إلياس كما ورد اسمه بهذا اللفظ في القرآن الكريم فقد ورد اسمه في التوراة باسم إيليا. وقد ورد في القرآن الكريم صراحة أنه من المرسلين قال تعالى: (وإن إلياس لمن المرسلين) الصافات123 وقد بعث إلى قومه الذين هم قسم من بني إسرائيل يدعونهم إلى عبادة الله الواحد وإلى ترك عبادة البعل.

تقول بقية الآيات: (إذ قال لقومه ألا تتقون. أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين. الله ربكم ورب آبائكم الأولين. فكذبوه فإنهم لمحضرون. إلا عباد الله المخلصين. وتركنا عليه في الآخرين سلام على إلياسين. إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين) الصافات 124 ـ 132

وتورد التوراة حديثاً موسعاً عن إيليا وصراعه مع عبدة البعل. وتقول إنه وجد في زمن الملك الإسرائيلي الوثني آخاب بن عمري الذي تزوج من إيزابيل بنت ملك صيدا وتورد التوراة أن ملاك الرب التقى أيليا عدة مرات ونصره ضد عبدة البعل. وأمره بالهروب من وجه آخاب الوثني فهرب وكان الرب معه. وقد ورد أنه أشفى ابن امرأة بعون الله. تقول التوراة (وقال أيليا انظري ابنك حي. فقالت المرأة لإيليا هذا الوقت علمت أنك رجل الله وأن كلام الرب في فمك حق) ملوك أول 17: 24

(1) ابن كثير. قصص الأنبياء ص 186.

وظل الصراع قائماً بين إيليا وعبدة البعل حتى انتصر عليهم وأزال عبادة الأصنام. أما أيوب عليه السلام فقد أوردت آيات القرآن الكريم أجزاء صغيرة من قصته. وهو نبي بصريح العبارة في القرآن الكريم.

يقول تعالى: (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب) النساء 163 وركزت الآيات على ابتلاء أيوب وصبره وحبه لله تعالى.

يقول تعالى: (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه إني مسني الشيطان بنصب وعذاب) سورة ص 41

يقول تعالى: (رب إني مسّني الضر وأنت أرحم الرحمين) الأنبياء 83

وقد رافقت نبوة أيوب معجزة الماء البارد الذي اغتسل منه فشفي من جميع مرضه يقول تعالى: (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب) ص 42 أما التوراة فقد أفردت للنبي أيوب سفراً خاصاً أما معالم نبوته في التوراة فإنها لا تظهر إلا في بعض الأمور الجزئية.

تقول التوراة: (كان رجل في أرض عوص اسمه أيوب. وكان هذا الرجل كاملاً ومستقيماً يتقي الله ويحيد عن الشر) أيوب 1:1

و تقول التوراة: (فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدي أيوب) أيوب 1: 8

و تقول: (وقال عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود إلى هناك. الرب أعطى والرب اخذ فليكن اسمه الرب مباركاً. في كل هذا لم يخطئ أيوب ولم ينسب لله جهالة) أيوب 21/1 ـ 22

و تقول: (أالخير نقبل من عند الله والشر لا نقبل. في كل هذا لم يخطئ أيوب بشفتيه) أيوب 2: 10

وهذه الأقوال تدل بشكل واضح على إيمان أيوب بالله إيماناً كاملاً. فهو كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر. ثم وصفه الله بأنه عبده. وهو مؤمن بخلق الله له وموته وبعثه ثم هو يقبل الابتلاء والخير من الله.

و بدءا من الإصحاح الثالث تنسب التوراة لأيوب أقوالاً هي أقرب إلى التجديف على الله والكفر به

أما في الإصحاح الأخير وهو الثاني والأربعون فتورد التوراة أن الله رد لأيوب عافيته ووهب له ضعف ما كان له من الأولاد والأموال تقول التوراة: (وبارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاده...)أيوب: 42: 12

(وعاش أيوب بعد هذا مئة وأربعين سنة ورأى بنيه وبني بنيه إلى أربعة أجيال ثم مات أيوب شيخاً وشبعان الأيام) أيوب 42: 16.

وإذا أخذنا أقوال التوراة الأولى عن أيوب على سبيل المجاز لا توضح لنا أنه نبي من الأنبياء وخاصة قولها كان كاملاً مستقيماً يتقي الله ويحيد عن الشر. لكن المدهش أن في كلام التوراة تناقضاً فادحاً خاصة عندما تنسب له التجديف على الله.

أما النبي يونس عليه السلام فقد ورد في القرآن الكريم عنه وعن نبوته

يقول تعالى: (وإن يونس لمن المرسلين. إذ أبق إلى الفلك المشحون. فساهم فكان من المدحضين. فالتقمه الحوت وهو مليم. فلولا أنه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون. فنبذناه بالعراء وهو سقيم. وأنبتنا عليه شجرة من يقطين. وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون. فآمنوا فمتعناهم إلى حين) الصافات 139 ـ 148.

من خلال هذه الآية الكريمة يتضح لنا أن: يونس

أ ـ كان نبياً من المرسلين

ب ـ و كان يسبح الله رغم ابتلائه العظيم

جـ ـ و قد أرسل إلى قوم يدعوهم إلى ديانة التوحيد

أما في التوراة فتورد أن يونان بن أمتاي قد تنبأ في أيام برعام الثاني ملك السامرة وتنبأ برد حدود السامرة. وكان موضوع نبوءته إنقاذ لبني إسرائيل من ظلم الآراميين السوريين.

وتورد التوراة قصة الحوت الذي ابتلع يونان. وفي سفر يونان رموز إلى أمور مستقبلية كقيامة المسيح وتبشير الأمم

ويقول السفر: (أن الله أمر يونان بالذهاب إلى نينوى عاصمة الآشوريين ليعلن خرابها وحاول التخلص من هذا الواجب. فعاقبه الله بأن ركب في سفينة وقعت في عاصفة قوية فألقاه أهل السفينة في البحر بعد إجراء القرعة. فابتلعه حوت عظيم وبعد ثلاثة أيام قذفه الحوت إلى البر. وبعدها صلى يونان إلى الله شكراً. وأطاع أمر ربه فذهب إلى نينوى فأصغى له سكانها وآمنوا وتابوا وصفح الله عنهم)[1]

ويعلق مؤلف الكلام في قاموس الكتاب المقدس بقوله: (وليس في سفر آخر في العهد القديم ما يظهر محبة الله بطريقة اعجب من المحبة التي يظهرها هذا السفر. إنه يحمل رسالة دينية لجميع العصور. إنه احتجاج على العصبية والعنصرية اليهودية الضيقة ومقتها للشعوب الأخرى مقتاً بشعاً ظهر بنوع خاص بعد عصر السبي. إن الله في نظر مؤلف هذا السفر يهتم بجميع الناس ويغفر

(1) قاموس الكتاب المقدس صفحة 1128.

لجميع التائبين إليه سواء كانوا أمماً أو يهوداً)[1].

ولعل الاتفاق على شخصية النبي يونس ـ يونان بين التوراة وبين القرآن الكريم تقع في نبوته. وابتلاع الحوت له. وصبره وإيمانه الراسخ بالله. ثم إرساله إلى قوم يدعونهم إلى التوحيد فآمنوا به ولو إلى حين.

وقد قال أكثر المفسرين المسلمين بأن يونس هو نفسه يونان. ويلقب أحياناً بذي النون أي صاحب الحوت كونه اشتهر من خلال قصة ابتلاع الحوت له.

أنبياء في القرآن الكريم لا وجود لذكرهم صراحة في التوراة

ورد في القرآن الكريم ذكر أنبياء لم توردهم التوراة أو تُحَدِّث عنهم. ولعل السبب الأساسي في ذلك أن التوراة دونت تاريخ الأنبياء الذين ينسبون أنفسهم إليهم فلم يذكروا هوداً وصالحاً وقد ذكرهما القرآن الكريم وذكر نبوتهم.

وباعتبار أن التوراة دونت قبل ميلاد المسيح عليه السلام فإنها لم تأت على ذكر النبي زكريا والنبي يحيى والنبي عيسى على الرغم من أن الثلاثة من أنبياء بني إسرائيل وكذلك لم تأت على ذكر رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

وبسبب عدم ذكرهم في التوراة فإننا سنقتصر في الحديث عن معالم نبوتهم بشكل مختصر لنلقي الضوء على معالم النبوة لديهم جميعاً.

أما هود فهو نبي بصريح العبارة وذلك في قوله تعالى:

(كذبت عاد المرسلين. إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين) الشعراء 123ـ125. ودعا هود إلى عبادة الله الواحد الأحد وذلك في قوله تعالى: (فاتقوا الله وأطيعوه) الشعراء 126. (وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون) هود الآية 50 ويذكر القرآن

---

(1) قاموس الكتاب المقدس صفحة 1128.

الكريم أن الله عاقب قوم هود ونجاه. يقول تعالى: (فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) الشعراء 139 ويقول تعالى: (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً في يوم نحس مستمر) القمر 19. أما النبي صالح عليه السلام فقد بعث لقوم ثمود يقول تعالى: (كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) سورة الشمس 11ـ13. يقول تعالى: (وإلى ثمود أخاهم صالحا) الأعراف 73. ويقول تعالى: (كذبت ثمود المرسلين. إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون) الشعراء 141ـ142. ودعا صالح إلى عبادة الله الواحد. يقول تعالى: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) الأعراف 73. ويقول تعالى: (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالح أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون) النحل 45. وقد دعم الله نبوته بمعجزة الناقة: يقول تعالى: (قال هذه ناقة لها شرب يوم معلوم)الشعراء 155 ويقول تعالى: (إنّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر) القمر 31. ويقول تعالى: (وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) الشعراء 53.

ويرتبط النبي زكريا والنبي يحيى برباط واضح في آيات القرآن الكريم. فيحيى هو ابن زكريا ويستدل من آيات القرآن الكريم أنهما وجدا في الفترة نفسها التي وجد فيها السيد المسيح عليه السلام. ومن خلال آيات القرآن يستدل أن زكريا أوحي إليه من لدن رب العالمين وذلك في قوله تعالى: (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) مريم الآية 7.

ويصفه القرآن الكريم بأنه عبد الله. في قوله: (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) مريم 2 وقد منحه الله ابنه يحيى وهو رجل عجوز وامرأته عاقر. وكان يصلي في المحراب تعبداً لله الواحد الأحد.

أما يحيى فيأتي القرآن الكريم على ذكره بانه نبي مرسل وذلك بقوله تعالى: (يا زكريا إنا نبشرك بغلام إسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) وهذا مفسر بقوله تعالى: (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبيا من الصالحين) آل عمران 39

فيحيى نبي بصريح عبارة القرآن الكريم ثم هو مكلف بتطبيق الكتاب (التوراة) بقوة يقول تعالى: (يا يحيي خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) مريم 12 وكان يحيى براً والديه وكان تقياً.

وقوله يرثني ويرث من آل يعقوب: يعني يرثني بالنبوة والحكم في بني إسرائيل.

وقوله من آل يعقوب: أي كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي. وتروي روايات المفسرين المسلمين أن مهمة زكريا ويحيى كانت عبادة الله الواحد ونشر الدعوة لبني إسرائيل الذين خرجوا عن ديانة التوحيد وحاربوها.

وقيل: إن بني إسرائيل قد قتلوا زكريا ويحيى، لأنهما حاولا إصلاح العقيدة اليهودية بعد أن أفسدوها. ودنسوا معبد الرب في القدس. وقيل: إن اليهود تعاونوا مع الرومان الوثنيين على قتل زكريا ويحيى. وترى الأناجيل أن يحيى هو الذي عمّد المسيح في نهر الشريعة. وهو الذي مسحه بالزيت المقدس على اعتبار أنه نبي قادم لبني إسرائيل. وبعض المفسرين اعتبروا نبوة زكريا ويحيى تمهيدا لنبوة المسيح عليه السلام.

أما عيسى عليه السلام فقد تحدث عنه وعن نبوته القرآن الكريم بشكل مسهب ومفصل وذلك باعتباره ينتمي إلى بني إسرائيل، ولأن الله سبحانه أنزل عليه كتاباً هو الإنجيل. وبسبب دعوته العالمية.

ومعالم نبوة المسيح عليه السلام جاءت متكاملة في القرآن الكريم. وإذا نظرنا إلى أخباره في الإنجيل وجدنا أن نبوته أيضاً واضحة على الرغم من المحاولات التي أرادت أن تضفي عليه صفة الألوهية. وقد تناول سيرته التلمود بالذم والبهتان والشتم واعتباره مارقا خارجا عن ديانة بني إسرائيل.

ويصرح القرآن الكريم بنبوة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وذلك في عدة مواضع. يقول تعالى: (قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا)

مريم31. ويقول تعالى: (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. ورسولا إلى بني إسرائيل إني جئتكم بآية من ربكم إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله) آل عمران 7ـ8. فهو نبي رسول بصريح العبارة في القرآن الكريم وقد بُعث إلى بني إسرائيل. ثم يصرح القرآن الكريم بأن الله سبحانه يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل فهو صاحب رسالة والكتاب الذي أنزل عليه هو الإنجيل.

ثم إن في خلقه من دون أب معجزة لم تحدث إلا مع آدم عليه السلام. وقد صُرح بذلك في القرآن الكريم: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) آل عمران 59.

وكرم الله عيسى عليه السلام بأن وصفه بكلمته ألقاها إلى مريم وهو روح منه. ووصفه بالعبد لله وكذا دأب الأنبياء فأفضل صفة لهم بأنهم عباد الله.

ثم كرمه الله سبحانه بأنه رفعه إليه. ولم يستطع اليهود صلبه، وأنزل الله له ولأتباعه مائدة من السماء، وقد باركه الله وأمره بالصلاة والزكاة ما دام حيا. وكان برا بوالدته ولم يجعله جبارا عصيا أو شقيا. وقد منحه الله سبحانه بعض المعجزات كإحياء الموتى وشفاء المرضى وقد أوحي إليه من قبل الله سبحانه بواسطة جبريل عليه السلام وهذه المعالم جميعها كانت رداً على من شكّك بنبوته أولا وعلى من ادعى ألوهيته ثانيا.

وقد بشر المسيح عليه السلام بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ونجد ذلك صريحاً في القرآن الكريم. يقول تعالى: (يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) الصف 6.

أنبياء في التوراة لم يرد ذكرهم في القرآن الكريم

للتوراة أنبياء كما سمّتهم. وهؤلاء الأنبياء لم يرد ذكرهم في القرآن الكريم. إلا أن نبوءاتهم، وما أوردته التوراة عن صلتهم بالله وبملاك الله، يوضح أن لهم

منزلةً معينة عند بني إسرائيل، امتازوا بها من خلال عملهم اللاهوتي وإرشاداتهم وغضبهم على بني إسرائيل لعبادتهم آلهة الشعوب والابتعاد عن عبادة رب إسرائيل.

وتستخدم التوراة للنبي عادة التسمية العبرية (نابي) جمعها نابيم وهذه الكلمة يمكن ترجمتها بأشكال مختلفة منها (المنبئ) أو الذي ناداه الله. وقد ظهرت هذه التسمية متأخرة بعد تسرّبهم إلى فلسطين. وقد رأينا أن التوراة تجاهلت نبوة إبراهيم وأبنائه وأحفاده، واقتصرت على الاعتراف بنبوة موسى فحسب. وتطلق التوراة أحياناً على النبي الرائي. وقد ورد ذلك في سفر صموئيل الأول الإصحاح 9 الفقرة 9 وفي سفر القضاة وجد أنبياء رجال ونبيات من النساء مثل دبورة. وكان بنو إسرائيل يذهبون إليها للقضاء.

أما أنبياء التوراة فهم كثيرون، أول من ظهر منهم النبي صموئيل. ثم النبي عاموس. ثم النبي هوشع. ثم النبي إشعيا. والنبي ميخا. والنبي صفنيا والنبي ناحوم. والنبي إرميا والنبي حبقوق. ثم النبي حزقيال. إشعيا الثاني. ثم إشعيا الثالث. ثم النبي حجي ثم النبي زكريا. ثم النبي زكريا الثاني. ثم عوبديا. ويونان. وملاخي، ثم نحميا وعزرا. ثم دانيال. أما النبي صموئيل فقد أشارت له آيات القرآن الكريم دون التصريح باسمه. وارتبطت قصته باختيار ملك لبني إسرائيل يقودهم في الجهاد.

يقول تعالى: (ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا. فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين). البقرة 246.. وفي الآيتين 247 ـ 248 تتمة للحديث عن هذا النبي الذي أنبأهم أن الله اختار طالوت ملكا عليهم وبين أن آية ملكه أن يأتيهم التابوت الذي فيه بقية من التوراة.

وقد وافقت قصته في القرآن ما جاء في التوراة. لكن التـوراة أوردت اسمه بينما القرآن الكريم لم يورد اسمه. وقد قال أكثر المفسرين المسلمين القدامى إن هذا النبي هو صموئيل أو شموئيل ومعناه سمع الله. وأهم علامات نبوة صموئيل حسب نصوص التوراة أن أمه وهبته لمعبد الإله. وقد تفرغ لعبادة الإله وخدمة معبده.

تقول التوراة (وكبر صموئيل وكان يـهوه معه ولم يدع شيئاً من كلامه يسقط على الأرض وعرف جميع إسرائيل من دان إلى بئر السبع أنه قد أؤتمن صموئيل نبيا) صم 3 ـ 19 ـ 20.

ثم قضى لبني إسرائيل طوال حياته. وأشارت التوراة كثيراً إلى أن الرب كان يكلم صموئيل. أما النبي عاموس فإن التوراة تشير إلى نبوءات له وذلك أيام الملك الإسرائيلي يربعام.

تقول التوراة (لست أنا نبيا ولا أنا ابن نـبي بل أنا راع وجاني جميز فأخذني يهوه من وراء الضأن وقال لي يهوه اذهب تنبأ لشعبي إسرائيل) عاموس 7: 14 ـ 15 وقد حذر عاموس بني إسرائيل لكثرة خطاياهم فتنبأ بأن الله سيحل عقابه بهم عن قريب وقد تنبأ بموت يربعام بالسيف وسبي بني إسرائيل.

فيرى أيضاً (لقد أتت النهاية على شعبي إسرائيل لا أعود أصفح له بعد) عاموس 2: 8.

والإله عند عاموس هو إله على كل الكون خالق ومدبر العالم. فهو الذي خلق النجوم في السماء والجبال على الأرض والذي يخلق الليل والنهار ويصنع الرياح وعنه تصدر الزلازل حين تطمو الأرض مثل ماء النـهر) عاموس 4: 13 ـ 5، 908: 5.

ويتضح من خلال بعض الفقرات في سفر عاموس أن هذا النبي كان يحذر بني إسرائيل من يوم الآخرة حيث الحساب والعقاب. فـهو يشير إلى أن الإله سوف يدق الخاطئين بالسيف شخصيا ولن يـهرب منه أو ينجو أحد. ويرى

عاموس أن الطبيعة ستقاسي صدمة رهيبة، ستغيب الشمس ظهراً ويغطي الظلام الأرض التي ستبدأ بالارتجاج وهو يعبر عن يوم القيامة بتسمية يوم يهوه أو ذلك اليوم للدلالة على يوم الحساب والعقاب.

أما النبي هوشع فتشير التوراة إلى نبوته بقولها (قول يهوه الذي صار إلى هوشع بين بئيري في أيام عزيا ويوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهودا وأيام يربعام بن يوآش ملك إسرائيل، وقد عكست نبوءاته الأحداث العاصفة التي جرت في مملكة إسرائيل وقد تنبأ بيوم الله الذي يعاقب فيه بني إسرائيل لأنهم خانوا إلههم. ويعنّف هوشع بني إسرائيل، ويقرعهم، لأنهم ذهبوا وراء الأصنام، وعبدوا العجلين، ويرى أن انحرافهم سقوط أخلاقي للشعب. ويتنبأ هوشع بسقوط إسرائيل بيد الآشوريين، والإله عند هوشع هو إله قبلي متطور. إذ أنه بنظر هوشع يعاقب من يخالف من بني إسرائيل.

ويقول: (من هو حكيم حتى يفهم هذه الأمور وفهيم حتى يعرفها فإن طرق الرب مستقيمة والأبرار يسلكون فيها وأما المنافقون فيعثرون فيها)ملوك 142: 9ـ10.

أما النبي إشعيا فهو من أكثر الأنبياء الإسرائيليين شعبية ويتنبأ هذا النبي بسقوط بابل لأن ملكها كان ظالما على حد قوله وتقول التوراة إنه بدأ يتنبأ في سنة وفاة الملك عزيا وأشعيا نفسه يروي ذلك.

تقول التوراة: (رأيت يهوه جالساً على كرسي عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل... عندها أصيب إشعيا بالهلع فقال: ويل لي إني هلكت لأنني إنسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين لأن عيني قد رأتا يهوه رب الجنود) ملوك 62: 9 ـ 12.

وبقية الأنبياء ميخا وصفنيا وناحوم وحبقوق وأشعيا الثاني وأشعيا الثالث والنبي حجي وزكريا وعوبديا ويوئيل وملاخي ونحميا وعزرا تنبؤوا بأمور سيئة ستحدث لبني إسرائيل لأنهم خرجوا عن تعاليم الرب وانحازوا إلى عبادة

الأصنام. وكان صراع مستمر قد حدث بينهم كأنبياء وبين الملوك الذيـن تسـلطوا على يهودا وإسرائيل.

وقد اقتصرت نبوءاتهم على هذا الجانب، فكانوا إصلاحيـين يريـدون أن يعود اليهود إلى عبادة الرب الواحد والابتعاد عن عبادة الأوثان والأصنام.

ويبرز لنا ثلاثة أنبياء كبار لـدى بـني إسـرائيل كـان لهـم دور في تطويـر مفهوم الألوهية وقد تنبأ الواحد منهم بأمور كثيرة. وقد وصفتـهم التـوراة بأنـهم كانوا مع الله وقد تراءى لهم جميعاً ملاك الـرب. وعـانوا الويـلات مـن عـذاب وسجن من قبل ملوك اليهود وهؤلاء الأنبياء هم إرميا. وحزقيال. ودانيال.

أما إرميا، فيروي هو نفسه كيف أصبح نبأ فقد كانت إليه كلمة يـهوه في أيام يوشيا ابن آمون ملك يهوذا. ويعرض إرميا مضمون كلمة يهوه بقوله (قبلمـا صورتـك في البطـن عرفتـك وقبلمـا خرجـت مـن الرحـم قدسـتك. جعلتـك نبيـاً لشعوب. فقلت آه يا سيد الرب إني لا أعرف أن أتكلم لأني ولد. فقـال: يـهوه لي لا تقل: إني ولد لأنك إلى كل من أرسلك إليه تذهب وتتكلم بكـل مـا أمـرك به) إرميا 1: 5 ـ 8.

وقد انتقد إرميا اليـهود انتقـاداً عنيفـاً لأنـهم انحـازوا عـن طريـق الـرب واعتبرهم زناة مع الآلهة الغريبة. ويهاجم إرميا أخلاقهم وظلمـهم الاجتمـاعي. ولم ينج من لسانه بعض الذين ادعـو النبـوة. فـانتقد جمعـهم للمـال وممالأتـهم للملـوك وخيانتـهم لتعـاليم الشـريعة وقـد نقـل إرميـا بعـض الأمـور في العقيـدة اليهودية إلى تطور جديد حينما يصف الله بأنه كلي الجـبروت وحكيـم وعـادل ومنصـف. يعـاقب علـى الشـر ويكـافئ علـى الخـير. وقـد تنبـأ إرميـا بسـقوط الإسرائيليين في يد البابليين باستمرار. حتى أن الملك الإسـرائيلي يـهوياقيم قـد سجنه في بئر. وعذبه وأراد قتله. إلا أن مجيء البابليين إلى فلسطين خلصه مـن الموت. أما حزقيال فقد تنبأ أيام السبي وكـان مـن بـين المسـبيين. وقـد أوردت التوراة في سفر حزقيال. أول لقـاء بـين حزقيـال وبـين الـرب أو مـلاك الـرب.

وعندما رأى حزقيال ربه، خر ساجداً على وجهه، لكنّ الإله أمره بالنهوض وقال له (يا ابن آدم قم على قدميك أنا مرسلك إلى بني إسرائيل إلى أمة متمردة قد تمردت علي. هم وآباؤهم عصوا علي إلى ذات هذا اليوم. وهم إن سمعوا وإن امتنعوا لأنهم بيت متمرد فإنهم يعلمون إن كان نبيا بينهم) حزقيال 2: 1 ـ 5 وقد أوحى الإله له مرات عدة وهو على ضفاف الفرات وقد عنف حزقيال سلوك بني إسرائيل. خاصة انحرافهم إلى العبادات الوثنية وتركهم إلههم. ويشخص أورشليم والسامرة كزانيتين تخونان على الدوام زوجهما (يهوه) مع عشاق آشوريين ومصريين. ويرمز حزقيال بذلك إلى خيانة الإسرائيليين لعقائدهم.

أما دانيال فتقول التوراة: إنه حكيم ونبي عاش في القرن السادس قبل الميلاد في بابل وقد حافظ على ديانة التوحيد رغم أنه شغل مناصب عدة في بلاط ملوك وثنيين وقد تنبأ دانيال بسقوط بابل وانتقالها إلى يد الفرس وتحطيم الدولة الفارسية من قبل الإسكندر المقدوني وتفكك المملكة بعد موته. والحروب التي جرت بين الذين شقوا دولته.

وقد تنبأ دانيال بمجيء المسيح المخلص. وكذلك بالقيامة والحساب والعقاب تقول التوراة (كثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية. وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي) دانيال 12: 2 وفكرة قيامة الموتى تعتبر تطورا هائلاً في العقيدة اليهودية. إذ أن التوراتيين يبتعدون كثيراً عن تصور يوم البعث.

ومن خلال قراءتنا لأسفار التوراة التي تتحدث عن أنبياء بني إسرائيل نرى أنهم جميعاً حاولوا جاهدين إرجاع بني إسرائيل إلى عقيدة التوحيد ولم يفلحوا إلا في فترات زمنية قليلة. والواقع أنهم بعد نزول توراة النبي موسى عليه السلام لم ينزل عليهم كتاب آخر. وقد كانت سمة التنبؤ لديهم تكمن فقط في قولهم: إن الرب تراءى لهم وأمرهم بتصحيح اعوجاج قومهم.

منهج الدعوة عند الأنبياء في التوراة والقرآن

من خلال قراءتنا المتواصلة للقرآن الكريم، ومن خلال ما توصل الباحثون والعلماء والدارسون نستطيع أن نتعرف على منهج الدعوة عند الأنبياء جميعاً. والقرآن الكريم الذي تناول سيرة الأنبياء، يوضح لنا أن دعوة الأنبياء واحدة في كل الأزمان والعصور.

وعلى الرغم من اختلاف الازمنة بين الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم، إلا أنهم جميعاً تلقوا تعاليم واحدة، مصدرها الوحي الذي يأمره الله أن يبلغ هؤلاء الأنبياء مهماتهم لدى شعوبهم أو لدى الأمم جميعا.

ويمكننا أن نتعرف على منهج الدعوة لدى الأنبياء من خلال محطات واضحة.

1 ـ الدعوة إلى عقيدة التوحيد.
2 ـ التعريف بالله من خلال مظاهر الخلق الكونية والبشرية.
3 ـ الاعتبار بالأمم السابقة وكيف كانت عاقبتها.
4 ـ الترغيب والترهيب بالأمور الدنيوية والأمور الأخروية كالحساب والموت والبعث والجنة والنار.
5 ـ الدعوة إلى الأخلاق الحميدة والابتعاد عن الأخلاق السيئة.

ونستطع أن نتعرف على الأسلوب النبوي في نشر الدعوة من خلال:

1 ـ روحانية الدعوة وواقعيتها.
2 ـ الإخلاص في الدعوة والاتكال على الله.
3 ـ وضوح الرؤية وبساطة لغة التخاطب.
4 ـ صدق القول واستقامة العمل.
5 ـ الأمانة وإبعاد الكذب في القول والعمل.
6 ـ تبيان إن الأجر على الله ولا وطمع بمال أو بجاه أو بسلطان.

فنوح وهو أول الأنبياء الذين بعثوا إلى أقوامهم، دعا قومه إلى عبادة الله الواحد كأول أمر من أمور الدعوة.

يقول تعالى: (أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) هود 26.

ويقول تعالى: (ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلاّ على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون) هود 29.

ويقول تعالى: (ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين) هو 31.

ويقول تعالى: (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) هود 32.

ويقول تعالى: (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل الماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) نوح 10 ـ 12.

ويقول تعالى: (ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا. وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً) نوح 15 ـ 18.

فمن خلال هذه الآيات الكريمة نرى أن نوح:

1 ـ دعا قومه إلى عبادة الله الواحد.
2 ـ بيّن لهم أنه لايملك خزائن الأرض ولا يعلم الغيب.
3 ـ جادلهم طويلاً بالتي هي أحسن حتى ضجّوا من مجادلته لهم.
4 ـ واستخدم أسلوب الترغيب الدنيوي والأخروي.
5 ـ ودعاهم إلى التفكير في الكون وخلق الله وفي أنفسهم.

6 ـ بين لهم أنه لا يريد أجرا ولا مالا ولا سلطانا فأجره على الله.

7 ـ بين لهم أن الذين آمنوا به وإن كانوا فقراء مستضعفين فهم خير من بني قومهم الذين لم يؤمنوا بالله وبرسالة نوح.

لقد كان نوح عليه السلام مدركا ماهية الدعوة فهي تنطلق من روحانية ترتبط بالإيمان بالله ومن واقعية ترتبط بالحياة الدنيا ومعيشتها ونستطيع أن نستشف صدق دعوة نوح عندما بين لهم أنه لا يريد أجرا على دعوته. وأنه في الوقت نفسه لا يملك المال والذهب حتى يُغرقهم بهما. فهو واقعي وروحاني في الوقت نفسه. ثم توضح الآيات الكريمة مدى إخلاص نوح في دعوته فهو لا يكل عن مجادلتهم كي يقتنعوا لقد كانت رؤية التوحيد واضحة لدى نوح، وهو متكل على الله ولغته بسيطة ليس فيها غموض. ثم إن قوله صادق ولو كان فيه كذب لتوضحت مصلحة هدايتهم نفسها. وبعد هذا الوضوح الذي نراه في منهج الدعوة عند النبي نوح عليه السلام نتساءل هل كان لنوح منهج دعوة في التوراة؟.

في سفر التكوين الإصحاح السادس والسابع والثامن والتاسع لا تذكر التوراة أي دعوة توحيدية لنوح، ولا تذكر قومه، ولا جداله معهم. وتنفرد التوراة بذكر ميثاق كتبه الله بينه وبين نوح وبنيه فحسب. فلا خصائص للنبوة. ولا منهج لدعوته. ولا وجود لقوم يجادلهم ويدعوهم إلى ديانة التوحيد وإذا دققنا النظر في سلوك نوح كما أوردته التوراة لوجدنا أنه يرتبط بسلوك إنسان شاذ. فهو كما تقول التوراة قد تعرى داخل خبائه وشرب الخمر حتى ثمل. ثم لما استيقظ من سُكره أخذ يصب اللعنات على ابن ابنه حام كنعانَ. وكل ذلك التشويه والتلفيق لأَجل أن يتعلم اليهود سياسة القتل في أبناء كنعان الذين ستسبى أرضهم من قبل التوراتيين المنحرفين فيما بعد.

إن النبي نوح عليه السلام، نموذج حي لواقع جميع الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم وإذا نظرنا مليا في منهج الدعوة لدى الأنبياء نرى الواقع نفسه يتكرر مما يدل على أن الدعوة واحدة لديهم جميعاً، وكذلك الغاية والأسلوب.

فإبراهيم عليه السلام يدعو إلى عبادة الله الواحد وترك عبادة ما دونه وما سواه.

بقول تعالى: (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين) الأنبياء 51 ـ 56. فإبراهيم يدعو إلى عبادة الله الواحد، ثم يعرف بالله من خلال مظاهر الكون.

ويقول تعالى: (وحاجه قومه قال أتحاجونني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون) الأنعام 80.

فإبراهيم يجادل قومه ويحاججهم. والمحاجة أسلوب عقلي في الإقناع. وهو أيضاً ثابت العقيدة لا يخاف مما يعبدون لأنهم يعبدون ما لا يقدر على الدفاع عن نفسه. وإبراهيم في دعوته يتحاشى الاصطدام مع أبيه لأن من أخلاق النبي بل المسلم بشكل عام أن يكون باراً لوالديه وإن كانا في ضلال.

يقول تعالى: (قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا) مريم 47. وإبراهيم صادق القول ثابت العزيمة أمين على رسالته.

يقول تعالى: (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبهت الذي كفروالله لايهدي القوم الظالمين) البقرة 258. ويستدل من ذلك الحجة العقلية التي تمتع بها النبي إبراهيم والتي هي أحد الأسس في منهاج الدعوة لدى الأنبياء.

أين منهج الدعوة عند إبراهيم في التوراة؟

إبراهيم يلبي دعوة ربه في الهجرة من أور الكلدانيين إلى أرض كنعان والغاية أن يملك الله إبراهيمَ أرضا.

تقول التوراة: (فذهب إبرام كما قال له ربه وذهب معه لوط) تكوين 4: 12.

ويعز على إبراهيم أن يهلك الله جميع الناس في سدوم وعمورة.

تقول التوراة: (فتقدم إبراهيم وقال أفتهلك البار مع الأثيم عسى أن يكون خمسون بارا في المدينة أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارا الذين فيه. حاشى لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم حاشا لك) تكوين 18: 24 ـ 25.

وإبراهيم صاحب عهد لا ينقض عهده مع من عاهده وفي ذلك تقول التوراة (وحدث في ذلك الزمان أن أبيمالك وفيكول رئيس جيشه كلما إبراهيم قائلين الله معك في كل ما أنت صانع. فالآن احلف لي بالله ههنا أنك لا تغدر بي ولا بنسلي وذريتي كالمعروف الذي صنعته إليك تصنع إلي وإلى الأرض التي تغربت فيها. فقال إبراهيم أنا أحلف) تكوين 21: 24 وتقول التوراة (فقطعا كلاهما ميثاقا) تك 21: 27 وإبراهيم بسلوكه واستقامته عامله شعب الأرض التي تغرب فيها معاملة تليق به. فعندما ماتت روجته سارة أراد أن يدفنها فذهب إلى حبرون وطلب أن يشتري قطعة أرض فيها مغارة كي يدفن زوجته فيها. وبسبب من استقامته وصدقه حاول أهل الأرض أن يمنحوه الأرض هدية فرفض إلا أن يدفع ثمنها أربعمائة قطعة من الفضة.

تقول التوراة: فأجاب بنو حث إبراهيم قائلين له: (إسمعنا يا سيدي أنت رئيس من الله بيننا في أفضل قبورنا إدفن ميتك) تك 23: 5 ـ 6.

وهذا ما يمكن أن نجده في صفات الداعي، إن كان نبياً أم غير نبي وإذا قارنا بين ما جاء به القرآن الكريم، وما جاءت به التوراة لوجدنا الفرق شاسعا واسعاً ففي التوراة لا دعوة مباشرة من إبراهيم إلى عقيدة التوحيد. فهو لم يدعُ آباه وقومه إلى عبادة الله الواحد. ولم يستعمل الحجة العقلية في حجاجه مع الملك الذي ادعى الألوهية. ثم هو لم يظهر أي صلة بينه وبين أبيه الذي كان

على غير عقيدة التوحيد.

وطبيعة الاختلاف تكمن في الاختلاف الجوهري في الأحداث. فما أورده القرآن الكريم يختلف عما أوردته التوراة. وغاية القرآن الكريم ليس تبيان التاريخ وتفاصيله إنما تبيان الألوهية والأدلة عليها ثم تبيان مظاهر النبوة وغاياتها. بينما التوراة تهدف ـ خاصة في الحديث عن إبراهيم وسلالته ـ إلى صلة الوعد الإلهي المزعوم بهذه السلالة. فهي لا هم لها سوى التركيز على منح أرض كنعان لنسل بني إسرائيل. أما قضايا التوحيد والدعوة إلى عقيدة التوحيد فليس من شأنها ولا في غاياتها، وكذلك فإن معالم منهج التوحيد مفقود في التوراة لدى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ويوسف. وكما رأينا فإن التوراة لا تصف أيا منهم بالنبي. وقد اعتبرت التوراة أن موسى عليه السلام، هو النبي الذي لم يأت مثله في بني إسرائيل، ونفت صفة النبوة عمن سبقه من الأنبياء. وعلى هذا الاعتبار لابد لنا أن نتوقف عند منهج الدعوة لدى هذا النبي لنرى مدى تركيز الآيات القرآنية عليه ومدى ما حرفت التوراة في منهجه، على الرغم من أنه هو الذي نزلت عليه التوراة. وبيّن لبني إسرائيل التعاليم والتشريع اللذين يجب اتباعهما.

فقبل أن يبعث الله موسى نبياً تعرض لمشكلة أودت بحياة أحد المصريين. فلام نفسه كثيراً وقال (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين. قال ربي إني ظلمت نفسي فاغفر لي. فغفر له إنه الغفور الرحيم. قال ربي بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين) القصص 15 ـ 17. فتميز موسى أول ما تميز بأنه لوامٌ نفسَه واعتبر أن عمله من عمل الشيطان.

إن منهج الدعوة عند النبي موسى يتضح بشكل جلي عندما بعث إلى فرعون. فهو يدعوه أولا إلى عبادة الله الواحد قال فرعون وما رب العالمين. قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) الشعراء 23 ـ 24.

ثم إنه صبور في دعوته ينفذ أمر الله كما هو. لقد أمره الله أن يجادل

فرعون بالتي هي أحسن. فقال له. فقل له قولاً لينا. وهذا ما شاهدناه من حوار بين موسى وفرعون ثم أن النبي موسى يعرف حدود قدرته فيطلب من الله أن يكون أخوه هارون معه كي يساعده في دعوته. ولا يتخلى موسى في دعوته عن الاتكال على الله (وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) يونس 84.

وموسى ثابت العزيمة ثقته بربه كاملة لا تتزعزع. يقول تعالى (قال كلا إن معي ربي سيهدين) الشعراء 62.

وعندما رجع من ميقات ربه وجد قومه يعبدون العجل فكان موقفه حازما تجاههم فقرعهم وأنّبهم بل أخذ برأس أخيه هارون يجره ليحاسبه على ما جرى في قومه:

يقول تعالى: (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال يا بن أمَّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين) الأعراف 150.

ثم أن موسى راح يذكر قومه باستمرار بنعم الله عليهم. وهم ينحرفون ولا يقتنعون بعقيدته تمام الاقتناع.

ثم هو يستعين بالله في كل ظرف وموضع لأنه كنبي داع يعرف ويدرك بإيمانه أنه بدون الاستعانة بالله، لا يمكن أن ينتصر أو يحقق دعوته التوحيدية.

يقول تعالى: (قال: رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وين القوم الفاسقين) المائدة 25 ومن خلال دعوته يستشهد بما صنع الله في السماء والأرض (الذي جعل لكم الأرض مهادا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى).. طه 53.

ولعل أهم محطات منهج الدعوة عند النبي موسى عليه السلام ما ورد في

القرآن الكريم من أحداث مختصرة بينه وبين العبد الصالح.

فموسى عليه السلام على الرغم من نبوته وإنزال التوراة عليه أراد أن يتعلم من العبد الصالح فكان مثال التلميذ مع أستاذه فلم يتذمر أو يرفض متابعة المسير مع العبد الصالح على الرغم من أنه لم يكن يدرك معنى الأفعال وأبعادها التي نفذها العبد الصالح بأمر من الله سبحانه وتعالى: (قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً) الكهف 66.

ثم قال: قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً) الكهف 69.

ثم قال: قال (لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا) الكهف 73.

ثم قال: قال (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا) الكهف 76.

وإذا نظرنا في سفر الخروج وجدنا أن النبي موسى عليه السلام تمتع أيضاً بكافة المستلزمات التي من شأنها تبليغ الدعوة.

فهو الصابر دوما في دعوته خاصة في مجادلته لفرعون حتى قضى الله له بالخروج من أرض مصر وهو الصابر دوما على بني إسرائيل الذين تمردوا عليه وعلى عقيدته.

وهو الذي لم ينقطع عن لقاء قدرة ربه يتلقى التعاليم ويعود بها إلى بني إسرائيل يبلغها وينشرها بينهم.

ثم هو المستمع إلى نصائح حميه (يثرون) (والذي قد يكون النبي شعيب نفسه) فيأخذ عنه كيفية القضاء بين بني إسرائيل.

تقول التوراة: (فلما رأى حمو موسى كل ما هو صانع للشعب قال ما هذا الأمر الذي أنت صانع للشعب) خروج 18: 14.

وتقول التوراة: وسمع موسى لصوت حميه وفعل كل ما قال) خروج 18:

..24

ويحارب موسى كل العقائد الوثنية التي جبل عليها بنو إسرائيل فلا يكل ولا يمل من توضيح هذه الانحرافات وعقابها الإلهي.

تقول التوراة: فجاء موسى وحدّث الشعب بجميع أقوال الرب وجميع الأحكام) خروج 24: 3.

نظرة إجمالية في منهج الدعوة عند الأنبياء

لا يختلف منهج الدعوة بين نبي وآخر. فجميعهم مكلفون بتبليغ رسالة الله سبحانه. وقد اصطفاهم الله لمهمة التبليغ لأنهم أهل لها.

يقول تعالى عن النبي هود عليه السلام: وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون) هود 50.

(يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون) هود 51. (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزِدكم ثوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) هود 52.

(قال إني أشهد الله واشهدوا إني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون. إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) 54 ـ 56.

(فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا. إن ربي على كل شيء حفيظ) هود 57.

فهذه الآيات الكريمة ترشدنا إلى المنهج الذي طبقه النبي هود وهو ينحصر بـ:

الدعوة إلى التوحيد، وعدم طلب الأجر الدنيوي، والأجر على الله، طلب الاستغفار فبسببه ينزل الله الغيث، ويزيدهم قوة. وتبرؤه منهم ومن عبادتهم

وسلوكهم. والتوكل على الله والثقة به. والتذكير لهم بأنه بلغ رسالته، والإنـذار لهم بأن الله سيستخلف غيرهم إن ظلوا على كفرهم.

وفي نفس السورة يذكر القرآن الكريم ما كان مع النبي صالح وقومه. يقول تعالى: (وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره وهـو أنشـأكم مـن الأرض واسـتعمركم فيـها فاسـتغفروه وتوبـوا إليـه إن ربـي قريـب مجيب) هود 61.

وكذلك قص علينا القرآن الكريم ما كان مع شعيب عليه السلام وقومه.

(قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. ولا تنقصوا المكيـال والمـيزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيـط. ويـا قـوم أوفـوا المكيـال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسـدين. بقيـة الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ) هود 84 ـ 86.

ويقول تعالى: (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قـوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) هود 88 ـ 89.

ويقول تعالى: (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليـه إن ربـي رحيـم ودود) هـود 90.

فمنهج الدعوة يستند في أسسه الأولى على الدعوة إلى التوحيد وعبـادة الله الواحد والإيمان به، ثم إلى الإصلاح الاجتماعي والبعد عن الفساد والاتكال على الله، والعبرة من الأقوام السابقة التي كانت برهانا واضحاً علـى مـا جـرى لهـا بسبب عنادها لأنبيائها. وبسبب بعدها عن عقيدة التوحيـد والكفـر بـالله وفعـل المنكرات الضارة بالناس وبالمجتمع بشكل خاص.

نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والقرآن

محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وآخر سلسلتهم. ورسالته أكمل الرسالات وأعمها جاءت لتجمع كافة خصائص التوحيد التي سبقت منذ آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام حتى المسيح عليه السلام.

وقد نص القرآن الكريم على نبوته وعالمية دعوته في كثير من الآيات القرآنية الكريمة. أنزل عليه القرآن الكريم من الله سبحانه عن طريق الوحي الأمين جبريل عليه السلام خلال ثلاث وعشرين سنة.

وانتشر الإسلام في كافة أصقاع الدنيا وجميع المسلمين يرفعون شعار التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وتمتاز خصائص نبوته بشموليتها وتكاملها، إن كان ذلك على المستوى الشخصي، أو كان على المستوى الغيبي، أو على مستوى الدعوة

1- فقد اصطفاه الله سبحانه ليكون آخر الأنبياء وخاتمهم.
2- حياته قبل النبوة أربعون عاماً من التعبد والتفكير والحماية الإلهية.
3- أوحي إليه وكان الوحي جبريل عليه السلام.
4- اصطفاه الله بكتاب هو القرآن الكريم الذي تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله.
5- بدأ الدعوة فرداً وصمد في وجه الكفار حتى النهاية. ونشر الدعوة حتى عمت فأصبح الإسلام عقيدة إنسانية لا تقتصر على أمة أو شعب.

وعلى مدار التاريخ البشري عرفنا أنبياء حدثنا عنهم القرآن الكريم فوجدناهم بشراً، ولكنهم يختلفون عن البشر، حيث اصطفاهم الله سبحانه ليكونوا أنبياء. ومن يصطفيه الله سبحانه لا بد أن يكون محل الاصطفاء.

فالنبي محمد عليه الصلاة والسلام اختاره الله سبحانه ليكون نبي آخر الزمان وخاتم النبيين ولم يدّعِ من نفسه النبوة أو يتمثلها بدافع شخصي ذاتي.

يقول تعالى: (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً) الأحزاب الآية 4

فالآية الكريمة توضح أن الله اختار هذا الإنسان ليكون خاتم النبيين ورسالته خاتمة الرسالات.

ويقول تعالى: (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) سبأ 28.

وهذا الاختيار الرباني لا يأتي عبثاً، فالنفوس التي يختارها الله لتحمل رسالة السماء هي نفوس تربيها الذات الإلهية تربية خاصة مميزة. وقد تربى النبي صلى الله عليه وسلم لا أماً ترعاه ولا أباً. وكانت رعاية الله هي التي حفظته لأنها اختارته ليولد في هذا العالم ليكون أول نبي وآخر نبي يبعث للناس كافة وليس لقوم محددين، والفرق بين من يختاره الله ليكون نبيا، وبين من يظن ظنا أنه سيكون نبياً فرق شاسع فقد انتظر بعض الموحدين أن ينزل عليهم الوحي، ومن هؤلاء أمية بن أبي السلط ولكن إرادة الله التي أوجدت محمداً اصطفته ليكون نبياً. وخلقت ظروفا اجتماعية وتاريخية ونفسية ليكون خاتم الأنبياء هو الشخص بعينه.

في تاريخه قبل البعثة، عرف بالصدق والأمانة والاستقامة. ام يعبد الأوثان والأصنام. ولم ينحرف في مسيرة حياته، فكان المثل الأعلى في المجتمع الجاهلي المكَي، وكانت تلك المسيرة الكريمة حجة على قريش والعرب والناس جميعاً. فصاحب الرسالة معروف بنسبه وسلوكه وأخلاقه.

لم يكن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يعرف أنه سيكون نـبي آخـر الزمان، وخاتم المرسلين، فلذلك راعه وأرعبه نـزول الوحـي عليه فذهب إلى زوجته يرتجف.

قال تعالى: وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكوننّ ظهيرا للكافرين) القصص 86.

فالتطلع إلى الرسـالات العظيمـة ليس بـالتمني والأمـل ولكـن بالاختيـار الرباني والطاقة عليها. وكم من طامحين لا يملكون إلا الجرأة على الأمـل. وكـم من راسخين يطويهم الصمت حتى إذا كلفوا أتوا بالعجب العجاب.

نزل عليه الوحي وهو في سن النضج والاكتمال سـن الأربعـين وأنـزل الله عليه القرآن ليتحدى ويعجز العقول والألباب. وتـوالى نـزول القـرآن علـى قلبـه حتى اكتمل بعد ثلاث وعشرين سنة.

امتاز رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه شاهد ومبشر ونذير. وقد عرف ذلك أهل الكتاب من اليـهود والنصـارى فـأكثرهم حـرَّف الصـدق وقليـل منـهم أنصف وصدَق.

لقد أنزلت التوراة الحقيقية على موسى عليـه السـلام قبـل نـزول القـرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بحوالي 1800 عام. وأنزل الإنجيل علـى المسـيح عليه السلام قبل نزول القرآن بحوالي 570 عاما. ولكن سلسلة الأنبيـاء الربـانيين سلسلة واحدة. عقيدتها التوحيد. وكل نبي يمهد الطريق أمام النبي الآتي بعـده ويبشر قومه بقدومه ولو بعد زمن طويل.

وهذا ما حدث فعلا.

لقد بشرت التـوراة بقـدوم سـيد المرسـلين محمـد صلـى الله عليـه وسلم وكتبت أوصافه في ذلك الكتاب. وجاءت هي نفسها الأوصـاف الـتي جـ- بـها

القرآن الكريم. وبشر بقدومه المسيح عليه السلام. ولكن اليهود أنكروا وهم يعرفون وأخفوا الحقائق وهم يدركون.

ومما بشرت به التوراة عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ما ورد في سفر التثنية في الإصحاح الثامن :

تقول (وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكل شيء آمره به. ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا الذي أنتقم منه. فأما النبي الذي يجترئ علي بالكبرياء ويتكلم باسمي بما لم آمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل. وإذا أحببت أن تميز بين النبي الصادق والكاذب فهذه علامتك إن ما قاله ذلك النبي باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب. يريد تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه) وقد قال اليهود إن هذه البشارة ليوشع بن نون. ولكنهم يعرفون أن يوشع ليس كموسى. ومع أنهم كانوا ينتظرون في مدة المسيح نبيا آخر غير المسيح. وقد أرسلوا ليوحنا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه فقالوا له أنت إيليا فقال: لا فقالوا أنت المسيح فقال: لا فقالوا أنت النبي فقال: لا فقالوا ما بالك إذا تعمد إذا كنت لست إيليا ولا المسيح ولا النبي. فهذه تدل على أن التوراة تبشر بإيليا والمسيح ونبي لم يأت بعد وحتى زمن المسيح. ثم أن التوراة تقول في صفة النبي إنه مثل موسى وقد نصت في آخر سفر التثنية على أنه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثل موسى وورد في هذه البشارة أن النبي الذي يفتري على الله يقتل. ونبينا مكث بين أعدائه الألداء المشركين واليهود ثلاثة وعشرين سنة يدعوهم فيها إلى الله. ومع ذلك عصمه الله منهم كما قال تعالى: (والله يعصمك من الناس) المائدة 76. وقد أخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التي نعرف بها صدق النبي من كذبه وهي الإخبار بما سيأتي. وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء كثيرة فحدثت كما أخبر عنها كغلبة الروم على الفرس.

وروى القاضي عياض في الشفاء أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمر بن العاص عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) الأحزاب 33. إذ تقول التوراة وحرزا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق. ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا)[1].

وتقول التوراة في ذلك: (نابي أقيم لا يقيم مقارب أحيهم كاموخا إيلا وتشماعون) وتفسيره (نبيا أقيم له من وسط أخوتهم مثلك به فليؤمنوا)

ويعلق السموأل بن يحيى المغربي[2] على ذلك بقوله إنما أشار إلى أنهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم فإن قالوا: (إنه قال من وسط اخوتهم، وليس في عادة كتابنا أن نعني بقوله اخوتكم إلا بني إسرائيل. قلنا: بلى قد جاء في التوراة اخوتكم بني العيص وذلك في الجزء الأول من السفر الخامس قوله: أنتم عابرون في تخم اخوتكم بني العيص المقيم في سعير إياكم أن تطمعوا في شيء من أرضهم).

فإذا كان بنو العيص اخوة لبني إسرائيل لان العيص وإسرائيل ولدا إسحق فلذلك بنو إسماعيل اخوة لجميع ولد إبراهيم. وإن قالوا إن هذا القول إنما أشير به إلى شمو ايل النبي عليه السلام. لأنه قال من وسط اخوتكم مثلك وشمو ايل كان مثل موسى من أولاد ليوي، يعنون من السبط الذي كان منه

---

(1) رواه البخاري في البيوع باب كراهية الصخب في الأسواق رقم 2125.

(2) السموأل بن يحيى المغربي. حبر من الأحبار اليهود في القرن السابع الهجري أسلم ورد على اليهود بكتاب مهم جدا اسمه غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود. وفي توفي في مراغة من أعمال أذربيجان.

موسى فلنسألهم. فإن كنتم صادقين فأي حاجة بكم إلى أن يوصيكم بالإيمان بشموايل وأنتم تقولون أن شموايل لم يأت بزيادة ولا بنسخ أشفق من أن لا تقبلوا لأنه أرسل ليقوي أيديكم على أهل فلسطين وليردكم إلى شرع يخاف تكذيبكم من ينسخ مذهبكم ويغير أوضاع ديانتكم. فالوصية بالإيمان به مما لا يستغني مثلكم عنه. ولذلك لم يكن بموسى حاجة أن يوصيكم بالإيمان بنبوة يرميا ويشعيا. وغيرهما من الأنبياء. وهذا يدل على أن التوراة أمرتهم في هذا الفصل بالإيمان بالمصطفى عليه السلام وأتباعه)[1].

ويرى البروفيسور عبد الأحد داود[2]. أن الكلمات الواردة في التوراة في الفصل 33 والجملة 2 تنص على ما يلي :

وجاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ قادماً من جبل فاران وجاء معه عشرة آلاف قديس ومن يده اليمنى برزت نار شريعة لهم.

ولم تكن لأي واحد من الإسرائيليين بما فيهم المسيح أية علاقة بفاران فإن هاجر مع ولدها إسماعيل تجوّلا في متاهات بئر السبع وهم الذين سكنوا بعد ذلك في قفار فاران.

وقد أفرد البروفيسور عبد الأحد داود كتاباً خاصاً تحت عنوان. محمد في الكتاب المقدس. حلل فيه كافة النبوءات والإشارات التوراتية والتي تشير إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. كما حلل نصوص الإنجيل المرتبطة بالنبوءة الخاصة التي تقول: بمجيء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد فضح القرآن الكريم تزييف أهل الكتاب للحقائق المتعلقة بنبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. فهم يعرفون صفاته ومهماته من خلال كتابهم

(1) غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود. السموأل بن يحيى المغرب. مخطوط ص 27 .

(2) عبد الأحد داود هو كاهن مسيحي آشوري اسمه الأصلي بنجامين كلداني. أستاذ في علم اللاهوت وقس سابقا. وهو من ديجالا في إيران. إعتنق الإسلام عام 1905 في استانبول.

التوراة ومن خلال وصايا أنبيائهم باتباعه والسير على طريقه.

يقول تعالى: (الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون.) البقرة 146.

ويقول تعالى: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) آل عمران 157.

ويقول تعالى: (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما) النساء 162.

ويقول تعالى: (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلما تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين.) البقرة 91.

ويقول تعالى: (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) البقرة 89.

ويقول تعالى: (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون. يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) آل عمران 70ـ 71.

ويقول تعالى: (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءتهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين) آل عمران 86.

الفصل الرابع

عالم المخلوقات الخفية

بين التوراة والقرآن

الملائكة. الجن. إبليس. الشيطان

يأخذ عالم الغيبيات حيزاً واسعاً في الكتب السماوية والديانات جميعها. وبنظرة إجمالية، فإن العقائد لدى كثير من الشعوب تُعيد عالم الغيبيات إلى صنفين يمثلان الخير والشر، وأساس هذا التصور قديم قدم الإنسان، إذ هو يقوم على الصراع بين قوى تمثل الخير وقوى تمثل الشر.

وتتضح صورة هذا الصراع بشكل أوسع في العقائد الثلاث اليهودية المسيحية والإسلام إذ أصبح فيها تصنيف واضح، فالملائكة تمثل جانب الخير في عالم الوجود الغيبي. والشيطان أو إبليس يمثل جانب الشر بكل أبعاده النفسية والدينية.

غير أن القرآن الكريم أوضح كثيراً من طبيعة هذه المخلوقات ومهماتها. وكذلك فقد حوت نصوص التوراة كثيراً من الأحاديث عن هذه المخلوقات.

ويعتبر الإيمان بالملائكة جزءاً من العقيدة الإسلامية إذ أن العقيدة تربط بين الإيمان بالله وبرسله وبملائكته وكتبه واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

وقد تلاقت نصوص القرآن مع نصوص التوراة في الحديث عن بعض المواقف الواقعية والأحداث، وما للملائكة من دور فيها. ولكنها اختلفت فيما بينها في كثير من الصفات والمهمات أيضاً. إضافة لما ورد في العقيدة اليهودية من ميل إلى تقديس إبليس ومن عداء للملاك جبريل.

وقد اختلط على كتبة التوراة أو هم خلطوا بين عمل الله سبحانه وعمل الملائكة والجن. فنسبوا أعمال الله إلى إبليس تارة ونسبوا أعمال إبليس إلى الله

تارة أخرى. وقد ورد ذلك في عدد من نصوص التوراة. ولا يأخذ الجن حيزاً واسعاً في التوراة كما هو في القرآن الكريم. بل أننا نجد أن التوراة تتحدث أحياناً عن استعانة بعض ملوك بني إسرائيل بالجن أو بالعرافات والعرافين الذين يدعون أن الجن يخدمهم، وينفذ أوامرهم .

وفي عدد من نصوص التوراة نعثر على ما يسمى الكروبيم وهي جمع لكلمة كروب ، ويمثلون لهذه المخلوقات بأجسام لها أجنحة وأشكال غريبة. وقد يرمزون بها إلى قوى قد تكون من الملائكة أو من غيرها.

ويمكن لنا أن نرتكز في ذلك على عدة أمور، يمكن أن نعتبرها مفتاح المقارنة والدراسة .

أ ـ الملائكة وأصنافهم ومهماتهم
ب ـ إبليس أو الشيطان. طبيعته ومهامه
ت ـ الجن
ث ـ الكروبيم والتجسيد
ج ـ اختلاط أعمال هذه القوى المخلوقة بأعمال الله في التوراة.

عالم الملائكة

من خلال ما تعلمناه من القرآن الكريم نرى أن عناصر المخلوقات العاقلة ثلاثة أنواع: الإنسان. الملائكة. الجن .

وقد ورد الحديث عن الملائكة في القرآن الكريم عشرات المرات بصيغة الجمع ومرات عديدة بصيغة المفرد ـ ملك ـ .

ولعلّ أول ذكر للملائكة في السياق الزمني هو الذكر المرتبط بخلق آدم. وهذا يعني أن الله خلق الملائكة قبل أن يخلق آدم عليه السلام. يقول تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد

فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) البقرة 30

فهذه الآية تشير بوضوح إلى أن الملائكة يسبحون الله ويقدسون لـه وهـذه هي مهمتهم الأولى بشكل عام.

ويقول تعالى: (وعلّم آدم الأسمـاء كلّـها ثـم عرضـهم علـى الملائكـة فقـال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا مـا علمتنـا إنك أنت العليم الحكيم) البقرة 31 ـ 32

ثم يقول تعالى: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليـس أبـى واستكبر وكان من الكافرين) البقرة 34

وفي الآيتين 31 ـ 32 يبين القرآن الكريم محدوديـة علـم الملائكـة. فـهم لا يعلمون إلا ما علمهم إياه رب العالمين.

أما الآية 34 فتدل على أن الملائكة ينفذون أمر الله دون اعتراض.

فالحديث عن الملائكة يرتبط هنا بحدث محدد وهـو خلـق الله لآدم. ولـو راجعنا نصوص سفر التكوين التوراتي الذي تحدث عن خلق الإنسان لما وجدنـا أي ذكر لهذا الحدث ولا أي ذكر للملائكة.

ففي اليوم السادس يخلق الله الإنســان بعـد أن خلـق السـماوات والأرض والوحوش والنبات.

تقول التوراة: وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا) تكوين1: 26

وعن تعليم الله لآدم الأسماء تقول التوراة:

(وجبل الرب الإله من الأرض كـل حيوانـات البريـة وكـل طيـور السـماء وأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها. وكل ما دعا به آدم ذات نفـس حيـة فـهو

اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية) تكوين 2: 19ـ 20.

ونلاحظ أن لا وجود للملائكة في عالم خلق الله. وقد اعتبرت أن آدم أول مخلوق يتحدث أو يعقل. وهذا يدل على أن كتبة التوراة يتجاهلون خلق الملائكة ويعتبرون أن الإنسان الأول آدم العاقل هو الأساس في المخلوقات الحية العاقلة. وقد نضع هنا سؤالا استفهاميا حول ذلك التجاهل. لماذا التجاهل؟ ما أسبابه؟ ما غاياته وأهدافه؟

الملائكة والوحي

أوضحت آيات القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى يكلف الملائكة بمهمات، كل ملك له مهمة، وجبريل عليه السلام كان مكلفا بتبليغ رسالة السماء. فهو الذي يحمل معه آيات القرآن الكريم ويلقنها لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وقد وردت بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تشير إلى أشكال الوحي الذي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول الله تعالى: (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين. من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين.) البقرة 97ـ 98

ويقول تعالى: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) التحريم ـ 4 ـ

وهذه هي المرات الثلاث التي ورد ذكر جبريل صراحة فيها. وقد وُصف الملك جبريل بعدة أوصاف في القرآن الكريم. منها الأمين. والروح القدس. والروح. والروح الأمين. يقول تعالى: (وانه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) الشعراء 192ـ 195.

ويقول تعالى: (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) النحل 102.

ويقول تعالى: (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) النحل 2.

فجبريل أو الروح القدس أو الروح الأمين أو الروح. جميعها تطلق على جبريل عليه السلام وهو المكلف بتنزيل الرسالات وتبليغ أمر الله لأنبيائه ورسله.

أن هذا ما لا تعترف التوراة به ولا في أي موضع منها. فجبريل لم ينزل بالرسالة على أي من الأنبياء.

وقد أورد المفسرون المسلمون سبب نزول قوله تعالى: قل من كان عدوا لجبريل... فاجمعوا على أن حديثا نبويا ورد من عدة أوجه يوضح المسألة: أخرج عن ابن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي. قال: (سلوني عما شئتم ولكن إجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئا فعرفتموه لتتابعني. قالوا فذلك لك. قالوا أربع خلال نسألك عنها. أخبرنا أي طعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة. واخبرنا كيف ماء الرجل من ماء المرأة وكيف الأنثى منه والذكر. وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم ومن وليه من الملائكة. فأخذ عليهم عهد الله لئن أخبرتكم لتتابعني. فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. قال فأنشدكم بالذي أنزل التوراة هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضا طال سقمه. فنذر نذرا لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها فقالوا: اللهم نعم. فقال اللهم اشهد قال أنشدكم بالذي لا إله إلا هو هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ وأن ماء المرأة

أصفر رقيق فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله. أن علا ماء الرجل كان ذكرا بإذن الله وإن علا ماء المرأة كان أنثى بإذن الله. قالوا اللهم نعم. قال اللهم اشهد. قال فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن النبي الأمي هذا تنام عيناه ولا ينام قلبه؟ قالوا نعم. قال: اللهم اشهد عليهم. قالوا أنت الآن تحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نتابعك أو نفارقك. قال: وليي جبريل ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه قالوا: فعندها نفارقك. لو كان وليك سواه من الملائكة لاتبعناك وصدقناك. قال: فما يمنعكم أن تصدقوه قالوا: هو عدونا فأنزل الله تعالى: من كان عدوا لجبريل ... إلى قوله كأنهم لا يعلمون. فعند ذلك باؤوا بغضب على غضب.)[1].

وفي حديث آخر أخرجه سفيان بن عيينه عن عكرمة: كان عمر يأتي يهودا يكلمهم فقالوا: إنه ليس من أصحابك أحد أكثر إتيانا إلينا منك فاخبرنا من صاحب صاحبك يأتيه بالوحي فقال: جبريل. قالوا: ذاك عدونا من الملائكة ولو أن صاحبه صاحب صاحبنا لتبعناه. فقال عمر: من صاحب صاحبكم قالوا: ميكائيل. قال وما هما. قالوا أما جبريل فينزل بالعذاب والنقمة وأما ميكائيل فينزل بالغيث والرحمة وأحدهما عدو لصاحبه. إلى آخر الحديث)[2]

واستنادا على ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المستند على آيات القرآن الكريم ندرك أن جبريل عليه السلام ولي لكافة الأنبياء دون سواه. ولذلك تحاشت التوراة ذكر جبريل وذكر تنزيل آيات الكتب السماوية على الأنبياء. وآيات القرآن الكريم تشير لنا أن جبريل عليه السلام مكلف بمواصلة الاتصال بكافة الأنبياء، لأن كل ما يأمره الله به هو وحي يجب تبليغه تنفيذا لأمر الله عز وجل.

---

(1) السيوطي. الدر المنثور في التفسير المأثور ص 173ـ 174.

(2) السيوطي. الدر المنثور في التفسير المأثور ص 174.

أورد القرآن الكريم أنه أوحى إلى نوح. ولم تتضح كيفية الوحي أهي بواسطة الملاك أم في الرؤية.

فقال تعالى: (وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) هود 36.

لكن التوراة تورد مرارا قولها: وقال الله لنوح. وقال الرب لنوح. وكلم الله نوحا. وبارك الله نوحا وبنيه وقال لهم أثمروا...) (وكلم الله نوحا وبنيه معه قائلا). ولم تشر إلى وحي أو إلى الطريقة التي أوحى لنوح فيها.

وقد أشارت آيات القرآن الكريم إلى أن الله سبحانه قد أوحى إلى الأنبياء. وقد خاطب القرآن الكريم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بقوله:

(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ورسلاً قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما) النساء 163ـ 164.

والوحي له طرق وأساليب فما أوحاه الله لإبراهيم يختلف عما أوحاه للأسباط مثلا. والوحي بالكتاب غير الوحي بالتعاليم الشفوية. ونحن نعرف أن الله سبحانه لم ينزل كتبا على كافة الأنبياء. والوحي كما هو معلوم من خلال الآيات الكريمة تختص به الملائكة وجبريل تحديدا .

وقد يشمل الوحي تبشيرا للأنبياء أو إنذارا.

يقول تعالى: (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) هود 69.

ويقول تعالى: (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين) آل عمران 39.

ويقول تعالى: وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين) آل عمران 42.

ويقول تعالى: (إذ قالت الملائكة إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين) آل عمران 45.

هذه الآيات توضح أن من مهمات الملائكة أيضا أن تبشر الأنبياء ببشارات كبرى ترتبط بالمعجزات ولا تخضع لناموس البشر أو قانون العقل الإنساني المحدود.

أما في التوراة فيظهر ملاك الرب كما تسميه التوراة لهاجر زوجة النبي إبراهيم وأم إسماعيل عليهما السلام عند عين ماء في البرية.

تقول التوراة: (فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية على العين التي في طريق شور وقال يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت وإلى أين تذهبين) تكوين 16: 7ـ 8.

وقال لها ملاك الرب تكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة. وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فستلدين ابنا وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك) تك 16: 11. ثم يظهر لها ملاك الرب مرة أخرى (فنادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو) تك 21: 17.

ويرد أيضا: فناداه ملاك الرب من السماء وقال إبراهيم إبراهيم فقال هأنذا) تك 11: 22.

ويرد أيضا ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء) تك 22: 15

وهذا ما يدل على أن ملاك الرب أو جبريل عليه السلام كانت له مهمة البشرى والتدخل لدى الأنبياء بأمر الله سبحانه وتعالى .

وفي القرآن الكريم يرد أن الله سبحانه بشر إبراهيم بإسحاق نبيا. والبشرى كما ورد في الآيات السابقة كانت بواسطة الملائكة. فهم الذين بشروا مريم وزكريا وكذلك بشروا إبراهيم عليهم السلام جميعا.

ومن مهمات الملائكة أيضا أن الله سبحانه يرسلهم لمعاقبة الأشرار من الأقوام والأفراد. وقد أورد القرآن الكريم قصة النبي لوط وقدوم الملائكة إليه ينذرونه بأنهم سيعاقبون قومه. وقد صدر أمر الله بذلك. وقد وردت قصة قوم لوط في التوراة أيضا:

تقول التوراة: وجاء الملكان إلى سدوم مساء وكان لوط جالسا في باب سدوم فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض.

وتقول التوراة: ولما طلع الفجر كان الملكان يعجلان لوطا قائلين قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك باسم المدينة) تكوين 19: 15.

ويقول القرآن الكريم:

(ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب) هود 77.

ويقول تعالى: (قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) هود 81.

وتتفق نصوص التوراة مع آيات القرآن الكريم في توضيح مهمة ملائكة الله ورسله في تدمير قوم لوط ومساكنهم.

وقد وردت في القرآن الكريم إيماءات وإشارات إلى أن الملائكة موكلون من قبل الله بعقاب الضالين والكافرين من الأقوام السابقة.

ويتكفل الملائكة بأمر الله سبحانه بتبليغ الاطمئنان للمؤمنين والتبشير بالجنة جزاء على إيمانهم وإخلاصهم لعقيدتهم.

يقول تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا والآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون) فصلت 30ـ 31.

ويؤيد الله المؤمنين بإنزال ملائكته يقاتلون معهم في حربهم ضد المشركين.

يقول تعالى: إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم إني ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم.) الأنفال الآية 9ـ 10.

ويقول تعالى: إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان.) الأنفال 12.

وللملائكة أيضا مهمة قبض الروح.

يقول تعالى: (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) النحل الآية 32 .

ويقول تعالى: (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) النحل 28 .

ويقول تعالى: (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) الأنعام 61.

ويقول تعالى: (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) السجدة 11.

أما في التوراة فليس هناك إشارة إلى مهمة الملائكة بقبض الأرواح. وأعتقد أن مرد ذلك يعود إلى الارتباط الضعيف بين اليهود وبين الإيمان بما بعد الموت.

ويمكن أن نستعرض نصوص التوراة جميعها التي جاءت على ذكر الملائكة بمواقف شتى فمنها أن الله بعث رئيس الملائكة ليحارب مع جيش يشوع عند أريحا (أنه رفع عينه ونظر وإذا برجل واقف قبالته وسيفه مسلول بيده فسارع يوشع إليه وقال له هل لنا أنت أم لأعدائنا فقال كلا بل أنا رئيس جند الرب الآن أتيت) يشوع 13ـ 14.

فهنا يشار إلى الملاك بأنه رئيس جند الرب أرسله الله للقتال إلى جانب يشوع.

وتقول التوراة: (وكان رجل من صدعة من عشيرة الدانيين اسمه منوح وامرأته عاقر لم تلد فتراءى ملاك الرب للمرأة وقال لها: ها أنت عاقر لم تلدي. ولكنك تحبلين وتلدين ابنا والآن فاحذري ولا تشربي خمراً ولا مسكرا ولا تأكلي شيئاً نجساً) قضاء 13: 2 - 3

وتقول التوراة: (فتكلم دانيال مع الملك يا أيها الملك عش إلى الأبد. إلهي أرسل ملاكه وسد أفواه الأسود فلم تضرني لأني وجدت بريئاً قدامه وقدامك أيضاً) دانيال: 6: 21 - 22

ويرد في التوراة إشارة إلى قوة الملائكة :

تقول التوراة: (باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين قوة الفاعلين أمره عند سماع صوت كلامه) المزمور 103: 20

تقول التوراة: (فقال منوح لملاك الرب ما اسمك حتى إذا جاء كلامك نكرمك. فقال له ملاك الرب لماذا تسأل عن اسمي وهو عجيب) قضاة 13: 17

وتقول: (فكان عند صعود اللهيب عن المذبح نحو السماء أن ملاك الـرب صعد في لهيب المذبح ومنوح وامرأته ينظران) قضاة 13: 20

وقول التوراة يدل في مضمونه على سرعة حركة الملائكة :

وتشير التوراة إلى بعض أسماء الملائكة

فجاء فيها: (ورئيس مملكة فارس وقف مقابلي واحداً وعشرين يوماً وهـو ذا ميخائيل واحد من الرؤساء الأولين جاء لإعانتي) دانيال 10: 13 ـ 14

ويرد اسم الملاك ميخائيل مرة أخرى عند قول التوراة

(ولكني أخبرك المرسوم في كتاب الحق ولا أحد يتمسك معي علـى هـؤلاء إلا ميخائيل رئيسهم) دانيال 10: 21

ويرد أيضا أسمه في قولها :

(وفي ذلك اليوم يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبـني شـعبك ويكـون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت وفي ذلك الوقت ينجي شـعبك كل من يوجد مكتوباً في السفر) دانيال 12: 1

ويرد اسم الملاك جبرائيل في قول التوراة: وسمعت صوت إنسان بين الاي فنادى وقال يا جبرائيل فهَم هذا الرجل الرؤيا) دانيال 8: 16

والغريب في الأمر أن اسم الملاك ميخائيل (ميكائيل) واسم الملاك جبرائيل لم يردا في التوراة إلا في هذا الموقع. والغريب أيضـا أنـهما لم يذكـرا حتـى مـع الأنبياء الهامين في التوراة كإبراهيم وموسى وداود باعتبار أن الملاك جـبريل هـو الذي ينزل الكتب من لدن الله سبحانه على هؤلاء الأنبياء المرسلين .

ويلفت النظر اعتماد التوراة على قولها إن ميكائيل رئيس الملائكة ولم يرد ذلك في القرآن الكريم ولا يعترفون بأن جبريل هو ولي الأنبيـاء الـذي هـو الصلـة

بين الله وبينهم. ولكن كما أشرنا سابقاً إلى أن اليهود يكنون عداوة للملاك جبريل. ويعتمدون ميكائيل رئيسا للملائكة ووليا للأنبياء .

ويرد في التوراة اسمان يطلقهما التوراتيون على الملائكة وهما السرافيم. والكروبيم تقول التوراة: (في سنة وفاة عزيا الملك رأيت السيد جالسا على كرسي عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل. السرافيم واقفون فوقه لكل واحد ستة أجنحة باثنين يغطي وجهه وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير. وهذا نادى ذاك وقال قدوس قدوس رب الجنود مجده ملءُ كل الأرض. فاهتزت أساسات العتب من صوت الصراخ وامتلأ البيت دخاناً)إشعيا 6: 1 - 3

ولا يخفي علينا التجسيد لذات الله وملائكته. فقد رأى حزقيال السيد (أي الرب) جالساً على كرسي عال مرتفع وحوله الملائكة ذوو الأجنحة. وهذا دأب التوراة بالتجسيد وبالتأثر بأساطير الشعوب القديمة التي تصنع من مخيلتها هالة ملموسة ومحسوسة حول الله ومعاونيه .

أما الكروبيم فيرد ذكرهم في عدة مواقع من التوراة .

تقول التوراة: (ثم نظرت وإذا على المقبب الذي على رأس الكروبيم شئ كحجر العقيق الأزرق كمنظر شبه عرش) حزقيال 10: 1 وفي هذا الإصحاح العاشر من سفر حزقيال، يرد وصف كامل للكروبيم. ويشطح الخيال والتجسيد بكاتب التوراة ويصف الكروبيم بأوصاف يراها المرء أمامه مجسدة. فالكروب يمد يده إلى النار التي بين الكروبيم. (هذا هو الحيوان الذي رأيته عند نهر خابور) حزقيال 10: 15

ويقول كاتب التوراة: (وخرج مجد الرب من على عتبة البيت ووقف على الكروبيم. فرفعت الكروبيم أجنحتها وصعدت عن الأرض قدام عيني) حزقيال 10 :18

ثم يقول: (هذا هو الحيوان الذي رأيته تحت إله إسرائيل عند نهر خابور) حزقيال 10: 20

ونستشف من هذا الكلام تجسيداً لذات الله وملائكته أن الله يركب على حيوان ملائكي له أربعة وجوه وله أجنحة يطير من الأرض إلى السماء وهو يحمل الله على ظهره .

ويرى كتاب قاموس الكتاب المقدس أن كروبيم جمع كروب. وهم ملائكة يرسلون من قبل الله أو يقيمون في حضرته تعالى كما أقامهم الله على أبواب جنة عدن عندما طرد آدم وحواء منها.

تقول التوراة: (فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة) تكوين 3: 13 ويقال عنهم إنهم ذوو أجنحة. أما أشباههم فكانت من ذهب وأوقفت على غطاء تابوت العهد وقد ورد ذلك في سفر الخروج 25: 18 و19 وسفر أخبار الملوك الثاني 3: 10ـ 13. وكان جناحا الكروبيم يظللان التابوت. وجاء في المزمور 18: 10 أن الملك داود قال إن الله ركب على كروب لما ظهر بمجده على الأرض. وكما رأينا كانت الكروبيم تحت عرش الله لما ظهر لحزقيال. وكان في هيكل سليمان كروبان كبيران مغشّيان بالذهب يظلل جناحاهما التابوت الذي كان بينهما وبين قدس الأقداس. وحيطان البيت كانت منقوشة بكروبيم مع نخيل. وكذلك مصراعا الباب كانا منقوشين بكروبيم. ملوك 6: 27 ـ 29

وكان وجود الكروبين فوق التابوت لتظليل مجدَ الله عن الناظر. حزقيال 19: 9 و16 و24[1].

(1) قاموس الكتاب المقدس 1. حرف الدال 358ـ 359. حرف الكاف ص 779. حرف الحاء ص 302ـ 303.

وقد خلطت التوراة أعمال الله بأعمال الملائكة أحياناً، وأحياناً أخرى خلطت أعمال الملائكة والله بأعمال الشيطان. ووقع كتّاب التوراة في خطأ قاتل حين وصفوا الله بأوصاف الملائكة ووصفوا الملائكة بأوصاف الله عز وجل .

ومن الاختلاطات التي وقعت فيها التوراة بين ذات الله والملائكة ما ورد في سفر التكوين حين وصفوا الملائكة بأبناء الله.

تقول التوراة: وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسناوات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد) تكوين 6: 1ـ 3.

ومن الاختلاطات الواضحة ما حدث في قصة النبي إبراهيم عليه السلام. تقول التوراة: وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت النهار فرفع عينيه ونظر فإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض) تكوين 18: 1ـ 2. ويقول قاموس الكتاب المقدس (ويظهر أن الرب كان واحدا منهم.)[1].

ومن الاختلاطات أيضا ما يخلطون به عمل الملائكة بالشيطان والإنسان.

والمراجع لسفر صموئيل الثاني يرى أن بعض الصفات الملتزمة للملائكة تلصق بالإنسان، أو إلى أناس. وبعض الأعمال الخاصة للملائكة تنسب إلى بشر وليس إلى أرواح سماوية. وقد رد القرآن الكريم على من زعموا أن لله بنات أو أولادا في آيات قرآنية كثيرة.

يقول تعالى: (أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين) الزخرف آية 16.

ويقول تعالى: (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) الأنعام الآية 100.

---

(1) قاموس الكتاب المقدس ص 921 باب الجيم.

ويقول تعالى: (ويجعلون له البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) النحل 57

وجاءت هذه الآيات رداً على مَن زعم أن الملائكة أبناء وبنات الله. وعندما تنسب التوراة لله بنين فإنها بذلك تكفر بأبسط قواعد الإيمان.

وفي سفر أخنوخ الذي لم يدوّن في التوراة حديث طويل عن الملائكة.

وقد جاء فيه أن الأرض أخذت تنتحب وامتلأت بصيحات الأسى فآثرت الأم الأرض في أربعة من الملائكة الأصدقاء الذين طلبوا من يهوه وضع حد لتلك المهزلة وفي الوقت نفسه نشأ نزاع بين السيد أزازيل وهو ملاك متزوج من فتاة أنسية والأمير سيميازاس. فتلقى هذا الأخير بضع لكمات على فكيه، فقد منصبه على إثرها وحل أزازيل زعيماً بدلاً منه فأرسل يهوه رفائيل ليقضي على أزازيل وحاصره في أحد الكهوف.[1]

ودرجات الملائكة عند اليهود عشر درجات 1ـ كادوشيم أو المقدسون الطاهرون. 2ـ أفاميم أو السريعون. 3ـ أوراليم أو الأقوياء. 4ـ شاسماليم أو المتوهجون. 5ـ سيرافيم أو الشرارات. 6ـ مالافيم أو الرسل. 7ـ آلوهيم أو الإلهيون. 8ـ بن آلوهيم أو أبناء الله. 9ـ كيروبيم أو الثيران. 10ـ إبشم أو المتحمسون[2].

عالم الجن بين التوراة والقرآن

يأخذ عالم الجن والشياطين مساحة واسعة من القرآن الكريم. فهو مخلوق من مخلوقات الله سبحانه. أشار القرآن بوضوح، أنه خُلق من مارج من نار. وأفاضت آيات القرآن الكريم في الحديث عن الجن بأنهم أقوام مثلنا، وفيهم

---

(1) ليوتاكسل: التوراة كتاب مقدس ام جمع من الأساطير. ترجمة د. حسان اسحق ص59.

(2) المصدر السابق، أعلاه ص 60.

الصالح وفيهم الكافر وقد جاء في التوراة أيضاً بعض الأحاديث عنهم وعن العرّافين والعرّافات الذين استعانوا بهم ظناً منهم أن لهم قدرات خارقة .

أما إبليس فقد أخذ الحديث عنه مساحات واسعة. واقترن اسمه بالشيطان الذي يضل الناس ويعيث في الأرض فساداً.

ومنذ الحضارات الأولى تبرز صفات الشيطان على أنه يمثل الشر المطلق. ودراسة الشيطان إنما هي العودة إلى تاريخ الأخلاق وتاريخ الإنسانية وأن من الممكن استخلاص تاريخ الأخلاق الإنساني من تاريخ الشيطان[1].

كيف تحدث القرآن عن الجن ؟

لو عدنا إلى تسلسل الأحداث الزمنية في القرآن الكريم وجدنا أن الحديث عن الجن سبق الحديث عن آدم والبشر. وقصة الخلق الأولى الواردة في القرآن الكريم توضح أن الله سبحانه أمر الملائكة بالسجود احتراماً لآدم الذي خلقه رب العالمين فسجدوا إلا إبليس كان من الجن .

يقول تعالى: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) الكهف 50. وهذا يدل على أن الله سبحانه خلق الجن قبل أن يخلق آدم.

وفي التكوين التوراتي لا ورود لكلمة جن أو إبليس أو الشيطان وقد رمز كتاب التوراة إلى إبليس بالحية التي أغوت حواء فأكلت هي وزوجها من شجرة الخلد. تقول التوراة: (وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله فقالت للمرأة أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة فقالت المرأة

(1) عباس محمود العقاد. إبليس ص 6.

للحية من ثمر الجنة نأكل وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكم وتكونان كالله عارفين الخير والشر) سفر التكوين 3: 1 ـ 6. وهذه إشارة إلى سير سنن الأقدمين الذين كانوا يوحدون بين الضرر الحسي وبين الخطيئة الأخلاقية. وقبل أن تصبح الحية مجرد رمز إلى الشيطان نلاحظ فيه المشابهة بين نفث السم ونفث الشر على أسلوب المجاز[1].

وقبل أن نتعرض لدراسة ظاهرة الشيطان في القرآن الكريم والتوراة نعود إلى مسألة الجن وعلاقتها بالعقيدة. وكيف جاء الحديث عنها في القرآن الكريم والتوراة. فالجن كما ورد في آيات القرآن الكريم مخلوق من مخلوقات الله. والإيمان بوجوده هو إيمان بما قاله الله سبحانه وتعالى.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن غاية الله من خلقه للجن والإنس هي عبادته.

يقول تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الطور 56.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الله بعث رسلا إلى الإنس والجن.

يقول تعالى: (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) الأنعام 130.

فالجن والإنس سواء في التكليف وسواء في الحساب. لقد جاءتهم رسلهم تبلغهم رسالة التوحيد فكفروا، فحق عليهم العذاب.

وفي السياق نفسه تورد الآيات القرآنية بما سيؤول إليه الجن والإنس بسبب كفرهم وانحرافهم.

---

(1) عباس محمود العقاد. إبليس ص 94.

يقول تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون.) الأعراف 179.

وتوضح آيات القرآن الكريم عجز الجن عن التنبؤ بالغيب. ومحدودية قوتهم أمام قوة الخالق عز وجل.

يقول تعالى: (فلما قضينا عليه بالموت ما دلهم عليه موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين). سبأ 14.

وفي سورة الجن تحدد الآيات الكريمة صفات للجن .

لقد استمعوا لآيات القرآن الكريم فآمن بعضهم .

وقد استعان بهم بعض الإنس فزادوهم رهقا وتعبا.

وأن الجن حاولوا اختراق الفضاء لاستراق السمع فوجدوها ملئت حرساً شديداً من الملائكة.

واعترفوا أنهم لا يعرفون من أسرار السماء شيئا.

يقول تعالى: (وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا) الجن 8

ويقول تعالى: (وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) الجن 10

وقد تحدى الله سبحانه الأنس وتحدى الجن في أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم فقال تعالى: (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) الإسراء 88 وتناولت آيات

القرآن الكريم العلاقة بين الجن والإنس في الخروج عن تعاليم الله عز وجل ونشر الفساد والشر ومن ثم عاقبتهم جميعا بما كانوا يعملون.

(ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الأنس وقال أولياؤهم من الأنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم) سورة الأنعام 128.

ويوضح مرة أخرى عاقبتهم لما فعلوه من إضلال بعضهم.

يقول تعالى: (قال ادخلوا في أمم خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادَاركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فأتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) الأعراف 38. فالآيات جميعها التي وردت آنفا تشير بوضوح إلى أن الجن مخلوق، وأن فيهم رسلا يبلغون عقيدة التوحيد. فمنهم الصالحون المؤمنون ومنهم الكافرون. وسيحاسبون يوم القيامة ويعذب الكافرين منهم. وهم عاجزون أمام قدرة الله وعاجزون عن استشراف الغيب. ومساعدة غيرهم من الأنس الذين يستعينون بهم .

أما قصة الجن في التوراة فتختلف اختلافا كليا عما ورد في القرآن. ففي سفر التكوين لا وجود ولو لإشارة توحي بأن الله خلق الجن من مارج من نار. ولا ترد قصة سجود الملائكة لآدم وتمرد إبليس الجني على أمر الله.

وليس هناك إشارة إلى أن الجن أقوام وشعوب مثل الأنس، ثم لا يرد أنهم مكلفون بالإيمان وأن فيهم رسلا يدعونهم إلى عقيدة التوحيد. ثم لا وجود لذكر حسابهم في يوم الدين.

وقد أوردت التوراة قصة عن استعانة الملك شاؤل بامرأة عرافة تستعين بالجن تقول: (فقال شاؤل لعبيده فتشوا لي عن امرأة صاحبة جان فاذهب إليها

وأسألها فقال له عبيده هوذا امرأة صاحبة جان في عين دور. فتنكر شاؤل ولبس ثيابا أخرى فذهب هو ورجلان معه وجاءوا إلى المرأة ليلا وقال اعرفي لي بالجان واصعدي لي من أقول لك فقالت له المرأة هوذا أنت تعلم ما فعل شاؤل كيف قطع أصحاب الجان والتوابع من الأرض فَلِمَ إذاً تضع شِرْكاً لنفسي لتميتها...) صموئيل أول 28: 47 .

وقد جاء في التوراة حكم بالقتل على من كان به جان.

فتقول: (وإذا كان في رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يقتل. بالحجارة يرجمونه دمه عليه) لاويين 20: 27.

وجاءت توصيات من الرب لموسى عليه السلام تحذره بأن لا يكون في قومه من يستعين بالجان (ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جانا أو تابعة ولا من يستشير الموتى) تثنية 18: 11.

إبليس في التوراة والقرآن

إبليس في القرآن الكريم اسم لجني معروف بعصيانه أمر الله سبحانه بالسجود لآدم، وقد جاءت آيات القرآن الكريم موضحة القصة بتفاصيلها في عدة سور قرآنية، ومن خلال سياقها نعرف أن إبليس خلق قبل خلق آدم. إذ انه والملائكة كانوا مخلوقين، حاورهم رب العالمين في قصة خلق لآدم. وهذا يعني أن الجن مخلوق قبل آدم وإبليس من صنف الجن.

يقول تعالى: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) البقرة 34.

وقد ورد ذكر إبليس في القرآن الكريم إحدى عشر مرة، تسع مرات ارتبطت بمسألة السجود واثنتين لم ترتبطا، إنما ارتبطتا بعالم الغيب قبل خلق

الإنسان.

يقول تعالى: (فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين) الحجر 30ـ 31 .

ويقول تعالى: (فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين) ص 73ـ 74.

ويقول تعالى: قال: يا إبليس مالك ألاّ تكون من الساجدين) الحجر 32.

ويقول تعالى: وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى) طه 116.

ويقول تعالى: ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين) الأعراف 11.

ويقول تعالى: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا) الإسراء 61.

ويقول تعالى: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) الكهف 50.

ويقول تعالى: (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) سبأ 20.

ويقول تعالى: (وجنود إبليس أجمعون) 95، وسبقها قوله تعالى: (وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون. فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون) الشعراء 92ـ 95.

ولو دققنا في سياق الآيات لوجدنا أن إيراد لفظة إبليس في هذا السياق لم تأت عبثاً. والواضح فإن إبليس كان عابداً لله موحداً، وقد حضر مع الملائكة

عندما أبلغهم الله عز وجل أنه سيخلق خليفة له في الأرض. وأمره بالسجود لـه فسجدوا إلا إبليس. فإبليس قبل هذه المسألة لم يكن من الرافضين لوحدانية الله وأوامره بل كان من المقربين. وطالما أن الأمر متعلـق بـأمر غيـبي لم يكـن البشـر مخلوقين فإن لفظة إبليس هي المناسبة لهذا المقـام. إذ لم يحصـل الصـراع بـين الشر والخير بعد. حتى يطلق على إبليس اسم الشيطان. فإبليس هو الاسم الذي أطلقه الله على هذا المخلوق عندما كانت الوقائع تجري في السماء ولم يكن بشـر بعد في الأرض، والآية التي تشير إلى جنـود إبليـس توضـح أن جنـوده هـم مـن اتبعوه من الشياطين والأنس. وقد تحدث الله سبحانه عـن ذلـك في سـياق يـوم الآخرة، والحساب والعقاب فقـال فكبكبـوا فيـها هـم والغـاوون وجنـود إبليـس أجمعون. أي أنهم كبكبوا في نار جهنم. والنار والجنة أمـران غيبيـان لم يرهمـا بشر رؤية العين. إذا فالحديث عن إبليس في أمر السـجود أمـر غيـبي لم نـره، والحساب والنار أيضاً أمر غيبي لا نراه. وهذا يقودنا إلى القول إن بداية إبليـس غيبية ونهايته المحتومة غيبية بالنسبة لنا ثم في قوله تعالى: أتتخذونه وذريتـه أولياء من دوني. تشير إلى اتخاذ بعض البشر إبليس إلهـاً باعتبـاره قـوة قديمـة خلقها الله قبل آدم ويزعم بعض عبدة الشيطان أن إبليس كـان ذا قـوة تضـاهي قوة الله وإلا لما عارض ورفض إطاعة أوامره .

ونخلص من ذلك إلى أن مجيء إبليس في تسع آيات ترتبط بـالغيب. أمـا الصراع بينه وبين الإنسان يأتي بعد مرحلة خلق آدم وغضب الله على إبليـس، بعد أن رفض أمر الله. فأصبح الصراع بينه وبين الإنسان علـى الأرض فـأطلقت عليه الآيات إسم شيطان. لأنه خرج من الجنة ومهمتـه الجديـدة اختلفـت عـن مهمته وهو في عالم الغيب. لقـد اقتصـرت مهمتـه في الغيـب في رفـض أمـر الله فحسب بينما توسعت مهمته في الأرض بعد إنزاله من السماء. وتعددت وسنرى في آيات القرآن الكريم التي جاءت على ذكر الشيطان مهمات عديـدة للشـيطان

حتى أننا نستطيع القول إنه مثل الشر المطلق على الأرض. بل مثل أحـد طـرفي الصراع في الوجود الأرضي. بحيث مثل الإنسان طرفاً والشيطان مثل طرفا آخر .

وهناك أحاديث كثيرة في السنّة النبوية وفي روايات ابن عباس وغيره مـن الصحابة تشير إلى أن إبليس كان ذا مكانة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى. وقال بعضهم إنه كان من الملائكة واسمه عزازيل وذلك قبل ان يعصي أمر به.

ورفْضُ إبليس السجود لآدم كان أمراً مفترضاً لأنه حكم على ظاهر الأمور. فآدم مخلوق من طين وإبليس مخلوق من نار، ورأى نفسه أعلـى مرتبـة مـن آدم فرفض أمر ربه ولكنه لما تبين أن الله سـبحانه نفـخ في آدم مـن روحـه أدرك أن آدم هو أفضل منه. ولكنه حق القول عليه فلم يرجع عن كفره وغيـه وكبريائـه، وأصبح العدو الأول لبـني آدم بعـد أن أصبـح آدم في الأرض، وكـثر نسـله وبـدأ الصراع بينهم وبين إبليس ونسله من الشياطين .

إن جهل إبليس بعلم الله جعله يحكم على الأمور بظاهرها. وهذا بالطبع دليل قصور ومحدودية في قدرته لأنه مخلوق. والمخلوق مهما تفوق يظل مخلوقاً من صنع الإله .

ولم تظـهر كلمـة إبليـس في العـهد القديـم (التـوراة) وإنمـا وردت كلمـة شيطان. وقد اختلط المصطلحان ببعضهما، ورمز له بالحية في سفر التكوين. وقد أورد العهد الجديد الإنجيل شيئاً عـن إبليـس وعداوتـه لله وللإنسـان والمسيح. ولهذا سندرس الشيطان وصفاته وأعماله كما وردت في القـرآن الكريـم والتـوراة، كما سنضيف رؤية التلمود للشيطان باعتباره شرحاً لأحبار اليهود الذيـن ادعـوا أن التلمود من الله أوحى به للأحبار .

ورد اسم الشيطان في القـرآن الكريـم سـتين مـرة بصيغـة المفـرد شـيطان. وثماني عشرة مرة بصيغة الجمع شياطين .

ويمكن أن نلخص صفات الشيطان وأعماله على الشكل التالي :

1ـ إنه عدو لله والإنسان.

2ـ إنه يفسد العقول والنفوس ويوسوس فيها.

3ـ وعود الشيطان كاذبة وتودي إلى التهلكة.

4ـ يزين الأمور أمام الأعين فيضل الناس.

5ـ ينهى عن الخير ويحض على فعل الشر بكل أشكاله.

6ـ يتدخل الشيطان في النفس والعقل فينسي الإنسان ذكر ربه وينسيه الأمور.

7ـ للشيطان أولياء وجنود وأتباع وحزب.

8ـ يحذر الله سبحانه من الشيطان.

9ـ يحذر الله سبحانه من عبادة الشيطان لأن ذلك كفر بالله.

10ـ هناك شياطين من الجن وآخرون من الإنس مهمتهم الإفساد بين البشر.

11ـ مصير الشيطان وأتباعه نار جهنم.

12ـ جعل الله في السماء شهباً لرد الشيطان عن سرقة أخبار السماء.

13ـ ليس للشيطان سلطان على عباد الله المؤمنين.

وأمثلة على ما قلناه نرى الآيات القرآنية الكريمة التالية.

يقول تعالى: (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا) الإسراء 27

يقول تعالى: (إن الشيطان للإنسان عدو مبين) يوسف 5

يقول تعالى: (فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين) يوسف 42

يقول تعالى: (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) النساء 120

يقول تعالى: (وإذا زين لهم الشيطان أعمالهم وقال: لا غـالب لكـم اليـوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنـي بـريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب) الأنفال 48

يقول تعالى: (إنما يريـد الشـيطان أن يوقـع بينكـم العـداوة والبغضـاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) المائدة 91

يقول تعالى: (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحـر عجبا) الكهف 63

يقـول تعـالى: (وإن الشـياطين ليوحـون إلى أوليائـهم ليجـادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) الأنعام 121

يقول تعالى: (استحوذ عليهم الشـيطان فأنسـاهم ذكـر الله أولئـك حـزب الشيطان ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون) المجادلة 19

يقول تعالى: (ومن يتخذ الشيطان وليـاً مـن دون الله فقـد خسـر خسـراناً مبيناً. يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) النساء119 - 120

يقول تعالى: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحـي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفـترون) الأنعام 112

يقول تعالى: (فوربك لنحشرنّهم والشياطين ثـم لنحضرنّـهم حـول جـهنم جثيا) مريم 68

يقول تعالى: (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير) الملك 5

يقول تعالى: (وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً) الجن 8

يقول تعالى: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً. قال أرأيتك هذا الذي كرمت لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لاحتنكنَّ ذريته إلا قليلا. قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجِلِكَ وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً) الإسراء 60 ـ 65

فمن خلال آيات القرآن الكريم ندرك أن الشيطان له مهام كثيرة، أهمها الإفساد بكل وجوهه. ولكن تبعية ذنب الإنسان التي يحمّلها للشيطان ليست سوى تبعية الإنسان نفسه. فهو يتبع الشيطان وما زين له من مفاتن. ولكن ليس للشيطان سلطان جبري قدري على الإنسان. وهو مخلوق مثله مثل الإنسان.

يقول تعالى: (وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين) الصافات 30. والشيطان يأمر بالكفر الإنسان فإذا ما أوقعه في الكفر تخلى عنه وتبرأ منه.

يقول تعالى: (كمثل الشيطان إذا قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين) سورة الحشر 16

ويقول تعالى: (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيَّ إني كفرت بما أشركتمون. من قبلُ إن الظالمين لهم عذاب أليم) إبراهيم 22

ويربط القرآن الكريم الجن بالسحر وآثاره الضارة السلبية على الإنسان فعلم الغيب والسحر لدى الشياطين ليس إلا خداعاً للحس وفتنة للنفس تخيل إلى المخدوع ما ليست له حقيقة قائمة في غير وهمه[1] وعندما أتى القرآن الكريم على قصة هاروت وماروت وقصة الشياطين الذين كفروا لأنهم راحوا يعلمون السحر للناس بما يضرهم فإنه فند الزعم بأن الشياطين والجن يعلمون بالغيب أو يستطيعون ضرر الناس بدون إذن الله عز وجل.

يقول تعالى: (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان لكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر. فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه. وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) البقرة 102.

هذا هو الشيطان وهذه هي الشياطين كما علمناها وعلمنا أخبارها من القرآن الكريم ولكثرة الآيات الكريمة التي تحدثت عن الشياطين سبب واضح هو أن الشيطان يمثل الشر المطلق ، وهو أحد طرفي الصراع في هذه الحياة الدنيا .

أما التوراة فإنها تناولت الشيطان في مواقع قليلة من أسفارها. وكما أن مفهوم الإله المطلق لم يكن واضحاً لدى بني إسرائيل، فإن مفهوم الشر والشيطان لم يكن واضحاً أيضاً، ويرى الكثيرون من الباحثين، أن مفهوم الشيطان لم يعرفه بنو إسرائيل، إلا بعد السبي البابلي بعد أن تأثروا بعقائد شعوب بابل وما بين النهرين .

---

(1) عباس محمود العقاد. إبليس صفحة 127.

وتتضح شخصية الشيطان في التوراة بشكل كبير في سفر أيوب حيث تورد أنه دخل مع أبناء الله على حضرة الله فحاوره الله حتى أسفر الحوار عن قصة امتحان العبد أيوب.

تقول التوراة: (وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم. فقال الرب للشيطان من أين جئت فأجاب الشيطان الرب وقال من الجولان في الأرض ومن التمشي فيها. فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدي أيوب لأنه ليس مثله في الأرض رجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر. فأجاب الشيطان الرب وقال هل مجاناً يتقي أيوب الله ..الخ) سفر أيوب 1: 6 ـ 9 .

ويستمر الحوار حسب زعم التوراة بين الله والشيطان طويلاً ويلقاه مع أبناء الله أكثر من مرة. فالشيطان في هذه القصة التوراتية حسود لا يحب الرجل التقي المستقيم ويستطيع ـ حسب زعم التوراة ـ أن يقنع الله كي يمتحن عبده أيوب .

وعلى الرغم مما في القصة من إلحاد وأسطورة وخرافة إلا أن ما يهمنا هنا الكشف عن طبيعة الشيطان كما نجدها في النص وكما تتكشف من تسليط الضوء عليها.

وقد ورد في القرآن الكريم في سورة الأنبياء حديث عن أيوب وما مسه من ضر بينما وردت في سورة (ص) أربع آيات تتحدث عنه ومنها آية يذكر الشيطان فيها.

يقول تعالى: (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب) ص 41.

وقد ورد اسم الشيطان صراحة في التوراة في قصة إحصاء داود عليه السلام للشعب.

تقول التوراة: (ووقف الشيطان ضد إسرائيل وأغوى داود ليحصي إسرائيل) أخبار الأيام الأول 21: 1

وكان ذكر الشيطان على الوصف لا على التسمية فجاء مرة بمعنى الخصم في القضية وجاء مرة أخرى بمعنى المقاوم في الحرب وأطلق مرة على الملك الذي تصدى لبلعام في طريقه لأنه كان بمعنى المعترض أو الضد أو الخصم المقاوم. ولم يذكر بصيغة العلم إلا حين قيل في الإصحاح 21 من سفر الأيام الأول (إنه وقف الشيطان ضد إسرائيل)[1].

وفي قصة أيوب التي ذكرناها سابقاً.

ويعلق العقاد قائلاً: (لم يشعر العبريون الأوائل بما يدعو إلى عزل الشيطان أو إسناد الشرور إليه لأنهم كانوا يتوقعون من الإله أعمالاً كأعمال الشيطان، وكان العمل الواحد عندهم ينسب تارة إلى الشيطان وتارة إلى الإله كما حدث في قصة إحصاء الشعب، على عهد داود)[2] ففي المرة الأولى كان الشيطان هو الذي أغوى داود وفي المرة الثانية كان الإله هو نفسه الذي أمر داود بإحصاء الشعب (حمي غضب الرب على إسرائيل فأهاج عليهم داود قائلاً امض وأحص إسرائيل ويهودا) صموئيل[3].

وللشيطان قصة طويلة في كتاب التلمود، الذي يراه اليهود أهم من كتاب التوراة فيرى التلمود أن الله خلق الشياطين يوم الجمعة، عندما خيم الغسق ولم يخلق لهم أجساداً ولا ملابس، لأن يوم السبت كان قريباً. وما كان لديه الوقت

(1) عباس محمود العقاد. ابليس ص 94 – 95.

(2) عباس محمود العقاد. إبليس ص 94 – 95.

(3) عباس محمود العقاد. إبليس ص 94 ـ 95.

الكافي ليعمل كل ذلك. وعلى حسب رواية أخرى لم يخلق لهم أجساداً عقاباً لهم لأنهم كانوا يريدون أن يخلق الإنسان بلا جسد.

وحسب تفسير التلمود فإن الشيطان على جملة أنواع. فبعضهم مخلوق من مركب مائي وناري، وبعضهم مخلوق من الهواء، وبعضهم من الطين، أما أرواحهم فمخلوقة من مادة موجودة تحت القمر لا تصلح إلا لصنعها .

ويرى التلمود أن بعض الشياطين من نسل آدم، لأنه بعدما لعنه الله، أبى أن يجامع زوجته حواء حتى لا تلد له نسلا تعيساً، فيحضر له اثنتان من نساء الشياطين فجامعهما فولدتا شياطين .

وجاء في التلمود أن آدم كان يأتي شيطانة مهمّة اسمها ليليت مدة 130 سنة فولد منها شياطين.

وكانت حواء لا تلد في هذه المدة إلا شياطين بسبب نكاحها من ذكور الشياطين. والشياطين حسب التلمود يتناسلون ويأكلون ويشربون ويموتون .

وأمهات الشياطين المشهورات أربع، استخدمهن سليمان الحكيم بما كان له عليهن من السلطة وكان يجامعهن .

قال التلمود: (إن إحدى هؤلاء النسوة امرأة الشيطان المسمى (شماعيل) تذهب مع بناتها في مقدمة مائة وثمانين ألف شيطان بصفة رئيسة عليهم ليضروا الناس في ليلتي الخميس والسبت، وليليت السابق ذكرها، عصت آدم. فعاقبها الله بموت أولادها. فهي تنظر كل يوم مائة من أولادها يموتون أمامها. ومن ذلك الحين تعهدت أن لا تقتل أحداً من الأطفال التي لها عليهم السلطة إذا تليت عليهم ثلاث أسماء من أسماء الملائكة. وهي تعوي دوماً كالكلاب ويصحبها مائة وثمانين ملكاً من الأشرار .

وتوجد شيطانة أخرى من الأربع المذكورات، دأبها الرقص دون أن تستريح وهي تصحب معها مائة وتسعاً وسبعين روحاً شريرة.

أما محل سكن الشياطين، فقال الحاخامات: (إن بعضهم يسكن في الهواء. وهم الذين يسببون الأحلام للإنسان). وبعضهم يسكن في قاع البحر وهم الذين يتسببون في خراب الأرض إذا تركوا وشأنهم وبعضهم يسكن في أجساد اليهود المتعودين على ارتكاب الخطايا.

ويرى التلمود أن اثنتين من الشيطانات تسكنان في جبال الشرق المظلمة اسمهما إذا ـ وإذائيل. وهما اللتان علمتا السحر لبلعام وأيوب. وكان يحكم الملك سليمان على الطيور والشياطين بواسطتهما وكانتا السبب في حضور بلقيس إليه[1].

من خلال ما تقدم نرى أن كلام التلمود هو أقرب إلى الهذيان والأسطورة. وفيه من معالم الكفر ما لا يعد ولا يحصى.

ونلاحظ أن ما عجزت التوراة عن ذكره عن الشياطين، قدمه التلمود ولكن بأسلوب خرافي أسطوري يعبق برائحة الكفر والإشراك بالله والتجني على آدم وحواء.

---

(1) يوسف نصر الله. الكنز المرصود في قواعد التلمود ص 62 ـ 63.

الفصل الخامس

الموت والبعث واليوم الآخر
النعيم والجحيم
في التوراة والقرآن الكريم

عرفت جميع العقائد والديانات الموت باعتباره إحدى القضايا الأساسية التي تمس الإنسان والحيوان والنبات. فكانت لكل عقيدة نظرتها وفلسفتها وقد صاغت كل الشعوب فلسفتها حول الموت من خلال سؤال طرحه الإنسان منذ وجوده الأول وهذا السؤال يقول ما هو الموت؟ لماذا الموت؟.

وتوسع العقل البشري في تساؤلاته حتى صار سؤاله موجهاً نحو ما وراء الموت. كيف ركب الإنسان؟ ما الروح وما الجسد؟ ما علاقتهما ببعضهما؟. ما الذي يفنى وما الذي يبقى؟.

وتصور العقل البشري حياة غير مفهومة للإنسان بعد الموت. فتارة يرى أن هذا الإنسان ينتقل إلى حياة أخرى فلذلك وضعوا معه عند موته الطعام والشراب واللباس وتارة تصوروا أن الروح تنتقل إلى إنسان آخر في بلد آخر فيما سمي بعدئذ بالتناسخ. وقبل سبعة آلاف عام اعترفت ملاحم وأساطير بلاد الرافدين القديمة بفشل الإنسان في قهر الموت. وبعد أ ن عجز عن النصر اعترف أن سر الحياة بقي للآلهة. وأنه عجز عن امتلاكه.

أما الديانات الهندية فرأت أن الجسد وحده يموت أما الروح فهي خالدة. و في نهاية المطاف ستتحد روح الإنسان الصالح بروح الإله.

وقد آمنت أكثر الديانات القديمة بوجود عالم آخر. فحسب عقائد بلاد الرافدين فإن العالم الآخر عالم فظيع تسكنه الأطياف ويهوي إليه الموتى. ويرون في العالم الآخر عالما سفليا، مظلما. ولم يفكروا بخلود الصالحين في جنة نعيم.

بل رأوا أن الإنسان ينتقل إلى العالم المظلم ويبقى فيه إلى الأبد. ويتساوى البشر في هذا العالم. الملوك والناس العاديون كلهم سواسية في عالم الموت المظلم.

وقد تميزت عقائد المصريين بتطور مهم في مفهوم الموت وما بعد الموت. فقد آمنوا بالحياة بعد الموت والحساب والنشور والجنة والنار. وأكدوا فكرة الخلود. وللروح شأن مهم في عقائدهم. فهي ذات منفصلة عن الجسم إلا أنها تحل فيه بشكل متصل ومنقطع. وهي جوهر خالد يشكل صلة الوصل بين الإنسان والإله. وتتصل الروح بعالم الآلهة ما دام الإنسان على قيد الحياة. ويمكن للأرواح أن تتصل بعالم الأحياء بعد الوفاة وتنبئ الأحياء بأسرار المستقبل. وتحذرهم من الأخطار. ويرى المصريون القدماء أن الروح تزور الجسد بين الحين والأخر.

ويرون أن الموت بداية الطريق إلى اليوم الآخر. فإما إلى الخلود والنعيم وإما إلى الجحيم وفي الديانة المصرية آلهة للحساب والميزان. فمن كانت أعماله الصالحة أكثر من سيئاته دخل النعيم وأما إذا كان العكس فإن مأواه الجحيم. وصورت النقوش المصرية الإله أوزوريس وهو يزن قلب الإنسان ليرى ما فيه من خير وشر، وما الذي يزن اكثر من الآخر حتى يجازى صاحبه حسب أعماله.

مفهوم الموت في التوراة والقرآن

يظهر مفهوم الموت في التوراة منذ سفر التكوين أي السفر الأول من هذا الكتاب. وترى التوراة أن آدم حكم على نفسه بالموت عندما خيره الله بين أكل ثمر الشجرة المخلَدة وبين عدم أكلها. واختار آدم أكل ثمرة الشجرة، شجرة المعرفة. فلذلك عصى أمر ربه فطرد من الجنة وأصبح معرضاً للموت.

جاء في سفر التكوين (من جميع شجر الجنة تأكل أكلا. أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتا تموت) التكوين 2: 16-17.

ويرى بعض الباحثين أن اليهودية تركت أمام آدم إمكانية الاختيار بين شجرة معرفة الخير والشر ومعها الموت، وبين شجر الجنة الآخر ومعه الخلود. فاختار المعرفة والموت. وهكذا فقد خلق آدم في البدء غير فان ولا خالد. فاختار الثمر المحرم وعزف عن الخلود وصار فانيا. ومنذ تلك اللحظة تقرر الموت على البشر أي منذ بدء الخلق. وباختيار البشر أنفسهم ممثلين بآدم.

والواقع أن المسألة تأخذ أبعاداً أكثر دقة وأكثر عمقا في القرآن الكريم.

فالآية القرآنية التي تقول: وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة. تشير لنا بوضوح أن الله سبحانه قرر في علمه المسبق أن آدم سيكون في الأرض وليس في الجنة، وأن قصة الخطيئة ليست سوى ربط السبب بالنتيجة. فعلم الله المسبق أمر يختص الله سبحانه به ولكن الخطيئة بشرية أي أن الإنسان الأول مال نحو عصيان أمر الله فأنزل إلى الأرض. صحيح أن آدم اختار الطريق الذي سيؤدي به إلى النزول إلى الأرض والموت. ولكن آدم نفسه لم يختر الطريق عن علم وإرادة بل اختاره عن جهل بالمصير وقد تناسى وتجاهل تحذير الله سبحانه.

وبعيدا عن الخوض في هذه المسألة الشائكة بين العلماء والمتكلمين والفلاسفة المسلمين نعود لمسألة الموت كما بيّنها الله سبحانه في القرآن الكريم.

فالموت نهاية كل حي. نهاية من يحمل في تركيبه الجسدي عناصر فنائه. ولا خلود لمخلوق. فالله سبحانه هو الخالد الباقي.

يقول تعالى: (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) الرحمن 26ـ 27. وقد وردت كلمة الموت ومشتقاتها في القرآن الكريم 161 مرة.

ولو نظر الإنسان بشكل دقيق في طبيعة الحياة والموت لأدرك أن المخلوق في أساسه كان في عالم الموت. ثم أحياه الله في رحم أمه. ثم خرج إلى الدنيا ثم توفاه الله. فالحياة في هذا الإطار دورة إنسانية متكاملة.

يقول تعالى: (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) البقرة 28. فالموت حتمية المخلوق. والإيمان بهذه النهاية من مستلزمات الإيمان للإنسان المسلم. فمن ينكر الموت ينكر الواقع وينكر هذه الحتمية. وبالتالي هو ينكر عنصراً من عناصر الإيمان بالله. لأن الموت بداية لليوم الآخر ونهاية للوجود الدنيوي.

لقد تحدثت آيات كثيرة عن حتمية الموت، وذلك لتجعله يقينا أمام عين وبصيرة الإنسان يقول تعالى: (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) الأنبياء 35. فلا خلود لنفس مخلوقة مهما كانت درجة صاحبها من النبوة أو الملك. فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليسوا خالدين باعتبارهم بشرا مخلوقين وهم أقرب الناس إلى الله سبحانه وتعالى فكيف بالناس العاديين؟.

يقول تعالى: (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون) الأنبياء34 والموت باعتباره حتمية لكل مخلوق فلا حواجز تمنعه ولا حصون ولا تحصين.

يقول تعالى: (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) النساء 78 وقد عُرف بعض الأقوام كالدهريين الذين قالوا إن الموت نهاية المطاف، ولا شيء بعده. يقول تعالى واصفاً إياهم:

وقالوا: (ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) الجاثية 24.

فاعتقادهم بأن الموت نهاية لا شيء بعده، لم يأتهم عن علم، لأنهم وغيرهم لم يروا أو يحسوا بما بعد الموت، فقولهم هذا، ليس إلا من قبيل الظن والتخمين وقصر النظر. وقد كانت حجتهم عندما يرفضون الإيمان بآيات الله - أن أرجعوا لنا آباءنا - . يقول تعالى: (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات. ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) الجاثية 25.

وقد تساءل الناس عن كنه الموت فلم يجدوا جواباً. وقد حير الموت المفكر والإنسان العادي. وقد كان أكثر الناس تساؤلا الذين كذبوا الأنبياء ورفضوا الإيمان بالله وبوحدانيته.

وقد أورد القرآن الكريم قصص هؤلاء مع أنبيائهم الذين دعوهم للإيمان بالله سبحانه فرفضوا وكانت حججهم بأن أخبار آبائهم والأولين انقطعت عنهم فماذا يمكن أن يقنعهم طالما أن أحداً لم يعد إلى الدنيا بعد موته؟.

وطالما أن الله سبحانه هو الخالق الناشئ فهو القادر على الموت والحياة بعد هذا الموت، وقد وردت آيات كريمة كثيرة تشير إلى هذا الأمر.

أما تساؤل الإنسان عن الموت وإحياء الموتى فقد ورد في آيات كريمة أخرى.

يقول تعالى: (ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا. أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يكُ شيئا؟) مريم 67.

وما من نبي إلا وتعرض لجدال قومه حول مسألة الموت. وقد ارتبط - كما نعرف - مفهوم الموت بمفهوم البعث والحساب ويوم القيامة. وهذا الأمر كان وما

يزال من أهم الأمور التي تشغل الإنسان. فلـذا نجـد الأقـوام الـتي بعـث إليـها الأنبياء تساءلت عن الموت وكذّبت رسلها.

لننظر إلى قوله تعالى: (أيعدكم أنكـم إذا متّم وكنتـم ترابـا وعظامـا أنكـم مخرجون. هيهات هيهات لما توعدون. إن هي إلا حياتنا الدنيـا نمـوت ونحيـا وما نحن بمبعوثين) سورة المؤمنون 35 ـ 37.

وقد وصف القرآن الكريم عنادهم وإصرارهم على رفض البعث بعد الموت.

يقول تعالى: (وأقسموا بالله جهد إيْمَانهم لا يبعـث الله مـن يمـوت بلـى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) النحل 38.

وتؤكد الآيات الكريمة أن النفس التي أراد الله موتها لا يتقـدم وقتـها ولا يتأخر. فهي معرَّضة للموت نهارا وليلا وكل الأمر عائد إلى الله سبحانه.

يقول تعالى: (الله يتوفى الأنفس حـين موتـها والـتي لم تمـت في منامـها فيمسك التي قضى عليها المـوت ويرسـل الأخـرى إلى أجـل مسـمى إنَّ في ذلـك لآيات لقوم يتفكرون) سورة الزمر 42.

أما الأرض فقد قضى الله سـبحانه أن بـني البشـرية سـيحيون فيـها ثـم يموتون فيها ثم يبعثون منها.

يقول تعالى: (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو لكم في الأرض مستقر ومتـاع إلى حين. قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) الأعراف 24ـ 25.

وتؤكد الآيات أيضا أن الله سبحانه يرسل ملائكته حفظا للبشر حتى إذا قضى على الإنسان بالموت جاءته الملائكة بأمر الله وتوفته. يقـول تعـالى: (وهـو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسـلنا وهم لا يفرطون.) الأنعام 61.

وقد كان الإيمان بحتمية الموت راسخا لدى الأنبياء، خاصة وهم يجادلون أقوامهم في هذا الشأن، وقد جاءت تعاليم الله واضحة لأنبيائه في ذلك.

يقول تعالى: (وأن إلى ربك المنتهى وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا) النجم 41- 42- 43.

يقول تعالى في قصة جدال إبراهيم مع من كفر بربه: (إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت) البقرة 258. ويقول تعالى: (والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير) آل عمران 156.

ويقول تعالى: (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) الأعراف 158. ويقول تعالى: (إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) التوبة 116.

وقد وصف الله سبحانه في كتابه العزيز شدة الموت في أربع آيات:

يقول تعالى: (وجاءت سكرة الموت بالحق) ق 19.

يقول تعالى: (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت) الأنعام 93 ويقول تعالى: (فلولا إذا بلغت الحلقوم) الواقعة 83.

ويقول تعالى: (كلا إذا بلغت التراقي) القيامة 26.

إن هذه الآيات الكريمة تؤكد شدة الموت على الإنسان. فنزع الروح التي رافقت هذا الجسد منذ ولد حتى الموت تنسل منه انسلالاً ولا يستطيع عقل تصور ذلك من خلال تصوره أو تخيله. ولا يعرف هذا الإحساس إلا من وقع فيه أي إلا من دنت منيته وأخذ في النزع. أما الموت في عقيدة التوراة فهو لا يرتبط بثواب أو عقاب. إذ إنه كما يتضح في نصوص التوراة ليس إلا نهاية الإنسان الحي ونهاية كل حي وفي المنظار الظاهري فإن الموت نهاية لهذا الجسد. ولم

يكن التوراتيون على يقين بأن الموت مرحلة، وهذه المرحلة لا بد لها من مرحلة قادمة.

وبسبب عدم التعمق التوراتي بمسألة الجسد والروح فقد أشارت نصوصهم إلى الروح بأنها كانت منفصلة عن الجسد. وتارة يعتبرون أن الروح تدخل الدم. فإذا ما فقد الإنسان دمه فقد روحه. وجاء في التوراة: (وكل إنسان من بيت إسرائيل ومن الغرباء النازلين في وسطكم يأكل دما أجعل وجهي حدَ النفس الآكلة الدم وأقطعها من شعبها لأن نفس الجسد هي في الدم) لاويين 17: 10ـ 11.

وجاء أيضاً: (لأن نفس كل جسد هي دمه كل من أكله يقطع) لاويين 17: 14 وهناك إشارات في بعض أسفار التوراة إلى أن الإنسان عندما يموت يرجع جسده الترابي إلى التراب وتعود الروح إلى الله .جاء في التوراة: (فيرجع التراب إلى الأرض كما كان وترجع الروح إلى الله الذي أعطاها) سفر الجامعة 12: 7.

وفي سفر الجامعة كلام للنبي داود عليه السلام يشير فيه إلى الحياة والفناء للفرد والمجموعة.

يقول: (ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس) جامعة: 1: 3.

(ليس ذكر للأولين. والآخرون أيضاً الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم) الجامعة 1: 11.

ويرد في هذا السفر أيضاً قول التوراة على لسان داود: (لأن يحدث لنبي البشر يحدث للبهيمة. وحادثة واحدة لهم. موت هذه كموت ذاك ونسمة واحدة للكل. فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل يذهب كلاهما إلى مكان واحد. كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما) جامعة: 3: 19 ـ 20.

ويقول: (من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق وروح البهيمة هل هي تنزل إلى الأسفل إلى الأرض فرأيت أنه لا شيء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله لأن ذلك نصيبه) جامعة 3: 21 ـ 22.

فهذه النصوص تؤكد حتمية الموت كما يراها داود والأنبياء عليهم السلام. وتوضح أن التراب مصير كل جسد إنساناً كان أو بهيمة. وهذه المعاني نجدها في القرآن الكريم واضحة في عشرات الآيات القرآنية.

ويرى النبي داود في سفر الجامعة أن (يوم الممات خير من يوم الولادة) جامعة 7: 1 فالموت راحة للإنسان والحياة تعب وعناء.

ومع ذلك فإن النهاية التي ترد في التوراة تتوقف عند الموت فحسب.

تقول التوراة على لسان النبي داود: لكل الأحياء يوجد رجاء فإن الكلب الحي خير من الأسد الميت. لأن الأحياء يعلمون أنهم سيموتون أما الموتى فلا يعلمون شيئاً وليس لهم أجر بعد لأن ذكرهم قد نسي. ومحبتهم وبغضهم وحسدهم هلكت منذ زمان ولا نصيب لهم بعد إلى الأبد في كل ما عمل تحت الشمس) جامعة 9: 4 ـ 6.

فإذا أخذنا هذا الحكم في الموت على محمل الحياة الدنيا فإن الإنسان ينقطع عن الحياة إذا مات. وبالموت لم يعد له مجال لعمل الخير ونبذ الشر. وهذا ما يتوافق مع النظرة الإسلامية في ذلك.

أما إذا أخذنا المسالة على محمل ما بعد الموت سنجد أن القرآن الكريم يوضح أن الأموات إن عملوا صالحاً في دنياهم فإنهم سيجدون نعيماً خالداً. وهو في كل الأحوال أفضل مما في الدنيا.

يقول تعالى: (للآخرة خير لك من الأولى) سورة الضحى 4.

يقول تعالى: (والآخرة خير وأبقى) الأعلى 17.

ويختلط مفهوم الموت بمفهوم القبر عند التوراتيين. ولكن المفهوم يبقى غامضاً حيث نرى أن القبر ليس سوى نهاية. وهو الهاوية.

جاء في التوراة: (لذلك فرح قلبي وابتهجت روحي. جسدي أيضاً يسكن مطمئناً لأنك لم تترك نفسي في الهاوية) مزامير 16: 9.

جاء في التوراة أيضاً: (مثل الغنم للهاوية يساقون. الموت يرعاهم ويسودهم المستقيمون غداة وصورتهم تبلى. الهاوية مسكن لهم إنما الله يفدي نفسي من يد الهاوية لأنه يأخذني) 49 : 14 ـ 15.

فهذه النصوص تقر بالموت وتخرج من دائرة المنظور إلى دائرة الإحساس بالحتمية حتمية الموت. وباعتبار أن المزامير تنسب إلى النبي داود فقد جاء الإحساس بالموت مختلفاً وهذا ما يجعل المرء يتوقف عند هذه النصوص لأنها تعبر عن نفس مختلف عما كتب في أسفار أخرى في التوراة.

فعلى الرغم من إن الفقرات التي وردت تشير إلى حتمية الموت إلا أن بعضها يشير إلى اطمئنان غير عادي للمصير. فالنبي داود عليه السلام يقول: إنما الله يفدي نفسي من يد الهاوية لأنه يأخذني. وعلى الرغم من غموض الخلفية إلا إن قناعة الإيمان بالله تصل عنده إلى حدود أن الله سيأخذه. وإذا حملنا المسألة على محمل التأويل أو التفسير فإن الله سيأخذه في ملكوت الخلد والنعيم والرضا الإلهي.

إن هذا يقودنا للحديث عن مفهوم البعث بشكل واسع في القرآن الكريم وفي التوراة فهل الموت نهاية كل حي؟ هل تبقى الأجساد في الأرض؟ هل تفنى ولا تعود؟ ما معنى البعث والنشور وقيامة الأموات؟ ما معنى يوم القيامة؟ وكثيرة هي الأسئلة التي تدور حول ذلك. وما أكثر أجوبة القرآن الكريم عليها.

في التوراة نرى كثيراً من النصوص الـتي تنـاقض مفـاهيم بعضـها بعضـاً. فالموت عند بعض الأنبياء والشخصيات الدينية الوارد ذكرها في التوراة هو تلاش وفناء ولا عودة ولا بعث. وعند بعضهم نشور، قيامةٌ وبعث من عـالم الأمـوات، ويبدو دوما أن مدوِّني التوراة خضعـوا بشـكل مـا إلى مؤثـرات نفسـية واضحـة، انعكست على اللغة والمفاهيم ونبعت من قناعات شخصية للمدوِّنيين.

وعندما نلاحظ ما ورد في سفر أيوب مثلا نرى أن الشعور بـالعدم يسـيطر عليه فالموت ظلمة ورطوبة وعفونة ويأس من كل شيء.

جاء في التوراة: (هذا يموت في عين كماله. كله مطمئن وساكن. أحـواض مملوءة لبنا. ومخ عظامه طري. وذلك يموت بنفس مرة. ولم يذق خيرا، كلاهمـا يضطجعان معا في التراب والدود يغشاهما) أيوب 21: 22ـ 26.

وفي يأس عارم يجتاح أيوب في التوراة يقول: (الإنسان مولود المـرأة قليـل الأيام وشبعان تعبا يخرج كالزهر ثم ينحسم، ويبرح كالظل ولا يقف، فعلى مثل هذا حدقت عينيك وإياي أحضرت إلى المحاكمة معك. مـن يخـرج الطـاهر مـن النجس. لا أحد إن كانت أيامه محدودة وعدد أشهر عندك. وقـد عينـت أجلـه فلا يتجاوزه فاقصر عنه ليسترح إلى إن يسر كالأجير بانتهاء يومـه) أيـوب 14: 1ـ 6.

ويقول: (هكذا الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعـد لا يرجـع) أيـوب 7: 9ـ 10.

وحسب قول التوراة المدونة فإن أيوب يرى في الموت ظلمة أبدية لا غـير. تقول: إلى أرض ظلمة، وظل الموت، أرض ظلام مثـل دجـى ظـل المـوت. وبـلا ترتيب وإشراقها كالدجى). أيوب 10: 21.

ويتساءل أيوب: أما الرجل فيموت ويبلى. الإنسان يسلم الروح فأين هو قد تنفذ المياه من البحرة والنهر ينشف ويجف والإنسان يضطجع ولا يقوم ولا يستيقظون حتى لا تبقى السماوات ولا ينتبهون من نومهم) أيوب 14: 10ـ 12.

وتورد التوراة بعض الفقرات في سفر الجامعة تدفع الإنسان لإشباع رغباته الدنيوية قبل أن يموت ويفنى تقول: (كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأن ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها) الجامعة 9: 7ـ 10.

وتكثر مثل هذه النصوص في المزامير 6 و15 و88 وسفر الجامعة وجميعها تشير بشكل واضح إلى أن النهاية في الموت والتراب.

تقول التوراة: (عد يا رب نج نفسي. خلصني من أجل رحمتك لأنه ليس في الموت ذكرك في الهاوية من يحمدك) مزمور 6: 4ـ 5.

وتقول: (ليس الأموات يسبحون الرب ولا من ينحدر إلى أرض السكوت) مزمور 115ـ 17.

وتقول: (أفلعلك للأموات تصنع العجائب؟ أم الأخيلة تقوم تمجّدك سلاه. هل يحدّث في القبر برحمتك أو بحقك في الهلاك. هل تعرف في الظلمة عجائبك وبرَك في أرض النسيان) مزمور 88: 10ـ 11.

وكثرة استعمال لفظة الهاوية تدل على استفادة كتبة التوراة كثيرا من الأسطورة البابلية جلجامش. ومن أساطير الكنعانيين. وفي كلا النمطين من الأساطير هاوية وأرض ظلمة ورطوبة وما إلى ذلك.

وتأتي بعض المقاطع التي تشير إلى يوم القيامة وأهوالها. ولكنها بالقياس لما يرد عن الهاوية ونهاية الإنسان والموت تشكل حساً ضعيفاً جداً بالبعث والنشور وذلك بسبب قلتها بل ندرتها في التوراة.

ففي أشعيا يرد: (تحيا أمواتك تقوم الجثث، إستيقظوا ترنحوا يا سكان التراب) 26: 19.

ويرد أيضا: (وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون. هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي) دانيال 12: 2.

واذا عرفنا أن دانيال من أنبياء التوراة في السبي البابلي أدركنا مدى التطور الذي حدث في العقيدة اليهودية. او على الأقل مدى التطور الذي حدث لدى الأنبياء. وقوله هؤلاء إلى الحياة الأبدية. وهؤلاء إلى العار والازدراء الأبدي يذكرنا بتأكيد القرآن الكريم على أن المؤمنين هم خالدون في النعيم. بينما الكافرون خالدون في الجحيم. وقد ورد ذلك مرارا في القرآن الكريم.

إن الإشارات التي وردت عن قيام الأموات من الأرض تبقى في إطار الإشارات ولم تدخل في تفاصيل دقيقة كما وردت في القرآن الكريم.

وهناك شاهد واحد ورد في سفر الجامعة يصف بعض معالم يوم القيامة من أحد الجوانب، ونرى فيه الربط بين التوجيه الديني باستغلال الوقت في التقوى وعبادة الله قبل أن يأتي ذلك اليوم. ومن المعروف أن سفر الجامعة جاء على لسان داود عليه السلام.

تقول التوراة: (فاذكر خالقك في أيام شبابك قبل أن تأتي أيام الشر أو تجيء السنون إذ تقول ليس لي فيها سرور. قبل ما تظلم الشمس والنور والقمر والنجوم وترجع السحب بعد المطر. في يوم يتزعزع فيه حفظة البيت وتتلوى رجال القوة وتبطل الطواحين لأنها قلت. وتظلم النواظر من الشبابيك. وتغلق الأبواب في السوق. حين ينخفض صوت المطحنة ويقوم الصوت العصفور وتحط كل بنات الغناء. وأيضا يخافون من العالي. وفي الطريق أهوال واللوز يزهر والجندب يستثقل والشهوة تبطل لان الإنسان ذاهب إلى بيته الأبدي. والنادبون يطوفون في السوق. قبل ما ينفصم حبل الفضة أو ينسحق كوز الذهب أو تنكسر

الجرة على العين أو تنقصف البكرة عند البئر فيرجع التراب إلى الأرض كما كان وترجع الروح إلى الله الذي أعطاها) الجامعة 12: 1ـ 7.

فهذا المقطع الذي لا شبيه به في التوراة يتقاطع بشكل كبير مع ما ورد في القرآن الكريم وفي كثير من السور والآيات الكريمة، بما يخص وصف يوم القيامة.

يقول تعالى: (إذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت. وإذا الجبال سيرت وإذا العشار عطلت) التكوير 1ـ 4.

ويقول تعالى: (فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر) القيامة 7ـ 10.

ويقول تعالى: (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) الحج آية 2.

وإذا عدنا إلى آيات القرآن الكريم وجدنا الكثير من الآيات التي تشير بوضوح إلى بعث الناس من القبور إلى يوم الحشر.

يقول تعالى: (وإذا القبور بعثرت. علمت نفس ما قدمت وأخرت) الانفطار 4ـ 5.

ويقول تعالى: (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور) العاديات 9.

ويقول تعالى: (وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) الحج 7.

فبداية الأمر بعد الموت الطويل هو بعثرة القبور وخروج من فيها إلى قضاء الله.

وقد تساءل الكفار والذين خامرهم الشك في الإيمان بالله واليوم الآخر بأن هناك بعثاً وقيامةً بعد الموت. ويظهر جليا أن مقياسهم في ذلك هو مقياس مادي محسوس فما لم يحسّونه أو يشاهدونه فلا يؤمنون به.

يقول تعالى: (وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون. بل قالوا مثلما قال الأولون. قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون. لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين) المؤمنون 80ـ 83.

ففي ميزان المادية ومقياس الحس البشري المحدود اعتبروا أن البعث والعودة من الموت إن هو إلا خرافة وكلام ليس له أساس من الصحة. ويستشهدون على ذلك بقولهم إن آباءهم وُعدوا بالعودة كما وُعدوا هم فلا عاد آباؤهم ولن يعودوا هم وهذا هو المقاس الضيق الذي قاسوا فيه الموت والبعث والحياة.

ويقول تعالى إشارة إلى ذلك: (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين. قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون.) الجاثية 25ـ 26.

وقد رأى الإنسان العظام الآدمية قد نخرت ثم تباعدت أجزاؤها. فتساءل سؤاله الأكبر. هل يعقل أن تجمع العظام مرة أخرى ويبعث أصحابها للحساب؟.

يقول تعالى: (وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديد) الإسراء 49.

ويقول تعالى: (يقولون أإنا لمــردودون في الحـافرة أإذا كنـا عظامـا نخـرة) النازعات 10ـ 11.

ويقول تعالى: (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظامـا أنكـم مخرجـون) المؤمنون 35.

ويقول تعالى: (أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه) القيامة 3.

ويقول تعالى: (وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا وعظامـا أإنـا لمبعوثـون) المؤمنون82.

وهذا التساؤل المتكرر قابله رب العالمين بأجوبة عقلية فيها الحوار العقلي المقنع الذي لا يدع مجالا للشك في يـوم البعـث أو جمـع العظـام وإنشـائها مـن جديد.

ويقول تعالى: (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال مـن يحـي العظـام وهـي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) يس 79.

ويقول تعالى: رداً على تساؤلاتهم في سورة المؤمنون (قل لمـن الأرض ومـن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون) 84 ـ 85.

ويقول تعالى: (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها المـاء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شـيء قديـر) فصلت 39.

ويقول تعالى: (وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور) الحج 66.

ويقول تعالى: (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هـل مـن شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون) الروم 40.

وعندما يصف القرآن الكريم البعث والنشور يفصل في الوصف حتى لتصبح المشاهد وكأنها محسوسة مرئية أمام الناظر.

ويوضح القرآن الكريم البدايات كما يوضح النهايات. وتقريباً للذهن البشري تورد بعض الآيات صوراً لمجريات قد أحس بها الإنسان إحساساً مادياً.

يقول تعالى: (إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها. يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها. يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم) سورة الزلزلة 1ـ 6.

ويقول تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) الحج 1ـ 2.

ويقول تعالى: (إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت. وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت) الانشقاق 1ـ 5.

ويقول تعالى: (القارعة ما القارعة. وما أدراك ما القارعة. يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش) القارعة 1ـ 5.

ويقول تعالى: (كلا إذا دكت الأرض دكا) الفجر 21.

ويقول تعالى: (فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) عبس 33ـ 37.

فهناك مظاهر ترتبط بالطبيعة. فلا الجبال تبقى جبالا. ولا السماء تبقى سماء وكذلك كافة معالم الأرض والكون المادي تتغير وتتنقلب.

وهناك مظاهر ترتبط بالإنسـان. فـالأجداث تخـرج مـن القبـور. ويتسـاءل الإنسان عما بعثه وعمن بعثه ولم يخـرج مـرة أخـرى إلى الحيـاة؟.. وبعـد هـذا الاندهاش والانبهار والتعجب ينتشر الناس ملايين ملايين كل منهم يبحث عن مصيره، عن شأنه الخاص الذي يعنيه ولا يعني غـيره. فـأقرب النـاس إليـه لا يعرفهم أو لا يتعرف ولا يريد أن يتعرف عليهم. فلا نفس تغني عن نفس شيئا.

ولهول هذا اليوم لا تستطيع المـرأة الحـامل تحمّـل مشـاهده، فتُسـقِط لـو شاهدته، وتنهار. أما الناس فهم كالمخمورين يترنحون من هول الصدمة، وعظمة ما يشاهدون، مـن مظـاهر لم يألفوهـا. ولم يعـهدوها في حياتـهم الدنيـا، بـهذه العظمة وهذه المشاهد. وقد أفرد سيد قطب كتابا خاصا بعنوان مشاهد القيامة في القرآن الكريم. عرض فيه كافة تلـك المشـاهد الأخرويـة وذلـك مـن خـلال سـور عديدة في القرآن الكريم. وقد سبقه إلى الكتابة في مثل ذلك السـلف الصـالح مـن العلماء المسلمين البارزين وكذلك من جاء بعدهم. وأبرزهـم كـان الإمـام القرطـبي الذي كتب التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة وابن القيم الجوزيـة في كتابـه الروح. وغيرهما الكثير الكثير.

استطراد

يمر معنا في بعض أسفار التوراة نصوص لأنبياء بني إسرائيل تشير إلى يوم عظيم هو أشبه بيوم القيامة. ولا يستطيع المرء أن يجزم أن هذه الإشـارات ليـوم القيامة، لأن ما فيها أيضاً يشير إلى خصوصية هذا اليوم لبـني إسـرائيل، وإلـه بني إسرائيل. ولذلك يحار المرء في هذه الأوصاف، ولا يستطيع الجزم بها ومثل ذلك ما يقوله إشعيا: (هو ذا الرب يخلي الأرض ويفرغها ويقلب وجهها ويبدد سكانها.) إشعيا 24: 1ـ 2.

ويقول: (ويكون أن الهارب من صوت الرعب يسقط في الحفرة. والصاعد من وسط الحفرة يؤخذ بالفخ. لأن ميازيب من العلاء انفتحت وأسس الأرض تزلزلت، انسحقت الأرض انسحاقاً. تشققت الأرض تشققاً. تزعزعت الأرض تزعزعاً. ترنحت الأرض ترنحاً كالسكران وتولولت كالعرزال. وثقل عليها ذنبها فسقطت ولا تعود تقوم) إشعيا 22: 18ـ 20.

وإلى هذا الحد من النص نرى التوافق كبيراً بين ما قاله القرآن الكريم وما قاله النبي إشعيا في التوراة.

ثم يتابع القول: (ويكون في ذلك اليوم أن الرب يطالب جند العلاء في العلاء. وملوك الأرض على الأرض. ويجمعون جميعاً كأسرى في سجن. ويغلق عليهم في حبس ثم بعد أيام كثيرة يتعهدون ويخجل القمر وتخزى الشمس لأن رب الجنود قد ملك في جبل صهيون وفي أورشليم وقدام شيوخه مجد) إشعيا 24: 21ـ 23.

ويقول متابعاً: (ويقال في ذلك اليوم هو ذا إلهنا انتظرناه فخلّصنا. هذا هو الرب انتظرناه. نبتهج ونفرح بخلاصه. لأن يد الرب تستقر على هذا الجبل. ويداس موآب في مكانه كما يداس التبن في ماء المزبلة. فيبسط يديه كما يبسط السابح ليسبح فيضع كبرياءه مع مكايد يديه. وصرح ارتفاع أسوارك يخفضه يضعه يلصقه بالأرض إلى التراب) إشعيا 25: 9ـ 12.

ونبوءات إشعيا تقترب جميعها من هذا الخط النبوي. فهي تحذر من يوم قادم. هوله عظيم. ومعالمه شديدة التغيير قياساً بما شاهده بنو البشر.

لكن الملاحظ أن كتبة التوراة يخلطون ما هو مرتبط بيوم القيامة بيوم خاص لإلههم وتجلياته على جبل صهيون.

ويطالعنا مثل ذلك في نبوءات دانيال، وقد أشرنا إلى ذلك في صفحات سابقة حيث يقول: (في ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك، ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت. وفي ذلك الوقت ينجّى شعبك كل من يوجد مكتوباً في السفر، وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي. والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور) دانيال 13: 1ـ 3.

ولا تبتعد نبوءات بني إسرائيل كثيراً عما استقاه المسيحيون البروتستانت الذين فسروا التوراة تفسيراً حرفياً.

فهم يعتقدون أن حرباً كونية ستقع يطلقون عليها (هرمجدون) يقاتل فيها الرب ضد الكفار وينزل المسيح المنتظر ويقيم مملكة الله على الأرض. ويرون أن أنسب مكان لقيام حرب هرمجدون هو (فلسطين).

وتقضي النبوءة الإنجيلية بأن على اليهود أن يدمروا المسجد الأقصى ويبنوا الهيكل مكانه وذلك تمهيداً لبناء مملكة الله على الأرض[1]

وفي التلمود نصوص تشير بشكل ما إلى الجحيم والنعيم وليس إلى يوم البعث والقيامة تحديداً.

ويرى اليهود السامريون أنّ في توراة موسى نصاً على يوم القيامة. وأن العبرانيين حرفوه إلى يوم جزاء. قد يكون يوم القيامة وقد يكون يوماً من أيام هذه الحياة الدنيا. وهذا النص موجود في سفر التثنية بقوله: (أليس ذلك مكنوزاً

---

(1) النبوءة والسياسة. غريس هالسل. جمعية الدعوة الإسلامية العالمية. ومجلة رسالة الجهاد الليبية. ترجمة محمد السماك.

عندي. مختوماً عليه في خزائني في النقمة والجزاء في وقت تزل أقدامهم) تثنية 32: 34.

يقول التلمود: (النعيم مأوى الأرواح الزكية. ومأكل المؤمنين في النعيم هو لحم زوجة الحوت المملحة كما علمت. ويُقدَّم لهم أيضاً على المائدة لحم ثور بري كبير جداً كان يتغذى بالعشب الذي ينبت في مئة جبل.

ويأكلون أيضاً لحم طير كبير لذيذ الطعم جداً ولحم أوز لذيذ للغاية. أما الشراب فهو من النبيذ اللذيذ القديم المعصور ثاني يوم خليقة العالم.) سنهدرين ص 8.

ولا يدخل الجنة إلا اليهود. أما الجحيم فهو مأوى الكفار. ولا نصيب لهم فيه سوى البكاء لما فيه من الظلام والعفونة والطين.

ويرى التلمود أن الجحيم أوسع من النعيم ستين مرة لأن الذين لا يغسلون سوى أيديهم وأرجلهم كالمسلمين والذين لا يختنون كالمسيحيين. الذين يحركون أصابعهم (يفعلون إشارة الصليب) يبقون هناك خالدين[1].

أما في القرآن الكريم وضوح للجحيم والنعيم. وتكثر الآيات الكريمة في الحديث عنهما

تشير الآيات الكريمة أن الله سبحانه يأمر بالنفخ في الصور فيقوم الناس جميعاً من القبور متسائلين عن هذا اليوم العظيم. وتوضع موازين **القسط** في محكمة إلهية لحساب بني البشر على أعمالهم فمن كانت حسناته **أكثر من** سيئاته أدخل الجنة ومن كان كافراً يدخل النار.

---

(1) الكنز المرصود في قواعد التلمود. ترجمة د. يوسف نصر الله. صفحة 68ـ 69 دار القلم **دمشق ط1** 1987.

وفي الحديث عن الجنة والنار هناك مئات الصور الحسية حول ذلك. وهناك أمور غيبية لا يعلمها إلا الله سبحانه وقد أشار لها في آيات القرآن الكريم.

ويمكن أن نجمل بعض الصور الحسية والغيبية فيما يلي :

1- خلود أهل الجنة بما عملوا من حسنات وخلود أهل النار بما عملوا من سيئات.

2- في النعيم كل ما لذ وطاب وكل راحة نفسية وروحية وفي الجحيم أصناف من العذاب كثيرة ومتنوعة.

3- لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى فكل نفس بما كسبت رهينة. ولا تزر وازرة وزر أخرى.

4- دخول الجنة تصديق لوعد الله الذي وعده في الحياة الدنيا وكذلك الجحيم.

وهناك من الجزئيات الكثير فيما يتعلق بالنعيم والجحيم وقد أتت على ذكرها بعض الكتب الإسلامية وقد أشرنا إلى بعضها ككتاب مشاهد القيامة في القرآن الكريم. والتذكرة وغيرها....

وقد خلت التوراة من التفصيل فيما يرتبط بالجحيم والنعيم. بل هناك غموض كامل حولها وقد ربطت بعض نصوص التوراة العمل الحسن بطول العمر في الدنيا فلا جنة ولا جزاء على فعل الخير.

ففي الوصية التي هي أكرم أباك وأمك قرنت الطاعة بوعد طول الحياة فحسب ولا جزاء من الله في يوم الآخرة.

وقد وصفهم القرآن الكريم بأنهم أحرص الناس على الحياة الدنيا بسبب قلة أيمانهم بل كفرهم بالله ويوم الآخرة.

يقول تعالى: (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) البقرة 94ـ 95.

(ولتجدنَّهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون) البقرة 96.

ويقول تعالى: (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) البقرة 111.

الفصل السادس

تطور العقيدة اليهودية
على يد الأحبار والفلاسفة
من التحريف إلى الإلحاد

تطور العقيدة اليهودية على يد الأحبار والفلاسفة

خضع تطور العقيدة اليهودية لظروف كثيرة، منها ما هو على الصعيد الذاتي اليهودي، ومنها ما هو على صعيد المؤثرات الخارجية المادية والثقافية.

فبعد أن سمح كورش مللك الفرس لبعض أتباع اليهودية بالتسرب إلى فلسطين وجد أحبار اليهود أنه لا بد من تطوير في العقيدة اليهودية حتى تتناسب والظروف الجديدة والمستجدة.

لقد مكث اليهود في السبي البابلي ما بين 50 ـ 70 عاما كانت كفيلة بأن تصنع في النفسية اليهودية تأثيرا واضحا. إن كان ذلك في العقيدة أو السلوك أو الفكر أو كان في طبيعة القوانين الحياتية والتشريعية وما إلى ذلك.

لقد تأثر المسبيّون بمعتقدات أهل بابل والفرس وانحاز بعضهم كليا إلى آلهة هذه الأقوام الوثنية. وحاول أنبياء التوراة الإصلاح في عقيدتهم. لكن طبيعة الشخصية اليهودية المتقلبة، جعلت من الصعب محو الآثار العقيدية الجديدة من نفوس اليهود.

ولذلك وجد بعض المصلحين اليهود أنَّ دمج الحس العقيدي بالحس السياسي، أمرٌ لا مفر منه لاستعادة وحدة المشتتين وعقيدتهم. فالعودة بالعقيدة اليهودية، يستدعي عودة إلى الروح المتوثبة نحو استعادة استعمار القدس، الرمز الذي كان فيما سبق مجداً لبني إسرائيل وملكهم حسب التوراة. وابتدأ الأنبياء

التوراتيون الجدد، والمصلحون الدعوة للعودة إلى فلسطين حيث يقام الهيكل مرة ثانية ويعود مجد رب الجنود إلى سابق عهده يرعى شعبه المختار ويعيد بناء دولته المنقرضة.

ولعب الكهنة دورهم في تغذية الشعور بالعودة لدى جماهير المسبيين.. إذ أن العودة تعني المملكة الواحدة. وتعني المجد وتعني الحرية وتعني الانعتاق حسب ما يظنون.

وحسب ما تشير إليه نصوص التوراة فإن الكاهن يصبح في وقت من الأوقات قائدا دينيا وسياسيا. فهو يشرّع وهو يوجه الجمهور إلى قضايا سياسية تخصّه وتخص مكانته والأرض التي ينزل عليها.

لقد عاش آخر أنبياء التوراة في القرن الخامس قبل الميلاد وقد أوردت التوراة آخر سفرين باسم حجي وزكريا. وبعدهما لم يعد هناك أنبياء، وهذا يعني أن دوراً جديداً سيلعبه رجال جدد ليسوا أنبياء إنما هم كهنة وأحبار.

وقد أشارت التوراة إلى فقدان شعب إسرائيل للأنبياء وذلك في المزمور 74 الذي قال أكثر الباحثين إنه أُلِّف في القرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد وقد جاء فيه (آياتنا لا ترى. لا نبي بعد. ولا بيننا من يعرف حتى ومتى) المزمور 74.

في هذه الفترة قام اللاهوتيون اليهود بإجراء تطهير فريد من نوعه، فانتقوا من بين المؤلفات النبوية القديمة التي تجمعت خلال قرون، تلك التي كانت برأيهم تستحق ذلك أكثر من غيرها. أي التي كانت تنسجم أكثر من غيرها مع المذهب الأرثوذكسي اليهودي الذي كان قد توطدت معالمه إلى حينه. وهكذا كان ما يسمى بقانون الأنبياء (أي طاقم الكتب النبوية التي تم اعتبارها أسفارا مقدسة) قد تكوّن هو أيضاً بشكل أساسي في أوائل القرن الثاني[1].

---

(1) احمد يوسف. أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية ص 266. ترجمة آحو يوسف م. ريجسكي.

وبدءا من القرن الثاني ق.م انتشر بين اليهود على نطاق واسع نوع خصوصي من المؤلفات الدينية يسميه دارسو التوراة المعاصرون (Pseudoepigraphe) أي التوقيع الكاذب. حيث كان مؤلفو تلك الأعمال يستخدمون بطيبة خاطر الأسلوب الأدبي للأنبياء القدامى المناضلين من أجل ديانة (يهوه). وكان الدافع وراء ذلك الخوف من المراجع اللاهوتية. أنه لم يعلن المؤلفون عن أسمائهم بل نسبوا ما كتبوه إلى الأنبياء القدامى.

وهذه الأعمال تختزن في نفسها قيمة مهمة، وهي أنها تفصح عن تطور العقيدة اليهودية في القرنين الثاني والثالث قبل المسيح. والتي تجلت من خلال الصراع الذي حدث بين المسيح عليه السلام وبين أتباع العقيدة اليهودية.

وقد فسح الظرف الجديد ـ أي قبل بعثة المسيح عليه السلام ـ لرجال الكهنوت اليهودي أن يصبحوا المرجع الديني والسياسي لعامة اليهود. وهؤلاء الرجال أطلقوا على أنفسهم كهنة ومفردها كاهن. وراحوا يغيرون كثيرا من المفاهيم العقيدية اليهودية، ويفسرون التوراة تفسيرات مغايرة لمقاصدها، على الرغم من تحريف كلامها من موضع لآخر كما أشار لذلك القرآن الكريم في بعض آياته.

وفي هذا الظرف أيضاً، برزت بشكل واضح كتابات جديدة أطلقوا عليها التلمود. وقد اجتهد أحبار اليهود وكهنتهم في التفسير، فأخرجوا تلمودين أطلق على أحدهما التلمود البابلي وأطلق على الآخر التلمود الأورشليمي. وقد اعتمد اليهود بشكل أساسي على التلمود البابلي باعتباره الأوسع في الأحكام والأوسع في الشرح.

وقد انقسم التلمود إلى مشنا وجمارا. أي إلى سند ومتن. ويقال إن الجمارا أصبحت تنوء بحملها الجمال لكثرة ما ألف فيها وما شرحه الكهنة من نصوص المشنا.

وقد تناول التلمود نظرة اليهود لغيرهم من البشر. وتعاملهم بين بعضهم. وامتلأ بالقوانين البشرية كالزواج والطهارة والأعياد..... وبالقوانين الزراعية والصناعية ولكن الأهم من ذلك كله، طور النظرة العقيدية للدين اليهودي. وجاءت التفسيرات واسعة جدا حتى يكاد يكون التلمود كتابا عقيديا جديدا يختلف عن التوراة جذريا.

التوراة وتعدد نسخها المختلفة :

عندما دونت التوراة في زمن السبي البابلي، فإنها كتبت حسب ما قاله أكثر المؤرخين باللغة العبرانية المستندة على الحرف الآرامي المربع. ولكن دراسة التوراة بشكل دقيق أوصل الباحثين إلى أن التوراة كتبت بثلاث لغات، وصلت إلى العصر الحديث وهي التوراة السامرية. والتوراة العبرانية. والتوراة اليونانية.

والتوراة السامرية نسبة إلى السامرة التي تقع بجوار مدينة نابلس في فلسطين.

السامريون لا يؤمنون بالتوراة التي دونت من تسعة وثلاثين سفرا، إنما يعتقدون أن التوراة هي أسفار موسى الخمسة وهي التكوين. والخروج، والعدد، واللاويين، والتثنية. ويرون أن ما عدا هذه الأسفار ليس منزلا من قبل الله على موسى إنما دوّن تاريخ بني إسرائيل ولذلك فالأسفار الباقية ليست مقدسة ولا يعترف عليها.

والتوراة السامرية لم يعرف عنها شيء إلا القليل. حتى عام 1584 إفرنجي عندما عثر العلامة سكاليجر في القاهرة على تقويمين للسامريين. كما وجد في غزة مخطوطات خاصة بهم. فوضع على إثر ذلك أول رسالة علمية في السامرة وتاريخها وتقاليدها. وبعد ذلك بحوالي نصف قرن. نشر عالم إيطالي النص الأصلي لنسخة التوراة الأصلية كان قد عثر عليها في دمشق. فأثار نشرها

اهتمام المحققين. وكتبوا عنها البحوث المطولة، ولا يزال النقَّابون يعثرون بين حين وآخر على آثار وكتابات سامرية قديمة، فيها ما يلقي ضوءا جديدا على تاريخ هذه الطائفة التي استطاعت أن تحافظ على كيانها مدة زمنية طويلة.

وقد ترجمت التوراة السامرية من قبل الكاهن السامري أبو الحسن إسحق الصوري.

أما التوراة اليونانية أو السبعينية فقد دوّنت في عهد بطليموس فيلولفاوس 285 ـ 247 ق. م. وترجمت من العبرانية إلى اليونانية. وقد قام بالترجمة اثنان وسبعون عالما من علماء اللاهوت اليهود، وانتهي منها في إثنين وسبعين يوما. وكان اليهود الذين تسربوا إلى فلسطين يعتبرونها مزيفة. لكثرة التحريفات، والزيادة التي جاء بها النسَّاخ. وحسبوا اليوم الذي تمت فيه ترجمتها يوم نحس بالنسبة لهم. وهي تحتوي على أسفار الأبوكريفا. أي الأسفار المنوعة أو غير القانونية.

ويرى سايكل سل (أنها وضعت ثلاث ترجمات يونانية في سبيل تصحيح الترجمة السبعينية. وهي:

1 ـ ترجمة أكيلا. وكان قد اعتنق المسيحية. غير أن ترجمته هذه كانت حرفية لدرجة أنها جاءت غير صحيحة.

2 ـ ترجمة سيماغوس. وهو يهودي تنصر إلا أنه بقي محافظا على شريعة موسى. وقد وضع ترجمته بلغة يونانية أنيقة.

3 ـ ترجمة ثيودوسيوس. وكانت تنقيحا للترجمة السبعينيه، على أساس النص العبري الصحيح.

وقد ظهرت ترجمات أخرى للتوراة بعضها شبيه بالعبري، وبعضها شبيه باليوناني. منها:

1 ـ الترجمة السريانية وهي المعروفة بالبشيتا وهي مشابهة للسبعينية

2 ـ الآرامية وهي المعروفة باسم (ترجوم) وأهم الأقسام فيها ترجمة أنكيلوس المتهود، لأسفار موسى الخمسة. وترجمة يوناثان لأسفار الأنبياء وهي مشابهة للأصل العبري)

3 ـ اللاتينية وهي المعروفة باسم (فولجات) وهي الترجمة الرسمية للكنيسة الرومانية وقام بها (إيرونيموس)

وتختلف هذه الكتب فيما بينها في مسائل كثيرة أما اختلافاتها في مسائل العقيدة فتبرز في مسألة خلق الله للسماوات والأرض.

ففي التوراة العبرانية (وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع) تكوين 2: 2

وفي السامرية: (وكمل الله في اليوم السادس صناعته التي صنع)

وتختلف التوراة السامرية عن العبرانية، في الحديث عن الزمن الذي يفصل بين الأنبياء، وفي بعض الأماكن التي ورد اسمها مغايرا كما في التوراة العبرانية. ثم تختلفان في المكان المقدس الذي يجب أن يتجه اليهود إليه. ففي السامرية يجب أن يتوجه اليهود نحو جرزيم وهي قرب نابلس، بينما اليهود الآخرون يعتبرون عيبال المكان المقدس الذي يجب التوجه نحوه وقد ورد في ذلك في التوراة العبرانية.

وترى التوراة العبرانية (فنزل الرب في السحاب) بينما في السامرية (وانحدر ملاك الرب في الغمام).

وهناك اختلافات أخرى بين التوراة العبرانية والتوراة اليونانية وهي كثيرة في الألفاظ وتوجد زيادات هنا ونقص هناك أم ما يتعلق بأمور العقيدة فنرى ما يلي:

تقول التوراة العبرانية (وكلم الرب موسى قائلا: إصنع لك بوقين من فضة مسحولين تعملهما فيكونان لك لمناداة الجماعة ولارتحال المحملاّت. وإذا ضربتم هتافاً ثانياً ترتحل المحلات النازلة إلى الجنوب هتافاً يضربون لرحلاتهم) عدد 10: 1 ـ 6.

وعقب الآية السادسة في اليونانية هذا النص: وإذا نفخوا مرة ثالثة يرفع الخيام القريبة للارتحال. وإذا نفخوا مرة رابعة يرفع الخيام الشمالية للارتحال) وهذا لا يوجد في العبرانية.

ومن أمثلة ذلك في العبرانية (أن الرب التقاه) خروج 4: 24 وفي اليونانية أن ملاك الرب التقاه. وكثيرة هي الاختلافات.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن بني إسرائيل واليهود قد حرفوا الكلم عن مواضعه في عدد من الآيات والمواضع.

يقول تعالى: (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّا بألسنتهم وطعنا في الدين.) النساء 46.

ويقول تعالى: (....ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه...) المائدة 41.

والتوراة المعتمدة لدى غالبية اليهود اليوم هي التوراة العبرانية المحرفة التي تجمع أسفار موسى عليه السلام مع بقية الأسفار في ما يسمى العهد القديم أو التوراة.

الفرق والمذاهب اليهودية والرؤية المختلفة في العقيدة

من المعروف أن النبي سليمان عليه السلام ترك بعد موته فئتين متناحرتين.

الفئة الأولى كانت في بعض مناطق القدس، وتسمى المملكة الجنوبية. والفئة الثانية وجدت في منطقة قرب نابلس، تسمى السامرة أطلق عليها جزافا المملكة الشمالية. وأدى التناحر بين الفئتين إلى اختلاف في العقيدة. حيث اعتمد السامريون توراة موسى أو كما يسمونها أسفار موسى الخمسة، بينما اعتمد الجنوبيون التوراة العبرانية. وبعد أن طوِّرت هذه التوراة وزيد عليها بعد السبي البابلي ظل السامريون يعتمدون توراتهم الموسوية بينما أصبحت التوراة الأخرى العبرانية تضم تسعة وثلاثين سفراً، اكتملت كتابتها قبل ميلاد المسيح عليه السلام ببضع مئات من السنين. ولأسباب سياسية وأخرى عقيدية، برزت للوجود فرق يهودية ومذاهب مختلفة، كل فرقة تفسر التوراة حسب مفاهيمها وحسب المؤثرات الداخلية والخارجية فيها.

وقد عُرف من هذه الفرق والمذاهب

1ـ السامريون

2ـ القراؤون

3ـ الفرّيسيون ـ الكتبة

4ـ الصدوقيون

5ـ الأرثوذكسيون ـ المتعصبون

6ـ فرق أخرى

وعرف من بين الفئات المذهبية عدد كبير أيضاً من هذه المذاهب :

1ـ مذهب علماء التنائيم، الأمورائيم، السبورائيم، الغاؤونيين، سورا وعلماء فومبديثه.

أما السامريون فينتسبون إلى السامرة، ولا يؤمنون سوى بأسفار موسى الخمسة.

والفرّيسيون طائفة من الكتبة تدّعي غيرتها على شريعة موسى وقد كانوا ألد أعداء المسيح عليه السلام، لأنهم كذابون على الله وعلى الناس والكتبة وسموا بذلك لأن عملهم كتابة الشريعة والتشريع وهم متّهمون بالتحريف. وقد عرف الفرّيسيون بأنهم من حرف في التوراة لأجل مصالحهم الدنيوية.

والصدوقيون. وهم من الفرق اليهودية التي لا يؤمن أتباعها بقيامة الأموات وينادون بفصل الدين عن السياسة.

وقد صنف الشهرستاني لبعض الفرق اليهودية كالعيسوية واليوذعانية والعنانية. والعيسوية ونُسبوا إلى أبي عيسى إسحق بن يعقوب الأصفهاني. وكان في زمن المنصور وابتدأ دعوته في أواخر العصر الأموي. وقد ادّعى اليهود له معجزات وكرامات. وقد زعم أنه نبي وأنه رسول المسيح المنتظر. وزعم أن للمسيح خمسة رسل يأتون قبله واحدا بعد واحد. وزعم أن الله كلّمه، وكلّفه أن يخلص بني إسرائيل من أيدي الأمم والعاصين والملوك والظالمين. وحرم في كتاب له، الذبائحَ كلها ونهى عن أكل كل ذي روح على الإطلاق طيراً كان أو بهيمة. وأوجب عشر صلوات. وأمر أصحابه بإقامتها وذكر أوقاتها. وخالف اليهود في كثير من أحكام الشريعة الكثيرة المذكورة في التوراة)[1].

أما اليوذعانية أو المقاربة. فقد نسبوا إلى يوذعان من همدان وقيل كان اسمه ياهودا. كان يحث على الزهد وتكثير الصلاة وينهى عن اللحوم والمسكر. وكان يزعم أن للتوراة ظاهراً وباطناً وتنزيلاً وتأويلاً. وخالف بتأويلاته عامة اليهود. وخالفهم في التشبيه ومال إلى القدر وأثبت الفعل حقيقة للعبد وقدر العقاب والثواب عليه وشدد في ذلك. ومنهم الموشكانية أصحاب موشكان. وكان على مذهب يوذعان غير أنه كان يوجب الخروج على مخالفيه ونصب القتال

(1) الشهرستاني. الملل والنحل الجزء الأول صفحة 217 ـ 218.

معهم. وذكر عن جماعته من الموشكانية أنهم أثبتوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلى العرب وسائر الناس سوى اليهود لأنهم أهل ملة وكتاب.

وزعمت فرقة من المقاربة أن الله تعالى خاطب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بواسطة ملك اختاره. وقدمه على جميع الخلائق واستخلفه عليهم وقالوا كل ما في التوراة وسائر الكتب من وصف الله تعالى، فهو خبر عن ذلك الملك وإلا فلا يجوز أن يوصف الله بوصف. وقالوا إن الذي كلم موسى تكليما هو ذلك الملك وتعالى الله عن أن يكلم الله أحدا من البشر. وقيل أن (بنيامين النهوندي قرر لهم هذا المذهب وأعلمهم أن الآيات المتشابهات في التوراة كلها مؤولة. وأنه تعالى لا يوصف بأوصاف البشر. ولا يشبه شيئا من المخلوقات. ولا يشبهه شيء منها)[1].

أما الفرقة العنانية. فتنسب إلى رجل اسمه عنان بن داود. وهذه الفرقة تخالف اليهود في السبت والأعياد. وينهون عن أكل الطير والظباء والسمك والجراد ويذبحون الحيوان على القفا ويصدقون عيسى عليه السلام في مواعظه وإشاراته ويرون أنه لم يخالف التوراة البتة بل قررها ودعى الناس إليها. وهو من بني إسرائيل المتعبِّدين بالتوراة ومن المستجيبين لموسى عليه السلام. إلا أنهم لا يقولون بنبوته ورسالته.

وقد أسس عنان فرقة القرائين التي ظهرت زمن الخليفة العباسي جعفر المنصور. ومن تلامذة عنان أخوه حنانيا وعمه سلمون بن حسداي. وقد رفض عنان التلمود، ويرى أن التوراة وحدها التي لها القدسية، وليس للتلمود أية قدسية، إذ هو بدعة ابتدعها الحاخامون ولفّقوها، وقد قالوا للناس بأنها شريعة شفوية حيث طلبوا منهم أن يؤمنوا به ويقدسوه. وقد كتب عنان في اليهودية

(1) الشهرستاني. الملل والنحل الجزء الأول صفحة 216.

كتاباً اسمه (سفرها مصفووت) أي كتاب الفرائض وقد استعمل فيها اللغة الآرامية لأنها اللغة الطاغية في التلمود. وقد جعل التوراة مصدره الوحيد فيه.

ولعنان آراء في العقيدة اليهودية وعبادتها. وعندما مات خلفه الحاخام بنيامين بن موسى النهاوندي ت 860 إفرنجي. ويعتبر النهاوندي الرجل الثاني في القرّائين.

وقد تعرض القراؤون لهجوم شرس من قبل التلموديين واتهموهم بالخروج على اليهودية وسمّوهم بالخوارج وظل الجدال قائماً بينهم إلى وقت متأخر.

ويلاحظ أن القرّائين قد تأثروا بالثقافة الإسلامية حتى أن التلموديين قد اتهموهم بهذا التأثر. وكان أحد أسباب تأثرهم بالفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية عموماً هو أن فرقتهم كانت بحاجة إلى قاعدة كلامية وفلسفية تعتمد عليها وتركن إليها في رد هجوم التلموديين ونقدهم لهم فكانوا أن وجدوا مبتغاهم في الفكر الإسلامي ومدارسه[1]. وقد حدثت صراعات بين التلموديين والقرّائين على مدى قرون عديدة.. فحصلت نزاعات بينهم في إسبانيا وبيزنطة وتركيا وبولنده. وفي روسيا حدثت نزاعات بين الفرقتين حتى فترة متأخرة وكان زعيم القرّائين في روسيا إبراهيم فرقوفيتش الذي توفي عام 1874 إفرنجي قد نادى بإبعاد التلموديين عن الحدود الروسية ، وذلك من أجل إيقافهم عن التهريب والمتاجرة في السوق السوداء كما قال. واقترح على الحكومة الروسية أن تغريهم بالزراعة وتبعدهم عن التجارة والصناعة حين اتهمهم بالغش والخداع ، وقبل الكيان الصهيوني في فلسطين كان القراؤون بأعداد كبيرة في شبه جزيرة القرم وبولندا وتركيا ومصر وبأعداد أقل في إيران والعراق[2].

---

(1) جعفر هادي حسن. مقال في جريدة الحياة 197/1/13. اليهود القراؤون.

(2) جعفر هادي حسن. مقال في جريدة الحياة 197/1/13. اليهود القراؤون.

أما في المسائل العقيدية والتشريعية فيختلف القراؤون عن التلموديين الأرثوذكس في الزواج والطهارة والطلاق لاختلافهم في قضايا الألوهية والنبوة.

فالكنيس القرائي يختلف عن الكنيس الأرثوذكسي التلمودي، إذ لا توجد فيه كراس بل عادة ما يكون مفروشاً ببسط تتسم بسمة شرقية من أجل أن يسجد عليه القرّائي. وقبل الدخول إلى الكنيس ينزع القرّائي حذاءه. وهم بهذا يختلفون عن التلموديين الذين يصلون بأحذيتهم[1].

أما طبقات العلماء فقد عرف من اليهود طبقة (التنائيم) الذين شرحوا أحكام التوراة ودوّنوا قوانينها وبوّبوا شرائعها في المشنا. وكان على رأسهم الحبر الأكبر يهودا بن شمعون الملقب بالربن الأقدس175 ـ 220م. إفرنجي. ثم نشأت طبقة ثانية من الأحبار يعرفون بالأمورائيم أي الأساتذة المحدثين. وأخذوا يدرسون المشنا ويعلقون عليها التعليقات الإضافية ويشرحون متونها شرحاً وافياً. وقد جمعت هذه التعاليم فيما يسمى التلمود الأورشليمي. وقد فرغوا منه في أواخر القرن الثالث الميلادي.

وقد نشأت مدارس يهودية فقهية في العراق بعد أن هاجر اليهود إلى العراق بسبب ضغط الرومان عليهم في بلاد الشام ومن هذه المدارس مدرسة (سورا) بجوار الحلة وفي. (فومبيديثة) بجوار الأنبار. وهناك استطاع (الأمورائيم) أن يتوسعوا في شرح (المشنا). فيما يسمى التلمود البابلي. ومن مشاهير أحبار اليهود في ذلك، الحبر (أبا أريخا) مؤسس مدرسة (سورا) المتوفى سنة 247م والحبر (مار صموئيل) الفلكي 165 ـ 275 م مؤسس مدرسة (فومبديثه) وكان ختام التلمود البابلي سنة 499م بعناية الحبرين (آش) المتوفى 427م و(ربينة بن هناء) المتوفى سنة 490م وبهما انتهى دور الأمورائيم.

---

(1) جعفر هادي حسن. مقال في جريدة الحياة 197/1/13. اليهود القراؤون.

ثم جاء دور العلماء المسمين بالسبورائيم أي الأساتذة الشارحين واستمر نشاطهم العلمي في سورا وفومبديثه من سنة 500 ـ 550م وعلقوا على التلمود ونظموا أبوابه ثم جاءت طبقة أخرى تسمى الغاؤونية وكانت أهم أعمالهم إصدار الفتاوى الدينية ليهود الشرق والغرب[1].

الفلاسفة ودورهم في تطوير العقيدة اليهودية

عرفت العقيدة اليهودية تطوراً ملحوظاً مستمراً منذ نشأتها الأولى، وحتى وقتنا الحاضر، وكما لعب الأحبار دورهم في هذا التطور فقد لعب الفلاسفة دوراً مهماً أيضاً في تطوير كثير من القضايا العقيدية اليهودية. وقد اشتهر من بين فلاسفتهم فيلون السكندري. وموسى بن ميمون. والسموأل بن يحيى المغربي وغيرهم.

أما فيلون الإسكندري فقد أسس قنطرة الاتصال بين الدين والفلسفة وقد ولد في السنة العشرين ق.م وتوفي بعد ذلك بنحو سبعين سنة.

وقد تأثر فيلون بالفلسفة اليونانية، والمعارف المصرية في عصره وأهم ما تعلمه أن الله ذات من عقيدة اليهودية وتعلم من الفلسفة اليونانية أن الله عقل مطلق مجرد من ملابسات المادة.

فلم يقبل الصفات والأنباء التي أسندت إلى الله في كتب اليهود، بدلالتها الحرفية، ونصوصها الظاهرة، ولم يستطع أن يجاري الفلاسفة في عزلهم بين الله ومخلوقاته، ورفعهم عناية الله من الاشتغال بأحوال هذه المخلوقات. إلا أنه كان على اقتناع بتنزيه الله عن صفات التشبيه والتجسيم. وكان يرى أن عقل الإنسان لن يستثبت من صفات الله شيئا غير أنه موجود. ولكنه في وجوده

(1) أحمد حجازي السقا. نقد التوراة أسفار موسى الخمسة صفحة 42 ـ 43.

الكامل المطلق أعلى من أن تحده صفة تدركها العقول)[1].

وهو لا يرفض كتب الأنبياء ولكنه يقبلها على المجاز والرمز. ويقول إنها تنطوي على حقيقة أعمق من الحروف والنصوص. يفهمها المستعدون لها على درجات.

وكان فيلون يرفض أقوال الرواقيين التي تشبه القول بوحدة الوجود، وتجعل الله من العالم والعالم من الله. وكان يرفض مبدأ أرسطو في تجريد الله عن العمل للمخلوقات وزعمه أن كمال الله يقتضي هذه التجريد. ويرفض كذلك زعم الزاعمين أن الله لا يحتويه مكان أو زمان لأنه محيط بكل مكان وكل زمان ويرفض من يزعم أن الله لا يستجيب للصلاة لأن الصلاة أصل من أصول العلاقة بين الإنسان والله.

وقد كان مذهب فيلون مبدأ ثورة دينية في بني إسرائيل، فتابعه أناس في التأويل والتغيير، وقد أدت فلسفته إلى انشقاق بين اليهود القرّائين واليهود التلموديين فيما يتعلق بإجازة تفسير النصوص أو عدم إجازة تفسيرها.

أما موسى بن ميمون، الذي ولد في قرطبة عام 1135ـ وتوفي عام 1204 إفرنجي. فقد جاء في وقت بلغ الجدل أوجه بين القرائين والتلموديين. واطّلع بن ميمون على الفلسفة الإسلامية واليونانية وتأثر جدا بصوفية محي الدين بن عربي. فألّف كتابه المشهور دلالة الحائرين. وتناول فيه مسائل الفلسفة ببعض التفاصيل. ولاسيما مسألة الذات والصفات. ومسألة المعاني والنصوص. ويرى ابن ميمون أن الله صورة العالم وسبب وجوده. ويقول بحدوث العالم ولكنه يرى أن إثبات الحدوث بالبرهان عسير. أما الملائكة فإنه يرى أنهم موجودون بدليل النص. وأن وجودهم لا يمنعه العقل. ويقول موسى بن ميمون: (الاعتقاد بأن الله

---

(1) عباس العقاد الله ص 164 ـ 165.

ليس جسما لا يعارض المعتقدات التي تقوم عليها الشريعة. في حين أن الاعتقاد بقدم العالم يقضي على أساس الشريعة)[1].

وقد ظهر فيلسوف آخر في الأندلس هو سليمان بن جبيرول الذي ولد في مالقة سنة 1020 إفرنجي وألّف كتاب ينبوع الحياة وربما كان له أثر في توجيه سبينوزا أكبر فلاسفة اليهود ومن أكبر فلاسفة الغرب على العموم.

وهناك فيلسوف عربي يدين باليهودية إسمه اسحق الإسرائيلي بن سليمان كان في القيروان. وقد أنكر عليه ابن ميمون اسم فيلسوف وأكد أنه طبيب فقط. ولكن أفكاره المبثوثة في مؤلفاته الفلسفية تؤكد أنه فيلسوف يهودي على الرغم من أن تأثيره فيمن أتى بعده كان ضعيفا. يقول إن المادة والصورة تصدران عن اللّه. وهما يولدان العقل. ومن العقل ينبثق عالم النفوس. أي النفس العاقلة والحيوانية. يأتي بعد كل هذا عالم الكواكب ثم عالم ما تحت القمر مع العناصر الأربعة ومكوناتها. والوجود حدث بالفيض أي بواسطة فعل ضروري تحتل فيه النفس العاقلة أعلى المراتب لأنها تصبو دوما إلى الاتصال بالعقل وبلوغ الكمال[2].

بعض الطوائف اليهودية المعاصرة ودورها في تشعب العقيدة اليهودية

من المعروف أن اليهود تشتتوا في كل بقاع العالم، وأوجدت كل فئة منهم مرجعية دينية حاخامية، تعود إليها في مسألة العقيدة والفكر والتوجه السياسي والاجتماعي وأكثر الفرق بروزا في هذا فرقة الحسيدية وفرقة حراس المدينة (ناطوري كارتا).

---

(1) موسى بن ميمون. دلالة الحائرين الفصل 25 ص 2.

(2) موسوعة أعلام الفلسفة. إعداد روني ايلي الفا ود. جورج نخل ص 86 الجزء الأول.

فالحسيدية انتشرت بداية على حدود بولندا وقد أدت عدة عوامل لظهور هذه الطائفة أهمها جفاف النظام التعليمي التلمودي ومؤسس هذه الحركة هو إسرائيل اليعيزر ويرى المحللون أن الطائفة الحسيدية كانت دعوة شاذة لأسلوب في الحياة. وقالت تنظيرات الطائفة إن عمل الإنسان مهما كان نوعه هو عمل مقدس. وقد دخلت في الحسيدية خرافات كثيرة، منها إصرارها على أن القوة المقدسة كامنة في حروف الرب (يهوه) وإيمانها بظهور المسيح وتأكيدها الخاص بوجود الملائكة وعبادتها. وأهم ما يميز صلاة أفراد هذه الطائفة الصلاة المرحة بصورة مخيفة، والصخب والرقص العنيف الانتشائي. والتمادي في الشراب. وتجيز الطائفة الحسيدية الصلاة في أي مكان. وترى أن الأهمية لا تكمن في إقامة الشعائر، بل في الصحوة الداخلية التي تسعى إلى البحث عن الذاتية)[1].

ويسمى زعيم الطائفة الصِديق وليس الحاخام. وتؤكد هذه الفرقة أن الخلاص يبدأ بالسلوك اليومي للإنسان الذي يسبق الخلاص الإعجازي.

وأصبحت الهجرة إلى فلسطين تجسيد العلاقة بين خلاص الفرد وخلاص الشعب. والصِديق، أي الزعيم الروحي لهذه الطائفة له القدرة على إلغاء الأحكام الإلهية. فهو تحل عليه روح القدس ومكانته تفوق مكانة الملائكة. ويطلق عليه اليوم في الكيان الإسرائيلي اسم (أمور) وتعني سيدنا وأستاذنا ومعلمنا.

ومن أهم الفرق الحسيدية فرقة (حبد) وقد عُين لها حاخامات ومن أهم الحاخامات لهذه الطائفة الحاخام مناحم شنيؤورس.

---

(1) د. رشاد عبد الله الشامي. القوى الدينية في (إسرائيل) عالم المعرفة الكويتية ص 246.

وله بعض الآراء الدينية البارزة في الحياة اليهودية. فهو يعارض الإجهاض وتشريح جثث الموتى. ويطالب بتعديل قانون من هو اليهودي؟ ويرى أن تعديله ضروري لبقاء العرق اليهودي نقياً. وينطلق من منطلق عنصري متعصب حتى في أوساط اليهود أنفسهم. وأهم ما يطرحه هذا الحاخام الإيمان بظهور المسيح المنتظر وقدوم الخلاص وأعلن عند توليه منصبه أن الفترة التي نعيشها هي الفترة التي يجب أن يأتي فيها المسيح[1].

ومن الفرق الدينية الهامة والمؤثرة في فهم العقيدة اليهودية فهماً مغايراً للتلموديين فرقة الطائفة الحريدية. فهم حسب زعمهم. وحدهم الذين يملكون الحقيقة لفهمهم واطّلاعهم على الكتب اليهودية المقدسة وبصفة خاصة التلمود، ويشنون حرباً ضد العلمانيين بقوة السلاح والمتفجرات ويعتبرون قتلهم لليهود الآخرين بأنهم يشنون عليهم حرباً مقدسة باسم الرب. وتتألف هذه الحركة من عدة جماعات حسيدية أهمها طائفة ذرية هارون. وطائفة ساطمر. والمدرسة الدينية اليشيفا. ولا تعترف هذه الحركة بالصهيونية بل وتشن حرباً عليها. وهي لا تشارك في الانتخابات ولا تتعامل اجتماعياً مع العلمانيين واليهود التلموديين الأرثوذكسيين.

أما حراس المدينة أو ناطوري كارتا. فهي أيضاً ناضلت ضد الصهيونية ولا تتعامل مع الدولة وترى أن إعلان (دولة إسرائيل) نقض أسس الشريعة اليهودية وللحركة مجلس توراة سباعي مؤلف من سبعة حاخامين يصدرون الفتاوى لأتباعهم من اليهود. ويعتبرون أن الصهيونية حركة تدنيس للشريعة اليهودية، ومناقضة لها. ويرون أنه ليس من واجبهم زيارة ما يسمى حائط

---

(1) د: رشاد الشامي. القوى الدينية في إسرائيل ص 283 سبق ذكره.

المبكى، أو البلدة القديمة من القدس أو منطقة أخرى جرت السيطرة عليها بالقوة لأن ذلك يعتبر تجاوزاً[1].

الحركات الانحرافية في العالم تفريخ يهودي مستمر

ليس عجبا أن نسمع بين الحين والآخر عن عملية انتحار جماعي يقوم بها أناس يثيرون العجب بما يطرحونه من أفكار وتساؤلات. ومن الواضح أن أكثر الجماعات تنتشر في الولايات المتحدة الأمريكية.

وأحدث التقارير تشير إلى وجود ما يقارب الألفي حركة من هذا القبيل. ولكل منها أفكارها ومعتقداتها وأساطيرها.

لقد كانت شبه القارة الهندية توصف بأنها مخزن الديانات والمعتقدات بسبب التنوع الجغرافي والسكاني والديني فيها ويقولون: إن أكثر من 600 فرقة وحركة تنتشر في الهند ولكل منها تعاليم ومعتقدات خاصة حتى برزت الولايات المتحدة الأمريكية في المقام الأول، من حيث عدد هذه الحركات وتنوع معتقداتها وخلفياتها الدينية.

والمدقق في تعاليم هذه الحركات الأمريكية المشار إليها يرى أن استنادها الديني الأول الذي ترتكز عليه مستقى مما تصدره تعاليم التوراة ورموزها. وهذا يعني الكثير الكثير ليس لدينا فحسب بل لكافة شعوب العالم على شتى دياناتها ومعتقداتها.

1 ــ جذورها في التاريخ:

منذ أن بدأ انتشار المسيحية في أوروبا، وتبني الإمبراطور الروماني قسطنطين المسيحية دأب حاخامات اليهود على إدخال بعض التعاليم اليهودية

(1) د: رشاد الشامي. القوى الدينية في إسرائيل ص 283 سبق ذكره.

الغامضة وبعض التعاليم الأسطورية إلى العقيدة المسيحية الأوروبية حتى شقت الديانة النصرانية إلى مذاهب متصارعة، وقد حرص بعض رجال اللاهوت القادة والسياسيون الرومان على اضطهاد المذاهب المسيحية المخالفة لمذهب الإمبراطور وحاشيته. وقد جرت مذابح كبيرة وكثيرة بحق هؤلاء المسيحيين في القرن الثالث الميلادي وبعده.

أما في شرقنا الإسلامي فقد لعبت اليهودية الدور الأبرز في تشكيل الحركة البهائية في إيران في القرن الماضي وأخذوا ينقلون تعاليمها مع بداية هذا القرن إلى مناطق عالمية أخرى. واليوم نجد أن المركز الرئيسي للبهائية هو في فلسطين المحتلة وتحديدا في مدينتي حيفا وعكا. ويدعي زعماء هذه الحركة أن زعيمهم هو الباب أو الله. والله حل في زعيمهم الأول البهاء. وأهم التعاليم في البهائية تهديم العقيدة الإسلامية من خلال رفض القرآن ورفض النبوة.

ثم نشأت الحركة القاديانية التي بدأها الميرزا غلام أحمد في قاديان بالهند. وبمساندة القوات البريطانية الاستعمارية آنذاك، تطورت القاديانية، وطورت مفاهيمها حتى أصبح مركزها الأساسي في مدينة حيفا المحتلة ترعاها القيادة الصهيونية في الكيان المغتصب وتلقى البهائية والقاديانية رعاية فائقة من جانب البريطانيين والصهاينة. أما تعاليم القاديانية فتقوم على أساس أن الميرزا غلام أحمد هو مسيح المسلمين كما أن عيسى بن مريم مسيح بني إسرائيل. ويدعي صاحبها أن الله أنزل الوحي عليه بكتاب مثل القرآن. وتنتشر الحركة في كثير من دول أفريقيا وبعض الدول الأوروبية. كما تمدها الحكومة البريطانية بالمال والتبرعات والتسهيلات والانتشار. وغاية ذلك هو تهديم العقيدة الإسلامية.

ومع بدء القرن التاسع عشر راح زعماء اليهود وبشكل مدروس يؤسسون الحركات والتنظيمات الفكرية المعادية للأديان. وما إن حلت بداية القرن

العشرين، حتى وجدنا في العالم منظمات لا تحصى ترفع شعارات ظاهرها الإخاء والمحبة والإنسانية وإلغاء التعصب وباطنها إزالة العقائد والقيم لاسيما العقيدة الإسلامية ومن ثم تخريب العقل البشري ونفسيته وضياع الإنسان وجعله يعيش في فراغ روحي قاتل.

نشأت الحركة الشيوعية في روسيا على يد كبار المفكرين اليهود حتى قامت ثورة أكتوبر الشيوعية عام 1917 إفرنجي وكان قادتها من اليهود. ونشرت تعاليم الإلحاد في مساحات شاسعة من أوروبا الشرقية حتى وصلت هذه التعاليم إلى وطننا العربي والإسلامي.

ثم ظهرت الماسونية وانتشرت بشكل سريع في العالم. وتقوم تعاليمها على هدم العقائد والأديان وإنشاء الدولة العالمية تحت قيادة اليهود.

وفرخت الماسونية منظمات وحركات كثيرة كمنظمة بناي برث التي كان عالم النفس اليهودي الشهير فرويد عضواً بارزاً فيها. ومنظمة البوند. وأندية الروتاري التي باتت منتشرة في كثير من بلدان العالم وبعض البلدان العربية. وقد أشارت كافة الدراسات المتخصصة إلى أن زعامة هذه الحركات تقتصر على اليهود.

ثم ظهرت حركة شهود يهوه كأشهر الحركات المرتبطة باليهودية والتي تضم في صفوفها كثيرا من المفكرين والزعماء الغربيين والأمريكان وتدعو هذه الحركة إلى إقامة الهيكل اليهودي الثالث حسب ما يزعم أعضاؤها وذلك بعد تهديم المسجد الأقصى المبارك.

هذا باختصار شديد ما يمكن أن نشير له عن جذور الحركات الهدامة التي ابتدعها اليهود قبل أن تبرز الحركات الجديدة في أمريكا والغرب.

2 ـ أمريكا والوباء الحركي الهدام :

معروف لدى الجميع أن الغزاة الأوروبيين، احتلوا أرض الهنود الحمر قبل حوالي خمسمائة عام وأبادوا السكان الأصليين إبادة لم يشهد مثلها التاريخ. وحتى يشكل الرواد المستعمرون الأوائل دولة ومجتمعا جديدا فتحوا باب الهجرة على مصراعيه فذهب إلى القارة الجديدة أناس من كافة الأجناس والعروق. وكل منهم يحمل تراثا دينيا مختلفا ومعتقدات عقيدية وأسطورية. تراكمت في عقولهم ووجدانهم عبر آلاف السنين.

ويعتبر اليهود من أكثر الجاليات في أمريكا، ولهم التأثير الأول في السياسة الأمريكية والفكر الديني البروتستنتي وينتشرون تقريبا في كافة الولايات المتحدة ولهم آلاف المؤسسات الدينية والأندية والصحف ومحطات الإذاعة والتلفاز على مساحة الولايات المتحدة الأمريكية كلها. وبسبب من التفريغ الروحي والقيمي الذي يمارسه اليهود وبعض الحركات العنصرية البروتستانتية وبسبب من طغيان الفردية والمادية على غالبية أبناء هذا التجمع الأمريكي الكبير، فقد وجد اليهود في ذلك مرتعاً خصباً لنشر الأفكار والمعتقدات والأساطير، التي أصبحت وحسب المنظور تتبناها فئات وحركات يصل عددها المئات كما أشرنا سابقا.

وتنفيذا للتوجه اليهودي المستند على التلمود أولا وعلى مقررات دهاة صهيون ثانيا فقد بدأت الحركات اليهودية في العالم بنشر التعاليم الهدامة بشكل مخطط ومدروس.

فالقرار الرابع عشر من قرارات حكماء صهيون يتحدث عن معاداة اليهود للأديان التي يجب أن تشوه ومن ثم تباد. ويجب خلق مساوئ معينة للصقها بالديانات وكره الناس لها ومحاربتها مما يتيح للشعوب عدم الثقة بها والعودة

إلى القول: إن اليهودية هي أفضل الأديان بل هي الدين الوحيد الذي يجب أن يدعو له الناس.

وفي إحدى القرارات يرى الصهاينة أنه يجب إبعاد الناس عن دياناتهم وعدم قبولهم في الدين اليهودي. فيظلوا تائهين بدون عقيدة.

وقد دأبت المنظمات اليهودية العالمية على إدخال تعاليم التحلل الخلقي في المجتمعات الإسلامية ولاسيما بين الشباب. وبعد الاتفاقات الموقعة بين الصهاينة وبعض الدول العربية أصبح المجال مفتوحاً أمام اليهود أكثر من ذي قبل ليتغلغلوا في المجتمع وينشروا التعاليم الفاسدة المدمرة. وقد رأينا آخر ما صدَّرهُ الصهاينة إلى مصر من تعاليم (عبدة الشيطان) الذين لاحقهم أمن الدولة المصري وألقى القبض على جل عناصرهم.

الفرقة الداودية: اختلف المحللون حول نشأة هذه التسمية. لكنهم اتفقوا جميعا أن هذه الفرقة أنشأها أحد أساتذة الجامعات. حيث جمع حوله عددا كبيرا من الأتباع واستمدت هذه الحركة تعاليمها من تفسيرات توراتية أوصلت زعيم الحركة إلى القول إنه مسيح آخر الزمان. لكن المصادر قالت أن أعضاء الحركة وكلّهم من الولايات المتحدة كانوا يقومون بطقوس غرائبية ويبيحون الممارسة الجنسية مع الأخت والأم وأية أنثى مهما كانت صلة القربى بها شرط أن تكون من أتباع الطريقة الداودية.

وتبين أن من بين أعضائها أشخاص ينتمون إلى عدة أجناس وعروق. وقد قيل أيضاً إن هذه الحركة أنشأت لها معبداً خاصاً في ضواحي نيويورك وامتلأ هذا المعبد بجماجم وعظام وتماثيل وصور عراة وتخيلات لصور شياطين وما شابه ذلك.

وقد راقبت السلطات الأمنية الأمريكية تحركات هذه الحركة حتى أتى اليوم الذي أحاطت الشرطة الأمريكية به. وطوق المعبد بمئات من رجال الشرطة

حيث كان يحتفل أتباع الطريقة بأحد أعيـادهم. حيث روقبوا وهم يمارسون الإباحية واللواط ويقومون بحركات لا تصدر إلا عن جو غامض تلفه الشياطين.

وحاولت الشرطة اعتقال من في المعبد لكن الأبواب أوصدت بشكل محكم. فسلطوا عليهم الغاز المسيل للدموع من شقوق بعض النوافذ. واستمر حصارهم زمناً طويلاً من الساعات. وفجأة خرج دخان كثيف من المعبد ورائحة شواء لحم بشري. فاقتحم رجال الشرطة المعبد عنوة وخلعوا الأبواب. وكانت المفاجأة حين عثر على أكثر من مائة رجل وامرأة وهم منتحرون حرقا.

وتبين من التحقيقات أن زعيم الطائفة الداودية كان قد أمر أتباعه بالانتحار الجماعي وتبين أنه هو نفسه قد انتحر.

ومن خلال الدراسات التي أقيمت حول هذه الحركة تبين أن مصادر تعاليمها تستند على بعض رموز التوراة وبعض المبتدعات الأسطورية المميزة للإباحية المطلقة.

وقالت بعض الدراسات إن اسم الحركة جاء من إسم زعيمها، بينما راح بعضهم إلى أبعد من ذلك حيث قال: إنهم سموا بهذا الاسم انتسابا لداود عليه السلام، باعتبار أن الأساس الواضح لتعاليمهم هو التوراة.

وأوضحت بعض المصادر أن للحركة أتباعا مخفيين في عدة ولايات أمريكية. وتتطور تعاليمهم كل يوم بحيث يُدخِلون فيها كثيراً من العقائد الوثنية والسحر. والسبب أن اتباعها ينتمون إلى عدة أجناس بشرية ولا تقتصر على الأمريكان وحدهم.

وقد بدأت دعوة عبادة الشيطان الجديدة منذ ما قبل عام 1996 إفرنجي في ولاية سان فرنسيسكو في الولايات المتحدة الأمريكية وكانت بداية هذه الحركة على يد شخص أمريكي يهودي يدعى (أنطون شيلدز ليفي) وابتدأ نشاطه حين

افتتح معبداً للشيطان في العاشر من نيسان ـ "إبريل" من عــام 1996 م ف، وراح يدعـو إلى عبـادة الشـيطان. ثـم خرجـت دعوتـه إلى خـارج الولايـات المتحـــدة الأمريكية ووجدت لها أصداء قوية في أوروبا واستراليا لكنها ظلـت عـاجزة عـن اختراق الأقطار الإسلامية والشرق الأوسط والواقع أن هذه الحركة لهـا جذورهـا الغربية. وكانت بوادرها قد ظـهرت مـع الهيبيـة أو الهيـبز وقـد استغل عبـدة الشيطان الهيبيين ليدخلوا تعاليمــهم بـين شـبابهم وفتياتـهم وعلـى الرغـم مـن التحلل الذي امتازت بــه الهيبيـة إلا أن عبـدة الشـيطان فشـلوا في محاولاتـهم لبشاعة ما يدعون إليه.

ومع مرور الوقت وجد أتباع الشيطان في بعض البلاد العربية مرتعاً خصباً خاصة بعد الانفتاح الذي دعت إليه بعض هذه الأقطـار. وكـانت مصـر الهـدف الأول في حوض المتوسط.

أما مذهب عبدة الشيطان فيقوم على ادعاء أن الله ـ وحاشى الله ـ قد ظلم إبليس، وإبليس ملاك تعرض للظلم علـى الرغـم أنـه رمـز القـوة. وينكـر عبـدة الشيطان الأديان جميعها. ويطالبون بدليل مادي على وجود الله. أمـا الشـيطان فالأدلة عليه كثيرة وآثارها موجودة وقوته الخارقة تظهر وتنتقل للتـابعين وكـان أبرز سمات معبد الشيطان (و هو ما يدعو إليه عبدة الشـيطان في مصـر) تمجيـد القوة والاستمتاع بكل ما حرّمته الأديــان. والاسـتعانة بالسـحر والسـحرة وعـدم قبول الأدلة فكل شخص يدخل المعبد هو إله بحد ذاته.

ورافق هذه التعاليم استخدام موسـيقى مـن نـوع خـاص. موسـيقى عنيفـة تسمى (بلاك ميتل) وتصاحبها رقصات عنيفة أثناء ممارسة الطقوس.

وبعد التحقيقات التي أجريت مع جماعة عبدة الشيطان في مصر تبين أن كل فرد ينتمي إلى هذه الحركة يجب أن يضع شعاره تسع وصايــا. موجـودة في

أساسها على شبكات الإنترنت. والوصايا التسع تدعو لكل ما هو ضد الأديان والبوهيمية والتحرر من كل قيم وأخلاق. والوصايا هي:

أ ـ الشيطان يمثل الانغماس الذاتي وإطلاق المرء العنان لأهوائه ورغباته وشهواته بدلاً من الامتناع عنها.

ب ـ الشيطان يمثل التواجد الحيوي بدلاً من الأمل الكاذب والوهمي.

ج ـ الشيطان يمثل الحكمة غير المشوّهة وغير الملوّثة بدلاً من خداع النفس بأفكار زائفة.

د ـ الشيطان يمثل الانتقامية بدلاً من إدارة المدى الآخر.

ه ـ الشيطان يمثل الشفقة لمن يستحقونها بدلاً من مضيعة الحب للحاقدين وجاحدي الجميل.

و ـ الشيطان يمثل مجرد حيوان مختلف أحياناً وفي أغلب الأحيان أشرس من الحيوانات التي تمشي على أربع. والذي بسبب روحانيته الرائعة ونموه الذكي أصبح أعنف حيوان على الإطلاق.

ز ـ الشيطان يمثل المسؤولية تجاه الشخص المسؤول بدلاً من مصاصي الدماء المعتوهين.

ح ـ الشيطان يمثل كل ما يطلق عليه خطايا أو آثام لأنها تؤدي كلها إلى الإشباع العضوي والعقلي والعاطفي.

ط ـ الشيطان يمثل أعز صديق للمعبد وذلك لأنه أبقى.

يستخدم عبدة الشيطان ما يسمى موسيقى الموت لجذب الأعضاء الجدد إلى عالمهم. يدعونهم لسماع الموسيقى. وعلى أنغامها يمارسون الطقوس الغريبة. وأثناء ذلك يتعاطون المخدرات ويمارسون الدعارة والشذوذ، وجميع أشكال الموسيقى المستعملة مصدَرة من أمريكا والغرب الأوروبي والكيان الصهيوني. يصنعها شذاذ يتعاطون حبوباً للهلوسة. ويتبين أن هذه الموسيقى تصدَّر إلى

الشرق العربي الإسلامي وتطبع على أسطوانات بالآلاف، ولعل التقليد الأعمى لدى الشباب كان الأساس في دخول هذا الشذوذ إلى المجتمعات العربية الإسلامية. فالغرب الذي أصبحت الفوضى فيه كاملة، صدَّر إلى الشرق العربي مفاهيمه من خلال موسيقى الصخب والرقص الغربي الذي هو أشبه بالجنون. ولعل أشهر أنواع هذه الموسيقى ما تسمى (هيدى متيل) المعدن الثقيل وتصنعها فرقة يهودية إنجليزية، واسم الفرقة السبت الأسود وقد مزجت هذه الفرقة بين المسيحية واليهودية. وكان ظهورها في ولاية تكساس في الولايات المتحدة الأمريكية وتحتوي كلمات أغاني هذه الفرقة على دعوة للانحراف والشذوذ والوقاحة والجرأة على الأديان والقيم. وقد صدَّروا هذه الموسيقى إلى الوطن العربي والعالم الإسلامي والقصد من وراء ذلك تخريب فئة الشباب تخريباً كاملاً.

وعندما وضعت أجهزت الأمن المصرية يدها على أفراد هذه الفرقة التدميرية، تبين أنهم، أي أفراد عبدة الشيطان يستخدمون شبكة الإنترنت للحصول على تعاليم عبادة الشيطان وأن كل أعضاء الحركة لديهم في منازلهم أجهزة كمبيوتر مرتبطة مع شبكة الإنترنت حتى أن إحدى الفتيات من أتباع هذه الحركة كان لديها في المنزل خمسة أجهزة كمبيوتر. وقالت مصادر الأمن المصرية إن الضباط استخدموا نفس الشبكة للوصول إلى تعاليم هذه العبادة. وفوجئ جهاز الأمن حين اكتشف أن لدى هذه العبادة 37 ألف و495 موضوعاً على الشبكة وقد تفرغ عدد من الضباط للحصول على تعاليم وطقوس عبادة الشيطان من خلال الإنترنت. وقد تم طبع آلاف الأوراق التي نشرت كثيراً من طقوسهم التي كانت تبدو غامضة على فرق البحث في البداية.

ووضّح الإنترنت أن سبب اقتناء عبدة الشيطان القطط والكلاب، عائد إلى احتياجهم للدم أثناء احتفالاتهم الخاصة عندما يرسمون بها شعاراتهم ويلطخون بها جسد إحدى الفتيات التي تتجرد قبل ممارسة الجنس معها بالتناوب.

وقد كشفت التحقيقات أن هناك العديد من اللقاءات التي تمت بين بعض الصهاينة القادمين من فلسطين المحتلة وتنظيم عبدة الشيطان. وكانت سيناء مقراً لهذه اللقاءات.

واكتشفت أن المبنى الرئيسي لعبدة الشيطان، قصر يدعى قصر البارون. وقد بني هذا القصر عام 1905م ف وتعرض للنهب عدة مرات وأصبح مع مرور الوقت مكاناً مهجوراً. ويُحاط القصر بسور من السلك الحديدي المخرب. وقد تحول هذا القصر المخرب إلى وكر لمتعاطي المخدرات وتجّارها ولقاءات الشاذين جنسياً. وقد قبض على عدد من المدمنين على المخدرات وأبلغت السلطات المختصة بذلك ووصل عبدة الشيطان إلى هذا القصر وراحوا يقيمون حفلاتهم وطقوسهم الخاصة فيه، حتى تنبه الجيران لهذا الصخب لاسيما في الليل حيث تم في أحد الليالي إلقاء القبض على أفراد هذه الحركة.

وقد اعترف أعضاء الحركة بأنهم كانوا يقيمون حفلاتهم في هذا القصر.

وبالرجوع إلى جذور تحرك هذه المنظمة الشيطانية تبين أن (المعادي) كانت من أولى المناطق التي ظهر فيها عبدة الشيطان ويعتبر المدعو عمر عبد الغفّار صالح من أول الذين عبدوا الشيطان واتخذ مطعماً شهيراً في المعادي مقراً للاجتماع فيه أو أمامه.

ويتميزون بملابسهم السوداء وتتميز الفتيات (بروج) أسود اللون على شفاههم. وكانت أشكالهن مستفزة للمارة، وقد اعترف أحد المهندسين وصاحب محل قريب من المقهى الخاص بهم، أن عبدة الشيطان موجودون وما تزال بقايا ملابسهم السوداء ورسوماتهم التي تشير إلى الشيطان. ويتواجدون باستمرار في

المنطقة. ويأتون بأفعال غريبة وشاذة ويقيمون حفلاتهم في إحدى الفيلات المهجورة. كما يستأجرون حديقة الفيلا، وكثيراً ما يستمرون حتى الفجر وتذكر الأخبار أن بقايا عبدة الشيطان مازالوا يقفون أمام المطعم بملابسهم المميزة وتبين أثناء المراقبة والبحث، أن هناك عدة محلات تخصصت في بيع الملابس السوداء التي يرتديها عبدة الشيطان، وكذلك أغطية الرأس وتبين أن أحد أتباع الحركة هو صاحب محل لبيع هذه الملابس، ومحله في مصر الجديدة، وتبين أن شقيقه كان عضواً في هذه الحركة، ومن محلاتهم أيضاً محل الملابس القطنية بميدان الكوربة في مصر الجديدة وآخر في شارع الميرغني. وآخر بأحد المراكب الكبرى لكورنيش النيل إضافة للملابس، فهناك ميداليات عليها رسومات لهياكل عظيمة وأسطوانات ليزر وأشرطة تبين أن جميعها مستورد من الخارج.

أما عن هيكلية التنظيم فتبين أن الزعيم اليهودي (ليفي) الأمريكي الأصل، قد أناب شاباً عنه يدعى عبد الله عبد الحليم أبو عظمة وقد أطلقوا عليه لقب الكاهن. وقد بدأ عمله بالترويج لعبادة الشيطان من خلال الفرق الموسيقية.

ولعل أغرب طقوسهم الدخول إلى المقابر وفتح بعض القبور والنزول إليها حيث يمارسون الجنس والإباحية والمخدرات. ويعتبرون أن ذلك تحدٍ للموت الذي فرضه الله على خلقه.

وإضافة لهذه الطقوس فإن بعض شعارات عبدة الشيطان تبرز واضحة في كل أماكن تواجدهم، سواء كان ذلك في أمريكا والدول الغربية أو في بعض الأقطار الأخرى التي وصلوا إليها. فمن الشعارات الشائعة بين أفراد هذه الحركة الصليب المعقوف، والنجمة السداسية والجمجمة ويعبر الصليب المعقوف عن تقديرهم للأفكار النازية الإرهابية.

أما النجمة السداسية فهي تعبر عن تعلقهم بزعيمهم اليهودي (ليفي) أما الجمجمة فهي تعبير لأعضاء الحركة عن الموت أو القتل كأحد طقوسهم الغريبة، إضافة لما ترمز له الجمجمة من تعاطي المخدرات وخاصة الهيروين والكوكايين.

والخطير في دخول هذه الحركة إلى عالمنا الإسلامي والعربي أنها تأتي نتيجة غير مباشرة لأساليب التطبيع التي يخططها الصهاينة وينفذونها على أرض الواقع.

والخوف الأكثر خطراً أن تتسرب هذه الحركات إلى كافة أقطار الوطن العربي تحت ستار الانفتاح على الآخرين ونظام العالم الجديد الذي ابتدعته الولايات المتحدة الأمريكية وراحت تروج له في كافة وسائل الإعلام.

ملحق

الرسالة السُبيعية
بإبطال الديانة اليهودية
للحبر الأعظم
إسرائيل بن شموئيل الأورشليمي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اختص لذاته العلية بقوله السامي: (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وجعل الناس أحزابا وفرقا. وقد تراهم بجهل وعلم كافة إليه يسألون. وأرسل إليهم رسلا وأنبياء جمة، وأحصى معناهم بمحمد خاتم المرسلين. وأمرنا بالصلاة والسلام عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد فهذه الرسالة المسماة السبيعية الحاوية لسبعتين من القضايا التنبيهية قد تتعلق بجواب يفيد معرفة واستدلالا لزوميا للأحكام التوراتية بالشرائع القرآنية. على سؤال يرد من أحبار اليهود البواقي، من الملة الإسرائيلية، إلى رجل مهتد إلى الديانة المحمدية.

صورة السؤال

ألا يا حبيبي: ما الذي ألجأك إلى أن تترك دين آبائك وأجدادك وتوراتهم وشريعتهم، وتنتقل إلى دين الكوئيم دين الإسلام، الذي كنت تبغضه وتشنؤه. كما نحن الآن جماعة اليهود، ونكره الدخول فيه؟.

صورة الجواب

ألا يا بني إسرائيل، يا أقربائي وبني جنسي: إني أعلمكم بأن الذي ألجأني إلى أن أترك ما عندكم وأدخل في دين الإسلام هو مركب من سبعة قضايا:

أولها: أني فحصت الفحص البليـغ، وتركـت الفـرض والعنـاد القبيـح، فوجدت كلام الأنبياء عليهم السلام وإشاراتهم عن هــذا النـبي العظيـم محمـد، الذي أتبعته: هي منطبقة عليه من كل الجهات ،ثم هذه النبوءات التي رأيتها في كتب الأنبياء وسمعتها. فعلـى ظـني أن ليـس عليـهم رد مطلقـاً، ولا نـاقض بوجه الحق، وهي من سيدنا موسى وإشعيا وداود وزكريا وغيرهم.

ثم مفردات هذه الشهادة مفندة في محــلات كثـيرة مـن كتـب المباحثـات والمجادلات في هذا المعنى مأخوذة من التوراة عينها.

فمن جملة ما ذكرت التوراة في سفر التكوين المسمى بالعبراني

(باراشيب) بأن لسيدنا إسحاق جد الأنبياء بركة واحدة، وذكرت لسيدنا إسماعيل جملة بركات، وعليكم يا أحبائي بمراجعتها.

وثانيا: إن قبل مطالعتي لهذه البراهين كان دائما يخطـر لفكـري ـ كمـا الآن يخطر لفكركم ـ وكنت أقول لذاتي بأن توراتنا وزبورنا ونبـوات أنبيائنـا لم يوجد فيها أدنى إشارة عن نبي المسلمين.

ولكن بعد مدة مديدة من الزمان راجعت ذاتي وقلت في عقلي: ويه ويــه. كيف نبي مثل هذا الذي تبعته ألوف وكـرات ومليونـات وشعوبه وأمتـه أكـثر بكرات من شعوب موسى، وتبشيره للناس وإنــذاره بـترك الكفـر والحـث علـى الإيمان بالله، ومجاهدته وغيرته الشهيرة، أيهمل ويترك، وينسى من الذكر عند أنبيـاء بـني إسـرائيل؟ فـهذا القـول بـهذا الشـكل الـذي يعلمنـا فيـه أحبارنـا والحاخاميم هو مضاد لكل عقل سليم، بحيث أن أنبياء بني إسرائيل أنبأوا عن أشياء كثيرة كلية وجزئية، والإشـارة عـن هـذا النـبي هـي مـن الأشـياء الكليـة اللازمة، فكيف يتركونها وينسونها؟ ويه ويه. أنا لا يقبل عقلي كلام الحاخاميم الباطل وتأويلهم.

فالتزمت عندما امتلأ فكري من هذا الميزان أن أفتش وأفحص بزيادة عما كنت أفحص من قبل، فوجدت كما قدمت. وقلت: إن معاني كثيرة وإشارات غزيرة موجودة في التوراة تشير إلى هذا النبي العظيم محمد، وهذه هي التي كانت من جملة الأسباب التي أحوجتني أن أترك الشريعة التوراتية، وأتبع الشريعة القرآنية المهندمة بغاية الهندام، والمنتظم إليها أخص ما يوجد في الشرائع السابقة.

وثالثها: اعلموا يا أقربائي وبني جنسي، أني أخبركم أن الذي حملني بعد ذلك أن أتبع هذا النبي الجليل محمد: من كوني نظرت أن جماعة اليهود على بكرة أبيهم في كل مصر ومكان هم عائشون بغير شريعة التوراة ولا عاملون بأحكامهم اللازمة لكون غير ممكنهم العمل بها، لا بل ممتنع. وقد تصرّمَتْ عنهم بالطبع وتلاشت وهي باقية بالورق فقط. ويظهر من ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد استخدمها إلى أزمنة معلومة محدودة، غير راض بخلودها، لا بل أنه راض بانقضائها وتبديلها.

والبرهان على ذلك هو من المشاهدات والمتواترات والتجريبات والحدسيات والأوليات، إذ أننا نرى أن أعمدة وأركان هذه الشريعة الموسوية التي كانت مسندة عليها وفيها قوامها واستيلاؤها قد انهدمت بالكلية وعدمت، مثل إبادة الملك والرياسة، وعدم وجود الأنبياء، وإبطال الكهنوت، وخراب الهيكل السليماني، وهدم المذبح واندثار الذبائح، ومحق الأسباط وما يتعلق بهم، لأن هذه الأعمدة والأركان كان قد ربط بها الله سبحانه وتعالى جميع ما يلزم من القضايا الدينية المشروعة في التوراة، حتى والأحكام المدنية، لكي إذا عدمت هذه اللوازم الركنية وبطلت ـ كما هو مشاهد الآن ـ نستدل من انعدامها على بطلان الديانة جميعها، بحيث تعلق الديانة بها. والبرهان على ذلك واضح جدا، وأجلى من ضياء الشمس بضحاها، ومشاهد تحت حواسنا بفناها.

إذ أن الله سبحانه وتعالى قد نزع الملك منكم، والاستيلاء الذي به كنتم تجـرون الأحكام الدينية والمدنية وأبطل وجود الأنبياء من سلسلتكم علـى الإطـلاق الـتي كانت تسوسكم وتنصحكم وتعلمكم وتنبئكم علـى مـا كـان ومـا يكـون، وتصنع المعجزات لكي تثبت لكم أن الذي كانت تخاطبكم به هو وحـي مـن عنـد الله. وهذه الكثرة من الأنبياء قد كانت موجودة خاصة عند أمتكم بـالحصر، وليسـت عند من سواها، وأبـاد الكهنـة ورؤسـاء الكهنـة والكـهنوت الذيـن كـان لا يتـم الخلاص لليهود ولا الغفران إلا بهم وعلى أيديهم، حتى ولا يجوز العمل الـذي كانوا يعملونه في الإستغفارات والتخلص من السيئات إلا بواسطتهم، وهدم الذبح والهيكل الذي عمره سليمان اللذين كانا لا تتم أعمال القرابين إلا بهما.

ومحق الله سبحانه وتعالى وهدم معرفة الأسباط ورتبهم ووظائفهم المتعلقـة بالخدمات الدينية، والأحكام الحرسية والملكية.

ورابعها: وهي الأغرب من كل ما ذكرناه ـ أن ((أشداى أصباؤت أهيـة شراهية)) حينما وضع شريعة التوراة وفرضها قد جعـل علـى الأمـة اليهوديـة شرائع ووصايا يجمع عددها ستمائة وثلاثة عشر وصية، وهذه الوصايا الحاويـة على هذا العدد قد ربطها، وحكم حكمـا صارمـا علـى مـن لم يعملـها بسـتمائة وثلاث عشرة لعنة. لأنه يقال في سـفر التثنيـة، الاشـتراع في الإصحـاح السـابع والعشرين والثامن والعشرين (ملعونا يكون من لا يعملـها واحـدة واحـدة) ثـم أن هذا الإله سبحانه وتعالى الذي من جملة أسمائه بالعبراني "الألوهيم" "الأدوناي" قد وضع على من يخالف هذه الوصايا ولا يعمل بها واسطة للتخلـص مـن تلـك اللعنة المترتبة على المخالف: تطهيرات وتكفيرات وغفرانـات وذبـائح وقرابـين بأعداد من الحيوانات والطيور ومعلومات. وحصر هـذا الألوهيـم اليـاهو في هـذه المذكورات أن تصنع وتقرب ضمن الهيكل والمذبح ورسم أيضا بأن من يقدم قرباناً خارج الهيكل يقتل. وأمر بأن تكون القرابين مقدمة له تعالى على أيادي الأحبار

ورؤساء كهنتهم. وكان كل من يتعدى ويخالف وصية من هـذه الوصايا وتلزمه لعنة من هذه اللعنات يخلص منها بواسطة الكهنة ورؤساء الكهنة والهيكل والمذبح وباقي المذكورات. كما سبق القول.

وأما الآن يا أقربائي وبني جنسي، قد رأيت أن عامة اليهود الباقية من بني إسرائيل عندما يخالفون وصية من هذه الوصايا وتلزمهم لعنة من هذه اللعنات المشروحة من سيدنا موسى في التوراة ليس لهم وجهة للتخلص منها مطلقا. وهم حزنانون من كونهم غير ممكنهم العمل بكامل الوصايا المشروحة، ومتحققون أنهم تحت مخالفتهم وثقيل عليهم حمل اللعنات الموضوعة عليهم. ويمتنع أيضا فرارهم بالتطهيرات والتخلص من قصاصاتها ما داموا تحت نيرها. لأن الباب مسدود بواسطة ما أنا عازم على شرحه ويه ويه. يا أسفاه، ويا حسرتاه. لأن الهيكل الذي عمَّره سليمان الذي هو مثال القبة الموسوية مع المذبح اللذين لا تكون هذه القرابين إلاّ بهما قد خربا وانهدما والذبائح والقرابين مع الكهنة ورؤساء الكهنة الذين كانوا يعملونها في الهيكل والمذابح للفداء والتطهير مع باقي ما ذكرناه من النبوة والملك والأسباط ومتعلقاتهم قد اضمحلوا وتلاشوا، وما بقي لهم أثر بالكلية. فمن انعدام ما ذكرناه إفرادا وإجماعا، وبطلانه، ما عاد يمكن للباقي من الشعب الإسرائيلي التخلف من الخطايا ومن المرتب عليها من القصاصات. لا بل وممتنع عليكم يا أحبائي التقرب الى الله، بحيث التزمتم تبعة لعنات شريعتكم التوراتية مع عدم مكنتكم ايضا التطهيرات المربوطة عليها وهذا القول ليس هو قولي، ولا يجوز عندي أن ألعن بل هي لعنات شريعتكم وتوراتكم، فإني قصدت أن أذكركم إياها للتخلص منها إن شئتم كما تخلصت أنا منها بدخولي إلى الديانة المحمدية المبين عنها من موسى والأنبياء.

لأنه لو كان قصد الله خلود هذه الشريعة الموسوية وحفظها ودوامها لما كان هو ذاته سبحانه ربطها في كذا قضايا تنظر إبادتها وإعدامها عياناً، ظاهراً

في كل حين وآن، عند العالم والغبي والعاقل والجاهل، والشيخ والشاب، وجميعهم بالسواء قد ينظرون بأنها قد أعدمت وبطلت ومضى على بطلانها مئات كثيرة من السنين وكل عاقل يرغب ثواب الآخرة قد يستدل على أن الانتقال منها الى شريعة نبينا محمد المصطفى ﷺ هو أمر ضروري ولازم.

وخامسها: يا أحبائي. ليس خافيكم أن في الزمان الماضي قد جاء سيدنا عيسى فاستكبرتم عليه وتكلمتم في حقه ألفاظاً غير جائزة ومحرمة. لا سيما أنها مبنية على التزوير والبهتان والكذب التي بسببها مع غيرها قد ورد عليكم القصاص في القرآن الشريف أكثر من أربع مرات، بألفاظ متعددة ومفزعة جداً. ومضمونها تكرار ما وضعه سيدنا موسى عليكم على مخالفتكم الوصايا المار شرحها. ولكن مع هذا كله إن أناساً كثيرين من اليهود اتبعوا دين عيسى الأصلي الصحيح وإنجيله السليم، وهم ألوف وكرات ومليونات. وتخلصوا من لعنات الشريعة التي ذكرناها. وقد وعد سيدنا عيسى بمجيء محمد ﷺ المصطفى، وأشار عنه بإشارات كثيرة.

ومنها: أنه قد سماه (الفارقليط) وهي كلمة يونانية وترجمتها للعربي: الداعي. وهي ـ أي الداعي ـ من جملة أسمائه الشريفة. وقد نظرت هذه اللفظة مع جملة براهين مؤلفة من علماء النصارى وأحبار اليهود المهتدين. وهي بحق تصدق الدين المحمدي ومسندة على التوراة والإنجيل والزبور. وهذه البراهين من هذه الكتب قد كان يتردد فيها بعض حاخاميم اليهود في زمان المصطفى ويتبعونه، ويدخلون في دينه، الذين منهم عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار وغيرهم كثيرين.

وسادسها: وإذ رأى الأحبار والحاخاميم الكثير من جماعتهم اليهود الموجودين في تلك الأعصار تابعين لدين هذين الرجلين النبيين العظيمين، وما

بقي عندهم إلا قليل من الناس، كما هو مشاهد فقد شــرعوا في عمـل تحريفـات وتأويلات وتفسيرات مخالفة لمضامين الشهادة الواردة في التوراة بحقهما.

واخترعوا آراء مستحدثة، حتــى قـد رأوا أن يبقـوا البـاقين في دينــهم الى الآن. ومع ذلــك لمـا كنـت أتـردد عندكـم كنـت أرى أن بعضـاً منكـم مذبذبـين ومنقسمة آراؤهم في الكثير مما ذكرته، وهم مـن الأنــاس العقــلاء. وبعـض منــهم عارفون الحق لكنهم مربوطــون في وظائفــهم الدينيــة والأمـوال والأولاد والعيــال. وبعضهم مغفلون غير مبالين من دخولهم تحت هذه اللعنات المذكورة التي يلتزم بالدخول تحت نيرها جمهورهم بلا محالة، بحيث غير ممكنهم عمــل الوصايـا المربوطة على من لم يعملها هذه اللعنات. مع عدم إمكان عمل الوسائط بالقرابين التي كانت تخلص الناس منها.

ثم ومن أقوى هذه الآراء المستحدثة قد اخترعوا لهــم رأيـاً أبـتر ليـس لـه عندهم سند في التوراة مطلقاً، لا من موسى عليه الســلام، ولا مـن الأنبيـاء وهـو التقميص. أعني أن الإنسان اليــهودي عندمـا يمـوت وهـو غـير مكمـل الوصايـا المشروحة، ومديون إلى الكثير منها ووقع تحت هذه اللعنات. فيلزمه الرجوع إلى الدنيا ثاني مرة، أو ثالث مرة أو إلى أكثر من ذلك، إلى أن يكمــل كـل الوصايـا ويتخلص من جرثومة هذه اللعنات رويداً رويداً. ثم لما فحصت ودققت وتوصلت إلى معرفة هذه القواعد الدينية ورأيتها أنها حديثة وليس لهــا سـند في التـوراة، كما تكلمت سابقاً، فقلت لنفسي: ويه ويه، ما الـذي يحملـك علـى قعـودك في هذه الشريعة الغير ممكن إتقانها، والعمل بها. لا بل وممتنع أيضا، وأنــك مـع جماعة اليهود أبناء جنسك واقعون تحت قصاصاتها المحررة في التوراة.

ثم حدثت نفسي وقلت: إذا كان غير ممكن العمل بكامل الوصايا وممتنع أيضا التطهير للواقع تحت مخالفتها وديانة التوراة هي مربوطة بالوجهين، ومن لا يعمل بهما فهو كالذي بغير دين .فكيــف أقعـد أنـا بغـير ديـن ولا شـريعة؟

وكيف أنسب نفسي أني يهودي وتحت شريعة موسى والتوراة وأنا عار منهما، وبريء؟ وهما بعيدان عني بعدا كبعد السماء من الأرض؟ وبذلك أكون بلا شك لا سمح الله من أهل العـذاب لأنـه ممتنـع علـي أن أعمـل الوصايـا، ولا أقـدر أن أجري ما فرضه الله علي من التطهيرات والتكفيرات كما سبق من القول.

ومن هنا أدركت أن الذي بناها بحكمته هو الذي هدمها بحكمته، واحـد لا يسأل عما يفعـل وهـم يسـألون. إذ أن مقـاصد الحكمتـين بعيـدة عـن معرفـة عقولنا.

وسابعا: أني قلت لنفسي: يا هل تـرى، مـا الـذي يمنعـني عـن اتبـاع الحق؟ فقلت: لا مانع لك.

ثم قلت: وما هو الفرق الحاصل بـين ديـانتي وبـين الديانـة المحمديـة؟ فأجبت ذاتي وقلت: إن الفروقات الباقية اللازمة والضرورية في هذا المعنى غـير المتقدم شرحه. هنَّ سبع:

الفرق الأول: هو ترك فرائض المأكولات التي حرمتها الحاخاميم وأثقالها.

الثاني: هو التخلص من هذه اللعنات ونكباتها.

الثالث: أن اطرح الكلام الرديء، والتجديف الذي كنت أتكلمه وأعتقـده بحق عيسى وأمه وغيرهما من حواريه وتعليماته.

الرابع: أن اقر بأنه نبي ورسول من عند الله برسالة معلنة بأفرادها.

الخامس: أن أقلع البغضة المزروعة في قلبي بحق الأمم من النـاس. وهـي معي عن آبائي وأجدادي، وبحق محمد المصطفى ﷺ بنوع أبلـغ، الحـاوي أكـثر المحامد وصفاتها.

السادسُ: أعترف بأنه نبي عظيم، ورسول من عند الله، وشفيع للقائلين له: أنتَ لها، أنت لها.

السابع: أعترف أنه جاء بشريعة عدلية، وفضيلة كاملة، حاوية معنى جوهريات ما جاء في الشرائع السابقة، وأحسن القصص، مهندمة إياها بالاستثناء اللازم لها.

هذا هو الذي يزيد علي ويلزمني، إذ أن إيماني بوحدانية الله تعالى هو هو. وختاني بطهوري هو هو. وبعدي عن المرأة في أوقات معلومة هو هو. وتطهيراتي وإسقاط غسلي هي هي. وكثير من الأحكام التوراتية. كأوجه الزواج المربوط بالقرابات عدا وجهين زائدين هي هي. واعترافي بموسى ونوح وإبراهيم وباقي الأنبياء هو هو. والشرائع العدلية كالعين بالعين والسن بالسن هي هي. وقد رأيت كل ما يلزم ويتعلق اتباعه لذلك هو هو. محرر في القرآن الشريف، زائد الهندام، حسن التوقيع، مرتبط بأظرف عبارة، ومتعانق إليه كل ما يلزم من الأمور العائدة لإصلاح الدنيا والآخرة.

فهذا وأمثاله هو الذي أحوجني أن أترك الدين اليهودي المتروك بالطبع، إذ نراه كميت لا يتحرك. واتبع الدين المحمدي الحي المتحرك والمحبوب صافيه ومخلصه عند كل عاقل، وأجهر بصوتي وأقول:

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

فأنتم يا جماعة اليهود البواقي من بني إسرائيل إن كان الأحبار طلبوني من كل قلوبهم بسؤالهم أن يروا ما رأيته. وما الذي حملني على ذلك ويسمعوا ما سمعتم واهتديت به فليكرروا مطالعة رسالتي هذه التي سميتها "السبيعية الحاوية الضوابط الإرشادية" وليراجعوا الشهادات التي عرفت عنها المأخوذة من كتبهم الدالة على اسمه المصطفى نبينا ﷺ وصفاته، وتشكيلاته وأعماله، مع شرح بعض التحريف الموجود في كتبكم المجموع بعضه في كتاب: "البحث الصريح في

الدين الصحيح" المنسوب إلى المرحوم الشيخ زيادة في الباب الرابع والخامس.
ومن بعد وقوفكم على جوابي هذا أرجو أن تعذروني، وإن كان يغيب عنكم شيء اطلبوا إلى الله تعالى أن يرشدكم ويأتيكم بالبيان.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين.

القسم الثاني

العبادات والمعاملات

الفصل الأول

مدخل تاريخي
في العبادات والمعاملات
لدى شعوب المنطقة

لاشك أن كافة شعوب الشرق القديم عرفت العبادات منذ بداية عهدها بالثبات في أمكنة محدودة. وكذلك أوجدت لنفسها قوانين تحدد المعاملات بين الناس وتنظم شؤون حياتهم بكافة أشكالها.

وقد ارتبط صنع القوانين الدينية والحياتية بعدة عوامل، كالعامل المناخي والجغرافي والعامل النفسي والاجتماعي، فكانت عبادات الشعوب الزراعية والمدنية أرقى طورا من عبادات الشعوب البدوية المتنقلة.

وقد عرفت المنطقة عدة بطون من الشعب العربي كالكنعانيين والبابليين والمصريين وعرب اليمن والحجاز، وكذلك عرفت المنطقة دخول عدد من الشعوب غير العربية إلى أرض الوطن العربي حاملة معها عباداتها وطقوسها، وكذلك قوانينها وتفكيرها، وحين نحاول إلقاء الضوء على عبادات ومعاملات تلك الأقوام نضع في حسباننا أن التوراتيين قد تأثروا كثيرا بعبادات الأقوام الذين احتكوا بهم. حتى أن بعض الفترات الزمنية شهدت استناداً كلياً من قبل التوراتيين على غيرهم في العبادات والطقوس والمعاملات والقوانين.

وحين نستعرض بعض تلك العبادات والمعاملات لا بد لنا أن نضع في الميزان المقارن عملية التأثر الكبيرة من قبل أتباع التوراة ومن سموا باليهود فيما بعد، حتى ندرك أخيرا أن مئات السنين مرت قبل أن يستقر هؤلاء اليهود على عبادات معينة، وقوانين ضابطة لحياتهم وارتباطاتهم بالشعوب والأرض والسماء.

لا شك أن أكثر احتكاك تم بين بني إسرائيل وغيرهم، هو الاحتكاك بينهم وبين المصريين القدامى فحسب النص التوراتي وجد بنو إسرائيل في مصر منذ يوسف عليه السلام وحتى ظهور موسى عليه السلام والخروج. وهذه الفترة الزمنية الفاصلة بين العهدين تقدر بأربعمائة سنة على أقل تقدير.

وقد عرف من خلال ما كتب على ألواح تل العمارنة وأوراق البردي، أن الديانات المصرية تطورت كثيراً من عصر إلى عصر، وأوجدت لأتباعها كثيرا من أنواع العبادات والمعاملات. وصنع المصريون القدامى المعابد الضخمة والمقابر وأوجدوا التحنيط إيماناً منهم بعودة الميت إلى حياة أخرى. ووجد لهذه المعابد كهنة ورجال دين ورافق العبادات طقوس كثيرة قد تتعقد في بعض الأحيان. وقد تكون بسيطة في أحيان أخرى.

والمصريون القدامى بشكل عام لهم عبادتهم وطقوسهم اليومية. وقد أشارت بعض نسخ الكتب المقدسة المصرية إلى أن العبادات اليومية تبدأ بتطهير الكاهن في البحيرة المقدسة القائمة بجوار المعبد. وعندما يدخل الإنسان المعبد يوقد ناراً ويُعدُّ مبخرة مزودة بالفحم والبخور ثم يتجه نحو تمثال الإله في المحراب الداخلي. ويقوم الفرد بصلوات محددة فيها سجود وركوع وتقديم قرابين واجبة.

ويقوم المتعبد بخلع ثياب تمثال الإله ويطهره ويزينه بثياب وشارات مناسبة، ويعقب ذلك إقامة مأدبة مقدسة قبل أن يوضع التمثال مرة أخرى في هيكله.

وترتبط بهذه القرابين فكرنان إذ ينظر إليهما كهدايا سارة تتحد مع عين حوريس أي عين الشمس وفي أوقات أخرى تتحد مع أعداء حوريس وأوزوريس إذا كانت الضحايا مما يذبح.

وترافق طقوس دينية الأعياد المصرية، وخاصة فيما يسمى أعياد فرعون أو أعياد الآلهة. ففي عيد الملك اليوبيلي المسمى (سد) يعاد الاحتفال الطقسي الذي تم فيه توحيد الوجهين في مصر على يد الملك مينا. ويصل الاحتفال ذروته برقصة يؤديها الملك وهو يرتدي تنورة قصيرة يعلق عليها ذيل حيوان من الخلف. وقد كانت المسيرة أو الموكب أو ظهور الإله مظهراً ملفتاً للنظر في الاحتفال بأعياد الآلهة إذ يحمل فيه الكاهن تماثيل الآلهة إلى أماكن أخرى مقدسة كما تزور آلهة أخرى، أو تقوم بأداء دور في قصة أسطورية ترتبط بهذه الأماكن.

ومن الأعياد التي يحتفل بها المصريون القدامى، عيد الإله آمون إله مدينة طيبة وتقوم طقوس هذا العيد على زيارة يقوم بها الإله آمون مع زوجته وابنه من معبد الكرنك إلى الأقصر. ويشاركهما الرحلة جمع غفير من المصريين. وهناك عيد آخر للإله آمون يسمى عيد الوادي الذي يعني عبور نهر النيل لزيارة معابد الموتى من الفراعنة في الضفة الغربية لنهر النيل. ويبدأ الاحتفال بتقدمة يرفعها الملك أمام قارب آمون أي أمام محرابه المحمول قبل أن يغادر هذا المحراب معبد الكرنك. ثم يخرج الموكب من صرح المعبد والكهنة يحملون القوارب فوق أكتافهم[1].

وقد اهتم المصريون القدامى بطقوس الجنازة واهتموا كثيرا بالاحتفال بدفن الموتى، فالميت يدفن ولا تحرق جثته أبدا. ومن الطقوس أن يفتح فم الميت. وتشتمل هذه الطقوس على ممارسات التطهر والقربان. ولكن أهم الطقوس هو لمس الفم بقدوم صغير لاعتقادهم أن هذا العمل يؤدي إلى تجدد الحياة لجميع قدرات الجسد، أما التحنيط فقد اهتم به المصريون دون غيرهم. فكانوا ينظفون

(1) جفري بارندر المعتقدات الدينية لدى الشعوب عالم المعرفة الكويتية العدد 173 ـ 1993.

الجثة من الأمعاء والمخ ويزيلون الأعضاء التناسلية إذا كان المتوفى ذكراً. ويبقون القلب دون سائر الأحشاء لاعتقادهم أن القلب أداة الفهم الروحي.

وتعتبر العقائد الجنائزية المصرية خليطاً من الأفكار والخيالات. وقد كان الميت يزود بتعاويذ وفصول تكتب على أوراق البردي من كتاب الموتى. وقد كثرت التمائم واختلفت أصنافها. وزاد عدد التماثيل الجنائزية حتى كان يودع منها مع الميت مئات في بعض الأحيان[1].

ونرى أن الكهنة لكثرتهم في المعابد المصرية كانوا يشكلون طبقة مؤثرة على مسيرة العقائد والطقوس الدينية. وقد كانوا يسمون خدم الآلهة. وقد عرفت بعض النساء الكاهنات، ففي طيبة كانت الكاهنة الرئيسية لآمون تحمل لقب زوجة الإله. وكانت مهمة الكاهنة العزف الموسيقي ويُنظر إليهن على أنهن حريم الإله.

وقد اهتم المصريون بطقوس السحر وخاصة السحر المرتبط بالموتى وقد ذهب بعض الدارسين إلى القول بأن ذلك كله لم يتجاوز حدود السحر البدائي.

وقد أوضحت آيات القرآن الكريم عند الحديث عن النبي موسى عليه السلام وصراعه مع فرعون أن فرعون اعتمد السحرة في صراعه وجلبهم من كل أنحاء الإمبراطورية المصرية.

أما بالنسبة للأموات فقد رأى بعض الدارسين أن أثبت العبادات وأعمها وأقواها إلى آخر العصور فهي عبادة الموتى والأسلاف. فإن عناية المصري بتشييد القبور وتحنيط الجثث وإحياء الذكريات لا تفوقها عناية شعب من الشعوب[2].

---

(1) سليمان مظهر. قصة الديانات صفحة 38 الطبعة الأولى 1984 دار الوطن العربي بيروت.

(2) عباس محمود العقاد. الله في عقائد الشعوب صفحة 69.

وأكثر ما عرف من صلوات أخناتون تلك التي تعـرِّف بصفـات الله الـذي دعا إلى عبادته. وقد قام العالمان (هنري برستيد) و (آرثر ويجـال) بمقارنـة بـين صلوات أخناتون وأحد المزامير التوراتية فاتفقت المعاني بينهما اتفاقا لا ينسـب إلى توارد الخواطر والمصادفات.

ومن أمثلتها قول أخناتون (إذا ما هبطت في أفـق المغـرب أظلمـت الأرض كأنها ماتت.. فتخرج الأسود من عرائنها والثعابين من جحورها)

ويقابله المزمور الرابع بعد المائة وفيه (إنك تجعل ظلمة فيصير ليل يـدب فيه حيوان الوعر وتزمجر الأشبال لتخطف ولتلتمس من الله طعامها).

ويتابع المزمور قوله (تشرق الشمس فتجتمع وفي مآدبها تربـض والإنسـان يخرج إلى عمله والى شـغله في المسـاء. مـا أعظـم أعمـالك يـا رب كلـها بحكمـة صنعت. والأرض ملآنة من غناك وهذا البحر الكبير الواسع الأطراف).

ويقابل ذلك في صلوات أخناتون (ما أكـثر خلائقـك الـتي نجهلـها أنـت الإله الأحـد لا إلـه غـيره. خلقـت الأرض بمشـيئتك. وتفـردت فعمـرت الكـون بالإنسان والحيوان الكبار والصغار).

وعرف المصريون المفاهيم الأخلاقية التي هـي أشـبه بـالأعراف والقوانـين المتفق عليها بين الناس. وقد تعلّم المصريون الصبر وضبط النفس والحكمة والعدل والمثول للقضاء أمام رجال الدين، وقد عبّروا عن ذلك بالميزان بعـد المـوت الـذي توضع فيه أعمال الإنسان من حسنات وسيئات.

وقد جاء في كتاب الموتى الكثـير مـن التعـاليم الأخلاقيـة، فموضـوع يـوم الحساب حوى عدداً من إعلانـات الـبراءة. مثـل لم أسـرق حصـص الخـبز ولم أتطفل على شؤون الآخرين ولم أضاجع امرأة متزوجة (لم أزن) وكان ينبغي على كل ميت وهو يدخل مملكة الموت أن يعلن أنه طاهر مبرأ مـن كـل إثـم، حتـى

يتمكن من أن يستقبله الإله العظيم سيد القضاء أوزوريس وهو أشبه بإعلان المتهم الآن أمام المحكمة أنه غير مذنب حتى يمكن محاكمته[1].

وقد ابتدع الكهنة المصريون ما يسمى بالزيجات الخاصة. فقد ورد أن الفرعون كان يتزوج أخته. فالفرعون الإله أوزوريس تزوج من أخته إيزيس والفرعون ست ـ الإله تزوج من أخته نفتيت. وقد كانت الضرورة والمصلحة الذاتية تدفعان الكهنة والملوك الذين يدعون أنهم أبناء الإله للقيام بالزواج على هذا النمط وغاية هذه الزيجات أن يبقى لديهم منهج لضمان الملك وموالاته للكهنة وعدم خروجه على أصحابه.

وقد شاع هذا التقليد أي تقليد زواج الأخ من الأخت بين المصريين القدامى ولم يعد مقتصرا على الملوك بل اتبعه كثير من عامة الشعب.

وكما لعب الكهنة دورهم في هذا التقليد فقد لعبوا دورا خطرا آخر حين استخدموا كل شي كوسيلة لمنافعهم ولذاتهم. حتى نساء المعابد التي تقدم للآلهة في الظاهر كنّ في الحقيقة لمتعهم الخاصة بل وخيروهن بين مضاجعة التيس والعجل وبين مضاجعة الكاهن فقد (كانت النساء يقدمن أحيانا لهذه الآلهة زوجات لهن) وكان العجل وهو الذي يتقمص أوزوريس صاحب هذا الشرف العظيم بنوع خاص وقد عرف عن المصريين أن أجمل نساء منديس كن يقدمن لمضاجعة التيس المقدس وقد بقيت هذه الشعائر من بداية الأمر إلى نهايته عنصرا أساسيا قوميا في الديانة المصرية[2].

وقد انتشر تقديم القرابين في مصر القديمة. حتى أنهم في بعض السنين كانوا يقدمون للنيل أجمل فتاة من فتيات مصر قربانا حتى لا يفيض عن حده

---

(1) د. امام عبد الفتاح امام. المعتقدات الدينية لدى الشعوب صفحة 58.

(2) غمر لطفي النجار. العقل والايحاء صفحة 36 ـ 37.

ويغرق البساتين ويهدم البيوت ويخرب المعابد. وظلت هذه العادة لديهم حتى دخول الإسلام إلى مصر.

أما الكنعانيون وهم الذين عرفوا الغزوة العبرية وعايشوها حربا وسلما فإنهم من أكثر الشعوب العربية القديمة التي عرفت العبادات والمعابد والمعاملات الدينية والحياتية.

فالديانة الكنعانية ترتبط بأساطير وبطقوس ومعتقدات كثيرة كبقية أساطير تلك الشعوب التي عاشت فيما قبل الميلاد. وجميعها يدخل ضمن هذا التراكم النوعي والكمي لتلك الديانة. وتقديس الكنعاني للآلهة جعله يصنع لها المعابد والهياكل ويقيم فيها الشعائر والطقوس.

وقد كثرت المعابد والهياكل حتى أن الكنعانيين أوجدوا في كل مدينة وقرية هياكل وتماثيل ترمز لأشكال آلهة كبيرة كانت أم صغيرة مهمّة كانت أم ثانوية.

وعادة ما تقام المعابد في الأماكن المرتفعة فلكل إله معبده. والآلهة إن كانت تمثل الذكور أو الإناث فهي جميعها أبناء الإلهة عشيرة.

ومن المعتقدات الكنعانية أن حرق المعبد يعتبر خطيئة كبيرة. وكانت معابد أولاد الإلهة عناة تقام في الساحات العامة من المدينة أو البلدة.

ويعتقد أن قصر الملك عبارة عن معبد تقام فيه الشعائر. فقد ورد في النصوص أن القصر الملكي كان يعج بالتماثيل التي ترمز للإله إيل والإلهة عناة وكذلك بقية الآلهة وجميعها داخل القصر.

إن ذلك سيذكر بما قالته التوراة عن هيكل سليمان وكيف كان يعج بالتماثيل التي تشير إلى بعض الآلهة التي ادعت التوراة أن الملك سليمان بناها إرضاء لنسائه اللواتي بلغن الألف امرأة.

ومن أهم معابد الكنعانيين معبد في بيسان وقد ورد أن الفلسطينيين عندما انتصروا على الغزاة العبرانيين وردوهم على أعقابهم قتلوا ملكهم شاؤول وعلقوا رأسه في المعبد وذلك بسبب اعتدائه مع اليهود على أراضي العرب الكنعانيين. وكان معبد للإله بعل في عقرون شمال فلسطين.

أما عن بناء المعبد فقد ورد أنه كان يحاط بأعمدة كبيرة الحجم، وهي غالبا من الحجارة الكلسية. وقد بني معبد للإله بعل في وادي جبعون وأقيم فيه عدد من الطقوس ويعتقد أن مكانه اليوم (رأس السناه) ويرد أن الفلسطينيين كانوا يمارسون إقامة الأصنام والنصب في الغابات.

وقد ورد في نصوص أوغاريت أن معبدا أقيم للإله أيل بين نابلس والقدس لكنه كان يغص بالتماثيل والأصنام التي تمثل الآلهة المعاونة للإله الأكبر. كما عثر على معبد آخر للإله بعل في جبل الكرمل وبعض مناطق الساحل الشمالي لفلسطين إضافة للمعبد الكبير الذي أقيم للإله بعل في أوغاريت زمن الملك الكبير.

ويرى بعض العلماء أن هذه المعابد كانت تغص بالكهنة والنساء المقدسات. ومن أهم الكهنة الذين ورد ذكرهم في لوحات أوغاريت الكاهن الأكبر إيلو ملكو وهو كاهن أوغاريت. وكان رئيس مقدمي القرابين والمطهرين. ومن الكهنة أيضا ملكي صادق الذي أوردت التوراة عنه أنه التقى بإبراهيم عليه السلام وباركه باسم الإله. أما الطقوس والعبادات لدى الكنعانيين فهي كثيرة وترتبط بالمعابد وبما يسمى المحرقات ويعتبر الخمر من أهم الأشياء التي تقدم في معابدهم ولعل صبه موصى به لأن السماء تتلذذ به حسب عبادة الكنعانيين ويرتبط تقديمه بأسطورة تقول إن تقديمه ينهي حال الجفاف.

وتعتبر صلاة الكنعاني العنصر الأساسي في العبادة. ومن طقوسها التضرع والصراخ أمام الآلهة. ولا تقتصر تأدية الصلاة على الناس بل تشاركهم بقية

الآلهة.ويعتقد الكنعانيون أن الحجارة والنباتات تؤديان الصلاة، ويجب تكرار الصلاة حتى تكون مجدية. وتبدأ الصلاة بعرض الحالة الحاضرة، ومن ثم يأتي تعداد الصفات الإلهية، مع الإشارة إلى حالة المتضرع. وتتركز الدعوات على طلب إنهاء المصائب وعودة الازدهار والبعث من جديد. وتكون الصلاة خالية من أية دعوة ضد الآخرين إلاّ في حالة توجيهها للأبالسة[1].

ولعل التطهير من أهم العادات الطقسية. ويتم بغسل اليدين والوجه. وهو مفروض على جميع الناس. وعادة ما يأتي التطهير بعد حدوث المعارك. ويقصدون به الاغتسال من جريمة سفك الدماء حتى ولو كان صاحبها من الأعداء.ويلحق التطهير الغرف والبيوت والأدوات.

وعند الصلاة يرفع المصلي عينيه إلى السماء وهو واقف. ثم يركع وأخيرا يرتمي على الأرض وعند الصلاة للإله يجب على المصلي خلع ثيابه وتعليقها بجواره ولا بد للكنعاني من التعري بشكل كامل حتى تكون صلاته صحيحة.

ومن الطقوس عند الصلاة الجماعية في المعابد أنهم يحرقون البخور. ويقصد منه طرد الأبالسة. وهو طقس شعائري ظلت آثاره الإعتقادية إلى وقتنا الحاضر.

والى جانب البخور يقدم الكنعانيون الطعام والنذور للآلهة.

ومن الطقوس المحببة للإله الكنعاني إتلاف أصنام الشعوب الأخرى. وكان الكنعانيون يقدمون القرابين من الخبز والطحين ويذبحون الحيوانات ويصبون الخمور فوق الأضرحة لاعتقادهم أنها تسقي أمواتهم الذين هم في العالم الآخر أو العالم السفلي ومن المرجح أن دم الذبائح كان يصب في المقابر[2] والأضاحي

---

(1) ديل ميدكو. اللآلي نصوص من الكنعانية ترجمة مفيد عرنوس صفحة 36.

(2) المرجع السابق صفحة 129.

والقرابين تقدم من الأغنام والثيران والأيائل والوعول والظباء وكانوا يصطادونها حية.

ويعتقد الكنعاني باستحضار روح الميت، ويعتبر هذا الاستحضار جزءا من الديانة الكنعانية، فكانوا يعملون على إيقاظ روح الميت. وقد انتشرت عبادة الأرض والأموات والآباء والأجداد لفترة زمنية طويلة بين أبناء الكنعانيين.

ومن المعتقدات الهامة عند الكنعانيين تلك المتعلقة بالدهان والمسح ويرون أن لبعض الألوان التي يدهن بها الإنسان جسده قوة سحرية ويعتقدون أن الكلام قوة لا تتزعزع وهي بمثابة حكم قضائي حتى أن الإله أيل إذا ما نطق بخبر شيء فلا بالمستطاع محوه إلا بموجب عملية التطهير.

أما بالنسبة للمعاملات فهي عند الكنعانيين كثيرة ومتنوعة. فالشعب الكنعاني يؤمن بالعدالة الإنسانية مثل العدالة الإلهية وهي سريعة التطبيق فالقاتل بظلم يقتل بالرجم كما ترجم الجواميس. وبالضرب على الجبهة كما تضرب الجراذين أو كما تسحق تحت الأرجل.

ومن حيث الرمز فإن سلوك الناس تجاه الخطايا والرذائل كتصرفهم بالنسبة للآثم، فالمطلوب أن يرمزوا إلى ذلك بطردها بحد السيف وإحراقها بالنار وسحقها في الرحى. ودفنها في الحقول وذرها في البحر ويتراءى لنا هنا أننا أمام طقس ديني كان يقام فعلا فربما كانوا يكتبون على لوحة خطايا الإنسان التي سجلت عليه ومن ثم تطبق على اللوحة ما ذكر أعلاه.

ويمكن أن يكون اليهود ورثوا هذه العادة مكتفين باصطياد تيس من الصحراء يحمل كل خطايا الشعب[1].

---

(1) ويل ميدكو. الآلي نصوص من الكنعانية ترجمة مفيد عرنوق ص 181 ـ 182.

أما نظرة الكنعاني لغيره من بني الإنسان فتتميز بالتسامح واحترام الحق، والتواضع والنبل. فعند الكنعاني (إن عدم التسامح لا يقود إلا للخراب) وإن العطف يصلح من هو في الضلال. فالمجتمع الكنعاني مجتمع متسامح مسالم. فهو يرى أن الأحمق يزداد حماقة إذا ما اشتد الضغط عليه. فهذه النظرة نابعة من الوجود الإنساني المتطور.

وعُرف الكنعانيون بأنهم يحترمون قول الحق ويرفضون عدم الوضوح حتى لا يقع الإنسان في التشويش والضلال. إنهم يرفضون تجزئة الحقيقة.

والتواضع من صفات الكنعاني، فالإله أيل الذي يتصوره الكنعانيون يعاقب من يتباهى بثروته. وإيل نفسه لا يستجيب لذي حاجة إلا إذا تخلى عن خيلائه وبالتواضع يتجلى إيمان الإنسان بالآلهة، ويشجب الكنعاني تكديس الذهب والفضة معتقدا بأن التعلق بالذهب يزيد من أطماع العدو[1].

ويحترم الكنعانيون المرأة لأنهم يعتبرونها كالآلهة فهي جميلة وعالمة. ويرى الكنعاني أنه يجب عدم الإقتراب من المرأة بأفكار سيئة. ومن المناسب كبح جماح العواطف ورفع اليد عن زوجة الآخر. ويجب الظهور بمظهر العفة إزاء النساء لأن الزوجة حسب الديانة الوثنية الكنعانية هي أشبه ما تكون بزوجة الإله وهي الشاهد على أسراره المقدسة وبيت المرأة مقدس كالمعبد. إنه مكان الأسرار المقدسة فهو شبيه ببيت الإله. والحكمة على أفواه النساء، فيجب أن نبتهل إلى الله أن يحمي فم المرأة الذي تتدفق منه التعابير الحكيمة المؤدية إلى الرخاء.

ويرى الكنعاني أنه يجب الامتناع عن مشاجرة المرأة الحامل. إن مثل ذلك خليق بمن يحكم عليه بنهاية العز وبألم الآلام. ويجب الانتظار وبصبر

(1) ديل ميدكو. الآلِيء نصوص من الكنعانية ترجمة مفيد عرنوق ص 185.

ساعة الخلاص وإفهام الرجل العنيف المتباهي بجرأتـه أن الآلهـة وحدهـا هـي التي تهيء النضج للطفل وهو جنين

الصلوات للآلهة تتلى من الصدور وليس من الشفاه وبذلك تتخلى الآلهـة عن بعض الحكمة لتقدمها للزوجة. تلك الآلهة الرحيمة التي تحدد يوم الولادة. وإن من لا يصلي إلا من فمه دون إيمان حقيقي تكون السموات مغلقة في وجهـه وعلينا أن نتهيب ساعة الولادة، وعلى الذين أرعبوا المرأة أن يـهربوا وأن المـرأة التي تعذب أثناء الحمل يمكن أن تلد قبـل الأوان في الشـهر السـابع أو تتـأخر ساعة الخلاص.

ويرى الكنعاني أنه يجب العطـف علـى العـاقر لأنـها دون إرادتـها لم تنجب أولادا والشعب الذي لا يتكاثر هو شعب فارغ أشـبه مـا يكـون بـالرجل المطرود خارج البيت. وعلـى العكـس مـن ذلـك يجـب فتـح الأبـواب أمـام مـن ينجب.

أما بالنسبة للخمر فيرى الكنعانيون أن الخمر الذي يحتسيه الرجل مساءً شبيه بالنار إنه يُسكِر ويضعف ولذلك يجب الإقلال من شرب الخمر.

وقد ورد في نصوص أوغاريت أن الإله أيل كبير الآلهة الوثنيـة الكنعانيـة يحفظ الناس من الشقاء بواسطة الدهان. ويمكننا أن نجد هذا التعبير في كثير من نصوص التوراة.

أما القرابين فمعروف لدى الكنعانيين أنهم يقدمـون القرابـين مـن الخـبز والطحين إلى الأصنام في الغابات. كما يذبحون الحيوانات ويصبون الخمور فـوق الأضرحة ليشربها الأموات في العالم الآخر. والحيوانات التي تذبح هي الخراف والثيران والأيائل والوعول والظباء التي يصطادونها حية[1].

(1) اللآلي نصوص من الكنعانيين سبق ذكره صفحة 110.

أما حضارة بلاد ما بين النهرين فقد امتدت عبر آلاف السنين قبل ميلاد المسيح وتعاقبت عليها دول وإمبراطوريات. وشهدت وعياً واضحاً بالقوى الروحية والعبادات.

وفي منتصف الألف الأخيرة ق. م سبي اليهود إلى بابل مرتين ومكثوا في ضفاف الفرات حوالي سبعين عاماً كانت كفيلة بأن تؤثر في كثير من عباداتهم وعاداتهم ومعاملتهم.

عرف أهل الرافدين المعابد والهياكل وأماكن التضحية وتقديم القرابين والتماثيل الرمزية الصغيرة وتماثيل الآلهة وعادات الدفن

فالإله البابلي الأكبر يدعى مردوخ ويرجع صعود نجمه من ناحية إلى مدرسة دينية ألفت التراتيل والصلوات لتمجيده ثم أضافت الفصل الثاني عشر والأخير إلى ملحمة الخلق الكلاسيكية لكي تجمع له النعوت والألقاب التي يوصف بها الآلهة.

وقد عرفت المعابد لدى بلاد الرافدين بشكل واسع، حيث وجد في كل مدينة أو قرية معبد. فالإلهة الوثنية عشتار وجد معبدها في مدينة نينوى.وقد وُجد في بابل وحدها مائة وثمانون معبدا منتشرة على الطرقات في الهواء الطلق حيث كان من الممكن التوجه إليها بالصلاة أو تقديم النذور.

ولكل إله من الآلهة الكبرى صفات خاصة يبتهل له عبّادة له أثناء الصلاة.وقد عرف البابليون الطهارة فالملك يجب أن يكون طاهرا حتى يستطيع أن يحكم وقد صلى الشعب البابلي لملوكه على الرغم من أن الملك لا يعتبر نفسه إلها. وفي عبادة الآلهة كان البابليون يصلون بتسبيحةٍ نمطية للشكر. كما أن هناك تراتيل موجهة للمعابد والمدن المقدسة. ويمكن للناس أن يتجهوا إلى الآلهة الشفيعة (لاما) التي تأخذ بيد المتعبد إلى حضرة الإله.

وهناك صلاة وجدت مكتوبة على أحد الرقم تقول: (اعبد إلهك كل يوم، وقدم له القرابين والصلوات، التي تتم على أكمل وجه مع تقديم البخور، قدم قربانك طائعاً لإلهك. لأن ذلك يتناسب مع الآلهة، قدم له الصلاة والضراعة والسجود كل يوم، وسوف تثاب على ما تفعل. عندئذ سيكون بينك وبين اللّه اتصال كامل، إن التبجيل يولد الحظوة، والقربان يطيل الحياة، والصلاة تكفر عن الذنب)[1]. ويستطيع المتعبد الثري بدلاً من القيام بنفسه بالصلاة والنواح أن يودع المعبد شيئاً مناسباً على سبيل الهدية كتمثال صغير. بعض الأواني النحاسية. وقد تكتب الصلوات كذلك على هيئة رسائل توجه بطريقة مناسبة، وتكتب عادة في شيء من التفصيل عارضة الشكوى والالتماس أو الاحتجاج أو الصلاة. وإيماءات الصلاة بالإضافة إلى الركوع والسجود وتتم برفع اليدين معا إلى الأعلى أو وضع يد واحدة أمام الفم على أن تكون راحتها تجاه الوجه[2]

ومن الطبيعي جدا أن العبادات في أي حضارة ثابتة ترتبط بالمعابد وقد أشرنا إلى الأعداد الهائلة منها في بابل وبلاد ما بين النهرين.

وتدل الحفريات أن المعابد في بلاد ما بين النهرين كانت تبنى على شكل مستطيل في حائطه كوة يوضع فيها تمثال صغير للإله، أو شعار مقدس وأمامها منضدة للقربان ويقوم البناء على نموذج أقدم طراز للهياكل من أعواد القصب. ثم أصبح يُبنى من اللِّبن المشوي. ويرفع الصنم فيه فوق منبر أو قاعدة في محراب داخلي مظلم ويوضع أمامه المذبح أو المنضدة، وتوجد مغسلة أو بئر ماء في الساحة الرئيسية للمعبد بعد مدخله الرئيسي. كما يضم المعبد أماكن جانبية للعبادة.

(1) جفري بارندر. المعتقدات الدينية لدى الشعوب ترجمة إمام إمام صفحة 29.

(2) جفري بارندر. المعتقدات الدينية لدى الشعوب صفحة 30.

وكان الملوك يهتمون بتجديد المعـابد وزخرفتـها، في كافـة المـدن والقـرى البابلية. وقد عرفت العبادة البابلية طبقة الكهنة، ويقومون عادة بتقديم القرابين وصب السكائب والتطهير والمسح بالزيت. ويعمل بعضهم بتلاوة التعاويذ والرقى والغنـاء والإنشـاد والموسـيقى. ويعمـل كهنـة التعـاويذ والعرافـون داخـل المعبـد وخارجه[1] كما كان لبعض المعابد مجموعة من الكاهنات أو الراهبات يعشـن في أديرة.

وفي الأعياد البابلية طقوس تعبدية معروفة بارتباطها بمواسـم محـددة من الأشهر أو السنة. وأهم هذه الأعياد عيد رأس السنة. حيث تبدأ الشعائر في بابل وقت الفجر من هذا العيد في اليوم الأول، ثم يتبعها تقديم القرابـين ثـم صناعـة التماثيل الصغيرة ثم يعقب ذلك في اليوم الرابع تلاوة ملحمة الخلـق، وصلـوات خاصة لمردوخ وينـهض الملك في اليوم التالي ليغتسل في مياه النهر الطاهرة قبل أن يدخل المعبد مرتدياً كساءً كتّانيّاً جميلاً، وبعد الصلاة يفتح باب الكهنة ويشرف على تقديم قرابين الصباح وينخرط الملك في صلاة طويلـة مظـهراً براءتـه وحسـن إدارته.

ويسجد الملك ويصلي ويقدم قربان المساء. وينتهي الإحتفال بـالزواج بـين مردوخ وزوجته صن بنيتو. مصحوباً بمهرجان شعبي كبير.

وفي الديانة البابلية أن الخطايـا تغفـر بتـلاوة تراتيـل التوبـة والصـلاة أو التفجُّع والنواح ويمكن التحرر من الخطايا بتقديم القرابين. ويبدو أن هذا الطقس عرفه العبريون وطبقوه في مسيرة حياتهم الدينية.

أما في المعاملات والقوانين الحياتيـة فقـد اشـتهرت في حضـارة البـابليين قوانين حمورابي التي اعتبرها بعض الباحثين أول قوانين تشريعية تتناول حياة الناس وعلاقاتهم بالتفصيل وتنظم لهم شؤونهم بشكل مفصل ودقيق.وأهمية هذه

---

(1) المرجع السابق صفحة 32.

القوانين تكمن في تشابهها مع قوانين التوراة المدونة، وتتقاطع مع وصايا البوذية في الهند.

وحين نقارن قوانين حمورابي بقوانين التوراة، نـدرك أن مدونـي التـوراة كانوا مطّلعين على الشرائع المختلفة التي وضعها المصريون في مصر والسـومريون والبابليون والآشوريون في العراق والحثّيون في فلسطين، وخاصة شريعة حمورابي التي اقتبسوا منها المواد المتشابهة بين الشريعتين. الشـريعة البابليـة والشـريعة التوراتية.

ومثال ذلك قانون حكم العين بالعين والسن بالسن. وحكم تهريب الرقيق وسرقة الإنسان لبيعه. وتشريع انتهاك حرمة الأبوين وشريعة الزنا والاغتصاب. وكذلك شريعة السرقة والنهب. واتـهام المـرأة أو فتـاة بالفحشـاء بغـير إثبـات. والاتهام الكاذب والشهادة الكاذبة. والسحر وتعاطيه والديون وكيفية استيفائها. وتعاطي الربا. والتعويض عن الإضرار. وتعدد الزوجات وحينما ننظـر إلى تعـاليم البوذية نجدها تتقاطع مع التشريعات التوراتية تقاطعـا كبـيرا. فالبوذيـة تقـول يجب ألا تقضي على حياة وتقابلها في التوراة لا تقتل وتقول البوذية يجـب إلا تقول ما هو غير صحيح وتقابلها في التوراة لا تكـذب وتقـول البوذيـة يجـب ألا تباشر علاقة جنسية محرمة وتقابلها لا تزن في التوراة وأمثلة كثيرة على تقـابل الأحكام وتشابهها بين البوذية واليهودية.

بيـد أن التـأثر الأكـبر جـاء مـن خـلال احتكـاك التوراتيـين بتشـريعات حمورابي إذ كانت الصلة بينهم مباشرة، والاحتكاك يوميا.ونعود للقول إن فترة السبي التي دامت ما بين خمسين وسـبعين عامـا كـانت كافيـة للاسـتفادة مـن التراث البابلي، لا سيما أن تدويـن التـوراة تم في تلـك الفـترة، إضافـة لكتابـة التلمود البابلي الذي يعتـبر الأسـاس في تشـريعات اليهوديـة منـذ ذلـك الوقـت وحتى الآن

الفصل الثاني

المعبد والعبادة اليهودية

في التوراة والقرآن

ترتبط عبادات كافة الشعوب بمعابد وأماكن تمارس فيها الطقوس الخاصة بهذه العبادات، وقد شكل المعبد لبني إسرائيل في مرحلة من المراحل ركنا أساسيا في عباداتهم وطقوسهم، غير أن الدارس لحياة بني إسرائيل ومراحلها يرى أن المعبد لم يكن ذا أهمية تذكر، إلا في مرحلة حكم داود وسليمان عليهما السلام. ولذلك فلم تكن عباداتهم واضحة المعالم في مراحل عدة من حياتهم.

وإذا سرنا مع نصوص التوراة التي تفترض أن بني إسرائيل من نسل يعقوب واسحق وإبراهيم تبرز لنا عبادات وطقوس تطورت مع تطور العقيدة اليهودية أو مع تطور عقيدة بني إسرائيل. ويمكن في هذا الإطار أن نقسم ملامح العبادة حسب الشكل التالي:

1 ـ عبادة بني إسرائيل في الجذور قبل الخروج من مصر.
2 ـ عبادة بني إسرائيل في سيناء.
3 ـ عبادة بني إسرائيل بدءا من التسرب إلى أرض فلسطين حتى قيام مملكة داود.
4 ـ عبادة بني إسرائيل زمن داود وسليمان عليهما السلام.
5 ـ عبادة بني إسرائيل بعد انقسام مملكة سليمان عليه السلام.
6 ـ عبادة اليهود أيام السبي البابلي.
7 ـ عبادة اليهود منذ السبي البابلي حتى بعثة السيد المسيح عليه السلام.

يرد حديث مفصل في التوراة عن النبي إبراهيم عليه السلام فهي تعتبره

جد بني إسرائيل الأول. فهو الذي أنجب إسحق. وإسحق أنجب يعقوب. ومن يعقوب خرج إثنا عشر إبناً شكلوا ما يسمى قبائل بني إسرائيل .ويستغرق الحديث عن إبراهيم معظم سفر التكوين. ولكن التركيز التوراتي كان على الوعد الذي تصوره التوراتيون والعهد بين الله وإبراهيم لمنحه الأرض الكنعانية له ولنسله من بعده.

وما يلفت النظر أن التوراة لا تذكر إلا بعض طقوس العبادة التي قام بها إبراهيم طوال حياته. وأول ما يظهر في بعض علاقة العبادة بإبراهيم هي إشارة التوراة إلى أن إبراهيم بنى مذبحاً للرب الذي ظهر له. فتقول: (وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض. فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له) تكوين 8/12 وتقول: (فبنى هناك مذبحاً للرب ودعا باسم الرب) تكوين 8/12 ثم تقول: (فنقل أبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون فبنى هناك مذبحاً للرب) تكوين 18/13 وفي الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين تظهر شعيرة تعبدية لدى إبراهيم وهي أمر الله له بالختان.

تقول التوراة: (يختتن منكم كل ذكر. فتختتنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم ابن ثمانية أيام يختتن منكم كل ذكر في أجيالكم) تكوين 12/11/10/17 .وتقول التوراة: (فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من أهل بيت إبراهيم وختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم عينه كما كلمه الله. وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين خُتن في لحم غرلته وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته) تكوين 17 / 23 / 26 وأصبحت شعيرة الختان تقليداً لجميع الأمة الموحدة وليس فقط لبني إسرائيل وقد سار رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم على سنة أبيه إبراهيم عليه السلام. فلا يصح للمسلم أن يكون مسلما صحيحا إلا إذا اختتن.

وفي الإصحاح الثامن عشر يرد في التوراة أن إبراهيم سجد عندما رأى ثلاثة رجال واختلط الأمر لديه فظن أن الله واحد من الثلاثة حسب قول التوراة (فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وقال: يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك) تكوين 3/2/18.

ويتضح من خلال هذا النص أن سجود إبراهيم يختلط بين سجود الإجلال والتعظيم وسجود العبادة. لكن الذي يرجح أن سجوده سجود احترام هو فجائية قدوم الرجال الثلاثة دون سابق إنذار.

ويرد في الإصحاح العشرين إشارات لصلاة قام بها إبراهيم. وهذه الصلاة عبارة عن توجه لله ودعائه كي يشفى أبيمالك .تقول التوراة: (فصلى إبراهيم إلى الله فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه) تكوين 17/20 ويرد في التوراة أيضاً: (وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما) تكوين 22 /5 وتتكرر عملية سجود إبراهيم في حالتين حالة السجود لأشخاص وحالة سجود لله كشكر له ودعاء. تقول التوراة (فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث) 7/23 ويرد أن إبراهيم قد دفن زوجته سارة في مغارة المكفيلة في حبرون. ثم يرد أن اسحق وإسماعيل دفنا أباهما إبراهيم في مغارة المكفيلة في حبرون.

ومن خلال سيرة إبراهيم في التوراة نرى أنه آمن بالله وحده. وعبده من خلال صلاة محددة. وقد خُتن كما أمره الله. ثم دفن زوجته ودُفن هو أيضاً حسب ما علمه إياه الله. وبنى مذابح للرب ومحرقة كان يريد أن يذبح ابنه عندها. ولكن المدقق في عبادة إبراهيم يرى أنه كان يفتقد للمعبد الذي يرمز للتوحيد. فليس في التوراة أي ارتباط بين إبراهيم وبين معبد له صفة القدسية الإلهية .وصلاته التي كان يؤديها حسب وصف التوراة تختلط بين صلاة التعبد

وصلاة السجود، الذي قام به ليس جميعه سجود عبادة إنما فيه سجود احترام وتقدير كما مر معنا.

وإذا تابعنا مسيرة التوراة في حديثها عن بقية الأنبياء الأولين نرى أن الأمور لم تختلف كثيراً إنما زيد عليها وذلك لتضفي التوراة عليها شيئاً من القدسية والتضخيم .فإسحق لم يصلِّ ولم تتضح كيفية عبادته. حيث أن التوراة ركزت على أمور أخرى بعيدة عن العبادة.

أما يعقوب فإن حديث التوراة عن عبادته يبدأ حين تشير إلى حلم حلمه يعقوب. وادعت فيه أنه رأى الله فقام من نومه ونصب الحجر الذي كان يضع رأسه عليه عموداً وصب عليه الزيت وقال هذا معبد الرب .تقول التوراة: (وخاف وقال ما أرهب هذا المكان. ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء) تكوين 28 / 17. وتقول التوراة: (وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصب زيتاً على رأسه ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل) تكوين 18/28 / 19 وتقول التوراة: (وهذا الحجر الذي أقمته عموداً يكون بيت الله وكل ما تعطيني فإني أعشِّرُهُ لك) تكوين 28 /22 ويرد في التوراة: (أنا إله بيت إيل حيث مسحتَ عموداً حيث نذرت لي نذراً) تكوين 13/31. وهذه الإشارة توضح أن مسح العمود كان عادة متبعة لدى تلك الأقوام الرعوية البدوية التي ليس لها مكان تستقر فيه وبالتالي ليس لها معابد تقدس الله من خلاله .وفي الإطار نفسه نرى أن عقد العهود بين المتعاهدين يتم بنصب عمود من الحجارة لتكون شاهدة على ذلك العهد. ويرد في التوراة حول ذلك قولها: (انظر الله شاهد بيني وبينك. وقال لابان ليعقوب هوذا هذه الرجمة وهوذا العمود الذي وضعت بيني وبينك. شاهد هذه الرجمة وشاهد العمود إني لا أتجاوز هذه الرجمة إليك وإنك لا تتجاوز هذه الرجمة وهذا العمود إلي للشر) تكوين 31 /52/50 وهذا النص يدل على أن يعقوب يريد أن يكون الله شاهدا على عهدهما لكن لابان يريد أن يقدم

الأوثان شاهدة. باعتباره كان وثنياً ويدل على وثنيته أن التوراة تورد أن راحيل سرقت أصنام أبيها لكن السؤال الذي يطرح نفسه كيف يجيز يعقوب لنفسه وهو الموحّد أن يذهب إلى خاله الوثني ويتزوج ابنتيه الوثنيتين؟ نترك الجواب لأن المسألة هذه لها مجال آخر للتعليق عليها.

وفي سيرة يعقوب في التوراة يرد الكثير من الإشارات إلى سجود يعقوب لأخيه عيسو وكذلك سجود أولاده ونسائه لأخيه حتى أن التوراة تورد أن يعقوب (سجد إلى الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى أخيه) تكوين 3/33. وهذا السجود عادة متبعة للاحترام وليس للعبادة .ويرد أيضاً أن يعقوب أقام مذبحاً للرب ودعاه إيل إله إسرائيل. ثم يرد مرة أخرى أن الله قال ليعقوب قم اصعد إلى بيت إيل وأقم هناك واصنع هناك مذبحاً لله الذي ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك. فقال يعقوب لبيته ولكل من كان معه اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم ولنقم ونصعد إلى بيت إيل فأصنع هناك مذبحاً لله الذي استجاب لي في يوم صنيعتي وكان معي في الطريق الذي ذهبت فيه) تكوين 4/1/35. وهذا النص يشير لنا بأن يعقوب ارتبط بعبادة الإله الواحد وأدرك أن الذي يتعلق قلبه بغير الله أي بالأصنام عليه أن يطهر نفسه ويطهر ثيابه. وهذا ما ندركه من خلال عقائد التوحيد أن الأصنام رجس أو نجس يجب التطهر منها نفسياً وجسدياً .وقد جاء في التوراة أن يوسف عندما بعث لأبيه ليأتي إلى أرض مصر بعد أن يخبره إخوته أنه حي يرزق يقوم يعقوب بذبح (ذبائح لإله أبيه أسحق) تكوين 1/46. أما الإصحاح الخمسون فإنه يورد بعضاً من الطقوس المصرية التي نفذها يوسف. وهي أنه أمر بتحنيط أبيه. تقول التوراة: (وأمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه. فحنط الأطباء إسرائيل وبكى عليه المصريون سبعين يوماً .ثم تقول التوراة عن موت يوسف: (ثم مات يوسف وهو ابن مائة وعشر سنين فحنطوه ووضع في تابوت في مصر .هذا ما يمكن أن نجده من بعض العبادات التي تمسك بها الأنبياء الأولون منذ إبراهيم

حتى يوسف عليهم السلام. وبذلك تكون مرحلة من المراحل التي أشرنا لها وهي مرحلة الجذور التي يدّعي اليهود فيها أنهم ينتسبون إلى إبراهيم وأحفاده.

ومنذ بداية هذه المرحلة نلاحظ أن إشارات كثيرة أوردتها التوراة حول بعض أشكال الصلاة. وبعض أشكال المذابح التي كان يقيمها بنو إسرائيل والأدعية وبعض العادات الدينية كالتطهير من الأصنام وما شابه ذلك ولا يرد في هذه المرحلة أي ذكر لأي نوع من الصيام أو الزكاة أو تقديس بيت مخصص لله كمعبد يرمز لعقيدتهم. وقد برزت بعض أخلاقيات الأنبياء وسلوكياتهم في هذه المرحلة. كالتسامح. ورفض الزنا وإجراء العقوبة لمن يزني إلا أن التوراة تساهلت في بعض المواقف بفعل القبائح. مثال ما فعل يهودا عندما زنا بكنّته الميت زوجُها. ومثال تساهل راحيل حينما سرقت أصنام أبيها لتعبدها بعدما عزم يعقوب على الرحيل من عند خاله لابان. أو قيام أحد أبناء يعقوب بفعل الزنا مع إحدى جواري يعقوب .أما المذبح فقد ورد ذكره في التوراة أكثر من أربعمائة مرة. وقد ورد ذكره في سفر التكوين أي في المرحلة الأولى من مراحل العبادة عند بني إسرائيل كما ترى التوراة مرات عدة. وهو بهذا المعنى يشكل شيئاً مهماً مرتبطاً بالعبادة .والمذبح يعني المكان المرتفع الذي تقوم عليه الذبيحة أو التقدمة أو البخور أثناء العبادة.

وقد بنى القدماء المذابح على أشكال عدة وتختلف باختلاف الأمم التي كانت تقيمها..فمنهم من كان يبني المذبح مستديراً ومنهم من يبنيه مربعاً. وعلى الغالب فإن المذابح كانت تكرس لبعض الآلهة وتسمى بأسمائها. وبعضها لم يكن له اسم إطلاقا .وكان القصد من بناء المذابح الاستغاثة بالله أو تقديم الشكر له أو طلب رحمته وكانوا يؤثرون لذلك المناطق المرتفعة في أغلب الأحيان. ولعل السر في تفضيل المكان المرتفع لاقامة المذبح راجع إلى فكرة الاقتراب إلى الله إلى جانب لياقة المظهر وجلاله.

وكانت المذابح تبنى تذكاراً للحوادث العظيمة. وفي البداية كانت المذابح تصنع بدون شكل أو رسم معين. ولم تكن متقنة البناء إلا عند بعض الوثنيين الذين كانوا ينحتون وجوه آلهتهم في صخرة المذبح. أما سائر المذابح فقد كانت عبارة عن كومة مربعة من الحجارة. أو تل من التراب، يصنعه الإنسان أمام خيمته حيثما حل للعبادة أو تذكاراً لمقابلة مع الله. وعلى هذا الأساس صنع يعقوب عليه السلام مذبحه في بيت إيل من الحجر الذي توسده ليلة هروبه من أخيه عيسو ومقابلته لله. تك 14/35/28 هذا هو المذبح الذي أطلق عليه الباحثون اسم المذبح العامي أو الشعبي الذي كان يجوز لكل واحد أن يقدم عليه ذبائحه. لهذا فليس عجيباً أن يبدأ الله معاملاته ـ حسب قول التوراة ـ مع بني إسرائيل بهذا المذبح حالا بعد الوصايا العشر. ويتدرج الله مع بني إسرائيل فيحدثهم عن المذبح الذي من حجر أو من حجارة غير منحوتة صحيحة بدون حفر أو نقش لئلا يعتبر بمنزلة الصور أو التماثيل الوثنية .ثم تدرج الله مع بني إسرائيل فأعلن لهم عن مذبح آخر يسميه بعضهم المذبح الكهنوتي وقد قدمه الله على يد النبي موسى عليه السلام. فكان مختلفاً عن كل المذابح السابقة إذ صنع من خشب السنط المغشى بالنحاس أو الذهب بمقاييس دقيقة أعلنها الله لموسى. ولا يجوز أن يقدم ذبيحة على هذا المذبح إلا للكاهن اللاوي ويوضع هذا المذبح (مذبح المحرقة في مدخل خيمة الاجتماع)[1].

ومما تقدم نرى أن العبادة التي قام بها إبراهيم عليه السلام وأبناؤه وأحفاده حسب ما ورد في التوراة، لم تكن ترتبط بشيء أسمه المعبد. ولا ترتبط بزمان محدد وهذا يعني أن ما ورد يدل على أن عبادة الصلاة وإقامة مذبح للرب هما أهم معلمين من معالم العبادة عند هؤلاء الأنبياء. وإذا عدنا إلى نصوص القرآن الكريم نجد الأمر مختلفاً تماماً عما ورد في التوراة. فإبراهيم عليه

() قاموس الكتاب المقدس صفحة 385 ـ 386

السلام اختاره الله ليكون نبياً بل وإماماً للمتقين .فإبراهيم عليه السلام منذ حداثته يرفض عبادة الأصنام ويتعلق بعبادة الله الواحد الأحد وإبراهيم يلبي أمر الله بالهجرة من أرض الكفر إلى أرض أخرى ليبلغ رسالة التوحيد.

ولكن الأهم من سيرة هذا النبي حسب ما ورد في القرآن الكريم هو تنفيذ أمر الله سبحانه ببنائه البيت الحرام أولاً وذلك لغايات واضحة وهي إقامة الصلاة وتأدية الزكاة والحج إلى هذا البيت الذي يرمز لديانة التوحيد. ويرافق هذه العبادات ملحقات لا تصح إلا بها كالتطهير .وقد أهَّل الله سبحانه وتعالى إبراهيم ليكون نبياً وداعياً إلى الله وإلى عبادته .يقول تعالى: (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين. شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين) النحل 120/ 122. ولننظر في آيات القرآن الكريم التي بينت طبيعة عبادة النبي إبراهيم يقول تعالى: (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا وأجنبي وبني أن نعبد الأصنام) إبراهيم 35. فأول العبادة الإخلاص لله وحده والابتعاد عن عبادة الأصنام. إبراهيم النبي يتوجه لله سبحانه بالدعاء أن يجنبه وذريته عبادة الأصنام .ثم يقول تعالى: (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) إبراهيم 37.

إذا فالغاية من إرسال إبراهيم لابنه قرب البيت الحرام هي إقامة الصلاة باعتبارها الركن الأهم في العقيدة الإسلامية. وهذا يعني تحديدا أن فرض الصلاة كان مطلوبا من إبراهيم أن يؤديه لأنه أمر الله. ويقول تعالى: (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود. وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن

كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عـذاب النـار وبئـس المصـير﴾ البقـرة 125 ـ 126. فالآية الأولى تشير إلى أن الله جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمناً، وقد جعل الله سبحانه مقام إبراهيم مكاناً للصلاة، ليتبع الناس ما كان عليه إبراهيم عليه السلام من العبادة .أمـا الآيـة الثانيـة فتوضـح كيـف أن الله سـبحانه عـهد إلى إبراهيم وإسماعيل تطهير البيت، وطهارة البيت جزء من عبـادة أو هـي مقدمـة للعبادة التي يقـوم بـها الطـائفون مـن الحجـاج، والعـاكفون في المسـجد للتعبـد وللركع السجود الذين يقومون بتأدية فريضة الصلاة.

وتوضح الآيات اللاحقة أن غايات بناء البيت الحرام التعرف علـى هـذه الفريضة التي تسمى الحج فإبراهيم وإسماعيل يدعـوان الله سـبحانه وتعـالى أن يريهما مناسكهما. ففريضة الحج التي هي ركن من أركان الإسلام بدأها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، يقول تعالى: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيـم مكـان البيـت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود، وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فـج عميـق. ليشـهدوا منـافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم مـن بهيمـة الأنعـام فكلـوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ الحج 26 ـ 28. وعلى ضـوء هـذه الآيـات نـرى أن إبراهيم عليه السلام أدى أركان الإسلام التي أقرها الله سبحانه علىٰ الموحدين.

فقد عرف كيف يؤمن بالله ويستقيم
وعرف كيف يصلي تنفيذاً لأمر الله عز وجل
وعرف كيف ينفذ أمر الله ويبني البيت الحرام
وعرف كيف يطهر هذا البيت للحجاج والعاكفين والركع السجود
وعرف الحج فريضة فنادى بها الموحدين.

وتربى إسماعيل برعايـة مـن الله سـبحانه وتعـالى وبرعايـة النبـوة الـتي منحت لإبراهيم، فإسماعيل شارك أباه في إعمار البيت الحرام، وهذا يعني أنـه

عرف الغاية من بناء هذا البيت، وقد اتبع إبراهيم أباه في كل عباداته.

يقول تعالى: (واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً) مريم 54 ـ 55. وهذا دليل أخر على أن العبادة التي تعلمها إسماعيل من إبراهيم كانت تتضمن الصلاة والزكاة. فإذا أضفنا ذلك إلى ما ورد عن إبراهيم وجدنا أركان الإسلام متكاملة منذ النبي إبراهيم عليه السلام.. التوحيد. الصلاة. الزكاة. الحج إلى بيت الله الحرام، أما الصيام فهناك إشارة واضحة في القران الكريم أن هذه الفريضة فرضها الله على المؤمنين جميعاً منذ بدء التوحيد وحتى بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) البقرة 183.

والأنبياء الذين سبقوا النبي صلى الله عليه وسلم هم أولى الناس بالصيام لأنهم رأس الإيمان والمؤمنين الذين سبقوا أمة الإيمان التي بعث لها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

ونستنتج مما سبق أن التوراة تنفي وجود بيت الله الحرام وبالتالي ليس هناك حج وشعائر وعبادات مرتبطة بهذا البيت.

إن التوراة التي دونت لتاريخ الأنبياء الأوائل أبرزت من خلالهم ومن خلال عباداتهم مرحلة متخلفة في العبادات. فهم عبارة عن عائلة بدوية متنقلة غير ثابتة في مكان محدد. ولهذا التنقل وعدم الثبات دورهما في عدم وضوح عبادات مستقرة، بينما قدم القرآن الكريم منذ البداية في الحديث عن النبي إبراهيم عليه السلام نظرة متقدمة في العبادات. فهناك مكان ثابت يرمز لعبادة الله الواحد وهو البيت الحرام. وهناك معالم واضحة لعدة عبادات كالصلاة والحج والزكاة والتطهير وهذه الأسس التي رسخت في زمن إبراهيم استندت عليها عقائد التوحيد بدرجات مختلفة.

وعندما نتصفح حياة الأنبياء الذين بعثهم الله مباشرة بعد إبراهيم وهم اسحق ويعقوب ويوسف ومن كان على دينهم كالأسباط أولاد يعقوب. نرى أن الرابط بينهم وبين إبراهيم هو رابط الإرث النبوي والأبوي. فجميعهم أنبياء اختارهم الله للنبوة ليسيروا على منهج إبراهيم التوحيدي.

وأعتقد أن هؤلاء الأنبياء لم يكونوا بعيدين عن العبادات التي كان عليها أبوهم إبراهيم. فهم يستلهمون منهجا متكاملا في الدين والعبادة على وجه الخصوص.

يقول تعالى: (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب قال يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون) البقرة 132 ـ 133.

ويتضح من خلال الآيتين منهج إبراهيم عليه السلام في دعوته لديانة التوحيد فهو لم يحصر العقيدة في شخص، إنما ورثها لبنية وأحفاده ليتم نشر الدعوة ولا تتوقف.

ويفضح القرآن الكريم كتبة التوراة الذين حالوا أن ينسبوا إبراهيم وإسحق ويعقوب إلى العقيدة اليهودية وبين للناس كافة أن هؤلاء الأنبياء لهم عقيدتهم التوحيدية الخاصة.

وقد أشارت التوراة إلى أن يوسف أمر بتحنيط جثة أبية يعقوب. وأوردت أن أربعين يوما مضت على التحنيط ثم نقل جثمان يعقوب من مصر إلى سيناء ثم إلى حبرون حيث دفن عند آبائه. وكذلك فعلوا بيوسف مثلما فعلوا بيعقوب أي أنهم حنطوه جريا على عادة المصريين القدماء.

فهذا يشير بوضوح إلى التأثير الكبير الذي كان عليه بنو إسرائيل أثناء وجودهم في مصر. والتحنيط عادة متبعة لدى ملوك مصر وأمرائها وكهنتها .ولهذا التحنيط دلالته في الديانة المصرية، وله طقوسه.

وحسب كافة المصادر والمكتشفات تبين أن المصريين عندما كانوا يريدون تحنيط أي جثة فإنهم يفرغونها من أحشائها الداخلية إلا القلب ويكسرون الرأس ويسحبون المخ وتجمع هذه الأحشاء في جرار من الفخار. ثم يضعون المواد المحنطة في جثة الميت حيث تحافظ على نفسها مدة زمنية طويلة.

وكان المصريون يعتقدون أن الميت يجب أن يحنط كي يستقبل حياته الأخرى بعد أن يحاسبه إله العالم السفلي حيث يزين قلبه وما فيه من حسنات أو سيئات وحسب ما أوردته التوراة عن ذلك فإنه يدل على دخول لوثة وثنية في عقيدة يوسف وإخوته وهذا ما لم يرد في القرآن الكريم.

وتبدأ المرحلة الثانية بعد انقطاع زمني يدوم حوالي أربعمائة عام. فبنو إسرائيل بعد وفاة يوسف عليه السلام يستقرون في أرض جاسان في مصر ولا ندري كيف كانت صلاتهم وصيامهم، وكيف كانت قرابينهم ومعابدهم وكل الذي نعرفه من خلال التوراة أن أرض جاسان أرض مرعى. وهي وافرة الخيرات حيث ناسبت طبيعة بني إسرائيل الرعوية.

غير أن بداية سفر الخروج التي تشير إلى هروب موسى عليه السلام ومعه بنو إسرائيل وبعض العبيد المظلومين والمصريين الذين ظلوا على ديانة أخناتون شبه التوحيدية تشير إلى تمرد حصل عدة مرات من قبل هؤلاء في وجه موسى عليه السلام.

وهذا التمرد كان لعدة أسباب وعلى عدة أساليب. فقد تمردوا على عقيدة موسى التوحيدية حينما طلبوا أن يجعل لهم آلهة كما للشعوب التي مروا عليها

في سيناء. وقد تمردوا على موسى من أجل المأكل والماء والأمن. ويبدو من خلال هذا السفر أن بني إسرائيل لم يدركوا بعد دعوة النبي موسى ولم يفهموها.

وعندما دخلوا سيناء ومكثوا فيها عشرات السنين كان لا بد أن يظهر على عقيدتهم تطور ملحوظ ولا سيما في طريقة العبادات والطقوس المرافقة. وهذه السنوات الطوال كانت المحك وكانت الدرس الطويل لتعليمهم شريعة التوحيد أو على الأقل تعليمهم جزءا من هذه الشريعة وما يحيط بها من عبادات وطقوس وعادات تعبدية.

والواقع أن كافة التشريعات التوراتية الأساسية وجدت في سفر الخروج وسفر اللاويين والعدد والتثنية. وتسمى مع سفر التكوين أسفار موسى الخمسة. وكثير من اليهود لا يعترفون إلا عليها ككتاب مقدس للعقدية اليهودية.

ولكثرة التشريعات الدينية وطقوس العبادة فإننا نرى أن إدراج كل تشريع وكل عبادة في فصلها المقسم في هذا الكتاب يبرزها بشكل أوضح في سياقها. وذلك يجنبنا الوقوع في الخلط بين العبادات والمعاملات الكثيرة والمتنوعة والمتشعبة.

وردت بعض الإشارات عن بعض الصلوات التي قام بها بنو إسرائيل وهي تخلط بين صلاة الشكر وصلاة الخوف من تجليات الرب ولم ترد إي إشارة إلى صلاة تعبدية تقام في مكان محدد وطقس محدد. ففي سفر الخروج الإصحاح الرابع ترد أول إشارة للسجود وهي إشارة سجود الشكر لأن التوراة تقول بأن الرب افتقد بني إسرائيل فأنقذهم من ظلم فرعون.

تقول التوراة: (ولما سمعوا أن الرب افتقد بني إسرائيل وأنه نظر مذلتهم خروا سجدا) خروج 4: 31. وترد إشارات أخرى إلى قيام موسى وهارون بتأدية صلاة محددة ليرفع الله عن المصريين بلاء الضفادع والباعوض وموت السمك في النهر ومرارة مياه الشرب، تقول التوراة: (فدعا فرعون موسى وهارون وقال

صليا إلى الرب ليرفع الضفادع فقال موسى لفرعون عين لي متى أصلي لأجلك ولأجل عبيدك وشعبك لقطع الضفادع عنك، وعن بيوتك ولكنها تبقى في النهر) خروج 8: 8 ـ 9. وتقول التوراة: (فقال موسى هاأنا أخرج من لدنك وأصلي إلى الرب) خروج 8 ـ 29. وتقول (فخرج موسى من لدن فرعون وصلى إلى الرب) خروج 8: 30.

وعندما يستقر وضع بني إسرائيل في سيناء يطلب الله من موسى أن يصعدوا إلى الجبل ويسجدوا، تقول التوراة: (وقال لموسى اصعد إلى الرب أنت وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل واسجدوا من بعيد) خروج 24: 1ـ2.

أما في الإصحاح الثاني والثلاثين فيصنع بنو إسرائيل العجل الذهبي في غياب النبي موسى فتظهر في طقوسهم وعباداتهم سمات الوثنية الواضحة. تقول التوراة: (وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص) الخروج 32: 19. وتعود التوراة لتصف أمر الرب لبني إسرائيل في السجود فتقول: (فيرى جميع الشعب عمود السحاب واقفا عند باب الخيمة ويتكلم الرب مع موسى ويسجدون كل واحد في باب خيمته) خروج 33 :10.

والواقع أننا لو نظرنا في الأسفار الخمسة الأولى من التوراة لا نجد معنى لأي صلاة تعبدية لها معالمها الواضحة والدائمة. وكل ما هنالك نرى أن موسى أو بعض بني إسرائيل يقومون ببعض الصلوات لرفع بلاء أو غضب الرب أو لشكر على نعمة إلهية قدمت لهم. ومع ذلك فإن التوراة تركز على أمرين لهما علاقة بالعبادة بشكل عام هما 1 ـ السبت 2 ـ تابوت العهد وخيمة الاجتماع.

فالسبت يوم للعبادة عند اليهود أو يوم راحة من كافة الأعمال ففي التوراة لم يتضح ماذا يقوم به بنو إسرائيل من عبادات. إنما الذي يتضح هو أمر الرب لهم بأن لا يفعلوا شيئا في هذا اليوم. فهو يوم للرب لأن النص التوراتي

يؤكد حسب زعمه أن الرب استراح في اليوم السابع. وهذا اليوم هو السبت ويجب على اليهود أن لا يعملوا أي عمل فيه. وترد نصوص توراتية تشير إلى أنهم في زمن موسى رجموا رجلا وهو يحتطب يوم السبت فاعتبروا أنه قد خالف تعاليم الإله. وتدعي التوراة أن موسى كلم الله فكلمه الله وأمر برجم الرجل. فرجم الرجل حتى مات.

تقول التوراة: (اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك) خروج 20: 8 ـ 10. وتقول: (لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه) خروج 20: 11وتقول التوراة: (ستة أيام يعمل عمل وأما اليوم السابع ففيه يكون لكم سبت عطلة مقدس للرب) الخروج 35: 2. وكلمة سبت هي في الأصل لغة سامية وأصبحت في العبرية معناها راحة.

وقد بدأ التفكير في يوم السبت على أنه اليوم الذي يترك فيه الإنسان أعماله وأشغاله المادية حتى يستريح وذلك كما قلنا تذكار لليوم السابع في الخليقة ثم تطور التفكير عن يوم السبت حين أمر الله في الوصية الرابعة بحفظ السبت لأن الله بارك يوم السبت وقدسه. وأمر الله أن يستريح الإنسان والحيوان ونزيل البيت في السبت، لا لأنه استراح فيه فحسب بل لأنه باركه وقدسه أيضا، وعلى هذا فإنه عندما كسر أحد اليهود السبت قتلوه بدون رحمه (عدد 15: 32 ـ 33).

وقد كان السبت لدى اليهود مرعيا في أوقات ومخترقا في أوقات أخرى ويرى بعض الباحثين في الشرقيات والحضارات الشرقية أن السبت وتقديسه يعود إلى حفظ البابليين له فقد كانوا يحفظون اليوم السابع والرابع عشر والحادي والعشرين والثامن والعشرين من كل شهر مهما كان اسم ذلك اليوم

وكانت شريعتهم تقول: (إن الملك لا يأكل اللحم المطبوخ على الفحم في هذه الأيام ولا يغير ثياب جسده. ولا يلبس ثيابا نظيفة، ولا يقدم ذبيحته، ولا يركب في عربة، ولا يتكلم في قضية، ولا يجوز للرائي في هذه الأيام أن يقدم للناس ما يرى، ولا يجوز للطبيب أن يضع يده على جسد إنسان وعند المساء يأتي الملك بتقدماته للآلهة.

ومن خلال التاريخ الكتابي يظهر أن حفظ يوم السبت عند اليهود كان تبعا لنور أعظم من نور القمر وهو الأمر الإلهي ونور الإعلان السماوي.

ويقول قاموس الكتاب المقدس إن اليهود ظلوا يحفظون يوم السبت بمواظبة حتى تطرفوا في ذلك فحفظوه حفظا حرفيا أحيانا وخلطوه بعبادات الأوثان أحيانا أخرى فأرسل الله لهم الأنبياء ليرشدوهم إلى حفظ السبت حفظا روحيا حسب رغبة الله وقد ورد ذلك في الملوك الثاني وعاموس وهوشع وإشعيا وحزقيال.

وفي فترة السبي التي كان قضاها اليهود في بابل نسوا حفظ السبت. فبدأ رجال الله يتشددون على حفظه.

وفي فترة لاحقة انتشرت مجامع اليهود فكانوا يقضون يوم السبت في دراسة الناموس وفي الراحة من أشغالهم العالمية. وقد شددوا في حفظ السبت. وقد تجاوزوا حفظ السبت في الحروب والإبادة لأبناء غيرهم من الأمم والملل.

وفي الفترة الواقعة بين عزرا والمسيح زاد اليهود عددا من القوانين التقليدية التي يجب حفظها في يوم السبت، تاركين الرحمة والحق التي هي الأمور الرئيسية الواجبة فيه. وعندما بعث المسيح عليه السلام كان موضوع حفظ السبت هو مادة النزاع الأولى بين المسيح وبين شيوخ اليهود فقد أرادوا حفظ اليوم حرفيا كعبيد للسبت بينما علم المسيح أن السبت إنما جعل لأجل

الإنسان[1]. وقد ورد أن السيد المسيح عليه السلام كان يبرئ جماعة من المرضى من أسقامهم يوم السبت ـ وهذا غير جائز عند اليهود ـ فأنكرت عليه اليهود ذلك فقال لهم: أخبروني عن الشاة من الغنم إذا وقع في البئر يوم السبت أما تنزلون إليه وتحلون السبت لتخليصه ؟ فقالوا بلى. قال فلم أحللتم السبت لتخليص الغنم ولا تحلونها لتخليص الإنسان الذي هو أكبر حرمة من الغنم؟ فأفحمهم ولم يؤمنوا. ويحكون عن السيد المسيح عليه السلام أنه كان مع قوم من تلاميذه في جبل، ولم يحضر الطعام فأذن لهم في تناول الحشيش في يوم السبت فأنكرت عليه اليهود قطع الحشيش (العشب) في يوم السبت. فقال لهم أرأيتم لو أن أحدكم لو كان وحيدا مع قوم على غير ملته وأمروه بقطع النبات في يوم السبت وإلقائه لدوابهم لا ليقصدوا بذلك كسر السبت تجيزون له قطع النبات قالوا: بلى. قال: فإن هؤلاء القوم أمرتهم بقطع النبات ليأكلوه وليتغذوا به لا للطعن في أمر السبت[2].

وقد ورد في الإنجيل ما نصه: (في ذلك الوقت ذهب يسوع في السبت بين الزروع فجاع تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون. فالفريسيون لما نظروا قالوا له: هو ذا تلاميذك يفعلون ما لا يحل فعله في السبت. فقال لهم أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذي لم يحل أكله ولا للذين معه بل للكهنة فقط أوما قرأتم في التوراة أن الكهنة في السبت في الهيكل يدنسون السبت وهم أبرياء. ولكن أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل فلو علمتم ما هو إني أريد رحمة لا ذبيحة) إنجيل متى 12: 1 ـ 7.

(1) قاموس الكتاب المقدس ص: 453 ـ 454.

(2) غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود. السموأل بن يحيى المغربي. مخطوط.

أما في القرآن الكريم فقد ورد الحديث عن السبت في سياق الحديث عن بني إسرائيل الذين خالفوا أوامر التوراة واعتدوا في هذا اليوم على حدود الله أو حدود ما شرعته التوراة لهم.

يقول تعالى: (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) البقرة 65 ـ 66. ويقول تعالى: (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن تطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا) النساء 47.

ويقول تعالى: (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا. فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) النساء 154 ـ 155.

ويقول تعالى: (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) الأعراف 163.

ويقول تعالى: (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) النحل 124.

وقد جاء في كافة التفاسير أن الحيتان أحلت لهم وحرمت عليهم يوم السبت ليعلم من يطيعه ومن يعصيه فكان القوم فيهم ثلاثة أصناف فأما صنف فأمسك ونهى عن المعصية وأما صنف فأمسك عن حرمة الله. وأما صنف فانتهك المعصية ومرن على المعصية فلما أبوا إلا عتوا عما نهاهم الله عنه (قلنا

لهم كونوا قردة خاسئين وصاروا يعوون كالكلاب[1].

وكان ما ذكر من هذه الآية في زمن داود عليه الصلاة والسلام بقرية يقال أيلة على شاطئ البحر الأحمر وهي مرفأ عليه وكان فيها يهود. ويروى أن الله تعالى اختار لهم يوم الجمعة ليكون يوم راحة وعبادة ونظافة، وغير ذلك فأبوا، وقالوا: فرغ ربنا من خلق السموات والأرض يوم الجمعة واستراح يوم السبت، فنحن نختاره لذلك، فشدد الله عليهم بأن حرم عليهم أي عمل دنيوي ما عدا العبادة والنظافة وأمثالها .وكانت معيشة أهل تلك البلدة من صيد الأسماك لا مورد لهم غيره. فابتلاهم الله إي اختبرهم. فما كان يبقى حوت في البحر إلا خرج خرطومه يوم السبت وأقبل نحوهم، فإذا مضى يوم السبت ذهبت الحيتان في أعماق البحر فلم يتمكنوا من الصيد طوال أيام الأسبوع. فظهر لهم الشيطان وقال لهم احفروا أحواضا قرب البحر وافتحوا جداول بينها وبين البحر، فكانت الحيتان تدخل الحياض يوم السبت ويصطادونها يوم الأحد فنهاهم نبيهم عن فعلهم هذا. فصاروا ثلاث فرق. وكانوا نحو سبعين ألفا، فرقة أمسكت ونهت وفرقة أمسكت ولم تنه وفرقة اصطادت واعتدت. فهذه هي التي مسخت قردة لها أذناب يتعاوون وقيل مسخ الشباب قردة والشيوخ خنازير فمكثوا ثلاثة أيام فقط ثم هلكوا ولم يأكلوا ولم يشربوا ولم يتوالدوا ونجت الفرقتان الناهية والساكتة عن النهي[2].

أما بشأن تابوت العهد. فكما أوردت التوراة في سفر الخروج أن الرب أمر موسى بصنع التابوت لتحفظ فيه تعاليم الشريعة التي نزلت على موسى. وقد أصبح منذ ذلك الوقت من الأشياء المهمة والأساسية التي تخص عبادة بني

---

(1) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة. السيوطي. الدر المنثور في التفسير المأثور ص: 147.

(2) محمد طه الدرة تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه ص: 117.

إسرائيل ويبرز أمر الرب لموسى بصنع التابوت في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر الخروج.

تقول التوراة: (فيصنعون لي مقدسا لأسكن في وسطهم) خروج 25: 8. وتقول أيضا: (فيصنعون لي تابوتا من خشب السنط طوله ذراعان ونصف عرضه ذراع وارتفاعه ذراع ونصف) خروج 25: 10.

ويأخذ سفر الخروج بوصف هذا التابوت الذي أمر الرب أن يصنعه موسى. وتبالغ في الوصف وتدرج أدق التفصيلات في صنعه. ثم يتحدث هذا السفر عن المسكن والخيمة وتعود التوراة إلى وصف أدق الأمور المرتبطة بهما.

ويصبح تابوت العهد علامة لانتصار الرب لبني إسرائيل فهم في حلهم وترحالهم يحملونه معهم. وكذلك تصبح خيمة الاجتماع رمزا واقعيا لاجتماع بني إسرائيل ليروا تجليات الله حسب ما تقول التوراة. تقول التوراة: (وكلم الرب موسى قائلا: في الشهر الأول في اليوم الأول من الشهر تقيم مسكن خيمة الاجتماع وتضع فيه تابوت الشهادة وتستر التابوت بالحجاب وتدخل المائدة وترتب ترتيبها وتدخل المنارة وتصعد سرجها وتجعل مذبح الذهب للبخور أمام تابوت الشهادة..) خروج 40: 1.

ومن خلال نصوص أسفار موسى الخمسة يتضح أن تابوت العهد رمز لشهادة الله على بني إسرائيل. ويعني هذا أن هذا التابوت متى ضيع فإن الله سينتقم منهم ويعتبرهم خارجين عن عهده. وحسب قول التوراة فإن التابوت يحتوي على الوعاء الذي فيه المن وعصا هارون ولوحا العهد وكان عليهما وصايا الله العشر المكتوبة بإصبع الله) خروج 25: 16 و21.

وكما نرى في سفر التثنية أن التوراة وضعت بجانب تابوت العهد. ومن ثم يسمى التابوت أحيانا تابوت شهادة. ولم يكن وعاء المن وعصا هارون في ملك سليمان. وفوق غطاء التابوت ظهر السحاب حيث تراءى الله. وكان في أيام

التيه إذا ما رحل العبرانيون في البرية أن التابوت يحمل أمام الشعب ويتقدمه عمود السحاب نهارا وعمود النار ليلا، وكان إذا حمل التابوت يقول: قم يا رب فليتبدد أعداؤك ويهرب مبغضوك من أمامك. وإذا ما حل التابوت يقول أيضا: إرجع يا رب إلى ربوات ألوف إسرائيل.

وتقول التوراة إنه عندما عبر العبرانيون الأردن حمل التابوت أمامهم إلى المساء وتدعي أن تيار النهر قد انشق فوقفت المياه المنحدرة من فوق وعبر الشعب على اليابسة وقد ورد ذلك في سفر يشوع 3: 14 ـ 17 ثم بقي مدة في الخيمة في الجلجال، وبعد ذلك نقل إلى شيلوه حيث بقي ما بين 30 إلى 40 سنة. ثم أخذ من الخيمة وحمل أمام الجيش فوقع في أيدي الفلسطينيين عندما انهزم بنو إسرائيل بقرب أفيق. فأخذه الفلسطينيون إلى أشدود ووضعوه بجانب صنم داجون.

ثم عندما سكن داود أورشليم نقل التابوت إليها على غاية من التجله والمظاهر الدينية المناسبة فبقي هناك إلى أن بني الهيكل حسب قول التوراة. ثم وضع التابوت في الهيكل ووضع منسى تمثالا منحوتا في بيت الله وربما أزال التابوت من مكانه حتى يجد له مكانا. غير أن يوشيا أرجعه وأسماه تابوت القدس ولم يكن التابوت في الهيكل الثاني وقد يكون قد أخذه البابليون من القدس أو اختفى ويوجد تقليد عند الأثيوبيين يفتقر إلى إثبات وهو أن تابوت العهد موجود بأكسوم في أثيوبيا[1].

وقد وردت كلمة تابوت في موضعين من القرآن الكريم مرة في سورة طه وأخرى في سورة البقرة. يقول تعالى: (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى. أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني) طه 38 ـ 39. والتابوت في هذا السياق لا

---

(1) قاموس الكتاب المقدس ص: 200

يعني تابوت العهد ولا أي تابوت مقدس. وهنا أتت التـابوت بمعنـى الصنـدوق المحمي من دخول الماء إليه. ومجيء كلمة تابوت في سياق قصة أم موسى يفتح أمامنا استنتاجا أو رأيا نقول فيـه: أن كلمـة تـابوت كلمـة مصريـة وليـس لهـا علاقة بلغة عبرية أو لغة توراتيـة فاللفظـة جـاءت متناسـبة مـع سـياق الحـال وسياق الواقع الذي تعيش فيه أم موسى وقد عرف المصريون بصنعهم التوابيـت الحجرية التي يدفن فيـها الموتـى بعـد تحنيـط جثثـهم. وباعتبـار أن الصنـدوق المكشوف الذي وضعت أم موسى ابنها فيـه يشـبه شـكل التـابوت أطلـق عليـه الاسم على المجاز.

ومع انتقال بني إسرائيل إلى برية سيناء حملـوا معـهم كثـيرا مـن تـراث المصريين ولغتهم ومن جملة مفردات اللغـة الـتي حملوهـا معـهم مفـردة تـابوت المصرية وهناك كثير من الدراسات إضافة لبراهين أخرى تقول إن موسـى عليـه السلام تلقى التوراة باللغة المصرية لأن موسى لم يكن يعرف سوى لغة المصريين لأنه عاش منذ نعومة أظفاره وحتى شبابه بينهم.

إضافة لذلك فإن اللغة العبرية ـ إذا اعتبرناها لغة ـ لم تكـن معروفـة ولم تكن موجودة زمن النبي موسى عليه السلام.

وفي المحصلة فإن تابوت ـ كلفظـة ـ تطـورت مـن المفـهوم المحـدود وهـو تـابوت الموتـى إلى معنـى الصنـدوق الآمـن إلى معنـى تـابوت العـهد أو تـابوت الشهادة أي صندوق العهد أو صندوق الشهادة الذي صنعه موسى وبنو إسـرائيل في سيناء ووضعوا فيه العصا ووعاء المـن ولوحـي الحجـر اللذيـن كتبـت عليـهما وصايا الله لموسى.

أما الآية الثانية التي وردت لفظة تابوت فيها في قوله تعالى: وقـال لهـم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقيـة ممـا تـرك آل

موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) البقرة .248

ويتضح من خلال الآية أن التابوت هو نفسه المشار له في التوراة. فهو الصندوق الذي حفظت فيه بقية من آل موسى وآل هارون والمقصود بالبقية لوحا الشهادة أو بعضهما والعصا المعجزة التي كان لها دور مهم في الصراع بين موسى عليه السلام وفرعون وسحرته الذين جمعهم من كل حدب وصوب.

لكن الملفت للنظر في العبادات اليهودية أن العلاقات بين اليهود وبين تابوت العهد كانت زمن موسى ترمز إلى علاقاتهم مع ربهم بمعنى أن التابوت ليس هو المقصود بالتعبد.

ومع مرور الزمن وبعد وفاة موسى أصبح هذا التابوت مختلطا بعبادة الله. ودون وجود هذا التابوت كانت عبادة بني إسرائيل مفقودة أو مشوشة. وهذا ما لمسناه عندما أخذ الفلسطينيون تابوت العهد وظل عندهم حسب قول التوراة مدة طويلة من الزمن. وفي هذه الأثناء تشوشت عبادة اليهود بل غيبت من قبل الكهنة ذوي المصلحة المادية والبعيدين عن العقيدة كثيرا وهذا ما نجده مبثوثا بشكل كبير في أسفار التوراة.

لقد عرفنا أن بني إسرائيل مكثوا متشردين في الصحراء عشرات السنين. وانحصرت طقوس عبادتهم ببعض أشكال السجود كما ارتبطت بيوم السبت وتابوت العهد وخيمة الاجتماع. وهذه هي طبيعة العبادة غير المستقرة. أو التي تدل على طبيعة البداوة التي كان عليها بنو إسرائيل. وحسب النص التوراتي دون سواه يتسرب بنو إسرائيل إلى أرض فلسطين بقيادة يشوع ويغزون الأرض يقودهم يهوه في حرب مدمرة للقرى والمدن الكنعانية وكان لتابوت العهد في هذه المرحلة شأن مهم في عبادة بني إسرائيل، فهم يحملونه من مكان إلى آخر. ويعتبرون أن نصرهم مرتبط بهذا التابوت .تقول التوراة (وأمروا الشعب قائلين

عندما ترون تابوت عهد الرب إلهكم والكهنة اللاويين حاملين إياه فارتحلوا من أماكنكم وسيروا وراءه) يشوع 3 : 3.

وتقول: (هوذا تابوت عهد سيد كل الأرض عابر أمامكم في الأردن) يشوع 3 : 3. ويتكرر الحديث عن تابوت عهد الرب عشرات المرات في سفر يشوع، مما يدل على أن التحول الذي طرأ هو ربط التابوت بالحرب والغزو وليس ربطه بالعبادة أو لنقل اختلط التقديس لدى بني إسرائيل بهذا التابوت نفسه الذي يرمز للحرب والقتال. ويرد في التوراة أن يشوع رأى رئيس جند الرب فسجد أمامه تعظيما. ثم قال له اخلع نعلك لأنك واقف في مكان مقدس .وأعتقد أن التقديس جاء بسبب وجود ملاك الرب المحارب على هذه الرقعة إضافة لتقليد عرفه بنو إسرائيل من خلال المكان المقدس الذي وقف فيه النبي موسى ليتلقى كلمات ربه في سيناء .ويتضح من خلال هذا السفر أن بعض جماعات إسرائيل أرادوا بناء معبد للرب بعد أن قسم يشوع الأرض التي احتلت على أسباط بني إسرائيل .تقول التوراة: وجاءوا إلى دائرة الأردن التي في أرض كنعان وبنى بنو رأوبين وبنو جاد ونصف سبط منسى هناك مذبحا على الأردن مذبحا عظيم المنظر) يشوع 22: 10

ويبدو أن بقية أسباط إسرائيل لم يرضهم هذا الفعل، واعتبروه خروجا على عقيدتهم وعلى عبادة الرب فأرادوا محاربة السبطين والنصف. لو لا أن بني جاد وبني رأوبين أوضحوا لهم أن هذا المعبد ليس خروجا على العقيدة إنما هو شاهد على اتفاق يجري بينهم وبين بقية الأسباط.

تقول التوراة (فلما سمع بنو إسرائيل اجتمعت كل جماعة بني إسرائيل في شيلوه لكي يصعدوا إليهم للحرب) يشوع 22: 12. وتقول (ما هذه الخيانة التي خنتم بها إله إسرائيل بالرجوع اليوم عن الرب ببنيانكم لأنفسكم مذبحا لتتمردوا اليوم على الرب) يشوع 22: 16.

وتبرز عادة نصب الحجارة في عبادة بني إسرائيل كما رأيناها في زمن يعقوب عليه السلام. وكانت هذه العادة ترتبط بقطع العهود بين بني إسرائيل والرب تقول التوراة: (وأخذ حجرا كبيرا ونصبه هناك تحت البلوطة التي عند مقدس الرب ثم قال يشوع لجميع الشعب. إن هذا الحجر يكون شاهدا علينا لأنه قد سمع كل كلام الرب الذي كلمنا به فيكون شاهدا عليكم لئلا تجحدوا إلهكم) يشوع 24: 26 ـ 27.

وتبدأ مرحلة جديدة في طقوس عبادة بني إسرائيل بعد موت يشوع واستقرارهم في أرض فلسطين. وفي هذا الإطار لا بد أن نلاحظ أن تسرب بني إسرائيل إلى فلسطين يعني تسرب البدو الرحل إلى الحالة الزراعية والحضارية التي كان عليها العرب الكنعانيون وهذا يعني أن ذلك كان بداية حقيقية للتأثر السريع بطقوس الكنعانيين وعبادتهم مع العلم أن عبادة الكنعانيين كانت على الغالب عبادة وثنية لها شعائرها وطقوسها المختلفة عن ديانة التوحيد.

وبدءا من الإصحاح الثاني في سفر القضاء راح بنو إسرائيل يتمثلون عبادة أهل الأرض وكما نصت التوراة فإنهم عبدوا البعليم، (وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب) قضاة 2: 12.

وتقول التوراة: (وعند موت القاضي كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ليعبدوها ويسجدوا لها) القضاة 2: 19.

ويرد في هذا السفر أن بني إسرائيل عبدوا البعليم والسواري. وعبدوا ملك آرام المدعو كوشان رشعتايم والسارية التي تجمع على سواري ورد ذكرها في سفر أشعياء على أنها علامة أو دليل منصوب على مكان مرتفع حتى يراه المسافرون والسائحون للإرشاد إلى طريق أو التحذير منه. وكانت السواري تنصب على الأماكن المرتفعة حتى يجتمع الناس حولها للعبادة البعلية الوثنية. وقد اعتاد الملوك المنحرفون عن عبادة الرب إقامة تلك المرتفعات لعبادة الأصنام. وقد أظهر

البحث الحديث أن الكلمة العبرية (أشيرة) تشير إما إلى إلهة كما ورد في سفر القضاة 3: 7 أو تشير إلى السارية الخشبية التي كانت تقام نصبا رمزا إلى هذه الآلهة. وقد ذكرت هذه الآلهة في لوحات أو غاريت التي اكتشفت في رأس شمرا[1].

وقد عبد بنو إسرائيل عجلون ملك موآب ثماني عشر سنة. مثلما عبدوا ملك آرام.

ولم تتضح طبيعة الطقوس التعبدية التي ارتبطت بعبادة الملوك. وأعتقد أن بني إسرائيل كانوا من الجماعات السريعة التقلب في عبادتهم، ولا شك أنهم في تقلبهم كانوا سريعي التأثر بعقائد الشعوب وعبادتها وطقوس هذه العبادة. وحسب أسفار التوراة فإن سفر صموئيل الأول وصموئيل الثاني يفصحان عن نوع من التطور في طقوس عبادة بني إسرائيل. حيث بدا أن نوعا من الاستقرار قد عايشوه. ولا شك أن هذا الاستقرار النسبي يعطي قابلية التأثر من قبل بني إسرائيل بعبادات الكنعانيين وطقوسهم من جانب ويمنحهم نظرة متطورة عن سابقتها حول طبيعة العلاقة بين الإنسان والإله.

وحسب ما تفصح عنه نصوص التوراة فإن بني إسرائيل وضعوا تابوت العهد في قرية يقال لها شلوه وقد منحوا بعض الكهنة صلاحيات الإشراف عليه. ويبدو أنهم وضعوه في بناء محدد وأطلقوا عليه اسم بيت الرب. وبهذا المعنى فقد استقر تابوت عهد الرب في مكان محدد ولو لفترة زمنية طويلة واحدة.

تورد التوراة أن الإنسان بدأ يلجأ إلى هذا البيت ويصلي ويسجد ويقدم النذور تقول التوراة: (فصلت إلى الرب وبكت بكاء ونذرت نذرا وقالت يا رب الجنود إن نظرت نظرا إلى مذلة أمتك وذكرتني ولم تنس أمتك بل أعطيت أمتك

---

(1) قاموس الكتاب المقدس ص: 466.

زرع بشر فإني أعطيه للرب كل أيام حياته ولا يعلو رأسه موسى) صموئيل 1: 10 ـ 11 ثم تقول: (وبكروا في الصباح وسجدوا أمام الرب) صموئيل 11: 19.

ومن خلال ذلك يتضح أن الصلاة للرب يقصد بها الصلاة أمام تابوت العهد الذي يرمز إلى الرب. وكما قلنا فإن لهذا التابوت مكان حددته التوراة في أرض شلوة.

ويذكر سفر صموئيل أن المرأة التي صلت للرب كي يهبها غلاما وهبت هذا الغلام لعبادة الرب. وقد دعت ربها عندما جاءت أول مرة إن هو منحها ابنا سوف تهبه له. وتذكر التوراة أنها وهبته لبيت الرب طوال حياته. ويتضح ذلك من خلال الإصحاح الثاني في سفر صموئيل الأول بعض ما قالته المرأة في صلاتها المتجهة بها إلى ربها.

تقول التوراة: (فصلت حنة وقالت فرح قلبي بالرب ارتفع قرني بالرب. اتسع فمي على أعدائي لأني قد ابتهجت بخلاصك. ليس قدوس مثل الرب. لأنه ليس غيرك وليس صخرة مثل إلهنا. وتستطرد قائلة في صلاتها. حتى أن العاقر ولدت سبعة وكثيرة البنين ذبلت. الرب يميت ويحيي يهبط إلى الهاوية ويصعد الرب يفقر ويغني. يضع ويرفع. يقيم المسكين من التراب...) صموئيل 2: 1 و3 ـ 5 ـ 6 ـ 7 ـ 8

وهذا الكلام ليس سوى تمجيد للرب ودعاء أثناء الصلاة. وليس هو كلاما تعبديا فرضته الشريعة اليهودية أو فرضه الكهنة. وليس هو مما يقال في صلوات اليهود. وتذكرنا هذه الصلوات وهذا الكلام بعدة حوادث مشابهة أشار لها القرآن الكريم وأشارت لها التوراة نفسها في مواقع أخرى كإشارتها إلى قصة عقم سارة زوجة النبي إبراهيم عليه السلام وعقم زوجة إسحق.

أما القرآن الكريم فيشير إلى قصة أم مريم والدة السيد المسيح عليه السلام وكذلك إلى قصة عقم زوجة النبي زكريا عليه السلام. لكن الذي يلفت النظر في

التشابه بين القصص أن والدة مريم وهبت ما في بطنها لله وقد أنجبت مريم. ودعت الأم ربها أن يحفظ ما في رحمها وذريتها من الشيطان. يقول تعالى: (إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم. فلما وضعتها أنثى قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم. فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.) آل عمران 35 ـ 37.

ويبرز من خلال الإصحاح الرابع من سفر صموئيل الأول تعلق بني إسرائيل بتابوت العهد حيث دمجوا بين هذا التابوت وبين الله كما تحدثنا عن ذلك سابقا.

تقول التوراة: فأرسل الشعب إلى شيلوه وحملوا من هناك تابوت عهد رب الجنود الجالس على الكروبيم.

ويتضح أن بني إسرائيل استخدموا هذا التابوت ليكون لهم عونا على خوض الحرب ضد الفلسطينيين وتفصح التوراة على ذلك حين تصف الفلسطينيين بأنهم ارتعبوا عندما سمعوا هتاف بني إسرائيل وصراخهم بسبب وجود تابوت الرب بينهم.

وقد اعتبر بنو إسرائيل تابوت العهد كالسحر يفعل فعله إذا كان بينهم، فلذلك نجدهم ينوحون ويبكون ويضعفون.

تقول التوراة: وناح كل بيت إسرائيل وراء الرب واضطروا للذهاب إلى صموئيل ليدعو لهم الرب كي ينصرهم ويعيد لهم تابوت العهد.

ويظهر الصوم لأول مرة لفظا في التوراة حيث تصرح أنهم عندما ذهبوا إلى صموئيل طلب منهم نزع التماثيل الرامزة للآلهة الوثنية ففعلوا ثم صاموا. تقول التوراة: (فاجتمعوا إلى الصفاة واستقوا ماء وسكبوه أمام الرب وصاموا في ذلك اليوم وقالوا هناك قد أخطأنا إلى الرب) صموئيل 7: 6. والواقع أنه لم يرد الصوم لفظا في أسفار موسى الخمسة ولكن كان يوم واحد معين للصوم وهو يوم الكفارة الذي ورد ذكره في سفر اللاويين 16 ـ 29 و23: 27 وفي سفر العدد 29: 7. إذ كان المقصود بتذليل النفس في هذه الآية هو الصوم كما ذهب الكثيرون[1]

ويرد في نفس السفر أيضا أن جماعة من بني إسرائيل قد صاموا سبعة أيام بعد أن أخذوا جثة شاؤل ملك إسرائيل الذي قتل هو وأولاده الثلاثة في معركة جبل جلبوع تقول التوراة: وأخذوا جسد شاؤل وأجساد بنيه عن سور بيت شان وجاءوا بها إلى يابش وأحرقوها هناك وأخذوا عظامهم ودفنوها تحت الأثلة في يابش وصاموا سبعة أيام) صموئيل الأول 31: 12 ـ 13 .ومنذ ظهور النبي داود على ساحة الأحداث في سفر صموئيل تبدأ مرحلة جديدة من مراحل عبادة بني إسرائيل.

تظهر في البداية عادة المسح حيث يقصد بها أن أحد الكهنة يمسح الملك أو النبي لينصب في ملكة أو رئاسته النبوية. تقول التوراة: (وأتى رجال يهوذا ومسحوا هناك داود ملكا على بيت يهوذا) صموئيل 22: 4.

ثم يرد (وجاء جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك إلى حبرون فقطع الملك داود معهم عهدا في حبرون أمام الرب ملكا على إسرائيل) صموئيل 5: 3 وتبدأ ملامح جديدة للعبادة في بني إسرائيل حيث تتضح معالم الملك والنبوة لدى داود عليه السلام.

---

(1) قاموس الكتاب المقدس صفحة 563.

يعيد داود تابوت العهد كأول عمل تعبدي يقوم به حيث أن العبادة الإسرائيلية لا تكتمل إلا بوجود هذا التابوت. تقول التوراة: (فذهب داود وأصعد تابوت الله من بيت عوبيد أدوم إلى مدينة داود بفرح. وكان كلما خطا حاملو تابوت الرب ست خطوات يذبح ثورا وعجلا معلوفا. وحسب قول التوراة: (كان داود يرقص بكل قوته أمام الرب، وكان داود متنمطقا بأفود من كتان) صموئيل 62: 12 ـ 14 ومنذ الإصحاح السابع تبرز فكرة بناء بيت للرب حيث يأتي الوحي للنبي ناثان ويقول له بأن يخبر داود كي يبني بيتا له.

ويهيء داود كل ما يلزم لبناء بيت الرب فأقام نحاتين لنحت الحجارة المربعة وهيأ الحديد والمسامير والنحاس وخشب الأرز. ولكنه حسب قول التوراة يوصي ابنه سليمان لبناء معبد للرب لأنه قد منع من ذلك بسبب سفكه للدماء الكثيرة حسب قول التوراة. تقول التوراة: فكان إلي كلام الرب قائلا قد سفكت دما كثيرا وعملت حروبا عظيمة فلا تبني بيتا لاسمي لأنك سفكت دماء كثيرة على الأرض أمامي هو ذا يولد لك ابن يكون صاحب راحة وأريحه من جميع أعدائه حواليه لأن اسمه يكون سليمان فاجعل سلاما وسكينة في إسرائيل في أيامه) أخبار الأيام الأول 22: 98

وبعد أن يتم سليمان بناء المعبد ينقل إليه تابوت العهد وخيمة الاجتماع ويضعه في محراب المعبد. وأول صلاة تقام في هذا المعبد يؤديها سليمان حيث تقول التوراة: (ووقف عليه جثا على ركبتيه تجاه كل جماعة إسرائيل وبسط يديه نحو السماء ..و تقول في نفس الإصحاح وفي نفس الصلاة التي أداها سليمان (فالتفت إلى صلاة عبدك وإلى تضرعه أيها الرب إلهي واسمع الصراخ والصلاة التي يصليها عبدك أمامك) أخبار الأيام الثاني 6: 13 و19

وتبين التوراة على لسان سليمان الغاية من إقامة المعبد فتقول: فكل صلاة وكل تضرع تكون من أي إنسان كان أو من كل شعبك إسرائيل الذين

يعرفون كل واحد ضربته ووجعه فيبسط يديه نحو هذا البيت) أخبار الأيام الثاني 6: 29 وتقول التوراة: (ولما انتهى سليمان من الصلاة نزلت النار من السماء وأكلت المحرقة والذبائح وملأ مجد الرب البيت) أخبار الأيام الثاني 7: 1 ـ 2.

ومن أهم ما يرتبط ببيت الرب من عبادات وجود المذبح الذي كان عبارة عن صندوق من الخشب الثمين مربع الحجم ومغطى بالنحاس وكانت النار تشعل على رأسه وعلى جانبها وضعت أوعية للغسل وهي من النحاس ليتطهر بها الكهنة والذبائح. وكان لا يسمح بدخول أحد غير رئيس الكهنة إلى الجانب المقدس المخصص له. وقد تحدث القرآن الكريم عن النبي داود والنبي سليمان عليهما السلام. فداود عليه السلام صاحب كتاب الزبور كما أشار لذلك القرآن الكريم يقول تعالى: (وآتينا داود زبورا) الإسراء الآية 55.

ويشير القرآن الكريم إلى أن داود كان مسبحا لله وسخر له الطير والجبال يسبحن معه. يقول تعالى: (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) الأنبياء 80 ويصفه القرآن الكريم بأنه أواب. فيقول تعالى: (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) سورة ص آية 18 ويصفه أنه يستغفر ربه ويخر ساجدا داعيا الله ليغفر له، يقول تعالى: (وظن داود أنا فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب) سورة ص آية 25 وقد وصف سليمان عليه السلام بأنه أواب، ويطلب الغفران من الله. ويشكره على ما أنعم عليه من الملك والنبوة. يقول تعالى: (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب. قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب) ص 35 ـ 36.

وقد أشار القرآن الكريم إلى المحراب عند الحديث عن داود عليه السلام كما أشار إلى المحاريب عند الحديث عن سليمان. يقول تعالى: (يعملون له ما

يشاء من محاريب) سبأ 14 وهذا ما يشير إلى علاقة ما بين المحراب والصلاة والتعبد.

وكذا فإن الأنبياء كانوا يصلون ويتعبدون ويستغفرون وينيبون ويشكرون الله على ما آتاهم.

وبموت النبي سليمان عليه السلام تنتهي مرحلة أخرى من مراحل عبادة بني إسرائيل حيث يتوالى على الملك عدد كبير من الأشخاص حيث تنقسم مملكة سليمان وتتشرذم حتى مجيء البابليين بحملات قتالية تقضي على بيت الرب وعلى كثير من معالم الديانة اليهودية، وبسبب الضعف العقيدي والسياسي لليهود بدأت تقلبات العبادة وتلونها.

وتدل هذه المرحلة على عدم ثبات عقيدة التوحيد لدى أتباع اليهودية. وبالتالي على عدم ثبات العبادة.

بدأ التحول عن العبادة في زمن رحبعام، وأول عمل قام به رفضه للكهنة من اللاويين أن يكهنوا للرب. تقول التوراة: لأن يربعام وبنيه رفضوهم من أن يكهنوا للرب وأقام لنفسه كهنة للمرتفعات وللتيوس وللعجول التي عمل) أخبار الأيام الثاني 11: 14 ـ 15.

وحينما ملك آحاز على بني إسرائيل سار في طريق ملوك بني إسرائيل وعمل أيضا تماثيل مسبوكة للبعليم. وهو أوقد في وادي أبن هنوم وأحرق بنيه بالنار حسب رجاسات الأمم .. وذبح وأوقد على المرتفعات وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء) أخبار الأيام الثاني 3: 28ـ5.

ثم في زمن حزقيا أعاد بنو إسرائيل عبادة الرب (وقاموا وأزالوا المذابح التي في أورشليم وأزالوا كل مذابح التبخير وطرحوها في وادي قدرون وذبحوا الفصح في الرابع عشر من الشهر الثاني والكهنة واللاويون خجلوا وتقدسوا

وأدخلوا المحرقات إلى بيت الرب) أخبار الأيام الثاني 30: 14 ـ 15. وأقام حزقيا فرق الكهنة واللاويين حسب أقسامهم كل واحد حسب خدمته الكهنة واللاويين للمحروقات وذبائح السلامة للخدمة والحمد والتسبيح في أبواب محلات الرب) أخبار الأيام الثاني 31 :2

ويلجأ حزقيا إلى الصلاة عندما تهاجم أورشليم حسب قول التوراة: (فصلى حزقيا وإشعيا بن آموص النبي وصرخا إلى السماء) أخبار الأيام الثاني 32: 20 .وهذه الصلاة صلاة خوف واستنجاد. وصلى حزقيا للرب صلاة دعاء للشفاء (وفي تلك الأيام مرض حزقيا إلى حد الموت وصلى إلى الرب فكلمه وأعطاه علامة) أخبار الأحبار الثاني 32: 24.

ثم يملك ابنه منسى الذي رفض عبادة الرب وعبد الأصنام. تقول التوراة: وأقام مذابح للبعليم وعمل سواري وسجد لكل جند السماء وعبدها وبنى مذابح في بيت الرب الذي قال عنه الرب في أورشليم يكون إسمي إلى الأبد وبنى مذابح لكل جند السماء في داري بيت الرب. وعبر بنيه في النار في وادي ابن هنوم وعاف وتفاءل وسمر واستخدم جانا وتابعة وأكثر عمل الشر في عيني الرب لإغاظته) أخبار الأيام الثاني 33: 3 ـ 6.

وتقلبت شعائر العبادة لدى بني إسرائيل مع تقلب الوضع السياسي لمن تسميهم التوراة الملوك الذين حكموا مملكتي يهوذا وإسرائيل. إلى أن بدأت مرحلة جديدة وهي مرحلة السبي البابلي التي تميزت بوجود عدد من أنبياء التوراة الذين حاولوا إصلاح أوضاع اليهود المسبيين.

ويؤخذ بعين الاعتبار أن مرحلة السبي دامت حوالي سبعين عاما استعبد اليهود فيها في أول عهدهم بها وتأثروا بالأفكار البابلية وعقائدها وحتى شعائرها. وبدا أن مفاهيم جديدة طرأت على العبادات باعتبار أن العقيدة بحد ذاتها تأثرت كثيرا بعقيدة الوثنيين البابليين.

ويرجح كثير من الباحثين والمؤرخين أن اليهود استفادوا جدا من التشريعات البابلية وخاصة تشريع حمورابي، حيث قارنوا بين الوصايا العشر التي وردت في التوراة وبين ما جاء في تشريعات حمورابي إضافة لما استفادوه في القوانين الحياتية التي تتضمن المعاملات البشرية من زراعة وتجارة وصناعة وما إلى ذلك.

والجدير ذكره أن عددا من الأنبياء اليهود الذين لم يرد ذكرهم في القرآن الكريم كانوا قد عاصروا فترة السبي. وأهم هؤلاء النبي أرميا والنبي حزقيال. والنبي دانيال. مع آخرين من أنبياء التوراة الذين أطلق عليهم الرائين وجدوا أيضا في فترة السبي البابلي.

وعندما نطالع أسفار هؤلاء والفترة الزمنية التي قضاها اليهود في السبي نرى أنهم دوما يحتجون على مواقف اليهود الدينية. وقد هاجموا جميعا انحراف اليهود وأقذعوا في الهجوم. وحاولوا إصلاح العقيدة والمعتقدات وتناولوا العبادات مما جعل الباحثين يرون تطورا ملحوظا فيها وفي غاياتها.

إن ما يلاحظ بداية أن القرابين والتقدمات التي كان يقدمها بنو إسرائيل قبل السبي بطل استخدامها. ووضعت الصلوات بدلا منها وظلت هكذا إلى هذا اليوم عند كثير من الفرق اليهودية. ويرى بعض الباحثين أن هذه العبادات بالصلوات تفوق كثيرا العبادات القديمة بالذبائح والتقدمات.

ولا شك أن التقدمات والقرابين فقدت، باعتبار أن بني إسرائيل أصبحوا مسخرين عبيدا لا حول لهم ولا قوة، ولا يملكون أي شيء يقدمونه للرب، ففاقد الشيء لا يعطيه وهذا ما يعلل سبب لجوئهم إلى الصلاة، إذ أنها لا تكلفهم المال ولا التعب. وهي على الغالب صلاة تحتاج لبعض الألفاظ والنصوص التي وردت في التوراة إضافة للنصوص التي يكتبها أنبياء السبي وزعماء الدين اليهودي.

يقول الدكتور حسن ظاظا (فإن العبادات بالتقدمات هي عبارة عن تقدمة شيء من مال الإنسان. أي مادة حسية أرضية على مذبح مادي بخلاف العبادة الروحية بالصلوات فإنها إظهار عواطف وإحساسات، وتقدمة شكر روحية صادرة من نفس الإنسان على مذبح قلبه وعقله وشهواته الجسدية[1].

ولدى هؤلاء الأنبياء مقالات تشير بوضوح إلى تغير مفهوم القرابين المادية إلى قرابين كلامية وروحية.

جاء في التوراة: (إرجع يا إسرائيل إلى الرب إلهك لأنك قد تعثرت بإثمك. خذوا معكم كلاما وارجعوا إلى الرب. قولوا له إرفع كل إثم وأقبل حسنا فنقدم عجول شفاهنا) هوشع 14: 1 ـ 2.

وجملة عجول شفاهنا تعني أن لا تقدمة بالعجول وذبحها بل هناك تقدمة بالقول والدعاء التي شبهها النبي هوشع بالقرابين.

وقد أدان أشعيا صلوات بني إسرائيل وطقوسهم لأنهم ينافقون وأيديهم ملوثة بالدم فلن تقبل منهم صلاة ولا عبادة.

جاء في التوراة: (وعندما تبسطون أيديكم سأخفي عيني عنكم، وتتلون الصلوات الكثيرة لن أسمعها. أيديكم مليئة بالدم) أشعيا 1: 15

وبما أن الكهنة يبسطون أيديهم لمباركة الناس أثناء الصلاة يفسرونها بأن الكاهن الذي يرتكب جريمة قتل بالصدفة لا يصبح مؤهلا لبسط يديه للتبريك حتى مع التوبة لأنها مليئة بالدم)[1].

وحاول أحبار اليهود جمع ما علق في أذهان اليهود من التوراة فجمعوا ما جمعوا وزادوا وحذفوا ما لا يعجبهم. وقد راحوا يعملون على كتابة كتاب جديد

---

(1) د: حسن ظاظا. الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه صفحة 142 نقلا عن المشنا (البركات 32)

(1) إسرائيل شاحاك: الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود ترجمة حسن خضر ص61

ينظم حياتهم بكل جزئياتها فخرج معهم التلمود الذي نلمس فيه أن مفهوم الصلاة أصبح ذا شكل قانوني. واستقر الوضع اليهودي على خلق ثلاث صلوات في أوقات محددة. في الصباح والظهيرة وبعد المغرب.

وقد فرض عليهم أن يتجهوا أثناء الصلاة إلى القدس باعتبارها جمعت بين الرمز الديني والرمز السياسي لليهود.

وقد أخذ التفكير بالمعبد جل اهتمام أنبياء السبي من بني إسرائيل حتى صار لديهم معبدا مثاليا قد لا يكون في الواقع الأرضي نظيره. وقد ركز كاتبو التوراة على حث اليهود أن يظلوا متعلقين نفسيا وعقيديا بهذا المعبد.

وقد ظهر في هذه الفترة أي فترة السبي ما يسمى بالقانون الكهنوتي. ويرى كثيرون أن ذلك يعكس تطلعات كهنة القدس والأنبياء الذين كانوا قريبين منهم فيما بعد في مرحلة الأسر أو السبي. وقد شمل القانون الكهنوتي كل مناحي الحياة الاجتماعية تقريبا. فاندرجت ضمنه فرائض حقوقية وأخلاقية وفرائض بخصوص النظافة وفرائض طبية وطعامية وكذلك صيغ سحرية وابتهالات ولعنات. وكل ذلك مصور وكأنه إرادة ـ يهوه ـ التي سيكونون هم ـ كهنة معبد يهوه المقبل ـ منفذين ومفسرين لها.

وقد ركزت التوراة في هذه المرحلة على إبراز المعبد على لسان أنبيائهم مثل حزقيال وقد كان من المهم بالنسبة لأنصار يهوه عدم إضاعة رعيتهم. فلم يكن لدى اليهوديين في بابل ذلك المركز الديني الذي يوحدهم. ولذلك كان الدور الذي يجب أن تمارسه الطقوس دورا كبير. وهذا هو السبب الذي يجعل نبيا كحزقيال يتميز عن الأنبياء القدامى بكون الواجبات الطقوسية لديه لا تقل أهمية عن الواجبات الأخلاقية فالختان بالنسبة له رمز القداسة. والسبت علامة يهوه والشعب المختار (12 : 20ـ 24) وكان الالتزام بتطبيق هذه الخصائص

الطقوسية وغيرها من خصائص الديانة اليهودية معنيا بأن يؤدي دورا معينا في عزل اليهوديين)[1].

ولا شك أن اطلاع اليهود المسبيين على معابد البابليين أفادهم جدا في تصوراتهم حول المعبد الذي يتمنون بناءه، وهذا أيضا يرتبط بتصوراتهم حول الإله، حيث أن تطورا ملحوظا طرأ على ذلك التصور. فالإله حتى يكون الأكبر فهو الخالق الأعظم من كل آلهة البابليين ومن الإله (مردوخ) كبير آلهة البابليين. فالله يصبح في نظر أنبياء السبي رب السماوات والأرض والخالق العظيم وليس فقط إله بني إسرائيل وطالما أن الإله في عقيدتهم بهذا الشمول والاتساع فإن من مستلزماته أن يكون المعبد الرئيسي له يناسبه ويناسب عبادته. ولهذا كان تصورهم نحو المعبد الذي سيبنونه أكبر وأضخم من المعبد القديم الذي يطلقون عليه الهيكل.

ونرى أن بني إسرائيل وعلى رأسهم الأنبياء في زمن السبي أسسوا لمستقبل نظري وعملي عبادي ليكونوا مهيئين للمعبد الجديد الذي سيقام.

وتعتبر مرحلة السبي مرحلة تقنين العبادات أي وضع القوانين الزمنية والطقوسية لها بعد أن كانت في المراحل السابقة عبارة عن دعوات صلاتية وطقوس يقوم بها اليهودي متى شاء وحسب حاجته وفي أي مكان.

ولا شك أن كتابة التلمود بقسميه لعب دورا أساسيا في توضيح كافة مواقيت العبادات والأعياد وقوانين التعامل الإنسانية وغيرها.

وعند السماح لليهود بالذهاب إلى فلسطين زمن الملك الفارسي كورش والذي قضى على الدولة البابلية راحوا يعملون لبناء معبد جديد تحت الحماية

---

(1) م. ريجسكي. أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية ترجمة آحو يوسف صفحة 187 ـ 188.

الفارسية. وظلوا عشرين سنة حتى تمكنوا من بناء المعبد، ولكن يبدو أن تصوراتهم خابت لأن المعبد الذي شيدوه كان ممسوخا إلى درجة كبيرة جدا.

قبل ميلاد السيد المسيح بـ 539 عاما استطاع الفرس الانتصار على البابليين وراحوا يحتلون البلاد حتى وصلوا إلى سورية وفلسطين. وقد كان الأسرى اليهود من بين الرعايا الذين ساعدوا الفرس في القضاء على البابليين. وقد ورد في سفر أستير ما يشير إلى أن اليهود قاموا بمذابح جماعية بحق البابليين وبإشراف الفرس أنفسهم وقد طلب بعض اليهود أن يسمح لهم الفرس بالذهاب إلى فلسطين لاحتلالها مرة أخرى وسمح لهم كورش الفارسي بالذهاب، وتشير بعض الدراسات التاريخية أن كورش أعاد إليهم كنوز ما يسمى الهيكل التي كان قد استولى عليها نبوخذ نصر. وأمر كورش بإعادة بناء ما يسمى الهيكل في القدس. فعاد فريق من اليهود ويرجح المؤرخون أن الذين رجعوا انحصروا في أولئك الذين لم يفلحوا كثيرا في الأرض الجديدة والمتعصبون لإعادة ما يسمى الهيكل لأن الدلائل تشير أن هناك عددا غير قليل أصاب النجاح في بلاد بابل أثرى حتى أصبح لديه الكثير من الممتلكات فآثر البقاء وعدم المجازفة بمغامرة مجهولة المصير[1].

وقد عين حاكم على الجالية اليهودية التي هاجرت إلى فلسطين شخص يدعى زربابل. وهو من بدأ ببناء الهيكل إلا أن الأقوام العربية الساكنة في فلسطين وسورية رفضت السماح لليهود بإقامة هذا الهيكل فأصدر (سمريدس) الذي خلف الملك الفارسي قمبيز الثاني أمرا بإيقاف عملية البناء. ولكن دارا الأول سمح لهم فأتموا البناء بعد حوالي عشرين عاما.

---

(1) د: احمد سوسة العرب واليهود في التاريخ صفحة 674

وكان كورش قد تزوج بإستير اليهودية وسمح لليهود بتدوين التوراة التي بين أيدينا. ومارسوا شعائرهم الدينية بحرية بعد أن تجمعوا في القدس تحت إشراف الفرس.

وقد وجد أنبياء توراتيون في هذه الفترة هم حجي وزكريا ويوئيل وعوبيديا. ولهم أسفار في التوراة تتحدث عن مرحلة ما بعد السبي. وتظهر هذه المرحلة مرحلة قلق عقيدي. فالعبادات ما زالت ملوثة بالوثنية، وما تزال آثار السبي تنعكس على نفسية الكهنة وبقية أتباع اليهودية.

وقد حدثت نزاعات دينية بين الوثنيين اليهود وبين من اتبعوا الكهنة وتعاليم يهوه وقد تبين أن بعض اليهود يقومون بتقديم القرابين على مذبح يهوه، وفي نفس الوقت يرتبون الموائد للإلهين الوثنيين (جاد، ومني) ويقدمون ضحايا في الغابات ويأكلون لحم الخنزير. وقد احتج أنبياء التوراة في هذه الفترة على بني قومهم الذين تركهم نبوخذ نصر في بعض أجزاء فلسطين وقد أصيبوا بعدوى الوثنية إصابة عميقة[1].

وقد أحيا اليهود المتبقون في بعض مناطق فلسطين المقادس المحلية في الغابات وعلى الجبال. وراح الناس يقدمون القرابين ليس فقط ليهوه بل وللآلهة الوثنية القديمة (بعل - وجاد - ومني). وقد شهد الكهنة الراجعون من السبي نضالا حاسما ضد ذلك الإنحراف عن عبادة يهوه. ولكن يبدو أنه من الصعب إيقاف هذا التحول وقد ألح أشعيا الثالث وهو من أنبياء هذه الفترة التوراتية على العبادة وفروضها وحتى يستطيع أشعيا أن يكسب الناس إلى عبادة يهوه فقد شرع أن من يريد من أبناء الشعوب خدمة معبد يهوه فإن الرب يقبله حتى لو لم يكن يهوديا.

(1) أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية صفحة 203 - 204

جاء في التوراة: (فلا يتكلم ابن الغريب الذي اقترن بالرب قائلا إفرازا أفرزني الرب من شعبه. ولا يقل الخصي ها أنا شجرة يابسة. لأنه هكذا قال الرب للخصيان الذين يحفظون سبوتي، ويختارون ما يسرني ويتمسكون بعهدي. إني أعطيهم في بيتي وفي أسواري نصبا واسما أفضل من البنين والبنات. أعطيهم إسما أبديا لا ينقطع وأبناء الغريب الذين يقترنون بالرب ليخدموه وليحبوا إسم الرب ليكونوا له عبيدا كل الذين يحفظون السبت لئلا ينجسوه ويتمسكون بعهدي آتي بهم إلى جبل قدسي وأفرحهم في بيت صلاتي وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولة على مذبحي لأن بيتي بيت الصلاة يدعى لكل الشعوب) أشعياء 65: 3 ـ 8.

وباتساع أفق بعض الأنبياء طرحوا مسألة المعبد المادي والمعبد المعنوي. فبعد أن ركزت التوراة على الهيكل هو بيت سكن للرب طرح أشعيا الثالث أن يهوه ليس بحاجة إلى المعبد (هكذا قال يهوه السموات كرسيي والأرض موطئ قدمي أين المكان الذي تبنون لي وأين مكان راحتي) أشعياء 66 : 1 كما أن الرب ليس بحاجة إلى صلاة أو صيام (طالما أنكم في يوم صومكم توجدون مسرة بكل أشغالكم تسخرون).

والصيام عند أشعياء هو معونة المساكين والفقراء (فك عقد النير وإطلاق المسحوقين أحرارا وقطع كل نير. أليس أن تكسر للجائز خبزك وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك إذا رأيت عريانا أن تكسوه وأن لا تتغاضى عن لحمك حينئذ) أشعيا 58: 3ـ 6ـ 7 فالفرائض الطقسية لدى أشعيا الثالث لا تقل أهمية عن المتطلبات الأخلاقية. والجانب الطقوسي في ديانة يهوه يبدأ ـ اعتبارا من أيام السبي ـ بأداء دور متزايد الأهمية وقد عكس الجانب الكهنوتي الفرائض الطقوسية في صيغة تهديدات ومواعظ صادرة عن لسان الإله[1]. وقد

(1) أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية صفحة 206.

تبين أن مهمة الكهنة والأنبياء في هذه الفترة كانت بناء المعبد في القدس.

وقد حاول أنبياء التوراة الحض على الإسراع ببناء المعبد ولكنهم فشلوا حيث ظل العمل به بطيئا، وبعد أن تم بناء المعبد أصبح الكهنة عالة على العبادة والطقوس وعلى الناس. وقد تحولوا إلى فئة من الموظفين. فلم يكونوا ينفذون الواجبات الطقوسية في المعبد ويأخذون من الناس الأعشار لأجل أنفسهم وحسب. بل ويمارسون الوظائف ويجمعون الإتاوة لأجل الفرس[1].

وقد أقرت التوراة في سفر ملاخي أن عبادة بني إسرائيل قد أصبحت نجاسة للإله ومعبده. تقول (فإن كنت أنا أبا فأين كرامتي وإن كنت يهوه فأين هيبتي قال لكم يهوه رب الجنود أيها الكهنة المحتقرون اسمي وتقولون بم احتقرنا اسمك) ملاخي 6:1 تقربون خبزا نجسا على مذبحي وتقولون بم نجسناك بقولكم إن مائدة يهوه محتقره) ملاخي 1 :7. فالكهنة إذ لا يكتفون بتقديم الخبز النجس طعاما للإله بل ويقربون حيوانات فيها عيوب ومعطوبة (وإن قربتم الأعرج والسقيم أفليس ذلك شرا قربة لواليك أفيرضى عليك أو يرفع وجهك) ملاخي 1 ـ 8.

وقد ظل وضع المعبد اليهودي على حاله. وظلت العبادة على حالها حتى مجيء المسيح عليه السلام. فالمعبد كما وصفه الإنجيل أصبح مكانا لبيع الحمام وتجار الذهب الذين جعلوا من الربا وسيلة مشروعة ومنتشرة بين كافة اليهود.

وقد دخل السيد المسيح عليه السلام المعبد فقلب طاولات الصيارفة، وهاجم بائعي الحمام واستفحل العداء بين السيد المسيح وبين الكتبة الفريسيين. حتى أنهم أضافوا على تلمودهم كلاما شريرا عن السيد المسيح فوصفوه بابن الزانية. وإنه رجس شيطان ومارق على الدين.

---

(1) انبياء التوراة والنبوءات التوراتية 221.

وقد تعرض معبد اليهود في زمن الحملات الإغريقية عام 164ـ165ق.م. وفي عهد انطيوخس بالذات إلى الهجوم والتدمير. ثم أقدم هذا الملك السلوقي على نهب خزائن المعبد وأجبر اليهود على نبذ اليهودية واعتناق الوثنية اليونانية.

وبعد تغلغل الرومان وتغلبهم على السلوقيين أصبحت فلسطين تحت سيطرتهم. وفي عام 70 ميلادية دخل فسبسيان الروماني القدس وأحرق ما بقي من الهيكل وذبح الكهنة وأزيل الهيكل من الوجود تماما ولم يعد يهتدي الناس إلى موضعه. وسيق الأحبار اليهود عبيدا إلى روما. وفي هذا العهد قضي على المجمع الكهنوتي المسمى بالسنهدرين. وقد أقام الرومان في القدس معبدا وثنيا أطلقوا عليه معبد جوبتر. ولم يعد يسمع عن عبادة يهودية في فلسطين.

وقد تحدث القرآن الكريم عن دور الكهنة والأحبار في سلب الناس أموالهم وتكديس الذهب والفضة. كما تحدث عن غرورهم وأمانيهم وعدم رضاهم عمن لم يتبع ملتهم وأقوالهم وجرأتهم على الله والأنبياء. وشدة حرصهم على الحياة وكيف أن الله أخذ الميثاق عليهم. وقد ركز على تحريفهم لكلام الله واستعمالهم اللي (الاعوجاج) في كلامهم. ثم تناول معاندتهم وتكذيبهم وقتلهم الأنبياء.

وكما رأينا في التوراة كيف أصبح كهنة معبد يهوه موظفين لا يهمهم سوى جمع المال من الذهب والفضة. فإن القرآن الكريم أتى على ذكر سلوكهم وذمهم وذم سلوكهم يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) سورة التوبة الآية 34.

فما هو معروف أن الأحبار والرهبان وجدوا ليخدموا معابد الرب ولكنهم راحوا يستغلون مناصبهم الدينية لجمع الثروات وهذا ما يتفق عليه كلام التوراة وآيات القرآن الكريم.

وتقع على كهنة اليهود مسؤولية تحريف التوراة باعتبارها كتاب التشريع الأول في العقيدة اليهودية. وتحريف التوراة يعني حذف ما يضر مصالح الكهنة، ووضع ما هو في صالحهم: يقول تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون) آل عمران 187.

وقد حدد القرآن الكريم أن فريقا منهم كان يحرف كلام التوراة التي أنزلت على موسى وهذا الفريق هم الكهنة. لأنه ليس من حق غيرهم الأشراف على الدين اليهودي وتشريعاته.

يقول تعالى: (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين) النساء 45.

ويقول تعالى: (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) البقرة 75.

وقد وصفهم القرآن الكريم بأنهم سماعون للكذب ويحرفون الكلام.

يقول تعالى: (ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنتة فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم) المائدة 44.

إذا لقد وقعت مسؤولية حفظ العقيدة وما فيها من عبادات على عاتق الكهنة وهم كما وصفهم القرآن الكريم وكما تحدث عنهم أنبياؤهم يتاجرون بالتوراة.

ويتضح أن الكاهن فوق الحلال والحرام ولقد خاطبه الرب في سفر العدد بقوله (كل محرم في إسرائيل يكون لك) عدد 18: 14 وليس هذا استثناء إنه يشمل كل شيء ابتداء من الزنا ونهاية بعبادة الأصنام. والكهنة الأواخر اشتغلوا

كهنة للأصنام وعبدوها وعندما أرادوا تبرير ذلك قالوا: إن هارون أول الكهنة هو الذي صنع العجل صنما لبني إسرائيل حتى يعبدوه ورغم ذلك لم يعاقب بالقتل كما عوقب غيره.

مما تقدم نخلص أن الله فرض عبادات على بني إسرائيل منها الصيام والصلاة والقرابين وبناء المعابد وغيرها من العبادات. وقد رأينا أن هذه العبادات كانت في البداية لا تقترن بوقت محدد، وليس لهم معبد ثابت في مكان ثابت ومع تطور حياتهم، حاولوا تطوير عباداتهم حتى وصلوا إلى الحالة القانونية في أواخر أيام السبي وأوائل التسرب الثاني إلى فلسطين.

وقد استطاع أحبار اليهود وكهنتهم أن يسيطروا على طبيعة العبادات، بحيث يوجهون اليهود التوجيه الذي يريدون، ثم أن تطور حياتهم واحتكاكهم بالشعوب الموجودة في المنطقة أثر جدا في تطوير نظرتهم للمعبد والعبادات، خاصة أن تلك الشعوب كالكنعانيين والبابليين كانت لهم معابدهم وطقوسهم وعباداتهم.

وقد تبين لنا أيضا أن أنبياء بني إسرائيل في المراحل المتأخرة من حياة اليهود قد نقموا على تصرفاتهم وسلوكهم بل وانحرافهم القوي نحو عبادة الأصنام، وأسفار التوراة تشير إلى هذه النقمة المستمرة.

وقد أوجز القرآن الكريم في وصف انحرافاتهم عن عبادة الله وتحريفهم التوراة بل وكتابتها بأيديهم وقولهم إنها من عند الله. وكلهم كذب ونفاق.

الفصل الثالث

طقوس العبادات

الصلاة، الأعياد. القرابين

بدأت الصلاة الطقسية عند اليهود عندما وجدت أمكنة للعبادة. وكما أشرنا من قبل أن أول مكان حدده بنو إسرائيل للعبادة هو خيمة الاجتماع. ثم بعد أن بني معبد الرب وأطلقوا عليه فيما بعد الهيكل، صارت الصلاة تؤدى في أوقات معينة. وقد ورد عنها أحاديث في سفر التثنية وسفر اللاويين وسفر العدد.

ويبدو أن أول صلاة كانت تتبع فيها طقوس معينة تتم عند تقديم باكورة الأثمار وبعد أداء الأعشار وقد ورد ذكر ذلك في التثنية الإصحاح 26: 5 ـ 10 و13 ـ 15، وعند تقدمة الذبائح كفارة عن الخطايا وقد ورد ذلك في سفر اللاويين 16ـ 12.

ولكن أوقات الصلاة حددت بشكل قانوني في زمن الأنبياء التوراتيين الذين عاشوا فترة السبي البابلي. ويتضح ذلك من خلال سفر أشعيا 1 ـ 15 و29 ـ 13، 58 ـ 5، ويأتي في سفر دانيال توضيح لمواقيت الصلاة عند بني إسرائيل.

وكما ورد في سفر دانيال أنه كان يصلي ويركع لله تعالى ثلاث مرات في اليوم وأحياناً مرتين كما ورد في سفر أخبار الأيام الأول.

وقد ترافق الكلام نثراً وشعراً مع الصلاة. وتدلنا مزامير داود وسليمان أن الصلاة كانت ترافق بالغناء والموسيقى القانونية وقد ورد في سفر عزرا أن ممن رجع من السبي كان يوجد مئتان من المغنين والمغنيات تقول التوراة (ولهم من المغنين والمغنيات مئتان) عزرا 2: 65.

وقد فرضت التوراة الصلاة على الرجال والنساء وقد توسعت في الحديث عن ذلك المشنا ـ قسم البركات.

ومن خلال ما ورد في التوراة يتضح أن اليهود يصلون جلوساً ووقوفاً. ويركعون ويسجدون وينفخون بالبوق ويبكون في تضرعاتهم واعترافاتهم حتى يومنا هذا. وعندما كانوا يهاجَمون أو تحل بهم مصيبة كانوا يلبسون خيشاً ويذرون تراباً ورماداً على رؤوسهم، ويمزقون ثيابهم، ويحلقون رؤوسهم وقد رأينا يشوع كيف مزق ثيابه وصلى وركع عندما خان بعض من قواته وسرقوا مما عينه للرب من غنائم. ومن طقوسهم أنهم يضعون الأيدي على الصدور ويحنون رؤوسهم قليلاً وذلك اعترافاً منهم بجلال الرب وزيادة في احترامه.

ويتجهون في صلواتهم إلى جهة القدس وإذا كانوا في القدس يتجهون نحو بيت الرب وهذه العادة متبعة إلى هذا اليوم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى قبلتهم عندما تحدث عن تغيير وجهة صلاة المسلمين من القدس إلى البيت الحرام .يقول تعالى: (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين) البقرة 145.

وقد شرع لهم أنبياؤهم المتأخرون تفصيلات ترتبط بالصلاة كالطهارة والنظافة واللباس. وكان عزرا يوصي بوجوب غسل الجسم جميعه قبل العبادة. وفي المعابد ترتب أماكن الجلوس حسب درجات الشعب ومراكزهم من أول صف قرب الهيكل وهكذا تتباعد الصفوف إلى آخر المعبد.

وتذكر مصادر التشريع اليهودي أنه بعد خراب ما يسمى الهيكل الأول أبطل عزرا الذبائح والتقدمات وشرع لهم صلوات يومية لتقوم مقام التقدمات ولتعزيهم في أوقات يأسهم وضيقهم.

أما اللغة المستعملة في الصلوات فأكثرها في العبرية وهناك صلوات باللغة الكلدانية واللغة العربية. ومنذ القرن السادس عشر ترجمت إلى كافة اللغات الأوربية.

ماذا يُقال في الصلوات اليهودية؟.

للصلاة اليهودية أقسام أهم قسم منها ما يسمى (الشماع) وقد ورد في سفر التثنية. وقد رتبه عزرا. وشماع معناها إسمع وهي أول كلمة من نص التوحيد في اليهودية حيث يقول (اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا الرب واحد) ثنينة 6ـ 4 ويقسم السماع إلى ثلاثة أقسام:

الأول: يبتدئ بآية التوحيد المشار إليها ثم يلحقها كلام عن محبة الله ووجوبها وحفظ وصاياه. وتعليمها للأولاد. والاهتمام بها في كل مكان وزمان.

الثاني: ويذكر فيه وعد الله بالجزاء وإطالة الأعمار وإذا وقع ما يغضب الرب فيجب التأديب من قبل الرب لليهود.

الثالث: وهو مذكور في سفر العدد ويذكر فيه وصية تذكر اليهود بوجوب طاعة أوامر الله عندما تراها، ولكي لا يميلوا إلى شر القلوب ويذكرهم بخروجهم من مصر، ويأتي بعد الشماع ما يسمى شمونة عسرة أي ثماني عشرة. وهي بركات وضعها عزرا ورجال الكنيس الأكبر وقد ذكر هذه البركات في التلمود بشكل مفصل، وهي تستند على بعض الجمل في أسفار الخروج وأشعيا، والأمثال، والمزامير وتنقسم البركات الثماني عشرة إلى ثلاثة أقسام:

1 ـ تسابيح تعظم الله تعالى

2 ـ توسلات ومطالب ومنها ما هو خصوصي ومنها ما هو عام.

3 ـ تشكرات لله تعالى

أما القسم الأول والثاني فينطويان على حالهما طوال العام. أما القسم الثالث فيتغير أيام السبت وأوائل الشهور والأعياد ويغير بما يتلاءم والأوقات.

أما مواقيت الصلاة فهي:

1 ـ الفجر: ويسمونها صلاة السحر ووقتها حددته المشنا من التلمود وهو منذ أن يتبين الخيط الأبيض من الأسود إلى ارتفاع عمود النهار.

2 ـ صلاة نصف النهار: وتجب منذ انحراف الشمس عن نقطة الزوال إلى ما قبل الغروب.

3 ـ صلاة المساء: ويسمونها صلاة الغروب ووقتها من غروب الشمس إلى أن تتم ظلمة الليل كاملة.

وتبدأ الصلاة عادة بغسل اليدين ويوضع شال من اللونين الأبيض والأزرق على الكتف وخاصة في الصلاة الجماعية التي تتم في المناسبات الكبرى ويوم السبت. وهذا الشال يجب أن يكون طاهراً لا تمسه المرأة قطعاً. ويخصص له مكان محدد في المنزل ويبقى الشال عند اليهودي حتى موته ليكفن به.

ما يقال في الصلاة اليهودية:

هناك أقوال كثيرة تقال في الصلاة اليهودية منها ما هو مأخوذ من التوراة ومنها ما هو مأخوذ من التلمود، وعلى الأغلب تؤخذ الأقوال من التلمود.

فمن الشماع يؤخذ النص التالي وهو من سفر التثنية:

(اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا، الرب واحد، فتحب الرب إلهك بكل قلبك وبكل نفسك وبكل قوتك، ولتكن هذه الكلمات التي أنا موصيك بها اليوم على قلبك، واروها لأولادك. وتلفظ بها في إقامة بيتك، وفي مشيك في الطريق

وحين نومك وقيامك. وثبتها على يدك آيه، ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على مصاريع بيتك وعلى بواباتك) سفر التثنية 6: 4ـ 9

وهناك قسم أخر يقرأ في الصلاة من سفر التثنية وقسم أخر من سفر العدد وقد وردت نصوص البركات في الصلاة اليهودية وهي كما أشرنا تسبيحات واستغفارات ودعوات لقضاء الحاجة.

ومع ذلك فقد وردت في التلمود أقوال غريبة الأطوار يقولها اليهود أثناء صلاتهم. وقد كشف تحريفهم للصلاة الموسوية السموأل بن يحيى المغربي في كتابه غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود.

يقول السموأل (ما تقولون في صلواتهم وأصوامكم؟ هل هي التي فارقكم موسى عليها فإن قالوا نعم. قلنا فهل كان موسى وأمته يقولون في صلواتهم كما تقولون ـ اللهم اضرب ببوق عظيم لعتقنا، واقبضنا جميعاً من أفكار أقطار الأرض إلى قدسك سبحانك يا جامع تشتيت قومه إسرائيل ـ أم هل كانوا يقولون على عهد موسى عليه السلام كما يقولون في كل يوم ـ اردد حكامنا كالأولين ومشيرينا كالإبتداء وابنِ يورشليم قرية قدسك في أيامنا وأعزنا ببنائها. سبحانك يا باني يورشليم ـ أم هذه فصول لفقتموها بعد زوال الدولة[1]؟ فتغير الكلام الذي طرأ في صلاة اليهود وقع بعد ا لسبي البابلي في منتصف القرن السادس قبل الميلاد. فالقول الأول دعاء قاله اليهود أيام السبي. وهو قول مختلف عما جاء في التوراة عن موسى وفي الصلوات العامة وفي أحد الأجزاء الأولى من صلوات الصباح اليومية يحمد اليهودي المتدين ربه لأنه لم يخلقه من الأغيار. أما في الجزء الختامي للصلاة اليومية (تستخدم أيضاً في صلوات رأس السنة ويوم الغفران) فيبدأ بهذه العبارة (فلنشكر إله الجميع لأنه لم يخلقنا مثل كل أمم الأرض لأنها تركع للباطل والعدم وتصلي لإله لا يعين. وقد حذفت الفقرة الأخيرة من

(1) السموأل ين يحيى المغربي. غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود. ص: 14 مخطوط.

كتب الصلوات، وفي أوربا الشرقية كان اليهود يتداولونها شفهياً. ثم أعيدت إلى النص الأصلي في العديد من كتب الصلوات المطبوعة في (الكيان الصهيوني).

كذلك في أهم أجزاء صلاة نهاية الأسبوع (التبريكات الثماني عشرة هناك لعنة خاصة تستهدف أصلاً المسيحيين ومعتنقي المسيحية من اليهود واليهود المهرطقين تقول: (رب لا تجعل للمرتدين رجاء ولتمحق جميع المسيحيين في الحال) ويرجع تاريخ هذه اللعنة إلى القرن الأول للميلاد عندما كانت المسيحية وقتئذ طائفة صغيرة مضطهدة. وفي وقت ما قبل حلول القرن الرابع عشر أدخلت عليها تعديلات لتلطيفها. (رب لا تجعل للمرتدين رجاء ولتمحق جميع المهرطقين في الحال) وبعد التعرض لمزيد من الضغط عدلت مرة ثالثة على النحو التالي (رب لا تجعل للوشاة رجاء ولتمحق المهرطقين في الحال. وبعد قيام (الكيان الصهيوني) أعيدت الصيغة القديمة إلى التداول[1].

ويقوم رجال الدين اليهودي بتعليم الذكور من اليهود صلاة يقولون فيها يوميا (مبارك أنت يا رب إلهنا ملك الكون الذي لم يخلقني امرأة)[2].

وحين يصلي اليهودي يجب أن يغطي رأسه تعبيرا عن الاحترام خاصة إذا قرأوا في النصوص المقدسة التوراتية والتلمودية التي أشرنا إلى بعضها.

أما كتاب الصلاة اليهودية فهو يجمع كافة الصلوات، ويختلف قليلا عن كتاب الصلاة الحالية وهو أقرب إلى كتاب صلاة اليهود الشرقيين وطبع أول مرة عام 1865.

أما الأشكناز الغربيون فقد وضعوا لهم كتاب الصلاة في فرنسا عام 1208 وهو أكبر من كتاب الصلاة عند السفارديم. ويختلف كتاب صلاة القرائين كثيرا

---

(1) إسرائيل شاحال: الديانة اليهودية وموقعها من غير اليهود. ص: 166ـ 167.

(2) مارلين ستون. عندما كان الرب أنثى، ترجمة حنا عبود. ص: 215.

عن كتب بقية اليـــهود وقـد ترجـم كتـاب الصـلاة اليهوديـة إلى معظـم اللغـات الأوربية.

وقد فرض أحبار اليهود نوعا من الصيام على أتباع اليهودية وذلـك أيـام السبي البابلي. فسنوا له صوم إحراق بيت المقدس وصوم حصاره، وكذلك سـنوا لهم صوم (كذليا) وجعلوه فرضا عليهم.

ومن المعروف أن النبي موسى صام أربعين نهارا وأربعين ليلة على جبـل سيناء وذلك لاستقبال كلمات الله تعالى. ولم يرد الصـوم لفظـا في أسـفار موسـى الخمسة ولكن كان يوم واحد معين للصوم هو يوم الكفارة الذي ورد ذكره في سفر اللاويين 16: 29 ـ 23. وفي أيام النبي زكريـا كـانت أصـوام مفروضـة في الشـهر الرابع والخامس والسابع والعاشر تذكـارا لحصـار أورشـليم (القـدس) في الشـهر العاشر، وسقوطها في الشهر الرابع. وخراب الهيكل في الشهر الخـامس. وقتـل جدليا واليهود الذين كانوا معه في الشهر السابع وقد ورد اسم جدليا باسم آخـر (زمري بن سالوا). وسبب مقتله أنه وجد مع امرأة زانيـة مؤابيـة تدعـى كزبـي بنت صور. وفي الحادثة نفسها أمر موسى القضاة أن يقتل كل واحد قومه الزناة الذين تعلقوا ببعل فغور، وقد انتشر وباء في قوم إسرائيل بسبب الزنا وقـد قتـل منهم في ذلـك اليـوم أربعـة وعشـرون ألفـا حسـب قـول التـوراة في سـفر العـدد الإصحاح 25، ولهذا السبب يصوم اليـهود بمناسـبة هـذه الذكـرى تكفـيرا عـن ذنوبهم.

ويرى السموأل بـن يحيـى المغربـي أن هـذا الصيـام مسـتحدث ولم يكـن موجودا في زمن موسى عليه السلام.

يقول السموأل: وأما صوم إحراق بيـت المقـدس وصـوم، حصـاره، وصـوم كذليا الذي جعلتموه فرضا هل كان موسى يصومها، أو أمر بـها هـو أو خليفتـه يوشع بن نون أو صوم صلب هامان، هل هذه الأمور مفترضة في التوراة أو زيدت

لأسباب اقتضت زيادتها في هذه الإعصار. فإن قالوا وكيف يلزمنا النسخ بهذا الأمر؟ قلنا لأن التوراة نطقت بهذه الآية (لا تزيدوا على الأمر الذي أنا موصيكم به شيئا، ولا تنقصوا منه شيئا وإذا زدتم أشياء من الفرائض فقد نسختم تلك الآية[1].

أما عن ذهاب موسى للقاء ربه أربعين يوما فقد قال القرآن الكريم في ذلك: (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) الأعراف 142. والمقصود من الآية أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات وكان فيه صائما يقال أنه لم يستطعم الطعام فلما كمل الشهر أخذ لحاء شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه فأمر الله أن يمسك عشرا أخرى فصام أربعين ليلة)[2].

القرابين في التشريع اليهودي

تعتبر القرابين جزءا من العبادات اليهودية. وحسب نص التوراة فقد كان لولدي آدم أول قصه لها علاقة بالقرابين. وقد ذكرها القرآن الكريم وجاءت على ذكرها التوراة ومع تطور التشريع اليهودي أصبحت القرابين والتقدمات من أهم الشعائر التعبدية التي يقوم بها أتباع اليهودية.

تقول التوراة: (وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قرباناً للرب. وقدم هابيل من أبكار غنمه ومن سمانها فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر) تكوين 4: 3 ـ 5.

---

(1) غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود. السموأل بن يحيى المغربي ص: 16 مخطوط.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء الثالث ص: 250

وجاء في القرآن الكريم: (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من إحداهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنّك قال إنما يتقبل الله من المتقين) المائدة 27.

وقد ذكرت التقدمات في قصة نوح التي أوردتها التوراة بقولها: (وبنى نوح مذبحاً للرب وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح) تكوين 8: 20 إلا أن هذه التقدمات لم تحدد بشكل مفصل من حيث عددها أو نوعها. واتبع بنو إسرائيل تقليداً حيث كان رب العائلة يقوم بتقدمه الذبيحة والمحرقة عنه وعن عائلته مثل إبراهيم وأيوب الذي كان يصعد محروقات على عدد أولاده.

تقول التوراة (وكان كلما دارت أيام الوليمة أن أيوب أرسل فقدسهم وبكّر في الغد واصعد محرقات على عددهم كلهم) أيوب 1: 5.

وتعتبر قصة أمر الله لإبراهيم بذبح ابنه من أكثر الشواهد القرآنية على القرابين وقد أوردت التوراة القصة ولكنها حرفت وقالت إن الذبيح كان إسحق. وقد امتحن الله سبحانه إيمان إبراهيم فطلب منه ذبح ابنه ولما أخذه ليذبحه قرباناً لله فداه بكبش من الغنم فذبح إبراهيم الكبش وأصبح ذلك تقليداً عند بني إسرائيل وكذلك أصبح تقليداً عند المسلمين حيث يقدم القربان من الكبش أو من الحيوانات كالبقر والجمل.

يقول تعالى: (وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه في الآخرين) الصافات 107-108

وتقول التوراة: (فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط اسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه فناداه ملاك الرب من السماء وقال إبراهيم ابراهيم فقال هاأنذا فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً لأني الآن

علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذ بكبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه) تكون 22: 9 ـ 13.

ومع أن القرابين من الطقوس المتواجدة لدى كافة الشعوب قديمها وحديثها إلا أنها توجهت تقدماتها نحو غايات مختلفة وحتى أنها قدمت لأسباب متعددة أيضاً.

وقد وضع النبي موسى لبني إسرائيل نظاماً دقيقاً للقرابين، وحصر تقديم الذبائح في الكهنة يعاونهم اللاويون في بعض الأمور. وكانوا يعبرون بالقرابين عن التوبة والاعتراف والكفارة والشكر على السلامة أو النجاح وغير ذلك.

وكانت القرابين تقدم من الحيوانات المستأنسة الطاهرة والحبوب وبعض السوائل الزراعية تقول التوراة (لا تؤخر ملء بيدرك وقطر معصرتك) خروج 22: 29.

أما الحيوانات الطاهرة التي تصلح للذبائح فتشمل البقر والثيران الفتيّة والكبيرة ومن الغنم أي الضأن والماعز ما كان حولياً أي ابن سنة على الغالب. تقول التوراة (تكون لك شاة صحيحة ذكراً ابن سنة تأخذونه من الخرفان والماعز) خروج 12: 5.

وتقول: (خروفان حوليّان صحيحان لكل يوم محرقة دائمة) عدد 28: 3.

وتقول: (وتعملون محرقة لرائحة سرور للرب ثوراً واحداً ابن بقر وكبشاً واحداً وسبعة خراف حولية صحيحة) عدد 29: 2.

ولكن في بعض المناسبات لا تحدد الشريعة السن كما في حالة تقديم ذبيحة السلامة التي يجوز فيها أن تكون ذكراً أو أنثى من بقر أو غنم: لاويين

3 :1 و6. وكانوا يقدمون من الطيور اليمام والحمام فقط وقد ورد ذلك في اللاويين 1 :14.

وكان الفقراء يقومون بتقديم زوج يمام أو فرخي حمام عندما يولد لهم ولد ذكر أما غير الفقراء فكانوا يقدمون خروفاً حولياً مع طائر واحد.

تقول التوراة: (ومتى كملت أيام تطهيرها لأجل ابن أو ابنة تأتي بخروف حولي وفرخ حمامة أو يمامة ذبيحة خطية إلى باب خيمة الاجتماع إلى الكاهن) لا 2 :6.

وتقول: (وإن لم تنل يدها كفاية لشاة تأخذ يمامتين أو فرخي حمام الواحد محرقة والأخر ذبيحة خطية فيكفر عنها الكاهن فتطهر) لا 12: 8.

ولم تسمح الشريعة التوراتية بالذبائح البشرية وقد منع الله إبراهيم من ذبح ابنه وفي تحذير من تقديم الأولاد ضحايا لـ (مولك) إله العمونيين فقد كانوا يقدمون له ذبائح بشرية لا سيما من الأطفال. ولم تكن وحوش البرية أو الأسماك مقبولة كقرابين خلافاً لشريعة بابل التي أجازتها.

أما القرابين من الحبوب فكانت تقدم كدقيق من الزيت واللبان أو بعد أن تخبز أقراصاً ملتوتة بزيت. أو رقاقاً مذهونة بزيت.

تقول التوراة: (وإذا قرب أحد قربان تقدمةٍ للرب يكون قربانه من دقيق، ويسكب عليها زيتاً ويجعل عليها لباناً ويأتي بها إلى بني هارون الكهنة..) لا 2: 1ـ 2 أما خبز الوجوه الذي كان يصنع أقراصاً سميكة توضع على مائدة الرب في كل سبت فلم تكن ملتوتة بالزيت بل كان يوضع لها بعض اللبان، لاويين 24: 5 ـ 8 أما باكورات الحبوب فقد كانت تقدم بشكل فريك مشوي وجريش) لاويين 2: 16.

وكان الزيت يعد من التقدمات الفاخرة المحترمة (تكوين 28: 18) والخمر كان من السوائل الزراعية التي تقدم للرب مع القرابين الأخرى.

وكان مقرّب الذبيحة يضع يده على رأسها ويعترف بالخطيئة (لاويين 1: 4 و4 :4) ثم يذبحها هو والكاهن لا 1: 5 و2 أخبار 29: 24 وإذا لم يكن عدد الكهنة كافياً كان اللاويون يساعدونهم على سلخ حيواناتهم 2 أخبار 29: 34 وبعد سلخ الذبيحة يقطعونها لا 1: 6 و8 ويحرقون ما أمر بحرقه على المذبح وأحياناً كانت ترفع القطع، أما قسمة القرابين فقد كانت على نوعين، الأول ما يقدمه كله للرب، والثاني ما يخصص قسم منه للرب والقسم الآخر للكهنة. أو لهم وللعابدين الذين يقدمونها احتفالاً بالعيد، النوع الأول يشمل المحرقات لا 1: 12 و17 وتقدمات الكهنة من الدقيق لا 6: 22و 23. أما التقدمات العامة من الدقيق الملتوت بالزيت واللبان فيأخذ الكاهن ملء قبضته تذكاراً على مذبح الرب والباقي يكون طعاماً للكهنة أما الذبائح التي كان يقدمها الناس الذين يحتفلون بالعيد كذبيحة السلامة، فإن الكاهن يأخذ منها الصدر فيردده أمام الرب والساق اليمنى التي تسمى ساق الرخيفة وما تبقى من الذبيحة يأكله المعيّدون أصحاب الذبيحة. وقد كانت لهم أعياد سنوية تصطلح عليها كل عائلة أو عشيرة فيجتمع أفرادها المتفرقون فيذبحون ويعيدون معاً. جاء في التوراة: وإذا افتقدني أبوك فقل قد طلب داود مني طلبة أن يركض إلى بيت لحم مدينته لأن هناك ذبيحة سنوية لكل العشيرة) صموئيل الثاني 20: 6.

أنواع القرابين

1 ـ المحرقات: وكانت للتكفير عن الخطيئة. وكانت تقدم كل يوم وهي المحرقة الدائمة وقد ورد ذكرها في سفر الخروج ويزاد عليها محرقة يوم السبت ويوم التكفير والأعياد الثلاثة الكبرى.

2 ـ التقدمة: وكانت من الدقيق مع زيت ولبان.

3 ـ خبز الترديد وحزمة الترديد: وهــي مـن أولى بـاكورات الأرض وتقـدم في عيد الفصح وأما الترديد فيقدم في عيد الخمسين.

4 ـ الرقيقة: وهي من الغلال بعد الحصاد وذكـرت في سـفر العـدد 15: 20 ـ 21.

5 ـ ذبائح سلامة: وكانت للشكر وكانت من الحيوانات.

6 ـ ذبائح الخطيئة: وتقدم للتكفـير عـن الخطايـا وقـد ورد ذكرهـا في سـفر اللاويين.

7 ـ ذبائح الإثم: وتقدم غالباً عن الخطيئة الشخصية والتي تحدث سهواً.

تطوير معنى القرابين في التوراة:

اخذ الكهنة وعامة النـاس ينظـرون إلى الذبـائح مـن الناحيـة الطقسـية، ويظنون أن الدين مجرد طقوس. ولما أهملوا الواجبات الأدبية قام الأنبياء يندددون بهذا النقص ومن جــانب آخـر فقـد كـانت طبقـة الكهنـة، المسـتفيد الأول مـن القرابين. وقد طوروا مفهوم القرابين. لقد أضــاف التقليـد معنــى ثانيـاً إلى كلمـة قربان وهو جعلها تدل على النذر الذي ينذر للهيكل فيحــرم علـى غـيره. فـإذا وضع إنسان يده على شيء أو أشار إليه وقال قربان قصد أن يقول نذراً علي[1].

وقد وردت كلمة قربان في القرآن الكريم ثلاث مرات.

يقول تعالى: (الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتــى يأتينـا بقربان تأكله النار قل قد جـاءكم رسـل مـن قبلـي بالبينـات وبـالذي قلتـم فلـم قتلتموهم إن كنتم صادقين) آل عمران الآية 183.

وقد نزلت هذه الآية في الحديث عن اليهود الذين رفضوا الإيمان برســالة محمد صلى الله عليه وسلم حتى يروا قربانا تنزل إليه نار من السماء فتأكلــه أو

---

(1) قاموس الكتاب المقدس. ص: 721ـ 722ـ 773.

تحرقه.

وقال بعض المفسرين المسلمين: الذين قالوا هم كعب بن الأشرف ومالك بن صيفي وحيي بن أخطب وفنحاص بن عازوراء ووهب بن يهوذا. وقالوا إن الله أمرنا في التوراة وأوصانا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بمعجزة القربان حيث يدعو النبي فتنزل نار من السماء فتأكله أي فتحيل طبعه بالإحراق. وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة. والقربان هو كل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من أعمال البر من نسك وصدقة وذبح وكل عمل صالح[1].

ويقول تعالى: (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) الأحقاف 28

وقد قصد القرآن الكريم من كلمة قربان تلك الآلهة الذين يتقربون بها إلى الله حيث قالوا هؤلاء شفعاؤنا إلى الله.

ويرى بعض الباحثين أن الأضاحي النارية كانت ركناً هاماً وكبيراً من أركان طقوس اللاويين وهي تشبه تماماً تلك التي يقدمها البراهميون في البدء. والإصحاحات العشرة الأوائل من سفر اللاويين تهتم كلها بالأضاحي النارية. وحسب النص التوراتي فإن الأضاحي النارية يجب أن تقدم مرتين يومياً وكذلك تقدم يوم السبت في الانقلابات الفصلية للخلاص من الدنس والذنب والخطيئة.

وبالنسبة إلى كل الأضاحي النارية بشتى صنوفها يشار إليها على أنها تقدمات محرمة وكلها تحضر إلى الكهنة في الخيمة.

ويبدو أخيراً أن سفر التثنية نفسه يفضح دور الكهنة في سلب الناس أموالهم عن طريق التقدمات والقرابين. فالكاهن يأخذ من الذبيحة الساعد

---

(1) محمد طه الدره تفسير القرآن الكريم وبيانه وإعرابه المجلد الثالث ص 275.

والفكين والكرش ويأخذ العاشر من كل عشرة رؤوس غنم أو بقر مهما كان عددها.

أعياد اليهود ومواسمهم التعبدية

اهتمت التوراة بذكر أعياد بني إسرائيل واليهود، ويتضح من خلال أسفارها كثرة تلك الأعياد والمواسم التعبدية، ولاشك أن أسفار التوراة التي تغطي مدداً زمنية طويلة باعتبار أنها دونت أحداثاً بعيدة الزمن سجلت لكل حدث مهم في تاريخ بني إسرائيل واليهود عيداً أو احتفالاً يتناسب معه من حيث طقوس عبادته وعلاقة الناس به.

- ويعتبر السبت عيداً أسبوعياً لليهود ومدته من غروب شمس الجمعة إلى غروب شمس السبت. وكما عرفنا أن اليهود لا يعملون أي عمل في هذا اليوم. وقد طور كهنة اليهود مفهوم الراحة يوم السبت فحرموا فيه كل ما من شأنه أن يشعر بالسعي في الرزق أو الانشغال بحرفة أو صناعة. ومن ذلك تحريمهم عقود الزواج في السبت. وكذلك حرموا الحرب الهجومية يوم السبت إلا إذا أقر كاهنهم الأكبر أن هذه الحرب توجب كسر يوم السبت.

- وتفرض اليهودية على أتباعها زيارة بيت المقدس بحيث يتحتم على كل يهودي ذكر راشد أن يزور بيت المقدس مرتين في العام وأن يبقى فيه أسبوعاً كاملاً كلَّ مرة ويبدأ الأسبوع يوم الجمعة. وتقام خلاله احتفالات وصلوات يحضرها الوافدون ويقودها الكهنة واللاويون. وقد قصد بهذه الزيارة أن تتيح فرصة لليهود أيا كانت مناطقهم أن يتعارفوا ويتحدوا.

- وهناك عيد يحل مع بداية الشهر القمري وله طقوس وصلوات خاصة تؤدى عند رؤية الهلال كل شهر وهم يأخذون بالرؤية البصرية ويأخذون الآن

بالحسابات الفلكية ويسمى عيد الهلال عندهم (روش حودش) أي رأس الشهر والاحتفال يكون يوماً واحداً وأحياناً يومين.

- رأس السنة العبرية. وتستغرق طقوسه ثلاثة أيام وبعد هذه الايام يصومون يوماً وهو صوم (كدليا) الذي أشرنا له سابقاً.

- يوم الغفران: أي يوم الكفارة وهو اليوم العاشر من شهر تشرين ومدته حوالي 27 ساعة يجب فيها الصيام ليلاً نهاراً وعدم الاشتغال بأي شئ سوى العبادة.

- عيد المظال أوالظلل: وهو عيد زراعي يحتفل فيه بمناسبة تخزين المحاصيل الزراعية ومدته التقليدية تسعة أيام.

- الحانوكة: وهو عيد التدشين وله طبيعة سياسية وصهيونية وتاريخية. حيث يرتبط بقصة الصراع بين الإغريق واليهود عندما احتل الإغريق بلاد الشام عام 165م وتشعل فيه الشموع الكبيرة والأنوار المختلفة لمدة أسبوع كامل.

- البوريم: وهو عيد النصيب وتجري فيه تقاليد يهودية شعبية ويسرفون فيه بشرب الخمر والسكر ولبس الأقنعة والملابس التنكرية. وهو ليس له علاقة بشريعة التوراة. إنما ابتدع أيام السبي البابلي عندما وعد ملك الفرس كورش اليهود إن هم ساعدوه ضد البابليين سوف يعيدهم إلى فلسطين ويصومون في هذا اليوم ويسمونه صوم أستير والعيد يأتي في اليوم التالي.

- عيد الفصح. والفصح هو عيد الربيع عند اليهود ويحيونه بمناسبة نجاة بني إسرائيل من فرعون.

- عيد الفطير: وتوجب طقوسه أن يأكل اليهود الفطير دون الملح ولا خميره ومدة هذا العيد ثمانية أيام وتقدم فيه مائدة الفصح وحكاية الفصح. وعيد الفصح عندهم هو عيد الضحية كما أنه عيد الفطير وموسم الحج.

وقد أشار كثير من الباحثين أن اليهود في هذا العيد لا بد أن يحصلوا على دم بشري من مسلم أو مسيحي لكي يعجنوه بالفطير وقد وجهت أصابع الاتهام إلى اليهود في إنكلترا في مدينة لنكولن عام 1255ـ وفي لندن عام 1257ـ 1279 وفي ميونخ بالمانية عام 1285ـ وفي بيرن بسويسرا 1287 وفي كوكار سنة 1292 وفي كريسمس سنة 1993 وفي دمشق سنة 1840 أيام الحكم العثماني في البلاد العربية. وجهت لهم تهمة خطف أطفال وذبحهم للحصول على دمائهم. وقصة الأب توما الكبوشي وخادمه من أبشع القصص التي تروي كيف ذبح اليهود هذا الأب ومن ثم ذبحوا خادمه ثم فضحت الجريمة وحُقق مع المشتركين بذبحهما. وقد اتهم بهذه الجريمة الحاخام بخور يودا. والحاخام أبو العافية. وداود هراري وأخواه إسحاق وهارون وكذلك يوسف هراري ويوسف لينيوده.

ولديهم أيضاَ عيد الحصاد أو عيد الأسابيع ، وعيد صوم تموز وهو يوم واحد يصومه اليهود وهو عبارة عن يوم حداد لأجل الذين راحوا قتلى أيام تحطيم ألواح التوراة وإحراق القدس.

ويتضح أن معظم الأعياد لا ترجع إلى عصر النبي موسى بل يعود أغلبها لأيام السبي البابلي.

وفي زيارة اليهود لبيت المقدس يقفون إلى جانب حائط البراق الذي يدعون أنه حائط المبكى ويقرأون بعض أسفار التوراة. وبعضهم يبكي بكاء شديداً على اعتبار أن ذلك الحائط يذكرهم بماضيهم الذي كانوا عليه. ويقوم اليهود المتعصبون في هذه الأيام ومنذ أكثر من سبعين عاماً بتأدية طقوس عند حائط البراق .وقد حدثت ثورة في عام 1929 لأجل هذا الحائط بين المسلمين من جهة واليهود والإنكليز من جهة ثانية قتل فيها أكثر من مائتين وخمسين يهودياً وكذلك ذهب ضحيتها العشرات من العرب المسلمين.

الفصل الرابع

في تشريع اليهود الشخصي

تمتلئ التوراة بالتشريعات الخاصة بالإنسان وبعيدا عن التشريعات التي يرتبط بها الفرد بالآخرين كالتجارة والزراعة وما شابه ذلك فإن الفرد ممن اتبع العقيدة اليهودية يخضع لتشريع متكامل يحفل بالقوانين الفقهية والشرعية التي تنظم حياة الفرد من داخله ومن خارجه.

وما يخص أتباع العقيدة اليهودية فإن التشريعات التي بدئت في التوراة استمر الاجتهاد فيها حتى توصل أحبار اليهود إلى صناعة التلمود الذي لم يترك أمرا من الأمور التشريعية اليهودية إلا وذكره.

ولا تزال طبقة الكهنوت اليهودي من الأحبار والربانيين يسيطرون إلى اليوم على تعزيز التشريعات بفتاوى وأقوال وتطويرات تمس حياة أتباع اليهودية بأدق تفاصيلها. ولما كانت العقيدة اليهودية من أقدم العقائد التي تنسب إلى التوحيدية فقد تنوعت اجتهاداتها حسب الظروف الزمنية والبيئية. وهذا ما جعل بعض معتنقيها على تفسير النصوص تفسيرات تناسب واقع كل فئة أو كل بيئة. ولهذا أيضا وجدنا الفرق اليهودية تتعدد وتتعدد معها طرائق تشريعاتها في كافة القضايا الدينية الخاصة بالعبادات والمعاملات. ويمكن أن نرى فرقا لا تؤمن بالتلمود قطعا وتستند في تشريعاتها وعباداتها على أسفار موسى الخمسة. ومن هذه الفرق من يكفر الآخرين ويصفهم بالمارقين على الدين وتبدو طائفة التلموديين اليوم أكبر الفرق اليهودية في العالم حيث تتحكم في سدة الكهنوت اليهودي في فلسطين المحتلة وفي باقي بقاع العالم. وتستند على تشريعات التلمود استنادا كليا حتى أن بعض حاخامي هذه الفرقة فضلوا الأخذ

من التلمود على حساب التوراة، بل اعتبروا التلمود كلاماً منزلاً من الله ولكن بشكل شفهي وليس كتابياً كما في التوراة.

ويمكن لنا أن نطّلع على التشريعات اليهودية المرتبطة بالعبادات دون التعرض للتشريعات الحياتية المشتركة المتعلقة بالمعاملات مع الآخرين من غير اليهود. فهذه التشريعات منها ما هو شمولي النظرة ومنها ما هو خاص. منها ما يرتبط بالرجل اليهودي وكذلك منها ما يرتبط بالمرأة اليهودية ومنها ما يتعرض للإثنين معاً كالزواج والطلاق والتعدد. ومنها ما يتعرض للحيوانات والجمادات والسوائل. وفي هذا الإطار يمكن لنا أن نقارن بين نظرة القرآن الكريم لهذه الأمور وبين نظرة التوراة والتشريع اليهودي حتى نرى الفارق إن وجد والتوافق إن وجد أيضاً. وبذلك نكون قد ألقينا النظر على التشريع اليهودي والفقه الإسلامي في مصادرهما الأساسية دون التعرض بشكل مفصل لرأي أصحاب المذاهب الإسلامية في ذلك. مع تبسيط في آراء أكبر المذاهب أو الفرق اليهودية كالتلموديين والقرّائين والحسيديين وبعض ما قالته القبالاة اليهودية.

الطهارة والنجاسة

لا شك أن الطهارة والنجاسة ترتبطان بالعبادات ارتباطاً وثيقاً وخاصة عبادتي الصلاة والصيام. وقد أخذتا حيزا واسعاً من التشريع التوراتي وكذلك فصلت أمورهما تفصيلاً كبيراً في التلمود.

1 ـ الحيوانات النجسة: فرقت الشعوب القديمة بين الأطعمة الطاهرة والأطعمة النجسة ورأت أن بعض الحيوانات صالحة للطعام والذبيحة وسواها غير صالح. وبين هذا التمييز جزئياً على أن بعض اللحوم غير ملائمة للأكل أو مضرة وجزئياً على العادات والافتراس وجزئياً على اشمئزاز طبيعي من بعض الحيوانات.

وقد كان للبيئة التي عاش فيها موسى عليه السلام وبنو إسرائيل تأثير كبير في إضافة بعض الحيوانات على قائمة النجاسة والطهارة.

وقد صنف التشريع الموسوي الحيوانات النجسة على الشكل التالي:

1 ـ البهائم التي تجتر ولا تشق الظلف وتقسمه ظلفين.

جاء في التوراة: (كل ما شق ظلفاً وقسمه ظلفين ويجتر من البهائم فإياه تأكلوه إلا هذه فلا تأكلوها مما يجتر ومما يشق الظلف. الجمل لأنه يجتر لكنه لا يشق ظلفاً فهو نجس لكم والوبر لأنه يجتر لكنه لا يشق ظلفاً فهو نجس لكم والأرنب لأنه يجتر لكنه لا يشق ظلفاً فهو نجس لكم، والخنزير لأنه يشق ظلفاً ويقسمه ظلفين لكنه لا يجتر فهو نجس لكم من لحمها لا تأكلوا وجثتها لا تلمسوا إنها نجسة لكم) لاويين 2:11 ـ 8

ولهذا سمحت الشريعة اليهودية بالبقر والضأن والماعز والأيل والظبي. وحرمت كل الحيوانات الآكلة للحوم فإنها كانت مقيتة لأنها تأكل الدم أو الجيف.

تقول التوراة: (لا تأكل رجساً ما. هذه هي البهائم التي تأكلونها. البقر والضأن والمعز والآيل والظبي واليحمور والوعل والتيثل والمهاة وكل بهيمة من البهائم تشق ظلفاً وتقسمه ظلفين وتجتر فإياها تأكلون) تثنية 3:14 ـ 6.

وقد حدد القرآن الكريم ما حرم من الحيوانات في عدد من آياته الكريمة.

يقول تعالى: (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق) المائدة الآية 4.

وقد تتشابه المحرمات من الحيوانات في التوراة والقرآن الكريم. إلا أن الشريعة الإسلامية لم تحرم لحم الجمل أو الأرنب. وقد حرم الإسلام الحيوانات

المفترسة أو آكلة اللحوم والدم أو الجيف. وهذا ما ورد أيضاً في التوراة. وحرم الخنزير في الشريعتين كذلك الميتة والدم وقد جاء في التوراة (لا تأكلوا جثة ما) تثنية 14: 21.

2 ـ الطيور الآكلة للحوم وقد وردت أسماؤها في سفر اللاويين وسفر التثنية تقول التوراة: كل طير طاهر تأكلون وهذا ما لا تأكلون منه. النسر والأنوق والعقاب والحدأة والباشق والشاهين على أجناسه. وكل غراب على أجناسه والنعامة والظليم والسأف والباز على أجناسه والبوم والكركي والبجع والقوق والرخم والغواص واللقلق والببغاء على أجناسه والهدهد والخفاش وكل دبيب الطير نجس لكم لا يأكل كل طير طاهر تأكلون) تثنية 14: 11ـ 20.

وقد حاول بنو إسرائيل أن يحللوا ما حرم الله عليهم لكن آيات القرآن الكريم أوضحت ما حرم عليهم حتى لا يلفقوا أو يكذبوا على الله.

يقول تعالى: (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا وما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وأنا لصادقون) سورة الأنعام الآية 146.

3 ـ الحشرات المجنحة التي تدب على أربع إلا ماله كراعان فوق رجليه يثب بهما على الأرض فحرمت الحشرات كلها ماعدا الجراد وما شاكله.

4 ـ كل ما في المياه وليس له زعانف وحراشف وقد جاء ذلك في سفر العدد 9 و10 وقد أباح هذا التحريم أكل خير السمك الموجود في المياه الفلسطينية ونهى عن الأنقليس والحيوانات المائية كالسرطان.

وقد أباح الإسلام أكل صيد البحر باستثناءات قليلة كالسمكة الميتة موتاً طبيعياً دون صيد. ولم يحرم السرطان أو الحنكليس (الأنقليس).

يقول تعالى: (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة) المائدة 96.

5 ـ الدبيب: كل ما يمشي على بطنه أو على أربع وما كثرت أرجله وقد ورد ذلك في سفر اللاويين 11: 29 و30 وفي سفر العدد 41 و42 وكان بعضها مؤذياً وبعضها يدب في التراب أو الطين وكان غيرها شبيه بالحيات. وكان الحيوان الدبيب كريهاً لدى بني إسرائيل لأن الدب يذكرهم بالحية ولعنة المجرب.

وكانت هذه الحيوانات نجسة في كل حال.

ولكن لحم الحيوانات الطاهرة كان قابلاً للتنجس فنهت شريعة التوراة عن أكل ما قدم ذبيحة للأوثان والمخنوق أي ما مات بنفسه أو افترسته حيوانات أو طير ضار وقد رأينا في الآية القرآنية حرمة أكل ما أهل لغير الله وما قدم للنصب والمنخنقة وما إلى ذلك.

يقول تعالى: (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق) المائدة 4.

أما الدم وشحم الطير والحيوان فكان مقدساً للرب وما أجيز لأحد ولا للغريب النازل بين بني إسرائيل أن يأكل الدم.

تقول التوراة: (وكل إنسان من بيت إسرائيل ومن الغرباء النازلين في وسطهم يأكل دماً أجعل وجهي ضدّ النفس الآكلة الدم وأقطعها من شعبها) لا 17: 10.

وكان من تعدى الشرائع المتعلقة بالحيوانات النجسة صار نجساً إلى المساء. وقد ورد ذلك في صموئيل 11: 24 و40 و17: 15 أما الحيوانات التي

ماتت من نفسها فأجيز بيعها للأجنبي وأن يأكلها وقد ورد ذلك في سفر التثنية 14 : 21.

تقول التوراة: (لا تأكلوا جثة ما. تعطيها للغريب الذي في أبوابك فيأكلها أو يبيعها لأجنبي لأنك شعب مقدس للرب إلهك) تثنية 14: 21.

وقد تحدث القرآن الكريم في مواضع كثيرة عما حرمه الله على بني إسرائيل وما حلله.

ويقول تعالى: (كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) آل عمران 13. فالذي حرمه يعقوب على نفسه إنما هو لحوم الإبل وألبانها وسبب ذلك أنه كان به عرق النسا فنذر إن شفي لا يأكل أحب الطعام إليه وكانت لحوم الإبل أحب إليه من غيرها وقيل فعل ذلك للتداوي.

وقد قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم إنك تدعى أنك على ملة إبراهيم وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها فقال كان ذلك حلالاً لإبراهيم ونحن نحله فقالت اليهود لم تزل محرمة في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام فنزلت الآية تكذبهم ولما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إحضار التوراة وقراءة ما فيها لم يجرؤوا وبهتوا وفي قول آخر مكمل لما جاء أن يعقوب عليه السلام حرم على نفسه أكل كل العروق التي في اللحم فلذلك تسل اليهود العروق فلا يأكلونها.

وفي التشريع اليهودي نصوص تحرم أكل أي لحم من أي حيوان يذبحه غير يهودي على الرغم من أنهم شاركوا بني العيص أكل لحومهم وذبائحهم على الرغم من أنهم عابدو أوثان وقد ورد نص في التوراة في سفر الخروج يدل على أن موسى عليه السلام أحل لهم أن يأكلوا مما يذبح بنو العيص الوثنيون.

وقد وضع أحبار اليهود كتاباً خاصاً بالذباحة سموه (هلكت، شحيطا) ومعناه علم الذباحة وقد عقدوا فيه القوانين كثيراً حتى جاوزت المنطق والعقل والمألوف.

ومن ذلك مثلاً أمروا أتباعهم بأن ينفخوا الرئة حتى تمتلئ هواء ويتأملونها هل يخرج الهواء من ثقب منها أم لا. فإن خرج منها الهواء حرموا أكلها وإن كانت بعض أطراف الرئة لاصقة ببعض لم يأكلوها. وأمروا الذي يعتقر الذبيحة أن يدخل يده في بطن الذبيحة ويتأمل بأصابعه فإن وجد القلب ملتصقاً إلى الظهر وأحد الجانبين ولو كان الالتصاق بعرق رقيق كالشعرة حرموه ولم يأكلوه وسموه طريفا ويعنون بذلك أنه نجس كله (وهذه التسمية هي أول التعدي منهم لأنه ليس موضوعاً في اللغة إلا المفترس الذي يفترسه بعض الوحوش ودليل ذلك يعقوب لما جاؤوه بقميص يوسف ملوثاً بدم. فقال ذراعه ابني. وحش رديء أكله افتراساً افترس يوسف) فقد تبين أن تفسير (طاروف طوارف يوسف) افتراساً افترس يوسف. فالطريف هي الفريسة وقد اختلق فقهاؤهم هذه الهذيانات والخرافات التي تتعلق بالرئة والقلب.

ويبدو من نصوص التوراة أن كل خلل في شروط أكل الذبيحة إن كانت من البقر أو الغنم لا يأكل لحمها اليهود ويبيعونها للمسلمين أو المسحيين.

وقد رفض القراؤون جميع تشريعات التلموديين ومنها تشريعات الذبيحة. وقد أباحوا الذبائح التي يتولون ذباحتها بأنفسهم[1].

أ ــ الطهارة والنجاسة والإنسان

ميزت التوراة وكذلك التلمود بين الطاهر والمقدس. فمثلاً الحيوانات طاهرة أو نجسة لا مقدسة ومحللة والنجاسة طقسية وليست دنساً خلقياً. وقد تشددت

---

(1) غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود. السموأل بن يحي المغربي ص70 مخطوط.

الشريعة التوراتية في مسألتي الطهارة والنجاسة الخاصتين بالإنسان. وحين نطلع على هذه الشرائع سنرى أن قيوداً صارمة حكمت حياة الرجل والمرأة اليهوديين.

ويمكن لنا أن نرى النجاسة وقد تحددت على الشكل التالي:

1 ـ مسّ جثة الميت. ويعتبر من أثقل النجاسات في الشريعة التوراتية. وذلك بسبب قولهم إن أثر الخطيئة يظهر بأجلى بيان في موت الإنسان وانحلال جسمه والنجاسة الناتجة عن هذا السبب تبقى سبعة أيام. والإنسان يطهر منها برش ماء النجاسة عليه وأيضاً استعمال رماد البقرة الحمراء الذي كان يطهر من الدنس الناتج عن مس الميت الذي كان ينجس والطاهر إذا مس شخصاً نجساً يتنجس إلى المساء.

جاء في التوراة: من مسّ ميتاً ميتة إنسان ما يكون نجساً سبعة أيام يتطهر به في اليوم الثالث وفي اليوم السابع يكون طاهراً. وإن لم يتطهر في اليوم الثالث ففي اليوم السابع لا يكون طاهراً. وكل من مسّ ميتاً ميتة إنسان قد مات ولم يتطهر بنجس مسكن الرب فتقطع تلك النفس من إسرائيل لأن ماء النجاسة لم يرش عليها تكون نجسة نجاستها لم تزل فيها. هذه هي الشريعة. إذا مات إنسان في خيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان في الخيمة يكون نجساً سبعة أيام وكل إناء مفتوح ليس عليه سدادٌ بعصابةٍ فإنه نجس وكل من مس على وجه الصحراء قتيلاً بالسيف أو ميتاً أو عظم إنسان أو قبراً يكون نجساً سبعة أيام) عدد 19: 11 ـ 17

أما تطهير هذا النجس من البشر فيكون كما أوضحت التوراة بقولها:

فيأخذون للنجس من غبار حريق ذبيحة الخطيئة ويجعل عليه ماء حياً في إناء ويأخذ رجل طاهر زوفا ويغمسها في الماء وينضحه على الخيمة وعلى جميع الأمتعة وعلى الأنفس الذين كانوا هناك وعلى الذي مسّ العظم أو القتيل

أو الميت أو القبر ينضح الطاهر على النجس في اليوم الثالث واليوم السابع ويطهره في اليوم السابع فيغسل ثيابه ويرحض بماء فيكون طاهراً في المساء وأما الإنسان الذي يتنجس ولا يتطهر فتباد تلك النفس من بين الجماعة لأنه نجّس مقدس الرب. ماء النجاسة لم يرش عليه إنه نجس فتكون لهم فريضة دهرية. والذي رش ماء النجاسة يغسل ثيابه والذي مسّ ماء النجاسة يكون نجساً إلى المساء. وكل ما مسه النجس يتنجس والنفس التي تمسّ تكون نجسة إلى المساء) عدد 19: 17 ـ 23.

فمن خلال ما ورد نرى تعقيد التوراة حول النجاسة والطهارة. وهي بهذا القانون تحرم الكثيرين من اليهود أن يتطهروا وبسرعة ويمارسوا عباداتهم إذ لا تصح صلاة ولا صوم في التوراة إلا إذا كان الإنسان طاهراً.

والتعقيد الأكثر غرابة هو ما نصت عليه التوراة من أن من حضر وفاة الميت من الحاضرين وإن لم يمس الميت فإنه نجس سبعة أيام. وهذا مما لم يرد في العقيدة الإسلامية والواقع أنه ليس هناك مبرر شرعي لجعل الموجودين داخل الخيمة أو المنزل الذي فيه الميت نجسين لمدة سبعة أيام.

وشددت التوراة في عقوبة من لا يتطهر فهو إما أن ينفى ولا يمكث بين قومه أو يقتل. حيث قالت التوراة تباد تلك النفس من بين الجماعة.

وفي هذا السياق يفضح السموأل بن يحيى المغربي تحول اليهود عن تعاليم التوراة فيقول: (نقول لهم أنتم اليوم على ملة موسى عليه السلام فإن قالوا نعم قلنا لهم أليس في التوراة أن من مسّ عظماً أو وطئ قبراً أو حضر ميتاً عند موته فإنه يصير من النجاسة حال لا مخرج له منها إلا برماد البقرة التي كان الإمام الهاروني يحرقها؟ فلا يمكنكم مخالفة ذلك لأنه نص ما يقولونه فنقول لهم فهل أنتم اليوم على ذلك؟ فيقولون لا نقدر على ذلك. فنقول لهم فلمَ جعلتم أن من لمس العظم والقبر والميت فهو طاهر يصلح للصلاة ومحل الكتاب والذي في

كتابكم بخلافه؟ فإن قالوا لأنا عدمنا أسباب الطهارة. وهي رماد البقرة والإمام المطهر المستغفر. قلنا فهل ترون هذا الأمر مع عجزكم عن فعله مما تستغنون في الطهارة عنه أم لا؟ فإن قالوا نعم قد نستغني عنه فقد أقروا النسخ لتلك الفريضة لحال اقتضاها هذا الزمان. وإن قالوا لا يُستغنى في الطهارة ذلك الظهور فقد أقرواً بأنهم الأنجاس أبداً ماداموا لا يقدرون على سبب الطهارة[1].

2 ـ البرص إذا ضرب إنساناً أو ثوباً أو بيتاً. وفي التشريع التوراتي نصوص تجعل الأبرص مقيماً خارج المجتمع البشري يحتاج لتطهيره غسلاً وذبيحة.

جاء في التوراة: إذا كان إنسان في جلد جسده ناتئ أو قوباء أو لمعة تصير في جلد جسده ضربة برص يؤتى به إلى هارون الكاهن أو إلى أحد بنيه الكهنة فإن رأى الكاهن الضربة في جلد الجسد وفي الضربة شعر قد ابيض ومنظر الضربة أعمق من جلد جسده فهي ضربة برص فمتى رآه الكاهن يحكم بنجاسته) لاوين 13: 1 ـ 3.

ويفصل الإصحاح 13 من سفر اللاويين في قضايا كثيرة تمس المصاب بالبرص وبأمراض جلدية أخرى. فالأقرع طاهر، والذي في رأسه بهق طاهر، والأصلع طاهر، لكن المدهش في عقوبة من أصابه برص حيث تقول التوراة: (والأبرص الذي فيه الضربة تكون ثيابه مشقوقة ورأسه يكون مكشوفاً ويغطي شاربيه وينادي نجس نجس. كل الأيام التي تكون الضربة فيه يكون نجساً إنه نجس يقيم وحده خارج المملكة يكون مقامه) لا وين 13: 45 ـ 46.

وبالطبع فإن الأبرص في هذا التشريع يظل نجساً ما لم يشف من مرضه وبذلك يحرم من العبادة والشعائر كالصلاة والصوم وكافة العبادات.

---

(1) السموأل بن يحيى المغربي غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود ص11 مخطوط.

3ـ السيلان الطبيعي والمرضي من أعضاء التناسل بما في ذلك نجاسة الوضع للمرأة. تقول التوراة (كلما بني إسرائيل وقالا لهم كل رجل يكون له سيل من لحمه فسيله نجس وهذه تكون نجاسته بسيله. إن كان لحمه يبصق سيله أو يحتبس لحمه عن سيله فذلك نجاسته. كل فراش يضطجع عليه الذي له السيل يكون نجساً وكل متاع يجلس عليه يكون نجساً. ومن مسّ فراشه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء ومن جلس على المتاع يجلس عليه ذو السيل يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء. وإن بصق ذو السيل على طاهر يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء) لاويين 15 : 1ـ 5.

ويفصل هذا الإصحاح قضايا كثيرة تمس صاحب السيلان. وقد شرع الفقه الإسلامي في ذلك أيضاً ولكنه إلى جانب اليسير وليس إلى جانب التعقيد والتشهير. فلم وقد جاءت الشريعة الإسلامية بنص صريح يرفع الحرج والمشقة عن الناس فقد قال تعالى: (ما جعل عليكم في الدين من حرج) الحج الآية 78 فكل شيء فيه حرج وعسر لا يجب على المكلف فعله ومن ذلك المرضى بأمراض لا تقعدهم عن العمل كضعيف المثانة المترتب عليها تقاطر البول بلا انقطاع في معظم الأوقات أو كلها ونحو ذلك من مذي وغيره ويقال له (سلس) ومثل هؤلاء المصابون بإسهال مستديم أو بمرض في الأمعاء (دوسنطاريا) يترتب عليه نزول دم أو قيح. فحكم هؤلاء وأمثالهم أن يعاملوا في الوضوء وغيره من أنواع الطهارة معاملة خاصة تناسب أمراضهم[1].

---

(1) الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة المجلد الأول صفحة 101.

ب ـ طهارة المرأة ونجاستها

شرعت التوراة في طهارة المرأة ونجاستها كثيراً من التشريعات. منها ما يلحق بجسدها ومنها ما يلحق بلباسها وفراشها وشؤون عملها ويمكن أن تقسم الأمور المتعلقة بذلك على ثلاثة أشكال.

1 ـ الطمث مدته وشروط الطهارة منه.

2 ـ الولادة مدتها وشروط الطهارة منها.

3 ـ علاقة الأشياء بطهارتها ونجاستها وعلاقة الرجل بها في حال نجاستها وطهارتها.

تقول التوراة: (وإذا كانت المرأة لها سيل. وكان سيلها دماً في لحمها سبعة أيام تكون في طمثها. وكل من مسّها يكون نجساً إلى المساء. وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجساً وكل ما تجلس عليه يكون نجساً. وكل من مسّ فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء. وكل من مسّ متاعاً تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء. وإن كان على الفراش أو على المتاع الذي هي جالسة عليه عندما يمسه يكون نجساً إلى المساء. وإن اضطجع عليه يكون نجساً) لاويين 19 ـ 24.

وإذا كانت امرأة يسيل سيل دمها أياماً كثيرة في غير وقت طمثها أو إذا سال بعد طمثها فتكون كل أيام سيلان نجاستها كما في أيام طمثها إنها نجسة. لاويين 15 : 25.

ويستدل من هذه التشريعات أن المرأة اليهودية تبقى نجسة سبعة أيام. وهذا يتقارب مع ما تعارف عليه المسلمون.

ولكن التشريع اليهودي أسهب في أثر نجاستها في الأشياء التالية:

1 ـ كل من مسّها يكون نجساً إلى المساء. فلهذا يعتبر نجساً كل ثوب تمسكه أو أي إناء أو أي حاجة من حاجيات منزلها أو خارج منزلها. ولا يصح أن تقوم اليهودية بغسل آنيةً أو تنظيف جدار وهي في حالة الطمث. وهذا يعني أن تنظيف البيت يقع على عاتق الرجل أو الخادمة إن وجدت. كل شيء تمسه يبقى نجساً حتى المساء.

2 ـ وكل ما تضطجع عليه يعتبر نجساً. وهذا يعني أن الفراش أو الكرسي أو حتى الأرض جميعها تكون نجسة حتى المساء.

3 ـ وكل إنسان يمسّ متاعها من لباس أو أي حاجة تخصها يكون الإنسان نجساً حتى المساء.

4 ـ وإن نام معها أو على فراشها إنسان آخر قد يكون أبنها أو زوجها أو أخوها وجاء شيء من طمثها عليه يكون نجساً لمدة أسبوع أو سبعة أيام.

5 ـ وإن زاد الطمث على سبعة أيام تبقى المرأة نجسة دون تحديد المدة وكل ما ينطبق على طمثها في السبعة أيام الأولى ينطبق عليه في بقية أيام سيلانها.

وإذا نظرنا في الفقه الإسلامي نجد أنه يستند على آيات القرآن الكريم في تعريف الناس معنى الطهارة لدى المرأة.

يقول تعالى: (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) البقرة 222.

والمحيض كما هو معروف السيلان. وتسمى المرأة حائضاً إذا جرى دم حيضها ويسمى الحيض الطمث والحيض حسب المالكية دم خرج بنفسه من قبل امرأة في السن التي تحمل فيه عادة ولو كان دفقة واحدة وقالت الحنفية

الحيض يصح أن يعتبر حدثاً كخروج الريح ويصح أن يكون من باب النجاسة كالبول. وقالت الشافعية الحيض هو الدم الخارج من قبل المرأة السليمة من المرض الموجب نزول الدم إذا بلغ سنها تسع سنين فأكثر من غير سبب ولادة. وقد قرر الشرع تحريم وطأها. وتمنع من الصلاة والصوم. وقد قرر الشرع مدة الحيض فأقل الحيض يوم وليلة وأكثر مدة الحيض خمسة عشر يوماً مع لياليها فإذا رأت المرأة الدم بعد هذه المدة لا يعتبر حيضاً. وأقل مدة الطهر خمسة عشر يوماً.

أما النفاس فيعنون به خروج دم عند ولادة المرأة أو قبلها بزمن يسير أو معها أو بعدها. ويقدر نفاس المرأة بأربعين يوماً. وطهرها منه بعشرين يوماً ثم يقدر حيضها بعد ذلك بعشرة أيام.

وقد فصل الشرع فيما يحرم على الحائض أو النفساء فعله قبل انقطاع الدم. فيحرم عليها أن تباشر الأعمال الدينية التي تحرم على الجنب من صلاة ومسّ مصحف وقراءة قرآن وتزيد الحائض والنفساء عن الجنب أمور منها الصيام فإنه يحرم على الحائض أو النفساء أن تنوي صيام فرض أو نفل وإن صامت لا ينعقد صيامها ومن يفعل منهن ذلك في رمضان كان معذباً لنفسه آثماً وذلك جهل شائن[1].

ومن وطئ امرأته وهي حائض فإنه يؤثم وتجب عليه التوبة كما تأثم هي لتمكينه منها وباستثناء ذلك فإن ما تقوم به المرأة من أعمال في بيتها لا تنجس شيئاً من متاعه وكذلك ثيابها الخارجية فإنها لا تنجس ما لم تصب بدم الحيض والنفاس أو البول أو الغائط. وكذلك فراشها إن لم يمسه الدم أو ما يسبب النجاسة.

(1) الجزيري الفقه على المذاهب الأربعة كتاب الطهارة ص133.

وهنا نلاحظ الفرق بين الشريعة الإسلامية والشريعة التوراتية. ونلاحظ كم كان التشريع اليهودي مضيّقاً على المرأة. وكم يسّر التشريع الإسلامي عليها. فحدود الشريعة الإسلامية واضحة الأهداف واضحة الأسباب. ولا شأن لها بالحط من قيمة المرأة أو تعطيل عملها المنزلي أو الصناعي أو الزراعي. بينما نرى التشريع التوراتي يقيدها تقيداً كاملاً فلا يمكن أن تمس شيئاً مهما كان نوعه لأنه نجسٌ إلى مساء اليوم.

وفي السياق التوراتي أيضاً تضع النصوص تشريعاً للمرأة الجنب وكذلك الرجل فتقول: (وإذا حدث من رجل اضطجاع زرع يرحض كل جسده بماء ويكون نجسا إلى المساء. وكل ثوب وكل جلد يكون عليه اضطجاع زرع يغسل بماء ويكون نجساً إلى المساء والمرأة التي يضطجع معها رجل اضطجاع زرع يستحمان بماء ويكونان نجسين إلى المساء) لاوين 15 :16- 18.

وتتقارب الطهارة في هذا بين التوراة والقرآن الكريم إي أن التوراة تعتبر المرأة والرجل نجسين بالجنب حتى المساء. لكن هذا لم يرد في القرآن الكريم حيث نص التشريع الإسلامي على وجوب الإسراع في الغسل من الجنابة حتى تؤدى الصلاة وبقية العبادات.

وقد جاء في كتاب السموأل بن يحيى المغربي رد على تضييق اليهود الشرع على المرأة وبيَّن أنهم مغالون، وأنهم في نفس الوقت يستحلّون غير المرأة اليهودية وإن كانت نجسة يقول السموأل:

(فنقول لهم فإذا كنتم أنجاساً على رأيكم وأصولكم فما بالكم تعتزلون الحائض بعد انقطاع الحيض وارتفاعه سبعة أيام اعتزالاً تفرطون فيه إلى حد أن أحدكم لو لمس ثوبه ثوب المرأة لاستنجستموه مع ثوبه. فإن قالوا لأن ذلك من أحكام التوراة قلنا أليس في التوراة أن ذلك يراد به الطهارة. فإذا كانت الطهارة قد فاتتكم. والنجاسة التي أنتم فيها هي على معتقدكم لا ترفع بالغسل كنجاسة

الحيض فهي لذلك أشد من نجاسة الحيض. ثم إنكم ترون أن الحائض طاهرة إذا كانت من غير ملتكم ولاتستنجسون لامسَها ولا الثوب الذي يلمسه. وتخصيص هذا الأمر ـ أعني نجاسة الحيض بطائفتكم مما ليس في التوراة. فهذا كله نسخ منكم أو تبديل[1]).

جـ ـ المرأة اليهودية والطهارة

في التشريع اليهودي يلزم من المرأة أن تذهب إلى ما يسمى الحمام الشرعي بعد انقضاء مدة الطمث وانقطاع الدم نهائياً. والحمام الشرعي حمام نسائي جماعي تجرى فيه بعض الطقوس والكلمات.

وفي العديد من الطوائف اليهودية فإن المرأة العائدة من طقسها الشهري أي من الحمام الشرعي لأجل الطهارة يجب أن تحاذر ملاقاة أحد أربعة كائنات شيطانية. وهي أحد الأغيار غير اليهود أو خنزير أو كلب أو حمار وإذا حدث وقابلت أحدهم يجب أن تعيد الاستحمام مرة ثانية. وبعد التطهير في الحمام الشهري يصبح الاتصال الجنسي مع زوجها إلزامياً تفرضه الشريعة. وقد ظهرت هذه الطقوس على أيدي الحركة القبالية اليهودية. وأخذ بها عدد من الفرق اليهودية المعاصرة. بحيث ما تزال تؤثر في سلوك المرأة اليهودية والتزامها بما تفرض آراء الحاخامات على الناس.

2 ـ الزواج في التشريع اليهودي

يأخذ الزواج في التشريع اليهودي حيزاً واسعاً، وذلك بسبب تطور القوانين التي تنظمه وتقننه ففي سفر التكوين حالات من الزواج لم تطبق بعد نزول التوراة بل إن بعضها ألغي إلغاء كاملاً. وحينما نزلت التوراة على النبي موسى عليه السلام وضعت قوانين للزواج، حددت سنّه بالنسبة للرجل والمرأة.

(1) السموأل بن يحيى المغربي. غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود مخطوط صفحة 12.

وسنت تشريعات منعت فيه زواج الرجال اليهود من غير يهوديات وزواج يهوديات من غير اليهود وعندما كتب التلمود تشددت التشريعات اليهودية في مسألة الزواج وجعلت له أبواباً واسعة من التلمود نفسه.

وبسبب هذه التشريعات واجهت المرأة اليهودية مشاكل كثيرة انعكست عليها سلباً خاصة في مسائل زواج المرأة من شقيق زوجها المتوفى، وإجبار الشرع لها أن تتقيد به وفي مسائل أخرى تتعلق بالمرأة التي يغيب زوجها مدة طويلة من الزمن وكذلك فيمن تنجبه المرأة من أطفال ومتى يكونون شرعيين ومتى يكونون غير شرعيين.

ثم واجهت المرأة اليهودية تشدد بعض الفرق اليهودية ضد غيرها من الفرق كما هو حادث بين القرائين وبين التلموديين.

وجميع هذه المشاكل تعاني منها المرأة اليهودية المعاصرة، مما يشكل في التجمعات اليهودية مشكلة كبرى تستعصي على الحل في كثير من حالاتها ويبدو أن التشريعات التلمودية وقفت ضد المرأة اليهودية في كثير من حقوقها وواجباتها.

ولهذا سنتناول مسألة الزواج في التشريعات اليهودية بشكل مفصل منذ سفر التكوين وحتى بروز التلمود.

وسنحاول مقارنة التشريعات اليهودية بالتشريعات الإسلامية حتى نرى مدى الاضطهاد الذي لحق بالمرأة اليهودية ومدى الاحترام الذي فرضته الشريعة الإسلامية للمرأة. في سيرة النبي إبراهيم عليه السلام في التوراة يتضح لنا أن هذا النبي قد تزوج من ساراي وهي حسب ما تقوله المصادر التوراتية أخت إبراهيم من أبيه وليست بنت أمه وقد جاء في سفر التكوين ما نصه: (وبالحقيقة أينما هي أختي ابنة أبي غير أنها ليست ابنة أمي فصارت لي زوجة) تكوين 20: 12.

وفي بعض الروايات أن سارة كانت ابنة أخيه هاران. وكانوا في ذلك الزمان يجيزون زواج الرجل من ابنة أخيه. بل لم تكن هناك محارم من جهة الأب فكان يجوز الزواج بالعمة وابنة الأخ بل الأخت لأب فقد تزوج عمرام عمته يوكابد وولدت له هارون وموسى وقد ورد ذلك في سفر الخروج الإصحاح 6: 2 وتزوج ناحور ابنة أخيه هاران وقد ورد ذلك في سفر التكوين 11: 29 وقد رأينا كيف قال إبراهيم عن ساره إنها أخته من أبيه. وحينما هام أمنون ابن داود في حب ثامارا أخت أخيه أبشالوم استمهلته واقترحت عرض الأمر على الملك فهو لن يمانع في زواجهما وقد ورد ذلك في سفر صموئيل الثاني 13: 13.

بل إن الاتصال الجنسي كان يحدث بين الأقارب والأصهار من الدرجة الأولى دون أن يلقى استهجان الجماعة فقد عاشر رأوبين سرية أبيه يعقوب وذلك في سفر التكوين 35: 22 ودعت ثمار حماها يهوذا إلى الدخول بها كما جاء في سفر التكوين 38: 12 وما بعدها وحسب قول التوراة وافتراءاتها فقد ضاجع لوط ابنتيه وحملتا منه كما جاء في التكوين 19: 30 ـ 31.

ولعل عدم وجود محارم من جهة الأب عند بني إسرائيل في عهد الرعي يرجع إلى نظام أمومي سابق غلب قبل الألف الثانية ق. م..

وفي سيرة إبراهيم في التوراة يتضح أنه تزوج من مصرية وهي ليست من قومه والمصرية هي هاجر أم إسماعيل. وأوردت التوراة أن إبراهيم تزوج مرة ثالثة من امرأة كنعانية تدعى قاطورة وأنجب منها عدداً كبيراً من الأولاد .جاء في التوراة: (وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة) تكوين 25 :1 وهذا يعني أن شريعة إبراهيم الأساسية تبيح الزواج من غير القوم الذين ينتسب إليهم الرجل. وهذا ما يجعل المرء يندهش عندما تقول نصوص التوراة أن إبراهيم وصى ابنه اسحق ألا يتزوج من كنعانية وكذلك يعقوب، الذي وصاه أبوه أن يتزوج ابنة خاله لابان وأن لا يأخذ له زوجة كنعانية.

لكن التناقض الذي وقعت فيه التوراة يشير إلى أن الأحكام التي يصدرها إبراهيم واسحق حول عدم الزواج إلا من نفس العائلة لم تكن سوى أحكام نظرية قابلة للتطبيق حيناً وليست قابلة للتطبيق أحياناً أخرى.

فبنو إسرائيل اتبعوا قاعدة الزواج من الداخل في أحوال ونقضوا ذلك أحياناً أخرى فالرجل يختار زوجته من داخل عشيرته هكذا فعل إبراهيم حينما بحث عن قرينة لابنه اسحق إذ أمر الخادم ألا يسعى إلى بنات كنعان بل يذهب إلى عشيرة إبراهيم وهذا ما جاء في سفر التكوين 24: 37 ـ 38. وقد أوصى اسحق بدوره ابنة يعقوب ألا يتزوج من بنات كنعان بل يرحل إلى بنات خاله لابان وقد ورد ذلك في التكوين 28: 1ـ 2. ولما ارتبط عيسو بامرأتين من الحثيين فاضت نفس أبيه بالمرارة.

وفي حالات أخرى فالمرأة لا تُعطى للأجنبي (فدينة) ابنة يعقوب حين تقدم لخطبتها رجل من شيكم (أجنبي) رفض أخوتها إتمام الزواج وهذا ما ورد في التكوين 34: 14.

وقد وردت في التوراة عشرات النصوص التي تشير إلى زواج بني إسرائيل من نساء من أقوام أخرى. وكذلك فإن نصوصاً أخرى تشير إلى تبدل في الزواج بحيث يتزوج الأجانب غير اليهود حسب تعبير التوراة من فتيات من بني إسرائيل.

وقد حاول أنبياء التوراة والمصلحون اليهود باستمرار أن يحثوا أبناء إسرائيل على عدم الاختلاط بالزواج من غير يهوديات.

لكن الذي يلفت النظر أن داود عليه السلام تزوج حثيه وأنجب منها النبي سليمان وهي التي ورد ذكر أسمها بتشبع في سفر صموئيل الثاني. وتورد التوراة أن سليمان أيضاً تزوج من كافة أصناف النساء ومن كافة الأقوام.

تقول التوراة (و أحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم). ملوك أول 11: 1 ـ 4.

وعلى مر التاريخ اليهودي وقبله تاريخ بني إسرائيل لم يحافظ التوراتيون على تقاليد الزواج الداخلي. فزوجوا بناتهم لكثير من الأقوام المغايرة. مثلاً نرى إستير من ملك الفرس كورش. أيام أواخر وجود بني إسرائيل في السبي البابلي ولعل ما يدفع بني إسرائيل دوماً إلى اختراق قوانين التوراة هي مصلحتهم الخاصة ولو على حساب شريعتهم.

وقد رأينا أيضاً في سفر التكوين كيف أن النبي يوسف تزوج بنت كاهن أون فوطي فارع المصري. وهي ليست من بني إسرائيل.

تقول التوراة (وأعطاه أسنان بنت فوطي فارع كاهن أون زوجةً) تكوين 41: 45، وقد أجازت التوراة في سفر التكوين زواج الرجل من أختين. فيعقوب تزوج من بنات خالة ليئة وراحيل. كما أجازت تزويج المرأة زوجها لجارتها.

وهذا أيضاً ما حدث مع النبي إبراهيم عندما زوَّجته زوجته سارة هاجر جاريتيهما.

وعندما زوجت كل من ليئة وراحيل جاريتيهما ليعقوب. ويعتقد بنو إسرائيل أن الجارية إذا أنجبت فإن أبناءها ينتسبون إلى سيدتها وهذا ما دلت عليه قصة زوجتي يعقوب راحيل وليئة.

وتقر الشريعة التوراتية تعدد الزوجات فرأينا أن إبراهيم ويعقوب وعيسو وداود وسليمان وغيرهم قد عددوا الزوجات دون حدود.

ولكن يبدو أن تعدد الزوجات عند بني إسرائيل في مرحلة الرعي كان لا

يتعدى الاثنتين أو الثلاث على عكس مرحلة الزراعة[1]. بمعنى أن بني إسرائيل عندما استولوا على بعض الأراضي العربية في فلسطين وبنوا مملكة أصبح التعدد بأكثر من ثلاثة شائعاً وهذا ما جاء في التوراة عندما تحدثت عن داود وسليمان.

أما في القرآن الكريم فقد تعددت الآيات التي تتحدث عن المرأة زواجها. طلاقها والمحرمات من النساء إلى آخر ما هنالك من شؤون تتعلق بها. وقد أفرد القرآن الكريم سورة من المطولات وهي سورة النساء. كما وردت آيات كثيرة في سورة البقرة وغيرها من السور التي تخص شؤون المرأة بشكل واضح لا مواربة فيه.

فالنساء المحرمات في الشريعة الإسلامية محددات بالإسم:

يقول تعالى: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا. حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم التي في جحوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما)النساء 22 ـ 23.

فالمحرمات في النص:

زوجة الأب غير الأم، الأم، البنت، الأخت، العمة، الخالة، بنت الأخ، بنت الأخت، والأم في الرضاعة، الأخت في الرضاعة، أم الزوجة، امرأة الابن، الجمع بين الأختين إلا إذا توفيت الأولى فيسمح الزواج من أختها، وبنت الزوجة من أب آخر.

---

(1) ثروت أنيس الأسيوطي. نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين صفحة 161.

وقد أحلت الشريعة الإسلامية الزواج من النساء المؤمنات من أهل الكتاب أي من اليهود والنصارى.

يقول تعالى: (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخوان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين) المائدة الآية5.

وقد جاءت الشريعة الإسلامية لتلغي ما كان عليه في الجاهليين من أمور الزواج كالزواج من امرأة الأب أو من العمة والخالة كما كان عند اليهود. وقد اعتبر الأصناف التي جمعتها الآيات الكريمة عن النساء محرمات تحريما قطعيا.

ولم يكن الإسلام متعصبا كتعصب أهل الكتاب الذين اعتبروا زواج اليهردية أو النصرانية أمراً خارجاً على الدين. وقد رأينا التشريع اليهودي كيف يحرم الزواج من غير اليهودية وكيف أن كثيرا من النصوص التوراتية كانت تحض اليهودي على إخراج الزوجات غير اليهوديات بعيداً عن التجمع اليهودي أياً كان. لأن وجودهن يعتبر مخالفاً للشريعة كونهن حسب قول التوراة وثنيات أو على غير دين اليهود.

ولم يرد في التوراة أن امرأة يهودية سمح لها الشرع بالزواج من غير اليهود سوى في حالة أستير والحالات المشابهة لأن المصلحة اليهودية تغلب على الشرع في مثل هذه الحالات وكما حرم الربانيون اليهود زواج اليهودية من غير يهودي فإنهم أيضا ضيقوا الخناق أكثر فحرموا زواج اليهودية التلمودية من اليهودي القرائي.

ومنذ تأسيس الكيان الصهيوني وجد شرخ كبير بين الفرق اليهودية في مسائل كثيرة ومنها مسألة الزواج.

ففي الخمسينات أثار قرار المؤسسة الدينية اليهودية في الكيان الصهيوني بعدم شرعية زواج القرائي من اليهود حفيظة ديفيد بن غوريون والسياسيين اليهود وقد هدد ابن غوريون وقتها المؤسسة الدينية بتجريدها من حق الإشراف على عقود الزواج إذا لم يغير القرار. وقد اعترف بعد خمس سنوات بأنه فشل في تغيير عقلية الحاخامين.

والقرائي في نظر التلموديين غير مؤهل للشهادة الشرعية فكما أن الزواج القرائي باطل فالطلاق كذلك. وقد أجازت محكمة يهودية تلمودية زواج قرائي بيهودية غير قرائية ولكنهم طلبوا منه أن يتحول إلى اليهودية التلمودية ويقوم بأداء الشعائر المناسبة لهم وهناك حالات زواج تمت بين أفراد الفرقتين لكنها قليلة. وفي هذه الحالة يخفي القرائي انتماءه ويتزوج من تلمودية حيث لا يتبين من هويته أنه قرائي ويكون الزواج عن طريق حاخام تلمودي.

والتلموديون ما يزالون يجيزون الزواج ببنت الأخ وبنت الأخت، ولكن القرائين يحرمونه لأنهم يعتبرون بنت الأخت وبنت الأخ من المحارم كما في الإسلام[1].

أما انعقاد الزواج فقد كان الأب هو السيد المطلق داخل البيت، إرادته هي القانون يأمر فيطاع يزوج بناته وأبناءه بمحض إرادته بل يستطيع أن يبيع ابنته أمة لمن يعرض الثمن وقد ورد ذلك في سفر الخروج الأصحاح21 ـ 7 أو يدفع بها زوجة لمن يتراءى له من الرجال ويختار أيضا زوجة لابنه دون استشارته وقد ورد ما يظهر ذلك في سفر التكوين عندما انتقى النبي إبراهيم زوجة لابنه إسحاق دون أن يدري.

ولم تكن هناك مقدمات للزواج ولم تعرف الخطبة ويتم الأمر فجأة دون تمهيد وهذا ما رأيناه في سفر التكوين الإصحاح 24: 61 ـ 67. ولم تكن هناك

---

1) جعفر هادي حسن. اليهود القراؤون صحيفة الحياة 13 كانون الثاني 1997.

مراسم معينة للزواج بل كان مسألة مدنية لا يتدخل فيها الكاهن. ولعل ذلك يرجع إلى ضعف نفوذ الكهنة في المراحل الأولى لبني إسرائيل.

وأداء المهر عادة متبعة عند بني إسرائيل يقوم به الرجل لصالح الفتاة. فهو ركن من أركان الزواج وهذا ما وضح عندما تزوج يعقوب من ابنتي خاله بأجرٍ يقدمه وهو رعيُهُ أغنام خاله مدة سبع سنوات أولى ثم سبع سنوات ثانية كمهرٍ للبنتين.

وقد جاء في التشريعات التوراتية أن الكاهن اللاوي الأعلى كان محظورا عليه أن يتزوج امرأة أجنبية. بل حتى امرأه من أي قبيلة عبرية. وحتى داخل قبيلته الخاصة لم يكن يتزوج أرملة أو مطلقة. والحقيقة أنه لم يكن يتزوج أي امرأة لها علاقة جنسية مع أي رجل آخر[1].

وبسبب من سوء العلاقات الزوجية بين اليهود أنفسهم لجأت بعض اليهوديات إلى الزواج من شباب مسلمين وأسلمن مما أثار حفيظة الكهنة والربانيين اليهود. ففي عام 1997وجدت سبع إلى تسع حالات في شمال فلسطين تشير إلى زواج فتيات يهوديات من شباب مسلمين وقد أسلمن وهجرن اليهودية إلى غير رجعة.

ولنا مثال واضح على تسامح الإسلام بالزواج من كتابية ما قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما تزوج صفية التي كانت يهودية ثم أسلمت.

وتلجأ الفتيات اليهوديات اليوم إلى الزواج المدني غير العرفي والشرعي فتتزوج من رجل على غير دينها. وتجد فيه الرجل المناسب لمستقبلها ومستقبل الأسرة التي تنوي إنشاءها وكل ذلك يعود إلى انحلال الروابط الأسرية في التجمع الصهيوني والتي جلبها اليهود الغربيون معهم من بلادهم الغربية المنحلة.

---

(1) مارلين ستون. عندما كان الرب أنثى ترجمة حنا عبود صفحة 126.

والتي لا تحترم مواثيق الـزواج ولا تفكـر حتـى بالأسـر التقليديـة القائمـة علـى الزواج الحلال.

للأشقاء اليهود حق التوارث حتى في الزوجة:

نظر التشريع اليهودي للمرأة اليهوديـة كـأي سـلعة يشـتريها الرجـل أو يبيعها. فله التصرف بها كما يحلـو لـه. ومـن خـلال ذلـك فقـد أمـر التشـريع اليهودي أن من حق الأخ أن يرث أخاه الميت، وتكون الزوجـة جـزءا مـن هـذا الإرث فيتزوجها ويتصرف بها كأي حاجة ورثها عن أخيه. وإذا أرادت الزواج من غيره تطلب منه السماح لها بذلك وإن رفض فإنها تبقى دون زواج.

وما يدلل على هذا التشريع ما ورد في التوراة أن يهوذا ابن يعقوب النبي عليه السلام زوج ولده الأكبر من امرأة يقـال لهـا ثامـار فكـان يأتيـها مسـتدبراً (ملوطا) فغضب الله من فعله فأماته فزوجها يـهودا مـن ولـده الآخـر فكـان إذا دخل بها أمنى على الأرض علماً بأنه إن أولدها كـان أول الأولاد مدعـواً باسـم أخيه ومنسوباً إلى أخيه. فكره الله ذلك فأماتـه أيضـاً. فأمرهـا يـهوذا باللحـاق بأهلها إلى أن يكبر (شيلا) ولده الأصغر ويتم عقله حذرا من أن يصيبه ما أصاب أخويه فأقامت في بيت أبيها. فماتت من بعد زوجـة يـهودا. وأصعـد إلى منـزل يقال له تمنات ليجز غنمه فلما أخبرت ثامار بإصعاد حميها إلى تمنات لبسـت زي الزانيات وجلست في مستشرف على الطريق لعلها تلفت نظره. فلما مر بها خالها زانية فراودها فطالبته بالأجرة فوعدها بجدي ورهن عصاه وخاتمه ودخل بها فعلقت منه بفارص وزارح ومن نسل هذا فـارص كـان بوعـز المـتزوج بـروث التي من نسل موآب ومن ولدهما كان النبي داود.

(وأيضا ففي هذه الحكاية دقيقة ملزمة بالنسخ لأن يـهودا لـمـا أخـبر بـأن كنته قد علقت من الزنا أفتى بإحراقها فبعثت إليه بخاتمه وعصاه وقـالت: مـن رب هذين أنا حامل فقال صدمت مني ذلك واعتذر بأنه لم يعرفها ولم يعاودها؟

وهذا يدل على أن شريعة ذلك الزمان كانت مقتضية إحراق الزانيات وإن التوراة أتت بنسخ ذلك وأوجبت الرجم عليهن)[1].

ومن خلال النص السابق نستنتج بعض التشريعات التوراتية حول الزواج:

1ـ فالمرأة التي توفي زوجها تتزوج من أخيه حكماً.

2ـ والولد الذي تنجبه من الثاني لا ينسب له بل إلى أخيه المتوفى. ولهذا كره.

3ـ الكثيرون من اليهود يكرهون الزواج من زوجة الأخ المتوفى.

4ـ الزانية في حكم التوراة تحرق ثم نسخ هذا الحكم برجمها.

5ـ ومن عادة الزانيات في ذاك العصر أن يلبسن لباسا مميزا عن غيرهن. ويضعن برقعا على وجوههن ويجلسن على قارعة الطريق ينتظرن زبائنهن.

ويعلق السموأل بن يحيى المغربي على هذه التشريعات فيقول:

(ومن الفضائح التي عندهم مذهبهم في قصة اليتامى والحالوص. وذلك أنهم أمروا أنه إذا أقام أخوان في موضع واحد ومات أحدهما ولم يعقب ولدا ولا يخرج امرأة الميت إلى رجل أجنبي بل ولد حميها ينكحها وأول ما يولدها ينسب إلى أخيه الدارج فإن أبى ينكحها خرجت متشكية منه إلى مشيخة قومها قائلة هذا ابن حميي رفض أن يستبقي إسما لأخيه في (إسرائيل) ولم يرد نكاحي فيحضره الحكم هناك ويكلف أن يقول: ما أردت نكاحها. فتناول المرأة نعله فيخرجها من رجله ويمسكها بيدها وتبصق في وجهه وتنادي عليه: كذا فليضع الرجل الذي لا يبني بيت أخيه ويدعى في ما بعدها بالمخلوع النعل. وتنبذ ابنته بهذا اللقب أعني بنت المخلوع النعل. هذا كله مفترض في التوراة

(1) السمو آل بن يحيى المغربي. غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود مخطوط ص 64.

عليهم وفيه حكمة ملجئة للرجل إلى النكاح من زوجة أخيه الدارج. لأنه إذا علم أنه قد فرض على المرأة أن تشكوه إلى نادي قومها فذلك مما يحمله على نكاحها. فإن لم يردعه الحياء من ذلك فربما إذا حضر استحيا أن يقول: ما أردت نكاحها. فإن لم يخجله ذلك فربما يستحي من انتهاك العرض بخلع نعله.

وكون المرأة تشيل نعله، وتبصق في وجهه وتنادي عليه بقلة البركة والمروءة فإن هو استهان بذلك فربما استعظم أن ينبذ باللقب ويبقى عليه وعلى أهله من بعده عاره وقبح اسمه، فيلجئه ذلك إلى نكاحها.، فإن كان من الزهد فيها بحيث يهون عليه جميع ذلك. ففرغ فقهاؤهم على ذلك ما فيه حربهم وفضيحتهم. وذلك أنه إذا أراد زهدت المرأة في نكاح أخي زوجها المتوفى أكرهوه على النزول عنها. ثم ألزموها الحضور عند الحاكم بمحضر من مشيختهم، ولقنوها أن تقول: أبى ابن حميي أن يقيم اسما لأخيه في (إسرائيل) لم يرد نكاحي، فيلزموها بالكذب عليه لأنه أراد فمنعته. فكان الامتناع منها والإرادة منه وإذا لقنوها تلك الألفاظ فهم يأمرونها بالكذب، ويحضرونه، ويأمرونه بأن يقوم ويقول: ما أرادت نكاحها. ولعل ذلك سؤله ومناه. فيأمرونه بالكذب وأما إخراقها (الطعن به) وبصقها في وجهه. فغاية التعدي، لأنه ما كفاهم أن كذبوا عليه وألزموه بأن يكذب حتى ألزموه عقابا على ذنب لم يجنه)[1].

وقد انتشرت بين بني إسرائيل عادة الزواج من بنات العم وذلك بعد أن استقروا في بعض أجزاء فلسطين. ويبدو أن تأثير البيئة الجديدة كان واضحا في عدد من العادات والتقاليد اليهودية.

وقد ظهر في سفر التثنية تحريم الزواج من زوجة الأب والعمة والخالة والحماة والبهيمة تقول التوراة: (ملعون من يضطجع مع امرأة أبيه لأنه يكشف

---

(1) السموأل بن يحيى المغربي. غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود مخطوط ص 68.

ذيل أبيه ويقول جميع الشعب آمين. ملعون من يضطجع مع بهيمة ما. ويقول جميع الشعب آمين. ملعون من يضطجع مع أخته بنت أبيه أو بنت أمه ويقول الشعب آمين. ملعون من يضطجع مع حماته ويقول جميع الشعب آمين) التثنية 20: 27 ـ 23.

وقد اتسع نطاق الحظر بعد العودة اليهودية من السبي البابلي فحرم على كافة الرجال اليهود الزواج بالأجنبيات (غير اليهوديات)(حتى لا يختلط الزرع المقدس بالشعوب النجسة) على حد قول التوراة. ويقال إن عزرا أمر اليهود بالتخلص من الزوجات الغريبات واستصدر أمرا من ملك الفرس أصبغ على التشريع صفة الإلزام. واستخدم القوة في هدم الزيجات المختلطة القائمة. وشتت الأسر بالعنف وشرد الأطفال الأبرياء[1] وتم ذلك باسم الدين لاستئصال الرجس من بني إسرائيل كما تقول التوراة.

وتطور مفهوم الخطبة قبل الزواج فأصبحت خطوة أولى نحو الارتباط النهائي فإذا عاشرت رجلا آخر عوملت معاملة الزانية ورجمت بالحجارة حتى الموت إلا أن يكون الزنى حدث في الحقل لا في المدينة فيفترض أن الفتاة صرخت لتنجو لكن أحدا لم ينقذها. وقد ورد ذلك في سفر التثنية الإصحاح 23: 22 ـ 27.

وبدأ تأثير الكهنة يتغلغل في شؤون الزواج خاصة بعد عصر السبي حيث انتظم رجال الدين في سلك رئاسي. وتحولت اليهودية إلى مجتمع ثيوقراطي. فأمسى الزواج رابطة مقدسة إذ أن الله شاهد بين الرجل والمرأة.

جاء في التوراة: (فقلتم لماذا. من أجل أن الرب هو الشاهد بينك وبين امرأة شبابك التي أنت غدرت بها وهي قرينتك وامرأة عهدك) ملاخي 14: 2.

---

(1) ماكس فيبر في مقالاته عن سوسيولوجيا الأديان ج 3ص 366 نقل عن كتاب نظام الأسرة لثروت أنيس الأسيوطي ص181.

ولا تزال عند اليهود آثار لنظام الزواج بالخطف فالمرأة المسبية يأخذها اليهودي إلى بيته ويمهلها شهراً تبكي أباها وأمها ثم يدخل بها وإلا يسرحها ويمتنع عليه أن يبيعها أو يسترقها.

جاء في سفر التثنية: (إذا خرجت لمحاربة أعدائك ودفعهم الرب إلهك إلى يدك لك وسبيت منهم سبياً. ورأيت في السبي امرأة جميلة الصورة والتصقت بها واتخذتها زوجة فحين تدخلها إلى بيتك تحلق رأسها وتقلم أظافرها وتنزع ثياب سبيها عنها وتقعد في بيتك تبكي أباها وأمها شهراً من الزمان ثم بعد ذلك تدخل عليها وتتزوج بها فتكون لك زوجة وإن لم تسرّ بها فأطلقها لنفسها لا تبعها بيعا بفضة ولا تسترقها من أجل أنك قد أذللتها) تثنية 10 : 21 ـ 14.

التشريع اليهودي والطلاق

بعد تدوين سفر التثنية وتحريره في أواخر القرن السابع ق.م. ظهرت قوانين كثيرة للطلاق. بعد أن كانت في المراحل السابقة تكتنفها الفوضى وعدم التقنين في أغلب الأحيان.

وقد ظل الطلاق بيد الرجل في جميع المراحل باعتباره السيد في هذا الشأن. وتحت تأثير الأنبياء في مرحلة السبي أدخلت قيود على الطلاق وردت جميعها في سفر التثنية فالتزم الرجل أولا بتحرير ما يسمى (كتاب الطلاق) وتسليمه إلى المرأة.

تقول التوراة: (إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته. ومتى خرجت من بيته وذهبت وصارت لرجل آخر فإن أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب الطلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته أو إذا مات الرجل الأخير الذي اتخذها له زوجة لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن

يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست لأن ذلك رجس لدى الرب)تثنية 24: 1 ـ 4.

وهذا القانون تخالفه الشريعة الإسلامية لأن الزوج الأول يستطيع استعادة زوجته المطلقة والتي تزوجت من غيره إذا طلقت في المرة الثانية. ويعقد عليها عقدا جديدا وبمهر جديد. وكل ذلك للحفاظ على كرامة المرأة والحفاظ عليها من الضياع والانحراف أو العوز.

وقد حرم الرجل من حق الطلاق نهائيا في حالتين:

1ـ إذا ادعى الرجل أن زوجته ليست بكرا أخذ أبوها وأمها علامة بكارتها وبسطا الثوب أمام شيوخ المدينة. وتولى هؤلاء تأديب الزوج وتغريمه مائة من الفضة تعطى لوالد الفتاة باعتبار الزوج قد أشاع اسماً ردياً عن عذراء من (إسرائيل) فتكون له زوجة ويمتنع أن يطلقها كل أيامه. وقد جاء ذلك في سفر التثنية 22: 13 ـ 19.

2ـ إذا كانت الفتاة عذراء وعاشرها الرجل قبل الزواج يلتزم بأن يسلم أباها خمسين من الفضة وأن يتزوجها وألا يطلقها كل أيامه. التثنية 22: 28ـ 29.

ويقرّ أنبياء التوراة بأن الطلاق مكروه عند الله.

جاء في التوراة: (فاحذروا لروحكم ولا يغدر أحد بامرأة شبابه لأنه يكره الطلاق قال الرب إله اسرائيل)ملاخي 2: 15ـ 16

وكان لأسلوب النظر إلى المرأة اليهودية عند اليهود أثره الفاحش والسلبي على العلاقات بين الرجل وزوجته.فللرجل مطلق الحرية في أن يطلق متى يشاء ولا يصح للمرأة الطلاق إلا في حالات نادرة.

وإذا لم يكتب الزوج كتاب الطلاق تبقى المرأة على ذمته ولو هاجر إلى مكان بعيد وغاب مدة طويلة. وقد نشأ بسبب ذلك وجود آلاف النساء اللواتي لا يعتبرن مطلقات ولا متزوجات. وإنما معلقات. ويطلق على المرأة من هذا القبيل(العاغوناه) أي المرأة المربوطة. فلا يمكن لهذه المرأة أن تتزوج شرعا لأن زوجها لا يعطيها كتاب طلاق يطلق عليه(غت) بالعبرية. أو لأنه اختفى عنها ولا يعرف مصيره، أحي أم ميت.ويشمل هذا المصطلح المرأة الذي توفي زوجها ويرفض شقيقه أن يسمح لها بالزواج وقد أشرنا إلى ذلك في صفحات سابقة.

وتنص الشريعة اليهودية على أن الزواج لا يفسخ إلا بالطلاق أو بموت أحد الزوجين وهذا الطلاق لا يمكن أن يفرضه الحاخام أو المحكمة الدينية. وإنما يحصل فقط بإعطاء الزوج لزوجته كتاب الطلاق باختياره. ولذلك فإن رفض الزوج إعطاء كتاب الطلاق أو اختفاء الزوج من دون دليل عليه، يجعل الطلاق غير ممكن من وجهة النظر اليهودية التلمودية. ومن جانب آخر فإن الزوج لا يتأثر إذا رفضت الزوجة تسلم كتاب الطلاق أو اختفت ولا يعلم مصيرها. إذ أن الزوج في مثل هذه الحالة الأخيرة يمكنه الزواج مرة أخرى تحت شروط معينة. وهذه المشكلة ليست جديدة عند اليهود وإنما هي مشكلة تاريخية قديمة، تشتد حدتها وتخف تبعا للظروف كما في ظروف الحرب أو الكوارث أو غير ذلك.

وتعتبر مشكلة المرأة العاغوناه من أشد المشاكل تعقيدا في الفقه اليهودي وأكثرها بحثا ومناقشة عند الفقهاء اليهود.

وكان الحاخامون في القديم لم يجيزوا لليهودي أن يسافر من دون أن يعطي موافقته على طلاق مشروط خلال فترة معينة. وفي العصور الوسطى حيث كثر الأزواج حين يسافرون بحثا عن الرزق ولا يرجعون، قرر الحاخامون أن لا يزيد غياب الزوج عن اثني عشر شهراً وأن يبقى مع زوجته عند رجوعه فترة

لاتقل عن ستة أشهر قبل أن يسافر مرة أخرى. وطبقوا أيضا ما كان يطبقه الحاخامون القدماء بأن كانوا يطلبون من الزوج أن يعطي كتاب الطلاق بشروط. وفي العصر الحاضر تطلب رئاسة الحاخامية من الجنود الاسرائليين الذين يذهبون إلى الحرب أن يتركوا كتاب الطلاق مشروطاً عند المحكمة الدينية.

وتعتبر مشكلة العاغوناه في الوقت الراهن من المشاكل التي يعاني منها المجتمع النسوي اليهودي خصوصا في أمريكا والكيان الصهيوني. وتقدر منظمات الدفاع عن العاغوناه بأن عدد النساء اللائي يعانين من هذه المشكلة في فلسطين المحتلة مثلا هو عشرة آلاف امرأة ومثل هذا العدد يوجد كذلك في ولاية نيويورك وحدها. وأن العدد في ازدياد خصوصا في الكيان الصهيوني. لأن المذهب الأرثوذكسي هو المسيطر على المؤسسة الدينية فيها ويتشدد هذا المذهب في مسألة العاغوناه على العكس من المذاهب اليهودية الأخرى الجديدة التي تنهج منهجا مخففا في معالجة هذه المشكلة وإيجاد حلول لها[1].

ولو نظرنا إلى الشريعة الإسلامية وجدنا أن القرآن الكريم شرّع في مسائل الزواج والطلاق تشريعات لم يرق إليها أي تشريع وضعي. وقد حفظ حق المرأة والرجل على السواء مراعيا كافة الظروف النفسية والمادية والاجتماعية والدينية، فالغاية من الزواج الستر ودرء المخاطر وإنجاب الأطفال وإنشاء أسرة مسلمة واعية ففي الشريعة منع من الاستفادة من مهر الفتاة فقال: (وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا) النساء الآية 20.

وكما سمح للرجل أن يطلق امرأته لأسباب منطقية فقد سمح للزوجة أن تطلق الرجل لأسباب منطقية. ولكن من الناحية المبدئية لا يبيح الإسلام حل عقدة الزواج بالطلاق أو التفريق إلا بشروط محددة. وعند الضرورة القصوى لأنه يريد للحياة الزوجية أن تظل متوازنة مستقرة ولا سيما بعد إنجاب الأطفال.

---

(1) جعفر هادي حسن المرأة العاغوناه معلقة لا هي متزوجة ولا مطلقة. صحيفة الحياة 1993/5/31.

لقد أقرت السنة الشريفة أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (تزوجوا ولا تطلقوا فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات) أما ما يقال عن تعدد الزوجات فقد أقرت الشريعة الإسلامية أن الأصل في الزواج هو بواحدة وهناك أدلة واضحة في القرآن الكريم.

يقول تعالى :(فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) النساء الآية 3.

ويقول تعالى (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) النساء الآية 128. وقد سار على هذا الأصل الغالبية العظمى من المسلمين. والعقيدة اليهودية كما رأينا ترى المرأة كأي سلعة يرثها شقيق زوجها المتوفى بينما في الإسلام لا يحق أن تكره المرأة على الزواج بل هي تختار من تريد أو ترفض من لا تريد.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تنكح البكر حتى تستأذن ولا الثيب حتى تستأمر» أخرجه البخاري ومسلم.

وقالوا وما إذنها قال عليه الصلاة والسلام صماتها ـ سكوتها.

وفي سورة النساء قوانين وتشريعات حول المرأة لا تترك كبيرة أو صغيرة إلا وتحددها وتصفها وتضع حلولاً لها بشكل واضح لا لبس فيه.

يقول تعالى: (وأتوا النساء نحلة صدقاتهن فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) النساء 4.

ويقول تعالى: للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً) النساء 7.

ويقول تعالى: (يا أيُّها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن

بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) النساء 19.

ويقول تعالى ناهيا عن هجر الزوجة والبعد عنها لتصبح معلقة لا مطلقة ولا متزوجة، يقول تعالى: (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً) النساء 129.

وقد ترك التشريع الإسلامي مدة زمنية للتفكير في الطلاق. فلا يجوز الطلاق أو ينفذ إلا بعد انقضاء فترة زمنية طويلة يعيد كل من الرجل والمرأة فيها حساباتهما وعلى الأغلب يعودان لبعضهما لأنهما الأولى ببعضهما.

يقول تعالى: (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤوا فإن الله غفور رحيم. وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم. والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم) البقرة 226 - 228.

ويقول تعالى: الطلاق مرّتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما أتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) البقرة 229.

هذا وقد طور التلمود مفاهيم كثيرة في قضية المرأة والزواج وقنن بعض الأحوال الإجتماعية وفرضها على أتباع العقيدة اليهودية.

وفي بعض القوانين شايَعَ التلمود التوراة وفي بعضها طوّر قوانــين فظــهرت وكأنها من باب الاجتهاد والتفسير الخاص.

فرأى أن الزواج فرض ديني لا يجوز لأحد أن يتخلى عنه. وافترض سفر التثنية أن كل يهودي ينشئ بيتاً. وكان الامتنــاع عمـداً عـن الإنجـاب خطيئـة كبرى عقابها إلهي يصل إلى حد الموت.

ويرى التلمـود أن بيـت كـل رجـل امرأتـه. ولكـن التلمـود رأى أن علـى اليهودي أن ينجب ولدين لا أكثر. ولم يلق التلمود على عاتق كل يهودي سوى واجب الإنسال بما لا يقل عن ولدين على أن يكونا صبيين طبقا لمدرسة (شماع) قياسا على ما فعل النبي موسى الذي أنجب جرشوم واليعازر. أو صبيا وصبيـة وفقا لمدرسة (هلال) تطبيقا لما جاء في التوراة من أن الله خلق الناس ذكراً وأنثى.

كذلك تنص مجموعة (حاي بن شمعون) الموضوعة في مصر عام 1912 على أن الزواج فرض على كل إسرائيلي.

وينصح التلمود الرجال بالتريث في اختيار الزوجة وبالنزول درجـة حتـى لا تعامله العروس وأهلـها باحتقـار. وبرؤيـة المـرأة قبـل الارتبـاط بـها حتـى لا يكتشف فيما بعد ما ينفره منــها[1]. كمـا يدعـو التلمـود إلى تناسـب السـن بـين الطرفين. فلا تقترن عجوز بشاب صغير ولا يتزوج شيخ فتاة شابة[2].

وجاء في مجموعة حاي بن شمعون أن عقد الرجل على الزوجة مـن غـير أن يراها مكروه، كذلك زواج الشـيخ بصبيـة وزواج المـرأة العجـوز بصـبي زواج مكروه.

---

(1) آ. كوهين. تلمود أورشليم باب يباموت 6 فقرة 6 نص من المشنا وتعليق الجمارا مجلد 4 قسم 2 ص 92.

(2) تلمود أورشليم باب بياموت الفصل 6 الفقرة 6 نص المشنا وتعليق الجمارا مجلد 4 قسم 2 ص 175

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشريعة الإسلامية ومن خلال سنّة الرسول صلى الله عليه وسلم حضت على رؤية الشاب للفتاة التي يريدها زوجة وكذلك حضت على رؤية الفتاة للرجل الذي يتقدم لها.

و قد حدد التلموديون سن زواج الشاب بثمانية عشرة عاماً ولكن أجازوا الزواج في سن الثالثة عشرة للشاب والثانية عشرة للفتاة.

و يقتصر التلمود الزواج على أربع نساء ولكن بعض الربانيين تركوا العدد بلا حدود. أما اليهود الأشكنازيم فقد حرّموا في القرون الوسطى تعدد الزوجات. لكن هذا التحريم لم يمتد إلى اليهود الشرقيين (السفارديم).

الفصل الخامس

العقوبات بين التشريع التوراتي والتشريع القرآني

العقوبات في التشريع اليهودي واسعة ومتعددة. فكما تطورت كتابة التوراة حتى بلغت ذروتها في السبي البابلي، فقد تطورت العقوبات أيضا. فما دوّن في التوراة من عقوبات لم يبق على حاله وإنما أوجد الحاخامون ورجال الدين اليهود عدة تشريعات وقوانين تنظم العقوبات تنظيما واسعا.

لكن الذي يلفت النظر في التشريعات اليهودية المتعلقة بالعقوبات أن تلك التفسيرات التي أوجدها كتبة التلمود تأخذ منحى مغايراً لما كانت عليه التشريعات أيام النبي موسى عليه السلام وأيام التسلل العبراني لأرض فلسطين حتى أواخر أيام النبي سليمان عليه السلام.

وحين دوّنت التوراة في السبي البابلي كان بنو إسرائيل قد هضموا تراث الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها وخاصة البابليين الذين عرفوا القوانين والعقوبات منذ وضع حمورابي تشريعه المسمى باسمه. وبالمقارنة بين ما جاء في هذه التشريعات والتشريعات التوراتية يرى المرء أن اليهود استفادوا جداً منها حتى أنها تتطابق أحيانا معها.

لقد مر بنو إسرائيل في تقلبات عدة تاريخية وبيئية وجغرافية. فكانوا في الأساس رعاة متنقلين. ولعلهم أوجدوا بعض القوانين والعقوبات التي تناسب مرحلتهم تلك. ومع البدء بالتسرب إلى فلسطين ومن ثم قيام مملكة بقيادة داود عليه السلام جعلهم ينظمون عقوبات وتشريعات تتناسب مع واقعهم الجديد. وكذا في كل مراحل حياتهم بعد السبي ثم في عصر البطالسة اليونان والرومان إلى وقتنا الحاضر. لقد كانت بيئتهم غير المستقرة في الصحراء تفرض عليهم عقوبات

تتناسب مع قسوة الصحراء وشظف العيش .فكانت العقوبات نفسها قاسية وخشنة. وكذلك الأمر فيما بعد فقد لاحظنا من خلال أسفار التوراة التخفيف من العقوبات فأصبحت أكثر ليونة وقابلة للتفسير ومن ثم التخفيف وإيجاد المخارج الكهنوتية لها.

وقد أوجدت طبقة الكهنة نفسها في موقع الحاكم والقاضي. ولكنها وبسبب من النظرة إلى المصالح المادية والكسب، مالت إلى تمييع النصوص المرتبطة بالعقوبات وإيجاد مبررات لتبرئة المذنب إذا دفع ما يرضي الكهنة ويُسكتهم. وسيعاقب إن لم يكن لديه ما يقدمه لهم. وهذا ما جاء عليه القرآن الكريم حين وصفهم بأنهم لا يحكمون بما أنزل الله بل يحكمون حسب أهوائهم ومصالحهم الشخصية النفعية. ولعل أخطر ما في هذه الانحرافات ما جاء به التلموديون الذين جعلوا لكل شيء وجهين، وجها ظاهرا ووجها باطناً يريدون من ورائهما إخفاء الحقائق وتزويرها فاعتبروا أن كل عقوبة جاءت في التشريع اليهودي يجب أن تطبق على وجهين، الوجه الأول ينطبق على أعضاء العقيدة اليهودية، والوجه الثاني ينطبق على أبناء بقية الأمم الذين يطلقون عليهم (الغوييم) أي الغرباء. أو يطلقون على ما عدا اليهود الوثنيين. وقد حفلت تعاليم التلمود بكل القوانين والعقوبات التي تفسر تفسيرين.

وقد أوضح القرآن الكريم أن أتباع اليهودية حرفوا الكثير من التوراة الحقيقية، وحرفوا بالعقوبات بل وحَرَفوها عن مسارها الصحيح الذي طالبهم الله بالسير على نهجه فيها واتباع تعاليمه.

فقد نرى أحيانا كثيرة مادة شرعية من مواد العقوبات تطبق على اليهودي ولا تطبق على غيره، والعكس صحيح أيضا فقد نجد مادة تطبق على غير اليهودي ولا تطبق على اليهودي. وتشمل هذه العقوبات عقوبة القتل والزنا

والسرقة والاغتصاب. وكثيرا من العقوبات الأخرى التي نص عليها كتاب التوراة وطبقها التلمود وزاد عليها.

ولو نظرنا إلى واقع التجمع اليهودي في فلسطين لرأينا آلاف الحالات التي تظهر تطبيق وجهين للقوانين والتشريعات والعقوبات، ولرأينا التفرقة العنصرية بشكل مكشوف وكل ذلك يأتي من خلال طبيعة العقيدة المتحولة والمنحرفة تماما عما أقره الله في توراة موسى عليه السلام.

أما العقوبات التي سنتها التوراة المدونة والتلمود فهي كثيرة يصعب حصرها. وهي نابعة من مقتضى الحال ومجريات الحدث ونوعية الأشخاص الذين ارتكبوا الخطأ أو الجريمة فيه.

ويمكن لنا أن نرى من هذه العقوبات أهمها، كعقوبة القتل، والسرقة والزنا، وعق الوالدين، والاعتداء على الممتلكات. والاتهام الكاذب. وعقوبة السحر وقد ورد أيضا في هذه العقوبات حكم السن بالسن والعين بالعين وعقوبة قتل الحيوان، وعقوبة الحيوان نفسه، واتهام الفتاة بالفحشاء. وقبل أن نستعرض العقوبات في التشريع اليهودي تجدر الإشارة إلى أن كثيرا من القوانين تتقاطع مع تشريعات الشعوب العربية القديمة التي عايشها اليهود وخاصة البابليين.

ومن خلال تشريع حمورابي نرى كثيرا من التشابه والتطابق أحيانا وأحيانا قليلة نرى التناقض والاختلاف.

1 ـ عقوبة القتل

ويعتبر أكثر الباحثين التقليد القديم الذي ينطوي على العين بالعين والسن بالسن القاعدة الأساسية التي تقوم عليها الشريعة البابلية وهم يردونه إلى حمورابي المشرع الأول له. ولكن يجدر بنا أن نلاحظ أن اليهود عندما سبوا إلى

بابل قد حملوا معهم تشريعات وعقوبات فرضت عليهم وحفظوها. فقد يكون البابليون استفادوا منها، وهذا احتمال قائم أيضاً.

على أية حال فإن شريعة حمورابي تقول: (إذا فقأ سيد عين أحد الأشراف فعليهم أن يفقأوا عين ذلك السيد. وإذا كسر سيد عظم سيد آخر فعليهم أن يكسروا عظمه. وإذا قلع سيد سن سيد من طبقته فعليهم أن يقلعوا سنه. وإذا بنى بنّاء لسيد بيتاً ولم يكن شغله متيناً بحيث انهار ذلك البيت الذي بناه وقتل صاحب البيت فيجب قتل ذلك البناء وإن قتل ابن صاحب البيت فعليهم أن يقتلوا ابن ذلك البناء.

و قد ورد في التوراة أيضاً هذا المبدأ وطبقته في أماكن متعددة من شريعتها فحسب شريعة التوراة (وإن حصلت أذية تعطي نفساً بنفس وعيناً بعين وسناً بسن ورجلاً برجل وكياً بكي وجرحاً بجرح ورضاً برض) خروج 25: 12ـ 23 وإذا أمات أحد إنسانا فإنه يقتل. ومن أمات بهيمة يعوض عنها نفساً بنفس وإن أحدث إنسانٌ في قريبه عيباً فكما فعل يفعل به. كسر بكسر وعين بعين وسن بسن كما أحدث عيباً في الإنسان كذلك يحدث فيه. ومن قتل بهيمة يعوّض عنها ومن قتل إنسانا يقتل) لاويين 24: 17ـ 21.

وقد أورد القرآن الكريم ما نصه: (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون) المائدة الآية 32. وقد ورد أيضا في القرآن الكريم ما نصه: (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) المائدة ـ 45.

يتضح من نص الآية أن الله سبحانه فرض عليهم هذه التشريعات في التوراة. وهذا يؤكد أن توراة موسى عليه السلام حوت هذه العقوبات. وموسى عليه السلام سبق تاريخياً حمورابي وتشريعات البابليين بأكثر من سبعمائة سنة. وهذا يدل على أن تشريعات حمورابي قد استفادت مما أنزل على موسى وحفظه الكهنة والربانيون وإذا كان اليهود لم يطبقوا هذه القوانين التي فرضها الله عليهم فهذا ليس يعني أنها لم تنزل في توراة موسى وهذا لا يعني أيضاً أنهم اقتبسوها من حمورابي وتشريعاته فالنص القرآني يعلم النبي محمد صلى الله عليه وسلم كيف كان حال بني إسرائيل وما فرض الله عليهم وكيف أنهم حرفوا التوراة ولم يقيموها ولم يطبقوا ما فيها.

وقد فصلت أسفار موسى كثيرا من القوانين المتعلقة بالقتل وعقوبته. وتناولت عقوبة القتل عمدا، وعقوبة القتل خطأ. وعقوبة الحيوان الذي يقتل إنسانا تقول التوراة: (من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا. ولكن الذي لم يتعمد بل أوقع الله في يده فأنا أجعل لك مكانا يهرب إليه) خروج 21: 12ـ 14.

(وإذا بغى إنسان على صاحبه ليقتله بغدر فمن عند مذبحي تأخذه للموت) خروج 21 ـ 15. وإذا تخاصم رجلان فضرب أحدهما الآخر بحجر أو بلكمة ولم يقتل بل سقط في الفراش فإن قام وتمشى خارجا على عكازه يكون الضارب بريئا إلا أنه يعوض عطلته وينفق على شفائه) خروج 21: 18.

(وإذا ضرب إنسان عبده أو أمته بالعصا فمات تحت يده ينتقم منه لكن إن بقي يوما أو يومين لا ينتقم منه لأنه ماله) خروج 21، 20 ـ 22.

(إذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه وأما صاحب الثور فيكون بريئا. ولكن إن كان ثورا نطاحا من قبل وقد أشهد على صاحبه ولم يربطه فقتل رجلا أو امرأة فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل. إن وضعت عليه فدية يدفع فداء نفسه كل ما يوضع عليه. وإذا نطح ابنا أو ابنة

فحسب هذا الحكم يفعل به. وإن نطح الثور عبداً أو أمة يعطي سيده ثلاثين شاقل فضة والثور يرجم). خروج 21: 28ـ 33. وتفصل التوراة في جريمة القتل بلا عمد وذلك في سفر التثنية حيث تقول: (و هذا هو حكم القاتل الذي يهرب إلى هناك فيحيا. من ضرب صاحبه بغير علم وهو غير مبغض له منذ أمس وما قبله. ومن ذهب مع صاحبه في الوعر ليحتطب حطباً فاندفعت يده بالفأس ليقطع الحطب وأفلت الحديد من الخشب وأصاب صاحبه فمات فهو يهرب إلى إحدى تلك المدن فيحيا لئلا يسعى ولي الدم وراء القاتل حين يحمي قلبه ويدركه إذا طال الطريق ويقتله. وليس عليه حكم الموت لأنه غير مبغض له منذ أمس وما قبله) تثنية 19: 4ـ 7.

(ولكن إذا كان إنسان مبغضاً لصاحبه فكمن له وقام عليه وضربه ضربة قاتلة فمات ثم هرب إلى إحدى تلك المدن يرسل شيوخ مدينته ويأخذونه من هناك ويدفعونه إلى يد ولي الدم فيموت لا تشفق عينك عليه فتنزع دم البريء من إسرائيل فيكون لك خير) تثنية 19: 11ـ 13.

كما جاء في وصية النبي موسى عليه السلام لا تقتل فقد نهى التشريع الإسلامي عن القتل نهياً قاطعاً. وقد جعل التشريع عقوبتين للقاتل عمداً، عقوبة دنيوية وعقوبة من الله سبحانه وتعالى وهي عذاب جهنم وغضب من الله ولعنة. يقول الله تعالى: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً) النساء الآية 2.

ويقول تعالى: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلك وصاكم به لعلكم تعقلون) الإنعام 151.

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس وابن المنذر عن كعب قال: أول

ما نزل من التوراة عشر آيات وهي العشر التي أنزلت من آخر الأنعام (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم إلى آخرهما[1].

وأخرج أبو الشيخ عن عبيد الله بن عبد الله بن عدي بن الخيار قال: سمع كعب رجلاً يقرأ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً فقال كعب: والذي نفس كعب بيده إنها لأول آية في التوراة باسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم إلى آخر الآيات[2].

ويقول تعالى: ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا. الإسراء 33.

و كذلك جاء في سورة الفرقان: (ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق) الفرقان 68. وقد جعل الله تعالى جناية قتل النفس بعد الشرك وقرنه به حتى تدرك النفوس فظاعة هذه الجريمة وعظم خطرها وشدة عقابها يوم القيامة، فقال تعالى: (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهانا) الفرقان الآية 69.

قال تعالى: (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً. ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً) النساء 29 ـ 30.

وعقوبة القاتل في الدنيا تسليط أهل المقتول عليه. فهم مخيرون بين أن يقتلوا أو يعفوا أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثاً. ثلاثون حقة. وثلاثون جذعة وأربعون خلفة)[3].

---

(1) السيوطي الدر المنثور في التفسير المأثور ص 103ـ الجزء 3.

(2) السيوطي الدر المنثور في التفسير المأثور ص 103 الجزء الأول .

(3) الجزيري. الفقه على المذاهب الأربعة ص 253 الجزء الخامس كتاب الحدود.

وقد شرّع الإسلام وجوب القصاص من القاتل بنفس فعلته إلا إذا عفا عنه أهل القتيل فعندها يفرض عليه دفع الدية المشار إليها. والقاتل الذي يقتص منه يجب أن يكون عاقلاً فلا قصاص على المجنون. وأن يكـون بالغاً فـلا قصاص على صبي. وأن يكون مختاراً فلا قصاص على مجبر وأن يكون مباشراً للقتل فلا قصاص على من قتل من غير مباشرة الفعل.

فالقصاص يسقط بالعفو أو الصلح بخلاف الحد فإنه لا يسقط بالعفو لأنـه حق الله تعالى. وفي شريعة التوراة يوجب القصاص والحد فـلا ديـة في التشـريع اليهودي وفي المسيحية فرضت الدية دون القصاص والحد. فجاء الإسلام ليخـير بين العفو والقصاص والحد. وقد حضّ الله سبحانه على العفو حقناً للدماء فقال تعالى: (فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنـه لا يحـب الظـالمين.) الشـورى 40. وقد أختلف الحكم على القاتل فيما بين التشريع التوراتي والتشريع الإسـلامي. فكما رأينا في التشريع التوراتي أنه إذا قتل سيد عبده لا يقتل. بينما في التشريع الإسلامي قاعدة تستند إلى آيات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تقـول إن دماء المسلمين سواء فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول: (من قتل عبـده قتلنـاه ومن جدع عبده جدعناه) رواه أحمد والأربعة وحسنه الترمذي. فلا فرق بين حر وعبد إذ يقول تعالى: (وكتبنـا عليـهم فيـها أن النفـس بـالنفس). وقـد أجـازت التوراة هروب القاتل بغير عمد إلى بلـد آخـر واكتفـت بذلـك بينمـا في التشـريع الإسلامي فقد أقر مبدأ القتل الخطأ بتحرير رقبة. وإن لم يجد القاتل ما يقدمـه فيصوم شهرين متتابعين وذلك يستند على قوله تعالى: (ومـن قتـل مؤمنـا خطـأ فتحرير رقبة وديّة مسلّمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فديّـة مسـلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما) النساء الآيـة 93. وكمـا فصلـت التـوراة في عقوبـات الأضـرار فكذلك فصلت تشريعات القرآن في ذلك وكان الواضح بين التشريعين الاختـلاف

في الغاية من العقوبة والقصاص. وكذلك الاختلاف في الرابط بين العقوبة الدنيوية والأخروية. وقد ترك التشريع الإسلامي هامشاً واسعاً للعفو لأن غاية الله سبحانه إحياء النفوس وليس قتلها. وزرع في النفوس الغايات الحميدة في الدنيا والآخرة. فالقصاص ليس حكما لمجرد القصاص إنما بينه الله سبحانه أن القصاص يوجب الحياة. لأنه في ردع المجرم حياة للناس وأمان لهم.

وقد نهى الإسلام عن قتل الأولاد بسبب الفقر أو خشية الفقر. فيقول تعالى: (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) الأنعام 115. ويقول تعالى: (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا) الإسراء 13. ويحرّم قتل الأولاد حتى لو كانوا أجنة أو كانوا صغارا أو كباراً بنات أو أولاداً.

وحين نقابل العقوبات بشأن الحيوان القاتل بين التشريع اليهودي والتشريع الإسلامي نرى اختلافاً واضحاً ففي التشريع اليهودي إذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه بينما في الشريعة الإسلامية لم يحرم لحم الثور النطاح لقوله تعالى: (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) المائدة 4. فلا يشمل التحريم الثور النطّاح. ولكن حسب القانون التشريعي الإسلامي فإن الرجل الذي تضرر قُتل أو جُرح أو خرب له شيء فإنه يعوَّض له عما ارتُكب بحقه. ويعوِّض عليه صاحب الحيوان. وهذا يتم لدى القضاء الإسلامي ولو أخذنا المسألة من باب التحليل العقلي لوجدنا أن عقوبة القتل أو الرجم الواجبة في التشريع اليهودي على الثور هي عقوبة على غير عاقل. وقد حدد الشرع الإسلامي أن القاتل لو كان مجنونا أو صبيا لا يجوز إقامة الحد عليه وذلك لعدم وجود العقل الذي يميز. فإذا كان الأمر كذلك فالأولى أن لا يعاقب الحيوان. لأن الحيوان غير عاقل. ولا يحاسب محاسبة الإنسان العاقل. ثم ما الداعي لتحريم أكل لحمه طالما أنه غير نجس وغير محرم في الأساس.

2 ــ عقوبة الزنا والاغتصاب

تعتبر جريمة الزنا والاغتصاب من أشهر الجرائم التي يعاقب عليها القانون الشرعي في كثير من التشريعات القديمة والتشريعات الدينية.

وقد وجدنا أن تشريع حمورابي قد اهتم بهذا الجانب وأفرد له عقوبات من ضمن العقوبات التي أقرها حول الجرائم الاجتماعية وغيرها.

وقد جاء في تشريع حمورابي (لا تتزوج بغيا إنها لا تنتشلك من ورطتك. ففي خصامك تتبذأ عليك إذ ليس لها حياء ولا طاعة. وعليك إن هي استولت على البيت أن تسرحّها. إن فكرها مع الغريب. البيت الذي تدخله تخربه وزوجها لا يتوفق[1] وتنهى تشريعات بابل عن الزنا بقولها لا تزن ولا تشته امرأة قريبك وحكم الزنا عند البابليين هو القتل إما بالحرق أو بالرجم أو بالإغراق بالماء وفي بعض الأحيان بالنفي.

وحسب شريعة حمورابي (إذا قبض على امرأة سيد مضطجعة مع سيد آخر فيجب عليهم أن يوثقوهما ويلقوهما في الماء "في النهر" ويمكن لزوج المرأة أن يبقي زوجه على قيد الحياة كما يمكن للملك أن يخلي أمته. وإذا اختار سيد عروساً لابنه ودخل ابنه عليها ولكن إذا دخل إلى حجرها بعد أن ينام ابنه ويقبضون عليه فعليهم أن يوثقوا ذلك الرجل وأن يلقوا به في الماء (النهر). وإذا قبض على سيد مضطجعا في حجر زوج أبيه (زوجة الأب غير الأم) فيجب طرده من بيت أبيه. وإذا نام سيد في حجر أمه بعد والده (أي بعد وفاة والده) فعليهم أن يحرقوهما كليهما. وإذا جامع رجل ابنته فعليهم أن يطردوا ذلك السيد من المدينة)[2].

---

(1) د. احمد سوسة. العرب واليهود في التاريخ 446.

(2) احمد سوسه. العرب واليهود في التاريخ ص 483.

وحسب نص التوراة (إذا وجد رجل مضطجعا مع امرأة متزوجة يقتل الإثنان الرجل المضطجع مع المرأة، والمرأة) التثنيه 22: 22.

(وإذا اضطجع رجل مع كنته فإنهما يقتلان كلاهما فقد فعلا فاحشة دمهما عليهما) ولا تدنس ابنتك بتعريضها للزنا) لاويين 31:19.

(وإذا زنى رجل بعذراء لم تخطب فإنه يتزوجها ولا يقام عليهما الحد ولا يطلقها إلى الأبد). ففي سفر الخروج: (وإذا راود رجل عذراء لم تخطب فاضطجع معها يمهرها لنفسه زوجة فإن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر العذارى) خروج 22: 16 ـ 17. (فإن كانت العذراء مخطوبة وزنى بها غير خطيبها في المدينة فإنها ترجم بالحجارة حتى تموت ويرجم الزاني أيضا).

(وإن كانت العذراء الحرة مخطوبة وزنى بها غير خطيبها في الحقل لا ترجم العذراء وإنما يرجم الزاني وحده).

(وإذا اضطجع رجل مع امرأة اضطجاع زرع وهي أمة مخطوبة لرجل ولم تفد فداء ولا أعطيت حريتها فليكن تأديب لا يقتلا لأنها لم تعتق) لاويين 19ـ 20.

(وإذا اتخذ رجل امرأة وأمها فذلك رذيلة، بالنار يحرقونه وأياهما لكي لا يكون رذيلة بينكم) لاويين 20: 14.

(وإذا زنى رجل بامرأة متزوجة يقتل الإثنان معا).

(وإذا اتخذ رجل امرأة وحين دخل عليها لم يجد عذرة وثبت يقينا أنه لا عذرة لها ترجم بالحجارة حتى تموت).

وإذا خطب رجل عذراء وزنى بها غيره قبل أن يجتمع بها فإنها تقتل لأنه لم يُزل هو بكارتها. وتُحرق إن كانت من الهارونيين (الكهنة) تقول التوراة (وإذا تدنست إبنة كاهن بالزنا فقد دنست أباها بالنار تحرق) لاويين 7: 21ـ 9.

أمـا في التشـريع الإسـلامي فمـن المسـلمين مـن اتجـه إلى حرفيـة النـص القرآني. فعقوبة الزنا على رأي من يأخذ في هذا الحكم بـالقرآن وحـده، يُجلـد الزاني مائة جلدة وتجلد الزانية مائة جلـدة إذا شـهد شـهود أربعـة مـن خيـار المسلمين عدول. سواء كان الزاني متزوجا أو غير متزوج. وسـواء كـانت الزانيـة متزوجة أم غير متزوجة وذلك حسب قوله تعالى: (الزانية والزاني فاجلدوا كـل واحد منهما مائة جلدة) النور آية 2 والألف واللام للعموم.

أما ما قاله تعالى في حق الإماء: (فإذا أحصن فإن أتين بفاحشـة فعليـهن نصف ما على المحصنات من العذاب) النساء 25 والحد الـذي يقبـل التنصيـف هو الجلد. إذ لا نصف في الرجم لأنه لا نصف في الموت.

و يقول تعالى: (واللاتي يأتين الفاحشة مـن نسـائكم فاستشـهدوا عليـهن أربعة منكم فإن شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا) النساء 1. و الإمساك في البيوت بعد إقامة الحد. يدل على أن الحد هو الجلد لأن الرجم بعد الموت القبر. إن الله تعالى ذكر حكم القذف وهو الجلـد ثمانون جلدة ولو كان الرجم مشروعاً لكان أولى بالرجل لأنه إزهـاق روح. وعلـى من يأخذ بالأحاديث النبويـة غـير المفسرة للقـرآن مـع القـرآن. يرجـم المـتزوج والمتزوجة إذا كانت الزوجية قائمة. فإذا كان متزوجاً ثم طلق وزنى ولبثت عنده زوجة فإنه يأخذ حكم غير المحصن لأن وصـف الإحصـان منتـفٍ عنـه في هـذه الحالة.

و قد شملت عقوبة الرجم أو القتل في التشريع التوراتـي اليهوديـة وغـير اليهودية وقد ورد في التوراة أن رجلاً مـن بـني إسـرائيل وجـد مـع امـرأة غـير إسرائيلية وقد زنا بها فأتي بهما وطعنا حتى ماتا. ولكن التلموديين أباحوا الزنا مع غير بنات ونساء قومهم وهذا مما حرفـوه مـن شـريعة النـبي موسـى عليـه السلام وقد أقرت التوراة أيضاً أن حكم اللواط مثل حكم الزنا. وكذلك حكم من

زنا بحيوان تقول التوراة (وإذا جعل رجل مضجعة مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة يميتونها وإذا اقتربت امرأة من بهيمة لتزانها "سفاحها" تميت المرأة والبهيمة إنهما يقتلان دمهما عليهما) لاويين 20: 15ـ 16 وتقول التوراة: وإذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعل كلاهما رجساً إنهما يقتلان دمهما عليهما. لاويين 20: 13.

و قد حرم الإسلام اللواط أيضاً واعتبره الأئمة على جميع المذاهب فاحشة بل إنه أفحش من جريمة الزنا. ومن أصحاب المذاهب من أقر الرجم على من يفعل اللواط وحدّه كحد الزنا. لأن اللائط والملوط به داخلان تحت عموم الأدلة الواردة في الزاني المحصن والبكر الزاني.

وقياساً على ما فعله الله سبحانه بقوم لوط لأنهم أتوا فاحشة ما أتى بها غيرهم فقد أقر صحابة رسول الله أن الذي يفعل فاحشة اللواط يقتل بالسيف ثم يحرق[1].

واتفق الأئمة على حرمة إتيان البهيمة ولكنهم اختلفوا في حدها فبعضهم قال لا حد في هذه الفاحشة لأنه لم يرد ذلك في القرآن الكريم والسنة. ولكن يجب التعزيز بما يراه الحاكم من الحبس أو الضرب أو التوبيخ أو غير ذلك مما يكون زاجراً له ولغيره عن ارتكابه.

والحكم على البهيمة التي يزني بها الرجل هو قتلها وحرقها. وذلك قطعاً للإشاعات وسترا للفضيحة. وبعض الفقهاء حللوا أكل لحم البهيمة إن كانت ممن يؤكل لحمها وبعضهم حرمها وفرض حرقها بعد قتلها. وتتفق أحكام التوراة مع أحكام القرآن الكريم في ذلك إلا أنهما يختلفان في الحكم على من أتى بهيمة. فالتوراة تقر قتله. بينما التشريع الإسلامي يقر حبسه وتعزيره.

---

(1) الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة المجلد(5) كتاب الحدود ص: 141.

تعطي التوراة فرصة للفتاة العذراء التي وجدت في الحقل مع رجل يمارس معها الزنا بحيث تنقذ من القتل لأنه حسب التوراة ربما صرخت ولم يسمع أحد فيكون العقاب على الرجل وحده.

تقول التوراة: (ولكن إن وجد الرجل الفتاة المخطوبة في الحقل وأمسكها الرجل واضطجع معها يموت الرجل الذي اضطجع معها وحده وأما الفتاة فلا يفعل بها شيئاً ليس على الفتاة خطية للموت بل كما يقوم رجل على صاحبه فيقتله قتلاً هكذا هذا الأمر إنه في الحقل وجدها فصرخت الفتاة المخطوبة فلم يكن من يخلصها) تثنية 22: 25 ـ 27.

(وإذا اغتصب رجل فتاة عذراء فإنه يتزوجها ويدفع مهرها ولا يستطيع أن يطلقها طول حياته).

تقول التوراة: (إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة فأمسكها واضطجع معها فوُجدا يعطي الرجل الذي اضطجع معها لأبي الفتاة خمسين من الفضة وتكون هي له زوجة من أجل أنه قد أذلها. لا يقدر أن يطلقها كل أيامه) تثنية: 22: 28 ـ 29.

3 ـ عقوبة القذف:

حرمت العقيدة التوراتية القذف واتهام المرأة بالفحشاء زوراً وقد حددت عقوبة كبيرة على كل من يقذف امرأة أو فتاة بالفحشاء.

تقول التوراة: (إذا اتخذ رجل امرأة وحين دخل عليها أبغضها ونسب إليها أسباب كلام وأشاع عنها اسماً ردياً وقال هذه المرأة اتخذتها ولما دنوت منها لم أجد لها عذرة (لم أجدها بكراً) يأخذ الفتاة أبوها وأمها يخرجان علامة عذرتها إلى شيوخ المدينة إلى الباب ويقول أبو الفتاة للشيوخ أعطيت هذا الرجل ابنتي زوجة فأبغضها وها هو قد جعل أسباب كلام قائلاً لم أجد لبنتك عذرة

وهذه علامة عذرة ابنتي ويبسطان الثوب أمام شيوخ المدينة فيأخذ شيوخ تلك المدينة الرجل ويؤدبونه ويغرمونه بمائة من الفضة. ويعطونها لأبي الفتاة لأنه أشاع اسماً ردياً عن عذراء من إسرائيل فتكون له زوجة ولا يقدر أن يطلقها كل أيامه) تثنية 22: 13ـ 19.

أما في الشريعة الإسلامية فقد بين القرآن الكريم حد القذف بقوله تعالى: (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون) سورة النور الآية 4.

ولأهمية خطر القذف وما يلحقه بأعراض المسلمين من تشنيع وكذب وبهتان فقد أنزل الله سبحانه عشرين آية من سورة النور تتناوله. وقد اهتم الشارع بحد القذف أعظم اهتمام فأنزل في حد السرقة آية واحدة وفي حد الزنا آيتين وفي حد قطاع الطرق آية أما حد القذف فقد أنزل فيه اثنتين ثم أتبعه بنوع آخر منه وهو اللعان فأنزل فيه خمس آيات ثم أردفه بذكر حديث الإفك فأنزل فيه تسع آيات ثم أتبع ذلك كله فأنزل أربع آيات في النهي عن قذف المحصنات.

وعقوبة القذف كما بينها الشرع. الجلد ثمانين جلدة وردّ الشهادة طول حياته. ويصبح من أهل الفسوق والإجرام وأصحاب الكبائر. ويكون عند الله من الكاذبين. وهو ملعون في الدنيا ملعون في الآخرة. وله عذاب كبير عند الله. وتشهد عليه جوارحه زيادة في الخزي والعار. ثم يحاسبه الله على قدر فعلته في الآخرة.

وقد شهدت قوانين حمورابي البابلية شيئاً من حد القذف حيث يعاقب من يتهم امرأة بالفحشاء عقاباً شديداً قد يصل إلى القتل.

4 ـ عقوبة السرقة والنهب

وقد وردت عقوبات للسارق في الأسفار الأربعة اللاويين والخروج والعدد والتثنية. وقد نهت شريعة التوراة عن السرقة وحددت عقوبات على السارق في جميع أحواله.

وقد ورد في شريعة حمورابي نهي عن السرقة تكاد تتطابق مع ما جاء في التوراة. ففي التشريع البابلي (لا تجعل نفسك تغويك لارتكاب سرقة ما). وقد ورد في التوراة ضمن الوصايا العشر لا تسرق. وقد تصل بعض العقوبات على السرقة في شريعة البابليين إلى حد القتل ولكن التوراة حددت عقوبات أخف وتعويضا عما سرق.

فحسب شريعة حمورابي (إذا سرق شخص ثوراً أو شاة أو حماراً أو خنزيراً أو قارباً للإله أو القصر فإنه يعوض بثلاثين مثله أما إذا كان المسروق يعود إلى مسكين فإنه يعوضه بعشرة أمثال وإن لم يكن لديه التعويض الكافي فإنه يقتل بجنايته. وإذا قام سيد بالسرقة وقبض عليه أثناءها فإنه يقتل بجنايته. وإذا قام سيد بالسرقة وقبض عليه أثناءها فإنه يقتل، وكذلك إذا سرق سيد ثروة وتعود للإله أو القصر فإنه يعدم. وكذلك يعدم من يتقبل المسروقات من يده. وتخفف عقوبة القتل إذا كان المسروق زرعا أو أكلا. إذا استأجر سيد سيداً وعيّنه على حقله وسلمه الأكل والبقر وتعهد بزرع الحقل فإذا سرق هذا السيد الزرع والأكل ومسكت في يده فإن يده تقطع)[1]. وحسب شريعة التوراة: (إذا سرق إنسان ثوراً أو شاةً فذبحه أو باعه يعوض عن الثور بخمسة ثيران وعن الشاة بأربعة من الغنم. وإن وجد السارق وهو ينقب فضرب ومات فليس له دم ولكن إذا أشرقت عليه الشمس فله دم إنه يعوض وإن لم يكن له بيع بسرقته إن

(1) د. احمد سوسه. العرب واليهود في التاريخ ص 485.

وجدت السرقة في يده حية ثوراً كان أو حماراً أو شاة يعوض باثنتين) خروج 1: 4 ـ 22.

وتقول التوراة: (إذا أعطى إنسان صاحبه فضة أو أمتعة للحفظ فسرقت من بيت الإنسان فإذا وجد السارق يعوض باثنين وإذا لم يوجد السارق يقدم صاحب البيت دعواه إلى الله ليحكم هل مد يده إلى ملك صاحبه في كل دعوى جناية من جهة ثور أو حمار أو شاة أو ثوب أو مفقود ما يقال إن هذا هو. تقدم إلى الله دعواهما فالذي يحكم الله بذنبه يعوض صاحبه باثنين) خروج 9: 7 ـ 22.

فنلاحظ من خلال النصوص التوراتية التركيز على مبدأ التعويض المضاعف دون وجود عقوبة جسدية كقطع اليد أو القتل أو السجن.

وقد بين الشرع الإسلامي حد السرقة بقوله تعالى: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم) المائدة الآية 37. وقد كان قطع اليد معمولاً به في الجاهلية ولما جاء الإسلام زاد على الحد الدية والقسامة.

وقد حدد الشرع الإسلامي أوصاف السارق حتى يقام عليه الحد.

وأما ما يعتبر في السارق فخمسة أوصاف. البلوغ فلا يقطع الصبي إذا سرق لأنه غير مكلف في نظر الشريعة.

العقل: فلا يقطع المجنون لأن القلم مرفوع عنه حتى يفيق.

أن يكون غير مالك للمسروق منه فلا يقطع الأب إذا سرق من مال ولده ولا الولد إن سرق من مال أبيه.

وإن لا يكون له عليه ولاية فلا يقطع العبد إن سرق من مال سيده وكذلك السيد إن أخذ من مال عبده.

وأن لا يكـون محـارب في دار الحـرب وأن يكـون مختـاراً غـير مكـره كالمجاهد إن سرق من مال الغنيمة.

وحدد الشرع الإسلامي مادة السرقة ومقدارها. وهي النصـاب. وأن يكـون المسروق مما يتمول فلا يقطع من سرق الخمر والخنزير وآلات اللهو والطرب وأن لا يكون للسارق ملك كمن سرق ما رهنه أو ما أستأجره. كالذي يسرق من المغنم أو من بيت المال[1].

وقد ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يقطع يـد سـارق في سـنة العسرة والسبب أن مجاعة حلت بالناس فاضطر أحد النـاس أن يسـرق بسـبب المجاعة فلم يقم عليه الحد لأن الدافع هـو الحفـاظ علـى قـوت الحيـاة وليـس طمعاً.

ويقام الحد على السارق إذا شهد عليه اثنان عـدلان. أو إذا اعـترف هـو بالسرقة ولا يجوز سرقة الذمي ولا سرقة الذمي مـن مسـلم. والمعاملـة في الحكـم سواء بسواء. فالإنسان الذي يعيش في الدولة الإسلامية يجب الحفاظ على مالـه ونفسه مهما كان دينه ومعتقده.

5 ـ عقوق الوالدين:

أقرت الشريعة التوراتية بر الوالدين في كثير من المواقع. وحـددت عقوبـة القتل لمن يعق والديه.

جاء في التوراة: (من ضرب أباه أو أمه يقتل قتلاً. كل إنسان سب أباه أو أمه فإنه يقتل) (قد سب أباه أو أمه دمـه عليـه) خـروج 21: 15ـ 17 تثنيـة 9: 20.

---

(1) الجزيري. الفقه على المذاهب الأربعة المجلدة كتاب الحدود 157.

وتشدد التوراة في عقوبة الابن المعاند إلى درجة الموت بواسطة الرجم (إذا كان لرجل ابن معاند ومارد لا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه ويؤدبانه فلا يسمع لهما يمسكه أبوه وأمه ويأتيان به إلى شيوخ مدينته وإلى باب مكانه ويقولان لشيوخ مدينته ابننا هذا معاند ومارد ولا يسمع لقولنا وهو مسرف سكير فيرجمه رجال مدينته بحجارة حتى يموت) تثنية 21: 18 ـ 21.

وقد حثَّ الإسلام على بر الوالدين وشدَّد على إكرامهما. يقول تعالى: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر إحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب أرحمهما كما ربياني صغيرا) الإسراء 23 ـ 24.

وإذا عقّ الرجل أباه أو أمه فعلى الحاكم أو القاضي أن يعزره. وهناك أحاديث نبوية كثيرة تبين حقوق الوالدين وخاصة إكرام الأم التي حملت به تعباً على تعب فالجنة تحت أقدام الأمهات. والأم أحق بالصحبة ثلاث مرات أكثر من الأب حسب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

6 ـ حكم قتل الساحر والساحرة:

حرم السحر في التوراة وقد جاء فيها (والنفس التي تلتفت إلى الجان وإلى التوابع لتزنيٍ وراءهم اجعل وجهي ضد تلك النفس واقطعها من شعبها) لا 20: 6 وجاء أيضاً (لا تدع ساحرة تعيش) خروج 22ـ 18.

وقد اعتبر القرآن الكريم السحرة من الكفار لقوله تعالى: (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) البقرة 102.

ويقول تعالى: (ولا يفلح الساحر حيث أتى) طه 69.

وقد حكم الفقهاء على الساحر إن هو ضر الناس وشتم الله والقرآن كحكمهم على الكافر فيقتل حسب الحنابلة وإن تاب عن فعله لا يقتل. وحسب

الشافعية لا يقتل الساحر ولا يكفر إلا إذا اعتقد إباحته. والمالكية قالوا الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب وقال الحنفية بقتله ويقوم بالقتل الحاكم[1].

ومن الأحكام التي اهتمت بها التوراة حكم الشاهد واليمين.

ففي سفر التثنية (على فم شاهدين أو ثلاثة شهود يقتل الذي يقتل ولا يقتل على فم شاهد واحد. أيدي الشهود تكون عليه أولا لقتله. ثم أيدي جميع الشعب أخيرا فتنزع الشر من وسطك) تثنية 6:7 ـ 7.

وفي القرآن الكريم (واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا) البقرة 282

وفي الأحاديث النبوية حديث نصه (شاهداك أو يمينه) وهو موافق للقرآن الكريم في الإشهاد وحديث نصه (قضى بيمين وشاهد). وأبو حنيفة وأصحابه لم يروا اليمين مع الشاهد وقالوا إن الله سبحانه وتعالى قسم الشهادة وعددها ولم يذكر الشاهد واليمين فلا يجوز القضاء به لأنه يكون قسما زائدا على ما قسمه الله. وهذه زيادة على النص، وذلك نسخ وممن قال بهذا القول الثوري والأوزاعي وعطاء والحكم بن عيينه وطائفة[2].

ومن الأحكام أيضا حكم القسامة: وقد جاء في سفر التثنية (إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعا في الحقل لا يعلم من قتله يخرج شيوخك ويقيسون إلى المدينة التي حول القتيل. فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تجر بالنير، وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع

---

(1) الفقه على المذاهب الأربعة. الجزيري الجزء (5) كتاب الحدود ص 462 ـ 463.

(2) أحمد حجازي السقا. نقد التوراة صفحة 276.

ويكسرون عنق العجلة في الوادي ثم يتقدم الكهنة بنو لاوي لأنه إياهم اختار الرب إلهك ليخدموه ويباركوا باسم الرب وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة. ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق في الوادي ويصرحون ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر. أغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم بريء في وسط شعبك إسرائيل فيغفر لهم الدم. فتنزع الدم البريء من وسطك إذا عملت الصالح في عيني الرب) تثنية 21: 1 ـ 9.

واعتقد أنهم بكسرهم رقبة العجلة أي قتلها (دون ذبح) هو إثم آخر يرتكبونه بحق حيوان. وليس ذلك مبرراً لهذا العمل. ويمكن اللجوء إلى أساليب أخرى لحل هذه المشكلة.

أما في الشريعة الإسلامية فالمفروض إن يحلف المدعى عليه يميناً على أن القاتل فلان. وهو يحلف لأنه لم يقدر على الإثبات بالشهود. فهذا رأي وهناك رأي آخر يقول إنه لا بد من الإثبات بالشهود والأيمان خمسين مرة لا تحل محل الشهود وعليه فلا قسامة في الإسلام لقوله صلى الله عليه وسلم البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، ومنهم من يعتبر البينة ملزمة للمدعي. وليس على المنكر يمين في أية حال. لأن المدعي هو المطالب بإثبات الدعوى...

الفصل السادس

اليهودي من الداخل

لكل عقيدة أو ديانة قوانين اجتماعية واقتصادية ودينية تحكم العلاقة بين الإنسان ومعبوده وبين الإنسان والإنسان.

وفي اليهودية أوجدت التوراة كثيراً من التعاليم والقوانين الحياتية التي تنظم تلك العلاقة. وهي بشكل أو بآخر تنطلق من مفهوم ديني حياتي لمفهومي الخير والشر والقيم الحياتية.

ومن الطبيعي أن أول ما تنطلق به هذه القوانين هو حصرها باتباع العقيدة اليهودية ومن ثم تنتقل إلى الخارج ـ إذا افترضنا هناك داخلاً يهودياً ـ لتنظيم شؤون الحياة والتعامل. إن كان ذلك في أزمنة السلم والتعامل البشري الحياتي. أو كان في زمن الحرب والصراع.

ولهذا ارتأينا أن يكرس هذا الفصل للنظر من داخل العقيدة اليهودية ، كيف تنظم التعامل بين المنتسبين إليها. كيف تنظر إلى الرجل والمرأة؟ ما هي القيم الدينية والحياتية التي فرضت على الأتباع اليهود ثم كيف طورت كتب هذه العقيدة نظرتها لطبيعة التعامل الحياتي بين اليهود أنفسهم؟.

ولعل من أكثر الأمور التي يتوقف عندها الإنسان التناقض بين التعاليم التي فرضتها التوراة وبين الممارسات الواقعية على الأرض. فوصية لا تقتل تصبح على أرض الواقع أقتل وهذا بالطبع ليس المقصود به حاليا القتل تجاه غير اليهود إنما اقتل على أرض الواقع اليهودي. فاليهودي لا يتورع عن قتل ابن عقيدته إن كان قتلا فرديا أو كان قتلا جماعيا من خلال الحرب والصراع الدامي. ووصية لا تزن ترفض كليا لأن الواقع الذي عاشه اليهود يقول بأنهم

طبقوا العكس تماماً. وعاشوا على حالات شنيعة من الاغتصاب المستمر منذ عصر التوراة وحتى اليوم.

وقِسْ على ذلك كافة القضايا والتعاليم التي فرضتها التوراة ولم تجد صداها لدى أتباعها من اليهود.

ومما زاد في الأمور تعقيداً ظهور تفسيرات التلمود التي عمل فيها أحبار اليهود كل جهودهم ليحرفوا البقية الباقية من التعاليم الصالحة التي جاء بها موسى عليه السلام. فيفسرونها التفسيرات الخاصة جدا ويؤولونها التأويلات الباطلة بكل ما تعني الكلمة من معنى. وهذا ما أتاح لأتباع اليهودية أن يتحللوا من كل القيم والمثل التي تحكم علاقتهم بالآخرين. ولعل عودة سريعة لما طرأ على اليهودية من تغيرات تدلنا بشكل قاطع على أن كافة التعاليم الحميدة التي نطق بها موسى عليه السلام رفضت ومورس عكسها على أرض الواقع .وهذا نفسه يدلل على أن كهنة اليهود لعبوا لعبتهم العنصرية المخيفة والمدمرة في شرخ الإنسان اليهودي من داخله. وجعله نهما لأفكار عنصرية شوفينية معقدة لا يحترم فيها ابن دينه ولا يحترم فيها أية قيم إنسانية على الإطلاق. وعندما وصف القرآن الكريم اليهود بأوصاف الإجرام واللاإنسانية فضح نفسيتهم من الداخل. فهم إذ قتلوا بعض الأنبياء من أبناء جلدتهم ودينهم قتلا جسديا. فقد قتلوا موسى وداود وسليمان والياس قتلا دينيا عقيديا وقيميا. وليس أدل على ذلك من تلفيقهم الكذب والبهتان على هؤلاء الأنبياء واتهام بعضهم بالزنا والقتل والاغتصاب وسفك دماء الأبرياء والإتجار بالنساء من بنات وأرامل وزوجات. ولقد طبعت نفوسهم بطبع غريب عجيب لم يطبع بشر بمثل ما طبعوا به فكانوا العنصر العالمي الشاذ في طبعه. الشاذ في خلقه. الشاذ في سلوكه وإلا لما أسهب القرآن الكريم وتوسع في التركيز على فضحهم في أكثر سوره وآياته.

فهم قتلة الأنبياء. وهم يقتلون بعضهم. وهم لا يعترفون بيهودية بعضهم

ويفرقون بين الشرقي والغربي. بين الأسود والأبيض. بين العربي وغيره، ويكفرون بعضهم بل يستحلون دماء بعضهم في عصر يسعى بشره المخلصون للإنسانية، للتخلص من رواسب العنصرية والقتل والاضطهاد. وإن كانت التوراة قد حددت معالم الحرية والعبودية بين اليهود فان أتباع اليهودية على مر التاريخ لم يتورعوا في نشر الاستعباد والاسترقاق بين بعضهم. وإن اتخذ الاسترقاق أشكالا جديدة معاصرة لكل زمن.

لقد أباح الحاخامون التلموديون البغاء حتى أصبحت أكبر نسبة من البغايا في العالم من أتباع اليهودية. بل إن الحاخامات اليهود في أمريكا قاموا بمظاهرات حاشدة طالبوا فيها بحرية ممارسة البغاء واللواط والزواج غير الشرعي وغير التقليدي. بل إن الحاخامين قاموا بأعمال مسّفة جداً وخاصة عندما قام بعضهم باغتصاب بناته اللواتي من لحمه ودمه وصلبه. إن دراسة الواقع اليهودي من داخله يعود بنا إلى الجذور. إلى التوراة وتناقضاتها، إلى التلمود وتفسيراته العنصرية المدمرة.

1 ـ تعاليم التوراة في النهي والأمر

من الطبيعي أن العقيدة اليهودية تسن قوانين تشريعية تحدد لأتباعها ما هو مسموح به وما هو غير مسموح. ومن هذه القوانين ما له علاقة بمفهومي الحلال والحرام.

فعلى المستوى النظري الذي وجد في التوراة نجد كثيراً من المحرمات ترتبط بأوامر إلهية وكذلك من المحللات. وتقترب في كثيرٍ من جوانبها بما نزل في القرآن الكريم.

وعلى المستوى النظري نفسه نجد تشريعات توراتية لها طابع أخلاقي، فهي ترتبط بقضايا تشريعية ولكنها تتجه نحو تقنين السلوك البشري وتوجيهه وجهة أخلاقية معينة.

والواقع أن المستوى النظري ليس بالضرورة هو ما طبقه بنو إسرائيل واليهود. فالتنظير شيء والتطبيق شيء آخر. وما عرف عن بني إسرائيل أنهم منذ عهدهم بالعقيدة عاشوا في إطارين: إطار نظري بقي كلاماً وتوجيهات وإطار تطبيقي كشف عن سلوكيات منحرفة مستمرة لم تنقطع من حياة أتباع اليهودية طوال تاريخها.

أما في التوراة فقد جاءت التعاليم على الشكل التالي :

1ـ تقول التوراة: (لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا. لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلاً) خروج 7:20.

وهذا يعني أن لا يقسم الإنسان بربه أنه فعل كذا أو رأى كذا وهو كاذب القول وقوله باطل.

يقول تعالى: (ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون. أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون. اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين) سورة المجادلة الآيات 14ـ 16.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تحذر من الحلف بالله على الباطل.

فالذين يحنفون الأيمان يجعلونها وقاية لأنفسهم ولأموالهم سترة من القتل فهم يقسمون بالله كذباً. وقد وصفهم الله سبحانه بالنفاق. وهددهم بالعذاب الشديد

2 ـ وجاء في التوراة: (لا تشهد على قريبك شهادة زور) خروج 20: 16.

والمفترض أن لا تكون شهادة الزور على القريب فحسب لأن شهادة الزور على الإطلاق عمل يخالف تشريع الله ويخالف الأخلاق الإنسانية.

وقد نهى القرآن الكريم عن قول الزور قطعاً فقال تعالى: (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) الحج 30.

ويعتبر قول الزور من أكبر الكبائر حيث قرنه القرآن الكريم بالشرك وذلك من خلال الآية السابقة.

3 ـ وتقول التوراة: (لا تشتهي بيت قريبك) خروج 20: 17.

وقد نهى الإسلام عن الحسد والأنانية في آيات قرآنية كثيرة وحض على العفة والعفاف وعدم الطمع وحب الاستحواذ على مال الآخرين وممتلكاتهم مهما كانت عقائدهم.

يقول تعالى في الإحسان: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم أن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) النساء 36.

ويقول تعالى في التحذير من التمني ما للغير:

ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما) النساء 31.

4 ـ وتقول التوراة: (لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيء مما لقريبك) خروج 20: 17.

وحض الإسلام على الأمانة وعدم الخيانة وحض على حفظ حقوق الرحم وذي القربى والجار وقد أوردنا بعض ما يدل على ذلك في كتاب الله الكريم.

5 ـ وجاء في التوراة: (ولا تضطهد الغريب ولا تضايقه) خروج 22: 21.

وهذا ما أتى عليه القرآن الكريم بشكل واسع. وسماه ابن السبيل وحض على إكرامه وصرف الصدقات له ولغيره من الفقراء والمساكين.

6 ـ وتقول التوراة: (لا تسئ إلى أرملة ولا يتيم) خروج 22: 22.

ويقول تعالى: (وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين) البقرة 83. وقد نزلت آيات عدة في الحفاظ على اليتيم وماله والإحسان له وعدم ظلمه وكذلك الأرملة التي شملها صنف ذي القربى أو الأرحام والمساكين. وقد جاء في السنة الشريفة الكثير من الحض على إكرام اليتيم والأرملة وغيرهما.

7 ـ وتقول التوراة: لا تقبل خبرا كاذبا ولا تضع يدك مع المنافق لتكون شاهد ظلم. ولا تتبع الكثيرين لفعل الشر.) خروج 23: 1ـ 2.

وقد جاء في القرآن الكريم: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) الحجرات 6.

وقد شددت الآيات القرآنية الكريمة على موالاة المؤمنين وعدم موالاة الكافرين والمنافقين. وحذرت كذلك من المنافقين تحذيراً شديدا.

يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) المتحنة 13.

ويقول تعالى: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) الكهف 28.

8 ـ وجاء في التوراة: (إذا صادفت ثور عدوك أو حماره شارداً ترده إليه. إذا رأيت حمار مبغضك واقعاً تحت حمله وعدلت عن حله فلا بد أن تحل معه. لا تحرف حق فقيرك في دعواه. ابتعد عن كلام الكذب. ولا تقتل البريء والبار لأنني لا أبرر المذنب. ولا تأخذ رشوة لأن الرشوة تعمي المبصرين وتعوّج كلام الأبرار. ولا تضايق الغريب فإنكم عارفون نفس الغريب) خروج 23: 4ـ 9.

ويمكن أن نلخص ما جاء في هذه الفقرة الأخيرة بالأوامر التالية:

1ـ عليك بالأمانة مع كل الناس يهودا أو غير يهود. وهذا ما حرفه بنو إسرائيل.
2ـ لا تظلم الفقير لأنه فقير.
3ـ لا تقتل البار والبريء من الناس بمعنى لا تظلم
4ـ لا تكذب
5ـ ابتعد عن الرشوة.
6ـ احسن إلى الغريب.

فهذه التعاليم التي نادى بها موسى عليه السلام هي تعاليم إيجابية إنسانية وهي لا تختلف مع ما أمر الله به في القرآن الكريم ولكننا سنرى كيفْ حرف معاني هذه الكلمات أحبار اليهود وحاخاماتهم وكيف أوّلوها لتصبح محصورة باليهود وحدهم.

9 ـ وقد جاء في الإصحاح 18 من سفر اللاويين نهي من موسى عليه السلام عن النظر إلى عورة الأم والأخت وبقية المحارم من رجال ونساء. وهذا ما نجده فى قوله تعالى: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم

ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون. وقـل للمؤمنـات يغضضـن مـن أبصارهن ويحفظن فروجهن) النور 30ـ 31.

10 ـ وتقول التوراة وعندما تحصدون حصيد أرضكم لا تكمل زوايـا حقلـك في الحصـاد ولُقـاط حصيـدك لا تلتقـط . وكرمـك لا تعللـه. ونثـار كرمـك لا تلتقط. للمسكين والغريب تتركه أنا الرب إلهك) لاويين 19.

وهذا ما جاء عليه القرآن الكريم في عدة آيات كريمة.

يقول تعالى: (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً). النساء 8.

ويقول تعالى: (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيراً) الدهر 8.

ويقول تعالى: (ويسألونك ماذا ينفقون قل مـا أنفقتـم مـن خـير فللوالديـن والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله بـه عليم) البقرة 215.

11 ـ وتقول التوراة: (لا تشتم الأصم وقدام الأعمى لا تجعـل معـثرة) لاويـين 14 : 19.

وجاء في القرآن الكريم: (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم) الحجرات 11.

12 ـ وتقول التوراة: (لا تغضـب قريبـك ولا تسـلب. ولا تُبـت أجـرة أجـير عندك إلى الغد) لاويين 19 : 13.

ويقول تعالى: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) النساء 57.

13 ـ وتقول التوراة: لا ترتكبوا جورا في القضاء. لا تأخذوا بوجه مسـكين ولا تحترم وجه كبير بالعدل تحكم قريبك) لاويين 15 : 19.

وجاء في القرآن الكريم: يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلوُا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) النساء 134.

14ـ وتقول التوراة لا تسع في الوشاية بين شعبك) لاويين 19: 16.

(لا تبغض أخاك في قلبك إنذارا تنذر صاحبك ولا تحمل لأجله خطية. لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك بل تحب قريبك كنفسك) لاويين 19: 17ـ 18.

ويقول تعالى في القرآن الكريم: (ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) القصص 77.

ويقول تعالى: (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) الأعراف 55.

ويقول تعالى: (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة إدفع بالتي هي أحسن) فصلت 34.

ويقول تعالى: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) الحشر 9.

وجاء في التوراة في النهي عن السحر والعيافة (لا تتفاءلوا ولا تعيفوا) لاويين 19: 26.

(لا تجرحوا أجسادكم لميت. وكتابة وسم لا تجعلوا فيكم) لاويين 28: 19.

(لا تلتفتوا إلى الجان ولا تطلبوا التوابع فتتنجسوا بهم) لاويين 19: 31.

ويقول تعالى: (وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) الجن 6.

ويقول تعالى: (ومن يكن الشيطان له قرينا فقد ساء قرينا) النساء 37.

ويقول تعالى: (ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) البقرة 168.

وقد أمر الله سبحانه عدم الاستعانة إلا به. والاستعانة بالجن أو العرافة إشراك بالله .

وتقول التوراة: (لا ترتكبوا جورا في القضاء ولا في القياس ولا في الوزن ولا في الكيل) لاويين 35:19.

ويقول تعالى: (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) الأنعام 152.

ويقول تعالى: (فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم) الأعراف 84

ويقول تعالى: (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) الرحمن 8.

وقد حرمت التوراة الخمر ونهت عنه وقد جاء ذلك على لسان النبي موسى عليه السلام كما أوردته التوراة.

تقول التوراة: وكلم الرب هارون قائلا (خمراً ومسكراً لا تشرب) أنت وبنوك معك عند دخولكم إلى خيمة الاجتماع لكي لا تموتوا فرضا وهربا في أجيالكم) لاويين 1: 8 ـ 9.

وجاء أيضا: (وكلم الرب موسى قائلا كلم بني إسرائيل وقل لهم إذا انغرز رجل أو امرأة لينذر نذر النذير لينتذر للرب فعن الخمر والمسكر يغترز ولا يشرب خل الخمر ولا خل المسكر. ولا يشرب نقيع العنب ولا يأكل عنبا رطبا ولا يابسا كل أيام نذره لا يأكل من كل ما يعمل من جفنة الخمر من العجم حتى القشر) العدد: 6ـ 1وما بعدها.

وجاء أيضا (الخمر مستهزئة. المسكر عجاج ومن يترنح بها فليس بحكيم) أمثال 20: 1.

وفي سفر القضاة: (والآن فلا تشرب خمراً ولا مسكراً) قضاة 13ـ 4، 13ـ 7.

وهناك أمثال في التوراة كثيرة تشير بوضوح إلى تحريم الخمر في شريعة بني إسرائيل فقد جاءت هذه الأمثال في سفر حبقوق وفي الأمثال وفي أشعيا وسفر القضاة.

وجاءت بعض النصوص التوراتية تبيح شرب الخمر. ولا ندري سبب هذا التناقض سوى أن كتبة التوراة أرادوا أن ينسخوا التحريم حسب رغباتهم وأهوائهم.

2 ـ حقوق الإنسان في التشريع اليهودي

اشتملت العقيدة اليهودية كما رأينا على حقوق وواجبات خاصة بأتباعها. ومن الحقوق ما نطقت به التوراة ونسخها التلمود. ولكن هذه الحقوق وهذه الواجبات ظلت في المستوى النظري أمرا مقدسا. على الرغم من أن اليهودية العلمانية لم تطبقها في حالات كثيرة، ووجدت لها تفسيرات وتأويلات تتناسب مع تطور العصور وتطور المفهوم المدني للإنسان وللتجمعات البشرية.

ولما كان اتباع اليهودية ينتمون لعدة عروق ولعدة اتجاهات دينية ولعدة فرق ومذاهب فان الأفكار اليهودية حول الحقوق والواجبات اختلفت من فرقة لأخرى ومن عرق لآخر.

فما يراه التلموديون في تحديد هوية اليهودي لا يراه القراؤون. بل إن القرائين والتلموديين يتهمون بعضهم بالكفر والخروج عن اليهودية. وبعض تشريعات التلموديين تصدر قوانين تعامل القرائين كأقلية مثلهم مثل المسيحيين أو المسلمين.

ومع ظهور عدد من الحركات اليهودية المعاصرة اختلفت الأفكار والتصورات حول العلاقة بين اليهودي واليهودي. وتراكمت الأحكام والقوانين حتى باتت كل فرقة أو حركة جديدة تؤسس لأفكار جديدة وتفسيرات خاصة لا تتوافق مع كثير من التفسيرات والأفكار التي عليها باقي الفرق.

ومن الاختلافات تفسير التوراة تفسيراً حرفياً وتفسيراً مجازياً وهذا ما جعل كثيراً من النصوص التوراتية تخضع للتفسيرات المختلفة والمتناقضة أحياناً وقد أقرت الشريعة اليهودية كثيراً من القوانين التي تسلب الإنسان حقه. وتقر الاسترقاق والعبودية، وكثير من هذه القوانين ارتبطت بالمرأة أيضا.

وبسبب من انحراف الحاخامين انتشرت بين اليهود ظاهرة الاغتصاب والإجهاض والدعارة وانتشر اللقطاء وبات من الواضح أن ما جاءت به التوراة من توصيات ضرب بها عرض الحائط وأصبح رأي الحاخامات هو المعول عليه فاختلط الحابل بالنابل حتى بات الفكر الديني اليهودي من أشد الأفكار غرابةً وتناقضاً وسقوطاً.

لقد أشرنا من قبل إلى أن الشريعة الموسوية أمرت الأتباع بعدم القتل وبعدم الزنا وبعدم السرقة وأشرنا إلى العقوبات التي فرضها على من يخالف ذلك ولكن التوراة نفسها تتحدث وبشكل مسهب عن نقض لكل التشريعات والوصايا فالقتل يصبح شائعا بشكليه الجماعي والفردي. فيقتل أفراد أو قادة ويقتل أنبياء وتستخدم طرق الاغتيال المتنوعة لتصفية الآخرين. والمرأة التي حاولت بعض التشريعات أن تحد من قمعها تعود للقمع والقتل والاضطهاد والاغتصاب. وقس على ذلك في كافة الأمور التي تحكم طبيعة العلاقة بين اليهودي وبين اليهودي.

لقد تميز اليهود عبر التاريخ بالإرهاب والعنف. ولكن هذا العنف لم يكن يتجه إلى الخارج فحسب. بل هناك عنف يتوجه للداخل بمعنى أنه يتوجه من

قبل اليهودي نحو اليهودي .وتنسف كل المقولات الصالحة لا تقتل لا تعتد الخ.

3 ـ شريعة القتل في الواقع التوراتي

لن نتعرض في هذه السطور لأحداث القتل التي جرت زمن موسى عليه السلام باعتبارها كانت حسب ما نصت عليه التوراة عقوبات لمن خالف الشريعة وخرج عليها.

فالقتل الفردي يحدث كثيراً في التوراة ولكن سفر القضاة وصموئيل والملوك تشير إلى مئات الحالات التي تتعرض لقتل اليهودي لليهودي دون أي رادع تشريعي أو أخلاقي.

جاء في سفر يشوع: (فأخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع إسرائيل معه وصعدوا بهم إلى وادي عخور فقال يشوع كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة) يشوع 7: 24ـ 25. فبسبب سرقة هذا الرجل قتل رجماً وحرقاً هو وأولاده وبناته وكل حميره وبقره وكل ممتلكاته. فهذا القانون الذي طبقه يشوع قانون مجحف وإجرامي بحق الأولاد والبنات لأن ليس لهم ذنب فيما اقترفه أبوهم.

أما سفر القضاة وفي الإصحاح العشرين فيجري القتل على قدم وساق بين بني إسرائيل وسبط بنيامين.

تقول التوراة: (فخرج بنو بنيامين من جبعة وأهلكوا من إسرائيل في ذلك اليوم إثنين وعشرين ألف رجل إلى الأرض) قضاة 20ـ 21.

وتقول: (فخرج بنو بنيامين للقائهم من جبعة في اليوم الثاني وأهلك من بني إسرائيل أيضا ثمانية عشر ألف رجل إلى الأرض) قضاة 20ـ 25.

وتقول: (فضرب الرب بنيامين أمام إسرائيل وأهلك بنو إسرائيل من بنيامين في ذلك اليوم خمسة وعشرين ألف رجل ومئة رجل) قضاة 20: 35.

وتقول التوراة: (فحاوطوا بنيامين وطاردوهم بسهولة وأدر كوهم مقابل جبعة لجهة شروق الشمس فسقط من بنيامين ثمانية عشر ألف رجل) قضاة 20ـ 44.

وتقول التوراة: (ورجع رجال بني إسرائيل إلى بني بنيامين وضربوهم بحد السيف من المدينة بأسرها حتى البهائم حتى كل ما وجد. وأيضا جميع المدن التي وجدت أحرقوها بالنار) 20ـ 48.

وكانت هذه الحرب الدموية بين بني إسرائيل مثالا لما جرى أيام الملوك بعد موت سليمان وانقسام ما يسمى المملكة إلى مملكتين.. يهودا وإسرائيل.

وقد أشار القرآن الكريم لما جرى بين بني إسرائيل فقال تعالى:

(وأذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكوا دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفدوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) البقرة 84 ـ 85.

أما عن القتل بطريقة الغدر فقد حدث بشكل مستمر منذ صموئيل الثاني.

تقول التوراة: (ثم دعا داود واحدا من الغلمان وقال تقدم أوقع به فضربه فمات فقال له داود دمك على رأسك) صموئيل الثاني 1: 2ـ 32.

وتقول التوراة: (وضرب عبيد داود من بنيامين ومن رجال أبنير فمات ثلاثمائة وستون رجلا) صموئيل الثاني 2: 31.

وتقول التوراة: (ولما رحل أبنير إلى حبرون مال به يوآب إلى وسط الباب ليكلمه سرا وضربه هناك في بطنه فمات بدم عسائيل أخيه) صموئيل 2 3: 26.

ولحق القتل غدراً الأخ بأخيه. تقول التوراة: (فأوصى أبشالوم غلمانه قائلا أنظروا متى طاب قلب أمنون بالخمر وقلت لكم أضربوا أمنون فاقتلوه لا تخافوا) صموئيل الثاني 13: 28.

وتورد التوراة أن امرأة من بني إسرائيل قتلت قائداً يهودياً متمرداً فقطعت رأسه و ألقته أمام الجنود (فقالت المرأة ليوآب هوذا رأسه يلقى إليك عن السور فأتت المرأة بحكمتها فقطعوا رأس شبع بن بكري وألقوه إلى يوآب) صموئيل الثاني: 21ـ 22.

ومن العنف الموجه من الأخ لأخيه ما أوردته التوراة عن قتل سليمان لأخيه أدونيا.

تقول التوراة: (فأرسل الملك سليمان بيد بنياهو بن يـ هوياداع فبطش به فمات) ملوك أول 2: 25.

ثم بطش سليمان بأحد قادة أبيه. تقول التوراة: (فأرسل سليمان بنياهو يهوياداع قائلا إذهب ابطش به فدخل بنياهو إلى خيمة الرب وقال له هكذا يقول الملك أخرج فقال كلا ولكنني هنا أموت فرد بنياهو الجواب على الملك قائلا هكذا تكلم يوآب وهكذا جاوبني فقال له الملك إفعل كما تكلم وابطش به وادفنه وأزل عني وعن بيت أبي الدم الزكي الذي سفكه يوآب) ملوك أول2: 29ـ32.

ثم بطش سليمان برجل من القادة اسمه شمعي (فأمر الملك بنياهو بن يهوياداع فخرج وبطش به ومات وتثبت الملك بيد سليمان) ملوك أول 2: 46.

ويتضح مما أوردته التوراة أن سليمان بدأ حكمه بسلسلة من الاغتيالات والتصفيات بدأها بإخوته وأنهاها بقادة من قادة أبيه حتى استتب له الملك. ومنذ الإصحاح 13 في سفر الملوك الأول تبدأ سلسلة معارك ومذابح بين بني إسرائيل يذهب ضحيتها آلاف من اليهود وتمتد طويلاً حتى يأتي السبي البابلي ويقضي على مملكتي إسرائيل ويهودا.

وتقتل عدة نساء طعناً وحرقاً وتمتد القسوة والعنف إلى النساء دون أي رادع أو أي حق.

تقول التوراة: (فأشرف عليه اثنان أو ثلاثة من الخصيان فقال اطرحوها فطرحوها فسال من دمها علي الحائط وعلى الخيل فداسها فدخل واكل وشرب ثم قال افتقدوا هذه الملعونة وادفنوها لأنها بنت ملك) ملوك ثاني 9: 32ـ 34.

ثم تحدثت التوراة عن امرأة تدعى عثليا حيث تقتل هي أيضا. تقول التوراة: (فالقوا عليها الأيادي ومضت في طريق مدخل الخيل إلى بيت الملك وقتلت هناك) ملوك 2، 11: 16.

فمن خلال الأمثلة التي قدمناها يصبح الأمر بعدم القتل قتلا ويشمل هذا القتل:

1ـ القتل الجماعي

2ـ القتل اغتيالا بحق الأنبياء

3ـ القتل اغتيالا بحق القادة وبعض الشخصيات

4ـ قتل النساء

5ـ القتل حرقا كما فعل بنو إسرائيل بسبط بنيامين.

أما قتل الأنبياء فقد كان ديدن بني إسرائيل واليهود. وقد ورد في التوراة كثير من القصص التي تشير إلى قتل الأنبياء والمصلحين من بني إسرائيل.

وقد ذكر القران الكريم قتلهم للأنبياء، وبين مدى جلافة نفوسهم وأطباعهم وعنادهم. يقول تعالى: (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) البقرة 60.

ويقول تعالى: (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس. أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) البقرة 87.

ويقول تعالى: (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) البقرة 91.

ويقول تعالى: (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) النساء 155.

وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله، النساء 156.

ويقول تعالى: (لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) المائدة 73.

وتكرار القران الكريم في الحديث عن قتل الأنبياء من قبل بني إسرائيل له دلالته الواضحة، فلولا أن قتل الأنبياء تكرر مراراً لما شكل ظاهرة منبوذة من قبل القرآن الكريم. وقد جاء في الأثر أن بني إسرائيل قتلوا مئات الأنبياء في عدة أزمان وأحيانا كانوا يقتلونهم بشكل جماعي كما حدث في زمن آخاب بن عمري.

جاء في التوراة في الحديث عن النبي إيليا: فقال قد غرت غيرة للرب إله الجنود لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي ليأخذوها) ملوك أول 19: 1.

وقد عرف آخاب بن عمري بأنه وثني ولاحق الأنبياء هو وزوجته الوثنية إيزابل فقتل منهم المئات ولم يبق منهم في زمنه سوى النبي إيليا الذي هرب من وجهه ثم عاد إليه بعد غياب طويل. وقد عرف اليهود بعدائهم للنبي زكريا وابنه النبي يحيى والسيد المسيح فقتلوا الإثنين وحاولوا قتل السيد المسيح لولا تدخل قدرة الله لإنقاذه.

4 ـ الرق والاسترقاق في الشريعة اليهودية

يتجه الاسترقاق في الشريعة اليهودية اتجاهين، اتجاه نحو اليهود أنفسهم واتجاه نحو الأغيار أي غير اليهود.

فقد أباحت التوراة الرقيق في نصوص صريحة.

تقول التوراة: (إذا اشتريت عبداً عبرانياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حراً مجاناً. إن دخل وحده فوحده يخرج. إن كان بعل امرأة تخرج امرأته معه. إن أعطاه سيده امرأة وولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها يكونون لسيده وهو يخرج وحده. ولكن إن قال العبد أحب سيدي وامراتي وأولادي لا أخرج حراً يقدمه سيده إلى الله ويقربه إلى الباب أو إلى القائمة ويثقب سيده أذنه بالمثقبة فيخدمه إلى الأبد. وإذا باع رجل ابنته أمة لا تخرج كما يخرج العبيد. إن قبحت في عيني سيدها الذي خطبها لنفسه يدعها تُفك. وليس له سلطان أن يبيعها لقوم أجانب لغدره بها. وإن خطبها لابنه فبحسب حق البنات يفعل لها. إن اتخذ لنفسه أخرى لا ينقص طعامها وكسوتها

وعشرتها. وإن لم يفعل لها هذه الثلاث تخرج مجانا بلا ثمن.) خروج 21: 2ـ 11.

وهناك أحكام أوردناها في عقوبة القتل وهي خاصة بالعبيد.

تقول التوراة: (وإذا ضرب إنسان عبده أو أمته بالعصا فمات تحت يده ينتقم منه لكن إن بقي يوما أو يومين لا ينتقم منه لأنه ماله) خروج 20: 31ـ 21.

وتقول: (وإذا ضرب إنسان عين عبده أو سن أمته يطلقه حراً عوضاً عن عينه. وإن سقط سن عبده أو سن أمته يطلق حراً عوضاً عن سنه) خروج 31: 26ـ 27.

فكما نرى فان التوراة أجازت الرق ولكنها وضعت حدوداً له وقوانين لعلاجه. وقد اهتمت التوراة بوضع عقوبة لمن سرق إنسانا ليستعبده.

فتقول التوراة: (إذا سرق أحد إنسانا وباعه أو وُجد في يده يقتل قتلا) خروج 16: 21. وقد حصرت هذا القانون في بني إسرائيل دون غيرهم.

نقول التوراة: (إذا سرق أحد نفسا من إخوته بني إسرائيل واسترقه وباعه أو وجد في يده يقتل قتلاً) تثنية 7: 24.

ونلاحظ أن الشريعة التوراتية لم تعالج مسألة الرق من حيث أنها تشكل ظاهرة اجتماعية وإنما من وجهة عنصرية بحتة. ومن حيث علاقتها ببني إسرائيل فليس هناك رق أبدي للعبد الإسرائيلي.)[1].

وقد استفاد التوراتيون أثناء تدوين التوراة في السبي البابلي من تراث البابليين وقوانينهم في الرق.

---

(1) احمد سوسة. العرب واليهود في التاريخ ص 411.

فشريعة حمورابي تعالج مسألة الرق بوصفها تشكل ظاهرة اجتماعية لها خطورتها ودورها الهام في المجتمع البابلي الزراعي. وقامت على هذا الأساس بتحديد حقوق الرقيق وحدوده وواجباته. من جهة إنسانية فلا يكون هناك رق أبدي ولكنها في الوقت نفسه حكمت على من احتفظ في بيته برقيق هارب أو ساعد رقيقا هاربا أو أمة هاربة بعقوبة الإعدام[1]

وقد وضّح الإسلام هذه القضايا بشكل واضح مخالف لما جاء من تشريعات توراتية فإذا وهب السيد لعبده وحده الحرية وصار العبد حرا فان أولاد العبد يكونون أحرارا تبعا لأبيهم رضي السيد أم لم يرض. ويخرجون معه إذا ما أرادوا من بيت سيده إذا خرج. وتخرج المرأة إن شاءت شاء العبد أم أبى لأن الجارية إذا أنجبت ولدا لا تباع ولا تشترى لقوله عليه الصلاة والسلام: (أم الولد لا تباع وتعتق بموت سيدها) رواه الدار قطني. وهذا الحديث صحيح لمصلحة الولد.

وفي الحديث من مثل بعبده عتق عليه. وقال النووي في شرح مسلم اجمع العلماء على أن ذلك العتق ليس واجبا وإنما هو مندوب رجاء الكفارة وإزالة إثم اللطم. وهذا يشابه ما رأيناه في وجوب عتق العبد إذا فقأ سيد عينه في الشريعة التوراتية.

وفي الشريعة الإسلامية إذا اشترك اثنان في ملكية عبد وباع أحدهما نصيبه من العبد أو وهبه عتق العبد وسقط حق الشريك الثاني فيه على رأي نص عليه حديث سمرة أن رجلا اعتق شخصا له مملوك فقال صلى الله عليه وسلم (هو حر كله وليس له شريك).

---

(1) احمد سوسة. العرب واليهود في التاريخ ص 481.

وللعبد أن يكاتب السيد على مال يؤديه إليه في مقابل حريته وللأمة أيضاً لقوله تعالى: (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) النور 32.

أما الحكم على العبد الذي يريد أن يبقى مع سيده بأن تخرز أذنه بالمخرز فهذا ليس موجودا في الشريعة الإسلامية. وإذا نظرنا إلى الأحكام القرآنية وما جاءت به أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ندرك أن الإسلام حض على العتق ورفض العبودية بل طالب بالحرية لكل الناس وبإلغاء الاسترقاق. وقد أسهب التلمود في الحديث عن حرية اليهود وحدود هذه الحرية. ولم تقتصر الأحكام على التوراة.

ففي التلمود قوانين ترتبط بمسألة حق التعبير والرأي والحوار. وأهم هذه القوانين قانون الحرمان. ويطبق على من يحتقر الحاخامات وأقوالهم وشريعتهم بمعنى أن عقوبة الحرمان بكل درجاته هو منع إبداء الرأي والتعبير.

وهذا القانون ينص على انفراد المحروم عن مخالفة الجماعة. ويعيش منفصلا عن أبناء جنسه لا يقرب أحدا. وفي مدة حرمانه عليه أن لا يغتسل أو يحلق ومدة الحرمان ثلاثون يوما[1] .

وجاء في التلمود: (أن اليهودي الذي يرفع شكوى على أحد أبناء ديانته ولو كان أقبح إنسان لصالح أجنبي وتضرر أخوه من تلك الشكوى أو ضرب أو قتل يستحق من ذلك المشتكي في الكتاب المذكور بأنه ليس له محل في الآخرة. وإذا عزم يهودي عل اتهام آخر بأمر ينعدم به وعلم أحد اليهود بهذا العزم لزم قتله)[2] .

---

(1) صالح محمود صالح. الإنسانية والصهيونية والتلمود ص 54.

(2) المرجع السابق ص 55.

وإذا خالف أحد اليهود أقوال الحاخامات يعاقب أشد العقاب لأن الذي يخالف شريعة موسى خطيئته مغفورة وأما من يخالف التلمود فيعاقب بالقتل)[1].

وقد سن التلموديون قوانين عدة تتعلق بالحرمان المتجه نحو اليهودي فيقول التلمود: إذا اجتمع تسعة أشخاص لتأليف المجمع المقدس فلا يكون المحروم العاشر. وإذا وجد فيهم من يلزمه أن يجلس بعيدا عن الباقين على مسافة أربعة أذرع. وإن توفي قبل انتهاء مدة عقوبته يلزم أن يوضع على قبره حجر علامة على أن الميت كان يستحق الرجم لأنه مات بدون قصاص وهو محروم. وفي هذه الحالة لا يحزن عليه أهله، ولا يمشون خلف جنازته، ولو كانوا من أخص أقاربه. وقد قلنا إن مدة الحرمان شهر كامل فإن تاب المجرم في خلال تلك المدة كان بها وإلا عاقبوه من ستين إلى تسعين يوما. فإذا لم ينفع ذلك لردعه يحرم بالحرمان الأكيد المسمى (شريما) ونتيجة هذا الحرمان أن يمنع المحروم من مخالطة غيره ويمنع من التعلم والتعليم والأكل والشرب مع أي شخص. وحرم على أي شخص أن يؤدي له خدمة. كما يحرم عليه تأدية الخدمة لأي شخص إنما مصرح بيع الطعام له حتى لا يموت جوعاً، ويلزم أن يصدر هذا الحرمان من عشرة أشخاص على الأقل، ويكون صدوره في محفل رسمي بخلاف الأول فإنه يمكن صدوره من شخص واحد. وعند عمل هذا الاحتفال يوقدون الشموع ويبوِّقون الأبواق. ويلعنون المخطئ. ثم يطفئون الأنوار رمزاً إلى أن المجرم خرج عن الأنوار الإلهية.

ومن نصوص الحرمان التي وردت في التلمود قولهم:

(بناء على حكم إلهنا إله الآلهة يحرم فلان ابن فلان من المحكمتين. محكمة أول درجة والمحكمة العليا ومن القديسين والملائكة ومن الجمعيات

---

(1) المرجع السابق ص 56.

الكبيرة والصغيرة. ويصاب بالقروح والأمراض الخبيثة كلها، ويكون منزله مسكنا للجن، ويكون نجمه مظلما في السماء ومن المغضوب عليهم، ويطرح جسده للوحوش المفترسة وللثعابين ويفرح أعداؤه ومن يريد له الشر، وتعطى أمواله من الذهب والفضة لغيره وتسقط تلك الأموال تحت سلطة العدو. ويلعن أولاده وحياته ويكون ملعونا من فم (عيد بربريرون) و(عشتاريال) و(صندلفون) وعزرائيل وغسيل وباشتيل وإسرافيل وسنجاسيل وميخائيل وجبرائيل وروفائيل ومكارتيل ويكون محروما من فم (زفغزا وهاهاقيل الإله الأكبر وفم العشرة الأسماء المعظمة ثلاث مرات ومن فم زرتاج حامل الختم ويغرق مثل كريه وجيشة وتخرج روحه من جسده بخوف وجزع، ويحكم عليه الله بالموت، ويخنق مثل اشيتوفل ويكون جذامه مثل جذام (جينري)، ويسقط ولا يقوم، ويلفظ عن قبور بني إسرائيل، وتعطى امرأته لغيره ويميل إليها آخرون بعد موته، ويسقط هذا الحرمان على فلان ابن فلان ويكون من نصيبه. أما أنا وبنو إسرائيل فيكون لنا بركة الله وسلامه آمين).

وقد شكل الحرمان نوعا من ردع عوام اليهود وخواصهم عن الخروج عن تعاليم حاخاماتهم ومخالفتها، مهما كانت مغرقة في الفساد والإلحاد والأحقاد. لذلك جبن كثير من اليهود عن الخروج على تعاليم أحبارهم خشية عقوبة الحرمان الغليظة وقد كانت هذه العقوبة وراء بقاء اليهود في كل الأمكنة والأزمنة على اختلاف نظمها وأعراضها ودياناتها على تقاليدهم قائمين وبشرائع تلمودهم عاملين. والقلة من أحبارهم الذين انتقلوا من ديانتهم إلى الأديان الأخرى. ففضحوا التعاليم التلمودية وترجموا منها مقاطع مطولة[1].

وامتدت عملية سلب حقوق الإنسان اليهودي إلى الفرق الدينية اليهودية نفسها. ومنذ مئات السنين بل ومنذ ظهور التلمود بدا أن هناك انشقاقاً يهودياً

---

(1) محمد عبد الله الشرقاوي. الكنز المرصود في فضائح التلمود ص 240ـ 241.

واضحاً أدى إلى تناقض كبير بين الفرق اليهودية. وجاءت أوقات ظهر فيها الاضطهاد اليهودي على أشده خاصة بعد أن رفضت بعض الفرق اليهودية التلمود وتعاليمه ورفضت بالتالي سلطة الحاخامات. مما أدى إلى التصدي لهم وتجريدهم كثيراً من الحقوق. ومن الفرق التي لاقت اضطهاداً يهودياً قاسياً من قبل الحاخامات التلموديين:

1ـ فرقة القرائين

2ـ فرقة حراس المدينة (ناطوري كارتا)

وقد لحق الاضطهاد اليهودي ـ اليهودي اليهود الشرقيين بشكل عام (السفارديم) من قبل مؤسسات الكيان الصهيوني الذي تحكمه العقيدة التلمودية وعلى رأسها الحاخامات العنصريون الذين يأخذون بالتلمود ويقدسونه أكثر من التوراة.

أما القراؤون فهم أكثر أصحاب الفرق الذين تعرضوا للإضطهاد من قبل التلموديين وبدأ اضطهادهم منذ ظهورهم عام 761 إفرنجي حين انشقت الفرقة القرائية برئاسة عنان بن داود عن التلموديين الذين تزعمهم آنذاك المدعو حنانيا.

وأول اضطهاد قام به التلموديون حين أقنعوا الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور بأن عنان يتآمر على الدولة. فسجنه الخليفة وكاد يعدمه ثم عفا عنه وذهب إلى فلسطين ينشر دعوته ضد التلموديين.

وبدأت المعركة بين الفريقين وكفّرت كل واحدة منها الأخرى. وقد وصل الحد بالتلموديين أن حرّموا الزواج من القرائين. وإذا حدث زواج فإنهم يعتبرون الأولاد المنجبين أولاد زنا ولا ينتمون إلى ما يسمى شعب الله المختار. وقد أفتى بعض الربانيين برفض عودة القرائي إلى مذهب الربانيين على اعتبار أنه مرتد

عن الدين. بينما رأى آخرون أن القرائي باعتباره ليس يهوديا يمكنه الدخول في دينهم على أساس أنه غريب من الغوييم. ومع كل ما يترتب على ذلك من الحقوق المدنية والشرعية وحرمان هذا المعتنق الجديد من أن يصبح يهوديا من بني إسرائيل بالحظ الكامل وفي كل المعاملات المالية، وكذلك في الطعام والشراب يعتبر القراؤون غوييم.

وبعد قيام الكيان الصهيوني واجه القراؤون مشاكل كثيرة لأنهم غير معترف بهم يهوداً من قبل المؤسسة اليهودية في الكيان الصهيوني وغير معترف بهم كذلك من قبل الدولة بكونهم طائفة دينية مستقلة. وعلى هذا فإن وثائق الزواج والطلاق في محاكمهم الدينية غير معترف بها. والمرأة القرائية التي تطلّق وتزوج مرة أخرى تعتبر زانية لأنها من وجهة نظر التلموديين ما زالت في عصمة زوجها السابق حيث يعتبرون الزواج صحيحاً. وعلى هذا فإن الطفل الذي يولد من الزواج الثاني هو طفل غير شرعي[1].

ويرفض حاخامات الأشكينازيم وكذلك السيفارديم (الغربيون والشرقيون) أن يعترفوا بالقرائين كيهود. وما يزالون يعيشون على هامش المجتمع اليهودي في فلسطين. فلا هم معترف بهم كيهود من جهة وترفض الدولة وكذلك الربانيون التلموديون منحهم صفة الطائفة المستقلة أو الجماعة المنفصلة عن اليهود كالمسلمين والمسيحيين.

أما فرقة حراس المدينة وهي فرقة يهودية شرقية فتعامل من قبل المؤسسة الدينية التلمودية الحاكمة معاملة قاسية وتحظر التعامل معهم. ويبرز خلافهم في القضايا السياسية وبعض القضايا الدينية إذ ترى ناطوري كارتا أن قيام دولة (إسرائيل) كارثة وأن الذين أقاموها هم كفار لأنهم لم ينتظروا قدوم المسيح المنتظر ليقيم الدولة المقدسة حسب رأيهم.

---

(1) جعفر هادي حسن. اليهود القراؤون ـ دراسة في صحيفة الحياة 1997/1/13.

وبشكل عام يلقى اليهود الشرقيون ويهود الدول العربية ويهود الفلاشا اضطهادا واسعا من قبل المؤسسة الدينية اليهودية التلمودية. وقد أوردت مصادر كثيرة أن بعض اليهود سرقوا أطفالا من اليهود اليمنيين وباعوهم لبعض الأثرياء. أما يهود الفلاشا فهم أكثر اليهود معاناة من الإضطهاد وذلك بسبب لون بشرتهم وتخلفهم ويسكنون في أحياء فقيرة جدا. ولا تقام أية علاقات زواج معهم.

ولا شك أن التناقض العنيف بين الفرق اليهودية والقوى الدينية اليهودية في الكيان الصهيوني أدى في حالات كثيرة ومستمرة إلى حصول جرائم قتل وسرقة واغتصاب ومنها جرائم جماعية ومنها جرائم فردية. من ذلك مثلا تفجير سفينة محملة باليهود كانت قادمة إلى فلسطين في منتصف الأربعينات حيث قام جماعة شتيرن وأراغون بتفجيرها وقتل جميع ركابها وعددهم حوالي 320 يهوديا. ومن أمثلة ذلك قتل رئيس وزراء الكيان الصهيوني اسحق رابين على يد طالب لاهوتي يدعى عاميرام. والأمثلة كثيرة على ذلك.

5 ـ حقوق المرأة في التشريع اليهودي

يسجل على الشريعة اليهودية أنها الشريعة المتطرفة في اضطهاد المرأة اليهودية وقد رأينا عند بحثنا لقوانين الزواج والطلاق ذلك الإجحاف بحق المرأة بشكل عام وبحق المرأة اليهودية بشكل خاص.

أما تحت هذا العنوان فإننا سنتعرض إلى قضايا أخرى تخص المرأة اليهودية تُظهر إلى أي مدى حقّرت الشريعة اليهودية حواء. وإلى أي مدى انحرفت المرأة اليهودية بسبب ردة الفعل على القوانين اليهودية الخاصة بها. فنظرة الشريعة اليهودية بدأت منذ سفر التكوين الذي حمَّلها وزر الخطيئة الأولى بالهبوط من جنة عدن. تقول التوراة: (وكانت الحية أحيل جميع

حيوانات البرية التي عملها الرب الإله. فقالت للمرأة أحقا قال الله لا تأكلا من شجر الجنة فقالت المرأة للحية من شجر الجنة نأكل أما مـن الشـجرة الـتي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تلمساه لئلا تموتا فقالت الحية للمرأة لـن تموتا) تكوين 3: 1ـ 4.

(وقال للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلديـن أولاداً وإلى رجلـك يكون اشتياقك وهو يسود عليك) تكوين 3 ـ 16.

وبمعنى من المعاني فإن تحقير اليهودية للمرأة يرجعونـه إلى لعنـة إلهيـة مفترضة وكأنهم ليس لهم يـد في ذلـك. وقـد بنيـت علـى هـذا الأسـاس جميـع النظرات اليهودية الدينية عبر الزمن حول المرأة. منذ تدوين التوراة وحتى وقتنا الراهن.

وحتى نكون على بينة من أمرنـا فإننـا نـرى أن القـرآن الكريـم يدحـض المزاعم التوراتية حتى في قصة الخطيئة الأولى.

فقد ورد في القرآن الكريم: (فوسوس إليه الشيطان قال يـا آدم هـل أدلـك على شجرة الخلد وملـك لا يبلـى: فـأكلا منـها فبـدت لهمـا سـوءاتهما وطفقـا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى) طه 12 ـ 121.

فالواضح من الآيتين أن الشيطان أغوى آدم وليس حواء. وتدل الآيتان أن الذي بدأ بالخطيئة آدم وليس حواء. وهـذا يقلـب التأسـيس الفكـري الإنسـاني رأساً على عقب. ويقلب كل المفاهيم الإنسانية حول المرأة وحقوقها. ويعيد النظر في كافة التراكمات الاجتماعية الـتي حملـت المـرأة ذنبـاً ليـس لهـا علاقـة بـه ويتجلى موقف الشريعة اليهودية من المرأة في جعلها والحيّة في مسـتوى واحـد. والحية كما هي معروفة في الـتراث الشـعبي العـالمي رمـز للشـر والنفـث والسـم وكذلك الأنثى.

وقد بدأ هذا الموقف العدائي من المرأة في كافة الطقوس والأفكار اليهودية المتواصلة فحتى هذا اليوم يعلّم اليهودُ وخاصة الربانيون أبناءهم أن يرفعوا الصلاة اليومية التالية (مبارك أنت أيها الرب ألهنا ملك الكون الذي لم يخلقني امرأة)[1].

ولم تتوقف المواقف العدائية اليهودية من المرأة عند حدود احتقارها وذمها لأنها أخطأت الخطيئة الأولى حسب اعتقادهم. فحتى يكون الموقف أشد قسوة فقد وجدت بعض الفرق اليهودية أفكاراً غريبة مدهشة نحو المرأة.

فحركة القبالاه التي يطلق عليها ـ الصوفية اليهودية ـ وهو تعبير خاطئ ترى أن المرأة لها علاقة بالشيطان. وهي متمردة على الشرائع وهي ترمز للشر ويظهر في الأدب القبالي اليهودي اسم ليليث كزوجة آدم الأولى التي رفضت أن تضطجع تحته وأن تطيع أوامره. وقُدمت ليليث في القبالة على أنها رمز الشيطان وهي شيطانة أنثى وكتب أحد الأحبار اليهود الكبار والمدعو شوليم كتب في الزوهار (قسم من التلمود وقسم من القبالة الأدبية الدينية) أن ليليث ملكة الشياطين وأن حاشيتها من الشياطين الذين يسعون مجاهدين لتحريض الرجال على الأفعال الجنسية من دون معونة امرأة وهدفهم جعل أنفسهم أجساداً من البذور الضائعة، فالزوهار يحذر من أن ليليث تهيم على وجهها منتظره العثور على حيوانات منوية تخلق منها الأبالسة والأطفال غير الشرعيين وقد حذرت القبالاه أن الأطفال غير الشرعيين إنما يولدون بمعونة ليليث[2].

وقد أوجد مدونو التوراة حين التدوين كثيراً من الأفكار التي تسلب المرأة كرامتها وحقها العيش بكرامة وحرية.

---

(1) مارلين ستون: عندما كان الرب أنثى ترجمة حنا عبود ص 215.

(2) المصدر السابق ص190.

تقول التوراة (درت أنا وقلبي لأعلم وأبحث ولأطلب حكماً وعقلاً ولأعرف الشر أنه جهالة، والحماقة أنها جنون فوجدت أمرّ من الموت المرأة التي هي شباك، وقلبها أشراك ويداها قيود) سفر الجامعة 7: 25 ـ 26.

وتتابع التوراة: (جيداً واحداً بين ألف وجدت أما المرأة فبين كل أولئك لم أجد) 7: 29.

وتنسب التوراة هذه الأقوال للنبي داود في سفر الجامعة. وتظهر هذه الأمثال مدى الحقد الذي يضمره كتبة التوراة على المرأة.

وقد أسهب التلمود كثيراً في الحديث عن المرأة بنظرة دونية سيئة فينظر التشريع لها على أنها (سلعة تباع وتشرى، وللزوج الحق أن يفعل بها ما يشاء لأنها ملكه. فهي مملوكة تباع وتشرى من أبيها. وهي كالقاصر والصبي والمجنون لا يجوز لها البيع والشراء. وينص التشريع اليهودي على أن مال المرأة ملك لزوجها)[1].

وليس للمرأة اليهودية أن تبدي أدنى شكوى على حسب التلمود إذا زنى زوجها في المسكن المقيم فيه معها.

ولما قال الحاخام (يوحنان) إن اللواط بالزوجة غير جائز عارضوه في ذلك قائلين إن الشرع لم يحرم هذا الأمر. بل قال إنه لا يخطئ اليهودي مهما فعل مع زوجته وأية طريقة اتبعها معها بأمر الزواج فهي له، وهي بالنسبة للاستمتاع بها كقطعة لحم اشتراها من الجزار يمكنه أكلها مسلوقة أو مشوية على حسب رغبته ويضربون لذلك مثلاً أن امرأة حضرت إلى الحاخام وشكت أن زوجها يأتيها على خلاف العادة فأجابها: لا يمكنني أن أمنعه عن هذه المسألة

(1) محمد عبد الله الشرقاوي الكنز المرصود في فضائح التلمود ص228.

يا ابنتي لأن الشرع قدمك قوتاً لزوجك[1].

وذكر في كتاب سنهدرين ص 58: أنه مصرح لليهودي أن يفعل ذلك الأمر بزوجته وليس مصرح للأجنبي أن يفعل إلا بامرأة أجنبية.

وقد خالفت التشريعات هذه كل ما جاء في الأديان سماوية كانت أم غير سماوية فاللواط في الشريعة الإسلامية حتى لو كان بامرأة، عدوان ظاهر على الإنسانية وخروج على سنن الله الطبيعية ولهذا سماه الله فاحشة كالزنى.

قال تعالى: (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين).

فمن ارتكب هذا الفعل الشائن فقد قرر بعض الفقهاء إقامة الحد على اللائط بالرجم وقد اتفقت كلمة علماء المسلمين على أن من أتى امرأته أو أمته في دبرها وترك القبل يقام عليه الحد. وقد وردت أحاديث كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحريم إتيان النساء في أدبارهن وقد ورد عن حذيفة بن ثابت وأبو هريرة وعلي بن طلق. رحمهم الله تعالى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا تأتوا النساء في أدبارهن)[2].

وورد أيضاً عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (استحوا إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في حشوشهن وفي رواية أخرى في أعجازهن)[3].

وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ويقول: ادخلوا النار مع الداخلين الفاعل والمفعول به. والناكح يده، وناكح البهيمة وناكح المرأة

---

(1) المصدر السابق ص228.

(2) الجزيري الفقه على المذاهب الأربعة المجلد الخامس ص146.

(3) المصدر السابق ص146.

في دبرها. وجامع بين المرأة وأختها. والزاني بحليلة جاره. ومؤذي جاره حتى يلعنه)[1].

وقد وردت عشرات الأحاديث المسندة حول تحريم اللواط وذمه واعتباره أشر جريمة من الزنا.

وينص الفكر اليهودي على أن جميع مال المرأة ملك لزوجها، وليس لها سوى ما فرض لها من مؤخر الصداق في عقد الزواج تطالب به بعد موته أو عند الطلاق منه وعلى هذا فكل ما دخلت به من مال وكل ما تكسبه من سعي وعمل وكل ما يُهدى إليها في عرسها ملك حلال لزوجها.

وبالنسبة لكثرة ما شوهد من وقوع الشقاق والفرقة بين الزوجين فقد استقر رأي الربانيين على وجوب الأخذ بشروع (وقف الزوجية) ومعناه أن توقف أموال الزوجة ويصير الزوج قيما عليها يستغلها دون بيعها أو يرهنها. فتصبح الزوجة بذلك مالكة لرقبة الأموال والزوج مالكاً للمنفعة فإذا حصلت الفرقة عادت الثروة إلى الزوجة[2].

وعلى الزوجة مهما بلغت ثروتها ومكانتها أن تقوم بالأعمال اللازمة لبيتها. صغيرة كانت الأعمال أو كبيرة.

ويقول الربي أليعازر: إن الزوجة إذا أحضرت منه خادم فإنها لا تعفى من الغزل ولزوجها أن يرغمها عليه لأن البطالة تقود للفساد.

ولا ترث المرأة زوجها. وكل ما لها بعد موته هو مؤخر الصداق. أما باقي ثروتها فقد آل إلى زوجها ومنه إلى ورثته. وإذا أخذت مؤخر صداقها تمضي إلى حال سبيلها أما إذا لم تطالب به فإنها تعيش مع الورثة من مال التركة.

---

(1) الجزيري الفقه على المذاهب الأربعة الجزء الخامس ص 147.

(2) المقارنات والمقابلات ص 401 ـ 402 تأليف دي بغلي ترجمة محمد صبري.

وقد شرع التلموديون كثيراً من القوانين حول المرأة. وبينوا قضاياها الكثيرة في الزواج لكنها في واقع الأمر تقر إجحافاً شديداً بحقوقها.

فالتلمود يقر للرجال أن يبيع ابنته القاصر أمة (رقيق) وكما يسمح للرجل أن يزوج ابنته لمن يشاء. رضيت البنت أم رفضت. ولا تسترد حريتها إلا إذا طلقها زوجها.

وزيادة في تحقير المرأة فإن نصوص التلمود تقرن بصريح العبارة طلاق المرأة بعتق العبد فكلاهما إجراءان لا يحتاجان سوى لإرادة منفردة هي مشيئة السيد. يصدر قراراً بطرد المرأة أو عتق العبد فكلاهما إجراءان لا يحتاجان سوى لإرادة منفردة هي مشيئة السيد. يصدر قرار ه بطرد المرأة أو عتق العبد .فتنفذ رغبته السيئة من دون أدنى مناقشة. وتجيز مدرسة هلال التلمودية الطلاق لأتفه الأسباب فكأن تفسد المرأة الطعام أو يجد الرجل أجمل منها استنادا إلى ما ورد في سفر التثنية الأحكام 1/24 ويسهل التلمود سبل الطلاق، فيصححه ولو كان الشهود من غير اليهود. فلا يصلح الشاهد الوثني للدلالة على مديونيته اليهودي. لكن يعتد بشهادته في طلاق الرجل امرأته ويجيز التلمود تحرير كتاب الطلاق بأية وسيلة ولو على قرن جاموسة ترسل إلى المرأة أو على يد عبد يسلم للزوجة وقد اعتمد حاي بن شمعون أحكام التلمود في جوهرها .فلم يضع أية عراقيل لمواجهة سلطة الرجل ولو في مرض الموت.

وقد أقر الربانيون عقاباً صارماً لمن اشتبه بزوجته أنها زنت وتخضع وفقاً للتوراة لتجربة التعذيب بالماء المر .فإذا أقرت المراة بخيانتها حرمت من مؤخر الصداق وذهبت إلى سبيلها أما إذا ادّعت براءتها عُذبت حتى تقر بأن تحمل إلى باب المدينة ويعرّي الكاهن جسدها حتى بطنها وينشر شعرها ويخلع حليها ويلبسها رداءً أسودَ يربطه بجبل خشن فوق ثديها العاري. وتتوافد نساء المدينة لرؤية الزوجة المتهمة في هذه الحالة المهينة. ثم يشرع الكاهن في إجراءات

تجربة الماء المر على الوجه الذي سلف، عملاً بما هو وارد في التوراة. ومتى اجترعت المرأة الكأس المرة وانفعل جسدها من فرط ما تناولته من قاذورات ثبتت إدانتها وحملت خارج المعبد قبل أن تدنسه بما عسى أن يصدر عنها من قيئ أو حيض. وتحرم على زوجها وكذلك على عشيقها بعد ذلك[1].

وينص التلمود على أن المرأة إذا قدمت لزوجها طعاماً محرماً أو أنها تغالط في مواعيد طمثها فإذاً تحرم من صداقها .وأيضا فإن المرأة إذا خرجت مكشوفة الرأس أو تتهادى في مشيتها أو تخرج مع الشبان أو تلقى أهل زوجها بحضوره أو تصيح بصوت مرتفع يسمعه الجيران فإنها كذلك تحرم من صداقها. وإذا منعت المرأة زوجها أن يمارس معها الجنس سقط حقها في الصداق .ويستطيع الزوج استرداد ما اشتراه لها من أشياء وهدايا.

6 ـ التشريع اليهودي والجرائم الجنسية

بعد قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين وبناء المؤسسات الإدارية والدينية انقسم المجتمع الصهيوني غير المتجانس إلى علمانيين ومتدينين. ولكن المتدينين لعبوا ويلعبون دورهم بشكل قوي إذ يمثلون نسبة عالية من اليهود على شتى عروقهم وأجناسهم .

وهناك في الكيان الصهيوني سلطة حاخامية كبرى تعج بالحاخامات. حتى أن مؤسسات الكيان جميعها يتدخل فيها الحاخامات. ويؤثرون في مجريات الأحداث فيها. ومن المعروف أن الخليط اليهودي الذي جاء من أوروبا الشرقية بشكل كثيف ومن بعض الدول العربية والغربية حمل معه خلفيات اجتماعية متباينة لا سيما أن اليهودي الغربي حمل معه إلى فلسطين كل عادات الغرب من إباحية ولواط واغتصاب وعدم احترام للدين أيا كان.

---

(1) ثروت الأسيوطي نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين ص266.

ولهذا السبب فقد بات اختراق التشريع اليهودي أمراً محتماً وقوياً في التجمع. مما سبب صداماً بين التشريع الحاخامي وبين ما يفعله الناس في أرض الواقع. ولذلك فقد باتت قوانين الحاخامات مطاطة، بل يصل بها الحد إلى إباحة ما هو محرم والتغاضي عما يحدث من اغتصاب وجرائم جنسية بحق المرأة اليهودية.

فمن المعروف كما ورد معنا سابقاً أن الممارسة الجنسية بين امرأة يهودية متزوجة وأي رجل غير زوجها جريمة كبرى على عاتق الطرفين. وواحدة من ثلاث خطايا بالغة الشناعة. ولكن وضع المرأة غير اليهودية مختلف تماماً. إذ تفترض الهالاكاه أن جميع الأغيار على درجة عالية من الانحلال وتنطبق عليهم آية (الذي لحمه مثل لحم الحمير ونطفته كنطفة الخيل)[1] ولا فرق سواء كانت المرأة غير اليهودية متزوجة أم لا. لذلك لا ينطبق مفهوم الزنا على ممارسة الجنس بين رجل يهودي وامرأة يهودية. بل يساوي التلمود هذه الممارسة بخطيئة الانغماس في الشهوات البهيمية وقد جاء في دائرة المعارف التلمودية (من يقيم علاقة جنسية مع زوجة غير اليهودي لا يتعرض لعقوبة الموت لأنه مكتوب (زوجة أخيك) لا زوجة الغريب وحتى أنه مفهوم أن يلتصق الرجل بامرأة لا ينطبق على غير اليهود لعدم شرعية زواج الوثنيين[2].

وعلى الرغم من ذلك فإن الجرائم الجنسية. كالاغتصاب والتي يجب أن يُعاقب عليها فاعلوها حسب شريعة التوارة. إلا أن النشريع التلمودي سكت عنها ويسكت باستمرار على الرغم من أن هذه الجرائم تطال النساء وتودي بهن إلى الانتحار أو فعل أي شئ لأنفسهن.

---

(1) حزقيال 23: 20.

(2) إسرائيل شاحال الديانة اليهودية ومواقفها من غير اليهود ص155.

وقد كتبت صحيفة يديعوت أحرونوت بتاريخ 15 / 7 / 1977 مقالة بعنوان مأساة (إسرائيلية) بقلم عاموس كينان جاء فيها :

«لقد خلق مجتمعنا عديداً من المآسي في المرحلة الأخيرة. لقد وجد الأشخاص أنفسهم متورطين في صدام بين قوى هي أكبر منهم. وفي مثل هذا الصدام يكون الفرد هو الضحية وهكذا هو ضحية الصراع الديني. وضحية أجهزة الاتصال العامة. إنك تندهش في بعض الأحيان ويساورك اليقين بأن ثقافة روما ثقافة الجنز والمباهج قد عادت إلينا».

لكنه كانت هناك مأساة لم يعر إليها الاهتمام. لقد نشر في هآرتس بتاريخ 1/ 7 مقال (ثمار مرون) تقص لنا فيه عن شابة اسمها المستعار أورلي طالبة جامعية مطلقة وأم لولدين.

لقد اغتصبت أورلي. وكان مغتصبها قد وفر لها وسيلة نقل مجاناً وتمكن بشكل ما بواسطة مختلق المبررات من إحضارها إلى شقته لبضعة دقائق وعند وجودها في الشقة شرع باغتصابها.

أورلي هي شابة متعلمة وواعية ولهذا فقد ابتلعت العار وذهبت إلى الشرطة للشكوى على الجاني. ولكن ليس قبل أن تتصل هاتفياً بصديقها وتروي له عن الموضوع وطلبت منه أن يرافقها.

هنا تبدأ المأساة. شابة تحت الصدمة. وجدت نفسها مضطربة لاجتياز إجراء مشين استغرق عشر ساعات. وفي غضون هذه الساعات العشر لم تقدم لها كأس من الماء ولم يتح لها أن تغتسل ولم يعاملها بصفتها المشتكية إنما وكأنها هي تقريباً المتهمة. كما طلب منها أن توقع تكاليف الفحص الطبي في المشفى من جيبها. لكن الرجل الذي اغتصبها أخلي سبيله بكفالة فوراً وزعم أنها أعطت نفسها له. جرى التحقيق مع أقرباء الفتاة من خلال إجراءات طويلة حول ما إذا كانت الشابة تحب عدداً من الرجال. وكانت النتيجة أنها

انتحرت. وقد رفضت سيارة الإسعاف التي دعيت لنقل جثتها إلى المشفى لأنه لم يكن لدى والديها نقود لدفع الأجرة نقداً! إن كافة التفاصيل في هذه الرواية تعتبر شيئاً مروّعاً في حد ذاتها إلا أنه إذا تخطينا الفظاعة الأولى الصدمة المريعة التي من المحتمل أن تؤدي للموت ـ وإذا تجاوزنا فظاعة البيروقراطية نصل إلى الفظاعة الحقيقية إن الرجال لا يصدقون المرأة .إنهم لا يصدقون سوى الرجل. وخاصة عندما تأتي المرأة لتقديم شكوى ضد رجل. إذ كل رجل يلجأ إليه لتقديم شكوى ضد رجل آخر يشعر بتضامن مع الجنس الرجالي. ويا ويل الفتاة التي يجب عليها أن تذهب إلى شرطي وتروي له بشكل مفصل كيف تمت عملية اغتصابها.

ونشرت صحيفة هعولام هازي بتاريخ 28 / 4 / 1976 مقالاً بعنوان حزام عفة لسلاح النساء بقلم يوسي يناي قالت فيه:

«إن جيش (الكيان) يعرف مئات الحوادث المتعلقة بالضباط الذين تعاطوا الجنس بعضهم علانية وبعضهم بشكل سري مع مرؤوسيهم أو مع المجندات والضابطات. وقد اعتاد ضابط كبير على أن يأخذ معه ضابطة شابة وجميلة في كل واحدة من جولاته وفي وقت يتجاهل بشكل ظاهري ابتسامات الضباط الآخرين والجنود الذين لاحظوا قصة الحب ما بين الإثنين. وكثيراً ما كانت القصة الغرامية بين الضابط وضابطته تثير حفيظة الضباط الآخرين عندما استغل مركزه وأصدر تعليماته الرامية لضم الضابطة إلى طيارة الهليوكوبتر التي قام بها بجولة استطلاعية. وعندما كان الضابط الكبير وتلك الضابطة يضطران للنوم في إحدى قواعد الجيش وفي مدينة نائية كان يهتم رئيس ديوان الضابط أن تكون غرفة الضابط والضابطة متجاورتين». وتتابع الكاتبة قولها «الحقيقة هي أن ضابطات سلاح النساء في القواعد يقمن بإخفاء حقيقة حمل الجندية ولا يقدمن التقارير الخاصة بذلك ويحفظن سرّ الجندية» لكن عندما تقع الجندية في هذا

الموضوع بين يدي ضابطة سلاح النساء التي تطبق القوانين بشكل صارم: «عندما يكشف الأمر بهذا الشكل أو ذاك أمام قائدات ضابطة سلاح النساء في القاعدة، فإنها ستجد نفسها مرتدية للملابس المدنية بأسرع وقت مع التسريح» .

وفي تقرير للاستخبارات العسكرية اليهودية في فلسطين المحتلة نشرت فيه تفاصيل حول الاغتصاب والاعتداءات الجنسية والأخلاقية خلال عام 1997 وقد وصف التقرير الذي أعده قسم البحوث والدراسات فيما يسمى (وزارة الدفاع) الصهيونية الجيش الصهيوني بأنه (مهلهل منحل يعلوه الصدأ الجنسي في مراحل تعفن أخلاقية متقدمة).

وقامت المخابرات العسكرية الإسرائيلية بحجب التقرير الذي رصد الجرائم الأخلاقية والجنسية التي وقعت بين صفوف الوحدات العسكرية المختلفة في الجيش الصهيوني عن فترة الاثني عشر شهراً الماضية من شهر 4 عام 1997 حتى شهر 4 عام 1998 أما أسباب الحجب ومنع التداول التي أقدمت عليها المخابرات الصهيونية فأُرجعت إلى أن عدد الجرائم خلال الفترة المذكورة فاق التوقعات واعتبر أن هذه الفترة التي تضمنها التقرير هي أكثر فترات الخدمة العسكرية فساداً أخلاقياً منذ أن أعلن عن قيام الكيان الصهيوني في عام 1948.

وتضمن التقرير ـ بعد أن تسرب ـ إشاره إلى شكوى رسمية وقّع عليها عدد من قادة الجيش الصهيوني بمختلف الرتب والمناصب العسكرية وجرى تقديمها إلى وزير الحرب الصهيوني لدراستها حيث شكا فيها القادة خوفهم من ضياع هيبتهم وسط الجيش بسبب المجندات والضابطات اللاتي يمكن لأي واحدة منهن تقديم شكوى زائفة ضد قائدها بدعوى أنه إما اغتصبها أو ضايقها جنسياً وذلك لكي تردعه عن اتخاذ أي تصرف عقابي عسكري ضدها غير أن الوزارة لم تأخذ هذه الشكوى على محمل الجد ولم تنظر فيها.

وأدى عدم اهتمام الوزارة بشكوى الضباط والقادة إلى إقدام ضابط برتبة مقدم في إحدى الوحدات العسكرية في الشمال على الانتحار بعد إن هددته مجندة بالوحدة عنده بأنها ستقدم شكوى ضده على أنه اغتصبها.

ويشير التقرير أن عمليات الإجهاض التي تمت داخل الوحدات خلال العام الماضي بلغت ستة آلاف عملية تمت بموافقة المجندات والضابطات وبعلم قادة الوحدات الذين يفضلون في العادة حفظ التحقيقات في الأسباب التي أدت إلى الحمل ومن ثم الإجهاض في الخدمة العسكرية.

وأوضح التقرير أن عدداً غير محدد من عمليات الإجهاض التي أجريت في الجيش الصهيوني خلال نفس العام بسبب فضائح الاغتصاب لمجندات وضابطات بالخدمة أشار التقرير قيام ضابط برتبة عقيد بمطاردة المجندات اللواتي يخدمن في وحدته مطاردة جنسية خلال الخدمات الليلية إذ أنه اعتاد على وعوده للمجندات بالزواج والكذب عليهن. وقد استغل إحداهن طيلة فترة خدمتها في ممارسة الجنس معها مما أدى إلى صدور قرار بتسريحه من الجيش .

أشار التقرير إلى أن عدد الشكاوى الجنسية في عام 1988 قد بلغ 5600 وارتفع إلى 9600 عام 1994. وبلغت جرائم الجنس والأخلاق في الجيش الصهيوني 16 ألف قضية وشكوى.

إن حالات الاغتصاب في الجيش الصهيوني ليست وحدها حالات الاغتصاب التي تشير إلى الانحلال في التجمع اليهودي إنما هناك آلاف الحالات الأخرى في المدن والقرى والمستوطنات.

على أية حال ليست ظاهرة الاغتصاب جديدة في الحياة اليهودية وإذا عدنا إلى نصوص التوراة كشفت لنا عن عشرات الحالات المشينة للاغتصاب.

فقد لفقت التوراة قصة جماع لوط عليه السلام مع ابنتيه. وذلك في سفر التكوين الإصحاح التاسع عشر من الفقرة 30 ـ 38 .

ثم لفقت التوراة قصة اغتصاب داود عليه السلام لامرأة أوريا الحثي وذلك في سفر صموئيل الثاني الإصحاح الحادي عشر من الفقرة 3 ـ 4.

وأوردت التوراة قصة اغتصاب إمنون ابن داود لأخته من أبيه ثامار وذلك في سفر الملول الثاني الإصحاح 13 : 13ـ 15.

وأوردت التوراة أن رأوبين ابن يعقوب ارتكب جريمة الزنا مع امرأة ابيه التي تسمى بلهة وهي جارية راحيل أخت أمه ليئه وبلهة هذه في مقام أمه باعتبارها امرأة أبيه .

وتورد التوراة أيضاً أن يهودا مارس الجنس مع زوجة ابنه ثامار. وولدت له ولدين وقد ورد ذلك في سفر التكوين في الإصحاح الثامن والثلاثين.

وقد جاء في التلمود أن من يحلم أنه ارتكب الفحشاء مع أمه يمكنه أن يصير حكيماً لأنه جاء في سفر الأمثال (دعوت الحكمة أماً).

ومن يحلم أنه ارتكب الفحشاء مع خطيبته له أمل في الحصول على صداقة الشريعة ومن يحلم أنه ارتكب الفحشاء مع شقيقته له أمل كبير بإنارة نفسه.

ومن يحلم أنه ارتكب الفحشاء مع امرأة قريبه يحصل على السعادة الخالدة.

والأمثلة كثيرة في التوراة ويفسرها التلمود على أساس أنها قواعد يمكن الاستناد إليها. وتورد التوراة أن أبشالوم ابن داود طمع في ملك أبيه واستطاع أن يجمع حوله رجالاً من بني إسرائيل بعد أن عمل جهده لإساءة صورة أبيه. أمام

من جاء ليحتكم منهم إلى أبيه واستشار أختيوفل فيما يفعلـه لتنفيذ مـا يريـد: تقول التوراة:

(وقال أبشالوم لأختيوفل أعطوا مشورة ماذا نفعل فقال أختيوفل لأبشالوم ادخل إلى سراري أبيك اللواتي تركهن لحفظ البيت فيسمع كل إسرائيل أنك قد صرت مكروها من أبيك فتشدد أيدي جميع الذين معك فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح ودخل أبشالوم على سراري أبيه أمام جميع إسرائيل وكانت مشورة أختيوفل التي كان يشير بها في تلـك الأيـام كمـن يسـأل بكـلام الله هكـذا كـل مشورة أختيوفل على داود وعلى أبشالوم جميعاً) صموئيـل الثـاني 16: 20 ـ 23 وأبشالوم هذا هو أخو ثامار التي اغتصبها أخوه من أبيه أمنون بمشـورة الرجـل الحكيم يوناداب .

7 ـ صورة من الشذوذ الجنسي والجرائم الجنسية في التجمع اليهودي

لقد عرفنا أن هناك جرائم جنسية في مؤسسة الجيش الصهيوني بالدرجة الأولى وعرفنـا أن هنـاك اعتـداءات جنسـية مستمرة في الواقـع اليـهودي وأن السلطات لا تعير للمرأة أي اهتمام أو احترام. غير أننا باعتبارنا نحاول مقارنـة عبادات اليهود ومعاملاتهم بـين التـوراة والقـرآن الكريـم. وباعتبـار أن الكهنـة والأحبار يمثلون قمة الهرم الديـني فإننـا سـنتعرض في هـذه الصفحـات لبعـض الوقائع الحقيقية عن الشذوذ الجنسي الأفدح في التجمع اليهودي وهذا الشـذوذ يمارسه حاخامات ورجال ديـن يـهود إضافـة لبعـض الشـواهد الـتي تشـير إلى الشذوذ الجنسي بين أم وابنها وأب وابنته وغير ذلك من الصور .

ففي 17 / 3 / 1998 تناولت إحدى وسائل الأعلام حادثـة دون أن تذكـر الأسماء الصريحة التي نفذتها.

فالقصة تتناول عائلة يهودية تعيش في الكيان الصهيوني مكونة من أب وأم وثلاثة أطفال أكبرهم في الثانية عشرة من عمره. ومنذ أن كان الطفل الأكبر في الخامسة من عمره كان الأب يجبر زوجته على اللعب مع الطفل في الأماكن الحساسة من جسمه (الجهاز التناسلي الذكري) ومع نمو هذا الطفل وصل الأمر إلى حد إقامة علاقة جنسية كاملة مع أمه. وذكرت الصحيفة الصهيونية التي نقلت الخبر أنه قبل عامين توجهت الأم مع ابنها إلى مركز الشرطة وكشفت عن هذه القضية. بعد تردد وتخبط قررت النيابة العامة تقديم مذكرتي اتهام الأولى ضد الأب الذي أجبر زوجته على إقامة علاقة جنسية مع الابن والثانية ضد الأم التي لم تمنع حدوث ذلك. وقالت الصحيفة أن المحكمة اللوائية أدانت الأم بجريمة إقامة علاقة جنسية مع ابنها على مدة سبع سنوات متتالية وقبل ذلك حكمت المحكمة على الأب بالسجن ست سنوات ونصف لارتكابه جريمة أفعال شائنة مع ابنه وإجبار زوجته على إقامة علاقة جنسية مع الابن. وحادثة أخرى نقلت تفاصيلها صحيفة صهيونية بتاريخ 1/3/ 1998. تقول الحادثة إن فتاة تبلغ الآن الثانية والعشرين من عمرها تطالب والدها بعشرة ملايين (شيكل) لأنه كان يغتصبها منذ أن كانت في الخامسة من عمرها. وقالت الفتاة للمحكمة أن والدي اعتاد على عمل حمام في (البانيو) وكان يجلسني في حضنه وفي الليل كان يدخل إلى غرفتي ويقيم معي علاقة جنسية كاملة.

أما داخل المجتمع الديني الذي يقوده الحاخامات فقد حدثت قصص مرعبة أكثر مما سبق. فقد أوردت صحيفة صهيونية صدرت في منتصف شهر 3 من العام 1998 خبراً طويلاً تقول فيه: إن الشرطة أنهت التحقيق الذي بدأت فيه ضد الحاخام (زئيف كوبلوفيتش) ونقلت استنتاجاتها إلى النيابة العامة مع توصية بمحاكمة الحاخام المذكور. وقالت الصحيفة أن الحاخام زئيف والتي تعني بالعبرية الذئب رئيس المدرسة الدينية المسماة بالدرب المنير في القدس متهم بممارسة اللواط مع ما يقرب من عشرين طالبا من طلابه. وأنه يرفض

الاعتراف بما نسب إليه على الرغم من ذلك إذ قالت: أن الشرطة تنوي التحقيق مع حاخامين آخرين هما الحاخام إبراهام شابيرا والحاخام حاييم دوركمان وهما من حزب المفدال الصهيوني لأنهما كانا على علم بأفعال الحاخام زئيف لكنهما لم يفعلا شيئا ولم يبلغا الشرطة.

والغريب في الأمر أن القضية كشفت بعد أن علم أولياء أحد الطلاب بالأمر فقدموا شكوى للشرطة التي فوجئت بأنه ليس الطالب الوحيد الذي يتعرض لممارسات الإكراه على اللواط من قبل الحاخام. ولدى سؤال الطلاب الآخرين عن عدم تقديمهم شكاوى بحق الحاخام قالوا إن معلمينا الحاخامات يقولون لنا دائما إن تقديم الشكوى للشرطة أو لغيرها من المؤسسات الدينية الأخرى يعتبر خروجا على طاعة الله. فالشكوى يجب أن تقدم للحاخامات فقط الذين يعملون على تنفيذ أوامر الرب.

وفي قصة أخرى تقول بعد أن نشرت تفاصيلها جريدة صهيونية: إنه أدين ابن الحاخام البالغ من العمر 40 عاما في المحكمة اللوائية في تل الربيع باغتصاب ابنة أخيه وممارسة اللواط معها على مدة عدة سنوات منذ أن كانت في الثامنة من عمرها لكن القوانين الدينية الصارمة التي يعيشها أبناء (بني براك) جعلتها تصمت اثني عشر عاماً. لكنها تحدثت أخيراً وفضحت ما يجري داخل هذا العالم المتزمت ونشرت الصحف الصهيونية الصادرة بتاريخ 12/3/ 1998 تفاصيل واسعة عن المحكمة كما أن وسائل الإعلام المرئية تحدثت عنها مساء 22/3/ 1998 وقد امتنعت بعض الوسائل الصهيونية الإعلامية عن ذكر الأسماء وأي سمة يمكن من خلالها معرفة الأشخاص المتورطين. وخاصة أن القضية تتحدث عن حاخام كبير وعن ابن حاخام كبير من حي معروف بتشدده الديني وبخاصيته التي لا تجرؤ وسائل الإعلام على الخوض فيها خشية الانتقام. وإليكم القصة بتفاصيلها.

عندما انفصل والدها بالطلاق كانت لا تزال في الثامنة من عمرها. انتقلت من منزل إلى آخر مع أختيها الأصغر منها. لتعيش عند عائلات مختلفة كانت تستقبلها كنوع من الإحسان والصدقة... وأخيراً حط بها الرحال عند جدها وهو حاخام ذو مكانة رفيعة داخل الحي اليهودي المغلق المسمى (بني براك) الذي يقيم عتاة اليهود المتزمتين فيه.

كانت تعيش عند جدها الحاخام. أما أختاها الأصغر منها فقد انتقلتا للعيش عند عمهما. ابن الحاخام الكبير الرفيع المكانة بين أبناء طائفته...

وفي كل أسبوع كانت عمتها ابنة الحاخام ترسلها إلى منزل عمها لإيصال كعكة من الحلوى وبعد أن تعطيه الحلوى. كان يقبلها ويربت على كتفيها كما يفعل أي عم مع ابنة أخيه... فماذا لو كان العم ابن الحاخام الكبير تربى على نهج معين وداخل أسرة متشددة من الناحية الدينية.

كان الأمر يتكرر كل أسبوع. وكان العم الرؤوف يزيد من حرارة قبلاته لابنة أخيه وذات مرة احتضنها. بدأ بخلع ملابسها ويلمس الأجزاء الحساسة من جسدها. وهي لا تدري ولا تدرك ما يفعله عمها معها.

ظل العم يكرر أفعاله المخجلة كل أسبوع لا حظ أن الطفلة لم تعد طفلة. وأن مفاتنها قد ظهرت. ألقى بالكعكة على الأرض وألقى بالفتاة على الطاولة التي يجلس عليها والده الحاخام. خلع ملابسها ثم أغتصبها. هكذا ودون أن يذكر ولو للحظة واحدة. أنها ابنة أخيه ومن لحمه ودمه...

احتارت الفتاة فيما تفعله، هل تشتكي لِجدها الحاخام أم لعمتها. وهل سيصدقها أي منهما خاصة وأن المعتدي عليها هو عمها.. صمتت الفتاة لكن الكوابيس لم تصمت، إذ كانت تأتيها كل ليلة فتنفجر دموعها بصمت دون أن يراها أحد..

اغتصب العم ابنة أخيه بشكل فعلي للمرة الأولى عندما كانت في الثالثة عشر من عمرها وقررت أن تخبر جدها لعله يضع حدا لعمها توجهت الفتاة إلى غرفة جدها. فتبعها عمها وقفت أمامه وقالت: (جدي... منذ أن كنت في الثامنة وابنك ينام فوقي ويضاجعني) نظر الحاخام إلى ابنه وصرخ عليه قائلاً: (أيها الفاسق. أيها الزنديق..) ولم ينظر إلى حفيدته ولم يقل لها أية كلمة... التفت العم إلى ابنة أخيه وانهال عليها بالضرب والركل أمام جدها... ولم يعارضه أحد ولم يفعل الحاخام شيئاً حتى يتوقف الابن عن ضرب ابنة أخيه.

أدركت الفتاة أن جدها وجدتها وعمتها لن يفعلوا شيئاً من أجلها، لذلك قررت أن تصمت وأن لا تقول أية كلمة لأحد، ولكن عمها لم يصمت، فقد عاد إلى اغتصابها. حتى بعد أن تزوج، إذ أنه كان يغتصبها مرة أو مرتين في الأسبوع .

أدركت الفتاة أن أمورها لن تكون على ما يرام طالما بقيت في بيت جدها لذلك قررت الهرب وانتقلت إلى بيت آخر... وهناك زارها رجال الحاخام وحاولوا اختطافها وإعادتها إلى منزل الحاخام حتى لا تقابل أحدًا ولا تتحدث لأحد عما فعله ابن الحاخام. بعد محاولة الاختطاف توجهت الفتاة إلى مركز الشرطة في القدس، قضت الليل بكامله و هي تحاول أن تدخل إلى مركز الشرطة لكنها تتراجع في اللحظة الآخرة، فقد كانت تعلم أن لجدها الحاخام معارف كثيرة يستطيع من خلالهم أن يبرئ ساحة ابنه وأن يدينها وهي الضحية...

جاءت عمتها إليها وأقنعتها بأن لا تقدم شكوى للشرطة ضد عمها، وأن تترك حل القضية لحاخامات الطائفة... و لكن بعد عدة شهور اكتشفت الفتاة أنها ليست الوحيدة التي تعاني من ممارسات عمها، فقد لاحظت في أحد الأيام أن أختها الأصغر تمر بحالة نفسية كتلك التي كانت تمر بها كل ما اغتصبها عمها... سألت أختها عما بها فعلمت أن عمها اغتصبها أيضاً.

لم تستطع أن تصمت أكثر من ذلك بعد أن اكتشفت أن عمها يفعل مع أخواتها ما كان يفعله معها.. انطلقت إلى جدها الحاخام و قالت له منذرة إياه بشكل قاطع: "إما أن تبعد عمي عن أخواتي و أن ترسله للمعالجة النفسية و إما أن أشتكي للشرطة" و لما لم يفعل الحاخام شيئاً توجهت للشرطة و أخبرتهم بكل ما جرى لها. فتحت الشرطة تحقيقاً بالأمر، وتدخل رجال الحاخام و معارفه حتى لا يتم القبض على ابن الحاخام، لكن الشرطة اعتقلت ابن الحاخام عندما حاول الهرب إلى نيويورك، عاداها أبناء الطائفة في بني أراك وأظهروا لها كل كراهية ممكنة لأنها قدمت شكوى للشرطة العلمانية ولم تقدمها لمحكمة الطائفة... فالحاخامات الكبار يمنعون تقديم أي شكوى للشرطة أو للمحكمة المدنية للنظر في أي قضية مهما كان نوعها لأن الشرطة والمحاكم في نظر هؤلاء تدار من قبل الكفار و لا يجوز لليهودي أن يتعامل معها فاليهودي يجب أن يتعامل فقط مع الحاخامات .. وتقول الفتاة: (لقد قاطعني الجميع في بني براك، ودائماً يقولون لي إن أحداً لن يتزوج منك لأنك اشتكيت للشرطة. ولن يسمحوا لأحد بأن يرتبط معي... قبل يوم واحد من بدء المحاكمة اتصل أحدهم وقال لي إنني إذا تراجعتُ عن اتهاماتي فسوف يعيدونني للطائفة وسيزوجونني أيضاً.

بدأت المحاكمة، وغصت القاعة بالرجال الذين أرسلهم الحاخام، وبالحاخامات الذين جاؤوا للتحدث عن محاسن وفضائل ابن الحاخام قالت الفتاة للمحكمة ـ وهي الآن في العشرين من عمرها ـ: (عندما كنت في الثامنة بدأ عمي باغتصابي، وبقي كذلك حتى بلغت الثامنة عشرة... لا أذكر عدد المرات التي اغتصبت فيها.. كان يقول لي أن هذا ليس اغتصابا. أنه أمر مشروع، بل من الواجب على العم أن يفعل ذلك مع ابنة أخيه. وسأجلب لك فتوى من والدي الحاخام حتى تتأكدي).

عندما رأى الحاخام أن الأمور قد انكشفت وأن الفضيحة أصبحت على الملأ. طلب من أحد المحامين الذين عملوا معه لسنوات طويلة وفي قضايا عديدة أن يعمل على إقناع الفتاة حتى تتراجع عن الشكوى .

جلس المحامي مع الفتاة. وسمع القصة منها وتبين له أنها تقول الصدق، فعاد إلى الحاخام ليعتذر له عن متابعة مهمته. فما كان من الحاخام إلا أن وجه رجاله لنشر الشائعات عن المحامي والفتاة. بأنه داعبها في مكتبه ولمس أماكن حساسة من جسدها.

كلف الحاخام محامياً آخر عن ابنه. من حاشيته وبطانته. ولدى ظهوره أمام المحكمة قال للقضاة إن الفتاة أغرت عمها وسلبته عقله حتى يمارس الجنس معها عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها. أما قبل أن تبلغ هذه السن فلم يحدث أي شيء غير مألوف بينهما، لكن عمها ـ عندما أغوته ـ لم يمارس الجنس معها وإنما لمس فقط الجزء العلوي من جسدها. لكن الفتاة قالت للقضاة إن عمها كان يقبلها من شفتيها ويمسك صدرها ثم يخلع ملابسها ويمارس الجنس معها رغماً عنها.. وقد تم فحص الفتاة بآلة كشف الكذب وتبين أنها تقول الحقيقة.

وفي الثاني والعشرين من آذار (مارس) 1998 حكمت المحكمة على ابن الحاخام بالسجن الفعلي لمدة خمس وثلاثين سنة بعد أن أدانته بالاغتصاب والأعمال الشائنة وممارسة اللواط مع ابنة أخيه على مدى أكثر من ثماني سنوات، وبعد فهذه بعض الصور من مجتمع تزعم وسائل أعلامه بأنه المجتمع الأكثر تطوراً في شرقنا والذي لا تكف تلك الأجهزة نفسها، عن وصف باقي المجتمع الشرقي بالتخلف، لكم أن تتصوروا ! ! .

أما تجارة البغاء والجنس فلها قصة طويلة في التجمعات اليهودية التي يقودها الحاخامات رأس المؤسسة الدينية اليهودية. فرغم الوجود الهائل

للشاذات جنسياً فإن جماعاتهن تشكل عصابات يتزعمها شباب مجرمون ويعتبرون بذلك قوّادين يأخذون المال نتيجة افتراض حمايتهم للمومسات ويروي الكاتب جاك دروجي عن أحدهم يدعى مائير كوهين (قد أصبح بعد مرور سنتين على رأس اثنتي عشرة مومساً كن يلتقطن الزبائن على الرصيف ويدخلن بهن إلى المرقص التي كان كوهين قد أصبح سيدها في وقت قياسي).

وكنتيجة لإيمان الصهيوني بأن الغاية تبرر الواسطة فإن فتيات الصابرا (الجيل الذي ولد في فلسطين) لا تكترث لمارسة الجنس طالما أنها ترفه عن جندي أو طالما أنها تتقاضى أجراً لبيع جسدها وهذا الأجر تعود به إلى المؤسسات الصهيونية التي تحميها السلطة يقول ديروجي (ففيما يخص الصابرا كيف كان يمكن اكتشاف قدرة أجدادهم وآبائهم العظيمة في تحويل ما ليس ثابتاً في الحاضر إلى ثوابت في المستقبل) .

وإذا كان ثمة عدد غير قليل من المومسات والأشرار في ألمانيا الاتحادية وفي غيرها يتكلمون اليوم بصراحة اللغة العبرية ولا يمكننا إن نرى كيف يمكن (لإسرائيل) إن تبقى بعيدة عن الآفات التي ينقلونها ويقعون هم ضحيتها في الوقت نفسه.

وبالطبع فإن المومسات الصهيونيات لا يقتصر وجودهن في الكيان الصهيوني إنما تفسح لهم السلطة للتصدير إلى دول أوربا الغربية وذلك لجلب الأموال اللازمة لتطوير عسكرية الكيان. إن التربية النفسية الصهيونية التي تفتخر بجيل الصابرا ينبع اعتزازها من كون هذا الجيل محارباً يكره العرب ويحقد عليهم ومن ثم لا داعي للقلق على شذوذ الفتيات والشبان طالما أنهم في المحصلة يخدمون الأطماع الصهيونية في التوسع.

وتبدو هذه الظاهرة مهمة بل غاية في الأهمية في الكيان الصهيوني حيث لم تعد الحجج الصهيونية لدى السلطة كافية لتبرير الشذوذ الجنسي. فالأعداد

الهائلة من المومسات ثم الآثار الناجمة عن مثل هذه الظاهرة أخذت الإسرائيليات باستثناء النخبة منهن في لقاء زبائنهن في باحات البنايات وفي البيوت الخربة وعلى أرصفة شارع اللنبي وهايار كوهين تحت مراقبة جيش القوادين وحين يصنف ديروجي المومسات إلى نخبة وغير نخبة فإنه بذلك يكشف عن شخصية بعضهن التي تنتمي إلى الأسر الراقية في المجتمع ويرى أيضا أن الزبائن ينتمون إلى مختلف الطبقات الاجتماعية بما في ذلك النخبة الاجتماعية.

ولا داعي للشك إن هذه النخبة في كلا الجنسين هي من أعلى الطبقات الاجتماعية في الكيان إن في السلطة وكبار الموظفين وإنْ في مؤسسات الدولة.

ولا يخفى على المرء أن هذه الأعداد الهائلة من الشاذات جنسياً لا يمكن ان تستقر في أعمالها دون حماية من السلطة وقد انتشرت دور البغاء في (تل أبيب) بشكل كبير حيث أن حي الفنادق الكبرى في شارع هايار كوهين وفي تل أبيب وحي تل باروخ في الضاحية الغربية وطريق هرتزليا حيث يوجد الكابري كلوب. وكل الطرق الرئيسية في (إسرائيل) تعتبر ميدان عمل الفتيات وحمايتهن).

ولعل تنمية هذه الروح الشاذة لا يمكن ان تأتي من اللاشيء فالتربية العنصرية التي تحاول دوماً خلق جيل متوتر مندفع إلى القتل والحرب تخلق ردة فعل كهذه لما أوردناه سابقاً. إن جيل الصابرا الذي شهد ويشهد الحروب ضد العرب وما يخسره الصهاينة من شباب جعل التجمع الصهيوني في حل من الثقة بـ (إسرائيل) كدولة تحمي الأفراد أو كجنة ليهود الشتات كما يتخيلون لقد كان للصدمات التي تلقاها ذلك الجيل ومقارنتها بالتعاليم التربوية أثر بالغ في الإلتفات نحو الخروج والهجرة المعاكسة أو إلى الانحراف والشذوذ طالما أنه ليس أمل في البقاء إلا في حالة توتر هستيرية ولهذه الأسباب تجد الفتيات

الصهيونيات ملاذاً لهن في البغاء والشذوذ ولعل ذلك كما أوردتُ عائدٌ إلى تلقي تربية فلسفية غربية بكل أحكامها وقيمها.

لقد أصبحت الحالة النفسية لهؤلاء الفتيات أشبه بحالة اغتراب وجودي. فلا معنى للبقاء في ظل نظام منحرف، ولا معنى للحياة نفسها وفق نظرية خيالية خادعة وكاذبة ولا أجدى من التمتع باللذة الجسدية طالما إن اللذة الروحية مفقودة في مجتمع متعطش للدماء ويعيش دوماً حالة من الاستعداد للانقضاض باتجاه الجريمة والدم ولهذا السبب (فإن فتيات ما كادت تخرج من سن الطفولة حتى تبيع جسدها إلى جنود الأمم المتحدة الموجودين في المنطقة مقابل قميص ويظهر إن المؤسسة العسكرية الصهيونية وجدت في انتشار البغاء فرصة لجلب أموال هائلة من العملة الصعبة نتيجة الرشاوى والضرائب ولذلك عمدت إلى تشجيع المومسات للذهاب إلى أوربا ولا سيما ألمانيا الاتحادية فالمارك الألماني والدولار الأمريكي يعودان إلى صندوق الدولة.

وقد انتشرت دور البغاء في فرانكفورت بشكل مريع وشكلت المومسات (الإسرائيليات) نسبة عالية جداً في سوق البغاء يقول ديروجي: (وراء محطة القطار الرئيسية تتوالى بارات الأفلام الإباحية والعلب التي تقدم مشاهد من الحياة تحت أضواء النيون وصراخ المناوبين على البلاط المبلل تجد أيضا فتاة واحدة من كل ثلاث أو أربع فتيات تحمل حول عنقها نجمة داوود وتتحدث العبرية وتبعث رسائل إلى أهلها في (تل أبيب) أو حيفا لتقص عليهم حسنات الازدهار الألماني من البارات إلى محلات الجنس إلى تهريب الهيروويين .

وقد برر المسؤولون الصهاينة وجود هذه الظاهرة بهذه الحدية حينما يقولون (مع إعلان دولة إسرائيل وتدفق مئات ألوف أخرى تفجر الإطار الخلقي الذي كان يحمي الجماعة اليهودية المنتشرة في العالم).

وبالطبع فإن هذا التبرير يصدق على 10 ٪ أما النسبة 90 ٪ من الأسباب تكمن في أن التربية اختلفت لقد تربى اليهود في البلاد الأصلية تربية تختلف عما في (إسرائيل). لقد شحن المربون اليهود أجيالهم الجديدة على حب الذات والأنانية وحب القتل وسفك الدم، ومن ثم جاءت ردات الفعل شذوذاً خلقياً وفكرياً تعصبياً.

وتساهم التربية الصهيونية في خلق الشذوذ والانحراف عن طريق التمييز العنصري في التعليم بمعنى أن اليهود الشرقيين يشكلون أكثر من نصف سكان التجمع الصهيوني وهم لا يتلقون تعليما كغيرهم. وهذا عائد إلى مبدأ اللامساواة في الكيان (في 1976 كان بين المهاجرين الذين يبلغون سن الرابعة عشرة والمولودين في أفريقيا وآسيا نسبة 20.8٪ من الأفراد الذين لم يعرفوا المدرسة في حياتهم.

وقد يرى بعضهم أن التخلف عند السفارديم هو بسبب منشئهم الشرقي (والحقيقية أنه لم يعد بالإمكان توجيه الاتهام بالتقصير والفشل المدرسي إلى بلدان المنشأ هذا علاوة على أن آباء هؤلاء الشرقيين قد أقاموا في (إسرائيل) منذ عشرين أو ثلاثين سنة).

إن فرص التعليم القليلة لدى الشرقيين جعل معظم شبابهم وشابّاتهم يعيشون في فراغ عملي ومن ثم فراغ نفسي يؤدي بالتالي أما إلى التطوع في الجيش كأفراد وليس كضباط يزاولون الحرب والقتل أو ينجرفون وراء الأعمال الشاذة لرفع مستوى حياتهم الاقتصادية وعلى الرغم من ذلك فإنهم يتعرضون لانحراف مسلكي يذوب أمامه العامل الاقتصادي بحيث يصبح الانحراف عادة مكتسبة تترسخ في نفوسهم وقد صنف عالم الجريمة شالوم شوهان نوعية المومسات في الكيان الصهيوني، فهو يوزعهن على النحو التالي 54٪ من المومسات في منطقة تل أبيب هن من أصل شرقي بينهن 42٪ من المغرب وسائر بلدان إفريقيا

الشمالية و8 ـ 11٪ من تركيا والبلقان و 19٪ ولدن في (إسرائيل) و 14.7 هنَّ من أصل أوربي.

وقد برزت شخصيات صهيونية على مستوى الجريمة العالمية لاسيما جريمة ممارسة البغاء وهؤلاء الذين برزوا في أغلبيتهم من السفارديم وهذه اللامساواة تكمن في عالم التربية والتعليم وعالم الاقتصاد والحياة الاجتماعية والسياسة من بين هؤلاء (إيلي بوكلن) ففي شهر آب 1964 وجدت عشيقته التي تبلغ من العمر السادسة عشرة والنصف ميتة في أرض مهملة في عكا وهي عارية تماما. كانت تدعى (شوشانا فليجين) وفي شهر نيسان 1973 استُجوب بوكلن بالنسبة للتهديد بالموت ضد (ابزودور فريدمان) في قضية تتعلق بالمومسات. وحينما تستكمل دائرة اللامساواة في مسألة التربية فإن الجنوح بمختلف مناحيه يصبح طريقاً إلى مزيد من الحقد اللامبرر ضد العرب (في مثل هذا الوضع الاجتماعي المتردي ومع تزايد الإحساس بالإحباط والخيبة واليأس لدى الطبقات الموعزة يصبح اللجوء إلى العنف هو الرد المتوقع بين أوساط الشبيبة) وهنا لابد من الالتفات إلى دور المؤسسة العسكرية الحاكمة في تفشي مثل هذه الظواهر صحيح أن التربية وأصولها لم تمارس على التجمع الصهيوني إلا بشكل يؤدي إلى العنف الموجة ضد العرب فما بالنا حين نجد السلطة نفسها متورطة في خلق شذوذ من هذا النوع؟.

إن المؤسسة الاستيطانية في الكيان الصهيوني لم تكن غافلة عن هذه الأمور لكنها من جانب أخر لا تجد مفرا من السكوت على ذلك طالما أن كثيرا من شخصيات السلطة ينخرطون في أعمال الشذوذ هذه.

ويركز الكاتب (يهوشع سويدل) على أثر التربية اليهودية في عقيدة الفرد إذ أنها تشجعه بعد أن تشحنه بمشاعر العداء التي غالبا ما يكون التعبير عنها بالعنف بقول (إن في إسرائيل من يحبذ مواصلة الحرب ويريد استمرارها) ويمكن

الاستشهاد على ذلك بما جاء في صحيفة للطلبة أصدرتها جماعة الليكود في جامعة حيفا (ينبغي الاستمرار في ضرب العرب دون رحمة). وفي سؤال وجهته صحيفة هاتسوفية للأستاذ (يونا كوهين) عن الجريمة في (إسرائيل) قال (لقد أصبح العنف جزءاً من مكونات حياتهم وأسلوب معيشتهم، وقد أشارت صحيفة معاريف إلى هذا الجانب المعقد في النفس الإسرائيلية بقولها: (إن مجتمعا يؤمن بأن الحق للقوة من شأن العنف فيه أن يبدو في نظر الشباب أفضل رد على جميع المشكلات) وعلى هذا الأساس فإن أكثر المدققين والدارسين للتجمع الصهيوني يدركون أن الشذوذ بشتّى مناحيه أصبح من الطبيعة النفسية والاجتماعية في الكيان الصهيوني. فعن البغاء يقول جاك ديروجي (إن البغاء يعتبر الآن جزءا من الطبيعة الإسرائيلية).

وحين تحاول السلطة الصهيونية دراسة هذه الظواهر فلا تجد بداً من التغطية على أمور كثيرة منها ما يتعلق بتورط مسؤولين كثيرين في ذلك ومنها ما يتعلق باتساعها على مساحات واسعة في بؤر الحياة الاجتماعية في الكيان. وأخيراً لابدّ من الاستجابة لقبول هذه الظاهرة والموافقة على وجودها وانتشارها وذلك ضمن شروط تستفيد منها حالياً.

ولهذا السبب أنشأت وزارة العدل لجنة تحقيق برئاسة السيدة (هواساسين ايتو) وتوصلت اللجنة إلى توصيتين أحداهما:

السماح بممارسة المهنة في شقق أو غرف في الفنادق.

ولو حاول المرء التفتيش في نصوص التشريعات الصهيونية حول مسألة البغاء لتعثر والسبب كون التربية الصهيونية تتخبط في مسألة اللامساواة بين شرقي وغربي من اليهود ثم تورط المسؤولين في ذلك. ثم تغاضي الدولة عن هذه الأعمال كونها تدر أموالا للدخل الإسرائيلي .

إنه لا يوجد نص في التشريع الإسرائيلي يمنع ممارسة أقدم مهنة في العالم ولكن إذا أرادت مومس إن تستقبل عندها زبوناً في الخفاء أو في غرفتها في الفندق تحكم بعقوبة السجن مدة خمس سنوات وعلى العكس من ذلك إذا اصطادت زبوناً علناً في صالة الفندق أو الشارع فهي لا تتعرض سوى للحكم عليها بالسجن ستة أشهر أو بالغرامة المالية الفادحة. وهذا يعني أن السلطة الصهيونية لا تسمح للمومس أن تكسب أجرها وحدها بل تريد أن تفعل ذلك أمام الناس حتى تشارك في الأجر من جراء بيع جسدها.

إن قلب المفاهيم والقيم يصبح عادة متبعة في التجمع الصهيوني. والبغاء الذي يشكل أخطر ظاهرة في المجتمع أي مجتمع يشكل في الكيان الصهيوني ظاهرة من مظاهر النشاط الاقتصادي الذي يدرّ أرباحا طائلة على الخزينة .

لقد ساهم بعض مسؤولي السلطة في حل هذه الظاهرة عن طريق تشجيعها حيث اقترح رئيس بلدية تل أبيب (شلومولاهات) إنشاء مركز للذة في يافا ولهذا السبب ورغم التخبط في وضع الحلول اللازمة والمناسبة لسياسة التربية الصهيونية نجد المومسات الإسرائيليات تتابعن عملهن من إيلات جنوبا إلى كريات شمونة شمالا وبسبب اتساع ظاهرة البغاء فإن الكثير من الإسرائيليين الشباب الذين علمتهم التربية الإسرائيلية الشذوذ والعنف يقومون بأعمال قد لا تحدث في أية منطقة من العالم سوى أمريكا. وقد وجدت الأدلة على أن عمليات الاغتصاب العلنية لا تقل عددا عن عمليات البغاء أو تهريب الهيروييين. ولهذا السبب فقد لجأ الكثيرون من السياح إلى عدم الذهاب لفلسطين المحتلة رغم أن فلسطين بشواطئها وجبالها الساحلية من أجمل مناطق الاصطياف في العالم وعلى ذلك يعلق ديروجي (شواطئ في ناتانيا لا تحصي عمليات الاغتصاب للسائحات لا سيما السكندنافيات منهن).

نعود إلى المسألة برمتها فنرى إن المُثل التي حاول زعماء الصهاينة أن يصنعوا منها فلسفة لتسيير الأفراد في أفكارهم ونفوسهم انقلبت تماماً بعد أن كشف زيفها وخداعها ولم يعد خافياً على أي صهيوني أن هذا التجمع الشاذ في المنطقة ذاهب إلى الزوال لأنه لا يملك أية مقومات لوجوده.

إن الرأي العام (الإسرائيلي) كفَّ منذ زمن عن اعتناق أوهام تتعلق بعصمة زعمائه الخلقية وقد أدرك كثيرون من الصهاينة أن التجمع الصهيوني تجمعٌ آيل للزوال طالما أن الجريمة والبغاء والمخدرات أصبحت من الظواهر التي لا يمكن القضاء عليها في الكيان. وقد توصل بعضهم إلى القول إن الإسرائيلي اللطيف وكذلك إسرائيلي القرن العشرين... الشريف والإنسان اليهودي الجديد والرائد. كل ذلك أصبح في طريق الانقراض إذاً أين هي التربية الصهيونية؟ إنها موجودة فقط لخلق طلاب يؤمنون بالعنف والقتل والحقد ويؤمنون أيضاً بالبغاء والجنس والمخدرات كوسائل ناجحة لخلق ذواتهم.

ويرى الدكتور جرجي كنعان أن التعليم في إسرائيل هو مجرد تعبئة روحية لإعداد الجنود ليوم الحرب يتضمن النهج التاريخي وتاريخ الحركة الصهيونية وتمجيد الجيش اليهودي ودراسة التوراة وكل ما من شأنه أن ينمي في نفوس الناشئة الروح العسكرية وإذا كان الصهاينة في فلسطين المحتلة يؤهلون الأشكناز ليكونوا ضباطا ومسؤولين فإنهم يقذفون السفارديم الشرقيين في الشارع لتحول رجالهم إلى مجرمين وتجار مخدرات ولتتحول فتياتهم إلى مومسات في (إسرائيل) وخارجها.

8 ـ التشريع اليهودي والأطفال غير الشرعيين

في التشريع اليهودي آراء وقوانين حول ما يسمى الأبناء غير الشرعيين أي الذين ولدوا بطريق الزنا. وفي هذا التشريع إعتبارات أخرى في تصنيف ابن

الزنا ففي الشريعة التوراتية إذا طلق رجل زوجته وتزوجت من غيره ثم مات الزوج الثاني وعادت المرأة إلى زوجها الأول فإن أولادهما الجدد هم أولاد غير شرعيين لأنه لا يجوز أن يتزوج الزوج المرأة التي طلقها وتزوجت غيره ثم عادت إليه ويعلق السموأل بن يحي المغربي على هذه المسألة فيقول[1]:

(وهذه كلمة جمع واحدة ممزير وهو اسم لولد الزنا لأن في شرعهم أن الزوج إذا راجع زوجته بعد أن نكحت غيره كان أولادها معدودين من أولاد الزنا فلما كان النسخ مما لا ينطبع فهمه في عقولهم ذهبوا إلى أن هذا الحكم في النكاح من موضوعات عبد الله بن سلام قصد به أن يجعل أولاد المسلمين (ممزريم) بزعمهم ثم أكثر العجب منهم أنهم جعلوا النبي داود عليه السلام ممزير من وجهين وجعلوا منتظرهم (المسيح) ممزير من وجهين وذلك أنهم لا يشكون في أن داود بن بيشاي بن عابد (عوبيد) وأبو هذا عابد يقال له بوعز من سبط يهودا وأمه يقال روث الموآبية من بني موآب منسوب عندهم في نص التوراة في هذه القصة وهي أنه لما أهلك الله قوم لوط لفسادها ونجا بابنتيه فقط قالت ابنتاه أن الأرض خلت ممن يستبقين منه نسلاً فقالت الكبرى للصغرى أن أبانا لشيخ وإنسانٌ لم يبق في الأرض ليأتينا كسبيل البشر فهلمي بنا نسقي أبانا خمراً ونضاجعه لنستبقي من أبينا نسلاً ففعلتا ذلك برغمٍ. وجعلوا ذلك النبي قد شرب الخمر حتى سكر ولم يعرف ابنتيه ثم وطئهما (أي مارس الزنا معهما) فأحبلهما وهو لا يعرفهما فولدت أحدهما ولداً سمته موآب تعني أنه من الأب والثانية سمت ولدها ابن عمي وتعني أنه من الأب أيضاً وذانك الولدان عند اليهود من المزريم ضررة لأنهما من الأب وابنتيه.

أنكروا ذلك لأن التوراة لم تكن منزلة لزمهم ذلك لأن عندهم أن إبراهيم الخليل عليه السلام لما خاف ذلك العصر من أن يقتله المصريون بسبب زوجته

---

(1) السموأل بن يحي المغربي غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود مخطوط ص61.

أخفى نكاحها وقال هي أختي علماً منه بأنه إذا قال ذلك لم يبق للظنون إليها سبيل وهذا دليل على حظر نكاح الأخت كان ذلك الزمان مشروعاً فما ظنك بنكاح البنت الذي لم يجز ولا في زمن آدم عليه السلام وهذه الحكاية منسوبة إلى لوط النبي في التوراة والموجودة بأيدي اليهود فلن يقدروا على فحواها فيلزمهم من ذلك أن الولدين المنسوبين إلى لوط (ممزريم) إذ توليدهما على خلاف المشروع. وإذا كانت روث من ولد موآب وهي جدة داود عليه السلام وجدة مسيحهم المنتظر قد جعلوها جميعاً من نسل الأصل الذي يطعنون فيه.

وقد أوردت التورات أن أحد قادة اليهود القدامى كان ابن زنا ولكنه قادهم في حربهم مع بني عمون.

تقول التوراة (وكان يفتاح الجلعادي جبار بأس وهو ابن امرأة زانية. وجلعاد ولد يفتاح ثم ولدت امرأة جلعاد له بنين فلما كبر بنو المرأة طردوا يفتاح وقالوا له لا ترث في بيت أبينا لأنك ابن امرأة أخرى. فهرب يفتاح من وجه أخوته وأقام في أرض طوب. فاجتمع إلى يفتاح رجال بطالون وكانوا يخرجون معه. وكان بعد أيام أن بني عمون حاربوا إسرائيل. ولما حارب بني عمون إسرائيلُ ذهب شيوخ جلعاد ليأتوا بيفتاح من أرض طوب. فقالوا ليفتاح تعال وكن لنا قائداً فنحارب بني عمون.

فقال يفتاح لشيوخ جلعاد أما بغضتموني أنتم وطردتموني من بيت أبي فلم أتيتم إليّ الآن إذ تضايقتم فقال شيوخ جلعاد ليفتاح لذلك قد رجعنا الآن إليك لتذهب معنا ونحارب بني عمون وتكون لنا رأسا لكل سكان جلعاد. فقال يفتاح لشيوخ جلعاد إذا أرجعتموني لمحاربة بني عمون ودفعهم الرب أمامي فأنا أكون لكم رأسا. فقال شيوخ جلعاد ليفتاح الرب يكون سامعاً بيننا إن كنا لا نفعل هكذا حسب كلامك. فذهب يفتاح مع شيوخ جلعاد وجعله الشعب رئيساً عليهم وقائدا فتكلم يفتاح بجميع كلامه أمام الرب في المصفاة) قضاة 11: 1ـ 11

من هنا نلاحظ أن اليهود وفي سبيل مصالحهم يخترقون التشريع اليهودي التوراتي. علماً أن هذا التشريع يصرح في أمكنة عديدة من التوراة والتلمود أن نسل ابن الزنا يظل نجساً حتى الجيل العاشر لا يتزوج امرأة طاهرة ولا أحد يقترب منه ليتزوج من بناته إلى الجيل العاشر أيضاً. تقول التوراة (لا يدخل ابن زنا في جماعة الرب. حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب) 23 :2.

وقد ذكرت التوراة سابقاً أن يهودا زنى بزوجة ابنه المتوفى وأنجب منها ولدين ولم تشر التوراة إلى أية عقوبة تنفذ بحقها وكذلك لم تشر التوراة إلى مصير الطفلين اللذين ولدتهما ثامار سفاحا من حميها .وطالما أن الغاية تبرر الوسيلة في عقيدة الكهنة والأحبار اليهود فقد أوجدوا كثيراً من الحلول التشريعية لمشكلة أطفال الزنا. وقد ساهموا بشكل كبير في مساعدة المؤسسة الحكومية الصهيونية في رعاية أبناء الزنا وإدخالهم الجيش ليكونوا من أشرس المقاتلين ضد العرب.

وتخفي المؤسسات الصهيونية الأرقام المذهلة لأبناء الزنا والأطفال غير الشرعيين الذين يأتون سفاحاً كل يوم وكل شهر وكل عام.

9 ـ تشريعات يهودية جانبية

من التشريعات اليهودية تشريع الميراث. فالبنت ليس لها من ميراث أبيها أي شيء والذي يرث هو ابن المتوفى الأكبر. وإذا تعدد الذكور فللبكر حظ أثنين من أخوته ولا فرق بين المولود بنكاح صحيح من الأولاد في المواريث ولا يحرم البكر من نصيبه المميز حتى ولو كان من نكاح غير شرعي أما بالنسبة للأنثى فمن لم تبلغ منتهى الثانية عشرة فلها النفقة والتربية حتى تبلغ هذا السن تماماً وليس لها شيء من الميراث بعد ذلك. بينما أقر القرآن الكريم بالنسبة لميراث المرأة أموراً مخالفة للتوراة فقد أنصف المرأة في ذلك. يقول تعالى:

(ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) البقرة الآية 228. ويقول تعالى: (وللرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل أو كثر نصيباً مفروضاً) النساء الآية 7 ومن التشريعات والطقوس عند اليهود الختان. وحسب ما ورد في التوراة أن إبراهيم عليه السلام أمره الله أن يختتن ويختن أبناءه. فختن إسماعيل وهو ابن ثلاثة عشر عاماً وختن جميع أولاده وعبيده ومعاونيه. وقد سار اليهود على هذه العادة. ولكنها لا تنحصر فيهم فالمسلمون يختتنون وقد ورد في دراسة عن المومياء المصرية انهم كانوا يختتنون. وما تزال عادة ختان النساء في مصر موجودة بكثرة.

والختان حسب نص التوراة هو علاقة عهد الدم مع الله حيث اعتبر قطع جزء من لحم الإنسان بمثابة قربان أو رمز يقدم للرب. وفي المعاملات أقرّت التوراة الرهان فتقول: (إذا أقرضت صاحبك قرضاً ما فلا تدخل بيته لكي ترتهن رهناً منه. في الخارج تقف والرجل الذي تقرضه ويخرج إليك الرهن إلى الخارج. وإن كان رجلاً فقيراً فلا تنم في رهنه رد إليه الرهن عند غروب الشمس لكي ينام في ثوبه ويباركك فيكون لك بر لدى الرب إلهك) تثنيه 124: 10 ـ 13.

ولكن كهنة اليهودية حرفوا هذا الكلام بحيث فسروه تفسيراً يتلاءم مع عنصريتهم فيطبقون ذلك على اليهودي الذي لا شكوك في يهوديته ولا يطبقونه مثلاً على يهود الفلاشا. واليهود العرب من اليمن والعراق. إنما هو محصور في يهوديتهم الغربية.

الفصل السابع

اليهود من الخارج

اليهودية وموقفها من غير اليهود

الموقف اليهودي من الخارج هو موقف من غير اليهود إن كانوا مسيحيين أو مسلمين أو كانوا من أي صنف بشري أو من أي أتباع عقيدة أخرى.

لقد حكمت قوانين عدة اليهود من الداخل وحددت علاقاتهم ببعضهم في شتى المعاملات الشرعية والخلقية والسلوكية والمالية وغيرها، وكذلك سنت الشريعة اليهودية قوانين تعلم اليهودي كيف يتعامل مع غيره

ولما كانت اليهودية عقيدة انغلقت ولم تحتمل دخول أحد إليها تقوقعت على ذاتها وفرض الكهنة على أتباعها أحكاما صارمة في التعامل مع الآخرين من البشر. ويبدو أن هذا الانغلاق جعل اليهودي ينظر إلى نفسه وإلى العالم الخارجي نظرات غير إنسانية وغير عالمية. وانعكس ذلك على مجمل العلاقات بين اليهودي والآخرين. ويبدو أن ردة الفعل الإنغلاقية حرفت عقله ونفسه وسلوكه باتجاه عنصري واضح.

وإذا كانت الأحكام التي تحمل في ذاتها إيجابيات إنسانية كوصايا النبي موسى عليه السلام وهي لا تقتل لا تسرق لا تزن. إلى آخر الوصايا العشر فإن أحبار اليهود وكهنتهم لم يرق لهم ذلك ففسروا المسائل جميعا تفسيرات مخالفة لمنطق الإنسان. فقالوا لا تقتل إنما تعني اليهودي ولا يندرج غير اليهودي تحت هذه الوصية وكذلك السرقة والزنى وجميع ما جاءت به التوراة.

وسلوك اليهودي أو اتباع اليهودية مع الآخرين هو سلوك إنحرافي متكامل. فلا يمكن أن تجد سلوكاً محموداً وسلوكاً مكروهاً. وهذا السلوك رصده

القرآن الكريم رصدا كاملا. فلم يترك شاردة أو واردة تتعلق بنفسية اليهودي وسلوكه إلا أوردها ليفضح جرائمهم وتركيبتهم النفسية السيئة.

والعجيب أن عدداً كبيراً من أنبيائهم إن لم نقل كلهم قد انتقدوهم انتقاداً لاذعاً في جميع سلوكياتهم وخاصة بعد السبي البابلي حيث برزت فضائح متكاملة ومتسلسلة على لسان هؤلاء الأنبياء تتناول الشخصية اليهودية وما آلت إليه من فساد وصل حتى النخاع.

فإضافة لانحرافهم عن عقيدة التوحيد فقد سنوا قوانين لقتل الآخرين. لم يحرموا أي قتل مهما كان اتجاهه ومهما كانت صفة الآخر الذي يريدون قتله. رجلا كان أو امرأة شيخا كان أو طفلا. وقد حرموا الربا بينهم ولكنهم أحلوه مع غير اليهود. حُرم عليهم الزنى. ولكن حللوه مع غير اليهوديات واعتبروه واجبا. حرموا السرقة بينهم ولكن حللوها مع الآخرين حتى بات كل شيء محرم محللا لهم طالما كان التعامل مع غير اليهودي.

وعلى ذلك فإننا سنرى فيما يأتي عشرات القوانين التي سنوها لتعليمهم كيفية التعامل مع كل من هو غير يهودي. بدءا من النظرة اليهودية للمخلوق البشري وانتهاء بالتعامل التجاري والاجتماعي والاستعماري المعاصر.

من هو غير اليهودي

حسب العقيدة التوراتية كل من هو غير يهودي فهو غريب ويطلق على الغرباء غوييم في العبرية.

وترى هذه العقيدة أن:

اليهود شعب الله المختار .

وغير اليهود ليسوا بشراً لأنهم ليسوا مخلوقين من قبل الله وإن خلقوا فلأجل خدمة اليهود. اليهودي مقدس وغير اليهودي نجس وحيوان.

الغرباء غلف غير مطهرين فهم أنجاس.

الغرباء وثنيون فتجب إبادتهم وإن لم تحصل الإبادة فيجب معاملتهم بنظرة دونية. وقد شرح التلمود من هو غير اليهودي فجاء بأحكام في غاية العنصرية والانحراف. جاء في التلمود: (إن الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة فإذا ضرب أميٌّ إسرائيليا فكأنه ضرب العزة الإلهية).

يقول الحاخام شنيؤورس: «إن الفرق بين اليهودي وغير اليهودي هو من النوع الذي ينطبق عليه التعبير السائر (لا وجه للشبه)، إذ كيف يمكن البحث عن فرق بين شيئين من مستويين مختلفين. ففي حين يجلس اليهودي في المرتبة العليا وينحدر من الصنف الأسمى تقبع بقية الأمم في الدرك الأسفل وتنحدر من أدنى صنف، وهكذا نرى أنه من العبث البحث عن وجه للشبه بينهما. وحسبما جاء في كتاب الجمارا المقدس فإن الجسد اليهودي يختلف كليا عن أجساد بقية الشعوب وذلك من حيث أكلهم وشربهم وطينتهم... وإن كنا نرى ثمة تشابها في الأجساد فما ذلك إلا من المظهر الخارجي فقط. أما داخلياً فالفرق بينهما كبير إلى حد يجعل الجسد اليهودي لا يمت بأية صلة كانت إلى صنف بقية الأجساد لأبناء الأمم الأخرى. وما يصح على الجسم (المادة) يصح أيضا على النفس (الروح) إذ أن أصل أرواح شعوب العالم هو من طبقات النجاسة الثلاث بينما أصل أرواح بني إسرائيل هو من الروح المقدس ذاتها».

ويقول الدكتور أ. تسفوري في مقدمة كتاب الكوزاري الصادر بتوجيه شعبة التربية التابعة للكنيست الصهيوني والحائز على مصادقة وزارة الثقافة والمعارف في الكيان الصهيوني (وقد منحت التوراة لشعب إسرائيل من دون

العالمين جميعا لأنه صفوة الشعوب بأسرها ولأن بلاده خير بلدان الدنيا قاطبة ولأن لغته أشرف لغة ينطق بها بشر. شعب إسرائيل هو صفوة الشعوب كلها ويرجع ذلك إلى تميز عنصره وتفوق تربيته وجودة مناخ البلاد التي نمى فيها وتطور.

ويستند هذا الكلام إلى قول التوراة: (أنا الرب إلهكم الذي ميزكم عن الشعوب وتكونون لي قديسين لأني قدوس أنا الرب وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي).

وجاء في سفر التثنية : (إنك يا إسرائيل شعب مقدس للرب إلهك إياك اختار الرب إلهك لتكون لي شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب. بل محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم.) التثنية 7: 6 ـ 8.

ويردالقرآن الكريم على هذا الادعاء وهذه العنصرية بقوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) الحجرات: 13.

وفي التلمود تعاليم عنصرية تفوق الوصف: وقد جاء في سنهدرين 2 وصفحة 58 إنه إذا لم يخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض ولما خلقت الأمطار والشمس ولما أمكن باقي المخلوقات أن تعيش. والفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق الموجود بين اليهود وباقي الشعوب[1].

وجاء على قول ميدراس تالبيوت: خلقهم الله في أشكال آدمية لتمجيد إسرائيل إلا أن الآكوم[2]. خلقوا لغاية وحيدة هي لخدمتهم ليل نهار وهم لا يستطيعون التخلص من هذه الخدمة. ومن اللائق أن يقوم على خدمة ابن ملك

---

(1) محمد عبد الله الشرقاوي الكنز المرصود في فضائح التلمود ص 200– 201.

(2) الآكوم ـ الغوييم غير اليهود

إسرائيلي حيوانات بأشكال طبيعية فالحيوانات الكائنة بأشكال إنسانية عليها أن تخدمه)[1].

ويقول الرابي إيدبليس في تعليقه على كيتوبوت: (ناظم الأناشيد الدينية داود النبي يقارن الآكوم بالبهائم النجسة في الغابات)[2].

ويفسر الرابي سيلومو إيارشي (راشي) المحقق اليهودي الشهير لقانون موسى الخاص بتحريم أكل الحيوانات الجريحة. (بل يجب طرحها للأغراب في طرقاتهم أو وفقا لما جاء في سفر الخروج بأنه يجب طرحها للكلاب (لأنه كالكلب). ترى هل يجب أن نفهم كلمة كلب بحرفيتها. على الإطلاق لأن النص في التعبير عن الجثث الميتة يقول: أو يمكنك أن تبيعه لأجنبي هذا ينطبق أكثر فأكثر على أكل الحيوانات الجريحة فهذا مسموح قبل المقارنة فلمَ إذاً يقول الكتاب المقدس أنه يمكن طرحها للكلاب؟ لكي يعلمك أن الكلب محترم أكثر من (النوخري) غير اليهودي.

وجاء في سنهدرين، على لسان توسينوت: الجماع الجنسي "للغوي" هو كالجماع الجنسي للبهيمة. وإن قيمة منيّ الغوي هو كقيمة مني البهيمة.

وفي قوانين الزواج إذا تزوج يهودي بآكوم أي من مسيحية أو من خادمته فالزواج باطل وبشكل مماثل فإنه إذا أقدم الأكوم أو خادمته على الزواج بيهودية فالزواج باطل أيضاً.

وجاء في تلمود أورشليم ص 94 إن النطفة المخلوق منها باقي الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان.

---

(1) محمد عبد الله الشرقاوي الكنز المرصود في فضائح التلمود ص 202.

(2) المصدر السابق ص 202.

وذكر في كتب أخرى أن الكلب أفضل من الأجانب لأنه مصرح لليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب وليس له أن يطعم الأجانب وغير مصرح له أن يعطيهم لحماً بل يعطيه للكلب لأنه أفضل منهم[1].

ويقول الرابي مناحم أيها اليهود إنكم من بني البشر لأن أرواحكم مصدرها روح الله. وأما باقي الأمم فليست كذلك لأن أرواحهم مصدرها الروح النجسة، وكان هذا رأي الحاخام أريل أيضاً لأنه يعتبر الخارجين عن الدين اليهودي خنازير نجسة تسكن الغابات ويلزم المرأة أن تعيد اغتسالها إذا رأت عند خروجها من الحمام شيئاً نجساً كالكلب والحمار أو المجنون أو الأميَّ أو الجمل أو الخنزير أو الحصان)[2].

ويحفل التلمود بمئات الصفحات التي توضح موقف أحبار اليهود وزعمائهم الدينيين من الأمم الأخرى. فعدا عن كون الغرباء حيوانات حسب التلمود فهم نجسون، أيضاً يجب أن يتطهر اليهودي إذا لامسهم .. أكلهم نجس وكذلك شرابهم وكذلك لباسهم وكل أمتعتهم.

وتبين آيات القرآن الكريم سوء انحرافهم النفسي وادعائهم الخيرية على بني البشر حتى وصل بهم الأمر إلى ربط أفضليتهم بمصير البشر بعد الموت.

يقول تعالى: (ويجعلون لله ما يكرهون، وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون) النحل 62.

ويقول تعالى: (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق) المائدة 18.

---

(1) محمد الشرقاوي الكنز المرصود في فضائح التلمود ص 203.

(2) محمد الشرقاوي الكنز المرصود في فضائح التلمود ص 205.

ويقول تعالى: (قــالوا ليــس علينــا في الأميــين ســبيل ويقولـون علــى اللـه الكذب وهم يعلمون) آل عمران الآية 75.

وقال تعالى مبيناً عنصريتهم: (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) البقرة 111.

فهم حسب آيات القرآن الكريم يظنون أن لهم الحسنى ولغيرهم السوء إن كان في الدنيا أو الآخرة والواقع أنهــم مفرطـون في هـذا الإدعـاء لأنـهـم بشـر ولا يميزهم شيء عن غيرهم. بل هم أسوأ بادعائهم هذه العنصرية والتمييز.

ويدعون أنهم أحباء الله وليــس لغـيرهم شــيء مـن هـذه الخاصيــة فكـان جواب الله سبحانه لهم إن كنتم فعلاً أحباء الله فلم يعذبكم بذنوبكم؟.

ووصل بهم الأمر إلى الظن بأنه لن يدخل النعيم سواهم. إن هذه أمنيــاتـهم وليس لديهم أي برهان على ما يدعون.

قوانين الحرب في الشريعة اليهودية

استطاع كتيبة التوراة أن يعكسوا نفسيتهم على تصورات عدوانية شـريرة فسنوا قوانين الحرب والتعامل مع الآخرين الذين يحاربونهم. وقد أتت التـــوراة على تفصيلات حول ذلك، وقد أظهرت كل أصناف الحس العنصري. وحســـب إدعاء التوراة بأنهم فتحوا فلسطين بعد معارك داميــة قتـل فيهــا الآلاف منهـم. فإن قوانين كثيرة سنوّها قد تكون طبقت على أرض الواقع ولكنها هي أكثر مـن ذلك بحيث تجد فيها تصوّراً متكاملاً لكل أساليب القتل والإبادة الجماعية.

وكما رأينا اليهودي من الداخل كيف تعامل واقعياً مـع أخيــه اليهـودي وكيف كان لديه أسلوبان للقتل أسلوب القتل الفردي وأسلوب القتل الجماعي، فإننا سنرى أيضاً تطبيقات لهذا القتل وهذا الإرهاب على المستوى الخارجي.

تقول التوراة: (حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعوب فيها يكون للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها .وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك .هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة قابلتحرمها تحريما الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك لكي لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم) تثنية 20: 10 ـ 17.

من خلال هذا النص الأساسي الذي جاء في التوراة عن التصور اليهودي لقوانين الحرب نستخلص الأمور التالية:

1ـ إن هذه القوانين يضعها من يعرف نفسه قويا بما يحق له محاصرة المدن والشعوب وبنو إسرائيل لم يكونوا طوال تاريخهم من هذا الصنف.

2 ـ وهذه القوانين ليست سوى أمنيات يتمناها بنو إسرائيل وعلى الرغم من ذلك.فإنها تنم عن حس عنصري غريب وشعور إرهابي شنيع.

3 ـ حسب النص فإن الهدف الأساسي لليهود إما الإبادة للشعوب وإما الاستعباد فلا دعوة إلى التوحيد ولا إلى دين أو عقيدة.

4 ـ المدينة التي تصالح اليهود يستعبد سكانها ويسخرون بشرط أن تكون بعيدة جدا عن تخوم اليهود.

5 ـ المدينة التي تحارب بني إسرائيل يجب أن يباد رجالها. وأما نساؤها

وأطفالها فهم غنيمة أعطاها الرب لهم.

6 ـ أما مدن القبائل العربية من كنعانيين وفرزيين ومن شابههم فيجب أن يبادوا رجالا ونساء وأطفالا.

7 ـ ليس في هذه القوانين ما يخص الأسرى فلا أسرى لدى اليهود لأن الإبادة الجماعية هي الأساس.

وقد جاء في التوراة أن هذا القانون طبقه يشوع. وسفر يشوع يحفل بتطبيق هذا القانون خاصة عندما يبدأ ملحمته بمدينة أريحا حيث يبيد كل الرجال والنساء والأطفال والحيوانات كالبقر والحمير وكل ذي نفس. وكذلك يفعل الشيء نفسه في هجومه اللحمي على بقية المدن الفلسطينية مثل مدينة عاي وقرية أربع وحاصور وجبعة وغيرها من المدن.

تقول التوراة: (وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف) يشوع 6:21.

وتقول التوراة: (وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاي...) يشوع 8: 24. وحرب الإبادة كما تدعي التوراة كان (يهوه) قد قررها عندما أعطى أرض كنعان لمختاريه وكلف إسرائيل تنفيذ قراره، فكان دخولهم أرض فلسطين واستيلاؤهم على أجزاء صغيرة منها مصحوبا بمجازر وحشية وأعمال إرهابية.

وتقول التوراة: (وأخذ يشوع مقيدة وحرم ملكها وكل نفس بها لم يُبق شارداً) ثم حارب لبنة وضربها بحد السيف وكل نفس بها لم يُبق شارداً) ثم اجتاز إلى لخيش وضربها بحد السيف وكل نفس بها. ومن عجلون إلى حبرون فحاربوها وضربوها بحد السيف وحرم كل نفس بها ولم يُبق شارداً) ثم رجع يشوع إلى دبير وحاربها. وحرموا كل نفس بها لم يبق شارداً) يشوع الإصحاح

10. وهكذا كانت عبارة مثل حرم كل نفس ولم يبق شاردا بمثابة القرار أو اللازمة في كل نشيد يمجد عملية فتك وإبادة[1]

ومقارنة بأبسط قواعد الحرب في الشريعة الإسلامية نرى أن القرآن الكريم يستند على القاعدة الأساسية وهي عدم الاعتداء. وذلك بشكل مطلق إن كان الاعتداء أيام الحرب والقتل أو كان في الحياة اليومية والإجتماعية.

يقول تعالى: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) البقرة 190.

ويقول تعالى: (وإن جنحوا للسلم فأجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) الأنفال 62. وإذا كانت التوراة قد وصفت حروب يشوع بالملاحم التي لا شفقة فيها ولا رحمة فإن واقع التاريخ الإسلامي يشهد بأروع معاملة عاملها المسلمون للشعوب والأمم. وقد كانت وما زالت قاعدة الإسلام تقوم على أساس نشر الدعوة إلى التوحيد وخلق تعاون إنساني يحترم فيه الناس بعضهم دون أي تفريق بين جنس وجنس ولون ولون. وقد فتح المسلمون الأوائل مدناً وبلاداً كثيرة فما قتلوا طفلاً أو عجوزاً أو امرأة ولا قتلوا أسيراً أو ضعيفاً ولا حيواناً ولا حرقوا مدناً أو قرى. ولا اعتدوا على أحد لأنهم فهموا معنى الجهاد لنشر الدعوة وليس حباً في القتل والإبادة.

وأيام السبي البابلي عندما استطاع اليهود الوصول إلى ملك الفرس وزوجوه اليهودية إستير أقاموا مذابح جماعية ومجازر بحق كل من يبغضهم حسب قول التوراة. وهؤلاء ليسوا رجال حرب بل هم مواطنون عاديون.

تقول التوراة: (فضرب اليهود جميع أعدائهم ضربة سيف وقتل وهلاك وعملوا بمبغضيهم ما أرادوا وقتل اليهود في شوشن القصر وأهلكوا خمس مائة

---

(1) جرجي كنعان. سقوط الامبراطورية الإسرائيلية ص 56 .

رجل) استير9:5 ـ 6.

وتقول (فقالت إستير إن حَسُنَ عند الملك فليعط غدا أيضا لليهود الذين في شوشن أن يعملوا كما في هذا اليوم ويصلبوا بني هامان العشرة على الخشبة. فامر الملك ان يعملوا هكذا وأعطي الأمر في شوشن فصلبوا بني هامان العشرة) استير 9: 13 ـ 14.

وتقول التوراة: (وقتلوا من مبغضيهم خمسة وسبعين ألفا) استير 19: 16.

قوانين الإبادة حسب شريعة التلمود

كما رأينا سابقا كيف تعتبر التوراة والديانة اليهودية قتل اليهودي جريمة كبرى وواحدة من ثلاث جرائم شنيعة (الوثنية والزنا) وتؤمر المحاكم الدينية اليهودية والسلطات المدنية بإنزال العقوبة حتى بم يتجاوز الأحكام العادية للعدالة بحق أي شخص اتهم بقتل يهودي.

أما اليهودي الذي يتسبب بقتل يهودي آخر بطريقة غير مباشرة فإنه مذنب فقط بما تطلق عليه الشريعة التلمودية تسمية خطيئة ضد شرائع السماء لذا يقع عقابه على الله لا على الإنسان. ولكن عندما تكون الضحية من غير اليهود يختلف موقف الشريعة تماما. فاليهودي الذي قتل غير اليهودي مذنب فقط بخطيئة ضد شرائع السماء التي لا تعاقب عليها المحكمة. أما التسبب في موت غير اليهودي بطَريقة غير مباشرة فلا تعتبر خطيئة أبدا.

وإذا وقع القاتل غير اليهودي تحت سلطة التشريعات القضائية اليهودية يجب إعدامه سواء كانت الضحية يهودية أم لا. ولكن إذا لم تكن الضحية يهودية واعتنق القاتل اليهودية فلا يعاقب.

وبما أن مبدأ تحريم قتل غير اليهودي ينطبق فقط على غير اليهود (الذين لسنا في حالة حرب معهم) فقد استخلص العديد من المعلقين الحاخامين

في الماضي النتيجة المنطقية لهم وهي إمكانية قتل جميع غير اليهود المنتمين إلى شعب العدو أو حتى ضرورة قتلهم.

وقد سن الحاخام العسكري أ. أفيدان بعض التشريعات حول قوانين الحرب بقوله: في حالة احتكاك قواتنا بمدنيين خلال الحرب أو خلال مطاردة حامية أو غارة، إذا لم يتوفر دليل بعدم إلحاقهم الأذى بقواتنا هناك إمكانية لقتلهم. أو حتى ضرورة للقيام بذلك حسب الهالاكاه.. بالعدو في زمن الحرب بل تحضّ الهالاكاه على قتل حتى المدنيين الطيبين أي الذين يتظاهرون بذلك[1].

وقد جاء في التلمود: مباح قتل غير اليهودي. القتل أمر واجب عند التمكن من إجرائه.

ومن التناقض الصارخ في العقيدة التلمودية بشأن القتل ما نراه في النصوص التالية. فغير مصرح للكاهن أن يبارك الشعب باليد التي قتل بها شخصا حتى لو حدث القتل خطأ أو ندم الكاهن بعد ذلك.

ولكن الحاخام شار يقول: «إن الكاهن يمكنه أن يبارك الشعب بتلك اليد إذا كان المقتول غير يهودي حتى ولو حصل القتل بقصد وسبق إصرار وينتج من ذلك أن قتل غير اليهودي لا يعد جريمة بل يعد فعلا يرضي الله». وجاء في كتاب (بوليميك) أن لحم الأمميين لحم حمير ونطفتهم نطفة حيوانات غير ناطقة. أما اليهود فقد تطهروا في طور سيناء والأجانب تلازمهم النجاسة لثالث درجة من نسلهم ولهذا أمرنا بإهلاك من كان غير يهودي. ويقول التلمود: (أقتل الصالح من غير اليهود. ومحرم على اليهودي أن ينجي أحداً من باقي الأمم من هلاك أو يخرجه من حفرة يقع فيها لأنه بذلك يكون قد حفظ حياة أحد الوثنيين).

---

(1) إسرائيل شاحاك. الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود ص 134–135 .

وجاء أيضا إذا وقع أحد الوثنيين في حفرة يلزمك أن تسدها بحجر وزاد الحاخام (رش) أنه يلزم عمل الطرق اللازمة لعدم خلاص الوثني المذكور منها.

وقال ميمانود (موسى بن ميمون) الشفقة ممنوعة بالنسبة للوثني فإذا رأيته واقعا في نهر أو مهددا بخطر فيحرم عليك أن تنقذه منه لأن السبعة شعوب الذين كانوا في أرض كنعان المراد قتلهم من اليهود لم يقتلوا عن آخرهم بل هرب بعضهم واختلط بباقي أمم الأرض. ولذلك أيضا قال موسى بن ميمون (ميمانود) إنه يلزم قتل الأجنبي لأنه من المحتمل أن يكون من نسل هؤلاء السبعة شعوب وعلى اليهودي أن يقتل من تمكن من قتله فإذا لم يفعل ذلك يخالف الشرع.

ويرى التلمود أنه إذا قصد اليهودي قتل حيوان فقتل شخصا خطأ أو أراد قتل وثني أو أجنبي فقتل يهوديا فخطيئته مغفورة. ومن العدل أن يقتل اليهودي بيده كل كافر لأن من يسفك دم الكافر يقرب قربانا إلى الله[1].

وقد فسر التلمود وصية لا تقتل بأنها ترتبط بالنهي عن قتل اليهودي فقط فقال ابن ميمون (إنه تعالى نهى عن قتل شخص من بني إسرائيل) وقد جاء في التلمود: أن من يقتل مسيحياً أو أجنبياً أو وثنياً يكافأ بالخلود في الفردوس والجلوس هناك في السراي الرابعة. أما من قتل يهودياً فكأنه قتل العالم أجمع ومن تسبب في خلاص يهودي فكأنما تسبب في خلاص الدنيا بأسرها ولذلك قال موسى بن ميمون (يصفح عن الأمي إذا جدف على الله تعالى أو قتل يهودياً أو زنا بامرأة يهودية ثم صار يهودياً) سنهدرين ص17.

ويقرر التلمود استحقاقات الموت على غير اليهود لأسباب يعيدونها إلى تنزيل قدري من الرب.

---

(1) محمد الشرقاوي. الكنز المرصود في فضائح التلمود ص 221-222.

فيرى شارحو التلمود أنه إذا سرق أولاد نوح (غير اليهود) شيئاً ولو كانت قيمته تافهة جداً فإنهم يستحقون الموت لأنهم قد خالفوا الوصايا التي أوصاهم ا بها. وأما اليهود فمصرح لهم بأن يضروا الأمي لأنه جاء في الوصايا لا تسرق مال القريب وفسر علماء التلمود هذه الوصية بقولهم: إن الأمي ليس بقريب وإن موسى - يكتب في الوصية (لا تسرق مال الأمي) فسلب ماله لا يكون مخالفاً للوصايا.

وذكر في التلمود أيضا: (لا تظلم الشخص الذي تستأجره لعمل ما إذا كان من اخوتك أما الأجنبي فمستثنى من ذلك).

قوانين سرقة غير اليهود

تبيح تفسيرات التلمود سرقة اليهود لغيرهم فالوصية التي جاءت في - التوراة لا تسرق - تع لا تسرق من اليهودي أما ما عداه فمحلل سرقته. ويستند ذلك على فهم خاص للربانيين اليهود بأن الأرض ملك لهم ولهم الحق في التسلط عليها. فالسرقة من الأجانب ليست سرقة عند اليهود بل هي استرداد لأموالهم.

وقال موسى بن ميمون: مفسراً قول التوراة لا تسرق (لا تسرق فإن السرقة غير جائزة من الإنسان.. أي من اليهودي.. وأما الخارجون عن دين اليهود فسرقتهم جائزة).

قوانين الربا والفائدة والدَّين

من المعروف على مدى التاريخ وفي كافة المجتمعات أن اليهود قد اشتهروا بالربا منذ زمن بعيد جداً وقد تحدثت التوراة عن الربا ولكن المدقق في نصوصها يجد قوانين تتعلق باليهود وقوانين أخرى تتعلق بغير اليهود.وكذلك الدَّين فله

قوانين خاصة بين اليهود وقوانين بين اليهود وغيرهم.

جاء في التوراة: (في آخر سبع سنين تعمل إبراء. وهذا هو حكم الإبراء يبرئ كل صاحب دَين يده مما أقرض صاحبه. لا يطالب صاحبه ولا أخاه لأنه قد نودي بإبراء للرب. الأجنبي تطالب وأما ما كان لك عند أخيك فتبرئه يدك منه) تنية15:1 ـ 3.

فالتوراة تدعي أن على بني إسرائيل أن يسامحوا بعضهم بالدَّين بعد سبع سنين مرت عليه أما الأجنبي فعليهم أن يطالبوه.

أما في القرآن الكريم فقد طالب الله سبحانه وتعالى بالإحسان دون تحديد أي الناس الذين يحسن لهم فقال تعالى: (واحسنوا إن الله يحب المحسنين) البقرة 195.

ويقول تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة لا يرهق وجوههم قتر ولا ذله أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) يونس 26.

وتحرم التوراة الربا بين اليهود بينما تحلله مع غيرهم.

ولننظر إلى ظاهر القول في التوراة: (إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي. لا تضعوا عليه الربا. إن ارتهنت ثوب صاحبك فإلى غروب الشمس ترده له لأنه وحده غطاؤه)خروج 22:25 ـ 26.

ويؤكد هذه المقولة سفر التثنية بقوله: (لا تقرض أخاك برباً ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما يقرض برباً. للأجنبي تقرض برباً ولكن لأخيك لا تقرض برباً) تثنية23:19 ـ 20.

وحسب هذا الذي جاء في التوراة فإن الربا محللة بين اليهود وغيرهم من الأمم أما بينهم وبين أنفسهم فقد منعتها التوراة.

ويرى إسرائيل شاحاك أنه (أصبح التمييز المعادي لغير اليهود بهذا الشأن (الربا) نظرياً إلى حد كبير بسبب التخريجات التي تسمح بأخذ الفائدة حتى من مقترض يهودي. ومع ذلك يبقى أن تقديم قرض بلا فائدة ليهودي يعتبر عملاً من أعمال الإحسان .و لكن في حالة المقترض غير اليهودي هناك إلزام بأخذ الفائدة ويتفق العديد من المراجع الحاخامية بما فيها ابن ميمون حول إلزامية استخلاص أكبر قدر ممكن من الفائدة على قرض لغير اليهودي)[1].

وكتب ابن ميمون يقول: أمرنا الله بأخذ الربا من الذمي. والا نقرض شيئاً إلا على هذا الشرط (الربا) وبذا نكون قد ساعدناه .مع انه من الواجب علينا إلحاق الضرر به ولو ساعدناه في هذه الحالة (أخذنا منه الفوائد والربا).

وجاء في التلمود غير مصرح لليهودي أن يقرض الأجنبي إلا بالربا وقرر ذلك أيضا الحاخام (ليفي بن جرسون) ومجموعة من الحاخامات ورغم علم اليهود بأن موسى لم يصرح إلا بالفوائد القانونية المناسبة للأحوال فإنهم حرفوا أقواله وغيروها.

ويستند اليهود في تعاملهم مع غيرهم بالربا على فكرة أن الله لا يحاسبهم إذا عاملوا الأغراب بما يرونه هم. فلهم الحق أن يأخذوا الفوائد منهم.

يقول تعالى واصفاً بني إسرائيل بذلك: (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل. ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) آل عمران75.

---

(1) إسرائيل شاحاك. الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود صفحة 159 – 160.

وقد حرم الإسلام الربا تحريماً قطعياً بين الناس.

يقول تعالى: (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ)البقرة 275.

ويقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين) البقرة 278.

ويعلن الإسلام حربه على الربا بقوله عز وجل: (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون) البقرة 279.

وقد أجمعت الأديان والفلسفات والمذاهب على تحريم الربا حتى التوراة نفسها حرمته ولولا تحريف اليهود لألفاظها لتبين لنا الحق.

فلليهود الحق المطلق في أن يعاملوا الناس بالربا كيفما شاءوا وتلك طريقة خبيثة يسلكونها لاستغلال الأموال والاستيلاء على كنوز العالم[1].

وقد تحدث القرآن الكريم عن ظلم اليهود وما حرم عليهم وصدهم عن سبيل الله وذلك لأسباب كثيرة منها أخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل. يقول تعالى: (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً) النساء 160-161.

وهذه الآيات تشير بوضوح إلى أن الله سبحانه حرم الربا ونهاهم عنه في التوراة ولكنهم حرفوا هذا الحكم واقتصروه على اليهود بين بعضهم بعضا فحسب. وهناك نصوص في التوراة نفسها تدل على تحريم الربا. فجاء في المزمور الخامس: (فضة لا يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة من البريء) مزمور 15 آية 5.

---

(1) محمد ندا: جنايات بني إسرائيل على الدين والمجتمع. دار اللواء ص 246

وجاء في سفر الأمثال (المكنز ماله بالربا والمرابحة فلن يرحم الفقراء بجمعه) أمثال 28: 8.

فعلى الرغم أن ذم الربا جاء بالإطلاق دون تقييد إلا أن أحبار اليهود يصرون على أن المقصود بعدم الربا هو فقط بين اليهود. أما مع غير اليهود فهو محلل مباح.

وبسبب تحليل الربا من قبل اليهود مع غيرهم فقد سيطروا في أزمان مختلفة على الاقتصاد العالمي. وتمسكوا بأن الربا حرام أخذه من اليهودي حلال أخذه من غيره. ومن هنا حولوا العالم إلى عالم ربوي طغى عليه رأس المال طغيانا شديدا. وقد سيطروا أولا على الدول بنظامهم. ثم تحكموا بعد ذلك بكل ما يتعلق بالإنتاج.

ويعمل اليهود طوال حياتهم على نشر الربا في العالم ولا همّ لهم إلاّ الكسب من ذات النقد دون أن يتحملوا تبعة إنتاج صناعي أو زراعي. وما زال الربويون من اليهود وأتباعهم وتلاميذهم يروجون استغلال النقد من غير أي تبعة مالية في الخسارة[1].

موقف الإسلام من الربا

لا نريد أن ندخل في تفاصيل الأمور فيكفينا ما قاله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم من آيات حتى نبين حرمة الربا حرمة قطعية:

يقول تعالى: (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله

---

(1) الشيخ محمد أبو زهرة بحوث في الربا ص 17.

لا يحب كل كفار أثيم. إلى قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللــه وذروا مـا بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من اللـه ورسـوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) سورة البقرة 275– 279.

فالآية صريحة في تحريم مطلق الربا لا فرق بين القليل منه والكثير. يقول تعالى: (وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم مــن زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) الروم الآية 39.

ويقول تعالى: (يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفـة واتقـوا الله لعلكم تفلحـون) آل عمـران 130. وقـال تعـالى: (وذروا مـا بقـي مـن الربـا) البقرة. وهذه الآية في نصها الشرعي حرمة قاطعة بلا تحديد ولا تقييد.

وأصح الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنــه قـال: (الذهـب بالذهب والفضة بالفضة والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثـل سـواء بسـواء فـإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد) رواه مسلم.

وروي عن عمر بن الأحوص عن أبيه قال سمعت رسـول اللـه صلـى اللـه عليه وسـلم يقـول في حجـة الـوداع: (يـا أيهـا النـاس... إن دمـاءكم وأموالكـم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا ألا وإن كل ربا مــن ربـا الجاهلية موضوع لكم رؤوس أموالكـم لا تظلمـون ولا تُظلمـون) رواه ابـن ماجـة. سنن ابن ماجة ج 2 ص 128. وخطاب رسول الله صلى الله عليـه وسـلم موجـه للنـاس جميعـاً ولـم يحـدد فئـة دون فئـة لأن تحريـم الربـا يشـمل العـالم كلـه والإنسانية جمعاء.

قوانين وتعاليم يهودية

يرى الحاخامات أن الغرباء غير اليهــود يكذبـون بـالفطرة أمـا اليهـودي فمعصوم عن الكذب. وعلى هذه القاعدة لا يحق لغير اليهـود الإدلاء بشـهادتهم

أمام المحاكم الحاخامية. وضعهم من هذه الناحية نفس وضع النساء اليهوديات والعبيد والصغار لكنه أسوء في الممارسة.

وفي بعض الحالات تنشأ مشكلة أحياناً عندما تحتاج محكمة حاخامية لمعرفة أمر ما لا يوجد بشأنه شهود سوى من غير اليهود. وأحد الأمثلة الهامة القضايا التي تتعلق بالأرامل: تنال المرأة صفة أرملة حسب الشريعة اليهودية ويصبح بمقدورها الزواج مرة أخرى إذا أثبت شهود عيان وفاة زوجها. لذلك تقبل المحكمة الحاخامية قول يهودي أمامها بأنه سمع من شخص غير يهودي (شاهد عيان) بالوفاة شريطة أن تقتنع بأن غير اليهودي ذكر الأمر بطريقة عابرة وليس رداً على سؤال مباشر. لأن غير اليهودي إذا أجاب إجابة مباشرة على سؤال مباشر ليهودي تكون إجابته كاذبة[1]

ويمنع التلمود بفظاظة تقديم هدية لغير اليهودي لكن مراجع الديانة اليهودية التفت على هذه المسألة لأن من الشائع تبادل الهدايا بين رجال الأعمال. ولذلك وضعت قاعدة فحواها أن اليهودي قد يقدم هدية لأحد معارفه من غير اليهود شريطة ألا يعتبرها هدية بل استثماراً ينتظر أن يدر عليه مردوداً من نوع ما وتمنع الصدقات من قبل اليهود للفقراء من أبناء ديانات أخرى.

ويرى التلمود أنه إذا عثر اليهودي على شيء يحتمل ان يكون صاحبه يهودياً فإنه يحض على بذل جهد كبير لإعادته، وذلك بإعلان العثور عليه على الملأ. خلافاً لذلك يجيز التلمود والمراجع الحاخامية المبكرة لليهودي الذي يعثر على شيء فقده غير اليهودي بالاحتفاظ به لنفسه. بل ويمنعه فعلياً من إعادته لصاحبه.

أما الغش في التجارة فالتوراة تعتبر ممارسة أي نوع من الخداع اليهودي من الكبائر تقول التوراة: (لا ترتكبوا جوراً في القضاء. لا في القياس ولا في الوزن

---

(1) إسرائيل شاحاك. الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود ص 158.

ولا في الكيل. ميزان حق ووزنات حق وإيطة وهين حق تكون لكم) لاوين 19:35 ـ 36.

وجاء في سفر التثنية: (لا يكون لك في كيسك أوزان مختلفة كبيرة وصغيرة. لا يكن لك في بيتك مكاييل مختلفة كبيرة وصغيرة. وزن صحيح وحق يكون لك. ومكيال صحيح وحق يكون لك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك لأن كل من عمل ذلك كلّ من عمل غشاً مكروه لدى الرب إلهك) تثنية 25:13 ـ 16.

فالقاعدة التوراتية ترفض الغش بشكل عام. وهذا ما يتطابق إلى حد ما مع تعاليم القرآن الكريم التي تحض على الأمانة وعدم الغش.

يقول تعالى في الحض على الأمانة: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) النساء 57.

ويقول تعالى: (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه) البقرة 283.

ويقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) الأنفال 27.

ويقول تعالى في الحض على إيفاء الكيل والميزان: (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) الأنعام 152.

(فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم) الأعراف 84.

(وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا) الإسراء 35.

(وأوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا

تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين) الشعراء181 ـ 183.

ولكن أحبار اليهود الذين فهموا نص التوراة على أنه يخص اليهود فحسب سنّوا قوانين تبيح الغش في التجارة مع الأغراب من غير اليهود.

فيرون أنه لايجوز ممارسة الخداع بطريقة مباشرة. ويسمح بالخداع غير المباشر إلا إذا نشأ احتمال أن يتسبب بإثارة العداء لليهود. أو إهانة الديانة اليهودية. والمثال النموذجي: وقوع خطأ في عدّ النقود لحظة البيع. إذا وقع اليهودي في خطأ كهذا فمن الواجب إرشاده أما إذا شوهد غير اليهودي وقد ارتكب نفس الخطأ فلا ينبغي لليهودي تنبيهه لذلك بل يقول له: أنا أعتمد على حسابك. وذلك لتفادي عداوته[1].

ولا يجوز النصب على اليهودي سواء من خلال شراء أو بيع أشياء بسعر غير معقول لكن ذلك لا ينطبق على غير اليهودي لأنه جاء في التوراة: (لايسلب الإنسان شقيقه. وهذا في سفر اللاوين. وإذا نصب غير اليهودي على اليهودي يجب إرغام الأول على تسوية الأمر مع عدم معاقبته بصورة أشد من عقاب اليهودي في حال مشابهة).

ويحظر التلمود على اليهود مشاركتهم في احتفالات شعبية لغير اليهود إلا إذا كان الامتناع يثير العداوة. وفي هذه الحالة لا يسمح إلا بإبداء (أدنى حد ممكن من الابتهاج).

وهناك تعاليم تستهدف منع قيام صداقة إنسانية بين اليهودي وغير اليهودي وبهذا الصدد فهناك مثالان لذلك.

المثال الأول يحظر على اليهودي المتدين شرب أي نبيذ شارك في إعداده غير اليهود بأي طريقة كانت. كما أن النبيذ في زجاجة مفتوحة حتى لو كانت

---

(1) إسرائيل شاحاك. الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود ص 161

من صنع اليهود يصبح محظوراً إذا لمس غير اليهودي الزجاجة أو مر بيده فوقها. وينطبق هذا على المسيحيين جميعاً لكنه أقل تشدداً بشأن المسلمين فإذا لمس المسيحي زجاجة النبيذ ينبغي سكبها على الأرض أما إذا لمسها المسلم فيمكن بيعها أو تقديمها كهدية. وفي الحالتين يحظر على اليهودي شربها. وينطبق أيضاً على الملحدين غير اليهود لكنه لا يطبق على الملحدين اليهود.

مغالاة التلمود في التعامل مع غير اليهود

1 ـ يحرم أي تعامل مع ـ الوثنيين قبل أعيادهم بثلاثة. فعلينا أن لا نعيرهم شيئاً مما قد يفيدهم أو نستعير منهم شيئاً والأمر ذاته ينطبق على حالة النقود بل يحرم دفع أجرة لهم أو أخذ أجرة منهم مع ذلك يؤكد ح. يهودا قائلاً: يحلل أخذ أجرة منهم لأن هذا يتعس من يدفع.

2 ـ يحرم بيع الوثنيين كل الأشياء التالية. أكواز التنوب. التين الأبيض على أغصانه، اللبان. الديك الأبيض لكن ح. يهودا قائلاً: يمكن بيع الديك الأبيض ضمن ديوك أخرى أما إذا بيع وحده فيجب قطع أحد أصابعه لأن الوثنيين لا يقربون حيواناً فقد منه أحد أعضائه. ويمكن بيع كل ما عدا ذلك من أشياء إذا كانت لغاية غير محدودة أما إذا قالوا أنهم يشترونها بهدف العبادة فيجب ألا يبيعهم مع ذلك حرم ح. مئير بيعهم أشجار النخيل الجيدة. قصب السكر وأنواعاً من البلح.

3 ـ يبيح الشرع بيع الماشية الصغيرة (أغنام ـ ماعز الخ) للوثنيين في الأماكن التي تباع فيها عادة أما الأماكن التي لا يعتبر هذا فيها بالأمر العادي فالبيع غير شرعي. يجب ألا تباع لهم الماشية الكبيرة إطلاقاً. لا العجول ولا صغار الحمير سواء أكانت صحيحة أو مكسورة السيقان.

4 - يجب الا تؤجر البيوت للوثنيين في فلسطين بغض النظر عن الحقول. ولكن حتى الأماكن التي يباح فيها التأجير فيجب ان لا يكون ذلك بهدف الإقامة ويجب عدم تأجير الحمام في أي مكان لأنه سمي على أسم صاحبه الذي هو (إسرائيلي) وثمة شك بأنه قد يحميه يوم السبت.

5 - يجب ألا توضع الماشية في خانات الوثنيين لأنه يشك بأنهم قد يضاجعونها وللسبب ذاته يجب أن لا تبقى معهم أنثى بمفردها لأنه يشك بأنهم يتطاولون عليها بالفعل القبيح ولا يجلس معهم ذكر بمفرده لأنه يشك بأنهم قد يسفكون دمه.

6 - يجب أن لا تتعهد ابنة الإسرائيلي وثنياً لأنها تتعهد شخصاً للوثنية لكن يمكن للوثنية أن تتعهد إسرائيلياً. وينطبق الشيء ذاته على مسألة الرضاع فعلى الإسرائيلية أن لا ترضع أبن وثنية بينما يمكن للأخيرة أن ترضع إسرائيلياً إذا كان تحت سيطرة الأولى.

7 - يمكن لواحدنا (اليهودي) الإفادة من خدماتهم (الوثنيون) لعلاج أملاكه الخاصة إنما ليس لعلاج جسده. ومع ذلك يحرم قص الشعر على أيديهم أينما كان. ويؤكد العلماء أنه يمكن لواحدنا أن يفعل ذلك في مكان عام إنما ليس حينما يكونان وحدهما.

8 - يحرم كل ما يخص الوثنيين مما يلي. لكن لا يحرم الفائدة منه. الحليب الذي يحلبه الوثنيون دون حضور إسرائيليين وخبزهم وزيتهم.

9 - لا يسمح باستخدام الجبال والهضاب التي يعبدها الوثنيون إنما ليس الأشياء التي تحضر منها[1].

(1) التلمود البابلي. رسالة عبدة الأوثان ترجمة وتقديم نبيل الفياض .

10 ـ ويمتلئ التلمود بمثل هذه التعاليم حتى يصعب على القارئ حصرها فالتلمود نفسه كبير جداً وكل نص مشنا يفسره الحاخامون في الجمارا وتتكاثر الآراء والأقوال لكهنة اليهود والربانيين. وقد أولوا غير اليهود قوانين كثيرة تبدأ من قوانين القتل ولا تنتهي. وتتداخل هذه القوانين بالحس العنصري الواضح. فكل وثني يعني كل من هو غير يهودي. ويعني كل من هو غريب أو أمي أو غوييم.

المصادر والمراجع

1ـ القرآن الكريم

2ـ صحيح البخاري ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الأزهر. القاهرة 1399 هـ.

3ـ السيوطي. الدر المنثور في التفسير المأثور. دار الكتب العلمية. بيروت لبنان. الطلعة الأولى 1411 هـ. 1990م.

4ـ محمد طه الدرة. تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه. دار الحكمة دمشق. بيروت. الطبعة الأولى 1402 هـ 1982م.

5ـ ابن كثير. البداية والنهاية ـ المجلد 3. دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1415 هـ 1994م.

6ـ عباس العقاد: الله في عقائد الشعوب. دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة 1964م.

7ـ سليمان مظهر. قصة الديانات. دار الوطن العربي بيروت ط أولى عام 1984م.

8ـ د. حسن ظاظا. الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه. الدار الشامية بيروت. دار القلم دمشق الطبعة الثالثة 1416 هـ 1995م.

9ـ عمر لطفي النجار. العقل والإلحاد. مكتبة المبتدأ والخبر الطبعة الأولى دمشق 1997 م.

10ـ د. أحمد سوسة. العرب واليهود في التاريخ. العربي للطباعة والنشر الطبعة السابعة دون تاريخ.

11ـ د. أبو سريع محمد عبد الله الهادي. الربا والقرض في الفقه الإسلامي. دار

الاعتصام القاهرة دون تاريخ ودون دار نشر.

12ـ الجزيري. الفقه على المذاهب الأربعة. دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان. المجلد الخامس والمجلد الأول الطبعة السابعة 1406 هـ 1986 م.

13ـ محمد فارس بركات. الجامع لمواضيع آيات القرآن الكريم دار قتيبة بيروت الطبعة الرابعة 1405 ه ـ 1985 م.

14ـ محمد فارس بركات. المرشد إلى آيات القرآن الكريم وكلماته دار قتيبة بيروت الطبعة الرابعة 1405 ه ـ 1985 م.

15ـ السموأل بن يحيى المغربي. غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود. مكتبة الجهاد الكبرى المنصورة دون تاريخ.

16ـ د. أحمد حجازي السقا. نقد التوراة أسفار موسى الخمسة مكتبة الكليات الأزهرية طبعة مصر مطبعة مورافتلي آذار 1976 م.

17ـ الكتاب المقدس العهد القديم والجديد دمشق الطبعة الثانية 1982م.

18ـ قاموس الكتاب المقدس. منشورات دار الكتاب المقدس دمشق الطبعة السادسة 1984 .

19ـ عباس العقاد. (إبليس) دار الكتاب العربي بيروت دون تاريخ، دون طبعة

20ـ ابن حزم الأندلسي. الفصل بين الملل والأهواء والنحل. دار الجيل بيروت دون تاريخ

21ـ عباس العقاد. إبراهيم أبو الأنبياء. دار الهلال. القاهرة دون تاريخ.

22ـ د. عبد السلام التونجي. الإيمان بالأنبياء والرسل. جمعية الدعوة الإسلامية العالمية. طرابلس ليبيا الطبعة الأولى 1986م.

23ـ ابن كثير. قصص الأنبياء. دار الخير دمشق الطبعة الأولى 1990م. ،

24ـ عبد الوهاب النجار. قصص الأنبياء. دار الخير دمشق الطبعة الأولى 1990م.

25ـ عبد الأحد داود. محمد في الكتاب المقدس. ترجمة فهمي شما الطبعة الأولى

1985م.

26ـ الشهرستاني. الملل والنحل. دار المعرفة بيروت الطبعة الثانية 1975م.

27ـ يوسف نصر الله. الكنز المرصود في قواعد التلمود. دار القلم دمشق الطبعة الأولى 1987م.

28ـ محمد عزة دروزة. بنو إسرائيل في أسفارهم الجزء الأول دو نتاريخ.

29ـ محمد كمال جعفر. الإنسان والأديان قطر الطبعة الأولى 1985 وجامعة القاهرة.

30ـ محمد علي علوبة. فلسطين والضمير الإنساني كتاب الهلال 1965م.

31ـ أبو القاسم الحسيني الموسوي. تنزيه الأنبياء. دار الأضواء بيروت الطبعة الثانية 1989م.

32ـ د. أحمد شلبي. مقارنة الأديان: اليهودية. دار النهضة القاهرة. الطبعة الثامنة 1985م.

33ـ د. أحمد شلبي. مقارنة الأديان: أديان الهند الكبرى. دار النهضة القاهرة. الطبعة الثامنة 1985م.

34ـ غريس هالسل. النبوءة والسياسة. ترجمة محمد السمّاك. جمعية الدعوة الإسلامية العالمية. طرابلس ليبيا الطبعة الأولى 1992م.

35ـ ليوتاكسل. التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير. ترجمة حسان اسحق. الجندي للطباعة والنشر. الطبعة الأولى 1994م.

36ـ سارلز مور الفكر الفلسفي الهندي. ترجمة ندرة اليازجي دون تاريخ، دون طبعة. دون دار للنشر.

37ـ جفري برندر. المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ترجمة امام عبد الفتاح إمام. عالم المعرفة الكويتية الطبعة الأولى 1997م.

38ـ فراس السواح. مغامرة العقل الأولى. دار الكلمة بيروت. الطبعة الثانية

1981م.

39ـ شوقي عبد الحكيم. الفولكلور والأساطير العربيـة. دا رابـن خلـدون بـيروت 1978م.

40ـ ديل ميدكو. اللآلئ. نصوص من الكنعانية. ترجمة مفيد عرنوق. دار النهـار بيروت 1987م.

41ـ م ريجسكي. أنبياء التوراة والنبـوءات التوراتيـة ترجمـة آحـو يوسـف دار الينابيع دمشق الطبعة الأولى 1997م.

42ـ جرجي كنعان. الوثيقة الصهيونية في العهد القديم. بيروت الطبعـة الثانيـة 1982م.

43ـ موسوعة أعلام الفلاسفة. اعداد روني إيلي إلفا و د. جـورج نخـل. ج1 دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 992م.

44ـ فلسفة هيغل. المجلد الثاني فلسفة الروح. ولـتر سـتيس. ترجمـة إمـام عبـد الفتاح إمام دار التنوير بيروت الطبعة الثالثة 1983م.

45ـ إسرائيل شاحاك الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود. ترجمـة حسـن خضر الطبعة الأولى 1994 إفرنجي دار سيناء للنشر القاهرة.

46ـ محمـد نـدى. جنايـات بنـي إسـرائيل علـى الديـن والمجتمـع. دار اللـواء السعودية ـ الرياض. الطبعة الأولى 1984م.

47ـ التلمود البابلي. ترجمة وتقديم نبيل فياض. دار الغدير دمشق الطبعة الأولى 1991م.

48ـ ثروت أنيس الأسيوطي. نظـام الأسـرة بـين الاقتصـاد والديـن. دار الكـاتب العربي القاهرة دون تاريخ، دون طبعة.

49ـ مارلين ستون. عندما كان الرب أنثى. ترجمة حنا عبود دار الأهالي دمشـق الطبعة الأولى 1998.

50ـ جرجي كنعان. سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية دار النهار بيروت الطبعة الأولى 1980م.

51ـ جعفر هادي حسن. اليهود القراؤون صحيفة الحياة كانون 2 1997 م.

52ـ جعفر هادي حسن. المرأة العاغوناة معلقة لا هي متزوجة ولا هي مطلقة. جريدة الحياة 1993/5/31.

53ـ صحيفة يدوعوت أحرونوت الصهيونية تاريخ 1977/7/15 م.

54ـ صحيفة هآرتس الصهيونية تاريخ 1997/7/1 م.

55ـ موريس بوكاي. التوراة والإنجيل والقرآن والعلم. منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية. طبعة خاصّة 1990م.

56ـ حسن الباش. الميثولوجيا الكنعانية والاغتصاب التوراتي. دار الجليل الطبعة الأولى 1986م.

57ـ الثعلبي النيسابوري. قصص الأنبياء دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1985م.

58ـ نديم الجسر. قصة الإيمان. الطبعة الأولى 1961م. دون دار نشر.

59ـ ابن الأثير. الكامل في التاريخ. دار صادر بيروت الطبعة الأولى 1982م.

60ـ عبد الرحمن غنيم. مذكرة البحث عن آدم. دار الجليل دمشق الطبعة الأولى 1992م.

61ـ عبد الرحمن غنيم. سر الأسرار دار الجليل دمشق الطبعة الأولى 1990م.

62جرجي كنعان العنصرية اليهودية. دار النهار بيروت الطبعة الأولى 1986م.

فهرس موضوعات

الجزء الثاني